التدبر والبيان

في

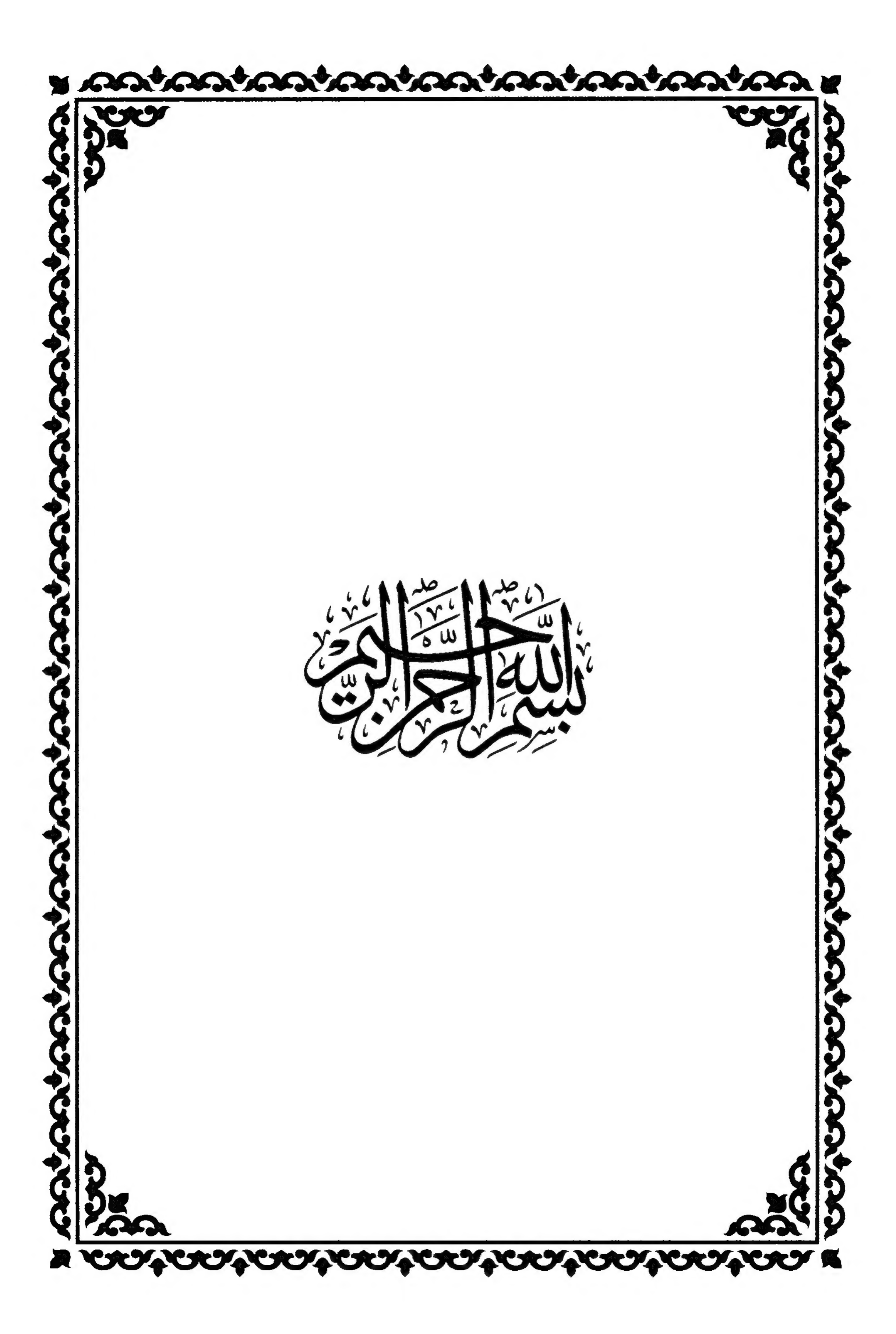
تفسير القرآن بصحيح السنن

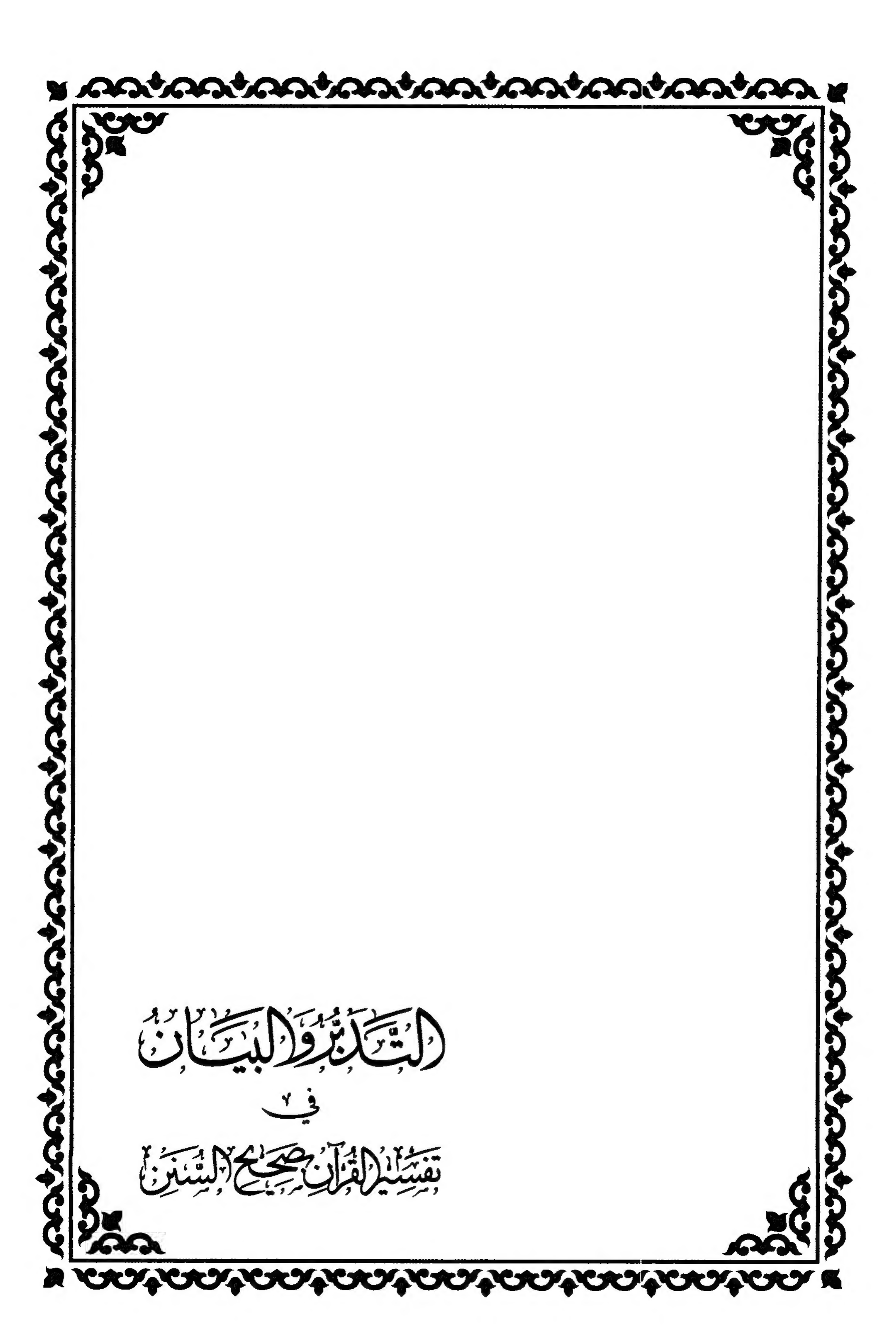
تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد الثاني

البقرة (٧٥ ـ ١٧٦)


بسم الله الرحمن الرحيم



التدبر والبيان

في

تفسير القرآن بصحيح السنن



الطّبعَـة الأولىٰ

١٤٣٥ هـ ـ ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis — التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 (40 مجلداً) عدد الصفحات

Size 17x24 cm قياس الصفحات

Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة

Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنـــان

Edition : 1st الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ ـ ١٤٧ ـ ٣٣ ـ ٩٩٥٤ ـ ٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

★ **غريب الآية:**

أفتطمعون: الطمع: نزوع الشيء إلى الشيء شهوة له. وطمع في كذا طمعًا وطماعية فهو طامع وطمع. ولما كان أكثر الطمع من جهة الهوى قيل: الطمع طبع ثان.

يحرفونه: التحريف إمالة الشيء عن جهته وصرفه، ومنه تحريف الكلم كقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾[1]، وقوله: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾، فقيل: تحريفهم له تبديل لفظ بلفظ آخر يغير معناه. وقيل: بل هو تحريف المعنى دون اللفظ.

عقلوه: عرفوه وعلموه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الذين عنى اللَّه بقوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فقال بعضهم: ثم ذكر بسنده عن السدي وعن ابن زيد قالا: هي التوراة حرفوها.

ثم ذكر بسنده عن الربيع في قوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، فكانوا يسمعون من ذلك كما يسمع أهل النبوة، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون».

---

(١) النساء: الآية (٤٦).

ثم قال: «وأولى التأويلين اللذين ذكرت بالآية، وأشبههما بما دل عليه ظاهر التلاوة، ما قاله الربيع بن أنس، والذي حكاه ابن إسحاق عن بعض أهل العلم: من أن اللَّه -تعالى ذكره- إنما عنى بذلك من سمع كلامه من بني إسرائيل، سماع موسى إياه منه، ثم حرف ذلك وبدل، من بعد سماعه وعلمه به وفهمه إياه. وذلك أن اللَّه -جل ثناؤه- إنما أخبر أن التحريف كان من فريق منهم كانوا يسمعون كلام اللَّه ﷻ، استعظامًا من اللَّه لما كانوا يأتون من البهتان، بعد توكيد الحجة عليهم والبرهان، وإيذانًا منه -تعالى ذكره- عباده المؤمنين، قطع أطماعهم من إيمان بقايا نسلهم بما أتاهم به محمد من الحق والنور والهدى، فقال لهم: كيف تطمعون في تصديق هؤلاء اليهود إياكم، وإنما تخبرونهم -بالذي تخبرونهم من الأنباء عن اللَّه ﷻ- عن غيب لم يشاهدوه ولم يعاينوه، وقد كان بعضهم يسمع من اللَّه كلامه وأمره ونهيه، ثم يبدله ويحرفه ويجحده؟ فهؤلاء الذين بين أظهركم من بقايا نسلهم، أحرى أن يجحدوا ما أتيتموهم به من الحق، وهم لا يسمعونه من اللَّه، وإنما يسمعونه منكم - وأقرب إلى أن يحرفوا ما في كتبهم من صفة نبيكم محمد ﷺ ونعته ويبدلوه، وهم به عالمون، فيجحدوه ويكذبوا - من أوائلهم الذين باشروا كلام اللَّه من اللَّه -جل ثناؤه-، ثم حرفوه من بعد ما عقلوه وعلموه، متعمدين التحريف.

ولو كان تأويل الآية على ما قاله الذين زعموا أنه عنى بقوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، يسمعون التوراة، لم يكن لذكر قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ معنى مفهوم؛ لأن ذلك قد سمعه المحرف منهم وغير المحرف، فخصوص المحرف منهم بأنه كان يسمع كلام اللَّه - إن كان التأويل على ما قاله الذين ذكرنا قولهم - دون غيرهم، ممن كان يسمع ذلك سماعهم، لا معنى له.

فإن ظن ظان أنه إنما صلح أن يقال ذلك لقوله: ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ﴾، فقد أغفل وجه الصواب في ذلك. وذلك أن ذلك لو كان كذلك لقيل: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يحرفون كلام اللَّه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون. ولكنه -جل ثناؤه- أخبر عن خاص من اليهود، كانوا أعطوا -من مباشرتهم سماع كلام الله- ما لم يعطه أحد غير الأنبياء والرسل، ثم بدلوا وحرفوا ما سمعوا من ذلك. فلذلك وصفهم بما وصفهم به، للخصوص الذي كان خص به هؤلاء الفريق الذي ذكرهم في كتابه -تعالى ذكره-.

ويعني بقوله: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾، ثم يبدلون معناه وتأويله ويغيرونه. وأصله من انحراف الشيء عن جهته، وهو ميله عنها إلى غيرها. فكذلك قوله: ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ أي يميلونه عن وجهه ومعناه الذي هو معناه، إلى غيره. فأخبر اللَّه -جل ثناؤه- أنهم فعلوا ما فعلوا من ذلك، على علم منهم بتأويل ما حرفوا، وأنه بخلاف ما حرفوه إليه. فقال: ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾؛ يعني: من بعد ما عقلوا تأويله، ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: يعلمون أنهم في تحريفهم ما حرفوا من ذلك مبطلون كاذبون.

وذلك إخبار من اللَّه -جل ثناؤه- عن إقدامهم على البهت، ومناصبتهم العداوة له ولرسوله موسى ﷺ، وأن بقاياهم من مناصبتهم العداوة لله ولرسوله محمد ﷺ بغيا وحسدا على مثل الذي كان عليه أوائلهم من ذلك في عصر موسى -عليه الصلاة والسلام-»[١].

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾ هذا استفهام فيه معنى الإنكار، كأنه أيأسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود؛ أي: إن كفروا فلهم سابقة في ذلك. والخطاب لأصحاب النبي ﷺ. وذلك أن الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحلف والجوار الذي كان بينهم. وقيل: الخطاب للنبي ﷺ خاصة؛ عن ابن عباس: أي: لا تحزن على تكذيبهم إياك، وأخبره أنهم من أهل السوء الذين مضوا»[٢].

وقال: «﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي: عرفوه وعلموه. وهذا توبيخ لهم؛ أي: إن هؤلاء اليهود قد سلفت لآبائهم أفاعيل سوء وعناد؛ فهؤلاء على ذلك السنن، فكيف تطمعون في إيمانهم!

ودل هذا الكلام أيضًا على أن العالم بالحق المعاند فيه بعيد من الرشد؛ لأنه علم الوعد والوعيد ولم ينهه ذلك عن عناده»[٣].

وقال الشوكاني: «والمراد من التحريف أنهم عمدوا إلى ما سمعوه من التوراة، فجعلوا حلاله حرامًا أو نحو ذلك مما فيه موافقة لأهوائهم كتحريفهم صفة رسول اللَّه ﷺ وإسقاط الحدود عن أشرافهم، أو سمعوا كلام اللَّه لموسى فزادوا فيه ونقصوا،

---

(١) جامع البيان (٢/ ٢٤٥-٢٤٩ تحقيق شاكر).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٣).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٤).

وهذا إخبار عن إصرارهم على الكفر وإنكار على من طمع في إيمانهم وحالهم هذه الحال: أي: ولهم سلف حرفوا كلام اللَّه وغيروا شرائعه وهم مقتدون بهم متبعون سبيلهم. ومعنى قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي: من بعد ما فهموه بعقولهم مع كونهم يعلمون أن ذلك الذي فعلوه تحريف مخالف لما أمرهم اللَّه به من تبليغ شرائعه كما هي، فهم وقعوا في المعصية عالمين بها، وذلك أشد لعقوبتهم وأبين لضلالهم»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «كان النبي ﷺ وأصحابه ﷺ يرون أن أولى الناس بالإيمان وأقربهم منه اليهود لأنهم موحدون ومصدقون بالوحي والبعث في الجملة، ولذلك كانوا يطمعون بدخولهم في الإسلام أفواجًا؛ لأنه مصدق لما معهم في الجملة، ومجل لجميع شبهات الدين، وحال لجميع إشكالاته بالتفصيل، وواضع له على قواعد لا ترهق الناس عسرا ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[٢]. كان هذا الطمع في إيمانهم مبنيًّا على وجه نظري معقول لولا أنهم اكتفوا بجعل الدين رابطة جنسية، ولم يجعلوه هداية روحية، ولذلك كانوا يتصرفون فيه باختلاف المذاهب والآراء، ويحرفون كلمه عن مواضعها بحسب الأهواء، وما أعذر اللَّه المؤمنين في طمعهم هذا إلا بعدما قص عليهم من نبأ بني إسرائيل الذين كانوا على عهد التشريع وشاهدوا الآيات ما علم به أنهم في المجاحدة والمعاندة على عرق راسخ ونحيزة[٣] موروثة لا يكفي في زلزالها كون القرآن مبينًا في نفسه لا يتطرق إليه ريب، ولا يتسرب إليه شك، ولذلك بدأ السورة بوصف الكتاب بهذا وكونه هدى للمتقين من أهل الكتاب وغيرهم. وثنى ببيان أن من الناس من يعانده ويباهته، ومنهم المذبذب الذي يميل مع الريحين، فلا يثبت مع أحد الفريقين، ثم أفاض في شرح حال بني إسرائيل الذين لم يؤمن منهم إلا قليل من أهل العلم والتقوى، وكان الأكثرون أشد الناس استكبارًا عن الإيمان وإيذاء للرسول ولمن اتبعه من المؤمنين. وبعد هذا كله أنكر على المؤمنين ذلك الطمع بدخول اليهود في دين اللَّه أفواجًا، ووصل الإنكار بحجة واقعة ناهضة، تجعل تلك الحجة النظرية داحضة فعلم بهذا أن الكلام لا يزال متصلًا في موضوع الكتاب وأصناف الناس بالنسبة إلى الإيمان به وعدم الإيمان.

---

(١) فتح القدير (١/ ١٥١). (٢) الأعراف: الآية (١٥٧).

(٣) النحيزة: الطبيعة.

كلما بعد العهد جاء ما يذكر به تذكيرًا قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ كان الظاهر أن يكون الخطاب للنبي ﷺ خاصة ولكن خاطب المؤمنين معه لأنهم كانوا يشاركونه في الألم من إيذائهم والطمع بهدايتهم فأشركهم بالتسلية كما سبق، ولأن طمع بعض المؤمنين بإيمانهم كان يحملهم على الانبساط معهم في المعاشرة إلى حد الإفضاء إليهم ببعض الشؤون الملية المحضة واتخاذهم بطانة، وكان يعقب ذلك من الضرر ما يعقب حتى نهاهم اللّٰه تعالى عن اتخاذ البطانة من دون المؤمنين إذا كانوا موصوفين بأوصاف هؤلاء، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[1] والآية الآتية تدل على هذا الإفضاء أيضًا.

أما الحجة التي وصلها بإنكار الطمع بإيمانهم للدلالة على أنه طمع في غير مطمع فهي تعمد تحريف كلام اللّٰه ممن سمعه منهم. وذلك أن موسى اختار بأمر اللّٰه سبعين رجلًا من قومه لسماع الوحي ومشاهدة الحال التي يكلمه اللّٰه تعالى بها وقد سمعوا كلام اللّٰه تعالى على الوجه الذي لا نعرفه، وإنما نعرف أنهم صحبوه إلى حيث كان يناجي اللّٰه تعالى، وكان من شأن اللّٰه تعالى معهم أن صدقوا بأن ما جاء به موسى عليه السلام هو وحي من اللّٰه تعالى. والتصديق بذلك لا يتوقف على معرفة كيفيته وكنهه فإن أكثر ما نصدق به تصديق يقين لا نعرف حقيقته وكنهه ولا كيفية تكوينه وإيجاده. وقد كان من أولئك المختارين أنهم لما رجعوا إلى قومهم حرفوا كلام اللّٰه الذي حضروا وحيه وأذعنوا له بأن صرفوه عن وجهه بالتأويل كما حققه ابن جرير الطبري وغيره وهذا التحريف ثابت عندهم منصوص في التوراة والتاريخ الديني الذي يسمى التاريخ المقدس.

فدل هذا وما سبقه على أن القسوة المانعة من التأثر والتدبر، ومكابرة الحق والتفصي من عقال الشريعة، كان شنشنة قديمة فيهم، ثم تأصل فصار غريزة مطبوعة، فإعراضهم عن القرآن لا يستلزم الطعن عليه، ولا القول بجواز تسلق شيء من الريب إليه، فإنهم قد حرفوا وبدلوا، وعاندوا وجاحدوا، وهم يشاهدون الآيات الحسية، ويؤخذون بالعقوبات المعاشية، فكيف يستنكر بعد هذا أن

---

(١) آل عمران: الآية (١١٨).

يعرضوا عن دين دلائله عقلية، وآيته الكبرى معنوية، وهي القرآن المعجز بما فيه من علوم الهداية، ودقائق البلاغة، وأنباء الغيب على أنه من أمي عاش أربعين سنة لم يؤثر عنه فيها شيء من العلم، ولم يزاحم فحول البلاغة في نثر ولا نظم، وفهم تلك الدلائل إنما يكون من ذوي العقول الحرة والقلوب السليمة، الذين لطف شعورهم، ورق وجدانهم وصحت أذواقهم»[١].

وقال ابن القيم: «فذم ﷻ المحرفين لكتابه، والأميين الذين لا يعلمون منه إلا مجرد التلاوة، وهي الأماني، والذين يكتبون فيكتبون الباطل، ويقولون هذا حق وهو من عند اللَّه، وذم في عدة مواضع الذين يكتمون ما أنزله من الكتاب والبينات والهدى، وهذه الأنواع الأربعة المذمومة موجودة في هؤلاء المعرضين عن نصوص الوحي، المعارضين لها بآرائهم وعقولهم وأهوائهم، فإنهم تارة يكتمون الأحاديث والآيات المخالفة لأقوالهم، ومنهم طوائف تضع أحاديث على وفق مذاهبهم وأهوائهم في الأصول والفروع، ويقولون هذا من عند اللَّه، وتارة يضعون كتبًا بآرائهم وعقولهم وأهوائهم، وتارة يضعون كتبًا بآرائهم وعقولهم، وأذواقهم، وخيالاتهم ويدَّعُونَ أنها الدينُ الذي يجب اتباعه، ويقدمونها على نصوص الوحي»[٢].

* * *

(١) تفسير المنار (١/ ٣٥٤-٣٥٦).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٤٩-١٠٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦)﴾

★ **غريب الآية:**

فتح: حكم. والفتح عند العرب: القضاء والحكم، ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[(١)] أي: الحاكمين. والفتاح: القاضي بلغة اليمن، يقال: بيني وبينك الفتاح؛ قيل ذلك لأنه ينصر المظلوم على الظالم. والفتح: النصر، ومنه قوله: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[(٢)]، وقوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾[(٣)]، ويكون بمعنى الفرق بين الشيئين.

ليحاجوكم: ليعيروكم ويقولون نحن أكرم على اللّه منكم. وقيل المعنى: ليحتجوا عليكم بقولكم، يقولون: كفرتم به بعد أن وقفتم على صدقه. والحجة الكلام المستقيم على الإطلاق، ومن ذلك محجة الطريق. وحاججت فلانًا فحججته أي: غلبته بالحجة، ومنه الحديث: «**فحج آدم موسى**»[(٤)].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «أما قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾، فإنه خبر من اللّه -جل ذكره- عن الذين أيأس أصحاب محمد ﷺ من إيمانهم من يهود بني إسرائيل، الذين كان فريق منهم يسمعون كلام اللّه ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، وهم الذين إذا لقوا الذين آمنوا باللّه ورسوله محمد ﷺ قالوا: آمنا، يعني بذلك أنهم إذا لقوا الذين صدقوا باللّه وبمحمد ﷺ وبما جاء به من عند اللّه، قالوا: آمنا أي:

---

(١) الأعراف: الآية (٨٩). (٢) البقرة: الآية (٨٩).
(٣) الأنفال: الآية (١٩).
(٤) تقدم تخريجه عند قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ الآية.

صدقنا بمحمد وبما صدقتم به، وأقررنا بذلك. أخبر اللَّه ﷻ عنهم أنهم تخلقوا بأخلاق المنافقين، وسلكوا منهاجهم. . . ».

وقال: «يعني بقوله: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: إذا خلا بعض هؤلاء اليهود الذين وصف اللَّه صفتهم إلى بعض منهم، فصاروا في خلاء من الناس غيرهم، وذلك هو الموضع الذي ليس فيه غيرهم قالوا: يعني قال بعضهم لبعض: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «ثم بعد هذا الاحتجاج انتقل إلى بيان بعض أحوال الذين كانوا في زمن التنزيل وقد غير الأسلوب هنا فإنه كان يحكي سيئاتهم مبتدئا بكلمة (وإذ) لأنه تذكير بما كان في الزمان الماضي. والابتداء بكلمة (إذا) هنا هو المناسب في الحكاية عن حال واقعة في الحال، مستمرة في الاستقبال، والمراد من حكاية أحوال الحاضرين، بيان أنها مساوية لأحوال سلفهم الغابرين، وأنه لا يرجى من هؤلاء أفضل مما كان من أولئك. قال: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ترشد هذه الآية إلى طور من أطوار البشر في زمن الإصلاح وهي أن جماهير الناس يقعون في الحيرة بين الهداية الجديدة والتقاليد القديمة. لا ينظرون إلى الحق فيتحروا اتباعه أين كان، ولكنهم يفكرون في منفعتهم الخاصة، يقولون: نخشى أن نجهر بالجديد فيخذل حزبه، ويتفرق شمله، فتكون من الخاسرين. ولا نأمن إن بقينا على القديم أن يتقلص ظله، ويذل أهله، فنكون مع الضالين. فالحزم أن نوافق كل حزب نخلو به ونعتذر إلى الآخر إذا هو علم بما كان منا إلى أن نتبين الفوز في أحد الفريقين: فيكونون هكذا مذبذبين كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ إلخ الضمير في قالوا الثانية غير الضمير في قالوا الأولى كما هو ظاهر من السياق، ولا لبس فيه ولا اشتباه، ومثله مستفيض في كلام البلغاء وفي التنزيل أيضًا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾[2] فإن المنهي عن العضل الأولياء لا المطلقون. والكلام في القرآن للمكلفين كافة فيوجه كل كلام إلى صاحبه

---

(١) جامع البيان (٢/ ٢٤٩-٢٥٠ تحقيق شاكر).

(٢) البقرة: الآية (٢٣٢).

الذي يتعين أن يكون له بقرينة الحال أو المقال. فإذا وجه الخطاب بالطلاق إلى الأزواج لأنه لا يكون إلا منهم فكذلك يوجه الخطاب بالنهي عن العضل وهو منع المرأة من التزوج إلى الأولياء؛ لأنه لا يكون إلا منهم. وعلى هذه الطريقة يتخرج قوله ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ وقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ فالكلام في مجموع اليهود، ويوجه الأول إلى الذين يلاقون المؤمنين. والثاني: إلى الذين يلاقيهم هؤلاء من قومهم ويعذلونهم على الإفضاء إلى المؤمنين بما فتح اللّه عليهم.

المراد بالفتح هنا الإنعام بالشريعة والأحكام، والبشارة بالنبي -عليه الصلاة والسلام-، شبه الذي يعطى الشريعة بالمحصور يفتح عليه فيخرج من الضيق. أو معنى ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ بما تحكم به وأخذ به الميثاق عليكم من الإيمان بالنبي الذي يجيئكم مصدقا لما معكم ونصره. وقوله: ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ﴾ معناه يقيمون به عليكم الحجة من كتاب ربكم وهو التوراة من حيث إن ما تحدثونهم به موافق لما في القرآن فلهم أن يقولوا: لولا أن محمدًا نبي لما علم بهذا الذي حكاه عنكم وقد كان مثلنا لا يعرف من أمر الكتاب شيئًا: هذا ما جرى عليه المحققون في تفسير ﴿عِندَ رَبِّكُمۡۚ﴾ وهو أنه بمعنى في كتابه فهو كقوله في أهل الإفك: ﴿فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾[1] أي في حكمه المبين في كتابه»[2].

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، خبر من اللّه -تعالى ذكره- عن اليهود اللائمين إخوانهم على ما أخبروا أصحاب رسول اللّه ﷺ بما فتح اللّه لهم عليهم أنهم قالوا لهم: أفلا تفقهون أيها القوم وتعقلون، أن إخباركم أصحاب النبي ﷺ بما في كتبكم أنه نبي مبعوث، حجة لهم عليكم عند ربكم، يحتجون بها عليكم؟ أي: فلا تفعلوا ذلك، ولا تقولوا لهم مثل ما قلتم، ولا تخبروهم بمثل ما أخبرتموهم به من ذلك. فقال --جل ثناؤه-: ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾»[3].

* * *

---

(١) النور: الآية (١٣).

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٥٦-٣٥٨).

(٣) جامع البيان (٢/ ٢٥٥-٢٥٦ تحقيق شاكر).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله -جل ثناؤه-: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، أو لا يعلم هؤلاء اللائمون من اليهود إخوانهم من أهل ملتهم، على كونهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وعلى إخبارهم المؤمنين بما في كتبهم من نعت رسول اللَّه ﷺ ومبعثه، القائلون لهم: أتحدثونهم بما فتح اللَّه عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أن اللَّه عالم بما يسرون، فيخفونه عن المؤمنين في خلائهم من كفرهم، وتلاومهم بينهم على إظهارهم ما أظهروا لرسول اللَّه وللمؤمنين به من الإقرار بمحمد ﷺ، وعلى قيلهم لهم: آمنا، ونهي بعضهم بعضًا أن يخبروا المؤمنين بما فتح اللَّه للمؤمنين عليهم، وقضى لهم عليهم في كتبهم، من حقيقة نبوة محمد ﷺ ونعته ومبعثه وما يعلنون، فيظهرونه لمحمد ﷺ ولأصحابه المؤمنين به إذا لقوهم، من قيلهم لهم: آمنا بمحمد ﷺ وبما جاء به، نفاقًا وخداعًا لله ولرسوله وللمؤمنين»[(١)].

وقال محمد رشيد رضا: «مثل هذه الذبذبة تكون من الأمم في طور الضعف ولاسيما ضعف الإرادة والعلم، ولو كان لأولئك القوم إرادة قوية لثبتوا ظاهرًا على ما يعتقدونه باطلًا ولم يصانعوا مخالفيهم من أهل الملة الأولى أو الملة الآخرة، وقد وبخهم اللَّه تعالى وأنكر عليهم هذا التلون والدهان في الدين ولقاء كل فريق بوجه يظهرون له ما يسرون من أمر الآخر فقال: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يعني: أيقول اللائمون أو المنافقون كلهم ما قالوا، ويكتمون من صفات النبي ﷺ ما كتموا، ويحرفون من كتابهم ما حرفوا، ولا يعلمون أن اللَّه يعلم ما يسرون من كفر وكيد، وما يعلنون من إظهار إيمان وود، فإن كانوا مؤمنين بإحاطة علمه تعالى فلم لا يحفلون باطلاعه على ظواهرهم، وإحاطته بما يجول في أطواء ضمائرهم، وبما يترتب على علمه من خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة»[(٢)].

---

(١) جامع البيان (٢/ ٢٥٦ تحقيق شاكر).

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾

★ **غريب الآية:**

أُمِّيُّونَ: أي: ما لا يقرأ ولا يكتب، واحدهم: أمي، منسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل ولادة أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا القراءة.

أماني: جمع أمنية وهي التلاوة، من تمنى الكتاب؛ أي: قرأ وتلا.

قال كعب بن مالك:

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ ... وَآخِرَهُ لَاقَى حِمَامَ المَقَادِرِ

والأماني: الأحاديث المختلقة المكذوبة ومنه قول عثمان ﷺ: «ما تمنيت منذ أسلمت»؛ أي: ما كذبت. والأماني أيضًا: ما يتمناه الإنسان ويشتهيه وليس له.

يظنون: يكذبون ويحدثون؛ لأنهم لا علم لهم بصحة ما يتلون وإنما هم مقلدون. ويأتي الظن بمعنى اليقين أو الشك أو الكذب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فمعنى الآية: ومنهم من لا يكتب ولا يخط ولا يعلم كتاب اللَّه ولا يدري ما فيه، إلا تخرصًا وتقولًا على اللَّه الباطل، ظنًّا منه أنه محق في تخرصه وتقوله الباطل.

وإنما وصفهم اللَّه -تعالى ذكره- بأنهم في تخرصهم على ظن أنهم محقون وهم مبطلون؛ لأنهم كانوا قد سمعوا من رؤسائهم وأحبارهم أمورا حسبوها من كتاب اللَّه، ولم تكن من كتاب اللَّه، فوصفهم -جل ثناؤه- بأنهم يتركون التصديق بالذي يوقنون به أنه من عند اللَّه مما جاء به محمد ﷺ، ويتبعون ما هم فيه شاكون، وفي حقيقته مرتابون، مما أخبرهم به كبراؤهم ورؤساؤهم وأحبارهم، عنادًا منهم لله

ولرسوله، ومخالفة منهم لأمر اللَّه، واغترارًا منهم بإمهال اللَّه إياهم»[١].

قال محمد رشيد رضا: «ذلك الذي تقدم هو شأن علمائهم: يحرفون كتاب اللَّه ويخرجون من حكمه بالتأويل، وهذا هو شأن عامتهم: لا علم لهم بشيء من الكتاب، ولا معرفة لهم بالأحكام، وما عندهم من الدين فهو أماني يتمنونها وتجول صورها في خيالاتهم، وهذه الصور هي كل ما عندهم من العلم بدينهم، وما هم على بينة منها، وإنما هي ظنون يلهون بها، وهذا هو محل الذم لا مجرد كونهم أميين، فإن الأمي قد يتلقى العلم عن العلماء الثقات ويعقله عنهم بدليله فيكون علمه صحيحا وهؤلاء لم يكونوا كذلك. فإن قيل: لم سمي ما كانوا عليه من الأماني ظنًّا مع أنهم أخذوه عن رؤساء دينهم الموثوق بهم عندهم وسلموه تسليمًا فلم يكن في نفوسهم ما يخالفه ومثل هذا يسمى اعتقادًا وعلمًا؟ نقول إنما العلم بالدليل ولا يسمي مثل ذلك علمًا إلا من لا يعرف معنى العلم. على أنه لم يكن راجحًا ومسلمًا إلا لأن مقابله لم يخطر ببالهم ولو أورد عليهم لتزلزل ما عندهم ثم زال، أو ظهر فيه الشك وتطرق إليه الاحتمال، ويصح أن يقال في مثل هؤلاء أن الظن أو التردد كان نائمًا في نفوسهم وهو عرضة لأن يوقظه نقيضه ويذهب به متى طرأ. ونوم الظن لا يصح أن يسمى اعتقادًا»[٢].

وقال: «ثم إن الآية تدل على بطلان التقليد وعدم الاعتداد بإيمان صاحبه وقد مضى على هذا إجماع الصدر الأول وأهل القرون الثلاثة وإنما كان الجاهل يأخذ عن العالم العقيدة ببرهانها، والأحكام بروايتها، ولا يتقلد رأيه كيفما كان، من غير بينة ولا برهان»[٣].

قلت: ما أشار إليه الشيخ محمد رشيد في قوله في ذم التقليد وأن الصدر الأول كانوا يأخذون العقيدة والشريعة بأحكامها وأدلتها هذا أمر لا إشكال فيه، والذي ينبغي أن يعلم أن المتكلمين ومن صار على دربهم اعتمدوا الأدلة العقلية -على حد تعبيرهم- وهي خيالات وظنيات لا أساس لها من الصحة، والأدلة التي ينبغي أن تعتمد هي أدلة القرآن والسنة، والبراهين العقلية تابعة لها وموضحة لفحواها

(١) جامع البيان (٢/ ٢٦٦ تحقيق شاكر).
(٢) تفسير المنار (١/ ٣٥٨-٣٥٩).
(٣) تفسير المنار (١/ ٣٥٩).

ومعناها، وما سوى ذلك خيال وبطلان وسراب في سراب كما قال تعالى: ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[١]، فالمتكلمون اعتمدوا فكرة الجوهر والعرض في الإثبات والنفي، وبعد اكتشاف علم الذرة أصبحت ضحكة وسخرية، وهذه القاعدة عند المتكلمين هي دينهم في المعتقد، والحمد للّه الذي حفظ القرآن وحفظ السنة على مر الأيام والليالي، فأدلتها ثابتة وواضحة، لا تدفعها النظريات ولا يشك فيها إلا من به خبل في عقله، كالمتكلمين والفلاسفة ومن كان على شاكلتهم.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الأمية

* عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله «**إنا**» أي العرب، وقيل: أراد نفسه. وقوله: «**أمية**» بلفظ النسب إلى الأم فقيل: أراد أمة العرب لأنها لا تكتب، أو منسوب إلى الأمهات، أي أنهم على أصل ولادة أمهم، أو منسوب إلى الأم؛ لأن المرأة هذه صفتها غالبًا، وقيل: منسوبون إلى أم القرى، وقوله: «**لا نكتب ولا نحسب**» تفسير لكونهم كذلك، وقيل للعرب أميون؛ لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة قال اللّه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[٣] ولا يرد على ذلك أنه كان فيهم من يكتب ويحسب لأن الكتابة كانت فيهم قليلة نادرة، والمراد بالحساب هنا حساب النجوم وتسييرها، ولم يكونوا يعرفون من ذلك أيضًا إلا النزر اليسير»[٤].

وقال شيخ الإسلام وهو يعرف الأمي، قال بعد كلام: «والصواب: أنه نسبة إلى الأمة، كما يقال عامي نسبة إلى العامة التي لم تتميز عن العامة بما تمتاز به الخاصة، وكذلك هذا لم يتميز عن الأمة بما يمتاز به الخاصة من الكتابة والقراءة، ويقال:

---

(١) النور: الآية (٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣) والبخاري (٤/ ١٥٩/ ١٩١٣) ومسلم (٢/ ٧٦١/ ١٠٨٠[١٥]) وأبو داود (٢/ ٧٣٩-٧٤٠/ ٢٣١٩) والنسائي (٤/ ٤٤٦/ ٢١٣٩) من طريق سعيد بن عمرو عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) الجمعة: الآية (٢).

(٤) الفتح (٤/ ١٥٩).

الأمي لمن لا يقرأ ولا يكتب كتابًا، ثم يقال لمن ليس لهم كتاب منزل من اللَّه يقرأونه وإن كان قد يكتب ويقرأ ما لم ينزل؛ وبهذا المعنى كان العرب كلهم أميين، فإنه لم يكن عندهم كتاب منزل من اللَّه، قال اللَّه تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ﴾[1] وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[2] وقد كان في العرب كثير ممن يكتب ويقرأ المكتوب، وكلهم أميون، فلما نزل القرآن عليهم لم يبقوا أميين باعتبار أنهم لا يقرأون كتابًا من حفظهم، بل هم يقرأون القرآن من حفظهم، وأناجيلهم في صدورهم، لكن بقوا أميين باعتبار أنهم لا يحتاجون إلى كتابة دينهم، بل قرآنهم محفوظ في قلوبهم، كما في الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعي عن النبي ﷺ أنه قال: «**خلقت عبادي يومَ خلقتُهُم حنفاء -وقال فيه- إني مبتليك ومبتل بك، وأنزلتُ عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظانًا**»[3].

فَأُمَّتُنَا ليست مثل أهل الكتاب الذين لا يحفظون كتبهم في قلوبهم، بل لو عُدِمَتِ المصاحف كُلُّها كان القرآن محفوظًا في قلوب الأمة، وبهذا الاعتبار فالمسلمون أمة أمية بعد نزول القرآن وحفظه. كما في الصحيح عن ابن عمر -رضي اللَّه تعالى عنهما- عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب الشهر هكذا وهكذا**». فلم يقل: إنا لا نقرأ كتابًا، ولا نحفظ، بل قال: لا نكتب ولا نحسب، فديننا لا يحتاج أن يكتب ويحسب، كما عليه أهل الكتاب من أنهم يعلمون مواقيت صومهم وفطرهم بكتاب وحساب، ودينهم معلق بالكتب، لو عدمت لم يعرفوا دينهم، ولهذا يوجد أكثر أهل السنة يحفظون القرآن والحديث أكثر من أهل البدع، وأهل البدع فيهم شبه بأهل الكتاب من بعض الوجوه»[4].

* * *

---

(١) آل عمران: الآية (٢٠). (٢) الجمعة: الآية (٢).

(٣) رواه أحمد (٤/ ١٦٢) ومسلم (٤/ ٢١٩٧-٢١٩٨/ ٢٨٦٥).

(٤) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٣٥-٤٣٦).

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

★ غريب الآية:

وَيْلٌ: الهلاك والدمار، وهي كلمة مشهورة في اللغة، واختلف السلف في المقصود منها، فقال ابن عباس: «ويل: صديد في أصل جهنم». وروي مرفوعًا ولا يصح: (أنه واد في جهنم)، وقال الخليل في معنى ويل: (ويح) و (ويش) و(ويه) و (ويك) و (ويب)، ومنهم من فرق بينهما.

يَكْسِبُونَ: أصل الكسب ما يتحراه الإنسان مما فيه جلب نفع أو دفع ضر، وغلب استعماله في تحصيل الأموال وتوابعها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «توعد تعالى المحرفين للكتاب، الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهذا فيه إظهار الباطل وكتم الحق، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ﴾.

والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل.

فجعلوا باطلهم شركًا يصطادون به ما في أيدي الناس، فظلموهم من وجهين:

من جهة تلبيس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق، بل بأبطل الباطل، وذلك أعظم ممن يأخذها غصبًا وسرقة ونحوهما.

ولهذا توعدهم بهذين الأمرين فقال: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: من التحريف والباطل ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من الأموال.

والويل: شدة العذاب والحسرة، وفي ضمنها الوعيد الشديد.

قال شيخ الإسلام[١] **لما ذكر هذه الآيات من قوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ إلى ﴿يَكْسِبُونَ﴾** : فإن اللَّه ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة، على ما أَصَّلَهُ من البدع الباطلة.

وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، وهو متناول لمن ترك سر تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه.

ومتناول لمن كتب كتابا بيده، مخالفًا لكتاب اللَّه، لينال به دنيا وقال: إنه من عند اللَّه، مثل أن يقول: هذا هو الشرع والدين، وهذا معنى الكتاب والسنة، وهذا معقول السلف والأئمة، وهذا هو أصول الدين، الذي يجب اعتقاده على الأعيان والكفاية.

ومتناول لمن كتم ما عنده من الكتاب والسنة، لئلا يحتج به مخالفه في الحق الذي يقوله.

وهذه الأمور كثيرة جدًّا في أهل الأهواء جملة، كالرافضة، وتفصيلًا مثل كثير من المنتسبين إلى الفقهاء»[٢].

وقال القرطبي: «وفي هذه الآية والتي قبلها التحذيرُ من التبديل والتغيير والزيادةِ في الشرع؛ فكل من بَدَّلَ وغَيَّرَ أو ابتدع في دين اللَّه ما ليس منه ولا يجوز فيه، فهو داخل تحت هذا الوعيد الشديد، والعذابِ الأليمِ؛ وقد حذر رسول اللَّه ﷺ أمته لِمَا قد علِمَ ما يكون في آخر الزمان فقال: «**ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة**»[٣] الحديث... فحذرهم أن يحدثوا من تلقاء أنفسهم في الدين خلافَ كتاب اللَّه أو سنته أو سنة أصحابه فَيُضِلُّوا به الناس؛ وقد وقع ما حذره وشاع، وكَثُرَ وذاع، فإنا لله وإنا إليه راجعون»[٤].

وقال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ بيان لجرمهم وإثبات لمجاهرتهم اللَّه، وفرق بين من كتب وبين من أمر، إذ المتولي للفعل أشد مواقعة ممن لم يتوله،

(١) درء التعارض (١/ ٧٧-٧٨). (٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٠١-١٠٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٨) والبخاري (١١/ ٦١٨/ ٦٦١٤) ومسلم (٤/ ٢٠٤٢-٢٠٤٣/ ٢٦٥٢) وأبو داود (٥/ ٧٦-٧٨/ ٤٧٠٨) والترمذي (٤/ ٣٨٦-٣٨٧/ ٢١٣٤) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٦/ ١١١٨٧) وابن ماجه (١/ ٣٤/ ٨٠) من حديث أبي هريرة.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٩).

وإن كان رأيا له، وقال ابن السراج: هو كناية عن أنه من تلقائهم دون أن ينزل عليهم، وإن لم تكن حقيقة في كتب أيديهم، والذي بدلوا هو صفة النبي ﷺ ليستديموا رياستهم ومكاسبهم، وقال ابن إسحاق: كانت صفته في التوراة أسمر ربعة، فردوه آدم طويلًا، وذكر السدي أنهم كانوا يكتبون كتبًا يبدلون فيها صفة النبي ﷺ ويبيعونها من الأعراب ويبثونها في أتباعهم ويقولون هي من عند اللَّه، وتناسق هذه الآية على التي قبلها يعطي أن هذا الكَتْبَ والتبديل إنما هو للأتباع الأميين الذين لا يعلمون إلا ما قرئ لهم»[١].

قلت: هذه الآية ستبقى حجة قائمة منذ نزولها إلى أن تقوم الساعة، على من يكتبون الكتاب بأيديهم، فيزينون للناس الباطل ويتقفرون الحجج من ههنا وههنا، ولوكانت من المكذوب على رسول اللَّه ﷺ، فلو تتبع القارئ كتب الرافضة التي بلغت مئات المجلدات، وكتب الصوفية التي فيها من الافتراء والكذب على اللَّه وعلى رسوله ما هو واضح للعيان، وكتب المعتزلة والجهمية والأشاعرة والخوارج والمرجئة والمدافعين عن البدع والمحدثات، لوجد هذه الآية حقيقة ماثلة في هؤلاء، واللَّه المستعان.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عدم الثقة في الأعداء

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم و﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾**[٢]» الآية[٣].

* عن عبد اللَّه بن عباس ﵄ قال: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار باللَّه تقرءونه لم يُشَبْ؟ وقد حدثكم اللَّه أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب اللَّه وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا: ﴿هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ أفلا ينهاكم بما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا واللَّه ما رأينا منهم رجلًا قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم[٤].

---

(١) المحرر الوجيز (١/ ١٧٠). (٢) البقرة: الآية (١٣٦).
(٣) البخاري (٨/ ٢١٥-٢١٦/ ٤٤٨٥) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٦/ ١١٣٨٧).
(٤) البخاري (٥/ ٣٦٥/ ٢٦٨٥).

★ **غريب الحديث:**

لم يُشَبْ: بضم أوله وفتح المعجمة بعدها موحدة؛ أي: لم يخلط.

★ **فوائد الحديثين:**

قوله ﷺ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم**»:

قال الحافظ: «أي: إذا كان ما يخبرونكم به محتملًا لئلا يكون في نفس الأمر صدقًا فتكذبوه، أو كذبًا فتصدقوه فتقعوا في الحرج. ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه، نبه على ذلك الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. ويؤخذ من هذا الحديث التوقف عن الخوض في المشكلات والجزم فيها بما يقع في الظن، وعلى هذا يحمل ما جاء عن السلف من ذلك». اهـ[١]

وقال ابن بطال: «وقوله: «**ولا تكذبوهم**» يعني: فيما ادعوا من الكتاب ومن أخبارهم؛ مما يمكن أن يكون صدقًا أو كذبًا؛ لإخبار اللَّه تعالى عنهم أنهم بدلوا الكتاب ليشتروا به ثمنا قليلًا، ومن كَذَبَ على اللَّه فهو أحرى بالكذب في سائر حديثه.

وسأل بعض علماء النصارى محمدَ بنَ وضاحٍ فقال: ما بال كتابكم معشر المسلمين لا زيادة فيه ولا نقصان، وكتابنا بخلاف ذلك؟ فقال له: لأن اللَّه وكل حفظ كتابكم إليكم فقال: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[٢] فما وكله إلى المخلوقين دخله الخَرَمُ والنُّقْصان، وقال في القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٣] فتولى اللَّه حِفْظَهُ فلا سبيل إلى الزيادة فيه ولا إلى النقصان»[٤].

* * *

(١) الفتح (٨/ ٢١٦).

(٢) المائدة: الآية (٤٤). (٣) الحجر: الآية (٩).

(٤) شرح البخاري (٨/ ٧٣-٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى إخبارًا عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، ثم ينجون منها، فرد اللَّه عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أي بذلك، فإن كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده، ولكن هذا ما جرى ولا كان، ولهذا أتى بأم التي بمعنى بل؛ أي: بل تقولون على اللَّه ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه»[1].

وقال ابن القيم: «فهذا مطالبته لهم بتصحيح دعواهم، وترديد لهذه المطالبة بين أمرين لا بد من واحد منهما، وقد تعين بطلان أحدهما فلزم ثبوت الآخر، فإن قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ خبر عن غيب لا يعلم إلا بالوحي، فإما أن يكون قولًا على اللَّه بلا علم فيكون كاذبًا، وإما أن يكون مستندًا إلى وحي من اللَّه وعهد عهده إلى المخبر وهذا منتف قطعًا، فتعين أن يكون خبرًا كاذبًا، قائله كاذب على اللَّه تعالى»[2].

قال القاسمي: «﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ بيان لبعض آخر من جناياتهم فيما ادعوا لأنفسهم من أنهم لا تمسهم النار في الآخرة إلا مدة يسيرة، ومرادهم بذلك أنهم لا يخلدون فيها؛ لأن كل معدود منقض»[3].

وقال السعدي: «ذكر أفعالهم القبيحة، ثم ذكر مع هذا أنهم يزكون أنفسهم، ويشهدون لها بالنجاة من عذاب اللَّه، والفوز بثوابه، وأنهم لم تمسهم النار إلا أيامًا معدودة؛ أي: قليلة تعد بالأصابع، فجمعوا بين الإساءة والأمن.

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٦).
(٢) بدائع الفوائد (٤/ ١٤٣).
(٣) محاسن التأويل (٢/ ١٧٦).

ولما كان هذا مجرد دعوى، رد اللَّه تعالى عليهم فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم، يا أيها الرسول ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ أي: بالإيمان به وبرسله وبطاعته، فهذا الوعد الموجب للنجاة صاحبه الذي لا يتغير ولا يتبدل.

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ فأخبر تعالى أن صدق دعواهم متوقف على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما.

إما أن يكونوا قد اتخذوا عند اللَّه عهدا، فتكون دعواهم صحيحة.

وإما أن يكونوا متقولين عليه، فتكون كاذبة، فيكون أبلغ بخزيهم وعذابهم.

وقد علم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند اللَّه عهدًا، لتكذيبهم كثيرًا من الأنبياء، حتى وصلت بهم الحال إلى أن قتلوا طائفة منهم، ولنكولهم عن طاعة اللَّه ونقضهم المواثيق.

فتعين بذلك، أنهم متقولون مختلقون، قائلون عليه ما لا يعلمون.

والقول عليه بلا علم، من أعظم المحرمات، وأشنع القبيحات»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الرد على المخالف وبيان كذبه وافترائه

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فُتِحَت خيبرُ أُهدِيَتْ للنبي ﷺ شاةٌ فيها سم، فقال النبي ﷺ: «**اجمعوا إِلَيَّ من كان ها هنا من يهود**» فَجُمِعُوا له فقال: «**إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادِقِي عنه؟**» فقالوا نعم، قال لهم النبي ﷺ: «**من أبوكم؟**» قالوا: فلان، فقال: «**كذبتم، بل أبوكم فلان**»، قالوا: صدقت، قال: «**فهل أنتم صادِقِي عن شيء إن سألت عنه؟**» فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم: «**من أهل النار؟**» قالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: «**اخسئوا فيها واللَّه لا نخلفكم فيها أبدًا**»، ثم قال: «**هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟**» فقالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: «**هل جعلتم في هذه الشاة سمًّا؟**» قالوا: نعم، قال: «**ما حملكم على ذلك؟**»

---

(١) تفسير السعدي (١/ ١٠٢-١٠٣).

قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح، وإن كنت نبيًّا لم يضرك[١].

★ **غريب الحديث:**

اخسئوا فيها: «زجر لهم بالطرد والإبعاد، أو دعاء عليهم بذلك».

★ **فوائد الحديث:**

قوله ﷺ: «**واللَّه لا نخلفكم فيها أبدًا**»:

قال الحافظ: «أي لا تخرجون منها ولا نقيم بعدكم فيها؛ لأن من يدخل النار من عصاة المسلمين يخرج منها فلا يتصور أنه يخلف غيره أصلًا»[٢].

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٥١) والبخاري (٦/ ٣٣٤/ ٣١٦٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤١٣/ ١١٣٥٥).
(٢) الفتح (١٠/ ٣٠٢).

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾

★ غريب الآية:

أحاطت: اجتمعت عليه فمات عليها قبل الإنابة والتوبة منها، وأصل الإحاطة بالشيء: الإحداق به. بمنزلة الحائط الذي تحاط به الدار، فتُحدق به. ومنه قوله تعالى: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾[1]. وتستعمل في المنع نحو: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾[2].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وإنما قلنا إن السيئة التي ذكر اللَّه -جل ثناؤه- أن من كسبها وأحاطت به خطيئته، فهو من أهل النار المخلدين فيها في هذا الموضع، إنما عنى اللَّه بها بعض السيئات دون بعض، وإن كان ظاهرها في التلاوة عامًّا؛ لأن اللَّه قضى على أهلها بالخلود في النار. والخلود في النار لأهل الكفر باللَّه دون أهل الإيمان به، لتظاهر الأخبار عن رسول اللَّه ﷺ بأن أهل الإيمان لا يخلدون فيها، وأن الخلود في النار لأهل الكفر باللَّه دون أهل الإيمان. فإن اللَّه -جل ثناؤه- قد قرن بقوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾. فكان معلومًا بذلك أن الذين لهم الخلود في النار من أهل السيئات، غير الذين لهم الخلود في الجنة من أهل الإيمان.

فإن ظن ظان أن الذين لهم الخلود في الجنة من الذين آمنوا، هم الذين عملوا الصالحات، دون الذين عملوا السيئات، فإن في إخبار اللَّه أنه مكفر باجتنابنا كبائر ما ننهى عنه سيئاتنا، ومدخلنا المدخل الكريم ما ينبئ عن صحة ما قلنا في تأويل

(١) الكهف: الآية (٢٩).

(٢) يوسف: الآية (٦٦).

قوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾، بأن ذلك على خاص من السيئات دون عامها.

فإن قال لنا قائل: فإن اللَّه -جل ثناؤه- إنما ضمن لنا تكفير سيئاتنا باجتنابنا كبائر ما ننهى عنه، فما الدلالة على أن الكبائر غير داخلة في قوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ ؟

قيل: لما صح أن الصغائر غير داخلة فيه، وأن المعني بالآية خاص دون عام، ثبت وصح أن القضاء والحكم بها غير جائز لأحد على أحد، إلا على من وقفه اللَّه عليه بدلالة من خبر قاطع عذر من بلغه. وقد ثبت وصح أن اللَّه -تعالى ذكره- قد عنى بذلك أهل الشرك والكفر به، بشهادة جميع الأمة. فوجب بذلك القضاء على أن أهل الشرك والكفر ممن عناه اللَّه بالآية. فأما أهل الكبائر، فإن الأخبار القاطعة عذر من بلغته، قد تظاهرت عندنا بأنهم غير معنيين بها. فمن أنكر ذلك ممن دافع حجة الأخبار المستفيضة والأنباء المتظاهرة فاللازم له ترك قطع الشهادة على أهل الكبائر بالخلود في النار، بهذه الآية ونظائرها التي جاءت بعمومهم في الوعيد. إذ كان تأويل القرآن غير مدرك إلا ببيان من جعل اللَّه إليه بيان القرآن، وكانت الآية يأتي عامًّا في صنف ظاهرها، وهي خاص في ذلك الصنف باطنها»[١].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس الأمر كما ذكرتم، فإنه قول لا حقيقة له. ولكن ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ وهو نكرة في سياق الشرط، فيعم الشرك فما دونه.

والمراد به: هنا - الشرك، بدليل قوله ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أي: أحاطت بعاملها، فلم تدع له منفذًا، وهذا لا يكون إلا الشرك، فإن من معه الإيمان لا تحيط به خطيئته.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وقد احتج بها الخوارج على كفر صاحب المعصية، وهي حجة عليهم كما ترى، فإنها ظاهرة في الشرك، وهكذا كل مبطل يحتج بآية، أو حديث صحيح على قوله الباطل فلا بد أن يكون فيما احتج به حجة عليه»[٢].

---

(١) جامع البيان (٢/ ٢٨٢-٢٨٣ تحقيق شاكر).

(٢) تفسير السعدي (١/ ١٠٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من محقرات الذنوب

* عن سهل بن سعد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كقوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه**»[١].

⋆ غريب الحديث:

المحقرات: هي الذنوب التي يستخف بها صاحبها ويحتقرها ويحسبها هينة.

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «والمحقرات إذا كثرت صارت كبائرَ بالإصرار عليها والتمادي فيها»[٢].

وقال: «وقال أبو عبدالرحمن الحُبُلِّي: مثل الذي يجتنب الكبائر ويقع في المحقرات، كرجل لقاه سبع فاتقاه حتى نجا منه، ثم لقيه فحلُ إبلٍ فاتقاه فنجا منه، فلدغته نملة فأوجعته، ثم أخرى، ثم أخرى حتى اجتمعن عليه فصرعنه، وكذلك الذي يجتنب الكبائر ويقع في المحقرات. وقال أبو بكر الصديق: إن اللَّه يغفر الكبائر فلا تيئسوا، ويعذب على الصغائر فلا تغتروا»[٣].

* * *

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣١) والطبراني في الكبير (٦/ ١٦٥-١٦٦/ ٥٨٧٢) وفي الأوسط (٨/ ١٥٩/ ٧٣١٩) وفي الصغير (٨٨٧) والروياني في مسنده (٢/ ٢١٦/ ١٠٦٥) والبيهقي في الشعب (٥/ ٤٥٦/ ٧٢٦٧) والبغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٩٩/ ٤٢٠٣). كلهم من طريق أنس بن عياض عن أبي حازم عن سهل بن سعد مرفوعًا.
قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٩٠): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين ورجال إحداهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم وهو ثقة» اهـ. وحسن إسناده الحافظ في الفتح (١١/ ٤٠٠).

(٢) شرح البخاري (١٠/ ٢٠٢).

(٣) شرح البخاري (١٠/ ٢٠٣).

قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «وإنما هذه الآية والتي قبلها إخبار من اللَّه عباده عن بقاء النار وبقاء أهلها فيها ، وبقاء الجنة وبقاء أهلها فيها ، ودوام ما أعد في كل واحدة منهما لأهلها ، تكذيبا من اللَّه -جل ثناؤه- القائلين من يهود بني إسرائيل : إن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، وأنهم صائرون بعد ذلك إلى الجنة . فأخبرهم بخلود كفارهم في النار ، وخلود مؤمنيهم في الجنة»[1] .

قال القاسمي : «من عادة التنزيل العزيز أنه لا يذكر فيه آية في الوعيد إلا ويتلوها آية في الوعد . وذلك لفوائد : منها : ليظهر بذلك عدله سبحانه ؛ لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرين على الكفر ، وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرين على الإيمان . ومنها : أن المؤمن لابد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه . وذلك الاعتدال لا يحصل إلا بهذا الطريق . ومنها : أنه يظهر بوعده كمال رحمته ، وبوعيده كمال حكمته ، فيصير ذلك سببًا للعرفان»[2] .

* * *

---

(١) جامع البيان (٢/ ٢٨٧ تحقيق شاكر).

(٢) محاسن التأويل (٢/ ١٧٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾[١]

★ **غريب الآية:**

ذي القربى: ذي رحم قريبة منك.

اليتامى: جمع يتيم، واليُتْمُ في بني آدم بفقد الأب، وفي البهائم بفقد الأم. وأصله الانفراد، يقال: صبي يتيم أي: منفرد من أبيه. وبيت يتيم: أي ليس قبله ولا بعده شيء من الشعر. ودرة يتيمة: ليس لها نظير.

المساكين: واحدها مسكين، وهو المتخشع المتذلل من وطء الحاجة: مأخوذ من السكون كأنه قد أسكنه الفقر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي: «والإحسان نهاية البر، فيدخل فيه جميع ما يجب من الرعاية والعناية، وقد أكد اللّه الأمر بإكرام الوالدين. حتى قرن تعالى الأمر بالإحسان إليهما بعبادته التي هي توحيده، والبراءة عن الشرك، اهتمامًا به وتعظيمًا له»[٢].

وقال السعدي: «﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أحسنوا بالوالدين إحسانًا. وهذا يعم كل إحسان، قولي، وفعلي، مما هو إحسان إليهم. وفيه النهى عن الإساءة إلى الوالدين، أو عدم الإحسان والإساءة؛ لأن الواجب الإحسان، والأمر بالشيء نهي عن ضده. وللإحسان ضدان: الإساءة، وهي أعظم جرمًا. وترك الإحسان بدون إساءة، وهذا محرم، لكن لا يجب أن يلحق بالأول»[٣].

وقال القرطبي: «وقرن اللّه ﷻ في هذه الآية حقَّ الوالدين بالتوحيد؛ لأن النشأة الأولى من عند اللّه، والنشء الثاني -وهو التربية- من جهة الوالدين، ولهذا قرن

(١) البقرة: الآية (٨٣).
(٢) محاسن التأويل (٢/ ١٧٨-١٧٩).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٠٥).

تعالى الشكر لهما بشكره فقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[1]. والإحسان إلى الوالدين: معاشرتهما بالمعروف، والتواضع لهما، وامتثال أمرهما، والدعاء بالمغفرة بعد مماتهما، وصلة أهل ودهما»[2].

قال محمد رشيد رضا: «والعلة الصحيحة في وجوب هذا الإحسان على الولد هي العناية الصادقة التي بذلاها في تربيته والقيام بشؤونه أيام كان ضعيفًا عاجزًا جاهلا لا يملك لنفسه نفعًا، ولا يقدر أن يدفع عنها ضررًا، إذ كانا يحوطانه بالعناية والرعاية، ويكفلانه حتى يقدر على الاستقلال والقيام بشأن نفسه، فهذا هو الإحسان الذي يكون منهما عن علم واختيار، بل مع الشغف الصحيح والحنان العظيم ما جزاء الإحسان إلا الإحسان، وإذا وجب على الإنسان أن يشكر لكل من يساعده على أمر عسير فضله، ويكافئه بما يليق به على حسب الحال في المساعد وما كانت به المساعدة، فكيف لا يجب أن يكون الشكر للوالدين بعد الشكر لله تعالى وهما اللذان كانا يسعدانه على كل شيء، أيام كان يتعذر عليه كل شيء»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب بر الوالدين

* عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول اللَّه ﷺ قلت: يا رسول اللَّه، أي العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة على ميقاتها**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**ثم بر الوالدين**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»، فسكت عن رسول اللَّه ﷺ ولو استزدته لزادني[4].

⋆ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قال بعضهم: هذا الحديث موافق لقوله تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[5] وكأنه أخذه من تفسير ابن عيينة حيث قال: من صلى الصلوات الخمس

---

(١) لقمان: الآية (١٤).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٢).
(٣) تفسير المنار (١/ ٣٦٦).
(٤) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٩-٤١٠، ٤٣٩) والبخاري (٦/ ٤/ ٢٧٨٢) ومسلم (١/ ٨٩/ ٨٥) والترمذي (١/ ٣٢٥-٣٢٦/ ١٧٣) والنسائي (١/ ٣١٨-٣١٩/ ٦٠٩).
(٥) لقمان: الآية (١٤).

فقد شكر لله، ومن دعا لوالديه عقبها فقد شكر لهما . .

وفي الحديث فضل تعظيم الوالدين، وأن أعمال البر يفضل بعضها على بعض . . اهـ.[١]

* عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قلت يا رسول اللَّه، من أبر؟ قال: «**أمَّك ثم أمَّك ثم أمَّك ثم أباك ثم الأقربَ فالأقرب**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «في هذا الحديث دليل أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغي أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب؛ لأنه ﷺ كرر ذكر الأم ثلاث مرات، وذكر الأب في المرة الرابعة فقط، وإذا تؤمل هذا المعنى شهد له العيان، وذلك أن صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم، وتشقى بها دون الأب فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب»[٣].

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «يجب أن نعلم أن الإحسان يتفاوت؛ فكل من كان أقرب فهو أولى بالإحسان؛ لأن الحكم إذا علق بوصف قَوِيَ بحسب قوة ذلك الوصف؛ فمثلًا يجب عليك من صلة العم أكثر مما يجب عليك من صلة أولاد العم؛ ويجب عليك من صلة الخال أكثرَ مما يجب عليك من صلة أولاد الخال»[٤].

قال محمد رشيد رضا: «والإحسان هو الذي يقوي غرائز الفطرة ويوثق الروابط الطبيعية بين الأقربين حتى تبلغ البيوت في وحدة المصلحة درجة الكمال. والأمة تتألف من البيوت (العائلات) فصلاحها صلاحها . . . وذلك أن عاطفة التراحم وداعية التعاون إنما تكونان على أشدهما وأكملهما في الفطرة بين الوالدين والأولاد، ثم بين سائر الأقربين، فمن فسدت فطرته حتى لا خير فيه لأهله فأي خير يرجى منه للبعداء والأبعدين؟ ومن لا خير فيه للناس لا يصلح أن يكون جزءًا من بنية أمة؛ لأنه لم تنفع فيه اللحمة النسبية التي هي أقوى لحمة طبيعية تصل بين الناس،

---

(١) الفتح (٢/ ١٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣-٥) وأبو داود (٥/ ٣٥١/ ٥١٣٩) والترمذي (٤/ ٢٧٣/ ١٨٩٧) وقال: «هذا حديث حسن». والحاكم (٣/ ٦٤٢-٦٤٣) والبخاري في الأدب المفرد (٣).

(٣) شرح البخاري (٩/ ١٨٩).

(٤) تفسير القرآن الكريم (١/ ٢٧٠).

فأي لحمة بعدها تصله بغير الأهل فتجعله جزءا منهم يسره ما يسرهم، ويؤلمه ما يؤلمهم، ويرى منفعتهم عين منفعته، ومضرتهم عين مضرته، وهو ما يجب على كل شخص لأمته. قضى نظام الفطرة بأن تكون نعرة القرابة أقوى من كل نعرة وصلتها أمتن من كل صلة، فجاء الدين يقدم حقوق الأقربين على سائر الحقوق وجعل حقوقهم على حسب قربهم من الشخص»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (١/ ٣٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب. ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله، أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق، وهو الإحسان بالقول، فيكون في ضمن ذلك، النهي عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2].

ومن أدب الإنسان الذي أدب اللَّه به عباده، أن يكون الإنسان نزيهًا في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء، ولا شاتم، ولا مخاصم»[3].

وقال القرطبي: «وهذا كله حض على مكارم الأخلاق؛ فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس لينًا ووجهه منبسطًا طلقًا مع البر والفاجر، والسني والمبتدع، من غير مداهنة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضي مذهبه؛ لأن اللَّه تعالى قال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾[4]. فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون؛ والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما اللَّه تعالى باللين معه. وقال طلحة بن عمر: قلت لعطاء: إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل فِيَّ حدة فأقول لهم بعض القول الغليظ؛ فقال: لا تفعل، يقول اللَّه تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾. فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفي»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مدح مكارم الأخلاق

* عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن في الجنة غرفة يرى**

---

(١) البقرة: الآية (٨٣).

(٢) العنكبوت: الآية (٤٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٠٥).

(٤) طه: الآية (٤٤).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٣).

ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها اللَّه لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى والناس نيام»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي في كتابه رياض الصالحين: باب استحباب طيب الكلام وطلاقة الوجه.

قال الشيخ العثيمين: «يعني: إذا لاقى الإنسان أخاه، فإنه ينبغي له أن يلاقيه بالبشر وطلاقة الوجه وحسن المنطق؛ لأن هذا من خلق النبي ﷺ، ولا يعد هذا تنزلًا من الإنسان، ولكنه رفعة وأجر له عند اللَّه ﷻ، واتباع لسنة النبي ﷺ، فإن النبي ﷺ كان دائم البشر، كثير التبسم -صلوات اللَّه وسلامه عليه-.

فالإنسان ينبغي له أن يلقى أخاه بوجه طلق، وبكلمة طيبة، لينال بذلك الأجر والمحبة والألفة، والبعد عن التكبر والترفع على عباد الله»[٢].

* عن أبي ذر قال: قال لي النبي ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلْق**»[٣].

★ **غريب الحديث:**

طلق: وهو المنبسط السهل.

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي عياض: «فيه الحض على فعل الخير، قَلَّ أو كَثُرَ، وألا تحقر منه شيئًا، وهذا كما قال تعالى ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾[٤].

وقال كذلك: «وفيه أن طلاقة الوجه للمسلمين والانبساط إليهم محمود مشروع

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٤٣) والطبراني في الكبير (٣/ ٣٤٢/ ٣٤٦٦) وصححه ابن خزيمة (٣/ ٣٠٦-٣٠٧/ ٢١٣٧) وابن حبان (٢/ ٢٦٢/ ٥٠٩) وله شاهد من حديث علي: رواه عبد اللَّه بن أحمد في زوائد المسند (١/ ١٥٥-١٥٦) والترمذي (٤/ ٣١١/ ١٩٨٤) ومن حديث ابن عمرو: رواه أحمد (٢/ ١٧٣) والحاكم (١/ ٣٢١) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) شرح رياض الصالحين (٧/ ٦٦).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣) ومسلم (٤/ ٢٠٢٦/ ٢٦٢٦) والترمذي (٤/ ٢٤٢/ ١٨٣٣).

(٤) الزلزلة: الآية (٧).

مثاب عليه، وبخلافه التجهم لهم والازوراء عنهم إلا لغرض، وكفى بخلق نبينا ﷺ في ذلك، وبما وصفه اللَّه به ونزهه عنه من قوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[1]»[2].

وقال الشيخ العثيمين: «ثم إن طلاقة الوجه توجب سرور صاحبك؛ لأنه يفرق بين شخص يلقاك بوجه معبس وشخص يلقاك بوجه منطلق، لهذا قال النبي -عليه الصلاة والسلام- لأبي ذر: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**»، فهذا من المعروف؛ لأنه يدخل السرور على أخيك، ويشرح صدره.

ثم إذا قرن ذلك بالكلمة الطيبة حصل بذلك مصلحتان: طلاقة الوجه والكلمة الطيبة التي قال عنها النبي ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**»[3]، يعني اجعلوا بينكم وبين النار وقاية ولو بشق تمرة؛ يعني ولو أن تصدقوا بنصف تمرة، فإن ذلك يقيكم من النار إذا قبلها اللَّه ﷻ.

(فإن لم يجد فبكلمة طيبة)؛ كلمة طيبة مثل أن تقول له: كيف أنت؟ كيف حالك؟ كيف إخوانك؟ كيف أهلك؟ وما أشبه ذلك؛ لأن هذه من الكلمات الطيبة التي تدخل السرور على صاحبك، كل كلمة طيبة فهي صدقة لك عند اللَّه وأجر وثواب»[4].

* * *

---

(١) آل عمران: الآية (١٥٩).

(٢) الإكمال (٨/ ١٠٦).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٦) والبخاري (١٠/ ٥٥٠/ ٦٠٢٣) ومسلم (٢/ ٧٠٤/ ١٠١٦ [٦٨]) والنسائي (٥/ ٧٨-٧٩/ ٢٥٥٢). وأخرجه بمعناه الترمذي (٤/ ٥٢٨/ ٢٤٢٥) وابن ماجه (١/ ٦٦/ ١٨٥) كلهم من حديث عدي ابن حاتم رضي الله عنه.

(٤) شرح رياض الصالحين (٧/ ٦٧-٦٨).

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «وإنما إقامة الصلاة بالإخلاص لله والصدق في التوجه إليه والخشوع لعظمته وجلاله والاستكانة لعز سلطانه، ولا تكون بمجرد الإتيان بصورة الصلاة ورسومها الظاهرة، ولو كان هذا هو المراد لما وصفهم بالتولي والإعراض عنه، فإنهم ما أعرضوا عن صورة الصلاة إلى ذلك اليوم الذي ذكرهم فيه بهذه الآيات وإلى هذا اليوم أيضًا. وأما الزكاة فقد كان بعض أحبارهم يزعم أنها تلك المحرقات والقرابين المفروضة لتكفير الخطايا أو شكر اللّه تعالى على إخراجهم من مصر وغير ذلك من النعم. وليس الأمر كذلك فإن لهم زكوات مالية منها مال مخصوص يؤدى لآل هارون وهو إلى الآن في اللاويين. ومنها مال للمساكين. ومنها ما يؤخذ من ثمرات الأرض، ومنها سبت الأرض وهو تركها في كل سبع سنين مرة بلا حرث ولا زرع، وكل ما يخرج منها في تلك السنة فهو صدقة»[٢].

وقد تقدم الكلام على إقامة الصلاة والإنفاق. سورة البقرة آية (٣).

* * *

---

(١) البقرة: الآية (٨٣).

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٦٩).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ۝٨٣﴾

★ **غريب الآية:**

معرضون: الإعراض والتولي بمعنى واحد، مخالف بينهما في اللفظ، وقيل: التولي فيه بالجسم، والإعراض بالقلب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا خبر من اللَّه -جل ثناؤه- عن يهود بني إسرائيل، أنهم نكثوا عهده ونقضوا ميثاقه، بعد ما أخذ اللَّه ميثاقهم على الوفاء له، بأن لا يعبدوا غيره، وأن يحسنوا إلى الآباء والأمهات، ويصلوا الأرحام، ويتعطفوا على الأيتام، ويؤدوا حقوق أهل المسكنة إليهم، ويأمروا عباد اللَّه بما أمرهم اللَّه به ويحثوهم على طاعته، ويقيموا الصلاة بحدودها وفرائضها، ويؤتوا زكاة أموالهم - فخالفوا أمره في ذلك كله، وتولوا عنه معرضين، إلا من عصمه اللَّه منهم، فوفى لله بعهده وميثاقه»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «أي: ثم كان من أمركم بعد هذا الميثاق الذي فيه سعادتكم، أن توليتم عن العمل به، وأنتم في حالة الإعراض عنه وعدم الاكتراث له. وقد يتولى الإنسان منصرفًا عن شيء وهو عازم على أن يعود إليه ويُوَفِّيَهُ حقه، فليس كل متول عن شيء معرضًا عنه ومهملًا له على الدوام، لذلك كان ذكر هذا القيد ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ لازمًا لابد منه، وليس تكرارا كما يُتَوَهَّمُ، وإنما هو متمم للمعنى ومؤكد للمبالغة في الترك المستفاد من التولي... وقد كان سبب ذلك التولي مع الإعراض أن اللَّه أمرهم أن لا يأخذوا الدين إلا من كتابه، فاتخذوا أحبارهم أربابًا من دون اللَّه يحلون برأيهم ويحرمون، ويبيحون باجتهادهم ويحظرون، ويزيدون في الأحكام والشرائع، ويضعون ما شاءوا من الاحتفالات

---

(١) جامع البيان (٢/ ٢٩٨ تحقيق شاكر).

والشعائر، فصدق عليهم أنهم اتخذوا من دونه شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به اللَّه. فإن اللَّه هو الذي يضع الدين وحده، وإنما العلماء أدلاء يستعان بهم على فهم كتابه وما شرع على ألسنة رسله. وقد اتبع سَنَنَ اليهود في هذا التشريع جميعُ مَنْ بَعْدَهُم من أهل الملل، وحكمُ الجميع عند اللَّه تعالى واحد لا يختلف، فهو لا يحابي أحدًا ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[١] وكذلك كانوا قد قطعوا صلات القرابة، وبخلوا بالنفقة الواجبة، وتركوا النهي عن المنكر، وفقدوا روح الصلاة، ومنعوا الزكاة، ولكنهم الآن عادوا إلى بعض ما تركوا، ولم يعد الذين تشبهوا بهم، أو اتبعوا بغير شعور سَنَنَهم، والأمر لله العلي الكبير.

وأما قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ فهو استثناء لبعض من كانوا في زمن سيدنا موسى عليه السلام أو في كل زمن، فإنه لا تخلو أمة من الأمم من المخلصين الذين يحافظون على الحق بحسب معرفتهم وقدر طاقتهم. والحكمة في ذكر هذا الاستثناء عدم بخس المحسنين حقهم، وبيان أن وجود قليل من الصالحين في الأمة لا يمنع عنها العقاب الإلهي إذا فشا فيها المنكر وقل المعروف»[٢].

ثم قال: «لو تدبر جهالنا هذه الآية لعلموا أنهم مغرورون بالاعتماد على الأقطاب والأوتاد والأبدال في تحمل البلاء عنهم، ومنع العذاب أن ينزل بالأمة ببركتهم، فلو فرض أن هؤلاء الأقطاب موجودون حقيقة؛ فإن وجودهم لا يغني عن الأمة شيئًا، وقد عصى اللَّه جماهيرها ونقضوا ميثاقه الذي واثقهم به. فقد جرت سنته تعالى في خلقه بأن بقاء الأمم عزيزة إنما يكون بمحافظة الجماهير فيها على الأخلاق والأعمال؛ التي تكون بها العزة ويحفظ بها المجد والشرف. ومن لم يعتبر بآيات اللَّه في كتابه، لا يعتبر بآياته وسننه في خلقه، فقد فتن المسلمون في دينهم ودنياهم وحل بجميع بلادهم ما حل من البلاء وهم لا يعتبرون، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٣]، ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[٤]»[٥].

قلت: ما ذكره رحمه الله من الإشارة إلى خرافة الأقطاب والأبدال والأوتاد؛ أمر

---

(١) الكهف: الآية (٤٩).
(٢) تفسير المنار (١/ ٣٦٩-٣٧٠).
(٣) محمد: الآية (٢٤).
(٤) التوبة: الآية (١٢٦).
(٥) تفسير المنار (١/ ٣٧٠).

يتناقض مع المعلوم من الدين بالضرورة، والصريح من القرآن والسنة، وأن اللَّه -تبارك وتعالى- يدبر الملك بيديه، وقائم عليه بنفسه، فهو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، وهو القائل -تبارك وتعالى-: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[1]، لكن المخرفين أبوا إلا أن يدخلوا على الأمة مصطلحات شيطانية، من صدق بها وقع في الشرك الأكبر، كما هو مسطر في كتاب (الإبريز).

وما أشار إليه من استقامة الأمة على الأخلاق الحسنة، أمر طيب، والأولى أن يقال: إن الأمة ضيعت التوحيد، وفرطت فيه، واستبدلته بالشركيات، واللجوء إلى الأموات ومراقدهم وقبورهم وأضرحتهم، وإلى الأحجار والمغارات، وإلى عقد مواسم شركية في كل زمان ومكان، وضياع السنة الغراء، واستبدالها بالبدع والمحدثات، والإعراض عما صح عنه ﷺ من السنن والبينات.

فكل هذا سبب في زوال ملك الأمة الإسلامية وانقضاض أعدائها عليها، وتمكين اللَّه للأعداء من كل قوة وعدة وعتاد. اللهم أرجع الأمة إلى التوحيد ومحاربة الشرك ومظاهره، وإلى السنة ودفع المحدثات والبدع. واللَّه المستعان.

* * *

(١) سبأ: الآية (٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تسفكون: السفك الصب، سفكت الدم أسفكه سفكًا، صببته، وكذلك الدمع. والسفاك: السفاح، وهو القادر على الكلام. ولا يستعمل السفك إلا في الدم، وقد يستعمل في نثر الكلام. يقال سفك الكلام: إذا نثره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول -تبارك وتعالى- منكرًا على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج وهم الأنصار كانوا في الجاهلية عباد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير: حلفاء الخزرج، وبنو قريظة: حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم، قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملًا بحكم التوراة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضًا ولا يخرجه من منزله ولا يظاهر عليه، كما قال تعالى: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾[1] وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة كما قال -عليه الصلاة والسلام-: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى**

---

(١) البقرة: الآية (٥٤).

والسهر»[١]»[٢].

وقال ابن جرير: «وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب عندي: أن يكون قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ خبرًا عن أسلافهم، وداخلًا فيه المخاطبون منهم، الذين أدركوا رسول اللَّه ﷺ، كما كان قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ﴾ خبرًا عن أسلافهم، وإن كان خطابًا للذين أدركوا رسول اللَّه ﷺ؛ لأن اللَّه تعالى أخذ ميثاق الذين كانوا على عهد رسول اللَّه موسى ﷺ من بني إسرائيل على سبيل ما قد بينه لنا في كتابه فألزم جميع من بعدهم من ذريتهم من حكم التوراة، مثل الذي ألزم منه من كان على عهد موسى منهم، ثم أنب الذين خاطبهم بهذه الآيات على نقضهم ونقض سلفهم ذلك الميثاق، وتكذيبهم ما وكدوا على أنفسهم له بالوفاء من العهود، بقوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾. فإذ كان خارجًا على وجه الخطاب للذين كانوا على عهد نبينا ﷺ فإنه معني به كل من وافق بالميثاق منهم على عهد موسى ومن بعده، وكل من شهد منهم بالتصديق ما في التوراة؛ لأن اللَّه -جل ثناؤه- لم يخصص بقوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ وما أشبه ذلك من الآية بعضهم دون بعض. والآية محتملة أن يكون أريد بها جميعهم. فإذا كان ذلك كذلك فليس لأحد أن يدعي أنه أريد بها بعض منهم دون بعض، وكذلك حكم الآية التي بعدها أعني قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية؛ لأنه قد ذكر لنا أن أوائلهم قد كانوا يفعلون من ذلك ما كان يفعله أواخرهم الذين أدركوا عصر نبينا محمد ﷺ»[٣].

وقال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾ معناه: ولا ينفي بعضكم بعضا بالفتنة والبغي، ولما كانت ملتهم واحدة وأمرهم واحدًا وكانوا في الأمم كالشخص الواحد، جعل قتل بعضهم لبعض ونفي بعضهم بعضًا قتلًا لأنفسهم ونفيًا لها، وكذلك حكم كل جماعة تخاطب بهذا اللف في القول، وقيل ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ أي: لا يقتل أحد فيقتل قصاصًا، فكأنه سفك دم نفسه لما سبب ذلك ولا يفسد في الأرض فينفى فيكون قد أخرج نفسه من دياره، وهذا تأويل فيه تكلف، وإنما كان الأمر أن اللَّه تعالى قد أخذ على بني إسرائيل في التوراة ميثاقًا أن لا يقتل بعضهم بعضًا ولا ينفيه ولا يسترقه ولا يدعه يسترق إلى غير ذلك

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٠) والبخاري (١٠/ ٥٣٧/ ٦٠١١) ومسلم (٤/ ١٩٩٩-٢٠٠٠/ ٢٥٨٦).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢١٠-٢١١).

(٣) جامع البيان (٢/ ٣٠٢-٣٠٣ تحقيق شاكر).

من الطاعات»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «وقد أورد النهي عن سفك بعضهم دم بعض وإخراج بعضهم بعضًا من ديارهم وأوطانهم بعبارة، تؤكد معنى وحدة الأمة، وتحدث في النفس أثرًا شريفًا يبعثها على الامتثال إن كان هناك قلب يشعر، ووجدان يتأثر، فقال: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة؛ كأنه دم الآخر عينه حتى إذا سفكه، كان كأنه بخع نفسه وانتحر بيده. وقال: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾ على هذا النسق. وهذا التعبير المعجز ببلاغته خاص بالقرآن. فهذه الأحكام لا تزال محفوظة عند الإسرائيليين في الكتاب، وإن لم يجروا عليها في العمل، ولكن العبارة عنها عندهم لا تطاول هذه العبارة التي تدهش صاحب الذوق السليم، والوجدان الرقيق، فهذا إرشاد حكيم طلع من ثنايا الأحكام يهدي إلى أسرارها، ويومئ إلى مشرق أنوارها، من تدبره علم أنه لا قوام للأمم، إلا بالتحقق بما تضمنته هذه الحكم، وشعور كل فرد من أفرادها بأن نفسه نفس الآخرين ودمه دمهم، لا فرق في الاحترام بين الروح التي تجول في بدنه والدم الذي يجري في عروقه، وبين الأرواح والدماء التي يحيا بها إخوانه الذين وحدت بينه وبينهم الشريعة العادلة، والمصالح العامة. هذا هو الوجه الوجيه في الآية، وقيل معناها لا ترتكبوا من الجرائم ما تجازون عليه بالقتل والإخراج من الديار. ويقال في قوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾ كما قيل قبله في قوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ من تضمن صيغة الخبر للتأكيد.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه يخاطبهم بما كان من اعتراف سلفهم بالميثاق وقبوله وشهودهم الوحي الذي نزل به على موسى -عليه الصلاة والسلام-.

وثانيهما: أن المراد الحاضرون أنفسهم؛ أي: أنكم أيها المخاطبون بالقرآن قد أقررتم بهذا الميثاق، وتعتقدونه في قلوبكم، ولا تنكرونه بألسنتكم، بل تشهدون به وتعلنونه، فالحجة ناهضة عليكم به»[٢].

---

(١) المحرر الوجيز (١/ ١٧٣).

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٧٢).

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أنفسكم: مفردها: نفس. أصلها من النفاسة، وهي الجلالة، فنفس الإنسان أنفس ما فيه. وهي هنا بمعنى: ذات الشيء وجملته. أنفسكم؛ أي: ذواتكم.

ديارهم: واحدها: دار، وهي المنزل المقام فيه، بخلاف منزل الترحال. قال الخليل: كل موضع حله قوم فهو دار لهم وإن لم تكن فيه أبنية. وقيل: سميت دارًا لدورها على سكانها.

أقررتم: أي: اعترفتم.

تظاهرون: تتعاونون. مشتق من الظهر؛ لأن بعضهم يقوي بعضًا فيكون له كالظهر، ومنه قول الشاعر:

تظاهرتم أستاه بيت تجمعت ... على واحد لازلتم قِرْنَ واحد

والظهير: المعين. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[1]

الإثم: الفعل القبيح الذي يستحقّ فاعله اللّوم والذم. نظيره: الوزر والذنب.

العدوان: الإفراط في الظلم والتجاوز فيه.

أسارى: واحدها: أسير. والأسير: مشتق من الإسار، وهو القد التي يشد به

---

(١) التحريم: الآية (٤).

المحمل. فسمي أسيرًا لأنه يشد وثاقه، والعرب تقول: قد أثر قتبه؛ أي: شده، ثم سمي كل أخيذ أسيرًا وإن لم يؤسر.

تفادوهم: من الفداء، والفداء طلب الفدية في الأسير الذي في أيديهم؛ أي: بذل شيء في مقابلة نفس الإنسان من مال أو أسير آخر.

خزي: الهوان، وخزي بالكسر: يخزى إذا ذل وهان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «والذي أرشدت إليه الآية الكريمة، وهذا السياق ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها ومخالفة شرعها مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة، فلهذا لا يؤتمنون على ما فيها ولا على نقلها، ولا يصدقون فيما كتموه من صفة رسول اللَّه ﷺ ونعته ومبعثه ومخرجه ومهاجره وغير ذلك من شؤونه التي أخبرت بها الأنبياء قبله -عليهم الصلاة والسلام-، واليهود عليهم لعائن اللَّه يتكاتمونه بينهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي بسبب مخالفتهم شرع اللَّه وأمره ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ جزاء على مخالفتهم كتاب اللَّه الذي بأيديهم ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾»[1].

وقال ابن جرير: «يعني بقوله -جل ثناؤه-: ﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ﴾، اليهود، يوبخهم بذلك، ويعرفهم به قبيح أفعالهم التي كانوا يفعلونها، فقال لهم: ثم أنتم بعد إقراركم بالميثاق الذي أخذته عليكم: أن لا تسفكوا دماءكم، ولا تخرجوا أنفسكم من دياركم تقتلون أنفسكم يعني به: يقتل بعضكم بعضًا وأنتم، مع قتلكم من تقتلون منكم، إذا وجدتم الأسير منكم في أيدي غيركم من أعدائكم، تفدونه، ويخرج بعضكم بعضًا من دياره، وقتلكم إياهم وإخراجكموهم من ديارهم، حرام عليكم، وتركهم أسرى في أيدي عدوكم حرام عليكم، فكيف تستجيزون قتلهم، ولا تستجيزون ترك فدائهم من عدوهم؟ أم كيف لا تستجيزون ترك فدائهم، وتستجيزون قتلهم؟ وهما جميعًا في اللازم لكم من الحكم فيهم

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢١٢-٢١٣).

سواء؛ لأن الذي حرمت عليكم من قتلهم وإخراجهم من دورهم، نظير الذي حرمت عليكم من تركهم أسرى في أيدي عدوهم، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي فرضت عليكم فيه فرائضي، وبينت لكم فيه حدودي، وأخذت عليكم بالعمل بما فيه ميثاقي فتصدقون به، فتفادون أسراكم من أيدي عدوكم وتكفرون ببعضه، فتجحدونه، فتقتلون من حرمت عليكم قتله من أهل دينكم ومن قومكم، وتخرجونهم من ديارهم، وقد علمتم أن الكفر منكم ببعضه نقض منكم عهدي وميثاقي»[1].

وقال ابن القيم: «فأخبر سبحانه أنهم أقروا بميثاقه الذي أمرهم به، والتزموه. وهذا يدل على تصديقهم به أنهم لا يقتل بعضهم بعضًا، ولا يخرج بعضهم بعضًا من ديارهم، فهذا كفرهم بما أخذ عليهم في الكتاب، ثم أخبر أنهم يفدون من أسر من ذلك الفريق، وهذا إيمان منهم بما أخذ عليهم في الكتاب، فكانوا مؤمنين بما عملوا به من الميثاق، كافرين بما تركوه منه، فالإيمان العملي يضاده الكفر العملي، والإيمان الاعتقادي يضاده الكفر الاعتقادي»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «سمى اللَّه الذنب ههنا كفرا، لما تقدم وتوعد عليه بوعيد الكفر فقال: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الخ، أوعدهم اللَّه تعالى كما أوعد من قبلهم ومن بعدهم بأنهم يعاقبون على نقض ميثاق الدين الذي يجمعهم، والشريعة التي هي مناط وحدتهم، ورباط جنسيتهم، بالخزي العاجل، والعذاب الآجل، وقد دل المعقول، وشهد الوجود، بأنه ما من أمة فسقت عن أمر ربها، واعتدت حدود شريعتها، إلا وانتكث فتلها، وتفرق شملها، ونزل بها الذل والهوان، وهو الخزي المراد في القرآن، وهذه هي سنة الخليقة، ذكرها ليعتبر بها من صرفته الغفلة عنها.

وأما العذاب الآجل الذي عبر عنه بقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ فهو على كونه من عالم الغيب معقول المعنى، وهاد إلى حكمة عليا، ذلك أن النفوس البشرية إذا سحل مريرها، واختلت بفساد الأخلاق أمورها، وكثرت في هذا العالم شرورها، حتى سلبت ما أعده اللَّه تعالى لمن حافظوا على الحقيقة،

---

(١) جامع البيان (٢/ ٣٠٨-٣٠٩ تحقيق شاكر).

(٢) كتاب الصلاة (ص: ٥٦).

واستقاموا على الطريقة، تكون جديرة بأن تسلب في الآخرة ما أعده اللَّه تعالى للأرواح العالية، وما وعد به أصحاب النفوس الزاكية، فإن سعادة الدار الدنيا لم تكن أجرا على أعمال بدنية، لا تتعلق بصلاح النفس في خلق ولا نية، وإنما هي ثمرة تزكية النفس، التي يتوسل إليه بعمل الحس، فإذا كان هذا شأن سعادة الدنيا فكيف يكون نعيم الآخرة جزاء حركات جسدية، وهي الدار التي تغلب فيها الروحانية ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1]»[2].

* * *

(١) الشمس: الآيات (٧-١٠).

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٧٤).

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله -جل ثناؤه- أولئك الذين أخبر عنهم أنهم يؤمنون ببعض الكتاب، فيفادون أسراهم من اليهود، ويكفرون ببعض، فيقتلون من حرم اللَّه عليهم قتله من أهل ملتهم، ويخرجون من داره من حرم اللَّه عليهم إخراجه من داره، نقضًا لعهد اللَّه وميثاقه في التوراة إليهم. فأخبر -جل ثناؤه- أن هؤلاء هم الذين اشتروا رياسة الحياة الدنيا على الضعفاء وأهل الجهل والغباء من أهل ملتهم، وابتاعوا المآكل الخسيسة الرديئة فيها بالإيمان، الذي كان يكون لهم به في الآخرة لو كانوا أتوا به مكان الكفر الخلود في الجنان. وإنما وصفهم اللَّه -جل ثناؤه- بأنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة؛ لأنهم رضوا بالدنيا بكفرهم باللَّه فيها، عوضا من نعيم الآخرة الذي أعده اللَّه للمؤمنين. فجعل حظوظهم من نعيم الآخرة بكفرهم باللَّه، ثمنًا لما ابتاعوه به من خسيس الدنيا»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «ثم أكد اللَّه تعالى ذلك الوعيدَ الشديدَ وبَيَّنَ سببه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ أي: جعلوا حظوظهم من الحياة الدنيا بدلًا من الآخرة، بما فرطوا في جنب اللَّه، وأهملوا من شريعته، حتى لم يتبعوا منها إلا ما يوافق أهواءهم، ولا يعارضُ شهواتهم؛ كالحَمِيَّةِ التي حَمَلَتْ كُلَّ حليف على الانتصار لمحالفه المشرك، ومظاهرته إياه على قومه الذين تجمعه بهم رابطةُ الدينِ والنسبِ ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ لأن علته ذاتية فيهم، وهي ظلمة أرواحهم وفساد أخلاقهم ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ بشفاعة شافع أو ولاية ولي من دون اللَّه ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾[2] وأنى يأذن بالشفاعة لمن سجلت عليهم الشقاء

---

(١) جامع البيان (٢/ ٣١٦-٣١٧ تحقيق شاكر). (٢) البقرة: الآية (٢٥٥).

أعمالهم بإحاطة الخطايا بهم من كل جانب، حتى أخذت عليهم طريق الرحمة، وقطعت عليهم باختيارهم سبيل الرضوان الإلهي؟ فمن الجهل إهمالهم الأمر والنهي، ونقضهم ميثاق اللَّه تعالى في أهم ما واثقهم به، واعتمادهم مع هذا كله على الشفعاء ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾[1]»[2].

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٢٨).

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ﴾[1]

★ **غريب الآية:**

قفينا: أردفنا وأتبعنا، أصله من اتباع القفا، يقال: قَفَوْتُ فلانًا إذا صِرْتُ خلف قفاه. والتقفية: الاتباع. ومنه سميت قافية الشعر لأنها تتلو سائر الكلام.

أَيَّدْنَاهُ: قويناه، مأخوذ من الأيْد، وهو القوة.

روح القدس: أي جبريل ﷺ، والقدس بضم الدال وإسكانه الطهارة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ينعت -تبارك وتعالى- بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب وهو التوراة، فحرفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها وأولوها، وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2] الآية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ قال السدي عن أبي مالك: أتبعنا؛ وقال غيره: أردفنا، والكل قريب كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾[3] حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى بن مريم، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه اللَّه من البينات وهي المعجزات قال ابن عباس من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن اللَّه، وإبراء الأسقام، وإخبار بالغيوب،

---

(١) البقرة: الآية (٨٧). (٢) المائدة: الآية (٤٤).

(٣) المؤمنون: الآية (٤٤).

وتأييده بروح القدس وهو جبريل عليه السلام ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به، فاشتد تكذيب بني إسرائيل له، وحسدهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض كما قال تعالى إخبارا عن عيسى ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1] الآية؛ فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة، ففريقًا يكذبونه، وفريقًا يقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم، وبالإلزام بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها، فلهذا كان ذلك يشق عليهم فكذبوهم، وربما قتلوا بعضهم»[2].

وقال ابن جرير: «وإنما يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾؛ أي: أتبعنا بعضهم بعضًا على منهاج واحد وشريعة واحدة؛ لأن كل من بعثه اللَّه نبيًّا بعد موسى ﷺ إلى زمان عيسى بن مريم، فإنما بعثه بأمر بني إسرائيل بإقامة التوراة، والعمل بما فيها، والدعاء إلى ما فيها. فلذلك قيل: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾، يعني على منهاجه وشريعته، والعمل بما كان يعمل به»[3].

وقال: «ثم اختلف في تأويل قوله: ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ فقال بعضهم: (روح القدس) الذي أخبر اللَّه -تعالى ذكره- أنه أيد عيسى به هو جبريل عليه السلام... وقال آخرون: (الروح) الذي أيد اللَّه به عيسى هو الإنجيل... وأولى التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال: (الروح) في هذا الموضع جبريل؛ لأن اللَّه -جل ثناؤه- أخبر أنه أيد عيسى به، كما أخبر في قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[4]، فلو كان الروح الذي أيده اللَّه به هو الإنجيل، لكان قوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، و﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾، تكرير قول لا معنى له. وذلك أنه على تأويل قول من قال: معنى ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، إنما هو: إذ أيدتك بالإنجيل وإذ علمتك الإنجيل وهو لا يكون به مؤيدًا إلا وهو معلمه، فذلك تكرير كلام واحد، من غير زيادة معنى في أحدهما على الآخر. وذلك خلف من الكلام، واللَّه -تعالى ذكره-

(١) آل عمران: الآية (٥٠).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢١٣-٢١٤).
(٣) جامع البيان (٢/ ٣١٨ تحقيق شاكر).
(٤) المائدة: الآية (١١٠).

يتعالى عن أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به فائدة. وإذ كان ذلك كذلك، فَبَيِّنٌ فساد قول من زعم أن (الروح) في هذا الموضع، الإنجيل، وإن كان جميع كتب اللَّه التي أوحاها إلى رسله روحًا منه؛ لأنها تحيا بها القلوب الميتة، وتنتعش بها النفوس المولية، وتهتدي بها الأحلام الضالة»[١].

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ لم يبين هنا ما هذه البينات، ولكنه بينها في مواضع أخر كقوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ﴾[٢] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ﴾ هو جبريل على الأصح، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[٣] الآية. وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾[٤] الآية»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الدفاع عن النبوة وتفسير روح القدس

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول لحسان: «**إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن اللَّه ورسوله**»[٦].

⋆ **غريب الحديث:**

نافحت: أي دافعت وخاصمت المشركين وهجوتهم مجازاة لهم.

⋆ **فوائد الحديث:**

قال صاحب العون: «المراد بروح القدس جبريل عليه السلام بدليل حديث البراء عند البخاري[٧] بلفظ: «**وجبريل معك**»»[٨].

وقال المباركفوري: «تأييده إمداده له بالجواب وإلهامه لما هو الحق والصواب

---

(١) جامع البيان (٢/ ٣٢٠-٣٢٢ تحقيق شاكر).
(٢) آل عمران: الآية (٤٩).
(٣) الشعراء: الآية (١٩٣).
(٤) مريم: الآية (١٧).
(٥) أضواء البيان (١/ ٨٠).
(٦) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٣٦/ ٢٤٩٠).
(٧) البخاري (٣٢١٣).
(٨) عون المعبود (١٣/ ٣٥٨).

«ما يفاخر أو ينافح عن رسول اللَّه ﷺ» أي: ما دام مشتغلًا بتأييد دين اللَّه، وتقوية رسول اللَّه ﷺ»[١].

قال المناوي: «أي الروح المقدسة وهو جبريل ﷺ سمي به لأنه يأتي بما فيه حياة القلب فإنه المتولي لإنزال الكتب الإلهية التي بها تحيا الأرواح الربانية والقلوب الجسمانية فهو كالمبدأ لحياة القلب كما أن الروح مبدأ لحياة الجسد وأضيف إلى القدس لأنه مجبول على الطهارة والنزاهة من العيوب وخص بذلك وإن كانت جميع الملائكة كذلك لأن روحانيته أتم وأكمل»[٢].

* * *

(١) تحفة الأحوذي (٨/ ١١١).

(٢) فيض القدير (٢/ ٤٥٠).

قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾

★ **غريب الآية:**

تهوى: أصل الهوى: الميل إلى الشيء، ويجمع أهواء، وسمي الهوى لأنه يهوي بصاحبه إلى النار، ولذلك لا يستعمل في الغالب إلا في ما ليس بحق وفيما لا خير فيه. وقد يستعمل في الخير ومنه قول عمر ﷺ في أسارى بدر: (فهوي رسول اللَّه ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت)[1].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «فهذا هو الذي تسميه النظار والفقهاء التشهي والتحكم، فيقول أحدهم لصاحبه: لا حجة لك على ما ادعيت سوى التشهي والتحكم الباطل، فإن جاءك ما لا تشتهيه دفعته ورددته. وإن كان القول موافقًا لما تهواه وتشتهيه، إما من تقليد من تعظمه أو موافقةِ ما تريده قبلته وأجزته، فترد ما خالف هواك، وتقبل ما وافق هواك: وهذا الاحتجاج والذي قبله مفحمان للخصم لا جواب له وعليهما البتة، فإن الأخذ ببعض الكتاب يوجب الأخذ بجميعه، والتزامُ بعض شرائعه يوجب التزام جميعها، ولا يجوز أن تكون الشرائع تابعة للشهوات، إذ لو كان الشرع تابعًا للهوى والشهوة لكان في الطباع ما يغني عنه، وكانت شهوة كل أحد وهواه شرعًا له ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[2]»[3].

وقال محمد رشيد رضا: «ماذا كان حظ أولئك الرسل من بني إسرائيل؟ كان حظهم منهم ما أفاده الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ فاتبعتم الهوى وأطعتم الشهوات، وعصيتم الرسل واحتميتم

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠-٣١) ومسلم (٣/ ١٣٨٣-١٣٨٥/ ١٧٦٣).

(٢) المؤمنون: الآية (٧١). (٣) بدائع الفوائد (٤/ ١٤٤).

عليهم أن أنذروكم ودعوكم إلى أحكام كتابكم ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ كان المعهود في التخاطب وكلام الناس أن تذكر هذه المساوي ثم يوبخون عليها، ولكن طواها في الخطاب وأدمجها في الاستفهام لتفاجيء النفوس بقوة التشنيع والتقبيح، وتبرز لها في ثوب الإنكار والتوبيخ، وفي ذلك الإيماء إلى أن هذه المعاملة السوء مما لا يخفى خبرها، ولا تغيب عن الأفكار صورها، فلا ينبغي الإلماع إليها، إلا في سياق تقريع مجترحيها، وهذا من إيجاز القرآن، الذي لا يعرج إليه فكر الإنسان، وانظر كيف أورد خبر القتل بصيغة المضارع التي تدل على الحال لاستحضار تلك الصورة الفظيعة وتمثيلها للسامع حتى يمثلها في الخيال، وإن مرت عليها القرون والأحوال؛ لأنها أفاعيل لا تخلق جدتها، ودماء لا تطير رغوتها، وأن مثل هذا التعبير ليمثل تلك الصورة المشوهة؛ لأن الألفاظ إذا قرعت الذهن بمفهومها يتناول الخيال ذلك المفهوم ويصوره بالصورة اللائقة به، فيكون له من التأثير ما يناسبه.

قتلوا من الأنبياء المرسلين زكريا ويحيى عليهما السلام، ويروى أنهم قتلوا في يوم واحد مئة وخمسين نبيًّا، فإن صح هذا فالمراد بأولئك الأنبياء من كانت نبوتهم محصورة في الدعوة إلى إقامة التوراة، ودليلها محصورًا في الإنباء ببعض المغيبات وكان هذا الفريق منتشرًا في أسباط بني إسرائيل وكثيرًا بكثرتهم.

وفي هذه الآية حجتان للنبي ﷺ حجة على بني إسرائيل وحجة على الذين يعجبون لعدم إيمانهم به وإجابتهم دعوته، وبيان أن المجاحدة والمعاندة من شأنهم ومما عرف من شنشنتهم»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (١/ ٣٧٧-٣٧٨).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

غلف: بسكون اللام؛ أي: عليها أغطية، فقلب أغلف؛ أي: مستور عن الفهم والتمييز.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «وقد اختلف في معنى قولهم: قلوبنا غلف فقالت طائفة: المعنى قلوبنا أوعية للحكمة والعلم، فما بالها لا تفهم عنك ما أتيت به أو لا تحتاج إليك.

وعلى هذا فيكون غلف جمع غلاف، والصحيح قول أكثر المفسرين أن المعنى: قلوبنا لا تفقه ولا تفهم ما تقول، وعلى هذا فهو جمع أغلف كأحمر وحُمْر.

قال أبو عبيدة: كل شيء في غلاف فهو أغلف كما يقال سيف أغلف، وقوس أغلف، ورجل أغلف غير مختون.

قال ابن عباس وقتادة ومجاهد: على قلوبنا غشاوة، فهي في أوعية فلا تعي ولا تفقه ما تقول. وهذا هو الصواب في معنى الآية لتكرر نظائره في القرآن كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي﴾[2] ونظائر ذلك.

وأما قول من قال: هي أوعية للحكمة فليس في اللفظ ما يدل عليه البتة، وليس له في القرآن نظير يحمل عليه، ولا يقال مثل هذا اللفظ في مدح الإنسان نفسه بالعلم والحكمة، فأين وجدتم في الاستعمال قول القائل: قلبي غلاف، وقلوب المؤمنين العالمين غلف، أي أوعية للعلم؟

والغلاف قد يكون وعاء للجيد والرديء، فلا يلزم من كون القلب غلافًا أن يكون داخله العلم والحكمة. وهذا ظاهر جدًّا، فإن قيل: فالإضراب بـ(بل) على

(١) فصلت: الآية (٥). (٢) الكهف: الآية (١٠١).

هذا القول الذي قويتموه ما معناه.

وأما على القول الآخر فظاهر، أي ليست قلوبكم محلًا للعلم والحكمة بل مطبوع عليها؟ قيل: وجه الإضراب في غاية الظهور، وهو أنهم احتجوا بأن اللَّه لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته، بل جعل قلوبهم داخلة في غلف فلا تفقهه، فكيف تقوم به عليهم الحجة؟ وكأنهم ادعوا أن قلوبهم خلقت في غلف فهم معذورون في عدم الإيمان فكذبهم اللَّه وقال: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[١]، وفي الآية الأخرى ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم وآثروه على الإيمان فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة، والمعنى: لم نخلق قلوبهم غلفًا لا تعي ولا تفقه ثم نأمرهم بالإيمان وهم لا يفهمونه ولا يفقهونه، بل اكتسبوا أعمالًا عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها»[٢].

وقال محمد رشيد رضا: «والمراد أننا لا نعقل قولك ولا ينفذ إلى قلوبنا مفهوم دعوتك فهو بمعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[٣].

وقد رد اللَّه تعالى عليهم بما يشعر بكذبهم وعنادهم فقال: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: أن قلوبهم ليست غلفًا لا تفهم الحق بطبعها، وإنما أبعدهم اللَّه تعالى من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء السابقين وبالكتاب الذي تركوا العمل به وحرفوه اتباعا لأهواءهم، فهم قد أنسوا بالكفر وانطبعوا عليه، فكان ذلك سببًا في حرمانهم من قبول الرحمة الكبرى بإجابة دعوة خاتم النبيين. هذا هو معنى اللعن وقد ذكرت معه علته ليعلم أنه جرى على سنة اللَّه تعالى في الأسباب والمسببات وأن اللَّه لم يظلمهم بهذا، وإنما ظلموا أنفسهم بالكفر الذي يستتبع الكفر، والعصيان الذي يجر إلى التمادي في العصيان، كما هي السنة في أخلاق الإنسان، ولما كان ذكر اللعن معللًا بالكفر الذي هو نتيجة تأثير أعمالهم السابقة في أنفسهم،

---

(١) النساء: الآية (١٥٥).

(٢) شفاء العليل (١/ ٢٤٤-٢٤٥).

(٣) فصلت: الآية (٥).

وكان مما يخطر بالبال أن أولئك القوم لم يكونوا كافرين، بل مؤمنين باللَّه وكتابه ورسله إليهم، استدرك فقال: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وإنما القلة في الإيمان باعتبار ما يؤمن به من أصول الدين وأحكام الشريعة، وبالنسبة إلى اليقين في الإيمان، وتحكيمه في الفكر والوجدان.

ولقد كان القوم يؤمنون بالشريعة في الجملة وكما تعطيه ظواهر الألفاظ، ولكنهم لم يلبسوها مفصلة تفصيلًا، ولم يفقهوا حكمها وأسرارها، فلم يكن لها سلطان على قلوبهم، ولم تكن هي المحركة لإرادتهم في أعمالهم، وإنما كان يحركها الهوى والشهوة، ويصرفها عامل اللذة، فالإيمان إنما كان عندهم قولًا باللسان، ورسمًا يلوح في الخيال، تكذبه الأعمال، وتطمسه السجايا الراسخة والخلال، وهذا هو الإيمان الذي لا قيمة له عند اللَّه تعالى. ومن العجب أن نرى آيات القرآن تبطله بالحجج القيمة، والأساليب المؤثرة، وأهل القرآن عن ذلك غافلون، فقليلًا ما يعتبرون ويتذكرون»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (١/ ٣٧٨-٣٧٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يستفتحون: أي: يستنصرون، والاستفتاح: الاستنصار.

اللعن: الطرد والإبعاد. ويقال للذئب: لعين. وللرجل الطريد: لعين. ومنه قول الشماخ:

ذَعَرْتُ بِهِ القَطَا وَنَفَيْتُ عنه ... مَقَامَ الذئب -كالرجلِ- اللعينِ

ووجه الكلام: مقام الذئب اللعين كالرجل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «فهذه حجة أخرى على اليهود في تكذيبهم بمحمد ﷺ، فإنهم كانوا يحاربون جيرانهم من العرب في الجاهلية، ويستنصرون عليهم بالنبي ﷺ قبل ظهوره، فَيُفْتَحُ لهم ويُنْصَرُون، فلما ظهر النبي ﷺ كفروا به وجحدوا نبوته، فاستفتاحُهُم به وجَحْدُ نبوته مما لا يجتمعان، فإن كان استفتاحهم به لأنه نبي كان جحدُ نبوته محالًا، وإن كان جحد نبوته كما يزعمون حقًّا كان استفتاحهم به باطلًا، فإن كان استفتاحهم به حقا فنبوته حق، وإن كانت نبوته كما يقولون باطلًا فاستفتاحهم به باطل، وهذا مما لا جواب لأعدائه عنه ألبتة، ويمكن تقريرها على صور عديدة:

منها: أن يقال قد أقررتم بنبوته قبل ظهوره باستفتاحكم به، فتعين عليكم الإقرار بها بعد ظهوره.

الثانية أن يقال: كنتم تستفتحون به وذلك إقرار منكم بنبوته قبل ظهوره استنادًا إلى ما عندكم من العلم بظهوره، فلما شاهدتموه وصار المعلوم معاينًا بالرؤية

فالتصديق به حينئذ يكون أولى، فكفرتم به عند كمال المعرفة، وآمنتم به حين كانت غيبًا لم تكمل، فآمنتم به على تقدير وجوده، وكفرتم به عند تحقق وجوده، فأي تناقض وعناد أبلغ من هذا.

الثالثة أن يقال: إيمانكم به لازم لاستفتاحكم به، ووجود الملزوم بدون لازمه محال.

الرابعة أن يقال: استفتاحكم به هل كان عن دليل أو لا عن دليل، فلابد أن يقولوا: كان عن دليل، وحينئذ يجب طرد الدليل، والقول بموجبه حيث وجد، فإما أن يقالَ بموجبه في موضع، ويجحدَ موجبُه في موضع أقوى منه فمن أبطل الباطل.

الخامسة أن يقال: إن كان الاستفتاح به تصديقًا للنبي الذي أخبر بظهوره وقامت البراهين على صدقه فالإيمان به متعين تصديقًا للنبي الأول أيضًا، وإن كان تركُ الإيمان قبل ظهوره تكذيبًا للنبي الأول فتركُ الإيمان به بعد ظهوره أشد تكذيبًا، فأنتم في كفركم به مكذبون للنبي الأول، والثاني وهذا من أحسن الوجوه...»[1].

ثم قال: «ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فأغنى عن هذه الوجوه والتقريرات كلها قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ والمادة الحق يمكن إبرازها في الصور المتعددة، وفي أي قالب أفرغت، وصورة أبرزت، ظهرت صحيحة، وهذا شأن مواد براهين القرآن، في أي صورة أبرزتها ظهرت في غاية الصحة والبيان، فالحمد لله المانِّ بالهدى على عباده المؤمنين»[2].

وقال السعدي: «أي: ولما جاءهم من عند اللَّه على يد أفضل الخلق، وخاتم الأنبياء، الكتاب المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة، وقد علموا به، وتيقنوه على أنهم إذا كان وقع بينهم وبين المشركين في الجاهلية حروب، استنصروا بهذا النبي، وتوعدوهم بخروجه، وأنهم يقاتلون المشركين معه.

فلما جاءهم هذا الكتاب والنبي الذي عرفوا، كفروا به، بغيًا وحسدا، أن ينزل

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٤٤-١٤٥).

(٢) بدائع الفوائد (٤/ ١٤٦-١٤٧).

اللَّه من فضله على من يشاء من عباده.

فلعنهم اللَّه، وغضب عليهم غضبا بعد غضب، لكثرة كفرهم، وتوالى شكهم وشركهم»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان عناد اليهود

* عن سلمة بن سلامة بن وقش وكان من أصحاب بدر قال: (كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل، قال: فخرج علينا يوما من بيته قبل مبعث النبي ﷺ بيسير، فوقف على مجلس بني عبد الأشهل، قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيه سنًّا علي بردة مضطجعًا فيها بفناء أهلي، فذكر البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار، فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان لا يرون أن بعثًا كائن بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان، ترى هذا كائنا، إن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم؟ قال: نعم، والذي يُحْلَفُ به لَوَدَّ أَنَّ له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدنيا يُحمّونه ثم يُدخِلُونه إياه فَيُطبق به عليه، وأن ينجو من تلك النار غدًا، قالوا له: ويحك وما آية ذلك؟ قال: نبي يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن، قالوا: ومتى تُراه؟ قال: فنظر إلي وأنا من أحدثهم سنًّا، فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه. قال سلمة: فواللَّه ما ذهب الليل والنهار حتى بعث اللَّه تعالى رسوله ﷺ وهو حي بين أظهرنا، فآمنا به وكفر به بغيًا وحسدًا، فقلنا: ويلك يا فلان! ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى وليس به)[2].

* **غريب الحديث:**

بردة: هي الشملة والجمع برود.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١١٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٧) والطبراني (٧/ ٤٧/ ٦٣٢٧) والحاكم (٣/ ٤١٧-٤١٨) وقال: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي، وليس كما قالا فإن مسلمًا إنما أخرج لمحمد بن إسحاق متابعة.
والبيهقي في الدلائل (٢/ ٧٨-٧٩) وأبو نعيم في الدلائل (ص: ٣٨-٣٩). وقال الهيثمي (٨/ ٢٣٠): «رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع».

تنور: الفرن الذي يخبز فيه.

★ **فوائد الحديث:**

قوله: (قال بلى وليس به)

قال الساعاتي: «أي ليس هو الذي ذكرته لكم، أنكر اليهودي معرفة النبي ﷺ والحال أنه يعرفه كما يعرف ابنه وإنما قال ذلك اليهودي بغيًا وحسدًا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1]»[2].

* * *

---

(١) البقرة: الآية (١٤٦).

(٢) الفتح الرباني (٢١/ ١٨).

قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾

★ غريب الآية:

بئس: نقيض نِعْمَ، وهي فعل ماض تقتضي جميع المذامّ، كما أن نِعْمَ تقتضي جميع المحامد.

اشتروا: ابتاعوا، من الشراء بمعنى: البيع.

بغيًا: البغي طلب تجاوز الاقتصاد في ما يتحرى، تجاوزه أم لم يتجاوزه، والبغي على ضربين، أحدهما محمود وهو تجاوز العدل إلى الإحسان، والفرض إلى التطوع. والثاني مذموم: وهو تجاوز الحق إلى الباطل. وأكثر استعمال البغي في الأشياء المذمومة لاسيما إذا أطلق، نحو زيد بغى.

مُهين: أي: مُذِلٌّ. مأخوذ من الهوان، والهوان على وجهين: أحدهما تذلل الإنسان في نفسه لما لا يلحق به غضاضة، فيمدح به نحو قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾[1]. والثاني: أي يكون من جهة متسلط مستخف به فيذم به، ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾[2] وهو المراد هنا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فمعنى الآية: بئس الشيء باعوا به أنفسهم، الكفر بالذي أنزل اللّه في كتابه على موسى -من نبوة محمد ﷺ، والأمر بتصديقه واتباعه- من أجل أن أنزل اللّه من فضله؛ وفضله: حكمته وآياته ونبوته على من يشاء من عباده -يعني به: على محمد ﷺ- بغيًا وحسدًا لمحمد ﷺ، من أجل أنه كان من ولد إسماعيل، ولم

---

(١) الفرقان: الآية (٦٣).
(٢) الأحقاف: الآية (٢٠).

يكن من بني إسرائيل.

فإن قال قائل: وكيف باعت اليهود أنفسها بالكفر، فقيل: بئس ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله؟ وهل يشترى بالكفر شيء؟

قيل: إن معنى: (الشراء) و(البيع) عند العرب، هو إزالة مالك ملكه إلى غيره، بعوض يعتاضه منه. ثم تستعمل العرب ذلك في كل معتاض من عمله عوضًا، شرًّا أو خيرًا. فتقول: (نعم ما باع به فلان نفسه) و (بئس ما باع به فلان نفسه)، بمعنى: نعم الكسب أكسبها، وبئس الكسب أكسبها، إذا أورثها بسعيه عليها خيرًا أو شرًّا. فكذلك معنى قوله -جل ثناؤه-: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ لما أوبقوا أنفسهم بكفرهم بمحمد ﷺ فأهلكوها، خاطبهم اللّه والعرب بالذي يعرفونه في كلامهم، فقال: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾، يعني بذلك: بئس ما أكسبوا أنفسهم بسعيهم، وبئس العوض اعتاضوا، من كفرهم باللّه في تكذيبهم محمدًا، إذ كانوا قد رضوا عوضًا من ثواب اللّه وما أعد لهم لو كانوا آمنوا باللّه وما أنزل على أنبيائه بالنار وما أعد لهم بكفرهم بذلك»[1].

وقال: «يعني بقوله: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ فرجعت اليهود من بني إسرائيل بعد الذي كانوا عليه من الاستنصار بمحمد ﷺ والاستفتاح به، وبعد الذي كانوا يخبرون به الناس من قبل مبعثه أنه نبي مبعوث مرتدين على أعقابهم حين بعثه اللّه نبيًّا مرسلًا، فباؤوا بغضب من اللّه استحقوه منه بكفرهم بمحمد حين بعث، وجحودهم نبوته، وإنكارهم إياه أن يكون هو الذي يجدون صفته في كتابهم، عنادًا منهم له وبغيًا، وحسدًا له وللعرب على غضب سالف، كان من اللّه عليهم قبل ذلك، سابق غضبه الثاني، لكفرهم الذي كان قبل عيسى بن مريم، أو لعبادتهم العجل، أو لغير ذلك من ذنوب كانت لهم سلفت، يستحقون بها الغضب من الله»[2].

وقال: «وهذه الآية وما أخبر اللّه فيها عن حسد اليهود محمدًا ﷺ وقومه من العرب، من أجل أن اللّه جعل النبوة والحكمة فيهم دون اليهود من بني إسرائيل، حتى دعاهم ذلك إلى الكفر به، مع علمهم بصدقه، وأنه لله نبي مبعوث ورسول

(١) جامع البيان (٢/ ٣٤٢-٣٤٣ تحقيق شاكر).

(٢) جامع البيان (٢/ ٣٤٥ تحقيق شاكر).

مرسل نظيرة الآية الأخرى في سورة النساء، وذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[1]»[2].

* * *

(١) النساء: الآيات (٥١-٥٤).

(٢) جامع البيان (٢/ ٣٤٣ تحقيق شاكر).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بما وراءه: بما بعده. قال الجوهري: وراء بمعنى خَلْف، وقد تكون بمعنى قُدّام. وهو من الأضداد. وإذا لم تضفه قلتَ: لقيتُه من وراءُ، فترفعه على الغاية كقولك: مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ. قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾[1] أي: أمامهم. قال الشاعر:

تَمَنّي الأماني ليس شيءٌ وراءَها كموعد عرقوب أخاه بيثرب

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «هذه حكاية مناظرة بين الرسول ﷺ وبين اليهود لما قيل لهم ﴿ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فأجابوه بأن قالوا: ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ ومرادهم بهذا التخصيص أن نؤمن بالمنزل علينا دون غيره، فظهرت عليهم الحجة بقولهم هذا من وجهين دل عليهما قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ إلى آخر الآية، قال: إن كنتم قد آمنتم بما أنزل عليكم لأنه حق؛ فقد وجب عليكم أن تؤمنوا بما جاء به محمد لأنه حق مصدق لما معكم، وحكم الحق الإيمان به أين كان ومع من كان، فلزمكم الإيمان بالحقين جميعًا. أو الكفر الصراح. وفي قوله: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ نكتة بديعة جدا، وهي أنهم لما كفروا به وهو حق لم يكن إيمانهم بما أنزل عليهم لأجل أنه حق، فإذا لم يتبعوا الحق فيما أنزل عليهم، ولا فيما جاء به محمد ﷺ؛ لأنهم لو آمنوا بالمنزل عليهم أنه حق لآمنوا بالحق الثاني وأعطوا الحق حقه من الإيمان، ففي ضمن هذه الشهادة عليهم بأنهم لم

---

(١) الكهف: الآية (٧٩).

يؤمنوا بالحق الأول ولا بالثاني، وهكذا الحكم في كل من فرق الحق فآمن ببعضه، وكفر ببعضه كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، وكمن آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض لم ينفعه إيمانه بما كفر به حتى يؤمن بالجميع.

ونظير هذا التفريق تفريقُ من يَرُدُّ آيات الصفات وأخبارها، ويقبل آيات الأوامر والنواهي فإن ذلك لا ينفعه؛ لأنه آمن ببعض الرسالة وكفر ببعض، فإن كانت الشبهة التي عرضت لمن كفر ببعض الأنبياء غير نافعة له، فالشبهة التي عرضت لمن رَدَّ بعض ما جاء به النبي ﷺ أولى أن لا تكون نافعة وإن كانت هذه عذرًا له فشبهة من كذب بعض الأنبياء مثلُها، وكما أنه لا يكون مؤمنًا حتى يؤمن بجميع الأنبياء، ومن كفر بنبي من الأنبياء فهو كَمَن كفر بجميعهم، فكذلك لا يكون مؤمنًا حتى يؤمن بجميع ما جاء به الرسول، فإذا آمن ببعضه ورد بعضه فهو كمن كفر به كله. فتأمل هذا الموضع واعتبر به الناس على اختلاف طوائفهم يتبين لك أن أكثر من يدعي الإيمان بريء من الإيمان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الوجه الثاني من النقض قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ووجه النقض أنكم إن زعمتم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم وبالأنبياء الذين بعثوا فيكم، فلم قتلتموهم من قبل، وفيم أنزل إليكم الإيمان بهم وتصديقهم، فلا آمنتم بما أنزل إليكم، ولا بما أنزل على محمد ﷺ، ثم كأنه تَوَقَّعَ منهم الجوابَ بأنا لم نقتل من ثبتت نبوته، ولم نكذب به، فأجيبوا على تقدير هذا الجواب الباطل منهم بأن موسى قد جاءكم بالبينات، وما لا ريب معه في صحة نبوته، ثم عبدتم بعد غيبته عنكم وأشركتم بالله وكفرتم به، وقد علمتم نبوة موسى وقيام البراهين على صدقه»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «ثم ذكر اعتذارًا آخر لهم مقرونا بالرد والإبطال، وإقامة الحجة عليهم به فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ صيغة الدعوة تشعر بوجوب الإيمان بما أنزل الله تعالى لأنه هو الذي أنزله لا لأن المنزل عليه فلان ولذلك لم يقل: آمنوا بما أنزل على محمد. فإن ما أنزل عليه لو أنزل على غيره لوجب الإيمان به فإن الوحي هو المقصود بالذات والأنبياء

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٤٨-١٤٩).

إنما هم مبلغون، فتقييد الخضوع لوحي اللَّه بكونه لابد أن يكون منزلًا على شخص من شعب كذا بعينه تحكم على اللَّه تعالى وقضاء عليه بأن تكون رحمته مقيدة بأهواء فريق من خلقه. فإيراد الدعوة بما ذكر من الإطلاق مع إيراد الجواب مقيدًا بقيد ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يشعر بقوة حجة الدعوة، ووهن ما بني عليه الجواب من الشبهة. ثم صرح بالحقيقة وهي أنهم إنما يدعون هذا الإيمان بألسنتهم ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ من مدلول ولازم لا ينفك عنه كالبشارة برسول من بني إخوتهم أي ولد إسماعيل، وكون ما تثبت به نبوة محمد بمساواته لما تثبت به نبوة موسى يستلزم وجوب اتباع محمد كما اتبع موسى لأن المدلول يتبع دليله في كل زمن وكل موضوع. قال: إنهم يكفرون بما وراء المنزل إليهم ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: والحال أنه الحق الثابت في نفسه بالدليل حال كونه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ فهو مؤيد عندهم بالعقل والنقل وقد كان من مكابرتهم وعنادهم ما كان فلم يبق إلا إلزامهم الحجة بما اقترفوا من فحش المخالفة لما أنزل إليهم والفسوق عنه ليعلم أنهم إنما يتبعون أهواءهم ويحكمون شهواتهم بما أنزل إليهم وما أنزل على محمد ﷺ، ولذلك قال: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بما أنزل إليكم وليس فيه الأمر بقتل الأنبياء بل فيه النهي الشديد عن قتل أنفسكم»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (١/ ٣٨٣).

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: جاءكم بالبينات الدالة على صدقه وصحة نبوته، كالعصا التي تحولت ثعبانًا مبينا، ويده التي أخرجها بيضاء للناظرين. وفلق البحر ومصير أرضه له طريقًا يبسًا، والجراد والقمل والضفادع، وسائر الآيات التي بينت صدقه وصحة نبوته.

وإنما سماها اللَّه (بينات)، لتبينها للناظرين إليها أنها معجزة لا يقدر على أن يأتي بها بشر، إلا بتسخير اللَّه ذلك له. وإنما هي جمع (بينة)، مثل: (طيبة وطيبات).

قال أبو جعفر: ومعنى الكلام: ولقد جاءكم -يا معشر يهود بني إسرائيل- موسى بالآيات البينات على أمره وصدقه وصحة نبوته... فيكون تأويل الكلام حينئذ: ولقد جاءكم موسى بالبينات، ثم اتخذتم العجل من بعد مجيء البينات وأنتم ظالمون. كما تقول: (جئتني فكرهته)؛ يعني: كرهت مجيئك.

وأما قوله: ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾، فإنه يعني بذلك: أنكم فعلتم من عبادة العجل وليس ذلك لكم، وعبدتم غير الذي كان ينبغي لكم أن تعبدوه؛ لأن العبادة لا تنبغي لغير اللَّه. وهذا توبيخ من اللَّه لليهود، وتعيير منه لهم، وإخبار منه لهم أنهم إذا كانوا فعلوا ما فعلوا -من اتخاذ العجل إلها وهو لا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا، بعد الذي علموا أن ربهم هو الرب الذي يفعل من الأعاجيب وبدائع الأفعال ما أجراه على يدي موسى -صلوات اللَّه عليه-، من الأمور التي لا يقدر عليها أحد من خلق اللَّه، ولم يقدر عليها فرعون وجنده مع بطشه وكثرة أتباعه، وقرب عهدهم بما عاينوا من عجائب حكم اللَّه -فهم إلى تكذيب محمد ﷺ وجحود ما في كتبهم التي زعموا أنهم بها مؤمنون من صفته ونعته، مع بعد ما بينهم وبين عهد موسى من المدة -

أسرع، وإلى التكذيب لما جاءهم به موسى من ذلك أقرب»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «سبق التذكير باتخاذ العجل في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[٢] ثم أعاده هنا بعبارة وأسلوب آخرين في سياق آخر، أما اختلاف العبارة والأسلوب فظاهر وأما السياق فقد كان أولًا في تعداد النعم على بني إسرائيل وبيان ما قابلوها به من الكفران وهو هنا في ذكر الآيات ورد شبهاتهم المانعة بزعمهم من الإيمان بالنبي ﷺ، فهناك يقول إن النعم التي أسبغها اللّه عليكم لم يكن لها من شكر عندكم إلا اتخاذ عجل تعبدونه من دونه. وههنا يقول إن الآيات البينات على النبوة والوحدانية، لم تزدكم إلا إيغالًا في الشرك وانهماكًا في الوثنية، فكيف تعتذرون عن الإيمان بمحمد بأنكم لا تؤمنون إلا بما أنزل إليكم وهذا شأنكم فيه؟ ومجموع الآيتين ينبئ بفساد قلوب القوم وفساد عقولهم حتى لا مطمع في هداية أكثرهم من جهة الوجدان، ولا من ناحية العقل والجنان. وهذه البينات التي ذكرها ههنا قد كانت في مصر قبل الميعاد الذي نزلت فيه التوراة وأما النعم التي ذكرها هناك فقد كانت في أرض الميعاد كما تقدم. ووجه الاتصال بين هذه الآية وما قبلها قد علم مما قلناه في السياق وفيه المقابلة بين معاملتهم لموسى عليه السلام ومعاملتهم للنبي ﷺ إذ قالوا: قلوبنا غلف: وادعوا أنهم مأمورون بأن لا يؤمنوا إلا بما أنزل عليهم خاصة. وقد علم من هذه الحجج كلها بطلان شبههم وكذبهم في دعواهم وأنه لا عذر لهم في ترك الإيمان»[٣].

قال الشنقيطي: «﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ لم يبين هنا ما هذه البينات وبينها في مواضع أخر كقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾[٤] وقوله: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾[٥] الآية وقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾[٦] الآية. إلى غير ذلك من الآيات»[٧].

* * *

(١) جامع البيان (٢/ ٣٥٤-٣٥٦ تحقيق شاكر).
(٢) البقرة: الآية (٥١).
(٣) تفسير المنار (١/ ٣٨٥-٣٨٦).
(٤) الأعراف: الآية (١٣٣).
(٥) الشعراء: الآيتان (٣٢ و ٣٣).
(٦) الشعراء: الآية (٦٣).
(٧) أضواء البيان (١/ ٨٠-٨١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣)﴾

★ غريب الآية:

اسمعوا: أجيبوا واقْبَلُوا. ومنه قول المصلّي: «سمع اللهُ لمن حمده» أي: أجابه وقبله. وإنما قيل ذلك لأن غرض الداعي قبولُ دعائهِ وإجابتهِ، فأوقع السماع موقع الإجابة والقبول. قال الشاعر:

دَعَوتُ اللهَ حتى خِفْتُ أَلَّا يكونَ اللهُ يسمع ما أَقُولُ

أي: يقبل.

أُشْرِبوا: أي: تمكّن حُبُّه من قلوبهم تمكُّنًا، بمنزلة مَنْ شرب ماءً فدخل جوفَهُ. قال زهير:

فَصَحَوْتُ عنها بعد حُبٍّ داخِلٍ والحبُّ تُشْرِبُهُ فُؤادَكَ: داءُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يعدد ﷻ عليهم خطأهم، ومخالفتهم للميثاق وعتوهم وإعراضهم عنه، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه ولهذا قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «ثم ذكرهم هنا أيضًا بأخذ الميثاق ورفع الطور كما ذكرهم به في آية تقدمت، وقد قال هناك: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾[2] وقال هنا: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ وأمرهم في تلك بالحفظ وأمرهم في هذه بالفهم والطاعة... وأمامنا الآن معنى الآية التي نفسرها وهو أن اللّه أخذ

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٢٠).

(٢) البقرة: الآية (٦٣).

العهد على بني إسرائيل بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا وأن يعملوا بشريعته ووصاياه وكان أخذ هذا العهد في موقف رهبة وخشوع يعين على أخذه بالجد والعزيمة إذ كان الجبل مرفوعًا فوقهم بصفة لم يعهدوها حتى ظنوا أنه يريد أن يقع بهم ولكنهم لم يلبثوا أن نقضوا هذا الميثاق وتركوا العمل به وعبدوا العجل الذي صاغوه من حليهم بأيديهم عن حب متمكن من النفس، وغالب على العقل والحس، وقد ذكر اللَّه تعالى هذا المعنى في كتابه غير مرة ولكن بعبارات مختلفة كالآية التي تقدمت وذكر هناك أنهم تولوا عن الميثاق بعد الأمر بحفظه والعمل به رجاء التقوى، وكآية الأعراف ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾[1] وتقدمت الإشارة إليها هناك وكلاهما غاية في البلاغة.

وذكره هنا بنظم آخر تنتهي إليه البلاغة في سياق آخر فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ﴾ ثم التفت عن خطاب الحاضرين إلى الحكاية عن الغابرين فقال: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي أنهم قبلوا الميثاق وفهموه ولكنهم لم يعملوا به بل خالفوه تعنتًا وتأولًا وليس المراد أنهم نطقوا بهاتين الكلمتين ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ بل المراد أنهم بمثابة من قال ذلك... ثم ذكر أقبح أمثلة هذا العصيان بعبارة مدهشة في بلاغتها فقال: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ هذه الاستعارة من فرائد الاستعارات يتمثل بها عند ذكر بلاغة القرآن. وإشراب الشيء مخالطته إياه وامتزاجه به، يقال بياض مشرب بحمرة، أو هو من الشرب كأن الشيء المحبوب شراب يساغ فهو يسري في قلب المحب ويمازجه كما يسري الشراب العذب البارد في لهاته...».

ثم قال: «وأما السياق الذي وردت فيه هذه الآية بهذا النظم والأسلوب المخالفَيْن لأسلوب تلك الآية مع الاتحاد في المعنى، فهو إقامة الحجة على اليهود الذين لم يؤمنوا بالنبي ﷺ، ورد زعمهم أنهم مؤمنون بشريعته، لا يطالبهم اللَّه بالإيمان بغيرها كما قلنا في التي قبلها، ولذلك ختم الآية بقوله تعالى مخاطبا للنبي ﷺ: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن صح زعمكم أنكم مؤمنون بشريعته والإيمان الحقيقي يقتضي العمل بما له من السلطان على الإرادة، فبئسما يأمركم به ذلك

(١) الأعراف: الآية (١٧١).

الإيمان من الأعمال التي منها عبادة العجل وقتل الأنبياء ونقض الميثاق. لكن هذا الزعم مشكوك فيه، بل يصح القطع بعدمه، بدليل الأعمال التي يستحيل أن تكون أثرًا له. ولا ينسى القارئ ما تقدم من ربط الإيمان بالعمل الصالح في تفسير قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾[1] الآية»[2].

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾. قال بعض العلماء: هو من السمع بمعنى الإجابة، ومنه قولهم: سمعًا وطاعة؛ أي: إجابة وطاعة. ومنه: سمع اللَّه لمن حمده في الصلاة؛ أي: أجاب دعاء من حمده، ويشهد لهذا المعنى قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[3] وهذا قول الجمهور وقيل: إن المراد بقوله: (اسمعوا) أي: بآذانكم ولا تمتنعوا من أصل الاستماع.

ويدل لهذا الوجه: أن بعض الكفار ربما امتنع من أصل الاستماع خوف أن يسمع كلام الأنبياء، كما في قوله تعالى عن نوح مع قومه: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾[4].

وقوله عن قوم نبينا ﷺ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[5] وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾[6] وقوله: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[7]؛ لأن السمع الذي لا ينافي العصيان هو السمع بالآذان دون السمع بمعنى الإجابة»[8].

* * *

---

(١) البقرة: الآية (٨١).
(٢) تفسير المنار (١/ ٣٨٦-٣٨٨).
(٣) النور: الآية (٥١).
(٤) نوح: الآية (٧).
(٥) فصلت: الآية (٢٦).
(٦) الحج: الآية (٧٢).
(٧) البقرة: الآية (٩٣).
(٨) أضواء البيان (١/ ٨١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

خالصةً: أي صافيةً، مِنْ خَلُصَ له الأمرُ إذا صفا. وصار له وحده دون الناس، والمعنى: مختصةٌ بكم دون غيركم من الناس.

فتمنوا الموت: أي ادعوا على أنفسكم بالموت، أو اطلبوها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «كانوا يقولون: نحن أحباء اللَّه، ولنا الدار الآخرة خالصةٌ من دون الناس، وإنما يعذب منا من عبد العجل مدة ثم يخرج من النار، وذلك مدة عبادتهم له، فأجابهم -تبارك وتعالى- عن قولهم: إن النار لن تَمَسَّهُم إلا أيامًا معدودة؛ بالمطالبة وتقسيم الأمر بين أن يكون لهم عند اللَّه عهد عَهِدَهُ إليهم، وبين أن يكونوا قد قالوا عليه ما لا يعلمون، ولا سبيل لهم إلى ادعاء العهد فتعين الثاني وقد تقدم. ثم أجابهم عن دعواهم خُلُوصَ الآخرة لهم بقوله: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ لأن الحبيب لا يكره لقاء حبيبه، والابن لا يكره لقاء أبيه، لاسيما إذا علم أن كرامتَه ومثوبته مختصةٌ به، بل أحب شيء إليه لقاء حبيبه وأبيه، فحيث لم يحبَّ ذلك ولم يتمنه فهو كاذب في قوله مبطلٌ في دعواه، ونظير هذا قوله في سورة المائدة ردًّا عليهم قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾[1] يعني: أن الأب لا يعذب ابنه، والحبيبَ لا يعذب حبيبه، وههنا نكتة لطيفة جدًّا قل من ينتبه لها ونحن نقررها بسؤال وجواب:

فإن قيل: معلوم أن الأبَ قد يؤدب ولده إذا أذنب، والحبيبَ قد يهجر حبيبه إذا رأى منه بعضَ ما يَكره.

---

(١) المائدة: الآية (١٨).

قيل: لو تأملت أيها السائل قوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾ لعلمت الفرق بين هذا التعذيب وبين الهُجْران والتأديب، فإن التعذيب بالذنب ثمرة الغضب المنافي للمحبة، فلو كانت المحبة قائمة كما زعموا؛ لم يكن هناك ذنوب يستوجبون عليها العذاب؛ من المسخ قردةً وخنازيرَ، وتسلطِ أعدائهم عليهم، يستبيحونهم ويستعبدونهم، ويُخْرِبُون مُتَعَبَّداتِهِمْ ويَسْبُون ذراريهم، فالمحبُ لا يفعل هذا بحبيبه ولا الأبُ بابنه. ومعلوم أن الرحمن الرحيم، لا يفعل هذا بأمة إلا بعد فرْط إجرامها وعتوها على اللَّه، واستكبارها عن طاعته وعبادته، وذلك ينافي كونهم أحبابه، فلو أحبوه لما ارتكبوا من غضبه وسخطه ما أوجب لهم ذلك، ولو أحبهم لأدبهم ولم يعذبهم، فالتأديب شيء، والتعذيب شيء؛ والتأديب يراد به التهذيب والرحمة والإصلاح، والتعذيب للعقوبة والجزاء على القبائح، فهذا لون وهذا لون، وفي ضمن هذه المناظرة معجزةٌ باهرة للنبي ﷺ؛ وهي أن في مقام المناظرة مع الخصوم، الذين هم أحرص الناس على عداوته وتكذيبه، وهو يخبرهم خبرًا جزمًا أنهم لن يتمنوا الموت أبدًا، ولو علموا من نفوسهم أنهم يتمنونه؛ لوجدوا طريقًا إلى الرد عليه، بل ذَلُّوا وغُلِبُوا وعَلِمُوا صحة قوله، وإنما منعهم من تمني الموت معرفتهم بما لهم عند اللَّه من الخزي والعذاب الأليم؛ بكفرهم بالأنبياء، وقَتْلِهِم لهم، وعداوتِهِم لرسول اللَّه ﷺ.

فإن قيل: فهلا أظهروا التمني، وإن كانوا كاذبين، فقالوا: فنحن نتمناه.

قيل: وهذا أيضًا معجزة أخرى؛ وهي أن اللَّه تعالى حبس عن تمنيه قلوبهم وألسنتهم، فلم ترده قلوبهم، ولم تنطق به ألسنتهم تصديقًا لقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾»[1].

وقال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، فإنه يعني به: بما أسلفته أيديهم. وإنما ذلك مثل، على نحو ما تتمثل به العرب في كلامها. فتقول للرجل يؤخذ بجريرة جرها أو جناية جناها فيعاقب عليها: (نالك هذا بما جنت يداك، وبما كسبت يداك، وبما قدمت يداك)، فتضيف ذلك إلى (اليد). ولعل الجناية التي جناها فاستحق عليها العقوبة، كانت باللسان أو بالفرج أو بغير ذلك من أعضاء

(١) بدائع الفوائد (٤/١٤٩-١٥٠).

جسده سوى اليد.

قال ابن جرير: وإنما قيل ذلك بإضافته إلى (اليد)؛ لأن عظم جنايات الناس بأيديهم، فجرى الكلام باستعمال إضافة الجنايات التي يجنيها الناس إلى (أيديهم)، حتى أضيف كل ما عوقب عليه الإنسان مما جناه بسائر أعضاء جسده، إلى أنها عقوبة على ما جنته يده.

فلذلك قال -جل ثناؤه- للعرب: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدَاً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، يعني به: ولن يتمنى اليهود الموت بما قدموا أمامهم في حياتهم من كفرهم بالله، في مخالفتهم أمره وطاعته في اتباع محمد ﷺ وما جاء به من عند الله، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة، ويعلمون أنه نبي مبعوث. فأضاف -جل ثناؤه- ما انطوت عليه قلوبهم، وأضمرته أنفسهم، ونطقت به ألسنتهم- من حسد محمد ﷺ والبغي عليه وتكذيبه وجحود رسالته -إلى أيديهم، وأنه مما قدمته أيديهم، لعلم العرب معنى ذلك في منطقها وكلامها. إذ كان -جل ثناؤه- إنما أنزل القرآن بلسانها وبلغتها»[(١)].

وقال: «وهذه الآية مما احتج الله بها لنبيه محمد ﷺ على اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجره، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم. وذلك أن الله -جل ثناؤه- أمر نبيه ﷺ أن يدعوهم إلى قضية عادلة بينه وبينهم، فيما كان بينه وبينهم من الخلاف. كما أمره الله أن يدعو الفريق الآخر من النصارى إذ خالفوه في عيسى -صلوات الله عليه- وجادلوا فيه إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة. وقال لفريق اليهود: إن كنتم محقين فتمنوا الموت، فإن ذلك غير ضاركم، إن كنتم محقين فيما تدعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله. بل إن أعطيتم أمنيتكم من الموت إذا تمنيتم، فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها، والفوز بجوار الله في جنانه، إن كان الأمر كما تزعمون: من أن الدار الآخرة لكم خالصة دوننا، وإن لم تعطوها علم الناس أنكم المبطلون ونحن المحقون في دعوانا، وانكشف أمرنا وأمركم لهم. فامتنعت اليهود من إجابة النبي ﷺ إلى ذلك، لعلمها أنها إن تمنت الموت هلكت، فذهبت دنياها، وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها. كما امتنع فريق النصارى الذين جادلوا النبي ﷺ في عيسى، إذ دعوا إلى المباهلة من المباهلة.

---

(١) جامع البيان (٢/ ٣٦٨ تحقيق شاكر).

فبلغنا أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار. ولو خرج الذين يباهلون رسول اللَّه ﷺ، لرجعوا لا يجدون أهلًا ولا مالًا»**[(١)][(٢)].

قال القرطبي: «لما ادعت اليهود دعاوى باطلة حكاها اللَّه ﷻ عنهم في كتابه؛ كقوله تعالى: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾[(٣)]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾[(٤)]، وقالوا: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[(٥)] أكذبهم اللَّه ﷻ وألزمهم الحجة فقال: قل لهم يا محمد: ﴿إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ يعني الجنة ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في أقوالكم؛ لأن من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت أحب إليه من الحياة في الدنيا، لما يصير إليه من نعيم الجنة، ويزول عنه من أذى الدنيا، فأحجموا عن تمني ذلك فرقًا من اللَّه لقبح أعمالهم ومعرفتهم بكفرهم في قولهم: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[(٦)]، وحرصهم على الدنيا؛ ولهذا قال تعالى مخبرًا عنهم بقوله الحق: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٧)] تحقيقا لكذبهم، وأيضًا لو تمنوا الموت لماتوا؛ كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقامهم من النار»**»[(٨)].

وقال ابن عطية: «وهذه آية بينة أعطاها اللَّه رسوله محمدًا ﷺ لأن اليهود قالت: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ وشبه ذلك من القول، فأمر اللَّه نبيه أن يدعوهم إلى تمني الموت، وأن يعلمهم أنه من تمناه منهم مات، ففعل النبي ﷺ ذلك، فعلم اليهود صدقه، فأحجموا عن تمنيه، فرقًا من اللَّه لقبح أعمالهم ومعرفتهم بكذبهم في قولهم: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ وحرصًا منهم على الحياة.

وقيل: إن اللَّه تعالى منعهم من التمني وقصرهم على الإمساك عنه لتظهر الآية لنبيه ﷺ. والمراد بقوله: (تمنوا) أريدوه بقلوبكم واسألوه، هذا قول جماعة من المفسرين، وقال ابن عباس: المراد فيه السؤال فقط وإن لم يكن بالقلب، وقال

---

(١) سيأتي تخريجه في الآية نفسها.

(٢) جامع البيان (٢/ ٣٦١-٣٦٢ تحقيق شاكر).

(٣) البقرة: الآية (٨٠).

(٤) البقرة: الآية (١١١).

(٥) المائدة: الآية (١٨).

(٦) المائدة: الآية (١٨).

(٧) البقرة: الآية (٩٥).

(٨) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٤).

أيضًا هو وغيره: إنما أمروا بالدعاء بالموت على أردإ الحزبين من المؤمنين ومنهم، وذكر النهدوي وغيره أن هذه الآية كانت مدة حياة النبي ﷺ وارتفعت بموته. والصحيح أن هذه النازلة من موت من تمنى الموت إنما كانت أيامًا كثيرة عند نزول الآية، وهي بمنزلة دعائه النصارى من أهل نجران إلى المباهلة، وقالت فرقة: إن سبب هذا الدعاء إلى تمني الموت أن النبي ﷺ أراد به هلاك الفريق المكذب أو قطع حجتهم، لا أن علته قولهم نحن أبناء اللَّه.

ثم أخبر تعالى عنهم بعجزهم وأنهم لا يتمنونه»[1].

باب: ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن اللَّه تعالى يكذب أعداءه بحججه وأدلته

* عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لئن رأيت رسول اللَّه ﷺ يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال: **«لو فعل لأخذته الملائكة عيانًا، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول اللَّه ﷺ لرجعوا لا يجدون مالًا ولا أهلًا»**[2].

★ **غريب الحديث:**

عيانًا: أي معاينة مواجهة.

يباهلون: يلتعنون.

* * *

(١) المحرر الوجيز (١/ ١٨١).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٤٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٨/ ١١٠٦١). وأخرجه: البخاري (٨/ ٩٣٨/ ٤٩٥٨) والترمذي (٥/ ٤١٣/ ٣٣٤٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٨/ ١١٦٨٤-١١٦٨٥) مختصرا دون ذكر موضع الشاهد.

قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لتجدنّهم: يقال: وَجَدَ الشيءَ: ألفاهُ وأصابه. ويقال: وجدتُ بمعنى: عَلِمْتُ.

أَحْرَصَ: الحرص: شدة الطلب، وحرص على كذا: إذا أفرط في محبته وإمساكه وطلبه.

يَوَدُّ: يحبّ. وهي هنا بمعنى التّمنّي.

مُزَحْزِحِهِ: الزّحزحة: الإبعاد والتنحية. يقال: زحزحته فتزحزح؛ أي: نحّيته فتنحّى. قال ذو الرمة:

يا قابض الروح عن جسم عصى زمنا ... وغافر الذنب زحزحني عن النار

بَصِير: البصير العالم بالشيء الخبير به، ومنه قولهم: فلان بصير بالطب، وبصير بالفقه؛ أي: عالم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «إنما وصف اللَّه -جل ثناؤه- اليهود بأنهم أحرص الناس على الحياة، لعلمهم بما قد أعد لهم في الآخرة على كفرهم بما لا يقر به أهل الشرك، فهم للموت أكره من أهل الشرك الذين لا يؤمنون بالبعث؛ لأنهم يؤمنون بالبعث، ويعلمون ما لهم هنالك من العذاب. والمشركون لا يصدقون بالبعث ولا العقاب، فاليهود أحرص منهم على الحياة و أكره للموت»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «ثم بين حقيقة حالهم في الإخلاد إلى الأرض، والفناء في حب البقاء، وأنهم ليسوا على بينة مما يدعون، ولا ثقة لهم بأنفسهم فيما

---

(١) جامع البيان (٢/ ٣٧٠-٣٧١ تحقيق شاكر).

يزعمون، فقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ كذلك كانوا وكذلك هم الآن والظاهر من سيرتهم ونظام معيشتهم أنهم كذلك يكونون إلى ما شاء اللَّه وإن كان الظاهر أن الكلام خاص بمن كانوا في عصر التنزيل يحاجهم النبي ﷺ ويشاغبونه ويجاحدونه معتزين بشغبهم، مغترين بكتابهم، بل ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد علماؤهم فقط. ونكر الحياة للتحقير كأنه يقول: إنهم شديدو الحرص على الحياة وإن كانت في بؤس وشقاء. ثم خص طائفة من الناس بالذكر عرفوا بشدة الحرص على الحياة وتمني طول البقاء في الدنيا لأنهم لا يؤمنون بحياة بعدها فقال: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي: إنهم أحرص الناس من جميع الناس حتى من الذين أشركوا، ثم بين مثالا من هذا الحرص مستأنفًا فقال: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي يتمنى لو يعمره اللَّه ويبقيه ألف سنة، أو أكثر فإن لفظ الألف عند العرب منتهى أسماء العدد فيعبر به عن المبالغة في الكثرة لأنه يعرف من نفسه أنه مخالف لكتابه ويتوقع سخط اللَّه وعقابه فيرى أن الدنيا على ما فيها من المنغصات خير له من الآخرة وما يتوقعه فيها. قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ أي: وما تعميره الطويل بمزحزحه أي منحيه ومبعده عن العذاب المعد له ولأمثاله فإنه ميت مهما طال عمره، وكل ما له حد فهو منتهٍ إليه ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لا تخفى عليه خافية من أمرهم، ولو عرفوه حق معرفته لعلموا أن طول العمر لا يخرجهم من قبضته، ولا ينجيهم من عقوبته، فإن المرجع إليه، والأمر كله بيديه»[١].

قلت: سبحان من خلق الخلق وفرقهم وقدر لهم ما شاء، والكل ينال حظه المكتوب له، واليهود عليهم لعائن اللَّه كان حظهم من وجودهم هو المكر والخداع، والحذق في التآمر على كل خير، والمهارة في ذلك، وأوتوا من كل خبث أسوأه، ولما هم فيه من هذا المنهاج الكبير الذي تولوا كبره في كل عصر ومصر، كتب اللَّه عليهم الذل والمسكنة والخوف، فهم الجبناء الذين يخافون من أقل الحيوانات اعتداء، ويخافون من أقل الناس مكانة، فالخوف والجبن من الصفات اللازمة لهم كما وصفهم اللَّه بقوله: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ

(١) تفسير المنار (١/ ٣٩٠-٣٩١).

مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾[١]، ولا يعلم في تاريخ البشرية من بعثة موسى عليه السلام وإلى يومنا هذا أنهم كانت لهم موقعة أو غزوة، أو أي شيء يشم منه رائحة الشجاعة، فقد قالوا لنبي اللَّه موسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[٢]، ولهذا فإن الموت هو أكبر شبح يخوفهم، فهم يترقبون كل وقت يباغتون فيه بقتل أو ضرب أو اكتساح، ولهذا يلجأون إلى أمور يتسترون من ورائها، يظنون أنها تدفع عنهم البلاء. وما ذكره اللَّه تعالى في هذه الآيات من خوفهم من الموت وحرصهم على الحياة، فهو -تبارك وتعالى- الذي يعلم السر وأخفى، فهو واقعهم وتاريخهم، فأصبح يضرب بهم المثل في الجبن والخوف والحرص على البقاء، واللَّه -تبارك وتعالى- آخذهم مهما ظنوا أن الحياة تستمر بهم، وآخذ كل ذيل من ذيولهم ممن يعتصمون بهم ويلجأون إليهم، ولا نعلم في تاريخ الإسلام منذ بعثة رسول اللَّه ﷺ أنه كان لليهود وجود في أية مهمة لأهل الإسلام، لما يعلمه خلفاؤهم وعلماؤهم من غدرهم وخيانتهم، واللَّه -تبارك وتعالى- بين ذلك في كتابه، وما قدم للرسول -عليه الصلاة والسلام- من الشاة المسمومة فلا أرى أكبر من هذه المؤامرة ولا أقبح منها؛ فمن تعلق باليهود في أموره وأحواله أوكله اللَّه إليهم، وجعله على ذلتهم ومسكنتهم وخورهم وجبنهم، نرجو اللَّه أن يكفيناهم بما شاء وكيف شاء، ويكفينا كل من تعلق بهم وجعلهم سادته وعمدته.

* * *

---

(١) الحشر: الآية (١٤).

(٢) المائدة: الآية (٢٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بُشْرَى: ويقال أيضًا: البشارة، وهي أول خبر سارّ يَرِدُ، فتتغير له بشرة الوجه، وتستعمل في الشّرّ على سبيل التهكّم، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا على أن هذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم. ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك. فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك، من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول اللَّه ﷺ في أمر نبوته»[2].

وقال: «وهذا خبر من اللَّه -جل ثناؤه- من كان عدوًّا لله، من عاداه وعادى جميع ملائكته ورسله؛ وإعلام منه أن من عادى جبريل فقد عاداه وعادى ميكائيل، وعادى جميع ملائكته ورسله؛ لأن الذين سماهم اللَّه في هذه الآية هم أولياء اللَّه وأهل طاعته، ومن عادى لله وليًّا فقد عادى اللَّه وبارزه بالمحاربة، ومن عادى اللَّه فقد عادى جميع أهل طاعته وولايته؛ لأن العدو لله عدو لأوليائه، والعدو لأولياء اللَّه عدو له. فكذلك قال لليهود الذين قالوا: إن جبريل عدونا من الملائكة، وميكائيل ولينا منهم: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾، من أجل أن عدو جبريل عدو كل ولي لله. فأخبرهم -جل ثناؤه- أن من كان عدوًّا لجبريل، فهو لكل من ذكره من ملائكته ورسله وميكال عدو،

(١) آل عمران: الآية (٢١).

(٢) جامع البيان (٢/ ٣٧٧ تحقيق شاكر).

وكذلك عدو بعض رسل اللَّه، عدو لله ولكل ولي»[1].

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ شرط، وجوابه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾. وهذا وعيد وذم لمعادي جبريل ﷺ، وإعلان أن عداوة البعض تقتضي عداوة اللَّه لهم.

فإن قيل: لم خص اللَّه جبريل وميكائيل بالذكر وإن كان ذكر الملائكة قد عمهما؟ قيل له: خصهما بالذكر تشريفًا لهما؛ كما قال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[2]. وقيل: خُصَّا لأن اليهود ذكروهما، ونزلت الآية بسببهما؛ فذكرهما واجب لئلا تقول اليهود، إنما لم نعاد اللَّه وجميع ملائكته؛ فنص اللَّه تعالى عليهما لإبطال ما يتأولونه من التخصيص»[3].

قال السعدي: «أي: قل لهؤلاء اليهود، الذين زعموا أن الذي منعهم من الإيمان بك، أن وليَّك جبريل ﷺ، ولو كان غيره من ملائكة اللَّه لآمنوا بك وصدقوا: إن هذا الزعم منكم، تناقض وتهافت، وتكبر على اللَّه.

فإن جبريل ﷺ هو الذي نزل القرآن من عند اللَّه على قلبك، وهو الذي ينزل على الأنبياء قبلك، واللَّه هو الذي أمره، وأرسله بذلك، فهو رسول محض.

مع أن هذا الكتاب الذي نزل به جبريل -مصدقًا لما تقدمهم من الكتب- غيرُ مخالفٍ لها ولا مناقض، وفيه الهداية التامة من أنواع الضلالات، والبشارة بالخير الدنيوي والأخروي، لمن آمن به.

فالعداوة لجبريل لا لذاته، بل لما ينزل به من عند اللَّه من الحق، على رسل اللَّه.

فيتضمن الكفر والعداوة، للذي أنزله وأرسله، والذي أرسل به، والذي أرسل إليه، فهذا وجه ذلك»[4].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية. ظاهر هذه الآية أن جبريل ألقى القرآن في قلب النبي ﷺ من غير سماع

(١) جامع البيان (٢/ ٣٩٤ تحقيق شاكر).

(٢) الرحمن: الآية (٦٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٦-٢٧).

(٤) تفسير السعدي (١/ ١١٥-١١٦).

قراءة، ونظيرها في ذلك قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[(١)] الآية. ولكنه بين في مواضع أخر أن معنى ذلك أن الملك يقرؤه عليه حتى يسمعه منه، فتصل معانيه إلى قلبه بعد سماعه وذلك هو معنى تنزيله على قلبه. وذلك ما في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[(٢)] وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[(٣)]»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن حب أولياء الله من الجن والإنس والملائكة من الإيمان

* عن ابن عباس، قال: (أقبلت يهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، نسألك عن أشياء، فإن أجبتنا فيها اتبعناك، وصدقناك، وآمنا بك، قال: فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه، إذ قالوا: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[(٥)].

قال: أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: «**تنام عيناه، ولا ينام قلبه**». قالوا: وأخبرنا كيف تؤنث المرأة، وكيف يذكر الرجل، قال: «**يلتقي الماءان، فإذا علا ماء المرأة ماء الرجل آنثت، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت**». قالوا: صدقت، قالوا: فأخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: «**ملك من الملائكة، موكل بالسحاب، معه مخاريق من نار، يسوق بها السحاب، حيث شاء الله**». قالوا: فما هذا الصوت الذي يسمع؟ قال: «**زجره بالسحاب، إذا زجره، حتى ينتهي إلى حيث أمر**». قالوا: صدقت، قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: «**كان يسكن البدو، فاشتكى عرق النسا، فلم يجد شيئًا يلاومه إلا لحوم الإبل وألبانها، فلذلك حرمها**».

قالوا: صدقت، قالوا: أخبرنا من الذي يأتيك من الملائكة؛ فإنه ليس من نبي إلا يأتيه ملك من الملائكة، من عند ربه، بالرسالة، وبالوحي، فمن صاحبك؛ فإنه إنما بقيت هذه، حتى نتابعك؟ قال: «**هو جبريل**».

---

(١) الشعراء: الآية (١٩٣).

(٢) القيامة: الآيات (١٦-١٩).

(٣) طه: الآية (١١٤).

(٤) أضواء البيان (١/ ٨٢-٨٣).

(٥) يوسف: الآية (٦٦).

قالوا: ذلك الذي ينزل بالحرب وبالقتل، ذاك عدونا من الملائكة، لو قلت: ميكائيل، الذي ينزل بالقطر، والرحمة، تابعناك، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلى آخر الآية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾)[1].

★ **غريب الحديث:**

آنثت المرأة: إذا ولدت أنثى. وأذكرت المرأة والرجل إذا ولدا ذكرًا.

مخاريق: جمع مخراق وهو في الأصل ثوب يُلَفُّ ويَضْرِب به الصبيان بعضهم بعضا، أراد أنه آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه.

عِرْق النّسا: بوزن العصا، عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ، ثم يمر بالعرقوب حتى يبلغ الكعب.

* عن أنس قال: (سمع عبداللَّه بن سلام بقدوم رسول اللَّه ﷺ وهو في أرض يخترف فأتى النبي ﷺ، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، فما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «**أخبرني بهن جبريل آنفًا**»، قال: جبريل؟ قال: «**نعم**»، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: «﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ **أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت**»، قال: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأشهد أنك رسول اللَّه، يا رسول اللَّه إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود، فقال النبي ﷺ: «**أي رجل عبداللَّه فيكم؟**» قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا، قال: «**أرأيتم إن أسلم عبداللَّه بن سلام**»، فقالوا: أعاذه اللَّه من ذلك، فخرج عبداللَّه فقال: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه، فقالوا: شَرُّنا وابن شَرِّنا وانتقصوه، قال: فهذا الذي كنت أخاف يا رسول الله)[2].

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٧٤) والترمذي (٥/ ٢٧٤/ ٣١١٧) مختصرا دون ذكر الشاهد، وقال: «حسن غريب» والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٣٦-٣٣٧/ ٩٠٧٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٨) والبخاري (٨/ ٢٠٩/ ٤٤٨٠) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٨٦-٢٨٧/ ١٠٩٩٢).

★ **غريب الحديث:**

يخترف: أي يجني الثمار.

زيادة كبد الحوت: هي القطعة المنفردة المعلقة من الكبد[١].

نزع الولد: جذبه إليه.

بُهت: بضم الموحدة والهاء، ويجوز إسكانها، جمع بهيت، وهو الذي يبهت السامع بما يفتريه عليه من الكذب.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن حجر: «قيل سبب عداوة اليهود لجبريل أنه أُمِرَ باستمرار النبوة فيهم فنقلها لغيرهم، وقيل: لكونه يطلع على أسرارهم، قلت: وأصح منهما ما سيأتي بعد قليل لكونه الذي ينزل عليهم بالعذاب»[٢].

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ إن اللَّه قال: «**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته**»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: (**من عادى لي وليًّا**):

قال الحافظ: «المراد بولي اللَّه العالم باللَّه المواظب على طاعته المخلص في عبادته. وقد استشكل وجود أحد يعاديه؛ لأن المعاداة إنما تقع من الجانبين، ومن شأن الولي الحلمُ والصفحُ عمن يَجْهَلُ عليه، وأجيب بأن المعاداة لم تنحصر في الخصومة والمعاملة الدنيوية مثلًا، بل قد تقع عن بغض ينشأ عن التعصب كالرافضي في بغضه لأبي بكر، والمبتدع في بغضه للسني، فتقع المعاداة من الجانبين، أما من

---

(١) هدي الساري (ص: ١٢٨).
(٢) الفتح (٨/ ٢٠٩).
(٣) أخرجه البخاري (١١/ ٤١٤/ ٦٥٠٢).

جانب الولي فلله تعالى وفي اللَّه، وأما من جانب الآخر فلما تقدم. وكذا الفاسق المتجاهر ببغضه الوليَّ في اللَّه، وببغضه الآخر لإنكاره عليه وملازمته لنهيه عن شهواته. وقد تطلق المعاداة ويراد بها الوقوع من أحد الجانبين بالفعل ومن الآخر بالقوة، قال الكرماني: قوله (لي) هو في الأصل صفة لقوله (وليًّا) لكنه لما تقدم صار حالًا. وقال ابن هبيرة في الإفصاح: قوله: **(عادى لي وليًّا)** أي: اتخذه عدوًّا، ولا أرى المعنى إلا أنه عاداه من أجل ولايته، وهو وإن تضمن التحذير من إيذاء قلوب أولياء اللَّه ليس على الإطلاق، بل يستثنى منه ما إذا كانت الحال تقتضي نزاعًا بين وليين في مخاصمة أو محاكمة ترجع إلى استخراج حق أو كشف غامض، فإنه جرى بين أبي بكر وعمر مشاجرة وبين العباس وعلي، إلى غير ذلك من الوقائع انتهى ملخصا موضحا»[1].

قال الحافظ: «قال الفاكهاني: في هذا تهديد شديد؛ لأن من حاربه اللَّه أهلكه، وهو من المجاز البليغ؛ لأن من كره من أحب اللَّه خالف اللَّه ومن خالف اللَّه عانده ومن عانده أهلكه، وإذا ثبت هذا في جانب المعاداة ثبت في جانب الموالاة، فمن والى أولياء اللَّه أكرمه اللَّه. وقال الطوفي: لما كان ولي اللَّه من تولى بالطاعة والتقوى تولاه اللَّه بالحفظ والنصرة، وقد أجرى اللَّه العادة بأن عدو العدو صديق وصديق العدو عدو فعدو ولي اللَّه عدو اللَّه فمن عاداه كان كمن حاربه ومن حاربه فكأنما حارب الله»[2].

* عن أبي سلمة بن عبدالرحمن بن عوف قال: سألت عائشة أم المؤمنين بأي شيء كان نبي اللَّه ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل، قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «**اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»[3].

★ **فوائد الحديث:**

قوله ﷺ: **(رب جبريل وميكائيل وإسرافيل)**

---

(١) الفتح (١١/ ٤١٦). (٢) الفتح (١١/ ٤١٦-٤١٧).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٦) ومسلم (١/ ٥٣٤/ ٧٧٠) وأبو داود (١/ ٤٨٧/ ٧٦٧) والترمذي (٥/ ٤٥١-٤٥٢/ ٣٤٢٠) والنسائي (٣/ ٢٣٤-٢٣٥/ ١٦٢٤) وابن ماجه (١/ ٤٣١-٤٣٢/ ١٣٥٧).

قال القاضي عياض: «وتخصيصهم بربوبيته وهو رب كل شيء، وجاء مثل هذا كثير من إضافة كل عظيم الشأن له دون ما يستحقر[1] عند الثناء والدعاء، مبالغة في التعظيم، ودليلًا على القدرة والملك فيقال: رب السموات والأرض، ورب النبيين والمرسلين ورب المشرق والمغرب ورب العالمين ورب الجبال والرياح ورب البحار ورب الناس، ومثله مما جاء في القرآن وفي الحديث خصوصًا ولم يأت ذلك خصوصًا فيما يستحقر ويستصغر ويستقذر كالحشرات والكلاب والقردة إلا بسبيل العموم»[2].

وقال القرطبي: «خص هؤلاء الملائكة بالذكر تشريفًا لهم، إذ بهم ينتظم هذا الوجود، إذ قد أقامهم اللَّه تعالى في ذلك»[3].

قال ابن القيم: «وذكر النبي ﷺ في الدعاء العظيم القدر من أوصاف اللَّه وربوبيته ما يناسب المطلوب. . . وذكر ربوبيته تعالى لجبريل وميكائيل وإسرافيل وهذا -واللَّه أعلم- لأن المطلوب هدى يحيا به القلب وهؤلاء الثلاثة الأملاك قد جعل اللَّه تعالى على أيديهم أسباب حياة العباد أما جبريل فهو صاحب الوحي الذي يوحيه اللَّه إلى الأنبياء وهو سبب حياة الدنيا والآخرة. وأما ميكائيل فهو الموكل بالقطر الذي به سبب حياة كل شيء. وأما إسرافيل فهو الذي ينفخ في الصور فيحيي اللَّه الموتى بنفخته فإذا هم قيام لرب العالمين[4]»[5].

قلت: اليهود ابتلوا بالعناد والخبث في المراوغة والحيل، فدفعهم لرسالة رسول اللَّه ﷺ التي نزل بها جبريل -عليه الصلاة والسلام- هو من هذا؛ فجبريل عليه السلام رسول، والرسول بريء من كل ما وصفه به هؤلاء الأخباث، ولا سيما إذا كان الرسول من العباد المكرمين الذين لا يعصون اللَّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فإحداث عداوة مع الملائكة هو نهاية العناد، فالملائكة كلهم محبوبون للجن والإنس ويضرب بهم المثل في كل خير، فاليهود أمرهم مبيت على رد رسالة محمد ﷺ، وردهم تتنوع أساليبه وهذا منها، وإلا فما الفرق بين جبريل ومكائيل في حمل

---

(١) في الأصل: يستحضر، ولعل الصواب ما أثبتنا. انظر شرح مسلم (٦/ ٥٠).

(٢) الإكمال (٣/ ١٣٣-١٣٤). (٣) المفهم (٢/ ٤٠٠).

(٤) ليس هناك من دليل على ارتباط هذا الاسم (إسرافيل) بالنفخ في الصور، والأولى أن يسمى بما سماه رسول اللَّه ﷺ بصاحب القرن، وسيأتي بحث ذلك إن شاء اللَّه في سورة الزمر عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾: الآية (٦٨).

(٥) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٠٦-٣٠٧).

الرسالة، واللَّه -تبارك وتعالى- تعبد عباده برسالة الرسول، فالرسول مبلغ فقط، واللَّه -تبارك وتعالى- هو الذي شرع، وهو الذي أنزل أحكامه وأرسل رسله، فلهذا كانت العداوة للرسل كلهم عداوة له، وهكذا إذا كانت العداوة للسنة وأهلها فهي عداوة لرسول اللَّه ﷺ، فأهل السنة في كل زمان ومكان هدفهم هو إظهار السنن ونشرها ودراستها وجمعها وتوضيحها والعمل بها والذب عنها، والسنة مضافة إلى الرسول ﷺ، فكل محارب للسنة وأهلها ومعاد لهم فهو محارب للرسول ﷺ ومعاد له، وكل معاد للتوحيد وأهله فهو معاد للرسول ﷺ، فلينظر المبتدعة أينما كانوا وفي أي زمان حلّوا من يعادون، وهكذا تكون المعاداة على النبوات والرسالات من هذه الأصناف الذين ذكروا في القرآن والسنن، وفي تاريخ العقيدة كما بينت ذلك في كتابي: (العقيدة السلفية في مسيرتها التاريخية وقدرتها على مواجهة التحديات) (القسم السابع: قسم مواقف السلف).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بيِّنات: أي: واضحات، ظاهرات لكلّ متدبّر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ﴾؛ أي: أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوتك: وتلك الآيات هي ما حواه كتاب اللَّه الذي أنزله إلى محمد ﷺ من خفايا علوم اليهود ومكنون سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم وما حرفه أوائلهم وأواخرهم، وبدلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة. فأطلعها اللَّه في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ. فكان في ذلك من أمره، الآيات البينات لمن أنصف نفسه، ولم يدعه إلى إهلاكها الحسد والبغي. إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة، تصديقِ من أتى بمثل الذي أتى به محمد ﷺ من الآيات البينات التي وصفت، من غير تَعَلُّمٍ تعلمه من بشر، ولا أَخْذِ شيء منه عن آدمي»[(١)].

وقال: «... وما يجحد تلك الآيات الدالات على صدقك ونبوتك، التي أنزلتها إليك في كتابي فيكذب بها منهم إلا الخارج منهم من دينه، التارك منهم فرائضي عليه في الكتاب الذي يدين بتصديقه. فأما المتمسك منهم بدينه، والمتبع منهم حكم كتابه، فإنه بالذي أنزلت إليك من آياتي مصدق. وهم الذين كانوا آمنوا باللَّه وصدقوا رسوله محمدًا ﷺ من يهود بني إسرائيل»[(٢)].

وقال محمد رشيد رضا: «ثم صرح بأن القرآن منزل من عند اللَّه وحده، وأنه في

---

(١) جامع البيان (٢/ ٣٩٧ تحقيق شاكر).

(٢) جامع البيان (٢/ ٣٩٩ تحقيق شاكر).

نفسه آيات بينات لا يحتاج إلى آية أخرى تبينه وتشهد له، فإن ما كان بينا في نفسه أولى بالقبول مما يحتاج في بيانه إلى غيره، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ وقد تقدم أن الوحي من اللّٰه للنبي يسمى تنزيلًا وإنزالا ونزولًا لبيان علو مرتبة الربوبية، لا أن هناك نزولًا حسيًا من مكان مرتفع إلى مكان منخفض.

قال هذا شيخنا، وعلو الله -تعالى- على خلقه حقيقة أثبتها لنفسه في كتابه، لا حاجة إلى تأويلها بعلو مرتبة الربوبية على مرتبة المخلوقين هربًا من استلزامها الحصر والتحيز في جهة واحدة، فإن التنزيه القطعي يبطل اللزوم. ومسألة الجهات نسبية لا حقيقية، وإذ كان الرب -تعالى- بائنًا من خلقه وهو من ورائهم محيط، فهم أينما كانوا يتوجهون إليه إلا أنه فوقهم . . . وشيخنا على دعوته إلى مذهب السلف كان لا يزال متأثرًا بمذهب الأشعرية.

وأما كون آيات القرآن بينات فهي أنها بإعجازها البشر، وبقرن المسائل الاعتقادية فيها ببراهينها، والأحكام الأدبية والعملية بوجوه منافعها، لا تحتاج إلى دليل آخر يدل على أنها هداية من اللّٰه تعالى، وأنها جديرة بالاتباع، بل هي دليل على نفسها عند صاحب الفطرة السليمة، كالنور يظهر الأشياء وهو ظاهر بنفسه لا يحتاج إلى شيء آخر يظهره ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ الذين خرجوا من نور الفطرة وانغمسوا في ظلمة التقليد، فتركوا طلب الحق بذاته لاعتقادهم أن فطرتهم ناقصة، لا استعداد فيها لإدراكه بذاته على شدة ظهوره، وإنما يطلبونه من كلام مقلديهم، وكذا الذين ظهر لهم الحق فاستحبوا العمى على الهدى حسدًا لمن ظهر الحق على يديه وعنادًا له»[1].

قلت: والمنهاج السلفي كله قائم على الحجة والبرهان والدليل الصحيح الواضح، ومع ذلك تجد المبتدعة يدفعونه ويردونه، ويلمزونه ويغمزونه، وإن تمكنوا سلطوا الحكام على أهله فأوقعوهم في المآزق، ووضعوا أمامهم كل العقبات، من ضرب وقتل وسجن وإبعاد وتوقيف وعزل، وغيرها من أنواع الحرب لسنة رسول اللّٰه ﷺ، فلا يكفر بالسنة ويحاربها إلا الفاسقون، كما قال اللّٰه تعالى في دعوة النبي ﷺ وسنته: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[2]، فنرجو اللّٰه أن يجعلنا ممن نصر السنة، وأن لا يجعل لنا حظًا ممن حاربها وكفر بها، إنه سميع قريب.

---

(١) تفسير المنار (١/ ٣٩٤-٣٩٥).

(٢) البقرة: الآية (٩٩).

قوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

نَبَذَه: النبذ: الطرح والإلقاء؛ أي: رَمَوْهُ بقلّة مبالاتهم به. ومنه سمي اللقيط منبوذًا؛ لأنه يُطْرح على جانب الطريق ويُتْرك. قال أبو الأسود:

وخبَّرَني من كنت أرسلت إنما　　أخذت كتابي معرضا بشمالكا
نَظَرْتَ إلى عُنوانِهِ فَنَبَذْتَهُ　　كَنَبْذِكَ نَعْلًا أَخْلَقَتْ مِنْ نِعَالِكَا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وأما العهد، فإنه الميثاق الذي أعطته بنو إسرائيل ربهم ليعملن بما في التوراة مرة بعد أخرى، ثم نقض بعضهم ذلك مرة بعد أخرى. فوبخهم -جل ذكره- بما كان منهم من ذلك، وعير به أبناءهم، إذ سلكوا منهاجهم في بعض ما كان -جل ذكره- أخذ عليهم بالإيمان به من أمر محمد ﷺ من العهد والميثاق، فكفروا وجحدوا ما في التوراة من نعته وصفته، فقال -تعالى ذكره-: أو كلما عاهد اليهود من بني إسرائيل ربهم عهدًا، وأوثقوه ميثاقًا، نبذه فريق منهم، فتركه ونقضه»[1].

قال القاسمي: «... فالمقصود من هذا الاستفهام الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه؛ لأن مثل ذلك، إذا قيل بهذا اللفظ كان أبلغ في التنكير والتبكيت. ودل بقوله: ﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟﴾ على عهد بعد عهد نقضوه ونبذوه. بل يدل على أن ذلك كالعادة فيهم. فكأنه تعالى أراد تسلية الرسول عند كفرهم بما أنزل عليه من الآيات؛ لأن ذلك ليس ببدع منهم بل هو سجيتهم، وعادتهم وعادة سلفهم. على ما بينه في الآيات المتقدمة من نقضهم العهود والمواثيق حالًا بعد حال؛ لأن من يعتاد منه هذه

(١) جامع البيان (٢/ ٤٠٠ تحقيق شاكر).

الطريقة لا يصعب على النفس مخالفته، كصعوبة من لم تجر عادته بذلك»[١].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ ذكر في هذه الآية أن اليهود كلما عاهدوا عهدًا نبذه فريق منهم، وصرح في موضع آخر أن رسول اللَّه ﷺ هو المعاهد لهم وأنهم ينقضون عهدهم في كل مرة. وذلك في قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾[٢] وصرح في آية أخرى بأنهم أهل خيانة إلا القليل منهم، وذلك في قوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[٣]»[٤].

وقال محمد رشيد رضا: «بعد هذا كله، بين اللَّه تعالى شأنين من شئون أهل الكتاب، وهما: أنه لا ثقة بهم في شيء لما عرف عنهم من نقض العهود، وأنه لا رجاء في إيمان أكثرهم؛ لأن الضلالة قد ملكت عليهم أمرهم إلا قليلًا منهم، فإن كان ما تقدم من الأعمال والأقوال قد صدر عن بعضهم -وإن كان نقضُ العهود قد وقع في كل زمن من فريق منهم دون فريق- فلا يتوهمن أحدٌ أن أولئك هم الأقلون، كلا بل هم الأكثرون، ولذلك قال: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ همزة الاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف؛ أي: أكفروا بالآيات، وقالوا ما قالوا، وكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم؟. النبذ طرح الشيء وإلقاؤه، والمراد بالعهود هنا عهودُهم للنبي ﷺ، ولما كان لفظ فريق وهم العدد القليل، وكان الواقعُ أن الذين يرون الوفاء له ﷺ قليلون، والناقضين هم الأكثرون، أضرب عنه وقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فهم لا أيمان لهم لأنهم لا إيمان لهم؛ أي: لا عهود لهم. وفيه من خبر الغيب أن أكثر اليهود لا يؤمنون بالنبي ﷺ، وكذلك كان وصدق اللَّه العظيم»[٥].

* * *

(١) محاسن التأويل (٢/ ٢٠٥).
(٢) الأنفال: الآيتان (٥٥ و ٥٦).
(٣) المائدة: الآية (١٣).
(٤) أضواء البيان (١/ ٨٣).
(٥) تفسير المنار (١/ ٣٩٥-٣٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «... فأخبر اللَّه -جل ثناؤه- أن اليهود لما جاءهم رسول اللَّه ﷺ من اللَّه بتصديق ما في أيديهم من التوراة، أن محمدًا ﷺ نبي اللَّه، ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ﴾، يعني بذلك: أنهم جحدوه ورفضوه بعد أن كانوا به مقرين، حسدًا منهم له وبغيًا عليه. وقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ وهم علماء اليهود الذين أعطاهم اللَّه العلم بالتوراة وما فيها»[(١)].

وقال: «ومعنى قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كأن هؤلاء الذين نبذوا كتاب اللَّه من علماء اليهود فنقضوا عهد اللَّه بتركهم العمل بما واثقوا اللَّه على أنفسهم العمل بما فيه لا يعلمون ما في التوراة من الأمر باتباع محمد ﷺ وتصديقه، وهذا من اللَّه -جل ثناؤه- إخبار عنهم أنهم جحدوا الحق على علم منهم به ومعرفة، وأنهم عاندوا أمر اللَّه فخالفوا على علم منهم بوجوبه عليهم»[(٢)].

وقال ابن القيم: «وتأمل قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ كيف تجد تحته برهانًا عظيمًا على صدقه، وهو مجيءُ الرسول الثاني بما يطابق ما جاء به الرسول الأول، ويصدقُه مع تباعد زمانهما، وشهادةِ أعدائه وإقرارِهم له بأنه لم يَتَلَقَّه من بشر ولهذا كانوا يمتحنونه بأشياءَ يعلمون أنه لا يُخْبِرُ بها إلا نبي، أو من أخذ عنه، وهم يعلمون أنه لم يأخذ عن أحد ألبتة، ولو كان ذلك لوجد أعداؤه السبيلَ إلى الطعنِ عليه، ولعارضوه بمثل ما جاء به، إذ من الممكن أن لو كان ما جاء به مأخوذًا عن بشر أن يأخذوا هم عن مَلَكٍ، أو عن نظيره

---

(١) جامع البيان (٢/ ٤٠٣ تحقيق شاكر).

(٢) جامع البيان (٢/ ٤٠٤ تحقيق شاكر).

فيما رَضُوا ما جاء به، والمقصود أن مطابقةَ ما جاء به لِمَا أَخْبر به الرسولُ الأولُ من غير مواطأة ولا تشاعر، ولا تلقَّى منه، ولا ممن أخذ عنه، دليل قاطع على صدق الرسولين معًا. ونظير هذا أن يشهد رجل بشهادة، فيخبر فيها بما يُقْطَعُ به أنه صادق في شهادته صدقًا لا يتَطرق إليه شبهة، فيجيء آخر من بلاد أخرى لم يجتمع بالأول ولم يتواطأ معه فيخبر بنظير تلك الشهادة سواء مع القطع بأنه لم يجتمع به، ولا تلقاها عن أحد اجتمع به، فهذا يكفي في صدقه إذا تَجَرَّد الإخبار، فكيف إذا اقْتَرَن بأدلة يُقْطَعُ بها بأنه صادق أعظم من الأدلة التي اقترنت بخبر الأول، فيكفي في العلم بصدق الثاني مطابقةُ خبره لخبرِ الأول، فكيف إذا بشر به الأول، فكيف إذا اقترن بالثاني من البراهين الدالة على صدقه نظير ما اقترن بالأول وأقوى منها والله أعلم»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «وقوله: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ بيان لحال جديدة من أحوال أهل الكتاب، يصح أن تكون علة لجميع ما صدر عنهم من الشناعات في معاداة النبي ﷺ ومجاحدته، وهي أن فريقًا منهم قد نبذوا كتاب الله الذي يفاخرون به، ويحتجون بأنهم اكتفوا بالهداية به، وأنه لا حاجة لهم بسواه، نبذوه أن جاءهم رسول مصدق له بحاله وصفاته؛ لأن البشارات التي فيه بالنبي الذي يجيء من آل إسماعيل لا تنطبق إلا على هذا الرسول، ومصدق له بمقاله باعترافه بنبوة موسى ﷺ، وصدقه فيما جاء به من الهدى والشريعة، وتوبيخه اليهود على تحريف بعضها ونسيان بعض، وترك العمل بما بقي لهم منها.

قال الأستاذ الإمام: ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم أنهم طرحوه برمته، وتركوا التصديق به في جملته وتفصيله، وإنما المراد أنهم طرحوا جزءًا منه، وهو ما يبشر بالنبي ﷺ، ويبين صفاته ويأمرهم بالإيمان به واتباعه؛ أي: فهو تشبيه لتركهم إياه وإنكاره بمن يلقي الشيء وراء ظهره حتى لا يراه فيتذكره.

وترك الجزء منه كتركه كله؛ لأن ترك البعض يذهب بحرمة الوحي من النفس، ويجرئ على ترك الباقي ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٤٧-١٤٨).

بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾[١]. قال: ولا فرق في هذا الحكم بين اليهود والنصارى، فكل منهما مبشر بالنبي -عليه الصلاة والسلام- في كتابه، وكل منهما قد نبذ الكتاب فلم يعمل به. ولم يضر النبي ﷺ هذا الجحود من الفريق الجاحد؛ لأن دعوته قد قبلها الآخرون، واهتدى بها من لا يحصى من الأمتين ومن سائر الأمم، وإنما يضر الجاحدين لأنهم تركوا كتابهم الذي يزعمون أنه المنجي والمخلص لهم، وحرموا من هداية خاتم النبيين، التي هي أكمل هداية أنعم اللَّه بها على العالمين.

قال تعالى بعد ما ذكر نبذهم الكتاب: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: نبذوه نبذ من لا يعلم أنه كتاب اللَّه، يريد أنهم بالغوا في تركه وإهماله، ومن ترك شيئًا من أمر اللَّه وهو يعلم أنه أمره -ولكن طاف به طائف من الشيطان فغلب على أمره- فإنه لا يلبث أن يعود، ولكن هذا الفريق النابذ لكتاب اللَّه تعالى من حيث هو مبشر بالنبي، وآمر باتباعه يتمادى بهم الزمان، ولا يتوبون ولا يرجعون، وما أحسن التعبير عن ذلك بنفي الحال والاستقبال دون نفي الماضي»[٢].

* * *

(١) المائدة: الآية (٣٢).

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٩٧-٣٩٨).

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾

★ **غريب الآية:**

تَتْلُو: قيل: معناه: تقرأ من تَلَوْتُ الكتابَ: إذا قرأتُه. وقيل معناه: تتبع؛ لأن التالي تابع. تقول: جاء القوم يتلو بعضهم بعضًا.

السحر: أصله التمويه والتخايل، وهو أن يفعل الساحر أشياءَ ومعانيَ فيخيل للمسحور أنها بخلاف ما هي به، كالذي يرى السراب من بعيد فيُخَيَّلُ إليه أنه ماء. وقيل: أصله الخفاء، وقيل: أصله الصرف، وقيل: الاستمالة. قال الجوهري: «السحر الأخذة»، وكل ما لطف مأخذه ودقَّ فهو سحر. والساحر: العالم، وسحره أيضًا بمعنى: خدعه.

فتنة: أي ابتلاء واختبارًا، وتقول: فتنت الذهب في النار، إذا اختبرته لِيُعْلَمَ أخالص هو أم مشوب.

بإذن: الإذن الإعلام والإباحة والأمر، ومعنى بإذن اللَّه؛ أي: بأمره ومشيئته.

خَلَاقٌ: الخلاق: النصيب الوافر من الخير. قال أمية بن أبي الصلت:

يَدْعُونَ بِالوَيْلِ فِيهَا لَا خَلَاقَ لَهُمْ ... إِلَّا سَرَابِيلَ مِنْ قَطْرٍ وأَغْلَالِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «ولما كان من العوائد القدسية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه وأمكنه الانتفاعُ به ولم ينتفع، ابتلي بالاشتغال بما يضره، ومن ترك عبادة الرحمن ابتُلِي بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة اللَّه وخوفَه ورجاءَه ابْتُلِي بمحبة غير اللَّه وخوفِه ورجاءِه، ومن لم ينفق ماله في طاعة اللَّه أنفقه في طاعة الشيطان، ومن ترك الذل لربه، ابتلي بالذل للعبيد، ومن ترك الحق ابتلي بالباطل.

كذلك هؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب اللَّه اتبعوا ما تتلو الشيطان وتَخْتَلِقُ من السحر على ملك سليمان، حيث أخرجت الشياطينُ للناسِ السحرَ وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله، وبه حصل له الملك العظيم.

وهم كذبة في ذلك، فلم يستعمله سليمان، بل نزهه الصادق في قيله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ أي: بتعلم السحر فلم يتعلمه. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ في ذلك. ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ من إضلالهم وحرصهم على إغواء بني آدم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق، أنزل عليهما السحر امتحانًا وابتلاءً من اللَّه لعباده، فيعلمانِهم السحر.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ﴾ ينصحاه، و﴿يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: لا تتعلموا السحر فإنه كفر، فينهيانه عن السحر، ويخبرانه عن مرتبته، فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال، ونسبتُهُ وترويجُهُ إلى من برأه اللَّه منه وهو سليمان عليه السلام.

وتعليم الملكين امتحانًا مع نصحهما بأن لا يكون لهم حجة.

فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين، والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين، وكل يصبوا إلى ما يناسبه.

ثم ذكر مفاسد السحر فقال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما؛ لأن اللَّه قال في حقهما: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1] وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن

---

(١) الروم: الآية (٢١).

اللَّه أي بإرادة اللَّه، والإذن نوعان: إذن قدري وهو المتعلق بمشيئة اللَّه، كما في هذه الآية. وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة.

﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[١] وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلةً في التأثير، ولم يخالف في هذا الأصل من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد، زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة اللَّه.

فخالفوا كتاب اللَّه، وسنة رسوله، وإجماع الصحابة والتابعين.

ثم ذكر أن علم السحر مضرة محضة، ليس فيه منفعةٌ لا دينيةٌ ولا دنيوية، كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي.

كما قال تعالى في الخمر والميسر: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[٢] فهذا السحر مضرة محضة، فليس له داع أصلًا، فالمنهيات كلها إما مضرة محضة، أو شرها أكبر من خيرها»[٣].

* تنبيه: أورد عامة المفسرين تحت هذه الآية قصصا طويلة وروايات غريبة مختلقة في قصة هاروت وماروت عن مجموعة من الصحابة والتابعين، استوفاها السيوطي في الدر المنثور وذكر ابن جرير معظمها في تفسيره وذكر بعضها ابن كثير ثم قال:

«وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدي والحسن البصري وقتادة وأبي العالية والزهري والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم؛ وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل إذ ليس فيه حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده اللَّه تعالى، واللَّه أعلم بحقيقة الحال»[٤].

---

(١) البقرة: الآية (٩٧).
(٢) البقرة: الآية (٢١٩).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١١٧-١٢٠).
(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٢٤٨).

وقال القرطبي: «هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره، ولا يصح منه شيء؛ فإنه قول تدفعه الأصول في الملائكة الذين هم أمناء اللَّه على وحيه، وسفراؤه إلى رسله: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1]، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[2]، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[3]»[4].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ فيه مسائل:

الأولى: كونُ أناس من أهل الكتاب إذا وقعت المسألة وأرادوا إقامة الدليل عليها، تركوا كتاب اللَّه كأنهم لا يعلمون، واحتجوا بما في الكتب الباطلة.

الثانية: أن من العجب احتجاجهم بذلك على رسول من الرسل.

الثالثة: أن الكلام يدل على أنهم يعلمون لقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الرابعة: أن المسائل الباطلة قد تنسب إلى الأنبياء كذبًا عليهم.

الخامسة: أن الكتب الباطلة قد تضاف إلى بعض الصديقين.

السادسة: أن ذلك مما تتلو الشياطين على زمان الأنبياء، كما وقع أشياء في زمن النبي ﷺ.

السابعة: أن الشياطين مَزَجَت به الحق في زمن سليمان.

الثامنة: بيان ضلال من ضل ممن يدعي العلم في شأن سليمان ممن نَسَبَ ذلك إليه واستحسنه، أو قدح في سليمان، كما ضل أناسٌ كثيرٌ في علي لما قُتِلَ عثمان.

التاسعة: أن من فَعَلَ السحر كفر، ولو عرف أنه باطل.

العاشرة: أن الشياطين يعلمونه الناس.

الحادية عشرة: أن العبد لو بلغ ما بلغ في العلم فلا يأمنُ مكر اللَّه.

---

(١) التحريم: الآية (٦).
(٢) الأنبياء: الآيتان (٢٦ و ٢٧).
(٣) الأنبياء: الآية (٢٠).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٣٦).

الثانية عشرة: لا ينبغي له التعرض للفتن وُثُوقًا بنفسه، بل يسأل اللَّه العافية.

الثالثة عشرة: سعة علم اللَّه ومغفرته ورحمته.

الرابعة عشرة: يَجْعَلُ بعضَ نظره إلى القضاء والقدر.

الخامسة عشرة: أن النساء من أكبر الفتن.

السادسة عشرة: أن طاعة الهوى جماع الشر، كما أن مخالفته جماع الخير.

السابعة عشرة: أن الشرك الأكبر مما يخطر بالبال.

الثامنة عشرة: أن التلفظ بالشرك بكلمة واحدة، لا يشترط في كفر من تكلم بها عقيدة القلب، ولا عدم الكراهة للشرك.

التاسعة عشرة: أن المتكلم لا يعذر، ولو أراد أن يقضي به غرضًا مهما.

العشرون: أن قتل النفس أعظم من الزنا.

الحادية والعشرون: أن المعاصي بريد الكفر.

الثانية والعشرون: أن بعضها يجر إلى بعض.

الثالثة والعشرون: أن عقوبة المعصية قد تكون أكبر مما يظن العالم.

الرابعة والعشرون: أن قبول التوبة بلا عذاب لا يحصل لكل أحد، بل هو فضل من اللَّه.

الخامسة والعشرون: أن من النعم تعذيبُ العبد بذنبه في الدنيا.

السادسة والعشرون: حسن الظن باللَّه.

السابعة والعشرون: القاعدة التي هي خاصية العقل، وهو ارتكاب أدنى الشرين لدفع أعلاهما، وتفويت أدنى الخيرين لتحصيل أعلاهما.

الثامنة والعشرون: أن السحر نوعان.

التاسعة والعشرون: أن له تأثيرا لقوله: ﴿يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾.

الثلاثون: الإرشاد إلى التوكل بكونه لا يضر أحدًا إلا بإذن اللَّه.

الحادية والثلاثون: أن فيمن يدعي العلم من اختار كتب السحر على كتاب اللَّه.

الثانية والثلاثون: أنهم يعارضون به كتاب اللَّه.

الثالثة والثلاثون: أن اتباع كتاب غير كتاب اللَّه ضلال.

الرابعة والثلاثون: لا تأمن الكتب ولا من ينتسب إلى العلم على دينك.

الخامسة والثلاثون: أن فساد العلماء يفسد الرعية.

السادسة والثلاثون: أن السحر وقع في زمن خلافة النبوة، حتى إن عمر وغيره أمر بقتل الساحر ولم يستتبه كما استتاب المرتد.

السابعة والثلاثون: أن الحسد سبب لرد كتاب اللَّه.

الثامنة والثلاثون: أن الحاسد قد يبغض الناصح ويسعى في قتله.

التاسعة والثلاثون: أن الحسد يحمله على رد حظه من اللَّه في الدنيا والآخرة.

والأربعون: أنه من أخلاق اليهود.

الحادية والأربعون: أن المحسود يرفعه اللَّه على الحاسد.

الثانية والأربعون: أن بالطاعة خير الدنيا والآخرة، وبالمعصية العكس.

الثالثة والأربعون: أن فيمن ينتسب إلى العلم من يختار الكفر على الإيمان مع علمه أن من اختاره لا حظ له في الآخرة.

الرابعة والأربعون: أن الإنسان يجتمع فيه الضدان يعلم ولا يعلم.

الخامسة والأربعون: بيان غبنهم والتسجيل على فرط جهلهم في هذا الشراء.

السادسة والأربعون: أن السبب في هذا الشرك اشتراء شيء خسيس تافه من الدنيا.

السابعة والأربعون: أنهم لمحبتهم ما هم عليه من الجاهلية، وغرامهم به نبذوا كتاب اللَّه الذي عندهم وراء ظهورهم كأنهم لا يعرفونه.

الثامنة والأربعون: أن الذي حملهم على هذه العظام أنه أتاهم أمر من اللَّه موافق لدينهم، لكن مخالف لعادتهم الجاهلية.

التاسعة والأربعون: الفرق بين المعجزات والكرامات، وبين ما يفعله الشياطين تشبهًا بذلك وتشبيها.

الخمسون: التنبيه على قول الصحابي: أو يأتي الخير بالشر[١]؟ وجوابه ﷺ.

الحادية والخمسون: أنه لا ينبغي للإنسان أن ينكر ما لم يحط به علمه؛ فقد ضل بالتكذيب بهذه القصة فئام من الناس لظنهم أنها تخالف ما علموه من الحق، وتكلم بسببها ناس في نبي اللَّه سليمان بن داود عليه السلام»[٢].

قلت: رحم اللَّه الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب الذي أفاد وأجاد بهذه الاستنباطات المهمة التي لم تترك لقائل مقالًا، فجمعت بين علم الأولين والآخرين، وجعلت للعقيدة مكانها وحظها من الواقع؛ فإن الإمام محمدًا رحمه الله أظهر هذا الأصل الكبير، وفاق غيره فيه، ولا يعلم في تاريخ التأليف طيلة هذه العصور كتاب مثل (كتاب التوحيد الذي هو حق اللَّه على العبيد) في بابه؛ فإنه كتاب فريد ركز فيه رحمه الله على المخالفات العقدية في توحيد العبادة بما لم يوجد عند غيره، وإن كان شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم لهم بحوث مستفيضة في هذا الباب؛ فالشيخ رحمه الله نظم هذا الكتاب على نمط عجيب في تبويبه، واستنتاجاته القيمة وأقوال السلف الصالح التي جعلها عمدة كتابه القيم، فهل لمن يقرأ لهذا الإمام أن ينفث بلسانه السيئ وبحقده الدفين فيصف دعوة الإمام المجدد بالوهابية يقصد بذلك التشويه والتحذير؟

فالحمد للَّه قد انبلج الصبح لذي عينين وأسفرت أنواره وأضاءت، وتبين لكل منصف تاريخ الخونة من علماء الأتراك، ومن كان على نهجهم وطريقتهم من مرتزقة وخونة في بقية أقاليم العالم الإسلامي، فاللهم عليك بمن يحارب التوحيد وأهله، ويحارب السنة وأهلها، فاجزهم بما يستحقون، وأذقهم بأسك الذي لا يرد، واهد جهالهم، وردهم إلى الصراط المستقيم.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن السحر من الكفر الأكبر

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: (سحر رسول اللَّه ﷺ رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول اللَّه ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢١) والبخاري (١١/ ٢٩٣/ ٦٤٢٧) ومسلم (٢/ ٧٢٧-٧٢٩/ ١٠٥٢) والنسائي (٥/ ٩٤-٩٥/ ٢٥٨٠) وابن ماجه (٢/ ١٣٢٣/ ٣٩٩٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ٣٥-٣٩).

كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي لكنه دعا ودعا ثم قال: «**يا عائشة أشعرت أن اللَّه أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: من طبه؟ قال: لبيد ابن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان**». فأتاها رسول اللَّه ﷺ في ناس من أصحابه فجاء فقال: «**يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء أو كأن رءوس نخلها رءوس الشياطين**». قلت: يا رسول اللَّه أفلا استخرجته؟ قال: «**قد عافاني اللَّه فكرهت أن أثير على الناس فيه شرًّا**». فأمر بها فدفنت)[1].

* **غريب الحديث:**

مطبوب: أي مسحور والطب: بالفتح السحر وبالكسر العلاج.

مشط ومشاطة: قال الحافظ: ويروى مشاقة. فبالطاء ما يمشط من الشعر ويخرج المشط منه وبالقاف مثله، وقيل ما يمشط من الكتاب. والمشط الآلة التي يمشط بها بكسر الميم وبضمها وسكون ثانيه ويجوز الضم والجمع أمشاط.

جف طلع: أي شاؤها.

نقاعة الحناء: بضم النون وتخفيف القاف. وهو الماء الذي ينقع فيه الحناء.

* **فوائد الحديث:**

قال المازري: «أهل السنة وجمهور العلماء من الأمة على إثبات السحر وأن له حقيقة كحقائق غيره من الأشياء الثابتة خلافًا لمن أنكره ونفى حقيقته وأضاف ما يتفق منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها، وقد ذكره اللَّه سبحانه في كتابه العزيز وذكر أنه مما يتعلم، وذكر ما يشير إلى أنه مما يكفر به وأنه يفرق به بين المرء وزوجه وهذا كله مما لا يمكن أن يكون فيما لا حقيقة له وكيف يتعلم ما لا حقيقة له.

وهذا الحديث أيضًا فيه إثباته، وأنه أشياء دفنت وأخرجت، وهذا كله يبطل ما قالوه.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٥٧) والبخاري (١٠/ ٢٧٢/ ٥٧٦٣) ومسلم (٤/ ١٧١٩-١٧٢٠/ ٢١٨٩) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٠/ ٧٦١٥) وابن ماجه (٢/ ١١٧٣/ ٣٥٤٥).

والذي يعرف بالعقل من هذا أن إحالة كونه من الحقائق محال وغير مستنكر في العقل أن يكون الباري سبحانه يخرق العادات عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام أو المزج بين قوى على ترتيب ما لا يعرفه إلا الساحر ومن شاهد بعض الأجسام منها قَتَّالَةً كالسموم، ومنها مسقمة كالأدوية الحادة، ومنها مصحة كالأدوية المضادة للمرض لم يبعد في عقله أن ينفرد الساحر بعلم قوى قتالة أو كلام مهلك أو مؤد إلى التفرقة.

وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث من طريق ثابتة وزعموا أنه يحط منصب النبوءة ويشكك فيها، وكل ما أدى إلى ذلك فهو باطل، وزعموا أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعوه من الشرائع، ولعله يتخيل إليه جبريل عليه السلام وليس ثم ما يراه، أو أنه أوحي إليه وما أوحى إليه، وهذا الذي قالوه باطل، وذلك أن الدليل قد قام على صدقه فيما يبلغه عن اللَّه سبحانه وعلى عصمته فيه، والمعجزة شاهدة بصدقه. وتجويز ما قام الدليل على خلافه باطل، وما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث بسببها، ولا كان رسولًا مفضلًا من أجلها هو في كثير منه عرضة لما يعترض البشر، فغير بعيد أن يخيل إليه في أمور الدنيا ما لا حقيقة له، وقد قال بعض الناس: إنما المراد بالحديث أنه كان يخيل إليه أنه وطئ زوجاته وليس بواطئ، وقد يتخيل في المنام للإنسان مثل هذا المعنى ولا حقيقة له، فلا يبعد أن يكون ﷺ يتخيله في اليقظة وإن لم يكن حقيقة، وقال بعض أصحابنا: يمكن أن يكون يخيل إليه الشيء أنه فعله وما فعله، ولكنه لا يعتقد ما تخيله أنه صحيح فتكون اعتقاداته كلها على السداد فلا يبقى لاعتراض الملحدة طريق»[1].

وقال القرطبي: «ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة، وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الاسترابادي من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لا حقيقة له، وإنما هو تمويه وتخييل وإيهام لكون الشيء على غير ما هو به، وأنه ضرب من الخفة والشعوذة؛ كما قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[2] ولم يقل تسعى على الحقيقة، ولكن قال: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾. وقال أيضًا: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾[3]،

---

(١) المعلم (٣/ ٩٣). (٢) طه: الآية (٦٦).

(٣) الأعراف: الآية (١١٦).

وهذا لا حجة فيه؛ لأنا لا ننكر أن يكون التخييل وغيره من جملة السحر، ولكن ثبت وراء ذلك أمور جوزها العقل وورد بها السمع؛ فمن ذلك ما جاء في هذه الآية من ذكر السحر وتعليمه، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه، ولا أخبر تعالى أنهم يعلمونه الناس، فدل على أن له حقيقة. وقوله تعالى في قصة سحرة فرعون: ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾[1] وسورة (الفلق)؛ مع اتفاق المفسرين على أن سبب نزولها ما كان من سحر لبيد بن الأعصم»[2].

* عن جابر، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن إبليس يضع عرشه على الماء. ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة. يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا. فيقول: ما صنعت شيئًا. قال ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرَّقت بينه وبين امرأته. قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت**»[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال المازري: «وإذا ثبت السحر فاختلف الناس في القدر الذي يقع عن السحر ولهم في ذلك اضطراب كثير، وقد رأيت بعض الناس ذهب إلى أنه لا يبلغ الأمر فيه إلى غريبة تربى على التفرقة بين المرء وزوجه وذكر أن اللَّه سبحانه إنما ذكر ذلك تعظيما لما يكون عنه وتهويلًا له في حقنا فلو كان يقع عنه ما هو أعظم منه لذكره إذ لا يضرب المثل عند المبالغة إلا بأعلى أحوال المذكور»[4].

وقال ابن كثير: «وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك أو عقد أو بغضة أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة»[5].

* عن عمران بن حصين ﷺ مرفوعًا: «**ليس منا من تَطَيَّر أو تُطُيِّر له، أو تَكَهَّنَ أو تُكُهِّن له أو سحر أو سحر له ومن عَقد عَقدة -أو قال- عَقد عُقدة ومن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**»[6].

---

(١) الأعراف: الآية (١١٦). (٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٣٢).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣١٤-٣١٥) ومسلم (٤/ ٢١٦٧/ ٢٨١٣[٦٧]).

(٤) المعلم (٣/ ٩٣-٩٤). (٥) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٦).

(٦) رواه الطبراني في الكبير (١٨/ ١٦٢/ ٣٥٥) والبزار (٣/ ٣٩٩-٤٠٠/ ٣٠٤٤ كشف الأستار). قال في المجمع (٥/ ١١٧): «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة». وقال المنذري في=

* عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (من أتى كاهنًا أو ساحرًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد)[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال سليمان آل الشيخ: «وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر والمصدق لهما؛ لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر، والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به وذلك كفر أيضًا»[2].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، قالوا: يا رسول اللَّه، وما هن؟ قال: «**الشرك باللَّه، والسحر، وقتل النفس التي حرم اللَّه إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»[3].

★ **غريب الحديث:**

اجتنبوا: أي ابتعدوا.

الموبقات: أي المهلكات: وسميت الكبائر موبقات لأنها تهلك فاعلها في الدنيا.. وفي الآخرة.

المحصنات: بفتح الصاد المحفوظات من الزنا وبكسرها الحافظات فروجهن منه.

= الترغيب (٤/ ٣٣): «إسناده جيد». ويشهد له حديث ابن عباس عند الطبراني في الأوسط (٥/ ١٤٣/ ٤٢٧٤) والبزار (٣/ ٣٩٩/ ٣٠٤٣) وحديث علي عند الطبراني في الأوسط (٥/ ٤٢٨-٤٢٩/ ٤٨٤١) وأبي نعيم في الحلية (٤/ ١٩٥).

(١) رواه البزار (٢/ ٤٤٣/ ٢٠٦٧ كشف الأستار) وأبو يعلى في مسنده (٣/ ٦٤/ ١١١١ المقصد العلي). وقال الهيثمي (٥/ ١١٨): «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا هبيرة بن يريم[*]، وهو ثقة». وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٣٦): «رواه البزار وأبو يعلى بإسناد جيد موقوفا». وجود إسناده الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٦٧).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ٤١٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥/ ٤٩٤/ ٢٧٦٦) ومسلم (١/ ٩٢/ ٨٩) وأبو داود (٣/ ٢٩٤-٢٩٥/ ٢٨٧٤) والنسائي (٦/ ٥٦٨/ ٣٦٧٣).

(*) تنبيه: وقع في المجمع: مريم وهو تصحيف.

الغافلات: أي من الفواحش وما رمين به، لا خبر عندهن من ذلك.

★ **فوائد الحديث:**

قال عبد الرحمن بن حسن: «قال أبو محمد المقدسي في الكافي: «السحر: عزائم ورقى وعقد يؤثر في القلوب والأبدان، فيمرض ويقتل، ويفرق بين المرء وزوجه، قال الله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾[١] وقال سبحانه: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾[٢] يعني: السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن، وينفثن في عقدهن. ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه»[٣].

قال الطيبي: «قوله: (**اجتنبوا**) ابتعدوا، افتعال من الجنب: وهو أبلغ من (لا تشركوا) نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾[٤] ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾[٥] لأن نهي القربان أبلغ من نهي المباشرة»[٦].

وقال ابن عثيمين: «قوله: (**والسحر**) أي من الموبقات وظاهر كلام النبي ﷺ أنه لا فرق بين أن يكون ذلك بواسطة الشياطين أو بواسطة الأدوية والعقاقير؛ لأنه إن كان بواسطة الشياطين، فالذي لا يأتي إلا بالإشراك بهم، فهو داخل في الشرك بالله.

وإن كان دون ذلك، فهو أيضًا جرم عظيم؛ لأن السحر من أعظم ما يكون في الجناية على بني آدم، فهو يفسد على المسحور أمر دينه ودنياه يقلقه فيصبح كالبهائم، بل أسوأ من ذلك؛ لأن البهيمة خلقت هكذا على طبيعتها، أما الآدمي، فإنه إذا صرف عن طبيعته وفطرته لحقه من الضيق والقلق ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولهذا كان السحر يلي الشرك بالله ﷻ»[٧].

* عن عمرو بن دينار، سمع بجالة يحدث عمرو بن أوس وأبا الشعثاء، قال: (كنت كاتبًا لجزء بن معاوية عم الأحنف بن قيس إذ جاءنا كتاب عمر قبل موته بسنة: اقتلوا كل ساحر، وفرقوا بين كل ذي محرم من المجوس، وانهوهم عن الزمزمة،

(١) البقرة: الآية (١٠٢).
(٢) الفلق: الآية (٤).
(٣) فتح المجيد (٣٣٧).
(٤) الإسراء: الآية (٣٢).
(٥) البقرة: الآية (٣٥).
(٦) شرح الطيبي (٢/ ٥٠٥).
(٧) القول المفيد (٢/ ١٧).

فقتلنا في يوم ثلاث سواحر، وفرقنا بين كل رجل من المجوس وحريمه في كتاب اللَّه، وصنع طعامًا كثيرًا فدعاهم فعرض السيف على فخذه فأكلوا ولم يزمزموا، وألقوا وقر بغل، أو بغلين، من الورق، ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبدالرحمن بن عوف أن رسول اللَّه ﷺ أخذها من مجوس هجر)[1].

★ **غريب الحديث:**

الزمزمة: كلام تتكلم به المجوس عند أكلهم لا بد لهم منه ولا يحل في دينهم أكل دونه وهو كلام تعظيم لله تعالى يتكلمون به في أفواههم خلقة وشفاههم مطبقة لا يجوز عندهم خلاف ذلك وهذا حمق منهم وتكلف.

الوقر: الوقر بكسر الواو، الحمل وأكثر ما يستعمل في حمل البغل والحمار.

الورق: بكسر الراء، الفضة.

الجزية: مال مأخوذ من أهل الذمة لإسكاننا إياهم في دارنا أو لحقن دماءهم وذراريهم وأموالهم أو لكفنا عن قتالهم.

★ **فوائد الحديث:**

قوله: (اقتلوا كل ساحر) و قوله: (فقتلنا في يوم ثلاث سواحر)

قال في تيسير العزيز الحميد: «صريح في قتل الساحر والساحرة وهو من حجج الجمهور القائلين بأنه يقتل، وظاهره أنه يقتل من غير استتابة، وهو كذلك على المشهور عن أحمد، وبه قال مالك: إن الصحابة لم يستتيبوهم. ولأن علم السحر لا يزول بالتوبة، وعن أحمد: يستتاب فإن تاب قبلت توبته وخلي سبيله، وبه قال الشافعي؛ لأن ذنبه لا يزيد على الشرك، والمشرك يستتاب وتقبل توبته، فكذلك الساحر، وعلمه بالسحر لا يمنع توبته بدليل ساحر أهل الكتاب إذا أسلم، ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم.

قلت: الأول أصح لظاهر عمل الصحابة. فلو كانت الاستتابة واجبة لفعلوها أو بينوها، وأما قياسه على المشرك فلا يصح؛ لأنه أكثر فسادًا وتشويهًا من المشرك،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٩٠-١٩١) وأبو داود (٣/ ٤٣١/ ٣٠٤٣). وصححه ابن حزم في المحلى (١١/ ٣٩٦). وأصله عند البخاري (٦/ ٣١٦/ ٣١٥٦ و ٣١٥٧) والترمذي (٤/ ١٢٤-١٢٥/ ١٥٨٦) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٣٤-٢٣٥/ ٨٧٦٨) دون ذكر موضع الشاهد.

وكذلك لا يصح قياسه على ساحر أهل الكتاب؛ لأن الإسلام يجب ما قبله، وهذا الخلاف إنما هو في إسقاط الحد عنه بالتوبة، أما فيما بينه وبين اللَّه، فإن كان صادقًا قبلت توبته»(١).

* عن حفصة رضي الله عنها أنها قتلت جارية لها سحرتها، وقد كانت دبرتها. فأمرت بها فقتلت(٢).

★ غريب الأثر:

دبرتها: أعتقتها عن دُبُرٍ منها.

★ فوائد الأثر:

قال القرطبي: «واختلف الفقهاء في حكم الساحر المسلم والذمي، فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفرًا يقتل ولا يستتاب ولا تقبل توبته؛ لأنه أمر يستسر به كالزنديق والزاني، ولأن اللَّه تعالى سمى السحر كفرًا بقوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ وهو قول أحمد بن حنبل وأبي ثور وإسحاق والشافعي وأبي حنيفة. وروي قتل الساحر عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبي موسى وقيس بن سعد وعن سبعة من التابعين. وروي عن النبي ﷺ: «**حد الساحر ضربةٌ بالسيف**»(٣) خرجه الترمذي وليس بالقوي؛ انفرد به إسماعيل بن مسلم وهو ضعيف عندهم، رواه ابن المنذر: وقد روينا عن عائشة أنها باعت ساحرة كانت سحرتها وجعلت ثمنها في الرقاب. قال ابن المنذر: وإذا أقر الرجل أنه سحر بكلام يكون كفرًا وجب قتله إن لم يتب،

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ٣٩٤-٣٩٥).

(٢) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٨٧١) بلاغا ووصله عبد الرزاق (١٠/ ١٨٠/ ١٨٧٤٧) وابن أبي شيبة (٥/ ٥٦١/ ٢٨٩٨٠) والبيهقي (٨/ ١٣٦) وصححه شيخ الإسلام في الصارم المسلول (٢/ ٥٢٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٤/ ٤٩/ ١٤٦٠) وقال: «لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث، والصحيح عن جندب موقوف»، والدارقطني (٣/ ١١٤) والحاكم (٤/ ٣٦٠) وقال: صحيح الإسناد، وإن كان الشيخان تركا حديث إسماعيل بن مسلم فإنه غريب صحيح، وله شاهد صحيح على شرطهما جميعًا في ضد هذا. قال في التلخيص: «صحيح غريب، وإن كان قد ترك إسماعيل»، والطبراني في الكبير (٢/ ١٦١/ ١٦٦٦) وابن عدي في الكامل (١/ ٢٨٥) وعنه البيهقي (٨/ ١٣٦) من طريق إسماعيل بن مسلم المكي عن الحسن عن جندب قال: «قال رسول اللَّه ﷺ» فذكره. والحديث ضعفه الألباني رحمه الله في الضعيفة (٣/ ٦٤١).

وكذلك لو ثبتت به عليه بينة ووصفت البينة كلامًا يكون كفرًا. وإن كان الكلام الذي ذكر أنه سحر به ليس بكفر لم يجز قتله، فإن كان أحدث في المسحور جناية توجب القصاص اقتص منه إن كان عمد ذلك؛ وإن كان مما لا قصاص فيه ففيه دية ذلك.
قال ابن المنذر: وإذا اختلف أصحاب رسول اللَّه ﷺ في المسألة وجب اتباع أشبههم بالكتاب والسنة؛ وقد يجوز أن يكون السحر الذي أمر من أمر منهم بقتل الساحر سحرًا يكون كفرًا فيكون ذلك موافقا لسنة رسول اللَّه ﷺ، ويحتمل أن تكون عائشة رضي الله عنها أمرت ببيع ساحرة لم يكن سحرها كفرًا، فإن احتج محتج بحديث جندب عن النبي ﷺ: «**حد الساحر ضربه بالسيف**» فلو صح لاحتمل أن يكون أمر بقتل الساحر الذي يكون سحره كفرًا، فيكون ذلك موافقًا للأخبار التي جاءت عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث**»[(١)]...

قلت: وهذا صحيح، ودماء المسلمين محظورة لا تستباح إلا بيقين ولا يقين مع الاختلاف. واللَّه تعالى أعلم. وقال بعض العلماء: إن قال أهل الصناعة إن السحر لا يتم إلا مع الكفر والاستكبار؛ أو تعظيم الشيطان فالسحر إذًا دال على الكفر على هذا التقدير؛ واللَّه تعالى أعلم. وروي عن الشافعي: لا يقتل الساحر إلا أن يقتل بسحره ويقول: تعمدت القتل، وإن قال: لم أتعمده لم يقتل، وكانت فيه الدية كقتل الخطأ؛ وإن أضر به أدب على قدر الضرر»[(٢)].

وتعقب ابن العربي قول الشافعي فقال: «وهذا باطل من وجهين: أحدهما: أنه لم يعلم السحر، وحقيقته أنه كلام مؤلف يعظم به غير اللَّه تعالى، وتنسب إليه فيه المقادير والكائنات.

والثاني: أن اللَّه سبحانه قد صرح في كتابه بأنه كفر؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ من السحر، وما كفر سليمان بقول السحر، ولكن الشياطين كفروا به وبتعليمه، وهاروت وماروت يقولان: إنما نحن فتنة فلا تكفر، وهذا تأكيد للبيان»[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٢) والبخاري (١٢/ ٢٤٧/ ٦٨٧٨) ومسلم (٣/ ١٣٠٢-١٣٠٣/ ١٦٧٦) وأبو داود (٤/ ٥٢٢/ ٤٣٥٢) والترمذي (٤/ ١٢-١٣/ ١٤٠٢) والنسائي (٧/ ١٠٤-١٠٥/ ٤٠٢٧) وابن ماجه (٢/ ٨٤٧/ ٢٥٣٤) كلهم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٣٣-٣٤).

(٣) أحكام القرآن (١/ ٣١).

وقال ابن عبد البر: «وقد قال جماعة من فقهاء الأمصار بقتل الساحر اتباعًا -والله أعلم- لمن ذكرنا من الصحابة وبنحو ما نزع به مالك رَحِمَهُ اللهُ، وأبت من ذلك طائفة منهم الشافعي وداود. . .

قال أبو عمر: القول الأول أعلى من جهة الاتباع، وأنه لا مخالف له من الصحابة إلا عائشة، فإنها لم تر قتل الساحر»(١).

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من اقتبس علمًا من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد**»(٢).

★ **غريب الحديث:**

اقتبس: قبست العلم واقتبسته إذا تعلمته.

شعبة: أي طائفة وقطعة من النجوم.

★ **فوائد الحديث:**

قال سليمان بن عبد الله: «قوله: (**فقد اقتبس شعبة من السحر**) أي: المعلوم تحريمه قال شيخ الإسلام: فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾(٣) وهكذا الواقع فإن الاستقراء يدل على أن أهل النجوم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة»(٤).

قوله: (**زاد ما زاد**) **قال**: «يعني: كلما زاد من علم النجوم زاد له من الإثم مثل إثم الساحر، أو زاد اقتباس شعب السحر ما زاد اقتباس علم النجوم. قلت: والقولان متلازمان لأن زيادة الإثم فرع عن زيادة السحر وذلك لأنه تحكم على الغيب الذي استأثر الله بعلمه. فعلم أن تأثير النجوم باطل محرم. وكذا العمل بمقتضاه كالتقرب إليها بتقريب القرابين إليها كفر. قاله ابن رجب»(٥).

قال أبو سليمان الخطابي: «علم النجوم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع وستقع في مستقبل الزمان كأخبارهم بأوقات

---

(١) بغية المستفيد (٤/ ٦٢٥-٦٢٦).

(٢) رواه أحمد (١/ ٢٢٧، ٣١١) وأبو داود (٤/ ٢٢٦/ ٣٩٠٥) وابن ماجه (٢/ ١٢٢٨/ ٣٧٢٦).

(٣) طه: الآية (٦٩).

(٤) تيسير العزيز الحميد (ص: ٣٥٠).

(٥) تيسير العزيز الحميد (ص: ٣٥٠).

هبوب الرياح، ومجيء المطر، وظهور الحر والبرد وتغير الأسعار وما كان في معانيها من الأمور، يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب في مجاريها وباجتماعها واقترانها ويدعون لها تأثيرا في السفليات وأنها تتصرف على أحكامها وتجري على قضايا موجباتها، وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاطٍ لعلم استأثر اللَّه سبحانه به لا يعلم الغيب أحد سواه.

فأما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والحس الذي يعرف به الزوال ويعلم به جهة القبلة فإنه غير داخل فيما نهي عنه. وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئًا بأكثر من أن الظل ما دام متناقصًا فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي، وهذا علم يصح دركه من جهة المشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروه بما اتخذوا له من الآلة التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته.

وأما ما يستدل به من جهة النجوم على جهة القبلة فإنما هي كواكب أرصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به عنها مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة ويشاهدوها في حال الغيبة عنها فكان إدراكهم الدلالة عنها بالمعاينة وإدراكنا لذلك بقبولنا لخبرهم إذ كانوا غير متهمين في دينهم ولا مقصرين في معرفتهم»[(١)].

قلت: النجوم جعلها اللَّه زينة للسماء، وجعلت علامات للاهتداء بها، وجعلها اللَّه رجومًا للشياطين، وكل هذا ثابت في القرآن: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾[(٢)]، ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾[(٣)]، فالمسلم الحق هو الذي يقف حيثما أوقفه اللَّه ولا يتعدى ذلك، فالكائنات كلها مدبرها وخالقها ربها، ومن استفاد منها شيئًا لمصلحته فذلك من فضل اللَّه تعالى، والعلم بالنجوم للاستفادة منه في أمور الدنيا أمر لا محظور فيه، فأرباب السفن وأرباب الطائرات وكل من له خبرة بسير النجوم والأفلاك والشمس والأقمار فعلمه معتبر، ويسلم له في تخصصه. وقد أصبح هذا علمًا مستقلًا تدرس مادته في الجامعات والكليات.

---

(١) معالم السنن (٤/ ٢١٢).
(٢) النحل: الآية (١٦).
(٣) الملك: الآية (٥).

أما استعماله في الشعوذة والكهانة، وربط النجوم بالحياة والممات والسعادة والشقاء والحظوظ، وما إلى ذلك مما يفعله البطالون والمشركون، فيزعمون للناس مزاعم لا علاقة لها بالكواكب وسيرها؛ فهذا لا شك أمر محظور، وقائد أصحابه هو إبليس اللعين، فهو الذي يروج لكل فكر بذيء منحرف يفسد به العقائد. فيجب على أهل العلم والدعاة أن يحذروا من هؤلاء الذين يوقعون الناس في الشركيات الكبرى، والله المستعان.

* عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا هل أنبئكم ما العَضْه؟ هي النميمة: القالة بين الناس**»[١].

★ **غريب الحديث:**

العَضْه: بفتح العين المهملة وسكون المعجمة. أصلها العضهة، فعلة من العضه وهو البهت فحذفت لامه[٢].

القالة بين الناس: أي: كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس بما يحكى للبعض عن البعض[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**هي النميمة القالة بين الناس**»

قال في فتح المجيد: «فأطلق عليها (العضه): لأنها لا تنفك عن الكذب والبهتان غالبا. ذكره القرطبي.

وذكر ابن عبد البر، عن يحيى بن أبي كثير، قال: يفسد النمام والكذاب في ساعة، ما لا يفسد الساحر في سنة. وقال أبو الخطاب في عيون المسائل: ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس. قال في الفروع: ووجهه: أنه يقصد الأذى بكلامه وعمله، على وجه المكر والحيلة، أشبه السحر، وهذا يعرف بالعرف والعادة أنه يؤثر، وينتج ما يعمله السحر، أو أكثر فيعطى حكمه، تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين. لكن يقال: الساحر إنما يكفر لوصف السحر، وهو أمر

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٧) ومسلم (٤/ ٢٠١٢/ ٢٦٠٦). (٢) النهاية (٣/ ٣٥٣).
(٣) النهاية (٤/ ٢٣).

خاص، وهذا ليس بساحر. وإنما يؤثر عمله ما يؤثره، فيعطى حكمه، إلا فيما اختص به من الكفر، وعدم قبول التوبة. انتهى ملخصا»[١].

قلت: رحم اللَّه الإمام ابن عبد البر ورحم اللَّه يحيى بن أبي كثير، على هذه العبارة الطيبة، وأن النمام والكذاب يفسد في ساعة ما لا يفسده الساحر في سنة، وهو كذلك؛ فإن النميمة داء عضال، وأصحابها يظهرون للناس النصح والمحبة، وهم في واقع أمرهم معاول هدم، فكم هدمت من أسر مجتمعة بسبب النميمة والكذب! وكم هدم من عمل خيري بسبب النميمة والكذب! وكم قتل من أخيار وفضلاء بسبب النميمة والكذب! وكم سجن من أبرياء بسبب النميمة والكذب! وكم سقطت من دول بسبب النميمة والكذب! ومن تتبع التاريخ وجد أن هذا المنهج منهج إجرامي متسلط، يتقنعه كثير من المجرمين، فيفسدون به مدنًا وقرًى، وكم عانينا من هذا المنهج الفاسد في مسيرتنا الدعوية! فكم من النمامين والكذابين دخلوا لإفساد الدعوة إلى كتاب اللَّه وسنة نبيه، ولكن اللَّه سلم فردّ كيدهم في نحرهم، فنرجو اللَّه أن يكفيناهم بما شاء وكيف شاء.

* عن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما أنه قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس لبيانهما فقال رسول اللَّه ﷺ «**إن من البيان لسحرًا، أو: إن بعض البيان لسحر**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قال الخطابي: البيان اثنان: أحدهما: ما تقع به الإبانة عن المراد بأي وجه كان، والآخر: ما دخلته الصنعة بحيث يروق للسامعين ويستميل قلوبهم، وهو الذي يشبه بالسحر إذا خلب القلب وغلب على النفس حتى يحول الشيء عن حقيقته ويصرفه عن جهته، فيلوح للناظر في معرض غيره. وهذا إذا صرف إلى الحق يمدح، وإذا صرف إلى الباطل يذم. قال: فعلى هذا فالذي يشبه بالسحر منه هو المذموم. وتعقب بأنه لا مانع من تسمية الآخر سحرًا؛ لأن السحر يطلق على الاستمالة كما تقدم تقريره في أول باب السحر، وقد حمل بعضهم الحديث على المدح والحث على تحسين الكلام وتحبير الألفاظ، وهذا واضح إن صح أن الحديث ورد في قصة عمرو بن الأهتم، وحمله بعضهم على الذم لمن تصنع

---

(١) فتح المجيد (ص: ٣٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٦) والبخاري (٩/ ٢٥٢/ ٥١٤٦) وأبو داود (٥/ ٢٧٥/ ٥٠٠٧) والترمذي (٤/ ٣٢٩-٣٣٠/ ٢٠٢٨).

في الكلام وتكلف لتحسينه وصرف الشيء عن ظاهره، فشبه بالسحر الذي هو تخييل لغير حقيقة، وإلى هذا أشار مالك حيث أدخل الحديث في «الموطأ» في «باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله» وتقدم في «باب الخطبة» من كتاب النكاح في الكلام على حديث الباب من قول صعصعة بن صوحان في تفسير هذا الحديث ما يؤيد ذلك، وهو أن المراد به الرجل يكون عليه الحق، وهو ألحن بالحجة من صاحب الحق فيسحر الناس ببيانه فيذهب بالحق، وحمل الحديث على هذا صحيح، لكن لا يمنع حمله على المعنى الآخر إذا كان في تزيين الحق، وبهذا جزم ابن العربي وغيره من فضلاء المالكية. وقال ابن بطال: أحسن ما يقال في هذا أن هذا الحديث ليس ذمًّا للبيان كله ولا مدحًا لقوله من البيان، فأتى بلفظة (من) التي للتبعيض قال: وكيف يذم البيان وقد امتن اللَّه به على عباده حيث قال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[1] انتهى. والذي يظهر أن المراد بالبيان في الآية المعنى الأول الذي نبه عليه الخطابي، لا خصوص ما نحن فيه. وقد اتفق العلماء على مدح الإيجاز، والإتيان بالمعاني الكثيرة بالألفاظ اليسيرة، وعلى مدح الإطناب في مقام الخطابة بحسب المقام، وهذا كله من البيان بالمعنى الثاني. نعم الإفراط في كل شيء مذموم وخير الأمور أوسطها. واللَّه أعلم»[2].

وقال القرطبي: «سمى رسول اللَّه ﷺ الفصاحة في الكلام واللسانة فيه سحرًا؛ فقال: «**إن من البيان لسحرًا**» أخرجه مالك وغيره. وذلك لأن فيه تصويب الباطل حتى يتوهم السامع أنه حق؛ فعلى هذا يكون قوله ﷺ: «**إن من البيان لسحرًا**» خرج مخرج الذم للبلاغة والفصاحة، إذ شبهها بالسحر. وقيل: خرج مخرج المدح للبلاغة والتفضيل للبيان؛ قاله جماعة من أهل العلم. والأول أصح، والدليل عليه قوله ﷺ: «**فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض**»[3]، وقوله: «**إن أبغضكم إلي الثرثارون المتفيهقون**»[4]. الثرثرة: كثرة الكلام وترديده؛ يقال: ثرثر

---

(١) الرحمن: الآيتان (٣ و ٤). (٢) الفتح (١٠/ ٢٩١-٢٩٢).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٢٠٣) والبخاري (١٢/ ٤١٩-٤٢٠/ ٦٩٦٧) ومسلم (٣/ ١٣٣٧/ ١٧١٣) وأبو داود (٤/ ١٢-١٤/ ٣٥٨٣) والترمذي (٣/ ٦٢٤/ ١٣٣٩) والنسائي (٨/ ٦٢٥/ ٥٤١٦) وابن ماجه (٢/ ٧٧٧/ ٢٣١٧) من حديث أم سلمة.

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٣) وصححه ابن حبان (٢/ ٢٣١-٢٣٢/ ٤٨٢) من حديث أبي ثعلبة الخشني، وفي الباب عن جابر وأبي هريرة وابن مسعود ﷺ.

الرجل فهو ثرثار مهذار. والمتفيهق نحوه. قال ابن دريد، فلان يتفيهق في كلامه إذا توسع فيه وتنطع؛ قال: وأصله الفهق وهو الامتلاء؛ كأنه ملأ به فمه.

قلت: وبهذا المعنى الذي ذكرناه فسره عامر الشعبي راوي الحديث وصعصعة بن صوحان فقالا: أما قوله ﷺ: «**إن من البيان لسحرًا**» فالرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق وهو عليه؛ وإنما يحمد العلماء البلاغة واللسانة ما لم تخرج إلى حد الإسهاب والإطناب، وتصوير الباطل في صورة الحق. وهذا بين، والحمد لله»[١].

قلت: مدح اللَّه كتابه بالبيان، ومدح اللَّه أنبياءه ورسله بالبيان، ومدح العلماء أصحاب البيان، قال اللَّه تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[٢]، فالبيان إذا أوتيه الرجل فهو من أعظم النعم، لكن هذه النعمة كغيرها من النعم، إن استعملت في الخير كانت حسنة لصاحبها، وإن استعملت في الشر كانت وبالا على صاحبها، وقد قال الرسول ﷺ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان اللَّه لا يلقي لها بالًا يرفعه اللَّه بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط اللَّه لا يلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم**»[٣]. واستدل ﷺ بكلمة لبيد فقال: «**أصدق كلمة قالها لبيد: ألا كل شيء ما خلا اللَّه باطل**»[٤].

فالكلام كما سبق نعمة من اللَّه، فيجب على المتكلم أن يتقي اللَّه فيما يقول إن كان خطيبًا أو واعظًا، أو محاميًا مدافعًا أو كاتبًا أو مؤلفًا، حتى لا يقع الناس بسبب كلامه في بدعة أو شرك أو معصية، أو تحويل حق غير مستحق إلى غير مستحقه، أو غير ذلك من أنواع الكلام، يقلب الحق باطلًا؛ فإن اللَّه تعالى يعلم السر وأخفى، وسمع شكوى المجادلة من فوق سبع سموات. وقال ابن مسعود: «كان رجلان من قريش وختن لهما من ثقيف، أو رجلان من ثقيف وختن لهما من قريش في بيت، فقال بعضهم لبعض: أترون أن اللَّه يسمع حديثنا؟ قال بعضهم: يسمع بعضه، وقال بعضهم: لئن كان يسمع بعضه لقد يسمع كله، فأنزلت: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٣٢). (٢) الرحمن: الآيات (١-٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٤)، والبخاري (١١/ ٣٧٣/ ٦٤٧٨) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٢٩٠/ ٢٩٨٨)، والترمذي (٤/ ٤٨٢-٤٨٣/ ٢٣١٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٣/ ٣٩٧٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٨)، والبخاري (٧/ ١٨٨/ ٣٨٤١)، ومسلم (٤/ ١٧٦٨/ ٢٢٥٦)، والترمذي (٥/ ١٢٨/ ٢٨٤٩)، وابن ماجه (٢/ ١٢٣٦/ ٣٧٥٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ﴾[١] الآية»[٢]. ومع الأسف فقد اتخذ ما يسمى بعلم الأدب لنشر كل رذيلة وكل سيئة، وزعموا أن الأدب لا رقابة عليه، وأن الأديب له أن يقول ما شاء، وهذه فرية كبرى؛ فالمسلمون مجمعون على تفسير قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٣] بأنهم الملكان عن اليمين وعن الشمال، فالأدب وغيره من العلوم لابد أن يخضع للموازين الشرعية، فحسنه حسن وسيئه سيئ، ومن تتبع دواوين الشعراء وخطب الخطباء؛ وجد ما قلته حقيقة ماثلة في شعر الشعراء وفي خطب الخطباء -وإن يسر اللَّه في العمر وبقيت فسحة اعتنيت بهذا الموضوع عناية خاصة- فإنه باب دخل منه كل زنديق وملحد، وكل مبتدع ومشرك، وكل باطني وشيعي محترق، وكل صوفي متلاعب بدين اللَّه اتخذ دينه هزوًا ولعبًا باسم مدح النبي ﷺ، وباسم القصائد والأناشيد، وهذا البحث كنت سميته في وقت مبكر: (ظاهرة الإلحاد والفساد في الأدب العربي) فمعظم المناهج الآن التي تلقن للناشئة معظمها في هذا الباب من رؤوس الزندقة والإلحاد، كنجيب محفوظ والمعري وبشار وغيرهم كثير.

* عن عامر بن سعد سمعت سعدا رضي الله عنه يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من تصبح سبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر**»[٤].

⋆ غريب الحديث:

تصبح: أصل الصبوح تناول الشراب صبحًا، ثم استعمل في الأكل.

العجوة: ضرب من أجود تمر المدينة وألينه.

⋆ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «كون العجوة تنفع من السم والسحر إنما هو ببركة دعوة النبي ﷺ لتمر المدينة لا لخاصية في التمر»[٥].

---

(١) فصلت: الآية (٢٢).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨١-٤٢٦-٤٤٢)، والبخاري (٨/ ٧٢١-٧٢٢/ ٤٨١٦-٤٨١٧) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٤١/ ٢٧٧٥)، والترمذي (٥/ ٣٥٠-٣٥١/ ٣٢٤٨و٣٢٤٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥١/ ١١٤٦٨).

(٣) ق: الآية (١٨).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١٨١) والبخاري (١٠/ ٢٩٢/ ٥٧٦٩) ومسلم (٣/ ١٦١٨/ ٢٠٤٧) وأبو داود (٤/ ٢٠٨/ ٣٨٧٦) والنسائي في الكبرى (٤/ ١٦٥/ ٦٧١٣).

(٥) الفتح (١٠/ ٢٩٤).

قال القرطبي: «وظاهر هذه الأحاديث: خصوصية عجوة المدينة بدفع السم، وإبطال السحر. وهذا: كما توجد بعض الأدوية مخصوصة ببعض المواضع، وببعض الأزمان»[١].

* عن جابر أن رسول اللَّه ﷺ سئل عن النشرة؟ فقال: «**من عمل الشيطان**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «النشرة ضرب من الرقية والعلاج يعالج به من كان يظن به مس الجن وقيل: سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه أي يحل عنه ما خامره من الداء»[٣].

قال الحافظ: «قال ابن الجوزي: النشرة حل السحر عن المسحور، ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر. وقد سئل أحمد عمن يطلق السحر عن المسحور فقال: لا بأس به. وهذا هو المعتمد. ويجاب عن الحديث والأثر بأن قوله: (النشرة من عمل الشيطان) إشارة إلى أصلها، ويختلف الحكم بالقصد، فمن قصد بها خيرًا كان خيرًا وإلا فهو شر. ثم الحصر المنقول عن الحسن ليس على ظاهره لأنه قد ينحل بالرقى والأدعية والتعويذ، ولكن يحتمل أن تكون النشرة نوعين»[٤].

وقال ابن القيم: «وهي نوعان: حل سحر بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، فإن السحر من عمله فيتقرب إليه الناشر والمنتشر بما يحب، ﴿فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ﴾ عَنِ المسحور، والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة، فهذا جائز، بل مستحب، وعلى النوع المذموم يحمل قول الحسن: (لا يحل السحر إلا ساحر)»[٥].

ويوافق قول سعيد بن المسيب: عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته، أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه.

علقه البخاري[٦] وقال الحافظ: وصله أبو بكر الأثرم في كتاب السنن.

---

(١) المفهم (٥/ ٣٢٢).
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٤) وأبو داود (٤/ ٢٠١/ ٣٨٦٨) وحسنه ابن حجر في الفتح (١٠/ ٢٨٦).
(٣) معالم السنن (٤/ ٢٠٤).
(٤) الفتح (١٠/ ٢٨٦).
(٥) إعلام الموقعين (٤/ ٣٩٦).
(٦) الفتح (١٠/ ٢٨٥).

قال الحافظ: «ويؤيد مشروعية النشرة ما تقدم في حديث «**العين حق**»[١] في قصة اغتسال العائن».

إلى أن قال: «وممن صرح بجواز النشرة المزني صاحب الشافعي وأبو جعفر الطبري وغيرهما»[٢].

قلت: أما حل السحر بالسحر فلا يشك من له أدنى التصاق بعلم العقيدة أنه لا يجوز؛ لأن السحر بالأصل هو من عمل الشيطان، وتعامل مع الشيطان، والشيطان لا يرضى إلا بالشرك والكفر وما حولهما، وقد شاع في الأزمنة المتأخرة عن بعض من نسب إلى العلم جواز حل السحر بالسحر، ولا شك أن هذا مناقض لدعوة التوحيد التي ينتسب إليها هذا القائل. وقد رد عليه العلماء جزاهم اللَّه خيرًا، وعلى رأسهم سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد اللَّه آل الشيخ.

ويكفي المسلم الحق الرقية الشرعية بالأدعية وقراءة القرآن والصلاة، وشرب زمزم وأكل تمر العجوة، والطواف بالبيت والإكثار من الصدقات، والإكثار من الأذكار التي فيها التفريج عن المكروب، وطلب دعاء الأخيار والفضلاء وأهل العلم من ذكور وإناث، ولله أن يفعل ما يشاء، فهو القدير على كل شيء، وليس كل مرض إذا استعملت فيه الأدوية شفي صاحبه، فكم من الأمراض اجتمع عليها أطباء العالم فلم يستطيعوا إبعادها وإزالتها لملوك وأغنياء، فالشفاء بيد الله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٣]، فالسحر مرض من الأمراض، يستعمل له من الأدوية ما يناسبه، ويرجى الشفاء من اللَّه. وأما أن يكون الشرك والكفر والردة وسائل للمسحور لشفائه؛ فهذا مما يناقض دعوة الأنبياء والرسل، واللَّه المستعان.

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٩) والبخاري (١٠/ ٢٤٩/ ٥٧٤٠) ومسلم (٤/ ١٧١٩/ ٢١٨٧) وأبو داود (٤/ ٢١٠/ ٣٨٧٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) الفتح (١٠/ ٢٨٦).

(٣) الشعراء: الآيات (٧٨-٨٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مثوبة: الثواب والمثوبة: الجزاء على الفعل من خير أو شرّ. أصله من ثاب يثوب: إذا رجع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾، لو أن الذين يتعلمون من الملكين ما يفرقون به بين المرء وزوجه، ﴿ءَامَنُوا﴾ فصدقوا اللَّه ورسوله وما جاءهم به من عند ربهم، ﴿وَاتَّقَوْا﴾ ربهم فخافوه فخافوا عقابه فأطاعوه بأداء فرائضه وتجنبوا معاصيه لكان جزاء اللَّه إياهم، وثوابه لهم على إيمانهم به وتقواهم إياه، خيرًا لهم من السحر وما اكتسبوا به، ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أن ثواب اللَّه إياهم على ذلك خير لهم من السحر ومما اكتسبوا به. وإنما نفى بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ العلم عنهم: أن يكونوا عالمين بمبلغ ثواب اللَّه، وقدر جزائه على طاعته»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «أي: لو أنهم استبدلوا الإيمان بما جاء به النبي ﷺ بهذا السحر الخادع واتباع نزغات الشياطين أو لو آمنوا بكتابهم إيمانًا حقيقيًّا ومنه البشارة بالنبي والأمر باتباعه واتقوا بالعمل به والمحافظة على حدوده مغبة ما ينتظره المجرمون من العقوبة على العصيان لكان ثواب اللَّه لهم على الإيمان الصحيح والعمل الصالح خيرًا لهم من جميع ما توهموه في المخالفة من المنافع. ثم قال: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنهم في كل ما هم عليه من الأباطيل، ومن زعمهم أنها ترجع إلى الكتاب بضروب من التأويل، يتبعون الظنون ويعتمدون على التقليد،

---

(١) جامع البيان (٢/ ٤٥٧-٤٥٨ تحقيق شاكر).

وليسوا على شيء من العلم الصحيح ولو كانوا يعلمون علمًا صحيحًا لظهر أثره في أعمالهم ولآمنوا بالنبي ﷺ واتبعوه فكانوا من المفلحين»[١].

* * *

(١) تفسير المنار (١/ ٤٠٨).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤﴾

★ غريب الآية:

راعنا: أي تَعَهَّدْنَا، يقال: راعاه يُرَاعِيه، إذا تعهده والمراعاة المحافظة والمراقبة بشيء في نفسه وأحواله. وكانت اليهود تقولها وتريد بها السب؛ أي: اسمع لا سمعت. فاغتنموها وقالوا: كنا نَسُبُّه سرًّا فالآن نَسُبُّه جهرًا.

انظرنا: أي انتظرنا وَتَأَنَّ علينا، وقيل: أقبل علينا وانظر إلينا. قال امرؤ القيس:

فإنكما إنْ تَنْظُرَانِي ساعَةً ... مِنَ الدَّهْرِ يَنْفَعُنِي لَدَى أُمِّ جُنْدُبِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «نهى اللَّه تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقص -عليهم لعائن الله- فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا. يقولون: راعنا. يورون بالرعونة، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[1] وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم، بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون: السام عليكم. والسام هو: الموت. ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ (وعليكم)[2]. وإنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا، والغرض: أن اللَّه تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولًا وفعلًا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا

---

(١) النساء: الآية (٤٦).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٩) والبخاري (١٢/ ٣٤٧/ ٦٩٢٨) ومسلم (٤/ ١٧٠٦/ ٢١٦٤) وأبو داود (٥/ ٣٨٤/ ٥٢٠٦) والترمذي (٤/ ١٣٢/ ١٦٠٣) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٠٢/ ١٠٢١٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»(١).

وقال الشوكاني: «قوله: ﴿رَٰعِنَا﴾ راقبنا واحفظنا وصيغة المفاعلة تدل على أن معنى ﴿رَٰعِنَا﴾ ارعنا ونرعاك واحفظنا ونحفظك وارقبنا ونرقبك؛ ويجوز أن يكون من أرعنا سمعك: أي فرغه لكلامنا، وجه النهي عن ذلك أن هذا اللفظ كان بلسان اليهود سبًّا، قيل: إنه في لغتهم بمعنى اسمع لا سمعت؛ وقيل غير ذلك، فلما سمعوا المسلمين يقولون للنبي ﷺ راعنا طلبًا منه أن يراعيهم من المراعاة اغتنموا الفرصة، وكانوا يقولون للنبي ﷺ كذلك مظهرين أنهم يريدون المعنى العربي، مبطنين أنهم يقصدون السب الذي معنى هذا اللفظ في لغتهم وفي ذلك دليل على أنه ينبغي تجنب الألفاظ المحتملة للسب والنقص وإن لم يقصد المتكلم بها ذلك المعنى المفيد للشتم سدًّا للذريعة ودفعًا للوسيلة وقطعًا لمادة المفسدة والتطرق إليه، ثم أمرهم اللَّه بأن يخاطبوا النبي ﷺ بما لا يحتمل النقص ولا يصلح للتعريض فقال: ﴿وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ أي: أقبل علينا وانظر إلينا»(٢).

وقال القرطبي: «في هذه الآية دليلان:

أحدهما: على تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها التعريض للتنقيص والغض، ويخرج من هذا فهم القذف بالتعريض، وذلك يوجب الحد عندنا خلافًا لأبي حنيفة والشافعي وأصحابهما حين قالوا: التعريض محتمل للقذف وغيره، والحد مما يسقط بالشبهة. . .

الدليل الثاني: التمسك بسد الذرائع وحمايتها، وهو مذهب مالك وأصحابه، وأحمد بن حنبل في رواية عنه؛ وقد دل على هذا الأصل الكتاب والسنة. والذريعة عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع. أما الكتاب فهذه الآية، ووجه التمسك بها أن اليهود كانوا يقولون ذلك وهي سب بلغتهم؛ فلما علم اللَّه ذلك منهم منع من إطلاق ذلك اللفظ؛ لأنه ذريعة للسب، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(٣) فمنع من سب آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٥٩-٢٦٠). (٢) فتح القدير (١/ ١٨٣-١٨٤).
(٣) الأنعام: الآية (١٠٨).

حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾[1] الآية؛ فحرم عليهم -تبارك وتعالى- الصيد في يوم السبت؛ فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعًا؛ أي: ظاهرة، فسدوا عليها يوم السبت وأخذوها يوم الأحد، وكان السد ذريعة للاصطياد؛ فمسخهم اللَّه قردة وخنازير؛ وذكر اللَّه لنا ذلك معنى التحذير عن ذلك؛ وقوله تعالى لآدم وحواء: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾[2] وقد تقدم. وأما السنة فأحاديث كثيرة ثابتة صحيحة، منها حديث عائشة ﵂ أن أم حبيبة وأم سلمة -رضي اللَّه عنهن- ذكرتا كنيسة رأتاها بالحبشة فيها تصاوير (فذكرتا ذلك) لرسول اللَّه ﷺ؛ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات، بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله**»[3]. أخرجه البخاري ومسلم. وقال علماؤنا: ففعل ذلك أوائلهم ليأتنسوا برؤية تلك الصور، ويتذكروا أحوالهم الصالحة، فيجتهدون كاجتهادهم، ويعبدون اللَّه ﷻ عند قبورهم، فمضت لهم بذلك أزمان، ثم إنهم خلف من بعدهم خلوف جهلوا أغراضهم، ووسوس لهم الشيطان أن آباءكم وأجدادكم كانوا يعبدون هذه الصورة فعبدوها، فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك، وشدد النكير والوعيد على من فعل ذلك، وسد الذرائع المؤدية إلى ذلك فقال: «**اشتد غضب اللَّه على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد**»[4] وقال: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد**»[5]. وروى مسلم عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور متشابهات، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه**»[6] الحديث، فمنع من الإقدام على الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات؛ وذلك سدًّا للذريعة. وقال ﷺ: «**لا يبلغ**

---

(١) الأعراف: الآية (١٦٣). (٢) البقرة: الآية (٣٥).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٥١) والبخاري (١/ ٦٨٩/ ٤٢٧) ومسلم (١/ ٣٧٥-٣٧٦/ ٥٢٨) والنسائي (٢/ ٣٧١-٣٧٢/ ٧٠٣).

(٤) أخرجه بمعناه مسلم (١/ ٣٧٧-٣٧٨/ ٥٣٢) من حديث جندب ﵁.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ من حديث أبي هريرة أحمد (٢/ ٢٤٦) والحميدي (١٠٢٥) وابن سعد (٢/ ٢٤١-٢٤٢). وصحح سنده الألباني (تحذير الساجد ص: ١٨).

(٦) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٧) والبخاري (٤/ ٣٦٤-٣٦٥/ ٢٠٥١) ومسلم (٣/ ١٢١٩-١٢٢٠/ ١٥٩٩) وأبو داود (٣/ ٦٢٣-٦٢٥/ ٣٣٢٩) والنسائي (٧/ ٢٧٧-٢٧٩/ ٤٤٦٥).

العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به البأس»[(١)]. وقال ﷺ: «**إن من الكبائر شتم الرجل والديه قالوا**: يا رسول اللَّه وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: **نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[(٢)]. فجعل التعرض لسبِّ الآباء كسبِّ الآباء»[(٣)].

قلت: رحم اللَّه أبا عبد اللَّه القرطبي على هذه الكلمة الطيبة في قضية سد الذرائع، حيث استفادها من الآية الكريمة، ونسب هذا الأصل إلى مالك وأحمد -رحمهما الله-، والحقيقة أن هذا الأصل من أهم أصول الفقه الذي ينبغي العناية به؛ لأن الإسلام مبني عليه، فالإسلام وسائل وغايات، فينبغي أن تراعى فيه الوسائل والغايات، فما هو وسيلة لشر ينبغي أن يسد، وما هو وسيلة لخير فينبغي أن يفتح، فالذكر وسيلة للثناء والتمجيد للَّه -تبارك وتعالى- بما يليق به، فينبغي الإكثار منه والتعلق به، فهو وسيلة إلى غاية محمودة، فاللَّه -تبارك وتعالى- معرفته غاية السعادة، والجهل به غاية الشقاوة، فكل وسيلة شرعية توصل إلى معرفته فهي مطلوبة من المسلم، فما كان للتوحيد تلك المكانة العظيمة إلا لأنه إفراد للَّه بكل ما يليق به، وكل وسيلة للعبادة -كالطهارة التي هي وسيلة للصلاة وغيرها، من إحرام ومن إمساك عن الأكل والشرب والجماع وكل هذه الوسائل- محمودة ومطلوبة من الإنسان؛ لأن غايتها هي كمال العبودية للَّه تعالى، وكل وسيلة للشرك -كالحلف بغيره -تبارك وتعالى- أو الصلاة في القبور أو غيرها من المسائل الكثيرة التي توقع صاحبها في الشرك من أقوال وأعمال- فلاشك في تحريمها، وقد وفى العلامة ابن القيم رحمه الله هذا الموضع حقه ومستحقه في كتابه القيم إعلام الموقعين فليرجع إليه.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب سد الذرائع والنهي عن التشبه بالكفار في الكليات والجزئيات

* عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[(٤)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٤٧/ ٢٤٥١) وحسنه، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٩/ ٤٢١٥) والحاكم (٤/ ٣١٩) من حديث عطية السعدي والحديث ضعفه الألباني (غاية المرام ص: ١٧٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٤) ومسلم (١/ ٩٢/ ٩٠) والبخاري في الأدب المفرد (٢٨) والترمذي (٤/ ٢٧٦/ ١٩٠٢) من حديث عبداللَّه بن عمرو.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٤٠-٤١).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠-٩٢) وأبو داود (٤/ ٣١٤/ ٤٠٣١) والحديث صحيح بشواهده، انظر الإرواء (١٢٦٩).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن كثير: «ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد، على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم، ولباسهم وأعيادهم، وعبادتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولم نقرّر عليها»[(١)].

وقال شيخ الإسلام: «وهذا الحديث أقل أحواله: أن يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم، كما في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[(٢)] وهو نظير ما سنذكره، عن عبد اللّه بن عمرو أنه قال: «**من بنى بأرض المشركين، وصنع نيروزهم، ومهرجانهم، وتشبه بهم حتى يموت حشر معهم يوم القيامة**»[(٣)].

فقد يحمل هذا على التشبه المطلق، فإنه يوجب الكفر، ويقتضي تحريم أبعاض ذلك، وقد يحمل على أنه منهم، في القدر المشترك الذي شابههم فيه، فإن كان كفرًا، أو معصية، أو شعارًا لها، كان حكمه كذلك.

وبكل حال: يقتضي تحريم التشبه، بعلة كونه تشبهًا، والتشبه: يعم من فعل الشيء لأجل أنهم فعلوه. وهو نادر. ومن تبع غيره في فعل لغرض له في ذلك، إذا كان أصل الفعل مأخوذًا عن ذلك الغير. فأما من فعل الشيء واتفق أن الغير فعله أيضًا، ولم يأخذه أحدهما عن صاحبه، ففي كون هذا تشبها نظر. لكن قد ينهى عن هذا، لئلا يكون ذريعة إلى التشبه، ولما فيه من المخالفة، كما أمر بصبغ اللحى وإحفاء الشوارب، مع أن قوله ﷺ: «**غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود**»[(٤)] دليل على أن التشبه بهم يحصل بغير قصد منا، ولا فعل. بل بمجرد ترك تغيير ما خلق فينا، وهذا أبلغ من الموافقة الفعلية، الاتفاقية.

وقد روي في هذا الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: أنه نهى عن التشبه بالأعاجم وقال: «**من تشبه بقوم فهو منهم**». ذكره القاضي أبو يعلى.

وبهذا احتج غير واحد من العلماء على كراهة أشياء من زي غير المسلمين»[(٥)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٦٠). (٢) المائدة: الآية (٥١).

(٣) رواه البيهقي (٩/ ٢٣٤) وصححه شيخ الإسلام في الاقتضاء (١/ ٤٥٧) وابن القيم في أحكام أهل الذمة (٣/ ١٢٤٨).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦١) والترمذي (٤/ ٢٠٣/ ١٧٥٢) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن حبان (١٢/ ٢٨٧/ ٥٤٧٣). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٣٧-٢٣٩).

قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يود: الود محبة الشيء وتمني كونه، ويستعمل في كل واحد من المعنيين. على أن التمني يتضمن معنى الود؛ لأن التمني هو تشهي حصول ما توده.

يَختصّ: أصل الاختصاص: الانفراد بالشيء، ومعنى (يختصّ برحمته) أي: يفرد بها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فتأويل الكلام: ما يحب الكافرون من أهل الكتاب ولا المشركين باللَّه من عبدة الأوثان، أن ينزل عليكم من الخير الذي كان عند اللَّه فنزله عليكم. فتمنى المشركون وكفرة أهل الكتاب أن لا ينزل اللَّه عليكم الفرقان، وما أوحاه إلى محمد ﷺ من حكمه وآياته، وإنما أحبت اليهود وأتباعهم من المشركين ذلك، حسدًا وبغيًا منهم على المؤمنين.

وفي هذه الآية دلالة بينة على أن اللَّه -تبارك وتعالى- نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين، والاستماع من قولهم، وقبول شيء مما يأتونهم به على وجه النصيحة لهم منهم، بإطلاعه -جل ثناؤه- إياهم على ما يستبطنه لهم أهل الكتاب والمشركون من الضغن والحسد، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مستبطنون»[1].

وقال: «يعني بقوله -جل ثناؤه-: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: واللَّه يختص من يشاء بنبوته ورسالته، فيرسله إلى من يشاء من خلقه، فيتفضل بالإيمان

(١) جامع البيان (٢/ ٤٧٠ تحقيق شاكر).

على من أحب فيهديه له. و(اختصاصه) إياهم بها، إفرادهم بها دون غيرهم من خلقه. وإنما جعل اللَّه رسالته إلى من أرسل إليه من خلقه، وهدايته من هدى من عباده، رحمة منه له، ليصيره بها إلى رضاه ومحبته وفوزه بها بالجنة، واستحقاقه بها ثناؤه. وكل ذلك رحمة من اللَّه له.

وأما قوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾. فإنه خبر من اللَّه -جل ثناؤه- عن أن كل خير ناله عباده في دينهم ودنياهم، فإنه من عنده ابتداء وتفضلًا منه عليهم، من غير استحقاق منهم ذلك عليه.

وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، تعريض من اللَّه -تعالى ذكره- بأهل الكتاب: أن الذي آتى نبيه محمدًا ﷺ والمؤمنين به من الهداية، تفضل منه، وأن نعمه لا تدرك بالأماني، ولكنها مواهب منه يختص بها من يشاء من خلقه»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «يقول اللَّه تعالى للمؤمنين إن هؤلاء الذين علمتم شأنهم مع أنبيائهم حسدة، لا يلتفت إلى تكذيبهم، ولا يبالي بعدوانهم، ولا يضركم كفرهم وعنادهم، فهم لحسدهم لا يودون أن ينزل عليكم أدنى خير من ربكم، والقرآن أعظم الخيرات؛ لأنه النظام الكامل، والفضل الشامل، والهداية العظمى، والآية الكبرى، جمع به شملكم، ووصل حبلكم، ووحد شعوبكم وقبائلكم، وطهر عقولكم من نزغات الوثنية، وزكى نفوسكم من أدران الجاهلية، وأقامكم على سنن الفطرة، وشرع لكم الحنيفية السمحة، فكيف لا يحرق الحسد عليه أكبادهم، ويخرج أضغانهم عليكم وأحقادهم؟

(أقول): الود محبة الشيء وتمني وقوعه يطلق على كل منهما قصدًا وعلى الآخر تبعًا ويكون مفعول الأول مفردًا، والثاني جملة، ونفيه بمعنى الكراهة فالمعنى ما يحب الذين كفروا من اليهود والنصارى ولا من المشركين أن ينزل عليكم أدنى خير من ربكم. أما أهل الكتاب ولاسيما اليهود فلحسدهم للعرب أن يكون فيهم الكتاب والنبوة، وهو ما كانوا يحتكرونه لأنفسهم، وأما المشركون؛ فلأن في التنزيل المرة بعد المرة من قوة الإسلام ورسوخه وانتشاره ما خيب آمالهم في تربصهم الدوائر

---

(١) جامع البيان (٢/ ٤٧٢ تحقيق شاكر).

بالنبي ﷺ وانتهاء أمره.

ثم إن اللَّه تعالى رد عليهم بما بين جهلهم وجهل جميع الحاسدين فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: أن الحاسد لغباوته وفساد طويته يكون ساخطًا على اللَّه تعالى ومعترضًا عليه، أن أنعم على المحسود بما أنعم، ولا يضر اللَّه تعالى سخط الساخطين، ولا يحول مجاري نعمه حسد الحاسدين، فاللَّه يختص برحمته من يشاء من عباده، واللَّه ذو الفضل العظيم، أسند كلا من هذين الأمرين إلى اسم الذات الأعظم، لبيان أنهما حقه لذاته فليس لأحد من عبيده أدنى تأثير في منحهما ولا في منعهما»[1].

قلت: اللَّه -تبارك وتعالى- عليم ورحيم وكريم وكبير وعدل في كل أقواله وأفعاله، أنزل كتابه هداية وبيانًا، من حفظه وقرأه وفهمه وعمل به كان على هداية كاملة، تتضح له الطرق والسبل، ويعرف حقيقةً أحباءه وأصدقاءه وإخوانه من أعدائه والمتربصين به.

وهذه الآية الكريمة تعطي للمسلم حقيقة لا يستطيع أن يصل إليها مهما كان عنده من علم، ومهما بلغ من جهد وسبب، ومهما أرسل من عيون وإخباريين، إلا أن اللَّه تفضل وتكرم فأخبره بحقيقة عدوه ونظرته إليه، فعدوك يتمنى أن تتجرد من كل خير في الظاهر والباطن، ويتمنى أن تكون على أسوإ الأحوال في ظاهرك وباطنك، فيترقب لك كل النكسات في هذه الحياة وتكون على شر واقع، ويبذل بالليل والنهار أن يكون واقعك أقبح واقع وأشره، وما يزال، وهم جنود لا تحصى -لا كثرهم الله- ومع ذلك تجد المسلمين لا يفصلهم عن عدوهم أي فاصل، لا في الشكل ولا في المضمون، فيتابعونهم في كل صغيرة وكبيرة، ويقدمونهم في كل شيء، ويقدمون لهم كل شيء، حتى الأعراض التي هي أغلى ما يملك، فتقدم البنات والأخوات على أنهن لأولئك حبيبات وصديقات، وتقدم لهم أحسن الموارد الاقتصادية على أنها استثمار وترويج للاقتصاد، وما يقدم لهم كثير، أما الموالاة السياسية بالتبعيات؛ فالمسلمون بكل أسف هم ذيولهم، لا يتحركون إلا بتحريكهم، إلا من شاء اللَّه ممن وعى واقعه وانتبه لكيد أعدائه؛ فإنه يضع الأمور في نصابها وقليل ما هم.

---

(١) تفسير المنار (١/ ٤١٢-٤١٣).

قوله تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ننسخ: النسخ في كلام العرب على وجهين، أحدهما: النقل، كنقل كتاب من آخر، وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخًا؛ أي: من اللوح المحفوظ. وهذا لا مدخل له في هذه الآية، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]؛ أي: نأمر بنسخه وإثباته. الثاني: الإبطال والإزالة، وهو المقصود هنا، وهو منقسم في اللغة على ضربين، أحدهما: إبطال الشيء وزواله وإقامة آخر مقامه، ومنه نسخت الشمس الظل، إذا أذهبته وحلت محله، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ﴾. الثاني: إزالة الشيء دون أن يقوم آخر مقامه، كقولهم: «نسخت الريح الأثر»، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[2]؛ أي: يزيله ولا يثبت في المصحف بدله.

ننسها: من نَسِيَ الشيْءَ إذا تركه، ومنه قوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ﴾[3] وقرئت ننسأها؛ أي: نؤخر نسخها. والنَّسْءُ: التأخر، والمعنى: نمحوها من القلوب فنجعلها شيئًا منسيًّا.

ولي: الولي معناه فعيل من قول القائل: «وليت أمر فلان»؛ إذا صرت قيمًا به، فأنا أليه، فهو وليه وقيمه، ومنه قول القائل: «فلان ولي عهد المسلمين»؛ يعني به القائم بما عهد إليه من أمر المسلمين.

نصير: أي: الناصر، وهو المعين والمؤيِّد.

---

(١) الجاثية: الآية (٢٩). (٢) الحج: الآية (٥٢).
(٣) التوبة: الآية (٦٧).

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي في شأن النسخ: «معرفة هذا الباب أكيدة وفائدته عظيمة، لا يستغني عن معرفته العلماء، ولا ينكره إلا الجهلة الأغبياء؛ لما يترتب عليه من النوازل في الأحكام، ومعرفة الحلال من الحرام»(١).

قال الشافعي في الرسالة: «إن اللَّه خلق الخلق لما سبق في علمه مما أراد بخلقهم وبهم، لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، وأنزل عليهم الكتاب تبيانًا لكل شيء وهدى ورحمة، وفرض فيهم فرائض أثبتها، وأخرى نسخها رحمة لخلقه بالتخفيف عنهم وبالتوسعة عليهم، زيادة فيما ابتدأهم به من نعمه، وأثابهم على الانتهاء إلى ما أثبت عليهم جنته، والنجاة من عذابه، فعمتهم رحمته فيما أثبت ونسخ فله الحمد على نعمه»(٢).

وللإشارة فقد أنكرت طوائف من المنتمين إلى الإسلام المتأخرين جوازه وهم محجوجون بإجماع السلف على وقوعه في الشريعة، وأنكرته طوائف من اليهود وهم محجوجون بما جاء في توراتهم:

قال ابن كثير: «الذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ، إنما هو الكفر والعناد، فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام اللَّه تعالى؛ لأنه يحكم ما يشاء، كما أنه يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم ذلك، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ حل بعضها، وكان نكاح الأختين مباحًا لإسرائيل وبنيه، وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها، وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، ثم نسخه قبل الفعل، وأمر جمهور بني إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم، ثم رفع عنهم القتل كي لا يستأصلهم القتل، وأشياء كثيرة المطلوب ذكرها، وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه»(٣).

وقال القرطبي: «وليس هذا من باب البداء، بل هو نقل العباد من عبادة إلى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٤٣).
(٢) الرسالة (ص١٠٦).
(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٦٤-٢٦٥).

عبادة، وحكم إلى حكم؛ لضرب من المصلحة، إظهارًا لحكمته وكمال مملكته، ولا خلاف بين العقلاء أن شرائع الأنبياء قصد بها مصالح الخلق الدينية والدنيوية؛ وإنما كان يلزم البداء لو لم يكن عالمًا بمآل الأمور؛ وأما العالم بذلك فإنما تتبدل خطاباته بحسب تبدل المصالح؛ كالطبيب المراعي أحوال العليل؛ فراعى ذلك في خليقته بمشيئته وإرادته، لا إله إلا هو؛ فخطابه يتبدل، وعلمه وإرادته لا تتغير، فإن ذلك محال في جهة اللَّه تعالى.

وجعلت اليهود النسخ والبداء شيئًا واحدًا؛ ولذلك لم يجوزوه فضلوا. قال النحاس: والفرق بين النسخ والبداء أن النسخ تحويل العبادة من شيء إلى شيء قد كان حلالًا فيحرم أو كان حراما فيحلل. وأما البداء فهو ترك ما عزم عليه؛ كقولك: امض إلى فلان اليوم؛ ثم تقول لا تمض إليه؛ فيبدو لك العدول عن القول الأول؛ وهذا يلحق البشر لنقصانهم»[1].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال علماؤنا -رحمهم اللَّه تعالى-: جائز نسخ الأثقل إلى الأخف؛ كنسخ الثبوت لعشرة بالثبوت لاثنين. ويجوز نسخ الأخف إلى الأثقل؛ كنسخ يوم عاشوراء والأيام المعدودة برمضان؛ على ما يأتي بيانه في آية الصيام. وينسخ المثل بمثله ثقلًا وخفة، كالقبلة. وينسخ الشيء لا إلى بدل كصدقة النجوى. وينسخ القرآن بالقرآن. والسنة بالعبارة؛ وهذه العبارة يراد بها الخبر المتواتر القطعي. وينسخ خبر الواحد بخبر الواحد.

وحذاق الأئمة على أن القرآن ينسخ بالسنة، وذلك موجود في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**لا وصية لوارث**»[2]. وهو ظاهر مسائل مالك. وأبى ذلك الشافعي وأبو الفرج المالكي، والأول أصح، بدليل أن الكل حكم اللَّه تعالى ومن عنده وإن اختلفت في الأسماء. وأيضًا فإن الجلد ساقط في حد الزنى عن الثيب الذي يرجم، ولا مسقط لذلك إلا السنة فعل النبي ﷺ، هذا بين.

والحذاق أيضًا على أن السنة تنسخ بالقرآن وذلك موجود في القبلة، فإن الصلاة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٤٤).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٧) وأبو داود (٣/ ٢٩٠-٢٩١/ ٢٨٧٠) والترمذي (٤/ ٣٧٦-٣٧٧/ ٢١٢٠) وقال: «حسن صحيح» وابن ماجه (٢/ ٩٠٥/ ٢٧١٣) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وفي الباب عن عمرو بن خارجة رضي الله عنه.

إلى الشام لم تكن في كتاب اللَّه تعالى. وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾[(١)] فإن رجوعهن إنما كان بصلح النبي ﷺ لقريش.

والحذاق على تجويز نسخ القرآن بخبر الواحد عقلًا، واختلفوا هل وقع شرعًا؛ فذهب أبو المعالي وغيره إلى وقوعه في نازلة مسجد قباء، على ما يأتي بيانه؛ وأبى ذلك قوم. ولا يصح نسخ نص بقياس؛ إذ من شروط القياس ألا يخالف نصًّا.

وهذا كله في مدة النبي ﷺ، وأما بعد موته واستقرار الشريعة فأجمعت الأمة أنه لا نسخ؛ ولهذا كان الإجماع لا ينسخ ولا ينسخ به إذ انعقاده بعد انقطاع الوحي؛ فإذا وجدنا إجماعًا يخالف نصًّا فيعلم أن الإجماع استند إلى نص ناسخ لا نعلمه نحن، وأن ذلك النص المخالف متروك العمل به، وأن مقتضاه نسخ وبقي سنة يقرأ ويروى؛ كما آية عدة السنة في القرآن تتلى؛ فتأمل هذا فإنه نفيس، ويكون من باب نسخ الحكم دون التلاوة؛ ومثله صدقة النجوى. وقد تنسخ التلاوة دون الحكم كآية الرجم. وقد تنسخ التلاوة والحكم معًا؛ ومنه قول الصديق رضي الله عنه: كنا نقرأ (لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر) ومثله كثير.

والذي عليه الحذاق أن من لم يبلغه الناسخ فهو متعبد بالحكم الأول؛ كما يأتي بيانه في تحويل القبلة.

والحذاق على جواز نسخ الحكم قبل فعله، وهو موجود في قصة الذبيح، وفي فرض خمسين صلاة قبل فعلها بخمس»[(٢)].

قال ابن جرير: «فتأويل الآية إذا: ألم تعلم يا محمد أن لي ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيري، أحكم فيهما وفيما فيهما ما أشاء، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامي التي أحكم بها في عبادي ما أشاء إذا أشاء، وأقر منهما ما أشاء؟

وهذا الخبر وإن كان من اللَّه عز وجل خطابًا لنبيه محمد ﷺ على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه -جل ثناؤه- تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى، وأنكروا محمدًا ﷺ، لمجيئهما بما جاءا به من عند اللَّه بتغيير

---

(١) الممتحنة: الآية (١٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٤٥-٤٦).

ما غير اللَّه من حكم التوراة. فأخبرهم اللَّه أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما، فإن الخلق أهل مملكته وطاعته، عليهم السمع له والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما شاء، ونهيهم عما شاء، ونسخ ما شاء، وإقرار ما شاء، وإنساء ما شاء من أحكامه وأمره ونهيه. ثم قال لنبيه ﷺ وللمؤمنين معه: انقادوا لأمري، وانتهوا إلى طاعتي فيما أنسخ، وفيما أترك فلا أنسخ، من أحكامي وحدودي وفرائضي، ولا يهولنكم خلاف مخالف لكم في أمري ونهيي وناسخي ومنسوخي، فإنه لا قيم بأمركم سواي، ولا ناصر لكم غيري، وأنا المنفرد بولايتكم، والدفاع عنكم، والمتوحد بنصرتكم بعزي وسلطاني وقوتي على من ناوأكم وحادكم، ونصب حرب العداوة بينه وبينكم، حتى أعلي حجتكم، وأجعلها عليهم لكم»[١].

وقال ابن كثير: «يرشد عباده تعالى بهذا، إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما خلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويصح من يشاء، ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، و﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[٢]، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى، فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا، وامتثال ما أمروا، وترك ما عنه زجروا، وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم -لعنهم اللَّه- في دعوى استحالة النسخ، إما عقلًا كما زعمه بعضهم جهلًا وكفرًا، وإما نقلًا كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكًا»[٣].

وقال: «وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية، فلا يصرف الدلالة في المعنى، إذ هو المقصود، وكما في كتبهم مشهورا من البشارة بمحمد ﷺ والأمر باتباعه، فإنه يفيد وجوب متابعته -عليه الصلاة والسلام-، وأنه لا يقبل عمل إلا على شريعته، وسواء قيل إن الشرائع المتقدمة مغياة إلى بعثته عليه السلام، فلا يسمى

---

(١) جامع البيان (٢/ ٤٨٨-٤٨٩ تحقيق شاكر). (٢) الأنبياء: الآية (٢٣).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٤).

ذلك نسخا لقوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾(١)، وقيل: إنها مطلقة، وإن شريعة محمد ﷺ نسختها، فعلى كل تقدير، فوجوب متابعته متعين؛ لأنه جاء بكتاب، هو آخر الكتب عهدًا بالله -تبارك وتعالى-، ففي هذا المقام بين تعالى جواز النسخ، ردًّا على اليهود عليهم لعنة الله، حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٢) الآية؛ فكما أن له الملك بلا منازع، فكذلك له الحكم بما يشاء، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾(٣)»(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجود النسخ في كتاب الله

* عن ابن عباس قال: (قال عمر رضي الله عنه: أقرؤنا أبي، وأقضانا علي، وإنا لندع من قول أبي وذاك أن أبيًا يقول لا أدع شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ وقد قال الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾)(٥).

★ **فوائد الحديث:**

قوله: (سمعته من رسول الله ﷺ)

«في رواية صدقة: (أخذته من في رسول الله ﷺ ولا أتركه لشيء) لأنه بسماعه من رسول الله ﷺ يحصل له العلم القطعي به، فإذا أخبره غيره عنه بخلافه لم ينتهض معارضًا له حتى يتصل إلى درجة العلم القطعي، وقد لا يحصل ذلك غالبًا»(٦).

قوله: (وقد قال الله تعالى إلخ):

«وهو مقول عمر محتجًا به على أبي بن كعب ومشيرًا إلى أنه ربما قرأ ما نسخت تلاوته لكونه لم يبلغه النسخ، واحتج عمر لجواز وقوع ذلك بهذه الآية. وقد أخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: (خطبنا عمر فقال: إن الله يقول: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ أي: نؤخرها)»(٧).

ثم قال: «واستدل بالآية المذكورة على وقوع النسخ خلافًا لمن شذ فمنعه، وتعقب بأنها قضية شرطية لا تستلزم الوقوع، وأجيب بأن السياق وسبب النزول كان

---

(١) البقرة: الآية (١٨٧).
(٢) البقرة: الآيتان (١٠٦و١٠٧).
(٣) الأعراف: الآية (٥٤).
(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٥).
(٥) أخرجه أحمد (٥/ ١١٣) والبخاري (٨/ ٢١١/ ٤٤٨١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٨٩/ ١٠٩٩٥).
(٦) الفتح (٨/ ٢١٢).
(٧) الفتح (٨/ ٢١٢).

في ذلك لأنها نزلت جوابًا لمن أنكر ذلك»[١].

* عن أبي يونس مولى عائشة؛ أنه قال: (أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفًا، وقالت: إذا بلغت هذه الآية فآذني: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[٢] فلما بلغتها آذنتها. فأملت علي: (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين). قالت عائشة: سمعتها من رسول اللّه ﷺ)[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عبد البر: «وفيه ما يدل على مذهب من قال: إن القرآن نسخ منه ما ليس في مصحفنا اليوم، ومن قال بهذا القول يقول: إن النسخ على ثلاثة أوجه في القرآن، أحدهما ما نسخ خطه وحكمه وحفظه، فنسي -يعني رفع خطه من المصحف، وليس حفظه على وجه التلاوة، ولا يقطع بصحته على اللّه، ولا يحكم به اليوم أحد، وذلك نحو ما روي أنه كان يقرأ: (لا ترغبوا عن آبائكم، فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم)[٤].

ومنها قوله: (لو أن لابن آدم واديًا من ذهب، لابتغى إليه ثانيًا، ولو أن له ثانيًا، لابتغى إليه ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب اللّه على من تاب)[٥]. قيل: إن هذا كان في سورة (ص). ومنها: بلغوا قومنا أنا قد لقينا ربنا، فرضي عنا ورضينا عنه. وهذا من حديث مالك عن إسحاق، عن أنس، أنه قال: أنزل اللّه في الذين قتلوا ببئر معونة قرآنًا قرأناه، ثم نسخ بعد: بلغوا قومنا، وذكره[٦].

ومنها قول عائشة: كان فيما أنزل اللّه من القرآن عشر رضعات، ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول اللّه ﷺ وهن مما يقرأ[٧] -إلى أشياء في مصحف أبي، وعبد اللّه، وحفصة، وغيرهم، مما يطول ذكره.

---

(١) الفتح (٨/ ٢١٢). (٢) البقرة: الآية (٢٣٨).

(٣) رواه أحمد (٦/ ٧٣) ومسلم (١/ ٤٣٧-٤٣٨/ ٦٢٩) وأبو داود (١/ ٢٨٧/ ٤١٠) والترمذي (٥/ ٢٠١-٢٠٢/ ٢٩٨٢) والنسائي (١/ ٢٥٥/ ٤٧١).

(٤) أخرجه البخاري (١٢/ ١٧٥/ ٦٨٣٠) عن ابن عباس عن عمر في خطبته الطويلة.

(٥) أخرجه من حديث ابن عباس من قول النبي ﷺ: البخاري (١١/ ٣٠٤-٣٠٥/ ٦٤٣٦-٦٤٣٧) وقال ابن عباس في آخره: «فلا أدري من القرآن هو أم لا؟». (٦) أخرجه مسلم (١/ ٤٦٨/ ٦٧٧).

(٧) أخرجه مسلم (٢/ ١٠٧٥/ ١٤٥٢) وأبو داود (٢/ ٥٥١/ ٢٠٦٢) والنسائي (٦/ ٤٠٩/ ٣٣٠٧) وابن ماجه (١/ ٦٢٥/ ١٩٤٢).

ومن هذا الباب، قول من قال: إن سورة الأحزاب، كانت نحو سورة البقرة أو الأعراف. . .

عن زر بن حبيش، قال: قال لي أبي بن كعب: كائن تقرأ سورة الأحزاب، أو كائن تعدها؟ قلت ثلاثا وسبعين آية، قال: قط، لقد رأيتها وإنها لتعادل البقرة، ولقد كان فيما قرأنا فيها: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة، نكالًا من اللّه، واللّه عزيز حكيم[١]. . .

عن عمرو بن دينار قال: كانت سورة الأحزاب تقارن سورة البقرة. . .

عن مجاهد، قال: كانت الأحزاب مثل سورة البقرة أو أطول، ولقد ذهب يوم مسيلمة قرآن كثير، ولم يذهب منه حلال ولا حرام. . .

عن عميرة بن فروة، أن عمر بن الخطاب قال لأبي -وهو إلى جنبه: «أليس كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله: إن انتفاءكم من آبائكم كفر بكم؟ فقال: بلى، ثم قال: أو ليس كنا نقرأ: الولد للفراش، وللعاهر الحجر[٢] فيما فقدنا من كتاب الله؟ فقال أبي: بلى».

والوجه الثاني: أن ينسخ خطه ويبقى حكمه، وذلك نحو قول عمر بن الخطاب: لو لا أن يقول قوم زاد عمر في كتاب اللّه، لكتبتها بيدي: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة، بما قضيا من اللذة، نكالًا من اللّه، واللّه عزيز حكيم. فقد قرأناها على عهد رسول اللّه ﷺ، فهذا مما نسخ ورفع خطه من المصحف، وحكمه باقٍ في الثيب من الزناة إلى يوم القيامة -إن شاء الله- عند أهل السنة.

ومن هذا الباب قوله في هذا الحديث: (وصلاة العصر) في مذهب من نفى أن تكون الصلاة الوسطى هي صلاة العصر.

ولقد تأول قوم في قول عمر: قرأناها على عهد رسول اللّه ﷺ؛ أي: تلوناها، والحكمة تتلى، بدليل قول اللّه ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ

(١) أخرجه عبداللّه بن أحمد (٥/ ١٣٢) والنسائي في الكبرى (٤/ ٢٧١/ ٧١٥٠)، وقال ابن كثير في التفسير (٣/ ٤٤٨): «هذا إسناد حسن».

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة من قول النبي ﷺ لا على أنه آية من القرآن: البخاري (١٢/ ١٥٣/ ٦٨١٨) ومسلم (٢/ ١٠٨١/ ١٤٥٨).

﴿وَٱلْحِكْمَةِۚ﴾(١). وبين أهل العلم في هذا تنازع يطول ذكره.

والوجه الثالث: أن ينسخ حكمه ويبقى خطه يتلى في المصحف، وهذا كثير، نحو قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾(٢) نسختها: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾(٣) الآية. وهذا من الناسخ والمنسوخ المجتمع عليه»(٤).

* عن أنس رضي الله عنه قال: (بعث النبي ﷺ أقوامًا من بني سليم إلى بني عامر في سبعين، فلما قدموا قال لهم خالي: أتقدمكم فإن أمنوني حتى أبلغهم عن رسول الله ﷺ وإلا كنتم مني قريبًا، فتقدم فأمنوه، فبينما يحدثهم عن النبي ﷺ إذ أومؤوا إلى رجل منهم فطعنه فأنفذه، فقال: اللّه أكبر، فُزْتُ ورب الكعبة، ثم مالوا على بقية أصحابه فقتلوهم إلا رجلًا أعرج صعد الجبل، قال همام: وأراه آخر معه، فأخبر جبريل عليه السلام النبي ﷺ أنهم قد لقوا ربهم فرضي عنهم وأرضاهم، فكنا نقرأ أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا، ثم نسخ بعد، فدعا عليهم أربعين صباحًا على رعل وذكوان وبني لحيان وبني عصية الذين عصوا اللّه ورسوله ﷺ)(٥).

* عن أبي الأسود قال: (بعث أبو موسى الأشعري إلى قراء أهل البصرة فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرأوا القرآن، فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوه ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم، وإنا كنا نقرأ سورة كنا نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأنسيتها غير أني قد حفظت منها لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديًا ثالثًا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات فأنسيتها غير أني حفظت منها: يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة)(٦).

---

(١) الأحزاب: الآية (٣٤).
(٢) البقرة: الآية (٢٤٠).
(٣) البقرة: الآية (٢٣٤).
(٤) فتح البر (١/ ٢٢٨-٢٣١).
(٥) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٩-٢٥٥) والبخاري (٦/ ٢٣/ ٢٨٠١) ومسلم (١/ ٤٦٨/ ٦٧٧).
(٦) أخرجه مسلم (٢/ ٧٢٦/ ١٠٥٠).

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي: «ونسخ ما نسخ من ذلك هو مما نسخ لفظه. والنسخ في القرآن على ثلاثة وجوه: نسخ حكم بقي لفظه، وهو أكثر المنسوخ، ونسخ حكم ولفظ، كما حكى من شأن خمس رضعات، ونسخ لفظ وبقاء حكم، كما يذكر من آية الرجم، فأنسى اللَّه تعالى من ذلك ما شاء لحكمة أرادها. وتوفى النبي ﷺ وقد كمل النسخ وحفظ جميع القرآن، ثم تأمل ما يذكره الصحابة مما نسخ من ذلك، فإنما أتوا به على المعنى وبعض اللفظ، لا على نص المعجز. وسياق نظم القرآن يشهد لذلك ما ذكروه من ذلك المعنى وبعده عن نظم القرآن وبلاغته»[1].

* عن عبداللَّه بن عتبة؛ أنه سمع عبداللَّه بن عباس يقول: قال عمر بن الخطاب وهو جالس على منبر رسول اللَّه ﷺ: (إن اللَّه قد بعث محمدًا ﷺ بالحق. وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم، قرأناها ووعيناها وعقلناها، فرجم رسول اللَّه ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب اللَّه. فيضلوا بترك فريضة أنزلها اللَّه. وإن الرجم في كتاب اللَّه حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف)[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي عياض: «وهذه الآية مما نص العلماء أنه مما نسخ لفظه وبقي معناه، وحكمه ثابت وله نظائر، لكن لا يصح أن يثبت قرآنًا في المصحف ولا يتلى، إذ لم يكتب في المصحف لفظه، بل هذا ومثله مما أنسى اللَّه المسلمين حفظه، حكمة منه وآية لعباده. ألا ترى أنه لو كان باقيًا لفظه لم يجد المبتدع إلى التكذيب بحكمه سبيلًا، ألا ترى ما ذكر عمر ﷺ منها إنما هو - واللَّه أعلم - إخبار على معنى ما كان حفظ من القرآن إذ هذا اللفظ والنظم يبعد عن بلاغة القرآن

---

(١) إكمال المعلم (٣/ ٥٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٠) والبخاري (١٢/ ١٦٥/ ٦٨٢٩) مختصرا، ومسلم (٣/ ١٣١٧/ ١٦٩١) وأبو داود (٤/ ٥٧٢/ ٤٤١٨) والترمذي (٤/ ٣٠/ ١٤٣٢) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٤/ ٢٧٣-٢٧٤/ ٧١٥٧) وابن ماجه (٢/ ٨٥٣/ ٢٥٥٣) مختصرًا.

ونظمه. وفي قول عمر ﷺ هذا ما كان عليه الصحابة ﷺ من الحيطة على أمر القرآن قبل جمع المصاحف وبعدها، من أنه لا يزاد فيه شيء، ولا ينقص منه شيء، ولا يكتب معه شيء، وامتثالهم بذلك، وائتمارهم مخالفة ذلك[1]»[2].

قلت: النسخ لا شك في ثبوته، والأدلة قائمة على وقوعه، والناس فيه صنفان: مفرِطون ومفرِّطون؛ فالمفرطون هم الذين اعتمدوا في نسخهم إما على أحاديث ونصوص لا تصح، وإما على فهم سقيم -كما وقع لكثير من المفسرين في آية السيف حيث جعلوها ناسخة لكل آية فيها الأمر بالعفو والصفح- وألفت في ذلك الكتب وجمعت آيات ادعي فيها النسخ ما لها من أصل، والصنف الثاني وهم المفرطون الذين ينكرون النسخ، فلا شك أن هذا أصل يهودي، والأولى الوسطية في ذلك، فما صح دليله في النسخ نسخ، وما لم يصح في ذلك دليل توقف المسلم في ذلك.

وليعلم أن النسخ لا يكون إلا في الأحكام، أما العقائد والأخبار فلا نسخ فيها، فلا يدخل النسخ صفات الرب تعالى وأسماءه وأفعاله، ولا يدخل النسخ أخبار الساعة والجنة والنار والعرش وغيرها من الأخبار.

والنسخ رحمة من الله، يخفف على عباده ما يشاء ويكمل عبوديته لمن يشاء.

* * *

---

(١) هكذا في الأصل!! ولعل الصواب: وائتمارهم بعدم مخالفة ذلك.

(٢) إكمال المعلم (٥/ ٥٠٨).

قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يتبدل: التبديل جعل شيء مكان آخر.

ضل: الضلال خلاف الهداية، والمعنى هنا: ذهب وحاد، وأصل الضلال عن الشيء الذهاب عنه والحيد، ثم يستعمل في الشيء الهالك، والشيء الذي لا يأبه له، كقولهم للرجل الخامل الذي لا ذكر له ولا نباهة ضل ابن ضل. قال الأخطل:

كنت القذى في موج أكدر مزبد　　قذف الأتي به فضل ضلالا

أي: هلك فذهب.

سواء: السواء من كل شيء وَسَطُهُ. وقيل: السواء القصد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتًا وتكذيبًا وعنادًا. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾، أي ومن يشتر الكفر بالإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال، وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء، واتباعهم والانقياد لهم إلى مخالفتم وتكذيبهم، والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنت والكفر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾[1]»[2].

وقال ابن جرير: «فتأويل الكلام: أتريدون أيها القوم أن تسألوا رسولكم من الأشياء نظير ما سأل قوم موسى من قبلكم، فتكفروا إن منعتموه في مسألتكم ما

---

(١) إبراهيم: الآيتان (٢٨ و ٢٩).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٧).

لا يجوز في حكمة اللَّه إعطاؤكموه، أو أن تهلكوا إن كان مما يجوز في حكمته عطاؤكموه، فأعطاكموه، ثم كفرتم من بعد ذلك، كما هلك من كان قبلكم من الأمم التي سألت أنبياءها ما لم يكن لها مسألتها إياهم، فلما أعطيت كفرت، فعوجلت بالعقوبات لكفرها، بعد إعطاء اللَّه إياها سؤلها»[١].

وقال: «فتأويل الكلام إذًا: ومن يستبدل بالإيمان باللَّه وبرسوله الكفر، فيرتد عن دينه، فقد حاد عن منهج الطريق ووسطه الواضح المسبول.

وهذا القول ظاهره الخبر عن زوال المستبدل بالإيمان الكفر عن الطريق، والمعني به الخبر عنه أنه ترك دين اللَّه الذي ارتضاه لعباده، وجعله لهم طريقًا يسلكونه إلى رضاه، وسبيلًا يركبونها إلى محبته والفوز بجناته. فجعل -جل ثناؤه- الطريق -الذي إذا ركب محجته السائر فيه، ولزم وسطه المجتاز فيه، نجا وبلغ حاجته، وأدرك طلبته- لدينه الذي دعا إليه عباده، مثلا، لإدراكهم بلزومه واتباعه، طلباتهم في آخرتهم، كالذي يدرك اللازم محجة السبيل بلزومه إياها، طلبته من النجاة منها، والوصول إلى الموضع الذي أمه وقصده. وجعل مثل الحائد عن دينه، الجائر عن اتباع ما دعاه إليه من عبادته في إخطائه ما رجا أن يدركه بعمله في آخرته وينال به في معاده، وذهابه عما أمل من ثواب عمله، وبعده به من ربه مثل الحائد عن منهج الطريق وقصد السبيل، الذي لا يزداد وغولًا في الوجه الذي سلكه، إلا ازداد من موضع حاجته بعدًا، وعن المكان الذي أمه وأراده نأيًا.

وهذه السبيل التي أخبر اللَّه عنها، أن من يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواءها، هي (الصراط المستقيم)، الذي أمرنا بمسألته الهداية له بقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾[٢]»[٣].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ﴾[٤] لم يبين هنا هذا الذي سأل موسى من قبل ما هو؟ ولكنه بينه في موضع آخر. وذلك في قوله: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ

---

(١) جامع البيان (٢/ ٤٩٤ تحقيق شاكر).
(٢) الفاتحة: الآيتان (٦ و ٧).
(٣) جامع البيان (٢/ ٤٩٧-٤٩٨ تحقيق شاكر).
(٤) البقرة: الآية (١٠٨).

مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾[(١)] الآية»[(٢)].

وقال السعدي: «ينهى اللَّه المؤمنين، أو اليهود، بأن يسألوا رسولهم ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُ﴾. والمراد بذلك، أسئلة التعنت والاعتراض، كما قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾[(٤)].

فهذه ونحوها، هي المنهى عنها. وأما سؤال الاسترشاد والتعليم، فهذا محمود قد أمر اللَّه به قال تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[(٥)]، ويقرهم عليه؛ كما في قوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ﴾[(٦)] و﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ﴾[(٧)] ونحو ذلك.

ولما كانت المسائل المنهي عنها مذمومة، قد تصل بصاحبها إلى الكفر قال: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾»[(٨)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
من النهي عن السؤال فيما لا يعنيه في أمر ديني أو دنيوي

* عن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال: «**إن أعظم المسلمين جرمًا من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته**»[(٩)].

★ **فوائد الحديث:**

قال البغوي: «المسألة وجهان:

أحدهما: ما كان على وجه التبين والتعلم فيما يحتاج إليه من أمر الدين، فهو جائز مأمور به، قال اللَّه تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[(١٠)] وقال اللَّه تعالى: ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾[(١١)] وقد سألت الصحابة

---

(١) النساء: الآية (١٥٣).
(٢) أضواء البيان (١/ ٨٣).
(٣) النساء: الآية (١٥٣).
(٤) المائدة: الآية (١٠١).
(٥) النحل: الآية (٤٣).
(٦) البقرة: الآية (٢١٩).
(٧) البقرة: الآية (٢٢٠).
(٨) تفسير السعدي (١/ ١٢٣).
(٩) أخرجه أحمد (١/ ١٧٩) والبخاري (١٣/ ٣٢٨/ ٧٢٨٩) ومسلم (٤/ ١٨٣١/ ٢٣٥٨) وأبو داود (٥/ ١٦-١٧/ ٤٦١٠).
(١٠) النحل: الآية (٤٣).
(١١) يونس: الآية (٩٤).

رسول اللَّه ﷺ مسائل، فأنزل اللَّه ﷻ بيانها في كتابه، كما قال اللَّه ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾[1] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾[2] ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾[3].

والوجه الآخر: ما كان على وجه التكلف، فهو مكروه، فسكوت صاحب الشرع عن الجواب في مثل هذا زجر وردع للسائل، فإذا وقع الجواب، كان عقوبة وتغليظا.

والمراد من الحديث هذا النوع من السؤال، وقد شدد بنو إسرائيل على أنفسهم بالسؤال عن وصف البقرة مع وقوع الغنية عنه بالبيان المتقدم، فشدد اللَّه عليهم»[4].

قال النووي: «مقصود أحاديث الباب أنه ﷺ نهاهم عن إكثار السؤال والابتداء بالسؤال عما لا يقع، وكره ذلك لمعان منها أنه ربما كان سببًا لتحريم شيء على المسلمين فيلحقهم به المشقة، وقد بين هذا بقوله ﷺ في الحديث الأول: «**أعظم المسلمين جرمًا من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته**» ومنها أنه ربما كان في الجواب ما يكرهه السائل ويسوؤه ولهذا أنزل اللَّه تعالى في ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[5] كما صرح به في الحديث في سبب نزولها ومنها أنهم ربما أحفوه ﷺ بالمسألة وألحقوه المشقة والأذى فيكون ذلك سببًا لهلاكهم، وقد صرح بهذا في حديث أنس المذكور في الكتاب في قوله: سألوا نبي اللَّه ﷺ حتى أحفوه بالمسألة إلى آخره. وقد قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[6]»[7].

قوله: (أعظم المسلمين جرمًا)

قال الطيبي: «إنما كان أعظم لأن سراية هذا الضرر عمت المسلمين إلى انقراض العالم. وبيان ذلك أن القتل وإن كان أكبر الكبائر بعد الشرك فإنه يتعدى إلى القاتل، أو إلى عاقلته، أو إلى قبيلته، ولكن جرم من حرم ما سئل عنه لأجل

---

(١) البقرة: الآية (١٨٩).
(٢) البقرة: الآية (٢٢٢).
(٣) الأنفال: الآية (١).
(٤) شرح السنة (١/ ٣١٠-٣١١).
(٥) المائدة: الآية (١٠١).
(٦) الأحزاب: الآية (٥٧).
(٧) شرح مسلم (١٥/ ٨٩-٩٠).

مسألته، فإنه تعدى في سائر المسلمين، فلا يمكن أن يوجد جرم ينتهي في معنى العموم إلى هذا الحد»[١].

* عن المغيرة بن شعبة قال: قال النبي ﷺ: «**إن اللَّه حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»[٢].

⋆ غريب الحديث:

وأد البنات: أي: دفنهن وهن حيات.

منع: أي: منع ما عليكم إعطاؤه.

هات: فعل أمر من الإيتاء، وهي هنا طلب ما ليس لكم.

⋆ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «والنهي عن كثرة السؤال يتناول الإلحاف في الطلب والسؤال عما لا يعني السائل، وقيل: المراد بالنهي المسائل التي نزل فيها ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[٣] وقيل: يتناول الإكثار من تفريع المسائل، ونقل عن مالك أنه قال: واللَّه إني لأخشى أن يكون هذا الذي أنتم فيه من تفريع المسائل، ومن ثم كره جماعة من السلف السؤال عما لم يقع لما يتضمن من التكلف في الدين والتنطع والرجم بالظن من غير ضرورة»[٤].

* عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول اللَّه ﷺ فقال: «**أيها الناس قد فرض اللَّه عليكم الحج فحجوا**»، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم**»، ثم قال: «**ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على**

---

(١) شرح المشكاة (٢/ ٦٢١).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٤٦) والبخاري (٥/ ٨٦/ ٢٤٠٨) ومسلم (٣/ ١٣٤١/ ٥٩٣) والنسائي في الكبرى (١٠/ ٣٨٢/ ١١٧٨٤).

(٣) المائدة: الآية (١٠١).

(٤) الفتح (١١/ ٣٧١).

أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن حجر: «والمراد بهذا الأمر ترك السؤال عن شيء لم يقع خشية أن ينزل به وجوبه أو تحريمه، وعن كثرة السؤال لما فيه غالبًا من التعنت وخشية أن تقع الإجابة بأمر يستثقل، فقد يؤدي لترك الامتثال فتقع المخالفة»[٢].

قال ابن رجب: «قد كان أصحاب النبي ﷺ أحيانًا يسألونه عن حكم حوادث قبل وقوعها، لكن للعمل بها عند وقوعها، كما قالوا له: إنا لاقو العدو غدًا، وليس معنا مدى أفنذبح بالقصب؟[٣] وسألوه عن الأمراء الذين أخبر عنهم بعده وعن طاعتهم وقتالهم[٤]، وسأله حذيفة عن الفتن وما يصنع فيها[٥]»[٦].

وقال الحافظ في جملة ما ذمَّه السلف من المسائل: «ومثله الإكثار من التفريع على مسألة لا أصل لها في الكتاب ولا السنة ولا الإجماع وهي نادرة الوقوع جدًّا، فيصرف فيها زمانًا كان صرفه في غيرها أولى ولا سيما إن لزم من ذلك إغفال التوسع في بيان ما يكثر وقوعه، وأشد من ذلك -في كثرة السؤال- البحث عن أمور مغيبة ورد الشرع بالإيمان بها مع ترك كيفيتها، ومنها ما لا يكون له شاهد في عالم الحس، كالسؤال عن وقت الساعة وعن الروح وعن مدة هذه الأمة، إلى أمثال ذلك مما لا يعرف إلا بالنقل الصرف، والكثير منه لم يثبت فيه شيء فيجب الإيمان به من

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠٨) ومسلم (٢/ ٩٧٥/ ١٣٣٧) والنسائي (٥/ ١١٦-١١٧/ ٢٦١٨). وأخرجه البخاري (١٣/ ٣١٢/ ٧٢٨٨) وابن ماجه (١/ ٣/ ٢) دون ذكر الحج.

(٢) الفتح (١٣/ ٣٢٤).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٣-٤٦٤) والبخاري (٥/ ١٦٥/ ٢٤٨٨) ومسلم (٣/ ١٥٥٨/ ١٩٦٨) والترمذي (٤/ ٦٩/ تحت حديث ١٤٩١) والنسائي (٧/ ٢٥٩/ ٤٤١٥) وابن ماجه (٢/ ١٠٦١/ ٣١٧٨) من طريق سعيد بن مسروق عن عباية عن جده رافع بن خديج ﷺ.

(٤) يشير إلى حديث أم سلمة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ستكون أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برئ ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع»** قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: **«لا ما صلوا»**.
رواه أحمد (٦/ ٢٩٥) ومسلم (٣/ ١٤٨٠/ ١٨٥٤) وأبو داود (٥/ ١١٩/ ٤٧٦٠) والترمذي (٤/ ٤٥٨/ ٢٢٦٥) عن ضبة بن محصن عنها ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري (١٣/ ٤٣-٤٤/ ٧٠٨٤) ومسلم (٣/ ١٤٧٥/ ١٨٤٧) وابن ماجه (٢/ ١٣١٧/ ٣٩٧٩) كلهم من رواية أبي إدريس الخولاني عن حذيفة ﷺ.

(٦) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٤٣).

غير بحث، وأشد من ذلك ما يوقع كثرة البحث عنه في الشك والحيرة»[١].

وقال: «وإذا تقرر ذلك فمن يسد باب المسائل حتى فاته معرفة كثير من الأحكام التي يكثر وقوعها فإنه يقل فهمه وعلمه، ومن توسع في تفريع المسائل وتوليدها ولاسيما فيما يقل وقوعه أو يندر، ولاسيما إن كان الحامل على ذلك المباهاة والمغالبة، فإنه يذم فعله وهو عين الذي كرهه السلف، ومن أمعن في البحث عن معاني كتاب اللَّه، محافظًا على ما جاء في تفسيره عن رسول اللَّه ﷺ وعن أصحابه الذين شاهدوا التنزيل وحصل من الأحكام ما يستفاد من منطوقه ومفهومه، وعن معاني السنة وما دلت عليه كذلك مقتصرًا على ما يصلح للحجة منها فإنه الذي يحمد وينتفع به، وعلى ذلك يحمل عمل فقهاء الأمصار من التابعين فمن بعدهم حتى حدثت الطائفة الثانية فعارضتها الطائفة الأولى، فكثر بينهم المراء والجدال وتولدت البغضاء وتسموا خصومًا وهم من أهل دين واحد، والواسط هو المعتدل من كل شيء، وإلى ذلك يشير قوله ﷺ في الحديث الماضي: «**فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم**»، فإن الاختلاف يجر إلى عدم الانقياد، وهذا كله من حيث تقسيم المشتغلين بالعلم، وأما العمل بما ورد في الكتاب والسنة والتشاغل به فقد وقع الكلام في أيهما أولى، والإنصاف أن يقال كلما زاد على ما هو في حق المكلف فرض عين فالناس فيه على قسمين: من وجد في نفسه قوة على الفهم والتحرير فتشاغله بذلك أولى من إعراضه عنه وتشاغله بالعبادة لما فيه من النفع المتعدي، ومن وجد في نفسه قصورا فإقباله على العبادة أولى لعسر اجتماع الأمرين، فإن الأول لو ترك العلم لأوشك أن يضيع بعض الأحكام بإعراضه، والثاني لو أقبل على العلم وترك العبادة فاته الأمران لعدم حصول الأول له وإعراضه به عن الثاني واللَّه الموفق»[٢].

وقال: «وفي الحديث إشارة إلى الاشتغال بالأهم المحتاج إليه عاجلًا عما لا يحتاج إليه في الحال فكأنه قال: عليكم بفعل الأوامر واجتناب النواهي فاجعلوا اشتغالكم بها عوضًا عن الاشتغال بالسؤال عما لم يقع. فينبغي للمسلم أن يبحث عما جاء عن اللَّه ورسوله ثم يجتهد في تفهم ذلك والوقوف على المراد به، ثم

---

(١) الفتح (١٣/ ٣٣١).
(٢) الفتح (١٣/ ٣٣٢).

يتشاغل بالعمل به، فإن كان من العلميات يتشاغل بتصديقه واعتقاد أحقيته، وإن كان من العمليات بذل وسعه في القيام به فعلًا وتركًا، فإن وجد وقتًا زائدًا على ذلك فلا بأس بأن يصرفه في الاشتغال بتعرف حكم ما سيقع على قصد العمل به أن لو وقع، فأما إن كانت الهمة مصروفة عند سماع الأمر والنهي إلى فرض أمور قد تقع وقد لا تقع مع الإعراض عن القيام بمقتضى ما سمع فإن هذا مما يدخل في النهي، فالتفقه في الدين إنما يحمد إذا كان للعمل لا للمراء والجدال»[1].

قلت: فلله دره من إمام، ما أجمل هذا الكلام، وما أحسنه؛ فإنه ملخص للمنهاج السلفي الصحيح. فالمنهاج السلفي هو تتبع ما صح عن اللَّه وعن رسوله ﷺ فيما يتعلق بأمور الاعتقاد، واعتقاد ذلك بدون زيادة أو نقصان، وهكذا في العبادات وفي المعاملات، فيتتبع ما صح عن اللَّه وعن رسوله فيعمل به، ويجتنب ما نهى عنه، ويا ليت المسلمين يفعلون ذلك فتستغل أعمارهم ويستفاد من حياتهم.

وأما تضييع الوقت في إحداث البدع أو تتبعها أو الدفاع عنها بالجدال الباطل سواء كانت في الاعتقاد أو في العبادات أو في غير ذلك؛ فإن ذلك مضيعة للوقت والدين، ومآل صاحبه إن لم يتب جهنم وبئس المصير، فلا فلاح في الدنيا ولا نجاة في الآخرة، فنسأل اللَّه أن يوفقنا للوقوف مع أوامره وأوامر رسوله واجتناب نواهيه، وأن لا نتقدم بين يدي اللَّه ورسوله ببدعة أو بأمر أو بنهي أو باستحسان أو بقياس أو برأي فلان أو بدعة فلان، أو بالبدعة الحسنة أو بالبدعة القبيحة فكل ذلك ضلال. وهذا الحديث من أمهات القواعد الأصولية في دين اللَّه، فمن فهمه وعمل بمقتضاه فقد أفلح وفاز، ومن خالفه فسيصيبه ما أصاب من قبله، كذبوا أنبياءهم وضربوا أقوالهم وأفعالهم بعضها ببعض، وتعنتوا في أسئلتهم ودخلوا في أغاليط، واستقوا من أصول خارجة عن هدي أنبيائهم ورسلهم.

* * *

(١) الفتح (١٣/ ٣٢٨).

قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

فاعفوا: العفو: الصفح والتجاوز عن الذنب، وهو ترك المؤاخذة عليه. قال الشاعر:

خُذِي العَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي ... وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضَبُ

اصفحوا: الصفح إزالة أثر الذنب من النفس، صفحت عن فلان: إذا أعرضت عن ذنبه، وقد ضربت عنه صفحًا إذا أعرضت عنه وتركته، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾[١].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقد صرح هذا القول من قول اللَّه -جل ثناؤه-، بأن خطابه بجميع هذه الآيات من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾[٢] وإن صرف في نفسه الكلام إلى خطاب النبي ﷺ إنما هو خطاب منه للمؤمنين من أصحابه. وعتاب منه لهم، ونهي عن انتصاح اليهود ونظرائهم من أهل الشرك وقبول آرائهم في شيء من أمور دينهم ودليل على أنهم كانوا استعملوا أو من استعمل منهم في خطابه ومسألته رسول اللَّه ﷺ الجفاء، وما لم يكن له استعماله معه، تأسيًا باليهود في ذلك أو ببعضهم. فقال لهم ربهم ناهيًا لهم عن استعمال ذلك: لا تقولوا لنبيكم ﷺ كما تقول له اليهود: ﴿رَٰعِنَا﴾، تأسيا منكم بهم، ولكن قولوا: ﴿ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟﴾، فإن أذى رسول اللَّه ﷺ كفر بي، وجحود لحقي الواجب لي عليكم في

---

(١) الزخرف: الآية (٥). (٢) البقرة: الآية (١٠٤).

تعظيمه وتوقيره، ولمن كفر بي عذاب أليم؛ فإن اليهود والمشركين ما يودون أن ينزل عليكم من خير من ربكم، ولكن كثيرًا منهم ودوا أنهم يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا، حسدًا من عند أنفسهم لكم ولنبيكم محمد ﷺ، من بعد ما تبين لهم الحق في أمر محمد، وأنه نبي إليهم وإلى خلقي كافة»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «بين اللَّه تعالى في الآية الأولى من هاتين الآيتين أن أهل الكتاب المتعصبين لدينهم -من حيث هو جنسية لهم تقوم بها منافع جنسهم- لم يكتفوا بكفرهم بالنبي ﷺ والكيد له ونقض ما عاهدهم عليه حسدًا له ولقومه على نعمة النبوة بل هم يزيدون على ذلك ما قصه تعالى بقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ فهو بيان لما يضمرونه وما تكنه صدورهم للمسلمين من الحسد على نعمة الإسلام التي عرفوا أنها الحق وأن وراءها السعادة في الدارين، ولكنهم شق عليهم أن يتبعوهم فتمنوا أن يحرموا هذه النعمة ويرجعوا كفارًا كما كانوا، وذلك شأن الحاسد يتمنى أن يسلب محسوده النعمة ولو لم تكن ضارة به فكيف إذا كان يعلم أن تلك النعمة إذا تمت وثبتت يكون من أثرها سيادة المحسود عليه وإدخاله تحت سلطانه كما كان يتوقع علماء يهود في عصر التنزيل وقد جاء هذا التنبيه تتمة لقوله تعالى قبل آيات: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[٢] وقد بين اللَّه لنا ما كان من محاولة أهل الكتاب وتحيلهم على تشكيك المسلمين في دينهم كقول بعضهم لبعض بأن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره لعل ضعفاء الإيمان يرجعون عن الإسلام اقتداء بهم كما سيأتي في سورة آل عمران، وفي هذه الآية وما بعدها إشارة إلى أن لذلك بعض الأثر في نفوس بعض المسلمين.

وفائدة هذا التنبيه أو التنبيهات: أن يعلم المسلمون أن ما يبدو من أهل الكتاب أحيانا من إلقاء الشبه على الإسلام وتشكيك المسلمين فيه إنما هو مكر السوء يبعث عليه الحسد لا النصح الذي يبعث عليه الاعتقاد. وقال: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ ليبين أن حسدهم لم يكن عن شبهة دينية أو غيرة على حق يعتقدونه، وإنما هو خبث

---

(١) جامع البيان (٢/ ٤٩٨-٤٩٩ تحقيق شاكر). (٢) البقرة: الآية (١٠٥).

النفوس وفساد الأخلاق والجمود على الباطل وإن ظهر لصاحبه الحق، ولذلك قفاه بقوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ أي بالآيات التي جاء بها النبي -عليه الصلاة والسلام- وبانطباق ما يحفظون من بشارات كتبهم بنبي آخر الزمان عليه.

ثم أمر اللَّه تعالى المؤمنين بأن يقابلوا هذا الحسد وما ينبعث عنه بما يليق بهم من محاسن الأخلاق فقال: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ ولم يقل فاعفوا واصفحوا عنهم لإرادة العموم؛ أي: عاملوا جميع الناس بالصفح والعفو فإن هذا هو اللائق بشأن المؤمنين المتقين ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[1]»[2].

وقال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿فَٱعۡفُواْ﴾، فتجاوزوا عما كان منهم من إساءة وخطأ في رأي أشاروا به عليكم في دينكم، إرادة صدكم عنه، ومحاولة ارتدادكم بعد إيمانكم- وعما سلف منهم من قيلهم لنبيكم ﷺ: ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ﴾[3]، واصفحوا عما كان منهم من جهل في ذلك حتى يأتي اللَّه بأمره، فيحدث لكم من أمره فيكم ما يشاء، ويقضي فيهم ما يريد. فقضى فيهم -تعالى ذكره- وأتى بأمره، فقال لنبيه ﷺ وللمؤمنين به: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾[4]. فنسخ اللَّه -جل ثناؤه- العفو عنهم والصفح، بفرض قتالهم على المؤمنين، حتى تصير كلمتهم وكلمة المؤمنين واحدة، أو يؤدوا الجزية عن يد صغارا»[5].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ هذه الآية في أهل الكتاب كما هو واضح من السياق، والأمر في قوله: ﴿بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾.

قال بعض العلماء: هو واحد الأوامر. وقال بعضهم: هو واحد الأمور، فعلى القول الأول: بأنه الأمر الذي هو ضد النهي؛ فإن الأمر المذكور هو المصرح به في قوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ

---

(١) الفرقان: الآية (٦٣).
(٢) تفسير المنار (١/ ٤٢٠-٤٢١).
(٣) النساء: الآية (٤٦).
(٤) التوبة: الآية (٢٩).
(٥) جامع البيان (٢/ ٥٠٣ تحقيق شاكر).

صَٰغِرُونَ﴾[١]. وعلى القول بأنه واحد الأمور: فهو ما صرح اللّه به في الآيات الدالة على ما أوقع باليهود من القتل والتشريد كقوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ﴾[٢] الآية. إلى غير ذلك من الآيات، والآية غير منسوخة على التحقيق»[٣].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «فيه مسائل:

الأولى: كون أناس ينتسبون إلى العلم والدين يجري منهم هذا عمدًا جراءة على اللّه، وما أكثر من ينكر هذا.

الثانية: التنبيه على كثرة هذا الصنف.

الثالثة: كون المنتسب إلى العلم يقضي إضلال غيره إذا عجز عنه.

الرابعة: أن سبب هذا الأمرِ الغريب هو الحسد، لا خوفَ مضرة ولا طلب مصلحة.

الخامسة: أن المنتسب إلى العقل والعلم، قد يسعى فيما يعلم أنه مصلحة لدنياه ليزيله، وفيما يعلم أنه مضرة لدنياه ليأتي به، فإنهم يعلمون أن زوال المفاسد وحصول المصالح في هذا الدين، وكانوا يستفتحون به قبل مجيئه على من ظلمهم، فلما جاءهم حملهم الحسد على ما ذكر.

السادسة: أن الحسد قد يكون سببًا للكفر كما وقع لهؤلاء ولإبليس.

السابعة: ذكر العفو الذي هو من أسباب العز وقهر الخصم، كما ورد في الحديث.

الثامنة: الرفق في الأمر، وفعله بالتدريج، كما فعل عمر بن عبد العزيز.

التاسعة: أنه سبحانه يمهل ولا يهمل.

العاشرة: الإشعار بالنسخ قبل وقوعه.

الحادية عشرة: تسلية المظلوم المحسود.

---

(١) التوبة: الآية (٢٩).
(٢) الحشر: الآيتان (٢ و٣).
(٣) أضواء البيان (١/ ٨٣-٨٤).

الثانية عشرة: التنبيه على العلة.

الثالثة عشرة: أن الظالم الحاسد يذله اللَّه كما جرى لهؤلاء إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيه:

الرابعة عشرة: وهي الاستدلال بالصفات على الأفعال.

الخامسة عشرة: وهي الاستدلال بالقدرة على ما لا يظن وقوعه.

السادسة عشرة: وهي الاستدلال بها على جعل العفو سببًا لعز العافي وذلة المعفو عنه، عكس ما يظن الأكثر، وأما الاستدلال بها على ما كذب به الجهال استبعادا، مثل عذاب القبر وغيره، أو مثل الصراط والميزان وغيرهما، أو ما يجري في الدنيا من تبديل الأحوال من الغنى إلى الفقر وضده، ومن الذل إلى العز وضده، فأكثر من أن يحصر.

ولكن من أحسن ما فيها المسألة السابعة عشرة، وهي: تنبيه أعلم الناس على أشكل المسائل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ »[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في مدح العفو والصفح والصبر على الأذى

* عن عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أخبره أن رسول اللَّه ﷺ ركب على حمار على قطيفة فدكية وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، قال: حتى مر بمجلس فيه عبداللَّه بن أبي ابن سلول -وذلك قبل أن يسلم عبداللَّه بن أبي- فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبداللَّه بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمَّر عبداللَّه بن أبي أنفه بردائه ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم رسول اللَّه ﷺ عليهم ثم وقف فنزل، فدعاهم إلى اللَّه، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبداللَّه بن أبي ابن سلول: أيها المرء، إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقًّا فلا تؤذنا به في مجلسنا، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه.

---

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ٤٠-٤٢).

فقال عبداللَّه بن رواحة: بلى يا رسول اللَّه، فاغشنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك. فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكنوا. ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي ﷺ: «**يا سعد ألم تسمع ما قال أبو حباب** -يريد عبداللَّه بن أبي- **قال كذا وكذا**». قال سعد بن عبادة: يا رسول اللَّه اعف عنه واصفح عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب، لقد جاء اللَّه بالحق الذي أنزل عليك ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة، فلما أبى اللَّه ذلك بالحق الذي أعطاك اللَّه شَرِق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت. فعفا عنه رسول اللَّه ﷺ وكان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم اللَّه، ويصطبرون على الأذى قال اللَّه ﷻ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾[1] الآية. وقال الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ إلى آخر الآية وكان النبي ﷺ يتأول العفو ما أمره اللَّه به، حتى أذن اللَّه فيهم، فلما غزا رسول اللَّه ﷺ بدرًا فقتل اللَّه به صناديد كفار قريش قال ابن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام، فأسلموا[2].

★ **غريب الحديث:**

قطيفة فدكية: أي كساء غليظ منسوب إلى فدك بفتح الفاء والدال وهي بلد مشهور على مرحلتين من المدينة.

عجاجة الدابة: أي غبارها.

يتثاورون: أي يتواثبون؛ أي: قاربوا أن يثب بعضهم على بعض فيقتتلوا.

البحيرة: بالتصغير، وهذا اللفظ يطلق على القرية وعلى البلد، والمراد به هنا المدينة النبوية.

---

(١) آل عمران: الآية (١٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٢٩١-٢٩٢/ ٤٥٦٦). وأخرجه أحمد (٥/ ٢٠٣) ومسلم (٣/ ١٤٢٢-١٤٢٣/ ١٧٩٨) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٥٦-٣٥٧/ ٧٥٠٢) بأخصر منه. وأخرج الترمذي (٥/ ٨٥٠/ ٢٧٠٢) منه فقرة سلامه ﷺ على المجلس.

فيعصبوه بالعصابة: يرئسوه عليهم ويسودوه.

شرق بذلك: أي غص به، وهو كناية عن الحسد.

صناديد: جمع صنديد، وهو الكبير في قومه.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن كثير: «يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو أو الاحتمال، حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح»[١].

* * *

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٨).

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم، وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، حتى يمكن لهم اللَّه النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[١]، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، يعني أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل، ولا يضيع لديه سواء كان خيرًا أو شرًّا، فإنه سيجازي كل عامل بعمله»[٢].

وقال ابن جرير: «وهذا خبر من اللَّه -جل ثناؤه- للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين، أنهم مهما فعلوا من خير وشر سرًّا وعلانية، فهو به بصير لا يخفى عليه منه شيء، فيجزيهم بالإحسان خيرًا، وبالإساءة مثلها.

وهذا الكلام، وإن كان خرج مخرج الخبر، فإن فيه وعدًا ووعيدًا وأمرًا وزجرًا. وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم، ليجدوا في طاعته، إذ كان ذلك مذخورا لهم عنده حتى يثيبهم عليه، كما قال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ﴾، وليحذروا معصيته، إذ كان مطلعا على راكبها، بعد تقدمه إليه فيها بالوعيد عليها، وما أوعد عليه ربنا -جل ثناؤه- فمنهي عنه، وما وعد عليه فمأمور به»[٣].

وقال محمد رشيد رضا: «وبعد أن أمر بالصلاة والزكاة في سياق كشف شبهة من يشتبه من ضعفاء الإيمان في نصر اللَّه المؤمنين، وجعل السلطان لهم على الكافرين، وبيان أن إقامة هذين الركنين من وسائل النصر والسلطان في الدنيا بين لهم أنها من أسباب السعادة في الآخرة فقال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ﴾ ولكن

---

(١) غافر: الآية (٥٢). (٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٩).

(٣) جامع البيان (٢/ ٥٠٦ تحقيق شاكر).

البيان جاء في صورة عامة وهذا من الأساليب التي لا تكاد تجد لها في غير القرآن نظيرا، ينتقل من بيان حكم إلى آخر فيكون الثاني قائمًا بنفسه وشاملًا للأول بعمومه وتكون صلة العموم والخصوص هي الرابط في النظم. وقوله تعالى: ﴿تَجِدُوهُ﴾ هو كقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[1] وقالوا: إن المراد أنه يرى ويجد جزاءه، ولكن لما كان الجزاء مبنيًّا على أثر العمل في نفس العامل وارتقائها به كان الجزاء بمثابة العمل نفسه. ووصل الوعد بالجزاء على العمل بما يبعث المؤمن على الإحسان فيه ويدل على تحققه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يخفى عليه منه شيء فتخافوا أن ينقصكم من أجوركم شيئًا»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن ما قدم الإنسان من ماله فهو له

* عن عبدالله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «**أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟**» قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: «**فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر**»[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «هذا الحديث تنبيه للمؤمن على أن يقدم من ماله لآخرته، ولا يكون خازنًا له وممسكه عن إنفاقه في طاعة الله، فيخيب من الانتفاع به في يوم الحاجة إليه، وربما أنفقه وارثه في طاعة الله فيفوز بثوابه.

فإن قيل: هذا الحديث يدل على أن إنفاق المال في وجوه البر أفضل من تركه لوارثه، وهذا يعارض قوله ﷺ لسعد: «**إنك إن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس**»[4].

قيل: لا تعارض بينهما، وإنما حض النبي ﷺ سعدًا على أن يترك مالًا لورثته؛ لأن سعدًا أراد أن يتصدق بماله كله في مرضه، وكان وارثه ابنته والابنة لا طاقة لها

---

(١) الزلزلة: الآية (٧). (٢) تفسير المنار (١/ ٤٢٢-٤٢٣).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٢) والبخاري (١١/ ٣١٣/ ٦٤٤٢) والنسائي (٦/ ٥٤٧-٥٤٨/ ٣٦١٤).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١٦٨) والبخاري (٥/ ٤٥٦-٤٥٧/ ٢٧٤٢) ومسلم (٣/ ١٢٥٠-١٢٥١/ ١٦٢٨) وأبو داود (٣/ ٢٨٤-٢٨٧/ ٢٨٦٤) والنسائي (٦/ ٥٥٣/ ٣٦٣٢) وابن ماجه (٢/ ٩٠٣-٩٠٤/ ٢٧٠٨) من حديث سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه.

على الكسب، فأمره ﷺ بأن يتصدق منه بثلثه ويكون باقيه لابنته ولبيت مال المسلمين، وله أجر في كل من يصل إليه من ماله شيء بعد موته.

وحديث ابن مسعود إنما خاطب به ﷺ أصحابه في صحتهم ونبَّه به من شح على ماله، ولم تسمح نفسه بإنفاقه في وجوه البر أن ينفق منه في ذلك؛ لئلا يحصل وارثه عليه كاملًا موفرًا، ويخيب هو من أجره، وليس فيه الأمر بصدقة المال كله فيكون معارضًا لحديث سعد، بل حديث عبداللَّه مجمل يفسره حديث سعد»[1].

* * *

---

(١) شرح البخاري (١٠/ ١٦٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أَمَانِيُّهُمْ: واحدها: أُمْنِيَّةٌ، وهي ما تشتهيه النفس وتريده.

برهانكم: البرهان: الحجة، والدليل القاطع الموصل إلى اليقين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «بين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى، أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، كما أخبر اللَّه عنهم في سورة المائدة، أنهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[1] فأكذبهم اللَّه تعالى، بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا، لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم، أنه لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة، ورد عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة»[2].

وقال ابن جرير: «وهذا أمر من اللَّه -جل ثناؤه- لنبيه ﷺ بدعاء الذين قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ - إلى أمر عدل بين جميع الفرق: مسلمها، ويهودها، ونصاراها، وهو إقامة الحجة على دعواهم التي ادعوا: من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودًا أو نصارى. يقول اللَّه لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، قل للزاعمين إن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودًا أو نصارى، دون غيرهم من سائر البشر: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على ما تزعمون من ذلك، فنسلم لكم دعواكم إن كنتم في دعواكم- من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودًا أو نصارى - محقين»[3].

وقال ابن القيم: «هذه دعوى من كل واحد من الطائفتين أنه لن يدخل الجنة

---

(١) المائدة: الآية (١٨).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٠).
(٣) جامع البيان (٢/ ٥٠٩ تحقيق شاكر).

إلا من كان منهما فقال اليهود: لا يدخلها إلا من كان هودًا. وقالت النصارى لا يدخلها إلا من كان نصرانيًّا فاختصر الكلام أبلغ اختصار وأوجزه مع أمن اللبس ووضوح المعنى فطالبهم اللَّه تعالى بالبرهان على صحة الدعوى فقال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا هو المسمى سؤال المطالبة بالدليل فمن ادعى دعوى بلا دليل يقال له هات برهانك إن كنت صادقًا فيما ادعيت»[(١)].

وقال **محمد رشيد رضا**: «هذا بيان لحالين آخرين من أحوال أهل الكتاب في غرورهم بدينهم ما كان المسلمون قبل نزول الآيات يعرفونها أما الأولى فما بينه تعالى بقوله: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ وهو عطف على قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾[(٢)] أي: قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى كذلك في أنفسهم، وهو اختصار بديع غير مخل. وهذه عقيدة الفريقين إلى اليوم ولا ينافي انسحاب حكمها على الآخرين أن نفرًا من الأولين قالوا ذلك بين يدي النبي -عليه الصلاة والسلام- كما يروى. وقد بين لنا تعالى أن هذا القول لا حجة له في كتبهم المنزلة فقال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ والأماني جمع أمنية وهي ما يتمناه المرء ولا يدركه. وهذا القول ناطق بأمنية واحدة ولكنها تتضمن أماني متعددة هي لوازم لها كنجاتهم من العذاب وكوقوع أعدائهم فيه وحرمانهم من النعيم، ولهذا ذكر الأماني بالجمع ولم يقل تلك أمنيتهم... ثم طالبهم تعالى بالبرهان على دعواهم فقرر لنا قاعدة لا توجد في غير القرآن من الكتب السماوية وهي أنه لا يقبل من أحد قول لا دليل عليه، ولا يحكم لأحد بدعوى ينتحلها بغير برهان يؤيدها، ذلك أن الأمم التي خوطبت بالكتب السالفة لم تكن مستعدة لاستقلال الفكر ومعرفة الأمور بأدلتها وبراهينها ولذلك اكتفي منهم بتقليد الأنبياء[(٣)] فيما يبلغونهم وإن لم يعرفوا برهانه، فهم مكلفون أن يفعلوا ما يؤمرون سواء عرفوا لماذا أمروا أم لم يعرفوا،

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٥١). (٢) البقرة: الآية (١٠٩).

(٣) في هذا الكلام نظر فإن الأنبياء يتبعون ولا يقلدون قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: الآية (٣)]، وقال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: الآية (٣١)].

ولكن القرآن يخاطب من أنزل عليه بمثل قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾(١) وقد فسروا البصيرة بالحجة الواضحة، ويستدل على قدرة اللَّه وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته بالآيات الكونية وهي كثيرة جدًّا في القرآن، وبالأدلة النظرية والعقلية كقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾(٢) وغير ذلك، ويستدل على الأحكام بما يترتب عليها من نفي المضرات والإفضاء إلى المنافع.

علم القرآن أهله أن يطالبوا الناس بالحجة؛ لأنه أقامهم على سواء المحجة، وجدير بصاحب اليقين أن يطالب خصمه به ويدعوه إليه. وعلى هذا درج سلف هذه الأمة الصالح قالوا بالدليل، وطالبوا بالدليل، ونهوا عن الأخذ بشيء من غير دليل، ثم جاء الخلف الطالح فحكم بالتقليد، وأمر بالتقليد، ونهى عن الاستدلال على غير صحة التقليد، حتى كأن الإسلام خرج عن حده، أو انقلب إلى ضده، وصار الذين يعلمون أن الإسلام امتاز عن سائر الأديان بإبطال التقليد، وبالمطالبة بالبرهان والدليل، وعلم الناس استقلال الفكر، مع المشاورة في الأمر، يطالبون المسلمين بالرجوع إلى الدليل، ويعيبون عليهم الأخذ بقال وقيل، ويا ليته كان الأخذ بقال اللَّه، وقيل فيما يروى عن رسول اللَّه، ولكنه الأخذ بقال فلان وقيل عن علان ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾(٣)»(٤).

قلت: رحم اللَّه الشيخ محمد رشيد رضا على هذا التوجيه الطيب، وأن الإسلام يمتاز عن غيره بالمطالبة بالحجة والبرهان في أحكامه وعقائده، أما العقائد فبالاتفاق، فلا عقيدة إلا بنص من القرآن أو السنة الصحيحة، وكذلك العبادات، فلا عبادة إلا بنص من القرآن أو صحيح من السنة، وأما الأحكام العملية كالأنكحة والبيوع وغيرها فأصولها كلها قائمة على الدليل من القرآن وصحيح السنة، وقد يستعمل القياس في هذه الأمور اضطرارًا، وأما فيما سبق فلا قياس، ومكانه له لا حاجة لنا به؛ فإن العقائد أمور خبرية ليس للمسلم فيها إلا التصديق والإيمان، والعبادات لا يجوز فيها القياس؛ لأن ما يتعبد اللَّه به لا يحل فيه القياس، فلهذا

---

(١) يوسف: الآية (١٠٨).

(٢) الأنبياء: الآية (٢٢).

(٣) النجم: الآية (٢٣).

(٤) تفسير المنار (١/ ٤٢٤-٤٢٥).

الاجتهاد في معرفة السنن والنصوص هو علم المسلمين الحق. وما سوى ذلك فضياع وضلالة، ولهذا لما فشا التقليد في الأمة تجند فرسان السنة لإنكاره ورده والإجهاز عليه، قال أحد أئمتهم: أجمع العلماء على أن المقلد ليس من أهل العلم، وقال بعضهم: لا فرق بين مقلد وبهيمة، وبالتقليد الأعمى ردت دعوات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وبالتقليد عبد شيوخ الصوفية واستحلوا أعراض تلامذتهم باسم المشيخة، وأما الرفض فكما قال قائل: بال حمار فبالت حمر، فهم حمر رديئة تتناسل وتتوالد من عصر لآخر، ومن مكان لآخر، وهكذا تجد هذا الداء سرى في كل الطوائف، وانحرفوا عن الصراط المستقيم بسبب هذا الداء العضال، فنعوذ باللَّه من الخذلان.

* * *

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾

★ غريب الآية:

أسلم: أخلص، يقال: أسلم وجهه لله؛ أي: أخلصه وصرفه إليه. قال زيد بن عمرو بن نفيل:

أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ   لَهُ الأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالًا
وأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ   لَهُ المزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالًا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال سعيد بن جبير: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أخلص ﴿وَجْهَهُۥ﴾، قال: دينه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي اتبع فيه الرسول ﷺ، فإن للعمل المتقبل شرطين: أحدهما أن يكون خالصًا لله وحده، والآخر أن يكون صوابًا موافقًا للشريعة، فمتى كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يتقبل، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[(١)]، رواه مسلم من حديث عائشة عنه -عليه الصلاة والسلام-، فعمل الرهبان ومن شابههم، وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله، فإنه لا يتقبل منهم، حتى يكون ذلك متابعًا للرسول ﷺ، المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[(٢)] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾[(٤)]، وروي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، أنه تأولها في الرهبان كما سيأتي، وأما إن كان العمل موافقًا للشريعة، في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو

---

(١) سيأتي تخريجه.
(٢) الفرقان: الآية (٢٣).
(٣) النور: الآية (٣٩).
(٤) الغاشية: الآيات (٢-٥).

أيضًا مردود على فاعله، وهذا حال المرائين والمنافقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾[2] ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[3] وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، وقوله: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور، وآمنهم مما يخافونه من المحذور، فـ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى مما يتركونه، كما قال سعيد بن جبير، فـ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني في الآخرة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يعني لا يحزنون للموت»[4].

وقال محمد رشيد رضا: «قال تعالى ردًّا عليهم ﴿بَلَىٰ﴾ وهي كلمة تذكر في الجواب لإثبات نفي سابق فهي مبطلة لقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ﴾ إلخ؛ أي: بلى إنه يدخلها من لم يكن هودًا ولا نصارى؛ لأن رحمة اللَّه ليست خاصة بشعب دون شعب، وإنما هي مبذولة لكل من يطلبها ويعمل لها عملها، وهو ما بينه ﷻ بقوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ إسلام الوجه لله هو التوجه إليه وحده وتخصيصه بالعبادة دون سواه، كما أشار إلى ذلك في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وغيرها من الآيات: وقد عبر هنا عن إسلام القلب وصحة القصد إلى الشيء بإسلام الوجه كما عبر عنه بتوجيه الوجه في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[5]؛ لأن قاصد الشيء يقبل عليه بوجهه لا يوليه دبره، فلما كان توجيه الوجه إلى شيء له جهة تابعًا لقصده، واشتغال القلب به؛ عبر عنه به، وجعل التوجه بالوجه إلى جهة مخصوصة (وهي القبلة) بأمر اللَّه مذكرًا بإقبال القلب على اللَّه، الذي لا تحدده الجهات، فالإنسان يتضرع ويسجد لله تعالى بوجهه، وعلى الوجه يظهر أثر الخشوع. وظاهر أن المراد من إسلام الوجه لله توحيده بالعبادة والإخلاص له في العمل، بأن

---

(١) النساء: الآية (١٤٢).

(٢) الماعون: الآيات (٤-٧).

(٣) الكهف: الآية (١١٠).

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٠-٢٧١).

(٥) الأنعام: الآية (٧٩).

لا يجعل العبد بينه وبينه وسطاء يقربونه إليه زلفى، فإنه أقرب إليه من حبل الوريد. ومن هنا يفهم معنى الإسلام الذي يكون به المرء مسلمًا.

ذكر التوحيد والإيمان الخالص ولم يحمل عليه الوعد بالأجر عند اللَّه تعالى، واستحقاق الكرامة في دار المقامة إلا بعد أن قيده بإحسان العمل فقال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ وتلك سنة القرآن، تقرن الإيمان بعمل الصالحات، كقوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[1] وهذا في معنى الآيات التي نفسرها. نفى أماني المسلمين كما نفى أماني أهل الكتاب، وجعل أمر سعادة الآخرة منوطًا بالإيمان والعمل الصالح معًا. وكقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾[2] الآية.

ثم بعد أن أثبت للمسلم وجهه إلى اللَّه، والمحسن في عمله الأجر عند اللَّه نفى عنه الخوف الذي يرهق الكافرين والمسيئين في هذه الدنيا وفي تلك الدار الآخرة، والحزن الذي يصيبهم فقال: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ولا شك أن المخاوف والأحزان تساور الذين لبسوا إيمانهم بظلم الوثنية، وأساؤوا أعمالهم بالإعراض عن الهداية الدينية.

ترى أصحاب النزعات الوثنية في خوف دائم مما لا يخيف؛ لأنهم يعتقدون بثبوت السلطة الغيبية القاهرة، لكل ما يظهر لهم منه عمل لا يهتدون إلى سببه ولا يعرفون تأويله، يستخدمون للدجالين والمشعوذين، ويرتعدون من حوادث الطبيعة الغريبة، إذا لاح لهم نجم مذنب تخيلوا أنه منذر يهددهم بالهلاك، وإذا أصابتهم مصيبة بما كسبت أيديهم من الفساد توهموا أنها من تصرف بعض العباد، وتراهم في جزع وهلع من حدوث الحوادث، ونزول الكوارث، لا يصبرون في البأساء والضراء، ولا ينفقون في الرخاء والسراء ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ

---

(١) النساء: الآيتان (١٢٣ و ١٢٤).

(٢) الأنبياء: الآية (٩٤).

دَآئِمُونَ﴾[١] هذه حال من فقد التوحيد الخالص، وحرم من العمل الصالح في هذه الحياة الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾[٢] وإنما كان صاحب النزعات الوثنية في خوف مما يستقبله، وحزن ما ينزل به؛ لأن ما اخترعه له وهمه من السلطة الغيبية لغير اللَّه، التي يحكمها في نفسه، ويجعلها حجابًا بينه وبين ربه، لا يمكنه أن يعتمد في الشدائد عليها، ولا يجد عندها غناء إذا هو لجأ إليها، وما هو من سلطتها على يقين، وإنما هو من الظانين أو الواهمين.

وأما ذو التوحيد الخالص فهو يعلم أنه لا فاعل إلا اللَّه تعالى، وأنه من رحمته قد هدى الإنسان إلى السنن الحكيمة التي يجري عليها في أفعاله، فإذا أصابه ما يكره بحث في سببه، واجتهد في تلافيه من السنة التي سنها اللَّه تعالى لذلك، فإن كان أمرًا لا مردَّ له سلم أمره فيه إلى الفاعل الحكيم، فلا يحار ولا يضطرب لأن سنده قوي عزيز، والقوة التي يلجأ إليها كبيرة لا يعجزها شيء، فإذا نزل به سبب الحزن أو عرض له مقتضى الخوف؛ لا يكون أثرهما إلا كما يطيف الخاطر بالبال، ولا يلبث أن يعرض له الزوال ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[٣]، فكأنه تعالى يقول لأهل الكتاب: لا تغرنكم الأماني ولا يخدعنكم الانتساب الباطل إلى الأنبياء، فهذه هي طريق الجنة، أسلموا وجوهكم لله تسلموا، واعملوا الصالحات تؤجروا، وقد أفرد الضمير في قوله: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ﴾ مراعاة للفظ (من) وجمعه في قول ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ إلخ مراعاة لمعناها»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في شروط قبول الأعمال

* عن عائشة ﵂ قالت قال رسول اللَّه ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد**»[٥].

وفي لفظ لمسلم: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٦].

---

(١) المعارج: الآيات (١٩-٢٣).
(٢) فصلت: الآية (١٦).
(٣) الرعد: الآية (٢٨).
(٤) تفسير المنار (١/ ٤٢٥-٤٢٧).
(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٢٤٠) والبخاري (٥/ ٣٧٧/ ٢٦٩٧) ومسلم (٣/ ١٣٤٣/ ١٧١٨[١٧]) وأبو داود (٥/ ١٢/ ٤٦٠٦) وابن ماجه (١/ ٧/ ١٤).
(٦) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٤٣-١٣٤٤/ ١٧١٨[١٨]).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن رجب: «وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها كما أن حديث: «**الأعمال بالنيات**»[١] ميزان للأعمال في باطنها، فكما أن كل عمل لا يراد به وجه اللَّه تعالى، فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر اللَّه ورسوله، فهو مردود على عامله، وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به اللَّه ورسوله، فليس من الدين في شيء»[٢].

وقال: «فهذا الحديث يدل بمنطوقه على أن كل عمل ليس عليه أمر الشارع فهو مردود، ويدل بمفهومه على أن كل عمل عليه أمره فهو غير مردود، والمراد بأمره ها هنا: دينه وشرعه، كالمراد بقوله في الرواية الأخرى «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه**».

فالمعنى إذًا: أن من كان عمله خارجًا عن الشرع ليس متقيدًا بالشرع، فهو مردود.

وقوله: (**ليس عليه أمرنا**) إشارة إلى أن أعمال العاملين كلهم ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة، وتكون أحكام الشريعة حاكمة عليها بأمرها ونهيها، فمن كان عمله جاريًا تحت أحكام الشرع، موافقا لها، فهو مقبول، ومن كان خارجًا عن ذلك فهو مردود».

والأعمال قسمان: عبادات ومعاملات.

«فأما العبادات، فما كان منها خارجا عن حكم اللَّه ورسوله بالكلية، فهو مردود على عامله، وعامله يدخل تحت قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾[٣]، فمن تقرب إلى اللَّه بعمل، لم يجعله اللَّه ورسوله قربة إلى اللَّه، فعمله باطل مردود عليه، وهو شبيه بحال الذين كانت صلاتهم عند البيت مكاء وتصدية، وهذا كمن تقرب إلى اللَّه تعالى بسماع الملاهي، أو بالرقص، أو بكشف الرأس في غير الإحرام، وما أشبه ذلك من المحدثات التي لم يشرع اللَّه ورسوله التقرب بها بالكلية.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٥) والبخاري (١/ ١١/ ١) ومسلم (٣/ ١٥١٥-١٥١٦/ ١٩٠٧) وأبو داود (٢/ ٦٥١-٦٥٢/ ٢٢٠١) والترمذي (٤/ ١٥٤/ ١٦٤٧) والنسائي (١/ ٦٢-٦٣/ ٥٧) وابن ماجه (٢/ ١٤١٣/ ٤٢٢٧) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٦).

(٣) الشورى: الآية (٢١).

وليس ما كان قربة في عبادة يكون قربة في غيرها مطلقا، فقد رأى النبي ﷺ رجلا قائما في الشمس، فسأل عنه، فقيل: إنه نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل وأن يصوم[١]، فأمره النبي ﷺ أن يقعد ويستظل، وأن يتم صومه فلم يجعل قيامه وبروزه للشمس قربة يوفى بنذرهما. وقد روي أن ذلك كان في يوم جمعة عند سماع خطبة النبي ﷺ وهو على المنبر، فنذر أن يقوم ولا يقعد ولايستظل ما دام النبي ﷺ يخطب[٢]، إعظامًا لسماع خطبة النبي ﷺ، ولم يجعل النبي ﷺ ذلك قربة توفى بنذره، مع أن القيام عبادة في مواضع أخر، كالصلاة والأذان والدعاء بعرفة، والبروز للشمس قربة للمحرم، فدل على أنه ليس كل ما كان قربة في موطن يكون قربة في كل المواطن، وإنما يتبع في ذلك ما وردت به الشريعة في مواضعها.

وكذلك من تقرب بعبادة نهي عنها بخصوصها، كمن صام يوم العيد، أو صلى في وقت النهي.

وأما من عمل عملًا أصله مشروع وقربة، ثم أدخل فيه ما ليس بمشروع، أو أخل فيه بمشروع، فهذا مخالف أيضًا للشريعة بقدر إخلاله بما أخل به، أو إدخاله ما أدخل فيه، وهل يكون عمله من أصله مردودًا عليه أم لا؟ فهذا لا يطلق القول فيه برد ولا قبول، بل ينظر فيه: فإن كان ما أخل به من أجزاء العمل أو شروطه موجبًا لبطلانه في الشريعة، كمن أخل بالطهارة للصلاة مع القدرة عليها، أو كمن أخل بالركوع أو بالسجود أو بالطمأنينة فيهما، فهذا عمله مردود عليه، وعليه إعادته إن كان فرضًا، وإن كان ما أخل به لا يوجب بطلان العمل، كمن أخل بالجماعة للصلاة المكتوبة عند من يوجبها ولا يجعلها شرطًا، فهذا لا يقال: إن عمله مردود من أصله، بل هو ناقص»[٣].

وقال: «وأما المعاملات كالعقود والفسوخ ونحوهما، فما كان منها تغييرًا للأوضاع الشرعية، كجعل حد الزنى عقوبة مالية، وما أشبه ذلك، فإنه مردود من أصله، لا ينتقل به الملك؛ لأن هذا غير معهود في أحكام الإسلام، ويدل على ذلك

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٧١٨/ ٦٧٠٤) وأبو داود (٣/ ٥٩٩-٦٠٠/ ٣٣٠٠) وابن ماجه (١/ ٦٩٠/ ٢١٣٦) من حديث ابن عباس ﷺ.

(٢) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٥/ ٤١١/ ٢١٦٧) والخطيب في الأسماء المبهمة (ص: ٢٧٤).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٧-١٧٩).

أن النبي ﷺ قال للذي سأله: إن ابني كان عسيفًا على فلان، فزنى بامرأته، فافتديت منه بمئة شاة وخادم، فقال النبي ﷺ: «**المئة شاة والخادم رد عليك، وعلى ابنك جلد مئة، وتغريب عام**»[١].

وما كان منها عقدًا منهيًا عنه في الشرع، إما لكون المعقود عليه ليس محلًّا للعقد، أو لفوات شرط فيه، أو لظلم يحصل به للمعقود معه أو عليه، أو لكون العقد يشغل عن ذكر اللَّه الواجب عند تضايق وقته، أو غير ذلك، فهذا العقد: هل هو مردود بالكلية، لا ينتقل به الملك، أم لا؟ هذا الموضع قد اضطرب الناس فيه اضطرابًا كثيرًا، وذلك أنه ورد في بعض الصور أنه مردود لا يفيد الملك، وفي بعضها أنه يفيده، فحصل الاضطراب فيه بسبب ذلك، والأقرب -إن شاء اللَّه تعالى- أنه إن كان النهي عنه لحق لله ﷻ، فإنه لا يفيد الملك بالكلية، ونعني بكون الحق لله: أنه لا يسقط برضا المتعاقدين عليه، وإن كان النهي عنه لحق آدمي معين، بحيث يسقط برضاه به، فإنه يقف على رضاه به، فإن رضي لزم العقد، واستمر الملك، وإن لم يرض به فله الفسخ، فإن كان الذي يلحقه الضرر لا يعتبر رضاه بالكلية، كالزوجة والعبد في الطلاق والعتاق، فلا عبرة برضاه ولا بسخطه، وإن كان النهي رفقا بالمنهي خاصة لما يلحقه من المشقة، فخالف وارتكب المشقة، لم يبطل بذلك عمله»[٢].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه ﷺ، فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات، وفي الرواية الثانية زيادة وهي أنه قد يعاند بعض الفاعلين في بدعة سبق إليها، فإذا احتج عليه بالرواية الأولى يقول: أنا ما أحدثت شيئًا، فيحتج عليه بالثانية التي فيها التصريح برد كل المحدثات سواء أحدثها الفاعل أو سبق بإحداثها... وهذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به»[٣].

* * *

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١١٥-١١٦) والبخاري (٥/ ٣٧٧/ ٢٦٩٥-٢٦٩٦) ومسلم (٣/ ١٣٢٤-١٣٢٥/ ١٦٩٧-١٦٩٨) وأبو داود (٤/ ٥٩١-٥٩٣/ ٤٤٤٥) والترمذي (٤/ ٣٠-٣١/ ١٤٣٣) والنسائي (٨/ ٦٣٢-٦٣٣/ ٥٤٢٥) وابن ماجه (٢/ ٨٥٢/ ٢٥٤٩) كلهم من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما.

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ١٨١-١٨٢).

(٣) شرح مسلم (١٢/ ١٥).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وأما تأويل الآية فإنه: قالت اليهود: ليست النصارى في دينها على صواب، وقالت النصارى: ليس اليهود في دينها على صواب، وإنما أخبر اللَّه عنهم بقيلهم ذلك للمؤمنين، إعلامًا منه لهم بتضييع كل فريق منهم حكم الكتاب الذي يظهر الإقرار بصحته، وأنه من عند اللَّه، وجحودهم مع ذلك ما أنزل اللَّه فيه من فروضه؛ لأن الإنجيل الذي تدين بصحته وحقيته النصارى، يحقق ما في التوراة من نبوة موسى عليه السلام، وما فرض اللَّه على بني إسرائيل فيها من الفرائض، وأن التوراة التي تدين بصحتها وحقيتها اليهود، تحقق نبوة عيسى عليه السلام، وما جاء به من عند اللَّه من الأحكام والفرائض.

ثم قال كل فريق منهم للفريق الآخر ما أخبر اللَّه عنهم في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾، مع تلاوة كل واحد من الفريقين كتابه الذي يشهد على كذبه في قيله ذلك. فأخبر -جل ثناؤه- أن كل فريق منهم قال ما قال من ذلك، على علم منهم أنهم فيما قالوه مبطلون؛ وأتوا ما أتوا من كفرهم بما كفروا به، على معرفة منهم بأنهم فيه ملحدون»[2].

وقال: «وهذه الآية تنبئ عن أن من أتى شيئًا من معاصي اللَّه على علم منه بنهي اللَّه عنها، فمصيبته في دينه أعظم من مصيبة من أتى ذلك جاهلًا به؛ لأن اللَّه -تعالى ذكره- عظم توبيخ اليهود والنصارى بما وبخهم به -في قيلهم ما أخبر عنهم بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ -من أجل

---

(١) البقرة: الآية (١١٣).

(٢) جامع البيان (٢/ ٥١٤ تحقيق شاكر).

أنهم أهل كتاب، قالوا ما قالوا من ذلك على علم منهم أنهم مبطلون»[١].

وقال الشوكاني: «وفي هذا أعظم توبيخ وأشد تقريع؛ لأن الوقوع في الدعاوى الباطلة والتكلم بما ليس عليه برهان هو -وإن كان قبيحًا على الإطلاق، لكنه من أهل العلم والدراسة لكتب الله- أشد قبحا وأفظع جرما وأعظم ذنبا»[٢].

وقال محمد رشيد رضا: «والعبرة في الآية أن أهل الكتاب في تضليل بعضهم بعضا واعتقاد كل واحد في الآخر أنه ليس على شيء حقيقي من أمر الدين مع أن كتاب اليهود أصل لكتاب النصارى، وكتاب النصارى متمم لكتاب اليهود، قد صاروا إلى حال من التهافت واتباع الأهواء لا يعتد معها بقول أحد منهم في نفسه ولا في غيره، فطعنهم في النبي -عليه الصلاة والسلام- وإعراضهم عن الإيمان به لا ينهض حجة على كونهم علموا أنه مخالف للحق، بل لا يصلح شبهة على ذلك لأنهم أهل أهواء، وتعصب للمذاهب المبتدعة والآراء، فإذا كانت اليهود كفرت بعيسى وأنكرته وهو منهم وهم ينتظرونه لإعادة مجدهم وتجديد عزهم، وإذا كانت النصارى قد رفضت التوراة وكفرت أهلها وهي حجتهم على دينهم، فكيف يعتد بكفر هؤلاء وهؤلاء بمحمد ﷺ وهو من شعب غير شعبهم، وقد جاء بشريعة ناسخة لشرائعهم، وهم لا يفهمون من الدين إلا أنه جنسية دنيوية لهم»[٣].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢/ ٥١٨ تحقيق شاكر).
(٢) فتح القدير (١/ ١٩٣).
(٣) تفسير المنار (١/ ٤٢٩).

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الذي عنى اللَّه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فقال بعضهم: . . . وقالت النصارى مثل قول اليهود قبلهم. . . وقيل: أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل. وقال بعضهم: عنى بذلك مشركي العرب لأنهم لم يكونوا أهل كتاب، فنسبوا إلى الجهل، ونفى عنهم من أجل ذلك العلم»[(١)].

ثم قال: «والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن اللَّه -تبارك وتعالى- أخبر عن قوم وصفهم بالجهل، ونفى عنهم العلم بما كانت اليهود والنصارى به عالمين أنهم قالوا بجهلهم نظير ما قال اليهود والنصارى بعضها لبعض، مما أخبر عنهم أنهم قالوه في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾[(٢)]. وجائز أن يكونوا هم المشركين من العرب، وجائز أن يكونوا أمة كانت قبل اليهود والنصارى، ولا أمة أولى أن يقال هي التي عنيت بذلك من أخرى، إذ لم يكن في الآية دلالة على أي من أي، ولا خبر بذلك عن رسول اللَّه ﷺ ثبتت حجته من جهة نقل الواحد العدل، ولا من جهة النقل المستفيض.

وإنما قصد اللَّه -جل ثناؤه- بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾، إعلام المؤمنين أن اليهود والنصارى قد أتوا من قيل الباطل، وافتراء الكذب على اللَّه، وجحود نبوة الأنبياء والرسل، وهم أهل كتاب يعلمون أنهم فيما يقولون مبطلون، وبجحودهم ما يجحدون من ملتهم خارجون، وعلى اللَّه مفترون مثل الذي قاله أهل الجهل باللَّه وكتبه ورسله، الذين لم يبعث اللَّه لهم رسولًا ولا أوحى إليهم كتابًا»[(٣)].

---

(١) جامع البيان (٢/ ٥١٦-٥١٧ تحقيق شاكر) بتصرف يسير.

(٢) البقرة: الآية (١١٣).

(٣) جامع البيان (٢/ ٥١٧ تحقيق شاكر).

وقال محمد رشيد رضا: «وفي الآية إرشاد إلى بطلان التقليد، مؤيد لما في الآية التي تطالب المدعي بالبرهان، وإلى النهي على المقلدين المتعصبين لآرائهم، المتبعين لأهوائهم، وإلى التحري في الحكم على الشيء يعتقد الحاكم بطلانه لأنه مخالف لما يعتقده، فلا ينبغي للعاقل أن يحكم على شيء إلا بعد البحث والتحري، ومعرفة مكان الخطأ، والتزييل بينه وبين ما عساه يكون معه صوابًا. ألم تر أن سياق الآيات ناطق بإنكار حكم كل من الفريقين على الآخر من غير بينة ولا برهان، ولا فصل ولا فرقان، مع أن كل واحد منهم على شيء من الحق وشيء من الباطل؛ لأن أصل دينه حق، ثم طرأت عليه نزغات الوثنية والبدع، وعرض له التحريف والتأويل، فتجريده من كل حق لم يكن إلا تعصبًا للتقاليد من غير بينة ولا تمحيص، وأنى للمقلدين بذلك؟ وانظر كيف ألحق التقليد أهل الكتاب الذين كانوا على علم بالدين الإلهي بالمشركين الذين لا يعلمون منه شيئا؟ هذا ما فعله التقليد بهم وبمن بعدهم لأنه عدو للعلم في كل زمان وكل مكان»[١].

وقال الرازي: «واعلم أن هذه الواقعة قد وقعت في أمة محمد ﷺ، فإن كل طائفة تكفر الأخرى مع اتفاقهم على تلاوة القرآن»[٢].

قال القاسمي: «فها هنا تسكب العبرات بما جناه التعصب في الدين على غالب المسلمين من الترامي بالكفر، لا بسنة ولا قرآن، ولا لبيان من الله ولا لبرهان، بل لما غلت مراجل العصبية في الدين، تمكن الشيطان من تفريق كلمة المسلمين،

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ... ومنهج الحق له واضح

مع أن الله تعالى أمر بالجماعة والائتلاف. ونهى عن الفرقة والاختلاف. فقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾[٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[٦]. وقد امتاز أهل الحق، من هذه الأمة، بالسنة

---

(١) تفسير المنار (١/ ٤٢٩-٤٣٠).
(٢) تفسير الرازي (٤/ ١٠).
(٣) آل عمران: الآية (١٠٣).
(٤) الأنعام: الآية (١٥٩).
(٥) آل عمران: الآية (١٠٥).
(٦) الأنعام: الآية (١٥٣).

والجماعة، عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ويعرضون عن سنة رسول اللَّه ﷺ، وعما مضت عليه جماعة المسلمين»[(١)].

وقال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: فاللَّه يقضي فيفصل بين هؤلاء المختلفين، -القائل بعضهم لبعض: لستم على شيء من دينكم- يوم قيام الخلق لربهم من قبورهم فيتبين المحق منهم من المبطل، بإثابته المحق ما وعد أهل طاعته على أعماله الصالحة، ومجازاته المبطل منهم بما أوعد أهل الكفر به على كفرهم به فيما كانوا فيه يختلفون من أديانهم ومللهم في دار الدنيا»[(٢)].

قال ابن كثير: «أي: أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد، ويفصل بينهم بقضائه العدل، الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحج: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[(٣)]، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾[(٤)]»[(٥)].

قلت: الانحراف والضلال لا ينتج عنهما خير أبدًا؛ بل ينتج عنهما التضارب والتناقض والتلاعن بين أصحابه، فبعضهم يلعن بعضا، وبعضهم يكفر بعضا، وهذا هو الذي مع الأسف وقع في تاريخ الإسلام لما نشأت الفرق الضالة، فتجد في داخل الفرقة الواحدة فرقًا يضلل بعضها بعضًا، ويكفر بعضها بعضًا، وهكذا طوائف الصوفية وفرقهم تجدهم على هذا المنهج الباطل، وأن الذي يخرج عن منهاج شيخه ارتد وكفر، وكذلك الرافضة وكل هذه الفرق، سابقها ولاحقها تلحق بفرق أهل الشرك الذين لم ينزل فيهم كتاب، ولم يبعث فيهم نبي، وحالتهم كحالة هؤلاء الضلال، ولهذا علمنا اللَّه أن نقول في فاتحة الكتاب: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[(٦)]، وكل أهل الباطل إما مغضوب عليهم وإما ضلال. فاللهم نجنا من الضلال، ونجنا من الغضب، واهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت.

---

(١) محاسن التأويل (٢/ ٢٢٦-٢٢٧).
(٢) جامع البيان (٢/ ٥١٨ تحقيق شاكر).
(٣) الحج: الآية (١٧).
(٤) سبأ: الآية (٢٦).
(٥) تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٢).
(٦) الفاتحة: الآيتان (٦ و ٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ﴾[١]

★ **غريب الآية:**

منع: المنع: الصد والحيلولة دون الشيء.

سعى: السعي: المشي السريع وهو دون العدو، والمراد: جد واجتهد في خرابها.

خرابها: الخراب: الهدم والتدمير، وخرابها إما حسي بنقض بنائها وهدمها، وإما معنوي بالتزهيد فيها ومحاربة أهلها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فإن قال قائل: ومن الذي عنى بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ﴾؟ وأي المساجد هي؟

قيل: إن أهل التأويل في ذلك مختلفون، فقال بعضهم: الذين منعوا مساجد اللَّه أن يذكر فيها اسمه هم النصارى، والمسجد بيت المقدس... وقال آخرون: وهو بختنصر وجنده ومن أعانهم من النصارى، والمسجد مسجد بيت المقدس... وقال آخرون: بل عنى اللَّه ﷻ بهذه الآية، مشركي قريش، إذ منعوا رسول اللَّه ﷺ من المسجد الحرام...»[٢].

ثم قال: «وأولى التأويلات التي ذكرتها في تأويل الآية، قول من قال: عنى اللَّه ﷻ بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، النصارى. وذلك أنهم هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس، وأعانوا بختنصر على ذلك، ومنعوا مؤمني بني إسرائيل من الصلاة فيه بعد منصرف بختنصر عنهم إلى بلاده.

(١) البقرة: الآية (١١٤).

(٢) جامع البيان (٢/ ٥٢٠-٥٢١ تحقيق شاكر).

والدليل على صحة ما قلنا في ذلك، قيام الحجة بأن لا قول في معنى هذه الآية إلا أحد الأقوال الثلاثة التي ذكرناها، وأن لا مسجد عنى اللَّه ﷻ بقوله: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾ إلا أحد المسجدين: إما مسجد بيت المقدس، وإما المسجد الحرام. وإذا كان ذلك كذلك، وكان معلومًا أن مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام، وإن كانوا قد منعوا في بعض الأوقات رسول اللَّه ﷺ وأصحابه من الصلاة فيه صح وثبت أن الذين وصفهم اللَّه ﷻ بالسعي في خراب مساجده، غير الذين وصفهم اللَّه بعمارتها. إذ كان مشركو قريش بنوا المسجد الحرام في الجاهلية، وبعمارته كان افتخارهم، وإن كان بعض أفعالهم فيه، كان منهم على غير الوجه الذي يرضاه اللَّه منهم.

وأخرى، أن الآية التي قبل قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، مضت بالخبر عن اليهود والنصارى وذم أفعالهم، والتي بعدها نبهت بذم النصارى والخبر عن افترائهم على ربهم، ولم يجر لقريش ولا لمشركي العرب ذكر، ولا للمسجد الحرام قبلها، فيوجه الخبر بقول اللَّه ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ إليهم وإلى المسجد الحرام.

وإذ كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى بالآية أن يوجه تأويلها إليه، وهو ما كان نظير قصة الآية قبلها والآية بعدها، إذ كان خبرها لخبرهما نظيرًا وشكلًا، إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها بخلاف ذلك، وإن اتفقت قصصها فاشتبهت.

فإن ظن ظانٌّ أن ما قلنا في ذلك ليس كذلك إذ كان المسلمون لم يلزمهم قط فرض الصلاة في المسجد المقدس، فمنعوا من الصلاة فيه فيلجئون توجيه قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، إلى أنه معني به مسجد بيت المقدس فقد أخطأ فيما ظن من ذلك. وذلك أن اللَّه -جل ذكره- إنما ذكر ظلم من منع من كان فرضه الصلاة في بيت المقدس من مؤمني بني إسرائيل، وإياهم قصد بالخبر عنهم بالظلم والسعي في خراب المسجد، وإن كان قد دل بعموم قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، أن كل مانع مصليًا في مسجد لله، فرضًا كانت صلاته فيه أو تطوعًا وكل ساع في إخرابه فهو من المعتدين

الظالمين»[١].

وقال ابن كثير بعد أن ذكر الخلاف في تفسير الآية: «ثم اختار ابن جرير القول الأول، واحتج بأن قريشًا لم تسع في خراب الكعبة، وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس، (قلت) والذي يظهر، والله أعلم، القول الثاني كما قاله ابن زيد، وروي عن ابن عباس؛ لأن النصارى إذا منعت اليهود الصلاة في البيت المقدس، كان دينهم أقوم من دين اليهود، وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولا إذ ذاك؛ لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون؛ وأيضًا فإنه تعالى، لما وجه الذم في حق اليهود والنصارى، شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة، ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام، وأما اعتماده على أن قريشًا لم تسع في خراب الكعبة، فأي خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٤] فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾[٥]، فإذا كان من هو كذلك مطرودًا منها مصدودًا عنها، فأي خراب لها أعظم من ذلك؟ وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك»[٦].

---

(١) جامع البيان (٢/ ٥٢١-٥٢٤ تحقيق شاكر).
(٢) الأنفال: الآية (٣٤).
(٣) التوبة: الآيتان (١٧ و ١٨).
(٤) الفتح: الآية (٢٥).
(٥) التوبة: الآية (١٨).
(٦) تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٣-٢٧٤).

وقال السعدي: «أي: لا أحد أظلم، وأشد جرمًا، ممن منع مساجد اللَّه، عن ذكر اللَّه فيها، وإقامة الصلاة وغيرها من الطاعات.

﴿وَسَعَىٰ﴾ أي: اجتهد وبذل وسعه ﴿فِى خَرَابِهَآ﴾ الحسي والمعنوي. فالخراب الحسي: هدمها وتخريبها، وتقذيرها. والخراب المعنوي، منع الذاكرين لاسم اللَّه فيها.

وهذا عام، لكل من اتصف بهذه الصفة، فيدخل في ذلك أصحاب الفيل، وقريش، حين صدوا رسول اللَّه عنها عام الحديبية، والنصارى حين أخربوا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة، الساعين في خرابها، محادة لله، ومشاقة.

فجازاهم اللَّه، بأن منعهم دخولها شرعًا وقدرًا، إلا خائفين ذليلين، فلما أخافوا عباد اللَّه، أخافهم اللَّه.

فالمشركون الذين صدوا رسوله، لم يلبث رسول اللَّه ﷺ إلا يسيرًا، حتى أذن اللَّه له في فتح مكة.

ومنع المشركين من قربان بيته، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَاۚ﴾[١]. وأصحاب الفيل، قد ذكر اللَّه ما جرى عليهم. والنصارى سلط اللَّه عليهم المؤمنين فأجلوهم.

وهكذا كل من اتصف بوصفهم، فلابد أن يناله قسطه، وهذا من الآيات العظيمة، أخبر بها الباري قبل وقوعها، فوقعت كما أخبر.

واستدل العلماء بالآية الكريمة، على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد»[٢].

وقال ابن العربي: «فائدة هذه الآية تعظيم أمر الصلاة؛ فإنها لما كانت أفضل الأعمال وأعظمها أجرًا كان منعها أعظم إثمًا، وإخراب المساجد تعطيل لها، وقطع بالمسلمين في إظهار شعائرهم وتأليف كلمتهم»[٣].

---

(١) التوبة: الآية (٢٨).
(٢) تفسير السعدي (١/ ١٢٦-١٢٧).
(٣) أحكام القرآن (١/ ٣٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب صيانة المساجد عن الأقذار الحسية والمعنوية

* عن أبي هريرة قال: (بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين يوم النحر نؤذن بمنى ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، قال حميد بن عبد الرحمن: ثم أردف رسول اللَّه ﷺ عليًّا فأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر: لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان)[١].

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ -بعد أن ذكر حديث أبي هريرة المتقدم-: «وقيل: إن هذا بشارة من اللَّه للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفًا، يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم. وقد أنجز اللَّه هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام، وأوصى رسول اللَّه ﷺ أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان، وأن تجلى اليهود والنصارى منها، ولله الحمد والمنة. وما ذاك إلا لتشريف أكناف المسجد الحرام وتطهير البقعة التي بعث فيها رسوله إلى الناس كافة بشيرًا ونذيرًا صلوات اللَّه عليه. وهذا هو الخزي لهم في الدنيا؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صدوا عنه، وكما أجلوهم من مكة أجلوا عنها»[٢].

قوله: **«لا يحج بعد العام مشرك»**

قال الحافظ: «هو منتزع من قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾[٣] والآية صريحة في منعهم دخول المسجد الحرام ولو لم يقصدوا الحج، ولكن لما كان الحج هو المقصود الأعظم صرح لهم بالمنع منه، فيكون ما وراءه أولى بالمنع. والمراد بالمسجد الحرام هنا الحرم كله»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٦٢٩/ ٣٦٩) ومسلم (٢/ ٩٨٢/ ١٣٤٧) وأبو داود (٢/ ٤٨٣/ ١٩٤٦) والنسائي (٥/ ٢٥٨-٢٥٩/ ٢٩٥٧).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٤-٢٧٥).
(٣) التوبة: الآية (٢٨).
(٤) الفتح (٨/ ٤٠٨).

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه من نصب الأصنام حوله، ودعاء غير اللَّه عنده، والطواف به عريًا، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها اللَّه ورسوله»[1].

وقال ابن جرير: «وتأويل الآية: لهم في الدنيا الذلة والهوان والقتل والسبي على منعهم مساجد اللَّه أن يذكر فيها اسمه وسعيهم في خرابها، ولهم على معصيتهم وكفرهم بربهم وسعيهم في الأرض فسادًا عذاب جهنم، وهو العذاب العظيم»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «فأما خزي الدنيا فهو ما يعقبه الظلم من فساد العمران، المفضي إلى الذل والهوان، وناهيك بظلم يحل القيود، ويهدم الحدود، ويغري الناس بالفواحش والمنكرات، ويسهل عليهم سبل الشرور والموبقات، وهو ظلم إبطال العبادة من المساجد، والسعي في خراب المعابد، إذا وقع هذا الظلم كان الحاكم الظالم مخذولًا في حكمه، والفاتح الظالم غير أمين في فتحه، وإذا أردت تطبيق ذلك على من نسب إليهم هذا الظلم فانظر ماذا حل بالرومانيين، وماذا كانت عاقبة العرب المشركين، وبماذا انتهى عدوان الصليبيين، وكيف انقرض حزب القرامطة المجرمين، وأما عذاب الآخرة فاللَّه أعلم به، ونحن بوعده ووعيده من المؤمنين»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الاستعاذة باللَّه من الخزي والعذاب

* عن بسر بن أرطأة قال كان رسول اللَّه ﷺ يدعو: «**اللهم أحسن عاقبتنا في**

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٥).

(٢) جامع البيان (٢/ ٥٢٥-٥٢٦ تحقيق شاكر).

(٣) تفسير المنار (١/ ٤٣٣-٤٣٤).

الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة»[١].

⋆ غريب الحديث:

خزي: خزي خزيًا من باب علم ذل وهان، وأخزاه اللَّه أذله وأهانه.

⋆ فوائد الحديث:

إذا عصم اللَّه العبد من البدع وأبعده من أهلها فتلك علامة على عدم خزيه في الدنيا وإذا تقبل اللَّه منه عمله في الدنيا وجزاه عليه بحسن العاقبة في الآخرة فقد أعاذه من الخزي.

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨١) وابن حبان (الإحسان ٣/ ٢٢٩-٢٣٠/ ٩٤٩) والحاكم (٣/ ٥٩١) والطبراني في الكبير (٢/ ٣٣/ ١١٩٦-١١٩٧). قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٧٨): «ورجال أحمد وأحد أسانيد الطبراني ثقات»، وحسن إسناده ابن كثير في التفسير (١/ ١٥٠) والعراقي في تخريج الإحياء (٣/ ١١١٦).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا -واللَّه أعلم- فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه، الذين أخرجوا من مكة، وفارقوا مسجدهم ومصلاهم، وقد كان رسول اللَّه ﷺ يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه؛ فلما قدم المدينة، وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، ثم صرفه اللَّه إلى الكعبة بعد، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾»[1].

وقال ابن جرير: «وقال آخرون: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ، إذنًا من اللَّه ﷻ له أن يصلي التطوع حيث توجه وجهه من شرق أو غرب، في مسيره في سفره، وفي حال المسايفة، وفي شدة الخوف والتقاء الزحوف في الفرائض. وأعلمه أنه حيث وجه وجهه فهو هنالك، بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ . . .

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في قوم عميت عليهم القبلة فلم يعرفوا شطرها، فصلوا على أنحاء مختلفة، فقال اللَّه ﷻ لهم: لي المشارق والمغارب فأنى وليتم وجوهكم فهنالك وجهي، وهو قبلتكم - معلمهم بذلك أن صلاتهم ماضية. . .».

ثم قال: «والصواب من القول في ذلك: أن اللَّه -تعالى ذكره- إنما خص الخبر عن المشرق والمغرب في هذه الآية بأنهما له ملكًا -وإن كان لا شيء إلا وهو له ملك- إعلامًا منه عباده المؤمنين أن له ملكهما وملك ما بينهما من الخلق، وأن على جميعهم - إذ كان له ملكهم- طاعته فيما أمرهم ونهاهم، وفيما فرض عليهم من الفرائض، والتوجه نحو الوجه الذي وجهوا إليه، إذ كان من حكم المماليك طاعة

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٦).

مالكهم. فأخرج الخبر عن المشرق والمغرب والمراد به: من بينهما من الخلق، على النحو الذي قد بينت، من الاكتفاء بالخبر عن سبب الشيء، من ذكره والخبر عنه، كما قيل: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾[1]، وما أشبه ذلك.

ومعنى الآية إذًا: ولله ملك الخلق الذي بين المشرق والمغرب، يتعبدهم بما شاء، ويحكم فيهم ما يريد، عليهم طاعته، فولوا وجوهكم أيها المؤمنون نحو وجهي، فإنكم أينما تولوا وجوهكم فهنالك وجهي»[2].

وقال السعدي: «وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد اللَّه أن يذكر فيها اسمه، فلا أعظم إيمانًا ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾[3]. بل قد أمر اللَّه تعالى برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها، فقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾[4]. وللمساجد أحكام كثيرة، يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات الكريمة؛ أي: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾: خصهما بالذكر؛ لأنهما محل الآيات العظيمة، في مطالع الأنوار ومغاربها. فإذا كان مالكًا لها، كان مالكًا لكل الجهات.

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ وجوهكم من الجهات، إذا كان توليكم إياها بأمره، إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس، أو تؤمرون بالصلاة في السفر على الراحلة ونحوها، فإن القبلة حيثما توجه العبد أو تشتبه القبلة، فيتحرى الصلاة إليها، ثم يتبين له الخطأ، أو يكون معذورًا بصلب أو مرض ونحو ذلك.

فهذه الأمور، إما أن يكون العبد فيها معذورًا أو مأمورًا. وبكل حال، فما استقبل جهة من الجهات، خارجة عن ملك ربه.

﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ فيه إثبات الوجه لله تعالى، على الوجه اللائق به تعالى، وأن لله وجهًا لا تشبهه الوجوه، وهو -تعالى- واسع الفضل والصفات عظيمها، عليم بسرائركم ونياتكم.

---

(١) البقرة: الآية (٩٣).

(٢) جامع البيان (٢/ ٥٢٧-٥٣٣ تحقيق شاكر).

(٣) التوبة: الآية (١٨).

(٤) النور: الآية (٣٦).

فمن سعته وعلمه، وسع لكم الأمر، وقبل منكم المأمور، فله الحمد والشكر»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في أن النافلة يتسامح فيها ما لا يتسامح في الفريضة

* عن ابن عمر؛ قال: كان رسول اللَّه ﷺ يصلي، وهو مقبل من مكة إلى المدينة، على راحلته حيث كان وجهه. قال: وفيه نزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عبد البر بعد ذكر هذا الحديث: «وتلقاه العلماء من السلف والخلف بالعمل والقبول في جملته، إلا أنهم اختلفوا في بعض معانيه، فالذي أجمعوا عليه منه أنه جائز لكل من سافر سفرًا تقصر فيه أو مثله -الصلاة- أن يصلي التطوع على دابته وراحلته حيثما توجهت به يومئ إيماء السجود أخفض من الركوع ويتشهد ويسلم وهو جالس على دابته، وفي محمله؛ إلا أن منهم جماعة يستحبون أن يفتتح المصلي صلاته على دابته في تطوعه إلى القبلة ويحرم بها -وهو مستقبل القبلة، ثم لا يبالي حيث توجهت به، ومنهم من لم يستحب ذلك»[٣].

وقال: «واختلف أهل العلم في المعنى الذي فيه نزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ فقال ابن عمر وطائفة: نزلت هذه الآية في الصلاة على الراحلة»[٤].

وقال: «وقول من قال: إنما نزلت في الصلاة على الراحلة، قول حسن أيضًا تعضده السنة في ذلك»[٥].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ١٢٨-١٢٩)

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٦٦) والبخاري (٢/ ٦٢٠/ ١٠٠٠) مختصرا دون ذكر الآية، ومسلم (١/ ٤٨٦/ ٧٠٠[٣٣]) وأبو داود (٢/ ٢٠-٢١/ ١٢٢٤) مختصرًا دون ذكر: الآية والترمذي (٥/ ١٨٩/ ٢٩٥٨) والنسائي (١/ ٢٦٤/ ٤٩٠) من طرق عن ابن عمر ﵄. وفي الباب عن جابر وأنس ﵄.

(٣) فتح البر (٦/ ٤٧).

(٤) فتح البر (٦/ ٤٨).

(٥) فتح البر (٦/ ٤٩).

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«ما بين المشرق والمغرب قبلة»**[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال الأثرم: «سألت أحمد بن حنبل عن معنى الحديث فقال: هذا في كل البلدان إلا بمكة عند البيت فإنه إن زال عنه شيئًا وإن قل فقد ترك القبلة ثم قال: هذا المشرق وأشار بيده وهذا المغرب وأشار بيده وما بينهما قبلة. قلت له فصلاة من صلى بينهما جائزة قال نعم وينبغي أن يتحرى الوسط»[٢].

وقال ابن عبد البر: «تفسير قول أحمد هذا في كل البلدان يريد أن البلدان كلها لأهلها في قبلتهم مثل ما كانت قبلتهم بالمدينة الجنوب التي يقع لهم فيها الكعبة فيستقبلون جهتها ويتسعون يمينًا وشمالًا فيها مابين المشرق والمغرب يجعلون المغرب عن أيمانهم والمشرق عن يسارهم، وكذلك لأهل اليمن من السعة في قبلتهم مثل ما لأهل المدينة ما بين المشرق والمغرب إذا توجهوا أيضًا قبل القبلة إلا أنهم يجعلون المشرق عن أيمانهم والمغرب عن يسارهم، وكذلك أهل العراق وخراسان لهم من السعة في استقبال القبلة ما بين الجنوب والشمال مثل ما كان لأهل المدينة فيما بين المشرق والمغرب، وكذلك ضد العراق على ضد ذلك أيضًا، وإنما تضيق القبلة كل الضيق على أهل المسجد الحرام وهي لأهل مكة أوسع قليلًا ثم هي لأهل الحرم أوسع قليلًا ثم لأهل الآفاق من السعة على حسب ما ذكرنا»[٣].

* * *

(١) أخرجه الترمذي (٢/ ١٧١/ ٣٤٢-٣٤٣) وابن ماجه (١/ ٣٢٣/ ١٠١١). وذكره النسائي (٤/ ٤٨٢) من طريق أبي معشر عن محمد بن عمرو بن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعًا. قال الترمذي: «وقد تكلم بعض أهل العلم في أبي معشر من قبل حفظه واسمه نجيح مولى بني هاشم. قال محمد: لا أروي عنه شيئًا وقد روى عنه الناس، وحديث عبدالله بن جعفر المخرمي عن عثمان بن محمد الأخنسي عن سعيد المقبري عن أبي هريرة أقوى من حديث أبي معشر وأصح».
أخرجه الترمذي (٢/ ١٧٣/ ٣٤٤) وقال: «حديث حسن صحيح» اهـ. وفي الباب عن ابن عمر رضي الله عنهما.
أخرجه الحاكم (١/ ٢٠٥-٢٠٦) وصحح الطريق الأول على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، والدارقطني (١/ ٢٧٠-٢٧١).

(٢) تحفة الأحوذي (٢/ ٢٦٦-٢٦٧).

(٣) الاستذكار (٧/ ٢٢١).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

★ غريب الآية:

سبحانه: التسبيح: التنزيه والتقديس.

قَانِتُون: أصل القنوت: دوامُ الطاعة، والمراد هنا: خاضعون.

بَديعُ: بمعنى: مُبْدِع. وهو المنشئ المخترع من غير مثال يُجْرى عليه.

قَضى: بالشيء: حكم به. وأصل القضاء: الفصل وإحكام الشيء. ويأتي بمعنى الأمر والوصية والعهد. قال أبو ذؤيب:

وعليهما مَسْرودَتانِ قَضَاهُما　　　داودُ أو صَنَعُ السوابِغِ تُبَّعُ

أي: أحكمهما.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿وَقَالُوا﴾ أي: اليهود والنصارى والمشركون، وكل من قال ذلك. ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فنسبوه إلى ما لا يليق بجلاله، وأساءوا كل الإساءة، وظلموا أنفسهم. وهو -تعالى- صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم، ورزقهم مع تنقصهم إياه.

﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله. فسبحان من له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه. ومع رده لقولهم، أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك فقال: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: جميعهم ملكه وعبيده، يتصرف فيهم تصرف المالك بالمماليك، وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره.

فإذا كانوا كلهم عبيده، مفتقرين إليه، وهو غني عنهم، فكيف يكون منهم أحد،

يكون له ولدا، والولد لابد أن يكون من جنس والده؛ لأنه جزء منه.

والله تعالى المالك القاهر، وأنتم المملوكون المقهورون، وهو الغني وأنتم الفقراء.

فكيف مع هذا، يكون له ولد؟ هذا من أبطل الباطل وأسمجه»[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ إلى قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فرد عليهم سبحانه دعواهم له اتخاذ الولد، ونزه نفسه عنه، ثم ذكر أربع حجج على استحالة اتخاذه الولد:

أحدها: كون ما في السموات والأرض ملكا له، وهذا ينافي أن يكون فيهما ولد له لأن الولد بعض الوالد وشريكه، فلا يكون مخلوقا له مملوكًا له؛ لأن المخلوق مملوك مربوب عبد من العبيد، والابن نظير الأب، فكيف يكون عبده تعالى ومخلوقه ومملوكه بعضه ونظيره، فهذا من أبطل الباطل، وأكد مضمون هذه الحجة بقوله ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾، فهذا تقرير لعبوديتهم له وأنهم مملوكون مربوبون ليس فيهم شريك ولا نظير ولا ولد، فإثبات الولد لله تعالى من أعظم الإشراك به، فإن المشرك به جعل له شريكًا من مخلوقاته مع اعترافه بأنه مملوك كما كان المشركون يقولون في تلبيتهم: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك»[٢]. فكانوا يجعلون من أشركوا به مملوكًا له عبدًا مخلوقًا، والنصارى جعلوا له شريكًا هو نظير وجزء من أجزائه، كما جعل بعض المشركين الملائكة بناته فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾[٣] فإذا كان له ما في السموات والأرض عبيد قانتون مربوبون مملوكون، استحال أن يكون له منهم شريك، وكل من أقر بأن لله تعالى ما في السموات وما في الأرض لزمه أن يقر له بالتوحيد ولا بد، ولهذا يحتج سبحانه على المشركين بإقرارهم بذلك كقوله: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٤] وسيأتي إن شاء الله تعالى مزيد بيان لهذا في موضعه.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذه من أبلغ الحجج على

---

(١) تفسير السعدي (١/ ١٢٩-١٣٠).
(٢) مسلم (٢/ ٨٤٣/ ١١٨٥).
(٣) الزخرف: الآية (١٥).
(٤) المؤمنون: الآيتان (٨٤ و٨٥).

استحالة نسبة الولد إليه، ولهذا قال في سورة الأنعام: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ﴾[1] أي: من أين يكون لبديع السموات والأرض ولد، ووجه تقرير هذه الحجة أن من اخترع هذه السموات والأرض مع عظمهما وآياتهما، وفطرهما وابتدعهما فهو قادر على اختراع ما هو دونهما، ولا نسبة له إليهما ألبتة، فكيف يخرجون هذا الشخص بالعين عن قدرته وإبداعه، ويجعلونه نظيرًا وشريكًا وجزءًا، مع أنه تعالى بديع العالم العلوي والسفلي، وفاطره ومخترعه وبارئه، فكيف يعجزه أن يوجد هذا الشخص من غير أب حتى يقولوا إنه ولده، فإذا كان قد ابتدع العالم علويه وسفليه فما يعجزه ويمنعه عن إبداع هذا العبد وتكوينه وخلقه بالقدرة التي خلق بها العالم العلوي والسفلي، فمن نسب الولد لله فما عرف الرب تعالى، ولا آمن به، ولا عبده، فظهر أن هذه الحجة من أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه، وإن شئت أن تقرر الاستدلال بوجه آخر؛ وهو أن يقال إذا كان نسبة السموات والأرض وما فيهما إليه إنما هي بالاختراع والخلق والإبداع، أنشأ ذلك وأبدعه من العدم إلى الوجود، فكيف يصح نسبة شيء من ذلك إليه بالبنوة، وقدرته على اختراع العالم وما فيه لم تزل ولم يحتج فيها إلى معاون ولا صاحب ولا شريك، وإن شئت أن تقررها بوجه آخر فتقول النسبة إليه بالبنوة تستلزم حاجته وفقره إلى محل الولادة، وذلك ينافي غناه وانفراده بإبداع السموات والأرض، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2] فكمال قدرته وكمال غناه وكمال ربوبيته يحيل نسبة الولد إليه ونسبته إليه تقدح في كمال ربوبيته وكمال غناه وكمال قدرته، ولذلك كانت نسبة الولد إليه مسبة له -تبارك وتعالى- كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله تعالى: شتمني عبدي ابن آدم وما ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، أما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوًا أحد، وأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته**»[3]. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في النصارى: «أذلوهم ولا تظلموهم، فلقد سبوا الله مسبة ما سبَّه إياها أحد من البشر». وقال

---

(١) الأنعام: الآية (١٠١). (٢) يونس: الآية (٦٨).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٧-٣٩٣-٣٩٤) والبخاري (٨/ ٩٥٨/ ٤٩٧٤) والنسائي (٤/ ٤١٨/ ٢٠٧٧).

تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾[1] الآية. وأخبر تعالى إن كادت السموات تتفطر من قولهم هذا وتنشق الأرض منه وتخر الجبال هدا، وما ذاك إلا لتضمنه شتم الرب -تبارك وتعالى- والتنقص به، ونسبة ما يمنع كمال ربوبيته وقدرته وغناه إليه.

الحجة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وتقرير هذه الحجة أن من كانت قدرته تعالى كافية في إيجاد ما يريد إيجاده بمجرد أمره وقوله: كن، فأي حاجة به إلى ولد وهو لا يتكثر به من قلة، ولا يتعزز به، ولا يستعين به يعجز عن خلق ما يريد خلقه، وإنما يحتاج إلى الولد من لا يخلق ولا إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، وهذا المخلوق العاجز المحتاج الذي لا يقدر على تكوين ما أراد، وقد ذكر تعالى حججًا أخرى على استحالة نسبة الولد إليه فنذكرها في هذا الموضع، فمنها كمال علمه وعموم خلقه لكل شيء واستحالة نسبة الصاحبة إليه، فقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾[2] الآية.

فأما منافاة عموم خلقه لنسبة الولد إليه فظاهر، فإنه لو كان له ولد لم يكن مخلوقًا بل جزءًا، وهذا ينافي كونه خالق كل شيء، وبهذا يعلم أن الفلاسفة الذين يقولون بتولد العقول والنفوس عنه بواسطة أو بغير واسطة شر من النصارى، وأن من زعم أن العالم قديم فقد أخرجه عن كونه مخلوقًا لله، وقوله أخبث من قول النصارى؛ لأن النصارى أخرجوا عن عموم خلقه شخصًا واحدًا أو شخصين، ومن قال بقدم العالم فقد أخرج العالم العلوي والسفلي والملائكة عن كونه مخلوقًا لله، والنصارى لم يصل كفرهم إلى هذا الحد.

وأما منافاة عدم المصاحبة للولد فظاهر أيضًا؛ لأن الولد إنما يتولد من أصلين، فاعل ومحل قابل، يتصلان اتصالًا خاصًا فينفصل من أحدهما جزء في الآخر يكون منه الولد، فمن ليس له صاحبة كيف يكون له ولد، ولذلك لما فهم عوام النصارى أن الابن يستلزم الصاحبة؛ لم يستنكفوا من دعوى كون مريم إلاهة، وأنها والدة

---

(١) الكهف: الآيتان (٤ و ٥).

(٢) الأنعام: الآية (١٠١).

الإله عيسى، فيقول عوامهم يا والدة الإله اغفري لي، ويصرح بعضهم بأنها زوجة الرب، ولا ريب أن القول بالإيلاد يستلزم ذلك، أو إثبات إيلاد لا يعقل ولا يتوهم فخواص النصارى في حيرة وضلال، وعوامهم لا يستنكفون أن يقولوا بالزوجة والإيلاد المعقول، تعالى اللَّه عن قولهم علوًّا كبيرًا، والقوم في هذا المذهب الخبيث أضل خلق اللَّه، فهم كما وصفهم اللَّه بأنهم: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[1].

وأما منافاة عموم علمه تعالى للولد فيحتاج إلى فهم خاص وتقريره أن يقال: لو كان له ولد لعلمه؛ لأنه بكل شيء عليم، وهو تعالى لا يعلم له ولد، فيستحيل أن يكون له ولد لا يعلمه، وهذا استدلال بنفي علمه للشيء على نفيه في نفسه، إذ لو كان لعلمه، فحيث لم يعلمه فهو غير كائن، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾[2] الآية فهذا نفي لما ادعوه من الشفعاء بنفي علم الرب تعالى بهم، المستلزم لنفي المعلوم، ولا يمكن أعداء اللَّه المكابرة، وأن يقولوا قد علم اللَّه وجود ذلك؛ لأنه تعالى إنما يعلم وجود ما أوجده وكونه، ويعلم أنه سيوجد ما يريد إيجاده، فهو يعلم نفسه وصفاته، ويعلم مخلوقاته التي دخلت في الوجود وانقطعت، والتي دخلت في الوجود وبقيت والتي لم توجد بعد، وأما شيء آخر غير مخلوق له ولا مربوب، فالرب تعالى لا يعلمه لأنه مستحيل في نفسه فهو يعلمه مستحيلًا لا يعلمه واقعًا، إذ لو علمه واقعًا لكان العلم به عين الجهل، وذلك من أعظم المحال، فهذه حجج الرب -تبارك وتعالى- على بطلان ما نسبه إليه أعداؤه والمفترون عليه، فوازن بينها وبين حجج المتكلمين الطويلة العريضة التي هي كالضريع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، فإذا وازنت بينهما ظهرت لك المفاضلة إن كنت بصيرًا، ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[3] فالحمد لله الذي أغنى عباده المؤمنين بكتابه وما أودعه من حججه وبيانه عن شقاشق المتكلمين وهذيانات المتهوكين، فلقد عظمت نعمة اللَّه تعالى على عبد أغناه بفهم كتابه عن الفقر إلى غيره ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ

(١) المائدة: الآية (٧٧).

(٢) يونس: الآية (١٨).

(٣) الإسراء: الآية (٧٢).

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ هذا الولد المزعوم -على زاعمه لعائن الله- قد جاء مفصلًا في آيات أخر كقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[(٣)] وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾[(٤)] الآية»[(٥)].

قلت: المسلم الحق هو الذي يصف اللَّه بما يليق به، فهو -تبارك وتعالى- الغني الغنى المطلق، فهو القائم بعباده القاهر لهم المحيي المميت، وهذه الفرية التي صدرت من اليهود والنصارى ومن المشركين تدل على جهل مطبق، وأنه لو فرضنا -وهو من قبيل المستحيل- أن للَّه ولدًا، فأين هذا الولد؟ وما اسمه؟ وأين ولد؟ ومن ولده؟ ومن هي أمه؟ وفي أي بقعة ولد في الأرض أو في السماوات؟ وما تاريخ ولادته؟ كل هذا من المحال، فالولد لا يكون إلا من النطف التي تخرج من الإنسان الذكر والأنثى، واللَّه تعالى منزه عن هذه النقائص، فلا يشبهه شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[(٦)]، وهو الذي يقول للشيء كن فيكون ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[(٧)]، فهل من كانت صفاته هكذا يتشدق عليه المتوقحون وينسبون له ما لا يليق به؟ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[(٨)]، وهذا منتهى الجهل والضلال ولا يقول هذا إلا من لا يفرق بين الخالق والمخلوق، فالخالق له صفاته المنفرد بها لا يشركه فيها المخلوق، والمخلوق له صفاته التي تليق بعجزه وفقره وهو الذي يحتاج إلى الصاحبة والولد، فالصاحبة يستأنس بها ويسكن إليها، والولد امتداد له وزينة حياته، وأما اللَّه تعالى فهو غني عن العالمين، وهو غني عن هذا الإفك والبهتان وهذا الهذيان، الذي لا يصدر إلا عمّن أعمى اللَّه بصيرته وانتكس عقله وانتكست فطرته، نسأل اللَّه السلامة والعافية.

---

(١) العنكبوت: الآية (٥١).
(٢) بدائع الفوائد (٤/ ١٥٢-١٥٥).
(٣) التوبة: الآية (٣٠).
(٤) النحل: الآية (٥٧).
(٥) أضواء البيان (١/ ٨٤-٨٥).
(٦) الشورى: الآية (١١).
(٧) يس: الآية (٨٢).
(٨) الكهف: الآية (٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب تنزيه اللَّه عما لا يليق به

* عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدًا»**[١].

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«ليس أحد أو ليس شيء أصبر على أذى سمعه من اللَّه، إنهم ليدعون له ولدًا، وإنه ليعافيهم ويرزقهم»**[٢].

⋆ **فوائد الحديثين:**

يستفاد من الحديث أنه لا يجوز أن ننسب اللَّه إلى ما لا يليق بجلاله، بل علينا أن ننزهه ونقدسه عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون، فاللَّه -تبارك وتعالى- ليس له نظير، ولا مشارك في عظمته ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٣].

قال ابن حجر: «قوله: **(وأما شتمه إياي فقوله لي ولد)** إنما سماه شتمًا لما فيه من التنقيص لأن الولد إنما يكون عن والدة تحمله ثم تضعه ويستلزم ذلك سبق النكاح، والناكح يستدعي باعثًا له على ذلك. واللَّه سبحانه منزه عن جميع ذلك»[٤].

قال ابن تيمية: «ومما يبين خذلان اللَّه لأهل البدع، المخالفين للكتاب والسنة، أن هذين الأصلين: أمر الولادة، وأمر المعاد، هما من أعظم أصول أهل الضلال؛ كالدهرية من الفلاسفة وغيرهم، الذين يقولون: إن العقول تولدت عن اللَّه، وينكرون إحياء اللَّه الموتى.

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٢١٢-٢١٣/ ٤٤٨٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
وأخرجه أحمد (٢/ ٣٥١) والبخاري (٦/ ٣٥٢/ ٣١٩٣) والنسائي (٤/ ٤١٨/ ٢٠٧٧). من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٥، ٤٠١، ٤٠٥) والبخاري (١٠/ ٦٢٦/ ٦٠٩٩) ومسلم (٤/ ٢١٦٠/ ٢٨٠٤) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٠٦/ ٧٧٠٨).

(٣) الأنعام: الآية (١٠١).

(٤) الفتح (٨/ ٢١٣).

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول اللَّه تعالى: شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك. فأما شتمه إياي فقوله: إني اتخذت ولدًا، وأنا الأحد الصمد، الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوًا أحد. وأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته**». وهذا في الصحيح من غير وجه عن النبي ﷺ، من حديث أبي هريرة، وابن عباس.

وهؤلاء الملاحدة شتموه بما ذكروه من تولد الموجودات عنه، وكذبوه بقولهم: لن يعيدنا كما بدأنا، وضاهوا في ذلك أشباههم من ملاحدة العرب.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ إلى قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾[(١)]

فذكر سبحانه في هذا الكلام الرد على من أنكر المعاد، وعلى من قال: إنه اتخذ ولدًا، كما جمع النبي ﷺ بينهما في الحديث.

وهذا المبتدع ذكر في دلالة القرآن على هذا وعلى هذا ما تقدم التنبيه على فرط ضلال قائله عن حقائق ما أنزل اللَّه على رسوله.

ولهذا لما كانت طريقة القرآن فيما يثبته للرب تعالى وينفيه عنه مبنية على برهان الأولى، لا على البرهان الذي تستوي أفراده، أو يماثل فرعه أصله.

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ﴾[(٢)] بعد قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[(٣)]

---

(١) مريم: الآيات (٦٦-٩٥).

(٢) النحل: الآية (٦٠).

(٣) النحل: الآية (٥٨).

وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ﴾[١] أي بما ضربوه للرحمن مثلًا، والمثل الذي ضربوه له هو البنات، وهو عندهم مثل سوء مذموم معيب. فقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾[٢]، ومن قال: إنه ولد الملائكة، أو قال: إنه ولد العقول أو النفوس، فإنه لا يؤمن بالآخرة، فله مثل السوء.

واللَّه تعالى له المثل الأعلى، فلا يضرب له المثل المساوي، إذ لا كفو له ولا ند، فضلًا عن أن يضرب له المثل الناقص، ولا يكتفي في حقه بالمثل العالي، بل له المثل الأعلى، إذ هو الأعلى سبحانه، والعلم به أعلى العلوم، وذكره أعلى الأذكار، وحبه أعلى الحب.

والذي يبتغي وجه ربه الأعلى هو أعلى، إذ هو الأتقى الذي هو أكرم الخلق على اللَّه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾[٤]»[٥].

* * *

(١) الزخرف: الآية (١٧).

(٢) النحل: الآية (٦٠).

(٣) الحجرات: الآية (١٣).

(٤) الليل: الآيات (١٧-٢٠).

(٥) درء التعارض (٧/ ٣٨٦-٣٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل فيمن عنى اللَّه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾. فقال بعضهم: عنى بذلك النصارى... وقال آخرون: بل عنى اللَّه بذلك اليهود الذين كانوا في زمان رسول اللَّه ﷺ...

وقال آخرون: بل عنى بذلك مشركي العرب...».

ثم قال: «وأولى هذه الأقوال بالصحة والصواب قول القائل: إن اللَّه تعالى عنى بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ النصارى دون غيرهم؛ لأن ذلك في سياق خبر اللَّه عنهم، وعن افترائهم عليه، وادعائهم له ولدًا، فقال -جل ثناؤه- مخبرا عنهم فيما أخبر عنهم من ضلالتهم: أنهم مع افترائهم على اللَّه الكذب بقولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾، تمنوا على اللَّه الأباطيل، فقالوا جهلًا منهم باللَّه. وبمنزلتهم عنده، وهم باللَّه مشركون: ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ كما يكلم رسله وأنبياءه، أو تأتينا آية كما أتتهم؟ ولا ينبغي لله أن يكلم إلا أولياءه، ولا يؤتي آية معجزة على دعوى مدع إلا لمن كان محقًّا في دعواه وداعيًا إلى اللَّه وتوحيده؛ فأما من كان كاذبًا في دعواه وداعيًا إلى الفرية عليه، وادعاء البنين والبنات له، فغير جائز أن يكلمه اللَّه -جل ثناؤه-، أو يؤتيه آية معجزة تكون مؤيدة كذبه وفريته عليه.

وأما الزاعم أن اللَّه عنى بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، العرب، فإنه قائل قولًا لا خبر بصحته، ولا برهان على حقيقته في ظاهر الكتاب. والقول إذا صار إلى ذلك، كان واضحًا خطؤه؛ لأنه ادعى ما لا برهان على صحته. وادعاء مثل ذلك لن يتعذر على أحد»[2].

قال ابن كثير معلقًا على اختيار ابن جرير: «وفي ذلك نظر، وحكى القرطبي: ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: يخاطبنا بنبوتك يا محمد، قلت: وهو ظاهر السياق،

---

(١) البقرة: الآية (١١٨).

(٢) جامع البيان (٢/ ٥٥٠-٥٥٢ تحقيق شاكر).

والله أعلم . . . ويؤيد هذا القول، وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾[١] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾[٣] الآية، وقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾[٤]؛ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به، إنما هو الكفر والمعاندة، كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[٦]»[٧].

قلت: اعتمد الإمام ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجيحه أن المعني بهم في الآية هم النصارى على السياق؛ لأنهم هم الذين عرفوا بفرية نسبة الولد إلى الله، وأما الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد اعتمد في ترجيحه على أن المعني بهم هم كفار قريش، مجموع ما صدر منهم من تحدياتهم للنبي ﷺ في أسئلتهم وطلباتهم، وقد أفاض في ذكرها وأجاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والذي يظهر أن الآية لم يصح فيها سبب نزول، والسياق في اليهود والنصارى في الآيات السابقة، وأيًّا ما كان، فسواء رجحنا قول ابن جرير أو قول ابن كثير، فهي صفات للمعاندين في كل وقت تبقى قائمة إلى أن تقوم الساعة، فنعوذ بالله من العناد ورد الرسالات، والتجرؤ على الأنبياء والرسل بما لا يليق بحقهم.

* * *

---

(١) الأنعام: الآية (١٢٤).

(٢) الإسراء: الآيات (٩٠-٩٣).

(٣) الفرقان: الآية (٢١).

(٤) المدثر: الآية (٥٢).

(٥) النساء: الآية (١٥٣).

(٦) البقرة: الآية (٥٥).

(٧) تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٣).

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾

* **غريب الآية:**

يوقنون: اليقين: هو ثبوت الأمر في القلب بحيث لا يخالجه شكّ، أصله من يَقَنَ الماءُ: إذا ثبت وسكن.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قد دللنا على أن الذين عنى اللَّه -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾، هم النصارى، والذين قالوا مثل قولهم هم اليهود؛ سألت موسى ﷺ أن يريهم ربهم جهرة، وأن يسمعهم كلام ربهم كما قد بينا فيما مضى من كتابنا هذا وسألوا من الآيات ما ليس لهم مسألته تحكمًا منهم على ربهم. وكذلك تمنت النصارى على ربها مثل أمانيها، وأن قولهم الذي قالوه من ذلك، إنما يشابه قول اليهود، من أجل تشابه قلوبهم في الضلالة والكفر باللَّه. فهم وإن اختلفت مذاهبهم في كذبهم على اللَّه وافترائهم عليه، فقلوبهم متشابهة في الكفر بربهم والفرية عليه، وتحكمهم على أنبياء اللَّه ورسله عليهم السلام»[1].

وقال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾، أي أشبهت قلوب مشركي العرب قلوب من تقدمهم في الكفر والعناد والعتو، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾[2] الآية»[3].

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾، قد بينا العلامات التي من أجلها غضب اللَّه على اليهود، وجعل منهم القردة والخنازير، وأعد لهم العذاب المهين في معادهم؛ والتي من أجلها أخزى النصارى

---

(١) جامع البيان (٢/ ٥٥٥ تحقيق شاكر).
(٢) الذاريات: الآيتان (٥٢ و ٥٣).
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٣).

في الدنيا، وأعد لهم الخزي والعذاب الأليم في الآخرة، والتي من أجلها جعل سكان الجنان، الذين أسلموا وجوههم لله وهم محسنون في هذه السورة وغيرها. فأعلموا الأسباب التي من أجلها استحق كل فريق منهم من اللَّه ما فعل به من ذلك، وخص اللَّه بذلك القوم الذين يوقنون؛ لأنهم أهل التثبت في الأمور، والطالبون معرفة حقائق الأشياء على يقين وصحة. فأخبر اللَّه -جل ثناؤه- أنه بين لمن كانت هذه الصفة صفته ما بين من ذلك، ليزول شكه ويعلم حقيقة الأمر، إذ كان ذلك خبرًا من اللَّه -جل ثناؤه-، وخبر اللَّه الخبر الذي لا يعذر سامعه بالشك فيه. وقد يحتمل غيره من الأخبار ما يحتمل من الأسباب العارضة فيه من السهو والغلط والكذب، وذلك منفي عن خبر اللَّه ﷻ»[١].

وقال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، أي قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل، بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى لمن أيقن وصدق واتبع الرسل، وفهم ما جاءوا به عن اللَّه -تبارك وتعالى-، وأما من ختم اللَّه على قلبه وسمعه، وجعل على بصره غشاوة، فأولئك قال اللَّه فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[٢]»[٣].

وقال ابن عطية: «لما تقدم ذكر الذين أضلهم اللَّه حتى كفروا بالأنبياء وطلبوا ما لا يجوز لهم اتبع ذلك بذكر الذين بين لهم ما ينفع وتقوم به الحجة، لكن البيان وقع وتحصل للموقنين، فلذلك خصهم بالذكر، ويحتمل أن يكون المعنى قد بينا البيان الذي هو خلق الهدى، فكأن الكلام قد هدينا من هدينا، واليقين إذا اتصف به العلم خصصه وبلغ به نهاية الوثاقة، وقوله تعالى: ﴿بَيَّنَّا﴾ قرينة تقتضي أن اليقين صفة لعلمهم، وقرينة أخرى، وهي أن الكلام مدح لهم»[٤].

وقال محمد رشيد رضا: «أي: أننا لم ندعك يا محمد بغير آية بل بينا الآيات على يديك بيانًا لا يدع للريب طريقًا إلى نفس من يعقلها. وقد قال: ﴿بَيَّنَّا ٱلْأَيَـٰتِ﴾ ولم يقل أعطيناك الآيات للتفرقة والفصل بين آيات القرآن التي هي من علم اللَّه

---

(١) جامع البيان (٢/ ٥٥٧ تحقيق شاكر).
(٢) يونس: الآيتان (٩٦ و ٩٧).
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٣).
(٤) المحرر الوجيز (١/ ٢٠٣).

وكلامه يظهر بها الحق بطريق معقول بين لا يشتبه فيه الفهم، ولا يحار فيه الذهن، وبين الآيات الكونية التي هي من صنعه يستخذي لها العقل ويخضع لها لشعوره بأنها من قوة فوق قوته. وللناس فيما يرونه فوق ما يعقلون طريقان معهودان: منهم من يسنده إلى القوة الغيبية العليا سواء كان له سبب خفي في الواقع أم لا ومنهم من يسنده إلى الأسباب الخفية التي يسمونها السحر، وإن كان فوق قدرة البشر، ولذلك ضلت الأمم في آيات الأنبياء السابقين وليس لأحد أن يضل في آيات القرآن لأنها بينة معقولة ولذلك قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[1].

نعم إن الآيات العلمية لا يعقلها إلا أهل الاستعداد للعلم واليقين. ولذلك قال: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾»[2].

* * *

(١) البقرة: الآية (٢).

(٢) تفسير المنار (١/ ٤٤١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الجحيم: شدة تَوَقُّدِ النار وَإِضْرَامِهَا، وَجَحَمْتُ النار: أَضْرَمْتُها وَزِدْتُ في توقدها، وصار هذا الاسم كالعلم على جهنم. قال ابن أبي الصلت:

إذا شَبَّتْ جَهَنَّمُ ثم زَادَتْ ... وَأَعْرَضَ عَنْ قَوَابِسِهَا الجَحِيمُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «ومعنى قوله -جل ثناؤه-: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: إنا أرسلناك يا محمد بالإسلام الذي لا أقبل من أحد غيره من الأديان، وهو الحق، مبشرًا من اتبعك فأطاعك، وقبل منك ما دعوته إليه من الحق بالنصر في الدنيا، والظفر بالثواب في الآخرة، والنعيم المقيم فيها ومنذرًا من عصاك فخالفك، وردَّ عليك ما دعوته إليه من الحق بالخزي في الدنيا، والذل فيها، والعذاب المهين في الآخرة»[1].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه ﷺ وصحة ما جاء به فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور: الأول، في نفس إرساله، والثاني، في سيرته وهديه ودله. والثالث في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة. فالأول والثاني، قد دخلا في قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾. والثالث في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

وبيان الأمر الأول وهو نفس إرساله أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته ﷺ، وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران، والصلبان، وتبديلهم للأديان، حتى كانوا

---

(١) جامع البيان (٢/ ٥٥٧-٥٥٨ تحقيق شاكر).

في ظلمة من الكفر، قد عمتهم وشملتهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، قد انقرضوا قبيل البعثة.

وقد علم أن اللَّه تعالى لم يخلق خلقه سدى، ولم يتركهم هملًا؛ لأنه حكيم عليم، قدير رحيم.

فمن حكمته ورحمته بعباده، أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له، فبمجرد رسالته يعرف العاقل صدقه، وهو آية كبيرة على أنه رسول اللَّه.

و أما الثاني، فمن عرف النبي ﷺ معرفة تامة، وعرف سيرته وهديه قبل البعثة، ونشوءه على أكمل الخصال، ثم من بعد ذلك، قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للناظرين، فمن عرفها، وسبر أحواله، عرف أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين؛ لأنه تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم.

وأما الثالث، فهو معرفة ما جاء به ﷺ من الشرع العظيم، والقرآن الكريم، المشتمل على الإخبارات الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «ثم قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي بالشيء الثابت المتحقق الذي لا يضل من يأخذ به، ولا تعبث به رياح الأباطيل والأوهام، بل يكون الآخذ به سعيدًا بالطمأنينة واليقين. قال الأستاذ الإمام: إن الحق في هذا المقام يشمل العلوم الاعتقادية وغيرها، فهو يقول: إنا أرسلناك بالعقائد الحق المطابقة للواقع، والشرائع الصحيحة الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿بَشِيرٗا﴾ لمن يتبع الحق بالسعادتين، ﴿وَنَذِيرٗاۖ﴾ لمن لا يأخذ به بشقاء الدنيا وخزي الآخرة، ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: فلا يضرك تكذيب المكذبين الذين يساقون بجحودهم إلى الجحيم؛ لأنك لم تبعث ملزمًا لهم، ولا جبارًا عليهم، فيعد عدم إيمانهم تقصيرًا منك تسئل عنه، بل بعثت معلمًا وهاديًا بالبيان والدعوة، وحسن الأسوة، لا هاديًا بالفعل ولا ملزمًا بالقوة، ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي

---

(١) تفسير السعدي (١/ ١٣١-١٣٣).

مَن يَشَآءُ﴾، وفي الآية تسلية للنبي -عليه الصلاة والسلام- لئلا يضيق صدره كما تدل على ذلك آيات أخرى، وفي الآية من العبرة أن الأنبياء بعثوا معلمين لا مسيطرين، ولا متصرفين في الأنفس ولا مكرهين، فإذا جاهدوا فإنما يجاهدون دفاعًا عن الحق لا إكراهًا عليه. وفيها أن اللَّه تعالى لا يطالب الناس بأن يأخذوا عنهم إلا العلم؛ الذي يهديهم إلى معرفة حقوق اللَّه، وحقوق العباد»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان بعض صفات الرسول ﷺ

* عن عطاء بن يسار قال: (لقيت عبداللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قلت: أخبرني عن صفة رسول اللَّه ﷺ في التوراة، قال: أجل، واللَّه إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه اللَّه حتى يقيم به الملة العوجاء؛ بأن يقولوا لا إله إلا اللَّه ويفتح بها أعين عمي وآذان صم وقلوب غلف)[٢].

★ **غريب الحديث:**

حرزًا: أي: حافظًا وأصل الحرز الموضع الحصين.

الفظ: سيئ الخلق الجافي.

الغليظ: قاسي القلب.

السخاب في الأسواق: الذي يرفع صوته على الناس لسوء خلقه ويكثر الصياح عليهم.

الملة العوجاء: ملة ابراهيم قد اعوجت في الفترة بالتبديل والنقص والزيادة. ووصفها بالعوج لما دخل فيها من عبادة الأصنام.

الغلف: هو الذي لا يفهم كأن قلبه في غلاف.

---

(١) تفسير المنار (١/ ٤٤٢-٤٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٤) والبخاري (٤/ ٤٣١/ ٢١٢٥).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «في هذا الحديث مدح النبي ﷺ ببعض صفاته الشريفة التي خصه اللَّه تعالى بها وجبله عليها»[١].

من هذه الأوصاف:

«أنه شاهد على الأمة ومبشر للمطيعين بالجنة والعصاة بالنار، أو أنه شاهد للرسل قبله بالإبلاغ»[٢].

«أنه سمي بالمتوكل لقناعته باليسير من الرزق، واعتماده على اللَّه تعالى بالتوكل عليه في الرزق والنصر، والصبر على انتظار الفرج والأخذ بمحاسن الأخلاق»[٣].

«أنه لين الجانب، شريف النفس لا يرفع الصوت على الناس لسوء خلقه، ولا يكثر الصياح عليهم في الأسواق لدناءته، بل يلين لهم ويرفق بهم»[٤].

«أنه يعفو ويغفر ما لم تنتهك حرمات اللَّه تعالى، فإذا انتهكت كان أشدهم غضبا».

«أن اللَّه أقام به عوج الكفر حتى ظهر دين الإسلام، ووضحت أعلامه، وأيد اللَّه نبيه بالصبر والأناة، والسياسة لنفوس العالمين، والتوكل على الله»[٥].

* * *

(١) شرح البخاري (٦/ ٢٥٤).
(٢) الفتح (٨/ ٧٥٣).
(٣) شرح ابن بطال (٦/ ٢٥٤).
(٤) شرح الطيبي (١١/ ٣٦٣٩).
(٥) شرح ابن بطال (٦/ ٢٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[١]

★ **غريب الآية:**

مِلَّتهم: الملة: النحلة والدين. والفرق بينهما أن الملة لا تضاف إلا للنبي الذي تسند إليه نحو: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾[٢]. ولا تكاد توجد مضافة إلى اللَّه تعالى، ولا إلى آحاد الأمة، بخلاف الدين.

قال القرطبي: «الملة: اسم لما شرعه اللَّه لعباده في كتبه وعلى ألسنة رسله، فكانت الملة والشريعة سواء؛ فأما الدين فقد فرّق بينه وبين الملة والشريعة؛ فإن الملة والشريعة ما دعا اللَّه عباده إلى فعله، والدين ما فعله العباد عن أمره».

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله -جل ثناؤه-: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، وليست اليهود، يا محمد، ولا النصارى براضية عنك أبدًا، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا اللَّه في دعائهم إلى ما بعثك اللَّه به من الحق، فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك لهو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الألفة والدين القيم، ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع ملتهم؛ لأن اليهودية ضد النصرانية، والنصرانية ضد اليهودية، ولا تجتمع النصرانية واليهودية في شخص واحد، في حال واحدة. واليهود والنصارى لا تجتمع على الرضا بك، إلا أن تكون يهوديا نصرانيا، وذلك مما لا يكون منك أبدا؛ لأنك شخص واحد، ولن يجتمع فيك دينان متضادان في حال واحدة. وإذا لم يكن إلى اجتماعهما فيك في وقت واحد سبيل، لم يكن لك إلى إرضاء الفريقين سبيل. وإذا لم يكن لك إلى ذلك سبيل، فالزم هدى اللَّه الذي لجميع الخلق إلى الألفة عليه سبيل»[٣].

وقال محمد رشيد رضا: «ثم قال ﷻ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ

---

(١) البقرة: الآية (١٢٠). (٢) النحل: الآية (١٢٣).

(٣) جامع البيان (٢/ ٥٦٢-٥٦٣ تحقيق شاكر).

مِلَّتَهُمْ﴾، فعاد إلى ذكر أهل الكتاب على ما عهدنا في أساليب القرآن من ضروب الانتقال بالمناسبات الدقيقة. وقد قال الأستاذ الإمام غير مرة: إن القرآن لم يأت على طريقة المنشئين والمؤلفين الذين يخصون كل طائفة من الكلام بموضوع معين ويسمونها فصلًا أو بابًا، ولكن للقرآن أغراضًا يبرزها بصور مختلفة، فكلما لاحت المناسبة لذكر شيء منها أو الاحتجاج عليه أو الدفاع عنه، جاء به يجذب إليه الأذهان، ويسارق به خطرات القلوب، مع مراعاة التناسق، وحفظ الأسلوب البليغ، لهذا يتكرر فيه المعنى الواحد بعبارات متعددة، ويتجلى الروح الواحد في أشكال متنوعة، فلم يذكر ههنا المشركين إلا لما بينهم وبين أهل الكتاب من التناسب والتقارب في المجاحدة والمعاندة، فكان ذكرهم من متممات الحجة على أهل الكتاب، من حيث أدى غرضًا مقصودًا في ذاته. ولما كان ذكرهم في عرض الكلام كالجملة الاعتراضية، كان الرجوع إلى سرد شؤون أهل الكتاب مع النبي ﷺ رجوعًا إلى أصل الموضوع.

وقال في معنى الآية: من شأن الإنسان أن يتألم من القبيح أشد التألم إذا وقع ممن لا يتوقع منه، فكان النبي -عليه الصلاة والسلام- يرجو أن يبادر أهل الكتاب إلى الإيمان به، وأن لا يرى منهم المكابرة والمجاحدة والعناد، ولهذا كبر عليه أن رأى من إعراض اليهود والنصارى عن إجابة دعوته، وإسرافهم في مجاحدته، أشد مما رأى من مشركي العرب الذين جاء لمحو دينهم من الأرض، مع موافقته لأهل الكتاب في أصل دينهم، ومقصده من توحيد اللَّه تعالى والإخلاص له، وتقويم عوج الفطرة الإنسانية الذي طرأ عليها بسبب التقاليد، وترقية المعارف الدينية إلى أعلى ما استعد له الإنسان من الارتقاء العقلي والأدبي، ولذلك كان يخاطبهم بمثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[1] الآية، وغيرها من الآيات. ولقد كان من الصعب لولا إعلام اللَّه تعالى أن تعرف درجة فتك التقليد بعقول أهل الكتاب، وإفساد الأهواء لقلوبهم، لذلك سلى اللَّه تعالى نبيه عما كان يجده من عنادهم، وإيذائهم بآيات كثيرة، عرفه فيها حقيقة حالهم، منها هذه الآية الناطقة بأن كلًّا من اليهود والنصارى على اتحادهم في أصل الدين قد تعصب

(١) آل عمران: الآية (٦٤).

لتقاليده، واتخذ الدين جنسية لا يرضيه من أحد شيء، إلا الدخول فيها وقبول لقبها فقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ مراد به ما هم عليه من التقاليد والأهواء، التي غيروا بها وجه الدين الواحد، حتى صار بعضهم يحكم بكفر بعض»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (١/ ٤٤٣-٤٤٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «ثم قال -جل ثناؤه- لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء النصارى واليهود الذين قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾[٢]: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ يعني: إن بيان اللّه هو البيان المقنع، والقضاء الفاصل بيننا، فهلموا إلى كتاب اللّه وبيانه الذي بين فيه لعباده ما اختلفوا فيه، وهو التوراة التي تقرون جميعًا بأنها من عند اللّه يتضح لكم فيها المحق منا من المبطل، وأينا أهل الجنة وأينا أهل النار، وأينا على الصواب وأينا على الخطأ.

وإنما أمر اللّه نبيه ﷺ أن يدعوهم إلى هدى اللّه وبيانه؛ لأن فيه تكذيب اليهود والنصارى فيما قالوا: من أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هودًا أو نصارى، وبيان أمر محمد ﷺ، وأن المكذب به من أهل النار دون المصدق به»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة اتباع الحق

* عن المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ قال: «**لا يزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر اللّه وهم ظاهرون**»[٤].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «وأما هذه الطائفة فقال البخاري: هم أهل العلم، وقال أحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم، قال القاضي عياض: إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة، ومن يعتقد مذهب أهل الحديث، قلت: ويحتمل أن

---

(١) البقرة: الآية (١٢٠). (٢) البقرة: الآية (١١١).

(٣) جامع البيان (٢/ ٥٦٣ تحقيق شاكر).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٢٤٤-٢٤٨-٢٥٢) والبخاري (٦/ ٧٨٤/ ٣٦٤٠) ومسلم (٣/ ١٥٢٣/ ١٩٢١). من طرق قيس عن المغيرة بن شعبة مرفوعا.

هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض، وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة، فإن هذا الوصف ما زال بحمد اللَّه تعالى من زمن النبي ﷺ إلى الآن، ولا يزال حتى يأتي أمر اللَّه المذكور في الحديث، وفيه دليل لكون الإجماع حجة، وهو أصح ما استدل به له من الحديث»[١].

قلت: هذا الحديث على وجازة ألفاظه وقلة كلماته يحمل منهاجًا كبيرًا يدل عليه، فدين الإسلام تكفل اللَّه بحفظه كتابًا وسنة، منذ البعثة وإلى أن تقوم الساعة، وهو الهدى، فمن خرج عليه ضل وأضل، ولهذا وصف رسول اللَّه ﷺ الفرقة الناجية بأنها ما كان عليه ﷺ وأصحابه، فالهدى محصور في القرآن والسنة ومما فهمه الصحابة ﷺ منهما ومن كان على منهاجهم، فمن دعا إلى هذا المنهج وأحياه على طريق النبوة والرسالة فهو من المجددين الذين جاء ذكرهم والخبر عنهم في الحديث: «**إن اللَّه يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»[٢] ولهذا صح عن النبي ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها**»[٣] والقصد هو إحياؤها وتعليمها ونصرتها، فلهذا ما ذكره بعض المؤلفين في المجددين حيث ذكروا مجموعة غالبهم من المخالفين للسنة كالغزالي والجويني، وبعض المخرفين الذين كان لهم قدم سوء في الإسلام، فهذا مما ينبغي أن يعلم، فالتجديد حقًّا إحياء القرآن بكل سوره وآياته حفظًا وتجويدًا، وفهمًا وعلمًا وعملًا، والتحذير من كل ما يخالف المنهاج السلفي في تفسير كتاب اللَّه، وكذلك إحياء السنة بمصنفاتها المشهورة ومتونها وأسانيدها، وكل ما يخدم أهدافها، وكذلك

---

(١) شرح مسلم (١٣/ ٥٧-٥٨).

(٢) أخرجه: أبو داود (٤/ ٢٨٠/ ٤٢٩١)، والحاكم (٤/ ٥٢٢) وسكت عنه، قال الشيخ الألباني: «سكت عنه الحاكم والذهبي، أما المناوي فنقل عنه أنه صححه، فلعله سقط ذلك من النسخة المطبوعة من المستدرك، والسند صحيح، رجاله ثقات رجال مسلم» الصحيحة (٢/ ١٤٨/ ٥٩٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٥٨-٣٥٩)، ومسلم (٢/ ٧٠٤-٧٠٥/ ١٠١٧)، والترمذي (٥/ ٤٢/ ٢٦٧٥)، والنسائي (٥/ ٧٩/ ٢٥٥٣)، وابن ماجه (١/ ٧٤/ ٢٠٣) من حديث جرير بن عبد اللَّه ﷺ.

إحياء ما اندرس من العقائد السلفية بمصنفاتها ورجالاتها، فهؤلاء هم الذين على الهدي، وهم الذين قال فيهم الرسول ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك**»[١]، وظهورهم يتجلى في نصرتهم للكتاب والسنة، أما المحرفون من الرافضة والصوفية، والمتهوكون من المتكلمين والفلاسفة؛ فلا حظ لهم من هذا الوعد الذي أخبر به النبي ﷺ.

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٤٤)، والبخاري (١٣/ ٣٦٣/ ٧٣١١)، ومسلم (٣/ ١٥٢٣/ ١٩٢١).

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

★ **غريب الآية:**

أهواءهم: واحدها: هوىً. وهو ما تميل إليه النفس وتحبه من الشهوات والشبهات؛ قال الشاعر:

هوايَ مع الركبِ اليمانينَ مُصْعِدٌ   حَبِيبٌ وجُثماني بمكةَ مُوثَقُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾، يا محمد، هوى هؤلاء اليهود والنصارى فيما يرضيهم عنك من تهود وتنصر، فصرت من ذلك إلى إرضائهم، ووافقت فيه محبتهم من بعد الذي جاءك من العلم بضلالتهم وكفرهم بربهم، ومن بعد الذي اقتصصت عليك من نبئهم في هذه السورة مالك من اللَّه من ولي يعني بذلك: ليس لك يا محمد من ولي يلي أمرك، وقيم يقوم به، ولا نصير ينصرك من اللَّه فيدفع عنك ما ينزل بك من عقوبته، ويمنعك من ذلك، إن أحل بك ذلك ربك. . . وقد قيل: إن اللَّه -تعالى ذكره- أنزل هذه الآية على نبيه محمد ﷺ؛ لأن اليهود والنصارى دعته إلى أديانها، وقال كل حزب منهم: إن الهدى هو ما نحن عليه، دون ما عليه غيرنا من سائر الملل. فوعظه اللَّه أن يفعل ذلك، وعلمه الحجة الفاصلة بينهم فيما ادعى كل فريق منهم»[1].

وقال ابن كثير: «فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعدما علموا من القرآن والسنة، عياذا باللَّه من ذلك، فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمته»[2].

وقال الرازي: «فيها دلالة على أن اتباع الهوى لا يكون إلا باطلًا، فمن هذا

---

(١) جامع البيان (٢/ ٥٦٣-٥٦٤ تحقيق شاكر).   (٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٦).

الوجه يدل على بطلان التقليد»[١].

وقال الشوكاني: «وفي هذه الآية من الوعيد الشديد الذي ترجف له القلوب وتتصدع منه الأفئدة، ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج اللَّه سبحانه والقائمين ببيان شرائعه، ترك الدهان لأهل البدع المتمذهبين بمذاهب السوء، التاركين للعمل بالكتاب والسنة، المؤثرين لمحض الرأي عليهما؛ فإن غالب هؤلاء وإن أظهر قبولا وأبان من أخلاقه لينا لا يرضيه إلا اتباع بدعته والدخول في مداخله والوقوع في حبائله، فإن فعل العالم ذلك بعد أن علمه اللَّه من العلم ما يستفيد به أن هدى اللَّه هو ما في كتابه وسنة رسوله، لا ما هم عليه من تلك البدع التي هي ضلالة محضة، وجهالة بينة ورأي منهار، وتقليد على شفا جرف هار، فهو إذ ذاك ماله من اللَّه من ولي ولا نصير ومن كان كذلك فهو مخذول لا محالة وهالك بلا شك ولا شبهة»[٢].



---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٥).

(٢) فتح القدير (١/ ٢٠٠-٢٠١).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يتلونه: يتبعونه، من تلا الشيء إذا تَبِعَهُ. قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾[1] أي: اتبعها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الذين عناهم اللَّه -جل ثناؤه- بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾. فقال بعضهم: هم المؤمنون برسول اللَّه ﷺ وبما جاء به، من أصحابه... وقال آخرون: بل عنى اللَّه بذلك علماء بني إسرائيل، الذين آمنوا باللَّه وصدقوا رسله، فأقروا بحكم التوراة. فعملوا بما أمر اللَّه فيها من اتباع محمد ﷺ، والإيمان به، والتصديق بما جاء به من عند اللَّه... وهذا القول أولى بالصواب من القول الذي قاله قتادة؛ لأن الآيات قبلها مضت بأخبار أهل الكتابين، وتبديل من بدل منهم كتاب اللَّه، وتأولهم إياه على غير تأويله، وادعائهم على اللَّه الأباطيل، ولم يجر لأصحاب محمد ﷺ في الآية التي قبلها ذكر، فيكون قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، موجهًا إلى الخبر عنهم، ولا لهم بعدها ذكر في الآية التي تتلوها، فيكون موجهًا ذلك إلى أنه خبر مبتدأ عن قصص أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وبعد انقضاء قصص غيرهم؛ ولا جاء بأن ذلك خبر عنهم أثر يجب التسليم له.

فإذ كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى بمعنى الآية، أن يكون موجهًا إلى أنه خبر عمن قص اللَّه -جل ثناؤه- قصصهم في الآية قبلها والآية بعدها، وهم أهل الكتابين التوراة والإنجيل. وإذ كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: الذين آتيناهم الكتاب الذي قد عرفته يا محمد وهو التوراة فقرأوه واتبعوا ما فيه، فصدقوك وآمنوا بك وبما جئت به

(١) الشمس: الآية (٢).

من عندي، أولئك يتلونه حق تلاوته»[١].

وقال: «فمعنى الكلام: الذين آتيناهم الكتاب، يا محمد من أهل التوراة الذين آمنوا بك وبما جئتهم به من الحق من عندي، يتبعون كتابي الذي أنزلته على رسولي موسى -صلوات اللَّه عليه-، فيؤمنون به ويقرون بما فيه من نعتك وصفتك، وأنك رسولي، فرض عليهم طاعتي في الإيمان بك والتصديق بما جئتهم به من عندي، ويعملون بما أحللت لهم، ويجتنبون ما حرمت عليهم فيه، ولا يحرفونه عن مواضعه، ولا يبدلونه ولا يغيرونه كما أنزلته عليهم بتأويل ولا غيره.

أما قوله: ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾، فمبالغة في صفة اتباعهم الكتاب ولزومهم العمل به، كما يقال: إن فلانًا لعالم حق عالم، وكما يقال: إن فلانا لفاضل كل فاضل»[٢].

وقال: «فأخبر اللَّه -جل ثناؤه- أن المؤمن بالتوراة، هو المتبع ما فيها من حلالها وحرامها، والعامل بما فيها من فرائض اللَّه التي فرضها فيها على أهلها، وأن أهلها الذين هم أهلها من كان ذلك صفته، دون من كان محرفًا لها، مبدلًا تأويلها، مغيرًا سننها، تاركًا ما فرض اللَّه فيها عليه.

وإنما وصف -جل ثناؤه- من وصف بما وصف به من متبعي التوراة، وأثنى عليهم بما أثنى به عليهم؛ لأن في اتباعها اتباع محمد نبي اللَّه ﷺ وتصديقه؛ لأن التوراة تأمر أهلها بذلك، وتخبرهم عن اللَّه -تعالى ذكره- بنبوته، وفرض طاعته على جميع خلق اللَّه من بني آدم، وأن في التكذيب بمحمد التكذيب لها. فأخبر -جل ثناؤه- أن متبعي التوراة هم المؤمنون بمحمد ﷺ، وهم العاملون بما فيها»[٣].

وقال محمد رشيد رضا: «الصلة بين قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية وبين ما قبلها واضحة جلية، وهي أن هذه جاءت في موضع الاستدراك على ما سبقها من إيناس النبي والمؤمنين من أهل الكتاب، فقد علمنا أن آية ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾[٤] قد سلت ما كان يخالج النفوس من الرجاء بإيمان أهل الكتاب كلهم؛ وهذه الآية تنطق بأن منهم من يرجى إيمانه وهم الذين وصفهم بما هو علة

---

(١) جامع البيان (٢/ ٥٦٤-٥٦٥ تحقيق شاكر).
(٢) جامع البيان (٢/ ٥٧٠ تحقيق شاكر).
(٣) جامع البيان (٢/ ٥٧١-٥٧٢ تحقيق شاكر).
(٤) البقرة: الآية (١٢٠).

الرجاء ومناط الأمل وهو تلاوة كتابهم حق تلاوته، وعدم الجمود على الظواهر والتقاليد، والاكتفاء بالأماني والظنون، كأنه يقول إن كانت نفسك تحدثك بأن أهل الكتاب أقرب إلى الإيمان بما جئت به لأنه يشبه ما عندهم ويصدق أنبياءهم وأصول شرائعهم من حيث يقتلع جذور دين الوثنيين ويمحوه محوا فيكون الوثنيون أجدر من أهل الكتاب بمعاندتك ومجاحدتك، فاعلم أن هؤلاء قد ألحقوا بدينهم من التقاليد والمخترعات، وألصقوا به من البدع والعادات، ما غرهم في دينهم بغير فهم، وجعلهم يتعصبون له بغير عقل، فكانوا بذلك أبعد عن حقيقة الإيمان من أولئك الذين يعبدون الأوثان، وذلك أنهم اتخذوا الدين جنسية فليس لهم منه إلا الجمود على عادات صارت مميزة للمنتسبين إليه، ولكن لا يزال فيهم نفر يرجى منهم تدبر الشيء والتمييز بين الحق والباطل وهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهم يتلونه حق تلاوته أي يفهمون أسراره ويفقهون حكمة تشريعه، وفائدة نوط التكليف به، لا يتقيدون في ذلك بآراء من سبقهم فيه، ولا بتحريفهم كلمه عن مواضعه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ هم الذين يقدرون ما جئت به من الترقي في الدين، وإقامة قواعده على الأساس المتين، و﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بعد العلم بأنه الحق الذي يزيل ما بينهم من الخلاف، ويهديهم إلى طريق السعادة في الدنيا والآخرة ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ من الرؤساء المعاندين والمقلدين الجاهلين وهم الأكثرون، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لهذه السعادة، المحرومون مما يكون للمؤمنين من المجد والسيادة، سواء كان كفرهم بتحريفه ليوافق مذاهبهم التقليدية، أم بإهماله اكتفاء بقول علمائهم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عموم رسالة النبي ﷺ للإنس والجن

* عن أبي هريرة عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة؛ يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به؛ إلا كان من أصحاب النار**»[٢].

---

(١) تفسير المنار (١/ ٤٤٦-٤٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٠) ومسلم (١/ ١٣٤/ ١٥٣).

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي عياض: «قوله ﷺ: «**لا يسمع بي أحد من هذه الأمة...**» فيه دليل على أن من في أطراف الأرض وجزائر البحر المقطعة ممن لم تبلغه دعوة الإسلام ولا أمر النبي ﷺ؛ أن الحرج عنه في عدم الإيمان به ساقط لقوله: «**لا يسمع بي**»، إذ طريق معرفته والإيمان به ﷺ مشاهدة معجزته وصدقه أيام حياته، أو صحة النقل بذلك والخبر لمن لم يشاهده وجاء بعده، بخلاف الإيمان باللّه وتوحيده الذي يوصل إليه بمجرد النظر الصحيح ودليل العقل السليم»[١].

قال القرطبي: «وفيه دليل على أن من لم تبلغه دعوة رسول اللّه ﷺ ولا أمره لا عقاب عليه، ولا مؤاخذة، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولًا﴾[٢] ومن لم تبلغه دعوة الرسول ولا معجزته فكأنه لم يبعث إليه رسول»[٣].

قلت: فدعوة الرسول محمد ﷺ أصبحت واضحة لكل الأمم والشعوب، وخبرها منتشر في كل الآفاق، ووسائل الإعلام والاتصال، ووسائل الترجمة بكل اللغات مما يسر ذلك. ومحاربة أهل الكفر من يهود وصليبيين ومرتدين وزنادقة للرسول ﷺ في كل مكان، ومحاولة تشويه دينه وذاته الشريفة المباركة بتصوير أفلام عنه بكل اللغات تارة، وبرسوم كاريكاتورية تارة أخرى؛ كل هذا يدل على بلوغ دعوته إلى كل أهل الأرض، فلا عذر لهم في التخلف عن الإيمان به ومحبته ونصرته وكل ما يتعلق بدينه، فهذا الحديث آية من آيات نبوته، فقد وقع ما أخبر به، فسمع بدعوته اليهود والنصارى وكل مخالف له، فالذين لا يؤمنون به بعد بلوغ دعوته إليهم لا محالة أنهم من أهل النار، وكل من قصر في نصرة دعوته من أهل الإسلام -كل بحسبه- فهم تحت المشيئة، إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم، فيجب على المسلمين أن ينفروا كافة في كل الأرض للدعوة إلى هذا الدين، بكل الوسائل التي يملكونها، وإلا وقعوا في نصوص الوعيد.

* * *

---

(١) إكمال المعلم (١/ ٤٦٨).
(٢) الإسراء: الآية (١٥).
(٣) المفهم (١/ ٣٦٨).

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذه الآية عظة من اللَّه -تعالى ذكره- لليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول اللَّه ﷺ، وتذكير منه لهم ما سلف من أياديه إليهم في صنعه بأوائلهم، استعطافًا منه لهم على دينه وتصديق رسوله محمد ﷺ، فقال: يا بني إسرائيل اذكروا أيادي لديكم، وصنائعي عندكم، واستنقاذي إياكم من أيدي عدوكم فرعون وقومه، وإنزالي عليكم المن والسلوى في تيهكم، وتمكيني لكم في البلاد بعد أن كنتم مذللين مقهورين، واختصاصي الرسل منكم، وتفضيلي إياكم على عالم من كنتم بين ظهرانيه، أيام أنتم في طاعتي باتباع رسولي إليكم، وتصديقه وتصديق ما جاءكم به من عندي، ودعوا التمادي في الضلال والغي»[(١)].

وقال محمد رشيد رضا: «أقام اللَّه تعالى الحجج الدامغة على أهل الكتاب ثم ناداهم ودعاهم إلى ترك أسباب الغرور المانع من الإيمان فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وقد سبق التذكير بهذه النعمة في أول المحاجة، ثم أعيد هنا للمناسبة الظاهرة، وهي أنه بعد ما ذكر أن الإعراض عن تدبر الكتاب والتفقه فيه هو كفر به، ذكرهم بأنه لا يليق بمن كرمه ربه وفضله على غيره من الشعوب بإيتائه الكتاب أن يكون حظه منه كحظ الحمار يحمل أسفارًا. فإذا كان ابتدأ العظة والدعوة بذكر هذا التفضيل لتتوجه إليها الأنظار وتصغى إليها الأسماع. . . فلا غرو أن يذكر هذا التفضيل ثانيًا بعد التوبيخ والتقريع، لإزالة ما ربما يحدثه ذلك من الاستياء الذي يتوقع أن يكون من أسباب التنفير عما في الآية التالية، وليس هذا من التكرار الذي يتحاماه البلغاء، وإنما هو من إعادة الشيء لإفادة ما لا يستفاد بدونه. كأن هذه الآية تمهيدا لما بعدها، وهو فذلكة القصة، والمقصود من إقامة الحجة»[(٢)].

---

(١) جامع البيان (٢/ ٥٧٣ تحقيق شاكر).

(٢) تفسير المنار (١/ ٤٥٠-٤٥١).

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذه الآية ترهيب من اللَّه -جل ثناؤه- للذين سلفت عظته إياهم بما وعظهم به في الآية قبلها. يقول اللَّه لهم: واتقوا يا معشر بني إسرائيل، المبدلين كتابي وتنزيلي، المحرفين تأويله عن وجهه، المكذبين برسولي محمد ﷺ عذاب يوم لا تقضي فيه نفس عن نفس شيئًا، ولا تغني عنها غناء أن تهلكوا على ما أنتم عليه من كفركم بي، وتكذيبكم رسولي، فتموتوا عليه، فإنه يوم لا يقبل من نفس فيما لزمها فدية، ولا يشفع فيما وجب عليها من حق لها شافع، ولا هم ينصرهم ناصر من اللَّه إذا انتقم منها بمعصيتها إياه»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «فلا ينفعكم يوم القيامة أن تعتذروا عن الإعراض عن فهم كتاب اللَّه بأن بعض سلفكم كانوا يفهمونه ويتدبرونه، وأنكم استغنيتم بتدبرهم وفهمهم عن أن تفهموا وتتدبروا، فإنه يوم لا يغني فيه أحد عن أحد شيئًا. ويؤيد الآية حديث الصحيحين «**يا فاطمة يا بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من اللَّه شيئًا**» إلخ وإذا كان لا يجزي فهم سلفكم عنكم أنكم أعرضتم عن هداية كتابه فلا تنفعكم شفاعتهم أيضًا، كما أنه لا يقبل منكم عدل وفداء تفتدون به وتجعلونه معادلًا لما فرطتم فيه كما قال: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ وكانوا يعتقدون بالمكفرات تؤخذ عدلًا عما فرطوا فيه وبشفاعة أنبيائهم فأخبرهم اللَّه تعالى أنه لا يقوم مقام الاهتداء بكتابه شيء آخر، ثم قطع حبل رجائهم من كل ناصر ينصرهم فقال: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: أنه لا يأتيهم نصر من هاتين الجهتين، ولا من غيرهما»[٢].

---

(١) جامع البيان (٢/ ٥٧٤ تحقيق شاكر).

(٢) تفسير المنار (١/ ٤٥١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في أن الإنسان يرفعه عمله الصالح لا نسبه

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول اللَّه ﷺ حين أنزل اللَّه عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[(١)] قال: «**يا معشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا. يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا. يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من اللَّه شيئًا. يا صفية عمة رسول اللَّه ﷺ لا أغني عنك من اللَّه شيئًا. ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من اللَّه شيئا**»[(٢)].

* **فوائد الحديث:**

قال ابن تيمية: «. . . الذي ينفع الناس طاعة اللَّه ورسوله. وأما ما سوى ذلك فإنه لا ينفعهم لا قرابة ولا مجاورة ولا غير ذلك. . . وأما ما يظنه بعض الناس من أن البلاء يندفع عن أهل بلد أو إقليم بمن هو مدفون عندهم من الأنبياء والصالحين، كما يظن بعض الناس أنه يندفع عن أهل بغداد البلاء لقبور ثلاثة: أحمد بن حنبل، وبشر الحافي، ومنصور بن عمار، ويظن بعضهم أنه يندفع البلاء عن أهل الشام بمن عندهم من قبور الأنبياء الخليل وغيره عليهم السلام، وبعضهم يظن أنه يندفع البلاء عن أهل مصر بنفيسة أو غيرها. أو يندفع عن أهل الحجاز بقبر النبي ﷺ وأهل البقيع أو غيرهم. فكل هذا غلو مخالف لدين الإسلام، مخالف للكتاب والسنة والإجماع. فالبيت المقدس كان عنده من قبور الأنبياء والصالحين ما شاء اللَّه، فلما عصوا الأنبياء وخالفوا ما أمر اللَّه به ورسله سلط عليهم من انتقم منهم. والرسل الموتى ما عليهم إلا البلاغ المبين، وقد بلغوا رسالة ربهم. وكذلك نبينا ﷺ قال اللَّه تعالى في حقه: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[(٤)].

---

(١) الشعراء: الآية (٢١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٠) والبخاري (٥/ ٤٨٠/ ٢٧٥٣) ومسلم (١/ ١٩٢/ ٢٠٤) والترمذي (٥/ ٣١٦-٣١٧/ ٣١٨٥) والنسائي (٦/ ٥٥٨-٥٦٠/ ٣٦٤٦-٣٦٤٩).

(٣) الشورى: الآية (٤٨).

(٤) النور: الآية (٥٤) و العنكبوت: الآية (١٨).

وقد ضمن اللَّه لكل من أطاع الرسول أن يهديه وينصره. فمن خالف أمر الرسول استحق العذاب ولم يغن عنه أحد من اللَّه شيئًا. كما قال النبي ﷺ: «**يا عباس! عم رسول اللَّه، لا أغني عنك من اللَّه شيئًا. يا صفية عمة رسول اللَّه، لا أغني عنك من اللَّه شيئًا. يا فاطمة بنت رسول اللَّه، لا أغني عنك من اللَّه شيئًا**». وقال ﷺ لمن ولاه من أصحابه: «**لا ألفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول: يا رسول اللَّه أغثني. فأقول: لا أملك لك من اللَّه شيئًا، قد بلغتك**»[1][2].

قلت: هذا الفهم للآية من أئمة الإسلام؛ ابن جرير من المتقدمين، ومحمد رشيد رضا من المتأخرين في أن كتب اللَّه يجب أن تتعلق بها كل فئة زمانا أو مكانا بفهم صحيح يليق بها، وبالنسبة لأهل الإسلام فإن فهم سلفهم لكتاب اللَّه أمر لابد من اعتماده في الاستضاءة، والتفيء من ظلاله وعدم الخروج عنه، مع بقاء دلالة الكتاب والسنة على ما يوافق حاجة الأمة ومبتغاها ومطلوبها قائما إلى أن تقوم الساعة، فلا يستغنى عن التعلق بكتاب اللَّه بفهم علان أو زيدان من الناس، ولاسيما المنحرفين عن الصراط المستقيم، كالذين قرمطوا القرآن وجعلوه رمزًا لمناهجهم الضالة، وسموا ذلك بأسماء يخدعون بها الناس كالتفسير الإشاري، وأن القرآن له ظاهر وباطن، وأن الصفات لا يقصد بها ظاهرها، وأن لها معاني يسميها أصحابها بالمجاز، وهو كذب وبهتان، وتنزيل الآيات على مقاصد لا يدل عليها سابقها ولا لاحقها.

ما أشار إليه شيخ الإسلام من اعتقادات في مقبور البلد هو من الاعتقادات الباطلة التي تسلسل تاريخها في الأمة الإسلامية واتسع، فلا تجد قرية ولا مدينة إلا وترى كثيرًا من أهلها يعتقدون -كما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية- أنها محفوظة بأولئك الأموات الذين يسمونهم بالأولياء أو برجال البلد، ولهذا تجد دائمًا على ألسنتهم نحن في حفظ اللَّه وفي حفظ رجال البلد، هذا إن أشرك اللَّه في هذا الأمر، وإلا أفردوا رجال البلد به وجردوا اللَّه عما اختص به، فيقسمون بهم ويلجؤون إليهم في الملمات، ويستغيثون بهم في القحط وفي النوازل، ولهذا أوكلهم اللَّه إلى

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٦) والبخاري (٦/ ٢٢٨/ ٣٠٧٣) ومسلم (٣/ ١٤٦١-١٤٦٢/ ١٨٣١) من حديث أبي هريرة.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٣٥-٤٣٦).

أمواتهم، وسلط عليهم البلاء من كل جانب، فأراهم أن أمواتهم لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعًا.

وهذه الصفة -مع الأسف- منتشرة في معظم العالم الإسلامي والقرآن يتلى فيه آناء الليل وأطراف النهار، وتقرأ فيه سيرة رسول اللَّه ﷺ ويزعم له المحبة، لكن كثيرًا من أهله يخالفون منهاج النبوة والرسالة، إلا من حفظه اللَّه من هذا التاريخ المشؤوم؛ تاريخ الشرك الصريح الذي ما كان يعتقده أهل الجاهلية في جاهليتهم، وما اعتقدوه في أصنامهم، وإن شئت مزيدًا من البيان والإيضاح؛ فاقرأ ما كتبه صاحب الإبريز في الديوان المزعوم، الذي سطر فيه الإثم والعدوان، والكذب والبهتان ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾[1]، وقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾[2]، وقال: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾[3]، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات التي يعرفها الصبيان. وحفظ الكون هو لمن خلقه وصنعه، لا لمن هو من الكون مصنوع مخلوق ضعيف، قبضة روحه بيد الملك، ويبعث ماثلًا بين يدي اللَّه لا حول له ولا قوة، فما هذا الهراء الذي ينشره عبدة الأوثان باسم الولاية والصلاح، وغيرها من الأسماء التي ظاهرها الرحمة وباطنها الشرك والعذاب. نسأل اللَّه السلامة والعافية.

* * *

(١) الأنعام: الآيتان (٥٩ و ٦٠).
(٢) الأنعام: الآية (١٧).
(٣) الزمر: الآية (٣٨).
(٤) الجن: الآية (٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾(١)

★ **غريب الآية:**

ابتلى: أي اختبر، والابتلاء يكون في الخير والشر.

أتمهن: التمام: الكمال. خلافه النقصان، تقول: تم الأمر تمامًا، إذا كمل، والمعنى: عَمِلَ بهن.

إمامًا: الإمام القدوة، ومنه قيل لخيط البناء: إمام، وللطريق: إمام؛ لأنه يأم فيه للمسالك؛ أي: يقصد. والمعنى جعلناك للناس إمامًا يأتمون بك في هذه الخصال، ويقتدي بك الصالحون.

ذريتي: الذرية: الولد والنسل، يقال: ذرية فلان؛ أي: أولاده ونسله.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وكان اختبار اللَّه -تعالى ذكره- إبراهيم، اختبارًا بفرائض فرضها عليه، وأمر أمره به. وذلك هو (الكلمات) التي أوحاهن إليه، وكلفه العمل بهن، امتحانا منه له واختبارًا. ثم اختلف أهل التأويل في صفة (الكلمات) التي ابتلى اللَّه بها إبراهيم نبيه وخليله -صلوات اللَّه عليه-.

فقال بعضهم: هي شرائع الإسلام، وهي ثلاثون سهمًا . . .

وقال آخرون: هي خصال عشر من سنن الإسلام . . .

وقال بعضهم: بل (الكلمات) التي ابتلي بهن عشر خلال، بعضهن في تطهير الجسد، وبعضهن في مناسك الحج . . .

وقال آخرون: بل ذلك: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ في مناسك الحج . . .

---

(١) الآية (١٢٤).

وقال آخرون: بل ذلك الخلال الست: الكوكب والقمر والشمس والنار والهجرة والختان التي ابتلي بهن فصبر عليهن...».

ثم قال: «والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن اللَّه ﷻ أخبر عباده أنه اختبر إبراهيم خليله بكلمات أوحاهن إليه، وأمره أن يعمل بهن فأتمهن، كما أخبر اللَّه -جل ثناؤه- عنه أنه فعل. وجائز أن تكون تلك الكلمات جميع ما ذكره من ذكرنا قوله في تأويل (الكلمات)، وجائز أن تكون بعضه؛ لأن إبراهيم -صلوات اللَّه عليه- قد كان امتحن فيما بلغنا بكل ذلك، فعمل به، وقام فيه بطاعة اللَّه وأمره الواجب عليه فيه. وإذ كان ذلك كذلك، فغير جائز لأحد أن يقول: عنى اللَّه بالكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم شيئًا من ذلك بعينه دون شيء، ولا عنى به كل ذلك، إلا بحجة يجب التسليم لها: من خبر عن الرسول ﷺ، أو إجماع من الحجة. ولم يصح في شيء من ذلك خبر عن الرسول بنقل الواحد، ولا بنقل الجماعة التي يجب التسليم لما نقلته»[1].

قال ابن القيم: «.. ولهذا كان من تمام الحنيفية ملة إبراهيم، وأصل مشروعية الختان لتكميل الحنيفية، فإن اللَّه ﷻ لما عاهد إبراهيم وعده أن يجعله للناس إمامًا، ووعده أن يكون أبًا لشعوب كثيرة، وأن يكون الأنبياء والملوك من صلبه، وأن يكثر نسله، وأخبره أنه جاعل بينه وبين نسله علامة العهد أن يختتنوا كل مولود منهم، ويكون عهدي هذا ميسمًا في أجسادهم، فالختان علم للدخول في ملة إبراهيم، وهذا موافق لتأويل من تأول قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾[2] على الختان». اهـ[3]

قال السعدي: «يخبر تعالى، عن عبده وخليله، إبراهيم عليه السلام، المتفق على إمامته وجلالته، الذي كل من طوائف أهل الكتاب تدعيه، بل وكذلك المشركون: أن اللَّه ابتلاه وامتحنه بكلمات؛ أي: بأوامر ونواهٍ، كما هي عادة اللَّه في ابتلائه لعباده، ليتبين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان، من الصادق الذي ترتفع درجته، ويزيد قدره، ويزكو عمله، ويخلص ذهبه. وكان من أجلهم في هذا

---

(١) جامع البيان (٣/ ٧-١٥ تحقيق شاكر).
(٢) البقرة: الآية (١٣٨).
(٣) تحفة المودود (ص: ٣٥١).

المقام، الخليل عليه السلام. فأتم ما ابتلاه الله به، وأكمله ووفاه، فشكر الله له ذلك، ولم يزل الله شكورًا فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: يقتدون بك في الهدى، ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية، ويحصل لك الثناء الدائم، والأجر الجزيل، والتعظيم من كل أحد.

وهذه - لعمر الله - أفضل درجة، تنافس فيها المتنافسون، وأعلى مقام، شمر إليه العاملون، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين وأتباعهم، من كل صديق متبع لهم، داع إلى الله وإلى سبيله»[١].

قال ابن كثير: «يقول تعالى منبها على شرف إبراهيم خليله عليه السلام وأن الله تعالى جعله إمامًا للناس يقتدى به في التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي، ولهذا قال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ أي واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم أي: اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: قام بهن كلهن كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾[٢] أي: وفى جميع ما شرع له فعمل به -صلوات الله عليه-، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٤]؛ وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾ أي: بشرائع وأوامر ونواه، فإن الكلمات تطلق، ويراد بها الكلمات القدرية، كقوله تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[٦] وتطلق، ويراد بها الشرعية، كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ

(١) تفسير السعدي (١/ ١٣٥).
(٢) النجم: الآية (٣٧).
(٣) النحل: الآيات (١٢٠-١٢٣).
(٤) الأنعام: الآية (١٦١).
(٥) آل عمران: الآيتان (٦٧ و ٦٨).
(٦) التحريم: الآية (١٢).

كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[١] أي: كلماته الشرعية، وهي إما خبر صدق، وإما طلب عدل إن كان أمرًا أو نهيًا، ومن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾؛ أي: قام بهن قال: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي جزاء على ما فعل، كما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله اللَّه للناس قدوة، وإمامًا يقتدى به ويحتذى حذوه»[٢].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «ففي الآية مسائل:

الأولى: معرفة أنه تعالى حكيم لا يضع الأشياء إلا في مواضعها؛ لأنه ما جعله إماما إلا بعد ما أتم ما ابتلاه به. وسئل بعضهم: أيما الابتلاء أو التمكين؟ فقال: الابتلاء ثم التمكين.

الثانية: إذا كان يبتلي الأنبياء هل يفعلونه أم لا؟ فكيف بغيرهم؟

الثالثة: الثناء على إبراهيم بأنه أتم الكلمات التي ابتلاه بها.

وقيل: إن اللَّه لم يبتل أحدا بهذا الدين فأتمه إلا إبراهيم. ولهذا قال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[٣]

الرابعة: أنه سبحانه جازاه على ذلك بأمور منها: أنه جعله للناس إمامًا، ولما علم عليه السلام كبر هذه العطية سألها للذرية، وهي الخامسة.

السادسة: أن اللَّه أجابه أن هذه المرتبة لا ينالها ظالم ولو من ذرية الأنبياء.

السابعة: أن هذا يدل على أن الإمامة في الدين تحصل لغير الظالم، فليست بمختصة.

الثامنة: معرفة قدر هذه المرتبة التي أكرم بها، وهي الإمامة في الدين»[٤].

قلت: ما أشار إليه ابن جرير من عدم تعيين الكلمات التي ابتلى اللَّه بها إبراهيم -أي امتحنه واختبره- هو الواجب على كل مفسر: أن لا يعين شيئًا إلا بدليل، فما فسر في آية أخرى أو فسره النبي ﷺ قُبِل وكان حجة، وما لم يفسر في القرآن ولا في

---

(١) الأنعام: الآية (١١٥).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٨-٢٨٩).

(٣) النجم: الآية (٣٧).

(٤) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ٤٣-٤٤).

صحيح السنن فيبقى على عمومه وإجماله، وإن كان المفسرون ذكروا هاهنا أحاديث -سنذكرها إن شاء الله- ظنوها من الكلمات، والحق -كما سبق في كلمة الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ- أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ جمع اللَّه له بين كمال التوحيد وكمال امتثال الأوامر والنواهي الشرعية، فجمع اللَّه له الخير كله، فأتم بلاغ التوحيد وذب عنه وبذل نفسه كاملة في سبيل التوحيد ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾[1]، وقد ذكر اللَّه مواقفه وأخباره في كتابه وأثنى عليه الثناء الكامل، وأمر نبيه محمدًا ﷺ باتباعه والاقتداء به، فهذا إن دل على شيء؛ فإنما يدل على تمام إخلاصه، وأن هذه الخصلة العظيمة التي وصل إليها إبراهيم كانت نعمة له ولعقبه، فجعلت فيهم النبوة والرسالة، ومن آخرهم إمام المتقين وسيد المرسلين وقائد الغر المحجلين ﷺ.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن إبراهيم ابتلي بتحقيق المعتقد وإصلاح الظاهر فوفق لذلك

* عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ قال: ابتلاه اللَّه بالطهارة، خمس في الرأس وخمس في الجسد. في الرأس قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس. وفي الجسد تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل مكان الغائط والبول بالماء[2].

* عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**الفطرة خمس أو**

---

(١) الأنبياء: الآيتان (٦٩ و ٧٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير (١/ ٥٧). ومن طريقه: ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٣٥٩/ ١١٧٢) وابن جرير في التفسير (٣/ ٩/ ١٩١٠) والبيهقي (١/ ١٤٩). كلهم من طريق معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس.

وأخرجه الحاكم (٢/ ٢٦٦) من طريق ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وصححه كذلك الحافظ في الفتح (١٠/ ٤١٤).

تنبيه: سقط أول السند من المستدرك ولعل الحاكم أخرج هذا الأثر من طريق عبد الرزاق لأن البيهقي أخرجه من طريق الحاكم عن أبي زكريا العنبري عن محمد بن عبد السلام عن إسحاق بن إبراهيم عن عبد الرزاق به، ثم وجدت الحاكم يسوق أسانيده إلى عبد الرزاق من هذه الطريق كما في (٢/ ٢٦٩-٢٧٧).

خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، وقص الشارب»[١].

* عن ابن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من الفطرة حلق العانة، وتقليم الأظفار، وقص الشارب**»[٢].

* عن عائشة قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء**»، قال زكرياء: (قال مصعب: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة)[٣].

⋆ فوائد الأحاديث:

قال الخطابي: «قوله ﷺ: «**عشر من الفطرة**» فسر أكثر العلماء الفطرة في هذا الحديث بالسنة، وتأويله: إن هذه الخصال من سنن الأنبياء الذين أمرنا أن نقتدي بهم، لقوله سبحانه: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[٤] وأول من أمر بها إبراهيم -صلوات اللَّه عليه-، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾. قال ابن عباس: (أمره بعشر خصال ثم عدهن فلما فعلهن قال: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: ليقتدى بك ويستن بسنتك، وقد أمرت هذه الأمة بمتابعته خصوصًا، وبيان ذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[٥] ويقال أنها كانت عليه فرضًا وهن لنا سنة»[٦].

قال القرطبي: «وهذه الخصال مجتمعة في أنها محافظة على حسن الهيئة والنظافة، وكلاهما يحصل به البقاء على أصل كمال الخلقة التي خلق الإنسان عليها، وبقاء هذه الأمور وترك إزالتها يشوه الإنسان ويقبحه، بحيث يستقذر

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٩-٢٣٩-٢٨٣-٤١٠-٤٨٩) والبخاري (١٠/ ٤١١/ ٥٨٨٩) ومسلم (١/ ٢٢١/ ٢٥٧) وأبو داود (٤/ ٤١٢/ ٤١٩٨) والترمذي (٥/ ٨٥/ ٢٧٥٦) والنسائي (١/ ٢١/ ١١) وابن ماجه (١/ ١٠٦/ ٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ٤٢٧/ ٥٨٩٠) والنسائي (١/ ٢١/ ١٢).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١٣٧) ومسلم (١/ ٢٢٣/ ٢٦١) وأبو داود (١/ ٤٤-٤٥/ ٥٢) والترمذي (٥/ ٨٥/ ٢٧٥٧) والنسائي (٨/ ٥٠١/ ٥٠٥٥) وابن ماجه (١/ ١٠٧/ ٢٩٣).

(٤) الأنعام: الآية (٩٠).

(٥) النحل: الآية (١٢٣).

(٦) معالم السنن (هامش سنن أبي داود ١/ ٤٤-٤٥).

ويجتنب، فيخرج عما تقتضيه الفطرة الأولى، فسميت هذه الخصال فطرة لهذا المعنى والله أعلم اهـ»(١).

جاء في هذه الأحاديث مجموعة من خصال الفطرة، نقل بيانها بإيجاز:

*** الختان:**

قال ابن العربي: «وهو سنة شرعية، وشريعة إبراهيمية، وملة خليلية، أول من اختتن إبراهيم عليه السلام»(٢).

وقال ابن القيم: «الختان من محاسن الشرائع التي شرعها الله سبحانه لعباده، وكمل بها محاسنهم الظاهرة والباطنة، فهو مكمل للفطرة التي فطرهم عليها»(٣).

قال ابن حجر: «قال الماوردي: ختان الذكر قطع الجلدة التي تغطي الحشفة، والمستحب أن تستوعب من أصلها عند أول الحشفة، وأقل ما يجزئ أن لا يبقى منها ما يتغشى به شيء من الحشفة.. قال إمام الحرمين: والمستحق من ختان المرأة ما ينطلق عليه الاسم.

قال الماوردي: ختانها قطع جلدة تكون أعلى فرجها فوق مدخل الذكر كالنواة أو كعرف الديك. والواجب قطع الجلدة المستعلية منه دون استئصاله»(٤).

أول من اختتن إبراهيم عليه السلام.

***** فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم»**(٥).

⋆ غريب الحديث:

القدوم: بالتخفيف: الآلة. وبالتشديد: الموضع.

⋆ فوائد الحديث:

قال أبو عمر: «وأجمع العلماء على أن إبراهيم أول من اختتن، وقال أكثرهم:

(١) المفهم (١/ ٥١١-٥١٢).
(٢) عارضة الأحوذي (١٠/ ٢١٦).
(٣) تحفة المودود (ص: ٣٥١).
(٤) الفتح (١٠/ ٤١٧).
(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٤١٨) والبخاري (٦/ ٤٧٨/ ٣٣٥٦) ومسلم (٤/ ١٨٣٩/ ٢٣٧٠).

الختان من مؤكدات سنن المرسلين، ومن فطرة الإسلام التي لا يسع تركها في الرجال. وقالت طائفة: ذلك فرض واجب لقول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[1]، قال قتادة: هو الاختتان»[2].

* عن أم عطية الأنصارية، أن امرأة كانت تختن بالمدينة، فقال لها النبي ﷺ: «**لا تنهكي؛ فإن ذلك أحظى للمرأة وأحب إلى البعل**»[3].

⋆ غريب الحديث:

لا تنهكي: لا تبالغي في الخفض، والنهك: المبالغة في الضرب والقطع، ونحو ذلك، وقد نهكته الحمى: إذا بلغت منه وأضرت به.

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «ومعنى هذا أن الخافضة إذا استأصلت جلدة الختان؛ ضعفت شهوة المرأة، فقلت حظوتها عند زوجها، كما أنها إذا تركتها كما هي ولم تأخذ منها شيئًا ازدادت غلمتها، فإذا أخذت منها وأبقت، كان في ذلك تعديلًا للخلقة والشهوة، وهذا مع أنه لا ينكر أن يكون قطع هذه الجلدة علمًا على العبودية، فإنك تجد قطع طرف الأذن وكي الجبهة ونحو ذلك في كثير من الرقيق؛ علامة لرقهم وعبوديتهم، حتى إذا أبق رد إلى مالكه بتلك العلامة، فما ينكر أن يكون قطع هذا الطرف علما على عبودية صاحبه لله سبحانه، حتى يعرف الناس أن من كان كذلك فهو من عبيد الله الحنفاء، فيكون الختان علمًا لهذه السنة، التي لا أشرف منها مع ما فيه من الطهارة والنظافة والزينة وتعديل الشهوة»[4].

* **قص الشارب**:

قال القرطبي: «أن يأخذ ما يطول عن إطار الشفة بحيث لا يشوش على الآكل ولا يجتمع فيه الوسخ. والإحفاء والجز في الشارب هو ذلك القص المذكور، وليس بالاستئصال عند مالك وجماعة من العلماء، وهو عنده مثلة يؤدب من فعله،

---

(١) النحل: الآية (١٢٣). (٢) فتح البر (٣/ ١١٩-١٢٠).

(٣) أخرجه: أبو داود (٥/ ٤٢١/ ٥٢٧١) وضعفه، والحديث ذكره الشيخ الألباني في الصحيحة (رقم ٧٢٢) وذكره له طرقًا وشواهد، ثم قال: وبالجملة فالحديث بهذه الطرق والشواهد صحيح، والله أعلم.

(٤) تحفة المودود (ص: ٣٥٦).

إذ قد وجد من يقتدى به من الناس لا يحفون جميعه ولا يستأصلون ذلك. . . وذهب الكوفيون وغيرهم: إلى الاستئصال، تمسكًا بظاهر اللفظ. وذهب بعض العلماء إلى التخيير في ذلك»[١].

قلت: الذي يظهر من فعل الرسول ﷺ هو الإحفاء، فكان ﷺ يضع السواك فيأخذ ما فوقه، وغالب النصوص وظواهرها تبين أن السنة هي الأخذ من الشارب وإحفاؤه، لكن ليس هنا من النصوص ما يدل على تحريم الاستئصال والحلق، فالأولى بالجمال -جمال الرجل- هو الأخذ والإحفاء والإنهاك كما جاء في الحديث، وإن حصل الحلق والاستئصال فلا إنكار لعدم وجود دليل يعتمد عليه في ذلك.

*** إعفاء اللحية:**

قال القرطبي: «هو توفيرها وتكثيرها. . . فلا يجوز حلقها ولا نتفها ولا قص الكثير منها، فأما أخذ ما تطاير منها، وما يشوه ويدعو إلى الشهرة طولًا وعرضًا فحسن عند مالك وغيره من السلف، وكان ابن عمر يأخذ من طولها ما زاد على القبضة»[٢].

قال القاضي: «وكره قصها وحلقها وتحريقها، وقد جاء الحديث بذم فاعل ذلك، وسنة بعض الأعاجم حلقها وجزها وتوفير الشوارب، وهي كانت سيرة الفرس، وأما الأخذ من طولها وعرضها فحسن، ويكره الشهرة في تعظيمها وتحليتها كما تكره في قصها وجزها، وقد اختلف السلف هل لذلك حد؟ فمنهم من لم يحدد، إلا أنه لم يتركها لحد الشهرة ويأخذ منها، وكره مالك طولها جدًا، ومنهم من حدد فما زاد على القبضة فيزال، ومنهم من كره الأخذ منها إلا في حج أو عمرة»[٣].

قلت: حلق اللحية هو من سيئات الغزاة الوافدين على ديار الإسلام، فقد نشروا هذه الخصلة السيئة في كبار الأمة وعليتها، وإلا فقبل وجود الغزاة كان توفير اللحية من الرجولة ومن الشهامة، وحلقها كان عارًا وشنارًا، حتى إن الرجل إذا خاصم

---

(١) المفهم (١/ ٥١٢).
(٢) المفهم (١/ ٥١٢).
(٣) إكمال المعلم (٢/ ٦٣-٦٤).

الرجل توعده -إن لم يفعل ما أمره به- بحلق لحيته، وإن كان هذا أيضًا لا يصح شرعًا؛ فإن السنن والفطرة لا تغير مهما كان الأمر.

فاللحية من الزينة للرجل، ومن الفطرة التي جاءت في الحديث، ومن سنن الأنبياء أجمعين، ولهذا قال هارون لموسى: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي﴾[(١)] فلهذا لم يعرف حلق اللحية إلا عند الأعاجم المتأثرين بالغزاة الغربيين، والحلق أصله من فعل المجوس، ومن قرأ خصال المجوس عبدة النار وجد من بعضها هذا الفعل الشنيع المغير للفطرة، وفاعله متشبه بالنساء اللائي خلقهن اللَّه بدون لحية، فحذار من التأثر بالغزاة والمتملقين لهم، وأشباه الرجال وليسوا برجال، واللَّه المستعان.

* **غسل البراجم:**

قال الخطابي: «وأما غسل البراجم فمعناه تنظيف المواضع التي تتشنج ويجتمع فيها الوسخ، وأصل البراجم العقد التي تكون في ظهور الأصابع»[(٢)].

* **الانتضاح:**

قال ابن حجر: «فقال أبو عبيد الهروي: هو أن يأخذ قليلًا من الماء فينضح به مذاكيره بعد الوضوء، لينفي عنه الوسواس، وقال الخطابي: انتضاح الماء: الاستنجاء به، وأصله من النضح وهو الماء القليل، فعلى هذا هو والاستنجاء خصلة واحدة، وعلى الأول فهو غيره، ويشهد له ما أخرجه أصحاب السنن من رواية الحكم بن سفيان الثقفي أو سفيان بن الحكم عن أبيه أنه رأى رسول اللَّه ﷺ توضأ ثم أخذ حفنة من ماء فانتضح بها[(٣)]..». اهـ[(٤)]

* **نتف الإبط:**

قال النووي: «أما نتف الإبط فسنة بالاتفاق، والأفضل فيه النتف لمن قوي عليه، ويحصل أيضًا بالحلق وبالنورة.. ويستحب أن يبدأ بالإبط الأيمن»[(٥)].

---

(١) طه: الآية (٩٤).

(٢) معالم السنن (هامش سنن أبي داود ١/ ٤٥).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٠) وأبو داود (١/ ١١٧/ ١٦٦) والنسائي (١/ ٩٣/ ١٣٤-١٣٥) وابن ماجه (١/ ١٥٧/ ٤٦١) وفي سنده اضطراب والحديث حسنه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيح أبي داود (١٥٩).

(٤) الفتح (١٠/ ٤١٥).

(٥) شرح مسلم (٣/ ١٢٧).

* **الاستحداد:**

قال النووي: «وأما الاستحداد فهو حلق العانة سمي استحدادًا لاستعمال الحديدة وهي الموسى، وهو سنة؛ والمراد به نظافة ذلك الموضع، والأفضل فيه الحلق، ويجوز بالقص والنتف والنورة، المراد بالعانة الشعر الذي فوق ذكر الرجل وحواليه، وكذلك الشعر الذي حوالي فرج المرأة، ونقل عن أبي العباس بن سريج أنه الشعر النابت حول حلقة الدبر، فيحصل من مجموع هذا استحباب حلق جميع ما على القبل والدبر وحولهما»[(١)].

* **تقليم الأظفار:**

قال النووي: «وأما تقليم الأظفار فسنة ليس بواجب، وهو تفعيل من القلم وهو القطع»[(٢)].

قال ابن حجر: «والمراد إزالة ما يزيد على ما يلابس رأس الأصبع من الظفر؛ لأن الوسخ يجتمع فيه فيستقذر، وقد ينتهي إلى حد يمنع من وصول الماء إلى ما يجب غسله في الطهارة»[(٣)].

قال ابن العربي عن قص الأظفار: «وما أخفها بالافتقاد، فإنه عضو يصرف في منافع البدن، وفي تنظيفه عن الأقذار، فيتلعق بالأظفار جزء مما يباشر من الأجسام في الأعمال، حتى إذا طال الظفر رأيته كأنه هلال ظلمة، أو طوق قلفة سوداء، فلا تطيب النفس على مباشرة الغذاء من المأكل والمشرب». اهـ[(٤)]

* **السواك:**

قال النووي: «قال أهل اللغة: السواك بكسر السين وهو يطلق على الفعل وعلى العود الذي يتسوك به... وهو في اصطلاح العلماء: استعمال عود أو نحوه في الأسنان لتذهب الصفرة وغيرها عنها والله أعلم، ثم إن السواك سنة ليس بواجب في حال من الأحوال؛ لا في الصلاة ولا في غيرها بإجماع..

---

(١) شرح مسلم (٣/ ١٢٧).

(٢) شرح مسلم (٣/ ١٢٧).

(٣) الفتح (١٠/ ٤٢٣).

(٤) عارضة الأحوذي (١٠/ ٢١٧-٢١٨).

ثم إن السواك مستحب في جميع الأوقات، ولكن في خمسة أوقات أشد استحبابًا: أحدها: عند الصلاة، سواء كان متطهرًا بماء أو بتراب أو غير متطهر، كمن لم يجد ماء ولا ترابًا، الثاني: عند الوضوء، الثالث: عند قراءة القرآن، الرابع: عند الاستيقاظ من النوم، الخامس: عند تغير الفم، وتغيره يكون بأشياء منها: ترك الأكل والشرب، ومنها: أكل ماله رائحة كريهة، ومنها: طول السكوت، ومنها: كثرة الكلام، والمستحب أن يستاك بعود متوسط لا شديد اليبس يجرح، ولا رطب لا يزيل، والمستحب أن يستاك عرضًا، ولا يستاك طولًا لئلا يدمي لحم أسنانه، فإن خالف واستاك طولًا حصل السواك مع الكراهة، ويستحب أن يمر السواك أيضًا على طرف أسنانه، وكراسي أضراسه وسقف حلقه إمرارًا لطيفًا، ويستحب أن يبدأ في سواكه بالجانب الأيمن من فيه، ولا بأس باستعمال سواك غيره بإذنه، ويستحب أن يعود الصبي السواك ليعتاده»[1].

*** المضمضة:**

قال أبو عمر: «المضمضمة معروفة، وهي أخذ الماء بالفم من اليد، وتحريكه في الفم هي المضمضمة، وليس إدخال الأصبع ودلك الأسنان بها من المضمضمة في شيء»[2].

قال النووي: «وأما حقيقة المضمضة فقال أصحابنا: كمالها أن يجعل الماء في فمه ثم يديره فيه، ثم يمجه، وأما أقلها فأن يجعل الماء في فيه، ولا يشترط إدارته على المشهور الذي قاله الجمهور»[3].

*** الاستنشاق:**

قال النووي: «وأما الاستنشاق فهو إيصال الماء إلى داخل الأنف وجذبه بالنفس إلى أقصاه، ويستحب المبالغة في المضمضمة والاستنشاق إلا أن يكون صائما. فيكره ذلك لحديث لقيط أن النبي ﷺ قال: «**بالغ في الاستنشاق إلا أن**

---

(١) شرح مسلم (٣/ ١٢١-١٢٢).
(٢) فتح البر (٣/ ٢١٧).
(٣) شرح مسلم (٣/ ٩٠).

تكون صائمًا»[١]»[٢].

*** فرق الشعر:**

* عن ابن عباس ﷺ قال: كان النبي ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه، وكان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم، وكان المشركون يفرقون رءوسهم، فسدل النبي ﷺ ناصيته ثم فرق بعد[٣].

⋆ فوائد الحديث:

قال أبو عمر: «وفيه من الفقه أن الفرق في الشعر سنة، وأنه أولى من السدل؛ لأنه آخر ما كان عليه رسول اللّه ﷺ، وهذا الفرق لا يكون إلا مع كثرة الشعر وطوله. . . والتفريق أن يقسم شعر ناصيته يمينًا وشمالًا فتظهر جبهته وجبينه من الجانبين. والفرق سنة مسنونه. وقد قيل: أنها من ملة إبراهيم وسنته ﷺ»[٤].

* قال أنس: (وقت لنا في قص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة؛ أن لا نترك أكثر من أربعين ليلة)[٥].

⋆ فوائد الحديث:

قال القاضي: «وما في الحديث إنما هو حد في أكثر ذلك، والمستحب تفقد ذلك من الجمعة إلى الجمعة وإلا فلا تحديد فيه عند العلماء، إلا أنه إذا كثر ذلك وطال من شارب أو شعر إبط قصه وأزاله»[٦].

قال النووي: «وأما وقت حلقه فالمختار أنه يضبط بالحاجة وطوله، فإذا طال حلق، وكذلك الضبط في قص الشارب ونتف الإبط وتقليم الأظفار، وأما حديث

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣) وأبو داود (١/ ٩٧-١٠٠/ ١٤٢) والترمذي (٣/ ١٥٥/ ٧٨٨) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (١/ ٧٠/ ٨٧) وابن ماجه (١/ ١٤٢/ ٤٠٧) وصححه ابن خزيمة (١/ ٧٨/ ١٥٠) والحاكم (١/ ١٤٨).

(٢) شرح مسلم (٣/ ٩٠).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٨٧ و ٣٢٠) والبخاري (١٠/ ٤٤٢/ ٥٩١٧) ومسلم (٤/ ١٨١٧/ ٢٣٣٦) وأبو داود (٤/ ٤٠٧-٤٠٨/ ٤١٨٨) والنسائي (٨/ ٥٦٧ و ٥٦٨/ ٥٢٥٣) والترمذي في الشمائل (المختصر ص: ٢٤) وابن ماجه (٢/ ١١٩٩/ ٣٦٣٢).

(٤) فتح البر (٣/ ١٥٥).

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٢-٢٠٣-٢٥٥) ومسلم (١/ ٢٢٢/ ٢٥٨) وأبو داود (٤/ ٢١٣/ ٤٢٠٠) والترمذي (٥/ ٨٦/ ٢٧٥٨ و ٢٧٥٩) والنسائي (١/ ٢٢/ ١٤) وابن ماجه (١/ ١٠٨/ ٢٩٥) من طريق عمران الجوني عن أنس بن مالك ﷺ.

(٦) إكمال المعلم (٢/ ٦٢).

أنس المذكور (وقت لنا . . الحديث)، فمعناه لا يترك تركا يتجاوز به أربعين، لا أنهم وقت لهم الترك أربعين. والله أعلم». اهـ[١]

قال القرطبي: «هذا تحديد أكثر مدة، والمستحب تفقد ذلك من الجمعة إلى الجمعة، وإلا فلا تحديد فيه للعلماء، إلا أنه إذا كثر ذلك أزيل»[٢].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**إنكم محشورون حفاة عراة غرلًا، ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[٣] وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم، وإن أناسًا من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: أصحابي أصحابي، فيقال إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾[٤]**»[٥].

★ غريب الحديث:

غرلًا: الغرل جمع الأغرل، وهو الأقلف، والغرلة القلفة.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «هذا يدل على أن الناس كلهم - الأنبياء وغيرهم - يحشرون عراة كما قال في الحديث المتقدم وأن أهل السعادة يكسون من ثياب الجنة، ولا شك في أن من كسي من ثياب الجنة فقد لبس جبة تقيه مكاره الحشر وعرقه، وحر الشمس والنار وغير ذلك. فظاهر عمومه يقتضي أن إبراهيم يكسى قبل نبينا محمد ﷺ، فيجوز أن يكون هذا من خصائص إبراهيم؛ كما قد خص موسى عليه السلام بأن النبي ﷺ يجده متعلقًا بساق العرش، مع أن النبي ﷺ أول من تنشق عنه الأرض، ولا يلزم من هذا أن يكونا أفضل منه مطلقًا، بل هو أفضل من وافى القيامة، وسيد ولد آدم، ويجوز أن يراد بالناس من عداه من الناس، فلم يدخل تحت خطاب نفسه والله تعالى أعلم». اهـ[٦]

---

(١) شرح مسلم (٣/ ١٢٧).
(٢) المفهم (١/ ٥١٥).
(٣) الأنبياء: الآية (١٠٤).
(٤) المائدة: الآيتان (١١٧ و ١١٨).
(٥) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٣-٢٢٩-٢٣٥-٢٥٣) والبخاري (٦/ ٤٧٦/ ٣٣٤٩) ومسلم (٤/ ٢١٩٤/ ٢٨٦٠[٥٨]) والترمذي (٤/ ٥٣٢/ ٢٤٢٣) و (٥/ ٣٠١/ ٣١٦٧)، والنسائي (٤/ ٤٢٠-٤٢١/ ٢٠٨١).
(٦) المفهم (٧/ ١٥٢-١٥٣).

* عن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: يا خير البرية، فقال رسول اللَّه ﷺ: «ذاك إبراهيم عليه السلام»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال الإمام المازري: «قد ثبت أنه ﷺ أفضل من سائر المرسلين، فيحتمل أن يكون هذا منه ﷺ على جهة التواضع واستثقالًا لأن ينادى بهذا، وقد كان إبراهيم عليه السلام من آبائه ﷺ، ويكره إظهار المطاولة على الآباء، وقد يكون فهم من مناديه هذا المعنى، وأخبر في موضع آخر بكونه سيد ولد آدم غير قاصد التعاظم والتطاول على من تقدمه ﷺ، بل ليبين ما أمره اللَّه -تبارك وتعالى- ببيانه، ولهذا عقب كلامه بأن قال: «**ولا فخر**» ليزيل ما قد يظن بمطلق هذا الكلام إذا أطلقه غيره من الناس، وقد يحتمل قوله: «**ذاك إبراهيم**» قبل أن يوحى إليه بأنه هو خير منه»[٢].

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أولاد المؤمنين في جبل في الجنة، يكفلهم إبراهيم وسارة عليهما السلام حتى يردهم إلى آبائهم يوم القيامة**»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عبد البر: «أجمع المسلمون من أهل السنة وغيرهم إلا المجبرة؛ أن أولاد المؤمنين في الجنة»[٤].

قال ابن حجر: «إنما اختص إبراهيم، عليه السلام؛ لأنه أبو المسلمين. قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾[٦]»[٧].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٧٨-١٨٤) ومسلم (٤/ ١٨٣٩/ ٢٣٦٩) وأبو داود (٥/ ٥٤/ ٤٦٧٢) والترمذي (٥/ ٤١٥/ ٣٣٥٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٢٠/ ١١٦٩٢). كلهم من طريق المختار بن فلفل عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) المعلم (٣/ ١٢٩-١٣٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٦) وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٢/ ٢٣٣) والحاكم (١/ ٣٨٤). وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي من طريق مؤمل بن إسماعيل عن سفيان بن عبدالرحمن عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٢١٩) وقال: «رواه أحمد وفيه عبدالرحمن بن ثابت وثقه المديني وجماعة وضعفه ابن معين وغيره وبقية رجاله ثقات».

(٤) فتح البر (٢/ ٢١٩).

(٥) الحج: الآية (٧٨).

(٦) آل عمران: الآية (٦٨).

(٧) الفتح (١٢/ ٥٥٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

★ **غريب الآية:**

عهدي: أَمَاني. وقيل: المراد به هنا التولية والتمكين. والمعنى: لا أُوَلِّي ولاية شرعية من كان ظالمًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «هذا خبر من اللَّه -جل ثناؤه- عن أن الظالم لا يكون إمامًا يقتدي به أهل الخير. وهو من اللَّه -جل ثناؤه- جواب لما يتوهم في مسألته إياه: أن يجعل من ذريته أئمة مثله. فأخبر أنه فاعل ذلك، إلا بمن كان من أهل الظلم منهم، فإنه غير مصيره كذلك، ولا جاعله في محل أوليائه عنده، بالتكرمة بالإمامة؛ لأن الإمامة إنما هي لأوليائه وأهل طاعته، دون أعدائه والكافرين به»[1].

قال صديق حسن خان: «وقد استدل بهذه الآية جماعة من أهل العلم على أن الإمام لا بد أن يكون من أهل العدل والعمل بالشرع كما ورد؛ لأنه إذا زاغ عن ذلك كان ظالمًا ويمكن أن ينظر إلى ما يصدق عليه اسم العهد وما يفيده الإضافة من العموم فيشمل جميع ذلك اعتبارا بعموم اللفظ من غير نظر إلى السبب ولا إلى السياق، فيستدل به على اشتراط السلامة من وصف الظلم في كل من تعلق بالأمور الدينية»[2].

وقال السعدي: «﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا ينال الإمامة في الدين، من ظلم نفسه وضرها، وحط قدرها، لمنافاة الظلم لهذا المقام، فإنه مقام آلته الصبر واليقين.

ونتيجته أن يكون صاحبه على جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة، والأخلاق الجميلة، والشمائل السديدة، والمحبة التامة، والخشية والإنابة.

فأين الظلم وهذا المقام؟

---

(١) جامع البيان (٣/ ٢٠ تحقيق شاكر).

(٢) فتح البيان (١/ ٢٧٤).

ودل مفهوم الآية، أن غير الظالم، سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها»[١].

قال القرطبي: «استدل جماعة من العلماء بهذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل مع القوة على القيام بذلك، وهو الذي أمر النبي ﷺ ألا ينازعوا الأمر أهله فأما أهل الفسوق والجور والظلم فليسوا له بأهل، لقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ والذي عليه الأكثر من العلماء أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه؛ لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف، وإراقة الدماء، وانطلاق أيدي السفهاء، وشن الغارات على المسلمين، والفساد في الأرض»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب طاعة ولاة الأمر ما لم يأمروا بمعصية

* عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**»[٣].

* عن عبادة بن الصامت قال: (بايعنا رسول اللّه ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنا، ولا نخاف في اللّه لومة لائم)[٤].

★ **فوائد الحديث:**

قال أبو عمر: «وأما قوله: «**وأن لا ننازع الأمر أهله**»، فاختلف الناس في ذلك، فقال قائلون: أهله أهل العدل والإحسان والفضل والدين، فهؤلاء لا ينازعون لأنهم أهله، وأما أهل الجور والفسق والظلم، فليسوا له بأهل، ألا ترى إلى قول اللّه ﷻ لإبراهيم عليه السلام قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي

---

(١) تفسير السعدي (١/ ١٣٦). (٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٧٤-٧٥).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٧) والبخاري (١٣/ ١٥٢/ ٧١٤٤) ومسلم (٣/ ١٤٦٩/ ١٨٣٩) وأبو داود (٣/ ٩٣-٩٤/ ٢٦٢٦) والترمذي (٤/ ١٨٢/ ١٧٠٧) والنسائي (٧/ ١٧٩-١٨٠/ ٤٢١٧) وابن ماجه (٢/ ٩٥٦/ ٢٨٦٤).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤١) والبخاري (١٣/ ٢٣٨/ ٧١٩٩-٧٢٠٠) ومسلم (٣/ ١٤٧٠/ ١٧٠٩) والنسائي (٧/ ١٥٥/ ٤١٦٠) وابن ماجه (٢/ ٩٥٧/ ٢٨٦٦).

ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١] وإلى منازعة الظالم الجائر، ذهبت طوائف من المعتزلة وعامة الخوارج. وأما أهل الحق وهم أهل السنة، فقالوا: هذا هو الاختيار: أن يكون الإمام فاضلا عدلًا محسنًا، فإن لم يكن، فالصبر على طاعة الجائرين من الأئمة أولى من الخروج عليه؛ لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف، ولأن ذلك يحمل على هراقة الدماء وشن الغارات والفساد في الأرض، وذلك أعظم من الصبر على جوره وفسقه، والأصول تشهد والعقل والدين أن أعظم المكروهين أولاهما بالترك، وكل إمام يقيم الجمعة والعيد، ويجاهد العدو ويقيم الحدود على أهل العداء، وينصف الناس من مظالمهم بعضهم لبعض، وتسكن له الدهماء وتأمن به السبل، فواجب طاعته في كل ما يأمر به من الصلاح أو من المباح»[٢].

قلت: لا شك في أن صلاح الإمام من أعظم النعم التي قد يمن اللَّه بها على الأمة من الأمم، فما مرت فترة من التاريخ إلا وكان أئمة العدل رحمة على الأمة، وظلا واقيًا من كل الشرور، استظلت بهم الأمة فكثرت الخيرات، وسالت الوديان واتسعت رقعة الإسلام، وتحدث الناس بالنعم.

وأما ظلم الإمام وجوره وانحرافه فمن أعظم النقم على الأمة، فجوره وظلمه يكون سببًا للقلاقل والاضطراب، ومستجلبًا لغضب اللَّه وسخطه فيكثر القحط وغلاء الأسعار، ويكثر قطاع الطرق، والقتل والسفك، وتعظم البلايا والمصائب، واللَّه المستعان. ومع ذلك يجب الصبر والانقياد فيما فيه طاعة للَّه تعالى واتباع للرسول ﷺ، ولا يجوز الخروج ولا المشاركة في ذلك حتى لا تتضاعف المصائب، ويصبح الناس كما قال القائل: كالمستجير من الرمضاء بالنار، فيتقون الرمضاء ويقعون في النار، فمن تتبع تاريخ الخوارج من بدايته إلى نهايته وجده كله شؤمًا على الأمة، وهكذا كل من خرج على إمام المسلمين؛ فإنه لم يأت بخير، وإنما أتى ببلاء ومصائب وكوارث يرقق بعضها بعضًا. فنسأل اللَّه السلامة والعافية وإذا أراد بأهل الأرض فتنة فليقبضنا إليه غير مفتونين.

* * *

(١) البقرة: الآية (١٢٤).

(٢) فتح البر (١/ ١١١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾(١)

★ **غريب الآية:**

البيت: المنزل والمأوى. والمراد هنا: الكعبة المشرفة.

مثابة: المثابة: المعاد والمرجع. والمراد: مكانًا يثوب الناس إليه مرة بعد مرة. قال الشاعر في الكعبة:

مَثَابًا لأفناءِ القبائلِ كلِّها   تَخُبُّ إليها اليَعْمَلاتُ الذَّوَامِلُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن العربي: «هذا تنبيه من اللَّه تعالى على فضله، وتعديد لنعمه التي منها أن جعل البيت الحرام للعرب عموما ولقريش خصوصًا مثابة للناس؛ أي: معادا في كل عام لا يخلو منهم، يقال: ثاب إلى كذا؛ أي رجع وعاد إليه.

فإن قيل: ليس كل من جاءه عاد إليه. قلنا: لا يختص ذلك بمن ورد عليه، وإنما المعنى أنه لا يخلو من الجملة، ولم يعدم قاصدا من الناس؛ وكذلك جعله -تبارك وتعالى- أمنا يلقى الرجل فيه قاتل وليه فلا يروعه. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾(٢)، وكذلك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾(٣).

وهذا لما كان اللَّه تعالى قد ركب في قلوبهم من تعظيم البقعة وتفضيل الموضع على غيره من الأرض المشابهة له في الصفة، بهذه الخصيصى المعظمة».

وقال: «وقد اختلف العلماء في تفسير الأمن على أربعة أقوال:

الأول: أنه أمن من عذاب اللَّه تعالى في الآخرة، والمعنى أن من دخله معظمًا له، وقصده محتسبًا فيه لمن تقدم إليه. ويعضده ما روي في الصحيح عن النبي ﷺ

(١) البقرة: الآية (١٢٥). (٢) آل عمران: الآية (٩٧).
(٣) العنكبوت: الآية (٦٧).

أنه قال: «**من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**»[١].

الثاني: معناه: من دخله كان آمنا من التشفي والانتقام، كما كانت العرب تفعله فيمن أناب إليه من تركها لحق يكون لها عليه.

الثالث: أنه أمن من حد يقام عليه، فلا يقتل به الكافر، ولا يقتص فيه من القاتل، ولا يقام الحد على المحصن والسارق؛ قاله جماعة من فقهاء الأمصار، ومنهم أبو حنيفة...

الرابع: أنه أمن من القتال؛ لقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**إن اللَّه حبس عن مكة الفيل - أو القتل- وسلط عليها رسوله والمؤمنين، لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار**»[٢].

والصحيح فيه القول الثاني، وهذا إخبار من اللَّه تعالى عن منته على عباده، حيث قرر في قلوب العرب تعظيم هذا البيت، وتأمين من لجأ إليه، إجابة لدعوة إبراهيم ﷺ، حين أنزل به أهله وولده، فتوقع عليهم الاستطالة، فدعا أن يكون أمنًا لهم فاستجيب دعاؤه.

وأما من قال: إنه أمن من عذاب اللَّه تعالى، فإن اللَّه تعالى نبه بجعله مثابة للناس وأمنا على حجته على خلقه، والأمن في الآخرة لا تقام به حجة.

وأما امتناع الحد فيه فقول ساقط؛ لأن الإسلام الذي هو الأصل، وبه اعتصم الحرم، لا يمنع من إقامة الحدود والقصاص؛ وأمر لا يقتضيه الأصل أحرى ألا يقتضيه الفرع.

وأما الأمن عن القتل والقتال فقول لا يصح؛ لأنه قد كان فيه القتل والقتال بعد ذلك ويكون إلى يوم القيامة، وإنما أخبر النبي ﷺ عن التحليل للقتال، فلا جرم لم يكن فيها تحليل قبل ذلك اليوم، ولا يكون لعدم النبوة إلى يوم القيامة، وإنما أخبر

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٩) والبخاري (٣/ ٤٨٧/ ١٥٢١) ومسلم (٢/ ٩٨٣/ ١٣٥٠) والترمذي (٣/ ١٧٦/ ٨١١) والنسائي (٥/ ١٢٠-١٢١/ ٢٦٢٦) وابن ماجه (٢/ ٩٦٤-٩٦٥/ ٢٨٨٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٨) والبخاري (٥/ ١٠٩/ ٢٤٣٤) ومسلم (٢/ ٩٨٨/ ١٣٥٥) وأبو داود (٢/ ٥١٨-٥٢٠/ ٢٠١٧) والترمذي (٤/ ١٤/ ١٤٠٥) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٣٤-٤٣٥/ ٥٨٥٥) من حديث أبي هريرة.

النبي ﷺ عن امتناع تحليل القتال شرعًا لا عن منع وجوده حسًا»[١].

وقال ابن كثير: «ومضمون ما فسر به هؤلاء الأئمة هذه الآية أن اللَّه تعالى يذكر شرف البيت، وما جعله موصوفًا به شرعا وقدرًا من كونه مثابة للناس؛ أي: جعله محلًّا تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه، ولا تقضي منه وطرًا ولو ترددت إليه كل عام، استجابة من اللَّه تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[٢] إلى أن قال: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾[٣] ويصفه تعالى بأنه جعله أمنًا، من دخله أمن ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمنًا، وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: «كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعرض له». كما وصف في سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾[٤] أي: يدفع عنهم بسبب تعظيمها السوء، كما قال ابن عباس: «لو لم يحج الناس هذا البيت لأطبق اللَّه السماء على الأرض». وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولًا وهو خليل الرحمن كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾[٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[٦]»[٧].

وقال السعدي: «﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ أي: مرجعًا يثوبون إليه لحصول منافعهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه ولا يقضون منه وطرًا.

وجعله أمنًا يأمن به كل أحد حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار.

ولهذا كانوا في الجاهلية - على شركهم - يحترمون أشد الاحترام، ويجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه. فلما جاء الإسلام زاده حرمة وتعظيمًا وتشريفًا وتكريمًا»[٨].

* * *

(١) أحكام القرآن (١/ ٣٨-٣٩).

(٢) إبراهيم: الآية (٣٧).

(٣) إبراهيم: الآية (٤٠).

(٤) المائدة: الآية (٩٧).

(٥) الحج: الآية (٢٦).

(٦) آل عمران: الآيتان (٩٦ و ٩٧).

(٧) ابن كثير (١/ ٢٩٥).

(٨) تفسير السعدي (١/ ١٣٦-١٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾

★ **غريب الآية:**

مقام إبراهيم: المقام في اللغة: موضع القدمين والمراد مكان قيامه حين بنائه الكعبة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ وفي (مقام إبراهيم) فقال بعضهم: (مقام إبراهيم) هو الحج كله... وقال آخرون: (مقام إبراهيم) عرفة والمزدلفة والجمار... وقال آخرون: (مقام إبراهيم) الحرم... وقال آخرون: (مقام إبراهيم) الحجر الذي قام عليه إبراهيم حين ارتفع بناؤه، وضعف عن رفع الحجارة... وقال آخرون: بل (مقام إبراهيم) هو مقامه الذي هو في المسجد الحرام... ثم قال: وأولى هذه الأقوال بالصواب عندنا ما قاله القائلون: إن مقام إبراهيم هو المقام المعروف بهذا الاسم الذي هو في المسجد الحرام. واستدل لذلك بحديثي عمر وجابر[١]».

ثم قال: «فهذان الخبران ينبئان أن اللَّه -تعالى ذكره- إنما عنى بـ(مقام إبراهيم) الذي أمرنا اللَّه باتخاذه مصلى هو الذي وصفنا.

ولو لم يكن على صحة ما اخترنا في تأويل ذلك خبر عن رسول اللَّه ﷺ، لكان الواجب فيه من القول ما قلنا. وذلك أن الكلام محمول معناه على ظاهره المعروف، دون باطنه المجهول، حتى يأتي ما يدل على خلاف ذلك، مما يجب التسليم له. ولا شك أن المعروف في الناس بـ(مقام إبراهيم)، هو المصلى الذي قال اللَّه -تعالى ذكره-: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾»[٢].

---

(١) سيأتي ذكرهما في تفسير الآية بالسنة.

(٢) جامع البيان (٣/ ٣٣-٣٧ تحقيق شاكر).

وقال ابن كثير: -بعد أن ذكر الخلاف والآثار في ذلك-: «فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة، وهو واقف عليه كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها، وهكذا حتى تم جدران الكعبة. . . وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفًا تعرفه العرب في جاهليتها، ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافيا غير ناعل

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضًا».

وقال: «عن قتادة: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه. وقد تكلفت هذه الأمة شيئًا ما تكلفته الأمم قبلها، ولقد ذكر لنا من رأى أثر عقبه وأصابعه فيه فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلولق وانمحى؛ (قلت) وقد كان هذا المقام ملصقًا بجدار الكعبة قديمًا ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك، ولهذا والله أعلم، أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباعهم، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ: «**اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر**»[1] وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصلاة عنده، ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة -رضي الله عنهم أجمعين-، قال عبدالرزاق عن ابن جريج: حدثني عطاء وغيره من أصحابنا، قال: أول من نقله عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال عبدالرزاق أيضًا عن معمر، عن حميد الأعرج، عن مجاهد، قال: أول

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٢) والترمذي (٥/ ٥٦٩/ ٣٦٦٢) وقال: «حديث حسن»، والحاكم (٣/ ٧٥) وصححه الذهبي. من حديث حذيفة رضي الله عنه، وفي الباب عن ابن مسعود وأبي الدرداء وأبي قتادة وغيرهم رضي الله عنهم.

من أخر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب ﷺ»[١].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «أمره أن يتخذ من مقام إبراهيم مصلى، وهذا من الخصائص، فيتفطن المؤمن لشبهة المبتدعة؛ لأنه لا يجوز أن يتخذ من مقام غيره مصلى»[٢].

قلت: فرضي الله عن الإمام محمد بن عبد الوهاب المجدد المصلح، حيث نبه على أمر عظيم، وهو عدم مشابهة مقام إبراهيم لغيره من مقامات الأضرحة من حيث اتخاذها مصلّى، لكن -مع الأسف الشديد- قد سارع كثير من الناس إلى الصلاة فيها، مع تواتر النصوص عن النبي ﷺ في النهي عن الصلاة في المقبرة، فالذهاب إلى مقامات الأضرحة للصلاة فيها مخالف لنهي النبي ﷺ، فالهدي هديه والسنة سنته، ومخالفته ﷺ نذير شر لكل مخالف له، ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تعظيم شعائر الله بالتعبد فيها له تعالى خالصًا

* عن أنس قال: (قال عمر: وافقتُ الله في ثلاث أو وافقني ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله؛ لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى، وقلت: يا رسول الله؛ يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب، قال: وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن قلت: إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله ﷺ خيرًا منكن، حتى أتيت إحدى نسائه قالت: يا عمر؛ أما في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت، فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾[٤] الآية)[٥].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٩٨-٢٩٩).
(٢) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ٤٤).
(٣) النور: الآية (٦٣).
(٤) التحريم: الآية (٥).
(٥) أخرجه أحمد (١/ ٢٣-٢٤) والبخاري (٨/ ٢١٣/ ٤٤٨٣). وأخرجه مختصرا: مسلم (٤/ ١٨٦٥/ ٢٣٩٩) والترمذي (٥/ ١٩٠/ ٢٩٦٠) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٦/ ١١٦١١) وابن ماجه (١/ ٣٢٢/ ١٠٠٩) من حديث عمر ﷺ.

★ **فوائد الحديث:**

موافقة عمر ﷺ لربه في مقام إبراهيم:

قال ابن حجر: «قال ابن الجوزي: إنما طلب عمر الاستنان بإبراهيم ﷺ مع النهي عن النظر في كتاب التوراة؛ لأنه سمع قول اللَّه تعالى في حق إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[(١)] وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾[(٢)] فعلم أن الائتمام بإبراهيم من هذه الشريعة، ولكون البيت مضافًا إليه، وأن أثر قدميه في المقام كرقم الباني في البناء ليذكر به بعد موته، فرأى الصلاة عند المقام كقراءة الطائف بالبيت اسم من بناه. انتهى. وهي مناسبة لطيفة. ثم قال: ولم تزل آثار قدمي إبراهيم حاضرة في المقام معروفة عند أهل الحرم، حتى قال أبو طالب في قصيدته المشهورة:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافيًا غير ناعل

وفي «موطإ ابن وهب» عن يونس عن ابن شهاب عن أنس قال: رأيت المقام فيه أصابع إبراهيم وأخمص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم. وأخرج الطبري في تفسيره من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في هذه الآية: إنما أمروا أن يصلوا عنده، ولم يؤمروا بمسحه، قال: ولقد ذكر لنا من رأى أثر عقبه وأصابعه فيها، فما زالوا يمسحونه حتى اخلولق وانمحى[(٣)]، وكان المقام من عهد إبراهيم لزق البيت إلى أن أخره عمر ﷺ إلى المكان الذي هو فيه الآن، أخرجه عبد الرزاق في مصنفه بسند صحيح عن عطاء وغيره، وعن مجاهد أيضًا[(٤)]، وأخرج البيهقي عن عائشة مثله بسند قوي، ولفظه: «أن المقام كان في زمن النبي ﷺ وفي زمن أبي بكر ملتصقًا بالبيت ثم أخره عمر». وأخرج ابن مردويه بسند ضعيف عن مجاهد: أن النبي ﷺ هو الذي حوله، والأول أصح. وقد أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عيينة قال: كان المقام في سقع البيت في عهد رسول اللَّه ﷺ، فحوله عمر، فجاء سيل فذهب به فرده عمر إليه. قال سفيان: لا أدري أكان لاصقًا بالبيت أم لا[(٥)]. انتهى. ولم تنكر الصحابة فعل عمر ولا من جاء بعدهم فصار إجماعا. وكان عمر رأى أن إبقاءه يلزم منه

---

(١) البقرة: الآية (١٢٤).
(٢) النحل: الآية (١٢٣).
(٣) أخرجه ابن جرير (١/ ٥٣٧).
(٤) المصنف (٥/ ٤٨).
(٥) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٢٦-٢٢٧).

التضييق على الطائفين أو على المصلين، فوضعه في مكان يرتفع به الحرج، وتهيأ له ذلك لأنه الذي كان أشار باتخاذه مصلى، وأول من عمل عليه المقصورة الموجودة الآن»[١].

قلت: المقام القائم الآن -مع الأسف- ترى الناس يتمسحون بجدرانه ويفعلون به أفعالا مخالفة للمعتقد الصحيح، فمقام إبراهيم لا علاقة له بتمسح ولا بتقبيل، والذي يقبل هو الحجر الأسود لا غير. كما أن الطواف إنما يكون بالبيت، وما سوى ذلك فهو تحريف وانحراف، فهذا الفعل الغير الشرعي من قبل الأعاجم وجهال العرب هو من أثر الجهل في بلادهم، وتعلقهم بالخرافات والأوثان، والأحجار التي يقبلونها في بلادهم، والمغارات التي يؤمونها ويعبدونها من دون اللّه، فاللهم اهد ضال هذه الأمة.

وقال الحافظ: «قوله: (باب قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾) وقع في روايتنا: ﴿وَاتَّخِذُوا﴾ بكسر الخاء على الأمر وهي إحدى القراءتين، والأخرى بالفتح على الخبر، والأمر دال على الوجوب، لكن انعقد الإجماع على جواز الصلاة إلى جميع جهات الكعبة، فدل على عدم التخصيص، وهذا بناء على أن المراد بمقام إبراهيم الحجر الذي فيه أثر قدميه وهو موجود إلى الآن، وقال مجاهد: المراد بمقام إبراهيم الحرم كله، والأول أصح، وقد ثبت دليله عند مسلم من حديث جابر[٢]»[٣].

* عن عمرو بن دينار قال: (سألنا ابن عمر عن رجل طاف بالبيت للعمرة ولم يطف بين الصفا والمروة، أيأتي امرأته؟ فقال: قدم النبي ﷺ فطاف بالبيت سبعًا، وصلى خلف المقام ركعتين، وطاف بين الصفا والمروة، وقد كان لكم في رسول اللّه أسوة حسنة، وسألنا جابر بن عبد اللّه فقال: لا يقربنها حتى يطوف بين الصفا والمروة)[٤].

---

(١) الفتح (٨/ ٢١٤-٢١٥).

(٢) هو الحديث الطويل في صفة حجة النبي ﷺ، ومحل الشاهد منه قوله: «ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام، فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت» أخرجه مسلم (٢/ ٨٨٦-٨٨٧/ ١٢١٨).

(٣) الفتح (١/ ٦٥٧).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٥) والبخاري (١/ ٦٥٧/ ٣٩٥-٣٩٦) ومسلم (٢/ ٩٠٦/ ١٢٣٤) والنسائي (٥/ ٢٤٧-٢٤٨/ ٢٩٣٠) وابن ماجه (٢/ ٩٨٦/ ٢٩٥٩).

* عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعًا، حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين، ثم قرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[(١)].

★ فوائد الحديثين:

قال النووي: «هذا دليل لما أجمع عليه العلماء أنه ينبغي لكل طائف إذا فرغ من طوافه أن يصلي خلف المقام ركعتي الطواف، واختلفوا هل هما واجبتان أم سنتان، وعندنا فيه خلاف حاصله ثلاثة أقوال:

أصحها: أنهما سنة. والثاني: أنهما واجبتان. والثالث: إن كان طوافًا واجبًا فواجبتان وإلا فسنتان وسواء قلنا واجبتان أو سنتان لو تركهما لم يبطل طوافه، والسنة أن يصليهما خلف المقام، فإن لم يفعل ففي الحجر، وإلا ففي المسجد، وإلا ففي مكة وسائر الحرم، ولو صلاهما في وطنه وغيره من أقاصي الأرض جاز وفاته الفضيلة، ولا تفوت هذه الصلاة ما دام حيًّا»[(٢)].

قال ابن العربي: «ولما قضى النبي ﷺ طوافه مشى إلى المقام المعروف اليوم، وقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وصلى فيه ركعتين، وبين بذلك أربعة أمور:

الأول: أن ذلك الموضع هو المقام المراد في الآية.

الثاني: أنه بين الصلاة وأنها المتضمنة للركوع والسجود لا مطلق الدعاء.

الثالث: أنه عرف وقت الصلاة فيه وهو عقب الطواف وغيره من الأوقات مأخوذ من دليل آخر.

الرابع: أنه أوضح أن ركعتي الطواف واجبتان، فمن تركهما فعليه دم»[(٣)].

* * *

---

(١) أخرجه مسلم مطولا (٢/ ٨٨٦-٨٩٢/ ١٢١٨) والترمذي (٣/ ٢١١/ ٨٥٦) والنسائي (٥/ ٢٥١/ ٢٩٣٩).

(٢) شرح مسلم (٨/ ١٤٢-١٤٣).

(٣) أحكام القرآن (١/ ٤٠).

قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾

★ **غريب الآية:**

عهدنا: أي: وصينا وأمرنا، وقيل: أوحينا.

الطائفين: جمع طائف، من طاف حول الشيء إذا دار من جميع جوانبه وأحاط به، ثم استعير للطائف من الجن والخيال والحوادث.

العاكفين: جمع عاكف، والعكوف: اللبث والإقامة، وقيل: هو الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم. والاعتكاف: شرعًا: اللبث في المسجد بشروطه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فمعني الآية: وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين. (والتطهير) الذي أمرهما الله به في البيت، هو تطهيره من الأصنام، وعبادة الأوثان فيه، ومن الشرك بالله.

فإن قال قائل: وما معنى قوله: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾؟ وهل كان أيام إبراهيم قبل بنائه البيت بيت يطهر من الشرك وعبادة الأوثان في الحرم، فيجوز أن يكونا أمرا بتطهيره؟

قيل: لذلك وجهان من التأويل، قد قال بكل واحد من الوجهين جماعة من أهل التأويل.

أحدهما: أن يكون معناه: وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن ابنيا بيتي مطهرًا من الشرك والريب، كما قال -تعالى ذكره-: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾[1] فكذلك قوله: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ

---

(١) التوبة: الآية (١٠٩).

إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾؛ أي: ابنيا بيتي على طهر من الشرك بي والريب. . . والوجه الآخر منهما: أن يكونا أمرا بأن يطهرا مكان البيت قبل بنيانه، والبيت بعد بنيانه، مما كان أهل الشرك باللَّه يجعلونه فيه على عهد نوح ومن قبله من الأوثان، ليكون ذلك سنة لمن بعدهما، إذ كان اللَّه -تعالى ذكره- قد جعل إبراهيم إمامًا يقتدي به من بعده»(١).

وقال السعدي: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ أي: أوحينا إليهما، وأمرناهما بتطهير بيت اللَّه من الشرك، والكفر والمعاصي، ومن الرجس والنجاسات، والأقذار، ليكون ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ فيه ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: المصلين.

قدم الطواف، لاختصاصه بالمسجد الحرام. ثم الاعتكاف؛ لأن من شرطه، المسجد مطلقًا. ثم الصلاة، مع أنها أفضل، لهذا المعنى. وأضاف الباري البيت إليه لفوائد. منها: أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره، لكونه بيت اللَّه. فيبذلان جهدهما، ويستغرقان وسعهما في ذلك. ومنها: أن الإضافة، تقتضي التشريف والإكرام. ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه. ومنها: أن هذه الإضافة، هي السبب الجالب للقلوب إليه»(٢).

وقال ابن كثير: «والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون باللَّه عند بيته المؤسس على عبادته وحده لا شريك له، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٣) ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد اللَّه وحده لا شريك له إما بطواف أو صلاة، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة: قيامها وركوعها وسجودها، ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ وفي هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين، واكتفى بذكر الركوع والسجود عن القيام؛ لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلا بعد قيام، وفي ذلك أيضًا رد على من لا يحجه من أهل

---

(١) جامع البيان (٣/ ٣٨-٣٩ تحقيق شاكر).

(٢) تفسير السعدي (١/ ١٣٧-١٣٨).

(٣) الحج: الآية (٢٥).

الكتابين اليهود والنصارى؛ لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وإسماعيل، ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة وغير ذلك وللاعتكاف والصلاة عنده، وهم لا يفعلون شيئًا من ذلك، فكيف يكونون مقتدين بالخليل وهم لا يفعلون ما شرع اللَّه له؟ وقد حج البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[١].

وتقدير الكلام إذًا: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ أي: تقدمنا بوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: طهراه من الشرك والريب، وأبنياه خالصًا لله معقلًا للطائفين والعاكفين والركع السجود»[٢].

وقال القرطبي: «لما قال اللَّه تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ دخل فيه بالمعنى جميع بيوته تعالى؛ فيكون حكمها حكمه في التطهير والنظافة. وإنما خص الكعبة بالذكر لأنه لم يكن هناك غيرها، أو لكونها أعظم حرمة؛ والأول أظهر، واللَّه أعلم. وفي التنزيل: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾[٣]»[٤].

وقال ابن كثير: «وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة، ومن قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾[٥] ومن السنة من أحاديث كثيرة من الأمر بتطهيرها وتطييبها وغير ذلك من صيانتها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك»[٦].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الأمر بتطهير المساجد وتنظيفها

* عن أبي هريرة: أن رجلًا أسود -أو امرأة سوداء- كان يقم المسجد، فمات، فسأل النبي ﷺ عنه فقالوا: مات. قال: «**أفلا كنتم آذنتموني به، دلوني على قبره** -أو قال: قبرها- فأتى قبره فصلى عليه»[٧].

(١) النجم: الآية (٤).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٠٢).
(٣) النور: الآية (٣٦).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٧٨).
(٥) النور: الآية (٣٦).
(٦) تفسير ابن كثير (١/ ٣٠٢).
(٧) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٣) والبخاري (١/ ٧٢٧/ ٤٥٨) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٦٥٩/ ٩٥٦) وأبو داود (٣/ ٥٤١/ ٣٢٠٣) وابن ماجه (١/ ٤٨٩/ ١٥٢٨).

★ **غريب الحديث:**

يقم: بقاف مضمومة؛ أي: يجمع القمامة وهي الكناسة.

★ **فوائد الحديث:**

بوب البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ على هذا الحديث: باب كنس المسجد والتقاط الخرق والقذى والعيدان:

قال ابن حجر: «فإن قيل: دل الحديث على كنس المسجد فمن أين يؤخذ التقاط الخرق وما معه؟ أجاب بعض المتأخرين بأنه يؤخذ بالقياس عليه، والجامع التنظيف. قلت: والذي يظهر لي من تصرف البخاري أنه أشار بكل ذلك إلى ما ورد في بعض طرقه صريحًا، ففي طريق العلاء المتقدمة: (كانت تلتقط الخرق والعيدان من المسجد)[(١)]»[(٢)].

وقال الإمام ابن الحاج -في بيان الأمر بتغيير البدع التي أحدثت في المساجد- : «قال رسول اللَّه ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**»[(٣)]، ولا شك أن المسجد وما يفعل فيه من رعية الإمام والمؤذن والقيم إلى غير ذلك ممن له التصرف.

ألا ترى إلى فعله -عليه الصلاة والسلام- حين رأى نخامة في القبلة فحكها بيده، ورؤي منه كراهية، أو رؤي كراهيته لذلك وشدته عليه، وقال: «**إن أحدكم إذا قام يصلي فإنما يناجي ربه، أو ربه بينه وبين القبلة فلا يبزقن في قبلته، ولكن عن يساره أو تحت قدميه**» ثم أخذ طرف ردائه فبزق فيه ورد بعضه على بعض وقال: «**أو يفعل هكذا**»[(٤)]»[(٥)].

ثم قال: «فإذا تقرر أن المسجد من رعية الإمام فيحتاج أن يتفقده، فما كان فيه على منهاج السلف، الماضين أبقاه، وما كان من غير ذلك أزاله برفق وتلطف إن

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (٢/ ٢٧٢/ ١٣٠٠). (٢) الفتح (١/ ٧٢٧-٧٢٨).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٥) والبخاري (٩/ ٣١٦/ ٥١٨٨) ومسلم (٣/ ١٤٥٩/ ١٨٢٩) وأبو داود (٣/ ٣٤٢-٣٤٣/ ٢٩٢٨) والترمذي (٤/ ١٨٠-١٨١/ ١٧٠٥) والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٧٤/ ٩١٧٣) كلهم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه من حديث ابن عمر البخاري (١/ ٦٧٠/ ٤٠٦) ومسلم (١/ ٣٨٨/ ٥٤٧) وأبو داود (١/ ٣٢٣/ ٤٧٩) والنسائي (٢/ ٣٨٣/ ٧٢٣). وفي الباب عن أبي هريرة، وأبي سعيد، وأنس بن مالك، وعائشة رضي الله عنهم.

(٥) المدخل (٢/ ٢٠٧).

قدر على ذلك كما تقدم من فعله -عليه الصلاة والسلام- في النخامة»[١].

قلت: رحم اللَّه الإمام ابن الحاج المالكي ومن سبقه من الأئمة العلماء في العناية بالمساجد حسًّا ومعنًى؛ فالحس العناية بالمسجد في بنائه وهندسته وجدرانه وسقوفه، بحيث لا يكون فيها ما يخالف تعاليم الإسلام من كتابة على الجدران، ومن صور لباني المسجد أو المحسن الذي ينفق عليه، أو أي شيء يخالف هدي رسول اللَّه ﷺ، مع العناية بفرشه، والنظافة المتواصلة حتى لا يتأذى المصلون بالغبار أو الروائح الكريهة، التي تكون نتيجة الإهمال، مع التطييب المستمر الذي يدخل الفرحة والسرور على المصلي، وإن أمكن تكييفه في البلاد الحارة في أيام الصيف أو البلاد الباردة في أيام البرد القارس فأمر محمود، فينبغي أن يكون المسجد في أعلى النماذج في كل الصور المريحة للمصلين.

وينبغي أن يختار له أحسن الأئمة قراءةً وصوتًا وسمتًا، فلا يعين فيه أراذل الناس وأسوؤهم قراءةً وأقبحهم سلوكًا وعقيدةً، فينبغي أن يكون الإمام هو ذاك الشخص الذي وصفه رسول اللَّه ﷺ بأنه أقرأ الناس، وأقرأ الناس في كلام رسول اللَّه ﷺ أفقههم وأعلمهم، فالإمام هو القدوة، وبه يقتدي المصلون، فلا يجوز إحداث البدع التي ألحقها المبتدعة بالمساجد، فهي فتنة للمصلين في صلاتهم، فتحدث لهم من الفتن والقلاقل ما اللَّه به عليم، فالواجب على ولاة أمور المسلمين محو البدع من المساجد وإزالتها، وإقامتها على سنة رسول اللَّه ﷺ.

* * *

---

(١) المدخل (٢/ ٢٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أضطره: الاضطرار: هو حمل المرء على ما يضره أو يكرهه.

المصير: الحال التي يُصَارُ إليها، من صار إلى كذا أي انتهى إليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله: ﴿ءَامِنًا﴾، آمنًا من الجبابرة وغيرهم، أن يسلطوا عليه، ومن عقوبة اللَّه أن تناله كما تنال سائر البلدان، من خسف وائتفاك وغرق، وغير ذلك من سخط اللَّه ومثلاته التي تصيب سائر البلاد غيره... فإن قال لنا قائل: أو ما كان الحرم آمنًا إلا بعد أن سأل إبراهيم ربه له الأمان؟ قيل له: لقد اختلف في ذلك. فقال بعضهم: لم يزل الحرم آمنًا من عقوبة اللَّه وعقوبة جبابرة خلقه، منذ خلقت السموات والأرض... وقال آخرون: كان الحرم حلالًا قبل دعوة إبراهيم كسائر البلاد غيره. وإنما صار حرامًا بتحريم إبراهيم إياه، كما كانت مدينة رسول اللَّه ﷺ حلالًا قبل تحريم رسول اللَّه ﷺ إياها...»

ثم قال: «والصواب من القول في ذلك عندنا: أن اللَّه -تعالى ذكره- جعل مكة حرمًا حين خلقها وأنشأها، كما أخبر النبي ﷺ: «**أنه حرمها يوم خلق السموات والأرض**»، بغير تحريم منه لها على لسان أحد من أنبيائه ورسله، ولكن بمنعه من أرادها بسوء، وبدفعه عنها من الآفات والعقوبات وعن ساكنيها، ما أحل بغيرها وغير ساكنيها من النقمات. فلم يزل ذلك أمرها حتى بوأها اللَّه إبراهيم خليله، وأسكن بها أهله هاجر وولده إسماعيل. فسأل حينئذ إبراهيم ربه إيجاب فرض تحريمها على عباده على لسانه، ليكون ذلك سنة لمن بعده من خلقه يستنون به فيها،

إذ كان -تعالى ذكره- قد اتخذه خليلًا، وأخبره أنه جاعله للناس إمامًا يقتدى به. فأجابه ربه إلى ما سأله، وألزم عباده حينئذ فرض تحريمه على لسانه.

فصارت مكة بعد أن كانت ممنوعة بمنع اللَّه إياها، بغير إيجاب اللَّه فرض الامتناع منها على عباده، ومحرمة بدفع اللَّه عنها، بغير تحريمه إياها على لسان أحد من رسله، فرض تحريمها على خلقه على لسان خليله إبراهيم ﷺ، وواجب على عباده الامتناع من استحلالها، واستحلال صيدها وعضاهها لها بإيجابه الامتناع من ذلك، ببلاغ إبراهيم رسالة اللَّه إليه بذلك إليهم.

فلذلك أضيف تحريمها إلى إبراهيم، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه حرم مكة**»؛ لأن فرض تحريمها الذي ألزم اللَّه عباده على وجه العبادة له به دون التحريم الذي لم يزل متعبدًا لها به على وجه الكِلاءة[1] والحفظ لها قبل ذلك، كان عن مسألة إبراهيم ربه إيجاب فرض ذلك على لسانه، وهو الذي لزم العباد فرضه دون غيره.

فقد تبين إذا بما قلنا صحة معنى الخبرين -أعني خبر أبي شريح وابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن اللَّه حرم مكة يوم خلق الشمس والقمر**»- وخبر جابر وأبي هريرة ورافع بن خديج وغيرهم: أن النبي ﷺ قال: «**اللهم إن إبراهيم حرم مكة**»، وأن ليس أحدهما دافعًا صحة معنى الآخر، كما ظنه بعض الجهال.

وغير جائز في أخبار رسول اللَّه ﷺ أن يكون بعضها دافعًا بعضًا، إذا ثبت صحتها. وقد جاء الخبران اللذان رويا في ذلك عن رسول اللَّه ﷺ، مجيئًا ظاهرًا مستفيضًا يقطع عذر من بلغه.

وأما قول إبراهيم ﷺ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾[2]، فإنه إن يكن قاله قبل إيجاب اللَّه فرض تحريمه على لسانه على خلقه، فإنما عنى بذلك تحريم اللَّه إياه الذي حرمه بحياطته إياه وكلاءته، من غير تحريمه إياه على خلقه على وجه التعبد لهم بذلك، وإن يكن قال ذلك بعد تحريم اللَّه إياه على لسانه على خلقه على وجه التعبد، فلا مسألة لأحد علينا في ذلك»[3].

وقال السعدي: «وإذ دعا إبراهيم لهذا البيت، أن يجعله اللَّه بلدا آمنا، ويرزق

---

(١) بكسر الكاف: الحرس والحفظ.
(٢) إبراهيم: الآية (٣٧).
(٣) جامع البيان (٣/ ٤٤-٥١ تحقيق شاكر).

أهله من أنواع الثمرات.

ثم قيد ﷺ هذا الدعاء للمؤمنين، تأدبًا مع اللَّه، إذ كان دعاؤه الأول، فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيدًا بغير الظالم.

فلما دعا لهم بالرزق، وقيده بالمؤمن، وكان رزق اللَّه شاملًا للمؤمن والكافر، والعاصي والطائع، قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: أرزقهم كلهم، مسلمهم وكافرهم. أما المسلم فيستعين بالرزق على عبادة اللَّه، ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة. وأما الكافر، فيتمتع فيها قليلًا ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ أي: ألجئه وأخرجه مكرها ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحريم مكة والمدينة

* عن جابر قال: قال النبي ﷺ: «**إن إبراهيم حرم مكة، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها، لا يقطع عضاهها، ولا يصاد صيدها**»[(٢)].

* عن رافع بن خديج قال: (قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن إبراهيم حرم مكة، وإني أحرم ما بين لابتيها**»؛ يريد المدينة)[(٣)].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خرجت مع رسول اللَّه ﷺ إلى خيبر أخدمه، فلما قدم النبي ﷺ راجعًا وبدا له أحد، قال: «**هذا جبل يحبنا ونحبه**»، ثم أشار بيده إلى المدينة، قال: «**اللهم إني أحرم ما بين لابتيها كتحريم إبراهيم مكة، اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا**»[(٤)].

* عن عبداللَّه بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة**»[(٥)].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ١٣٨-١٣٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٩٩٢/ ١٣٦٢) والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٨٧-٤٨٨/ ٤٢٨٤).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٤١) ومسلم (٢/ ٩٩١/ ١٣٦١).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ١٤٩-١٥٩-٢٤٠-٢٤٢-٢٤٣) والبخاري (٦/ ١٠٤/ ٢٨٨٩) ومسلم (٢/ ٩٩٣/ ١٣٦٥) والترمذي (٥/ ٦٧٨/ ٣٩٢٢).

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠) والبخاري (٤/ ٤٣٦/ ٢١٢٩) ومسلم (٢/ ٩٩١/ ١٣٦٠).

★ **غريب الحديث:**

لابتيها : اللابتان: الحرتان واحدتها لابة، وهي الأرض الملبسة حجارة سوداء. وللمدينة لابتان شرقية وغربية وهي بينهما، ويقال: لابة ولوبة ونوبة بالنون ثلاث لغات مشهورات، وجمع اللابة في القلة لابات والكثرة لاب ولوب.

عضاهها : العضاه -بالقصر وكسر العين وتخفيف الضاد المعجمة- كل شجر فيه شوك واحدتها عضاهة وعضهة وعضة.

★ **فوائد الأحاديث:**

متى حرمت مكة؟

قوله ﷺ: **(إن هذا البلد حرمه اللّٰه يوم خلق السموات والأرض)**.

قال النووي: «وفي الأحاديث التي ذكرها مسلم بعد هذا أن إبراهيم حرم مكة، فظاهرها الاختلاف، وفي المسألة خلاف مشهور ذكره الماوردي في الأحكام السلطانية وغيره من العلماء في وقت تحريم مكة، فقيل: إنها ما زالت محرمة من يوم خلق اللّٰه السموات والأرض، وقيل: ما زالت حلالًا كغيرها إلى زمن إبراهيم ﷺ، ثم ثبت لها التحريم من زمن إبراهيم، وهذا القول يوافق الحديث الثاني، والقول الأول يوافق الحديث الأول، وبه قال الأكثرون، وأجابوا عن الحديث الثاني بأن تحريمها كان ثابتًا من يوم خلق اللّٰه السموات والأرض، ثم خفي تحريمها واستمر خفاؤه إلى زمن إبراهيم، فأظهره وأشاعه لا أنه ابتدأه، ومن قال بالقول الثاني أجاب عن الحديث الأول بأن معناه: أن اللّٰه كتب في اللوح المحفوظ أو في غيره يوم خلق اللّٰه تعالى السموات والأرض أن إبراهيم سيحرم مكة بأمر اللّٰه تعالى. واللّٰه أعلم»[1].

وقال أبو يعلى الفراء: «وقد اختلف في مكة و ما حولها، هل صارت حراما بسؤال إبراهيم، أو كانت قبله كذلك؟ فمن الناس من قال: لم تزل حرمًا آمنًا من الجبابرة المسلطين، ومن الخسوف والزلازل، وإنما سأل إبراهيم ربه أن يجعله أمنًا من الجدب والقحط، وأن يرزق أهله من كل الثمرات.

---

(١) شرح مسلم (٩/ ١٠٥-١٠٦).

وهذا ظاهر كلام أحمد في رواية الأثرم، وقد سئل عن قول النبي ﷺ «**مكة أحلت لي ساعة من نهار ولم تحل لأحد قبلي**»[1] ما وجهه؟ قال: «وجهه: أنها كانت حرامًا ولم تزل».

فقد نص على أنها لم تزل حرامًا:

«والوجه فيه ما روى سعيد بن أبي سعيد - يعني المقبري - قال: سمعت أبا شريح الخزاعي يقول: «إن رسول اللَّه ﷺ لما افتتح مكة قام خطيبًا، فقال: «**يا أيها الناس، إن اللَّه حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام إلى يوم القيامة، لا يحل لامرئ يؤمن باللَّه واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، أو يعضد بها شجرًا، ألا وإنها لا تحل لأحد بعدي ولم تحل لي إلا هذه الساعة غضبًا على أهلها، ألا وهي قد رجعت على حالها بالأمس، ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فمن قال إن رسول اللَّه ﷺ قاتل بها، فقولوا: إن اللَّه قد أحلها لرسوله، ولم يحلها لك**»[2].

ومن الناس من قال: إن مكة كانت حلالًا قبل دعوة إبراهيم كسائر البلاد، وأنها صارت بدعوته حرمًا آمنًا، حين حرمها، كما صارت المدينة بتحريم رسول اللَّه ﷺ حرما بعد أن كانت حلالًا، لما روى أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن إبراهيم كان عبد اللَّه وخليله، وإني عبداللَّه ورسوله، وإن إبراهيم حرم مكة، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها: عضاهها وصيدها. لا يحمل فيها السلاح لقتال. ولا يقطع فيها شجر إلا لعلف بعير**»»[3].

وقال ابن القيم: «فهذا تحريم شرعي قدري سبق به قدره يوم خلق هذا العالم، ثم ظهر به على لسان خليله إبراهيم، ومحمد -صلوات اللَّه وسلامه عليهما- كما في الصحيح عنه، أنه ﷺ قال: «**اللهم إن إبراهيم خليلك حرم مكة، وإني أحرم المدينة**»، فهذا إخبار عن ظهور التحريم السابق يوم خلق السموات والأرض على لسان إبراهيم، ولهذا لم ينازع أحد من أهل الإسلام في تحريمها، وإن تنازعوا في تحريم المدينة، والصواب المقطوع به تحريمها، إذ قد صح فيه بضعة وعشرون

---

(١) سيأتي قريبا من حديث ابن عباس ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣١) والبخاري (١/ ٢٦٣/ ١٠٤) ومسلم (٢/ ٩٨٧-٩٨٨/ ١٣٥٤) والترمذي (٣/ ١٧٣/ ٨٠٩) والنسائي (٥/ ٢٢٥-٢٢٦/ ٢٨٧٦) من حديث أبي شريح.

(٣) الأحكام السلطانية (١٩٢).

حديثًا عن رسول اللَّه ﷺ لا مطعن فيها بوجه.

ومنها: قوله: **(فلا يحل لأحد أن يسفك بها دمًا)**، هذا التحريم لسفك الدم المختص بها، وهو الذي يباح في غيرها، ويحرم فيها لكونها حرمًا، كما أن تحريم عضد الشجر بها، واختلاء خلائها، والتقاط لقطتها، هو أمر مختص بها، وهو مباح في غيرها، إذ الجميع في كلام واحد، ونظام واحد، وإلا بطلت فائدة التخصيص»[١].

وقال ابن كثير: «فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن اللَّه حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرمها؛ لأن إبراهيم بلغ عن اللَّه حكمه فيها وتحريمه إياها وأنها لم تزل بلدًا حرامًا عند اللَّه قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها، كما أنه قد كان رسول اللَّه ﷺ مكتوبًا عند اللَّه خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، ومع هذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[٢] الآية؛ وقد أجاب اللَّه دعاءه بما سبق في علمه وقدره»[٣].

* قال علي رضي الله عنه: «ما عندنا كتاب نقرؤه إلا كتاب اللَّه غير هذه الصحيفة قال: فأخرجها فإذا فيها أشياء من الجراحات وأسنان الإبل، قال: وفيها: **المدينة حرم ما بين عير إلى ثور؛ فمن أحدث فيها حدثًا، أو آوى محدثًا، فعليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل. ومن والى قومًا بغير إذن مواليه فعليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل. وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلمًا فعليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل**»[٤].

★ غريب الحديث:

عير وثَوْر: جبلان بالمدينة النبوية.

ذمة: المراد بها الأمان.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٤٢-٤٤٣). (٢) البقرة: الآية (١٢٩).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٠٥-٣٠٦).

(٤) أخرجه البخاري (١٢/ ٤٧-٤٨/ ٦٧٥٥)، ومسلم (٢/ ٩٩٤-٩٩٨/ ١٣٧٠).

أخفر: نقض عهده.

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «وقوله: «**فمن أحدث فيها حدثًا**» يعني: من أحدث ما يخالف الشرع من بدعة، أو معصية، أو ظلم، كما قال: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردٌّ**»[١].

وقوله: «**أو آوى محدثًا**» أي: ضمّه إليه، ومنعه ممن له عليه حق، ونصره. ويقال: أوى -بالقصر والمد- متعديًا ولازمًا، والقصر في اللازم أكثر، والمد في المتعدي أكثر.

وقوله: «**فعليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين**» لعنة الله: طرده للملعون، وإبعاده عن رحمته. ولعنة الملائكة والناس: الإبعاد، والدعاء بالإبعاد. وهؤلاء هم اللاعنون، كما قال اللَّه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[٢]. والصرف: التوبة، والعدل: الفدية؛ قاله الأصمعي. وقيل: الصرف: الفريضة، والعدل: التطوع. وعكس ذلك الحسن. وقيل: الصرف: الحيلة والكسب، والعدل: المثل. كما قال اللَّه تعالى: ﴿أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا﴾[٣]»[٤].

* عن أبي هريرة أنه قال: (كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى النبي ﷺ، فإذا أخذه رسول اللَّه ﷺ قال: «**اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، وإني عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه**»، قال: ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر)[٥].

* عن علي بن أبي طالب قال: خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ حتى إذا كنا بحرة السقيا

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٤٠و٢٧٠)، والبخاري (٥/ ٣٧٧/ ٢٦٩٧) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٣٤٣/ ١٧١٨)، وأبو داود (٥/ ١٢/ ٤٦٠٦)، وابن ماجه (١/ ٧/ ١٤).

(٢) البقرة: الآية (١٥٩).

(٣) المائدة: الآية (٩٥).

(٤) المفهم (٣/ ٤٨٧).

(٥) أخرجه مسلم (٢/ ١٠٠٠/ ١٣٧٣) والترمذي (٥/ ٤٧٢/ ٣٤٥٤) والنسائي في الكبرى (٦/ ٨٣/ ١٠١٤٣) وابن ماجه (٢/ ١١٠٥/ ٣٣٢٩).

التي كانت لسعد بن أبي وقاص: فقال رسول اللَّه ﷺ: **«ائتوني بوضوء»**، فتوضأ ثم قام فاستقبل القبلة ثم قال: **«اللهم إن إبراهيم كان عبدك وخليلك، ودعا لأهل مكة بالبركة، وأنا عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في مدهم وصاعهم مثل ما باركت لأهل مكة مع البركة بركتين»**[(١)].

* عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ لمكة: **«ما أطيبك من بلد وأحبك إلي!! ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك»**[(٢)].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم افتتح مكة: **«لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا، فإن هذا بلد حرمه اللَّه يوم خلق السموات والأرض، وهو حرام بحرمة اللَّه إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة اللَّه إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها»**، قال العباس: يا رسول الله! إلا الإذخر؛ فإنه لقينهم ولبيوتهم، قال: قال: **«إلا الإذخر»**[(٣)].

* عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح»**[(٤)].

⋆ فوائد الأحاديث:

قال أبو يعلى الفراء: «والذي يختص به الحرم من الأحكام التي تباين سائر البلاد خمسة أحكام:

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١١٥-١١٦) والترمذي (٥/ ٦٧٤-٦٧٥/ ٣٩١٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٦٧٩-٦٨٠/ ٣٩٢٦). وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وابن حبان (الاحسان ٩/ ٢٣/ ٣٧٠٩) والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦٧-٢٧٠/ ١٠٦٢٤-١٠٦٣٣) والحاكم (١/ ٤٨٦) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي. وفي الباب عن عبداللَّه بن عدي بن الحمراء أخرجه الترمذي (٥/ ٦٧٩/ ٣٩٢٥) وقال: «هذا حديث حسن غريب صحيح»، والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٧٩/ ٤٢٥٢ و ٤٢٥٣) وابن ماجه (٢/ ١٠٣٧/ ٣١٠٨).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٥٩) والبخاري (٤/ ٥٧/ ١٨٣٤) ومسلم (٢/ ٩٨٦-٩٨٧/ ١٣٥٣) وأبو داود (٢/ ٥٢١/ ٢٠١٨) والترمذي (٤/ ١٢٦/ ١٥٩٠) والنسائي (٥/ ٢٢٣-٢٢٥/ ٢٨٧٤).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٣٤٧-٣٩٣) ومسلم (٢/ ٩٨٩/ ١٣٥٦).

أحدها: أن لا يدخله محل قدم إليه حتى يحرم لدخوله، إما بحج أو بعمرة، يتحلل بها من إحرامه؛ إلا أن يكون ممن يكثر الدخول إليها لمنافع أهلها، كالحطابين، والسقايين الذين يخرجون منها غدوة ويعودون إليها عشاء، فيجوز لهم دخولها محلين، لدخول المشقة عليهم في الإحرام كلما دخلوا . . .

الحكم الثاني: أن لا يحارب أهلها، لتحريم رسول اللَّه ﷺ قتالهم بقوله: «**لا يحل لامرئ مسلم يؤمن باللَّه واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا**»[١].

فإن بغوا على أهل العدل قاتلهم على بغيهم إذا لم يمكن ردهم عن البغي إلا بالقتال؛ لأن قتال أهل البغي من حقوق اللَّه التي لا يجوز أن تضاع، وكونها محفوظة في حرمه أولى من أن تكون مضاعة فيه.

فأما إقامة الحدود في الحرم فينظر. فإن أتاها في الحرم أقيمت عليه فيه. وإن أتاها في الحل ثم لجأ إلى الحرم لم يقم عليه فيه، وألجئ إلى الخروج منه بترك مبايعته ومشاراته. فإذا خرج أقيمت عليه.

الحكم الثالث: تحريم صيده على المحرمين والمحلين من أهل الحرم ومن طرأ عليه . . .

الحكم الرابع: تحريم قطع الشجر الذي أنبته اللَّه تعالى فيه، ولا يحرم قطع ما غرسه الآدميون، كما لا يحرم فيه ذبح الأنيس من الحيوان.

ولا يجوز أن يرعى حشيش الحرم . . .

الحكم الخامس: أن يمنع من خالف دين الإسلام من ذمي أو معاهد أن يدخل الحرم، لا مقيما ولا مارا به»[٢].

*** حرمة المدينة:**

قال أبو عمر: «قال ابن مهدي عن مالك: حرم المدينة بريد في بريد؛ يعني من الشجر. قال: واللابتان هما الحرتان. وقال ابن حبيب: اللابة: الحرة، وهي الأرض التي ألبست الحجارة السود الجرد، وجمع اللابة: لابات، فإذا كثرت جدًّا فهي لوب.

---

(١) تقدم قريبا من حديث أبي شريح ﷺ.

(٢) الأحكام السلطانية (١٩٢-١٩٥)

قال: وتحريم النبي ﷺ ما بين لابتي المدينة، إنما يعني في الصيد، فأما في قطع الشجر، فبريد في بريد في دور المدينة كلها محرم، كذلك أخبرني مطرف عن مالك، وعمر بن عبد العزيز. فقول رسول اللَّه ﷺ: «**ما بين لابتيها**» يعني حرتيها الشرقية والغربية، وهي حرار أربع، لكن القبلية والجوفية متصلتان بها، وقد ردها حسان ابن ثابت إلى حرة واحدة لاتصالها فقال:

لنا حرة مأطورة بجبالها بنى العز فيها بيته فتأثلا

قال: وقوله: مأطورة بجبالها يعني: معطوفة بجبالها؛ لاستدارة الجبال بها، وإنما جبالها تلك الحجارة السود التي تسمى الحرار.

قال أبو عمر: وكذلك فسر ابن وهب ما بين لابتيها، قال: ما بين حرتيها، قال: وهو قول مالك. قال ابن وهب: وهذا الذي حرمه رسول اللَّه ﷺ فيها، إنما هو في قتل الصيد، قيل لابن وهب: فما حرمه فيها في قطع الشجر؟ قال: حد ذلك: بريد في بريد، بلغني ذلك عن عمر بن عبد العزيز. وقال ابن نافع: اللابتان هما الحرتان، إحداهما التي ينزل بها الحاج إذا رجعوا من مكة وهي بغربي المدينة، والأخرى مما يليها من شرقي المدينة، قال: فما بين هاتين الحرتين، حرام أن يصاد فيها طير، أو صيد. قال ابن نافع: وحرة أخرى مما يلي قبلة المدينة، وحرة رابعة من جهة الجوف، فما بين هذه الحرار كلها في الدور محرم أن يصاد فيها، ومن فعل ذلك أثم، ولم يكن عليه جزاء ما صاده كما يكون عليه في حرم مكة إذا صاد فيه»[1].

قال شيخ الإسلام: «وكذلك حرم مدينة رسول اللَّه ﷺ، وهو ما بين لابتيها، و(اللابة) هي الحرة، وهي الأرض التي فيها حجارة سود، وهو بريد في بريد، والبريد أربعة فراسخ، وهو من عير إلى ثور، وعير هو جبل عند الميقات يشبه العير، وهو الحمار، وثور هو جبل من ناحية أحد، وهو غير جبل ثور الذي بمكة؛ فهذا الحرم أيضًا لا يصاد صيده ولا يقطع شجره، إلا لحاجة كآلة الركوب، والحرث، ويؤخذ من حشيشه ما يحتاج إليه للعلف، فإن النبي ﷺ رخص لأهل المدينة في هذا لحاجتهم إلى ذلك، إذ ليس حولهم ما يستغنون به عنه، بخلاف الحرم المكي. وإذا

---

(١) المصدر السابق (٩/ ٢٠٣-٢٠٤).

أدخل عليه صيد لم يكن عليه إرساله.

وليس في الدنيا حرم لا بيت المقدس، ولا غيره، إلا هذان الحرمان، ولا يسمى غيرهما حرما كما يسمي الجهال. فيقولون: حرم المقدس، وحرم الخليل، فإن هذين وغيرهما ليسا بحرم باتفاق المسلمين، والحرم المجمع عليه حرم مكة. وأما المدينة فلها حرم أيضًا عند الجمهور، كما استفاضت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ»[١].

قال القرطبي: «وقوله: «**إني أحرم ما بين لابتي المدينة**»... هذا الحديث نص في تحريم صيد المدينة، وقطع شجرها. وهو حجة للجمهور على أبي حنيفة وأصحابه في إباحة ذلك، وإنكارهم على من قال بتحريم المدينة بناء منهم على أصلهم في ردهم أخبار الآحاد فيما تعم به البلوى. وقد تكلمنا معهم في هذا الأصل في باب أحداث الوضوء. ولو سلم لهم ذلك جدلًا، فتحريم المدينة قد انتشر عند أهل المدينة والمحدثين، وناقلي الأخبار، حتى صار ذلك معلوما عندهم، بحيث لا يشكون فيه، والذي قصر بأبي حنيفة وأصحابه في ذلك قلة اشتغالهم بالحديث، ونقل الأخبار، وإلا فما الفرق بين الأحاديث الشاهدة بتحريم مكة، وبين الشاهدة بتحريم المدينة في الشهرة، ولو بحثوا عنها؛ وأمعنوا فيه؛ حصل لهم منها مثل الحاصل لهم من أحاديث مكة»[٢].

قال أبو عمر: «ذكر أبو يحيى الساجي، قال: اختلف العلماء في تفضيل مكة على المدينة: فقال الشافعي: مكة خير البقاع كلها، وهو قول عطاء والمكيين والكوفيين.

وقال مالك والمدنيون: المدينة أفضل من مكة. واختلف البغداديون وأهل البصرة في ذلك: فطائفة تقول: مكة، وطائفة تقول: المدينة. وقال عامة أهل الأثر والفقه: إن الصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجد الرسول ﷺ بمائة صلاة. وروى يحيى بن يحيى عن ابن نافع، أنه سأله عن معنى هذا الحديث فقال: معناه أن الصلاة في مسجد النبي ﷺ أفضل من الصلاة في المسجد الحرام، بدون ألف صلاة، وفي سائر المساجد بألف صلاة.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٦/ ١١٧-١١٨). (٢) المفهم (٣/ ٤٨١).

قال أبو عمر: أما القول في فضل مكة والمدينة، فقد مضى منه في كتابنا هذا ما فيه كفاية. وأما تأويل ابن نافع، فبعيد عند أهل المعرفة باللسان، ويلزمه أن يقول: إن الصلاة في مسجد الرسول ﷺ أفضل من الصلاة في المسجد الحرام بتسعمائة ضعف، وتسعة وتسعين ضعفًا.

وإذا كان هكذا، لم يكن للمسجد الحرام فضل على سائر المساجد، إلا بالجزء اللطيف على تأويل ابن نافع، وحسبك ضعفًا بقول يؤول إلى هذا؛ فإن حدَّ حدًّا في ذلك، لم يكن لقوله دليل ولا حجة، وكل قول لا تعضده حجة ساقط»[1].

قال الحافظ في «الفتح» معلقًا على حديث عبداللَّه بن زيد: «استدل به عن تفضيل المدينة على مكة وهو ظاهر من هذه الجهة، لكن لا يلزم من حصول أفضلية المفضول في شيء من الأشياء ثبوت الأفضلية له على الإطلاق. وأما من ناقض ذلك بأنه يلزم أن يكون الشام واليمن أفضل من مكة لقوله في الحديث الآخر: «**اللهم بارك لنا في شامنا**. وأعادها ثلاثًا»[2] فقد تعقب بأن التأكيد لا يستلزم التكثير المصرح به في حديث الباب. وقال ابن حزم: لا حجة في حديث الباب لهم لأن تكثير البركة بها لا يستلزم الفضل في أمور الآخرة. ورده عياض بأن البركة أعم من أن تكون في أمور الدين أو الدنيا؛ لأنها بمعنى النماء والزيادة، فأما في الأمور الدينية فلما يتعلق بها من حق اللَّه تعالى من الزكاة والكفارات ولا سيما في وقوع البركة في الصاع والمد. وقال النووي: الظاهر أن البركة حصلت في نفس المكيل بحيث يكفي المد فيها من لا يكفيه في غيرها، وهذا أمر محسوس عند من سكنها»[3].

قال أبو عمر: «وهذا من أصح الآثار عن النبي ﷺ، [ثم ساق بسنده إلى] عبد اللَّه بن عدي بن الحمراء، قال: رأيت رسول اللَّه ﷺ وهو واقف على راحلته[4] بالحزورة يقول: «**واللَّه إنك لخير أرض اللَّه، وأحب أرض اللَّه إلى اللَّه، ولولا أني**

---

(١) فتح البر (٩/ ٢١٧-٢١٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١١٨) والبخاري (١٣/ ٥٧/ ٧٠٩٤) والترمذي (٥/ ٦٨٩/ ٣٩٥٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، كلهم من حديث ابن عمر ﭬ.

(٣) فتح الباري (٤/ ١٢٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٠٥)، والترمذي (٥/ ٦٧٩/ ٣٩٢٥) وقال: «حسن غريب صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٠٣٧/ ٣١٠٨)، وابن حبان (الإحسان ٩/ ٢٢/ ٣٧٠٨)، والحاكم (٣/ ٢٨٠، ٤٨١).

أخرجت منك ما خرجت». وهذا قاطع في موضع الخلاف، واللَّه المستعان»[١].

وقال: «فهذا عمر وعلي وابن مسعود وأبو الدرداء وابن عمر وجابر يفضلون مكة ومسجدها، وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم»[٢].

وقال أيضًا: «إنما يحتج بقبر رسول اللَّه ﷺ وبفضائل المدينة وبما جاء فيها عن النبي ﷺ وعن أصحابه على من أنكر فضلها وكرامتها. وأما من أقر بفضلها، وعرف لها موضعها، وأقر أنه ليس على وجه الأرض أفضل بعد مكة منها؛ فقد أنزلها منزلتها، وعرف لها حقها، واستعمل القول بما جاء عن النبي ﷺ في مكة وفيها؛ لأن فضائل البلدان لا تدرك بالقياس والاستنباط، وإنما سبيلها التوقيف. فكل يقول بما بلغه وصح عنده غير حرج. والآثار في فضل مكة عن السلف أكثر، وفيها بيت اللَّه الذي رضي من عباده على الحط لأوزارهم بقصده مرة في العمر»[٣].

قال ابن عبد البر: «دعاء إبراهيم لمكة كان كما قال اللَّه ﷻ عنه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[٤] ولو كان الدعاء بالبركة في صاع المدينة ومدها يدل على فضلها على مكة، لكان كذلك دعاء رسول اللَّه ﷺ بالبركة في الشام واليمن تفضيلًا منه لهما على مكة. وهذا لا يقوله أحد، وأما دعاء إبراهيم ﵇ فهو معنى قول اللَّه ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾»[٥].

* * *

(١) فتح البر (٩/ ٢٢٦-٢٢٧).
(٢) المصدر السابق (٩/ ٢٢٨).
(٣) المصدر السابق (٩/ ٢٣٤-٢٣٥).
(٤) البقرة: الآية (١٢٦).
(٥) فتح البر (٩/ ١٧٦-١٧٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يرفع: أي: يعليها عن مقرها. ونقيض الرفع الخفض في كل شيء.

القواعد: مفردها قاعدة، وهي الأساس والركن، أصلها الثبوت والاستقرار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في (القواعد) التي رفعها إبراهيم وإسماعيل من البيت أهما أحدثا ذلك، أم هي قواعد كانت له قبلهما؟

فقال قوم: هي قواعد بيت كان بناه آدم أبو البشر بأمر اللَّه إياه بذلك، ثم درس مكانه وتعفى أثره بعده، حتى بوأه اللَّه إبراهيم عليه السلام، فبناه وقال آخرون: بل هي قواعد بيت كان اللَّه أهبطه لآدم من السماء إلى الأرض، يطوف به كما كان يطوف بعرشه في السماء، ثم رفعه إلى السماء أيام الطوفان، فرفع إبراهيم قواعد ذلك البيت... وقال آخرون: بل كان موضع البيت ربوة حمراء كهيئة القبة. وذلك أن اللَّه لما أراد خلق الأرض علا الماء زبدة حمراء أو بيضاء، وذلك في موضع البيت الحرام. ثم دحا الأرض من تحتها، فلم يزل ذلك كذلك حتى بوأه اللَّه إبراهيم، فبناه على أساسه. وقالوا: أساسه على أركان أربعة في الأرض السابعة...

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن اللَّه -تعالى ذكره- أخبر عن إبراهيم خليله أنه وابنه إسماعيل، رفعا القواعد من البيت الحرام. وجائز أن يكون ذلك قواعد بيت كان أهبطه مع آدم، فجعله مكان البيت الحرام الذي بمكة. وجائز أن يكون ذلك كان القبة التي ذكرها عطاء، مما أنشأ اللَّه من زبد الماء. وجائز أن يكون كان ياقوتة أو درة أهبطا من السماء. وجائز أن يكون كان آدم بناه ثم انهدم، حتى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل. ولا علم عندنا بأي ذلك كان من أي؛ لأن حقيقة ذلك لا تدرك إلا بخبر عن اللَّه وعن رسوله ﷺ بالنقل المستفيض. ولا خبر بذلك

تقوم به الحجة فيجب التسليم لها، ولا هو -إذ لم يكن به خبر، على ما وصفنا- مما يدل عليه بالاستدلال والمقاييس، فيمثل بغيره، ويستنبط علمه من جهة الاجتهاد. فلا قول في ذلك هو أولى بالصواب مما قلنا. والله تعالى أعلم»[١].

قلت: هذا الذي قرره الإمام ابن جرير في عدم ثبوت خبر ينبئ عن أول من بنى البيت الحرام هو قول من يبني أموره على الدليل الصحيح الواضح، وأمر كبيت الله الحرام وتاريخ بنائه أمر لا ينبغي أن يعتمد فيه على الظن والتخمين، وروايات أهل الكتاب المكذوبة المبنية على الاختلاف. فالله تعالى تولى بيان بناء البيت ومن بناه بآيات صريحات، فلا حاجة إلى الالتفات إلى غيرها، وأسلوب القرآن العربي المتين في سياقته لا ينبغي أن يدخل عليه في سابقه أو لاحقه حتى يقال إن إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ليس لهما إلا مجرد الرفع والتكميل، وإنما البناء كان قبل ذلك، وهذا كله ظن وتخمين، والصحيح ما أخبر الله به في كتابه أن البناء والرفع من أبي الحنفاء وابنه البار إسماعيل -عليهم الصلاة والسلام-.

وقال ابن جرير: «فتأويل الكلام: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل يقولان: ربنا تقبل منا عملنا، وطاعتنا إياك، وعبادتنا لك، في انتهائنا إلى أمرك الذي أمرتنا به، في بناء بيتك الذي أمرتنا ببنائه، إنك أنت السميع العليم.

وفي إخبار الله -تعالى ذكره- أنهما رفعا القواعد من البيت وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم دليل واضح على أن بناءهما ذلك لم يكن مسكنًا يسكنانه، ولا منزلًا ينزلانه، بل هو دليل على أنهما بنياه ورفعا قواعده لكل من أراد أن يعبد الله، تقربًا منهما إلى الله بذلك. ولذلك قالا: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾. ولو كانا بنياه مسكنًا لأنفسهم، لم يكن لقولهما: ﴿تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ وجه مفهوم؛ لأنه كانا يكونان -لو كان الأمر كذلك- سائلين أن يتقبل منهما ما لا قربة فيه إليه. وليس موضعهما مسألة الله قبول ما لا قربة إليه فيه»[٢].

---

(١) جامع البيان (٣/ ٥٧-٦٤ تحقيق شاكر).

(٢) جامع البيان (٣/ ٧٢-٧٣ تحقيق شاكر).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في تاريخ بناء الكعبة وما حصل فيها من الآيات

* عن سعيد بن جبير قال ابن عباس: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقًا لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه؛ استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ حتى بلغ ﴿يَشْكُرُونَ﴾[1] وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه -يتلوى أو قال: يتلبط- فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**فذلك سعي الناس بينهما**» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه -أو قال: بجناحه- حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم -أو قال: لو لم تغرف من الماء- لكانت زمزم عينًا معينًا**». قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة فإن ها هنا بيت الله، يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان

---

(١) إبراهيم: الآية (٣٧).

البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم -أو أهل بيت من جرهم- مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائرًا عائفًا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جريًّا أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك، فقالت: نعم ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: **«فألفى ذلك أم إسماعيل، وهي تحب الأنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشرٍّ، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا، فقال: هل جاءكم من أحد، قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول: غيِّر عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك؟ الحقي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء اللَّه ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة وأثنت على اللَّه، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء»**، قال النبي ﷺ: **«ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه، قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك، ثم لبث عنهم ما شاء**

اللَّه، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلًا له تحت دوحة قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل إن اللَّه أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن اللَّه أمرني أن أبني ها هنا بيتًا وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قال: «**فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان:** ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾»[(١)].

★ **غريب الحديث:**

المنطق: بكسر الميم وسكون النون وفتح الطاء. هو ما يشد به الوسط.

تعفي: يقال عفى اللَّه على أثر فلان وعفا اللَّه عليه. وقفى اللَّه على أثر فلان وقفا عليه بمعنى واحد. وقوله: لتعفي أثرها؛ أي: لتخفي أثرها.

يتلبط: لبط فلان بفلان الأرض يلبط لبطًا مثل لبج به: ضربها به. وتلبط أي اضطجع وتمرغ.

صه: اسم فعل أمر. معناه: اسكت فكأنها خاطبت نفسها فقالت لها: اسكتي.

غواث: بالضم من الإغاثة. وغوث الرجل. واستغاث: صاح واغوثاه والاسم: الغوث والغواث والغواث.

طائرًا عائفًا: هو الذي يحوم على الماء ويتردد ولا يمضي عنه.

أرسلوا جريًا: أي: رسولًا. وقد يطلق على الوكيل وعلى الأجير. وسمي بذلك لأنه يجري مجرى مرسله أو موكله. أو لأنه يجري مسرعًا في حوائجه.

* عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضًا من اللبن فسودته خطايا بني آدم**»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٤٧-٣٤٨) والبخاري (٦/ ٤٨٨-٤٨٩/ ٣٣٦٤) والنسائي في الكبرى (٥/ ١٠٠-١٠١/ ٨٣٧٩).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧-٣٢٩-٣٧٣) والترمذي (٣/ ٢٢٦/ ٨٧٧). وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٥/ ٢٤٩/ ٢٩٣٥) مختصرا، وصححه ابن خزيمة (٤/ ٢١٩-٢٢٠/ ٢٧٣٣).

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«استمتعوا من هذا البيت فقد هدم مرتين، ويرفع في الثالثة»**[1].

* عن جابر بن عبداللَّه رضي الله عنهما قال: «لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء، فقال: **«أرني إزاري»**، فشده عليه»[2].

★ **غريب الحديث:**

طمحت: أي ارتفعت.

* عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال لها: **«ألم تري أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم»**، فقلت: يا رسول الله؛ ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ قال: **«لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت»**[3].

* عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: **«يا عائشة؛ لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين بابًا شرقيًّا وبابًا غربيًّا، فبلغت به أساس إبراهيم»**. فذلك الذي حمل ابن الزبير رضي الله عنهما على هدمه، قال يزيد: وشهدت ابن الزبير حين هدمه وبناه وأدخل فيه من الحجر، وقد رأيت أساس إبراهيم حجارة كأسنمة الإبل، قال جرير: فقلت له: أين موضعه؟ قال: أريكه الآن، فدخلت معه الحجر فأشار إلى مكان فقال: ها هنا، قال جرير: فحزرت من الحجر ستة أذرع أو نحوها[4].

★ **غريب الحديث:**

فحزرت: الحزر: التقدير والخرص.

---

(١) أخرجه البزار (كشف الأستار ٢/ ٣/ ١٠٧٢) وابن خزيمة (٤/ ١٢٨-١٢٩/ ٢٥٠٦) وابن حبان (الاحسان ١٥/ ١٥٣/ ٦٧٥٣) والحاكم (١/ ٤٤١) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٥) والبخاري (٣/ ٥٦٠/ ١٥٨٢) ومسلم (١/ ٢٦٧/ ٣٤٠).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١٧٧) والبخاري (٣/ ٥٦٠/ ١٥٨٣) ومسلم (٢/ ٩٦٨/ ١٣٣٣) وأبو داود (٢/ ٤٤٠/ ١٨٧٥) والنسائي (٥/ ٢٣٥-٢٣٦/ ٢٩٠٠).

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ٢٣٩) والبخاري (٣/ ٥٦١/ ١٥٨٦) ومسلم (٢/ ٩٦٨/ ١٣٣٣) والترمذي (٣/ ٢٢٤-٢٢٥/ ٨٧٥) والنسائي (٥/ ٢٣٧/ ٢٩٠٣).

★ **فوائد الأحاديث:**

قال ابن كثير: «يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء -عليه أفضل صلاة وتسليم-، أنه بنى البيت العتيق الذي هو أول مسجد وضع لعموم الناس يعبدون اللَّه فيه، وبوأه اللَّه مكانه؛ أي: أرشده إليه ودله عليه»[١].

وقال: «والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع في واد غير ذي زرع، ودعا لأهلها بالبركة، وأن يرزقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار، وأن يجعله حرمًا محرمًا وآمنًا محتمًا، فاستجاب اللَّه -وله الحمد- له مسألته، ولبى دعوته، وأتاه طلبته، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾[٣] وسأل اللَّه أن يبعث فيهم رسولًا منهم؛ أي: من جنسهم وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية سعادة الأولى والأخرى. وقد استجاب اللَّه له فبعث فيهم رسولًا وأي رسول، ختم به أنبياءه ورسله، وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحدا قبله، وعم بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم في سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة، وكان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء لشرفه في نفسه، وكمال ما أرسل به، وشرف بقعته، وفصاحة لغته، وكمال شفقته على أمته، ولطفه ورحمته وكريم محتده، وعظيم مولده وطيب مصدره ومورده، ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان باني الكعبة لأهل الأرض أن يكون منصبه ومحله وموضعه في منازل السموات، ورفيع الدرجات عند البيت المعمور، الذي هو كعبة أهل السماء السابعة، المبارك المبرور، الذي يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم البعث والنشور»[٤].

وقال: «وقد كانت على بناء الخليل مدة طويلة، ثم بعد ذلك بنتها قريش فقصرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلي الشام على ما هي عليه اليوم. وفي الصحيحين من حديث مالك عن ابن شهاب عن سالم أن عبداللَّه بن محمد بن

---

(١) البداية والنهاية (١/ ١٥٣).
(٢) العنكبوت: الآية (٦٧).
(٣) القصص: الآية (٥٧).
(٤) البداية والنهاية (١/ ١٥٤-١٥٥).

أبي بكر أخبر ابن عمر عن عائشة، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ألم تري إلى قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم**»، فقلت: يا رسول الله؛ ألا تردها على قواعد إبراهيم، فقال: «**لولا حدثان قومك**»، وفي رواية: «**لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية** -أو قال: **بكفر**-؛ **لأنفقت كنز الكعبة في سبيل اللَّه، ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها الحجر**». وقد بناها ابن الزبير رَحِمَهُ اللَّهُ في أيامه على ما أشار إليه رسول اللَّه ﷺ حسبما أخبرته خالته عائشة أم المؤمنين عنه، فلما قتله الحجاج في سنة ثلاث وسبعين كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك، فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه، فأمر بردها إلى ما كانت عليه، فنقضوا الحائط الشامي وأخرجوا منها الحجر، ثم سدوا الحائط وردموا الأحجار في جوف الكعبة، فارتفع بابها الشرقي، وسدوا الغربي بالكلية كما هو مشاهد إلى اليوم، ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين، ندموا على ما فعلوا وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك. ثم لما كان في زمن المهدي بن المنصور استشار الإمام مالك بن أنس في ردها على الصفة التي بناها ابن الزبير، فقال له: إني أخشى أن يتخذها الملوك لعبة؛ يعني: كلما جاء ملك بناها على الصفة التي يريد، فاستقر الأمر على ما هي عليه اليوم»[١].

قال أبو عمر: «في هذا الحديث -يعني: حديث عائشة- من العلم، أن قريشًا بنت الكعبة ولم تتمها على قواعد إبراهيم. وقوله ﷺ لعائشة: **ألم تري إلى قومك، ولولا حدثان قومك بالكفر**. إنما عنى بذلك قريش لبنيانهم الكعبة. قال اللَّه ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾[٢]. وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[٣] قال المفسرون: يعني قريشا، والقواعد أساس البيت، قال اللَّه ﷻ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾[٤] قال أهل اللغة: الواحدة منها قاعدة، قالوا: والواحد من النساء قاعد.

وفيه حديث الرجل مع أهله في باب العلم وغيره من أيام الناس. وفيه أن رسول اللَّه ﷺ لم يستلم الركنين اللذين يليان الحجر قال الشافعي: وذلك فيما نرى

(١) البداية والنهاية (١/ ١٥٥).
(٢) الأنعام: الآية (٦٦).
(٣) الزخرف: الآية (٤٤).
(٤) البقرة: الآية (١٢٧).

واللَّه أعلم لأنهما كسائر البيت الذي لا يستلم ولأنهما ليسا بركنين على حقيقة، لما لم يكونا تامين على قواعد إبراهيم»[١].

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

ذو السويقتين: تثنية سويقة وهي تصغير ساق؛ أي: له ساقان دقيقان.

* عن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**كأني به أسود أفحج يقلعها حجرًا حجرًا**»[٣].

★ **غريب الحديث:**

أفحج: الفحج تباعد ما بين الساقين.

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج**»[٤].

★ **فوائد الأحاديث:**

قال الحافظ: «قيل: هذا الحديث يخالف قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾[٥] ولأن اللَّه حبس عن مكة الفيل ولم يتمكن أصحابه من تخريب الكعبة ولم تكن إذ ذاك قبلة، فكيف يسلط عليها الحبشة بعد أن صارت قبلة للمسلمين؟ وأجيب بأن ذلك محمول على أنه يقع في آخر الزمان قرب قيام الساعة، حيث لا يبقى في الأرض أحد يقول: اللَّه اللَّه كما ثبت في صحيح مسلم: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض اللَّه الله**»[٦] ولهذا وقع في رواية سعيد بن سمعان: «**لا يعمر بعده أبدا**» وقد وقع قبل ذلك فيه من القتال وغزو أهل الشام له في زمن يزيد بن معاوية ثم

(١) فتح البر (٨/ ٤٤١).
(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٥٧٩/ ١٥٩١) ومسلم (٤/ ٢٢٣٢/ ٢٩٠٩) والنسائي (٥/ ٢٣٧/ ٢٩٠٤).
(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٨) والبخاري (٣/ ٥٨٧/ ١٥٩٥).
(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٢٧) والبخاري (٣/ ٥٨٠/ ١٥٩٣) وابن خزيمة (٤/ ١٢٩/ ٢٥٠٧).
(٥) العنكبوت: الآية (٦٧).
(٦) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٧) ومسلم (١/ ١٣١/ ١٤٨) والترمذي (٤/ ٤٢٦-٤٢٧/ ٢٢٠٧) من حديث أنس ﷺ.

من بعده في وقائع كثيرة من أعظمها وقعة القرامطة بعد الثلاثمائة فقتلوا من المسلمين في المطاف من لا يحصى كثرة، وقلعوا الحجر الأسود فحولوه إلى بلادهم ثم أعادوه بعد مدة طويلة، ثم غزي مرارًا بعد ذلك، كل ذلك لا يعارض قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾[1] لأن ذلك إنما وقع بأيدي المسلمين فهو مطابق لقوله ﷺ: «**ولن يستحل هذا البيت إلا أهله**»[2]، فوقع ما أخبر به النبي ﷺ، وهو من علامات نبوته، وليس في الآية ما يدل على استمرار الأمن المذكور فيها. والله أعلم»[3].

وقال القرطبي: «ولا يعارض هذا قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[4]؛ لأن تخريب الكعبة على يدي هذا الحبشي إنما يكون عند خراب الدنيا، ولعل ذلك في الوقت الذي لا يبقى إلا شرار الخلق، فيكون حرما آمنا مع بقاء الدين وأهله، فإذا ذهبوا ارتفع ذلك المعنى.

قلت: وتحقيق الجواب عن ذلك أنه لا يلزم من قوله تعالى: ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أن يكون ذلك دائمًا في كل الأوقات؛ بل: إذا حصلت له حرمة وأمن في وقت ما، فقد صدق اللفظ وصح المعنى، ولا يعارضه ارتفاع ذلك المعنى في وقت آخر، فإن قيل: فقد قال النبي ﷺ: «**إن الله أحل لي مكة ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها إلى يوم القيامة**». قلنا: أما الحكم بالحرمة والأمن فلم يرتفع، ولا يرتفع إلى يوم القيامة إذ لم ينسخ ذلك بالإجماع، وأما وقوع الخوف فيها وترك حرمتها فقد وجد ذلك كثيرًا، ويكفيك بعوث يزيد بن معاوية، وجيوش عبدالملك، وقتال الحجاج لعبد الله بن الزبير وغير ذلك مما جرى لها، وما فعل فيها من إحراق الكعبة ورميها بحجارة المنجنيق»[5].

* * *

(١) العنكبوت: الآية (٦٧).

(٢) أخرجه من حديث سعيد بن سمعان عن أبي هريرة: أحمد (٢/ ٢٩١) وصححه ابن حبان (١٥/ ٢٣٩/ ٦٨٢٧) والحاكم (٤/ ٤٥٣) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» وتعقبه الذهبي بقوله: «ما أخرجا لابن سمعان شيئًا».

(٣) الفتح (٣/ ٥٨٩).

(٤) العنكبوت: الآية (٦٧).

(٥) المفهم (٧/ ٢٤٦).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝١٢٨﴾

★ غريب الآية:

مُسْلِمَيْن: أصل الإسلام الانقياد والخضوع لأمر الله ﷻ.

مناسكنا: المناسك جمع منسك بفتح السين وكسرها، وهي عبادات الحج وأماكنها، وأصل النُّسُكِ العبادة مطلقا من حج وغيره. ثم غلب عليه، ومنه: تَنَسَّكَ فلان وَنَسَكَ بمعنى: تَعَبَّدَ، فهو نَسِيك ونَاسِك. قال الأعشى:

وذا النُّصُبِ المنصوب لَاتَنْسُكَنَّهُ ... ولا تَعبُدِ الشيطانَ واللهَ فَاعْبُدَا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا أيضًا خبر من اللَّه -تعالى ذكره- عن إبراهيم وإسماعيل: أنهما كانا يرفعان القواعد من البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾، يعنيان بذلك: واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك في الطاعة أحدا سواك، ولا في العبادة غيرك... وأما قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، فإنهما خصا بذلك بعض الذرية؛ لأن اللَّه -تعالى ذكره- قد كان أعلم إبراهيم خليله ﷺ قبل مسألته هذه، أن من ذريته من لا ينال عهده لظلمه وفجوره. فخصا بالدعوة بعض ذريتهما»[١].

وقال: «وخرج هذا الكلام من قول إبراهيم وإسماعيل على وجه المسألة منهما ربهما لأنفسهما. وإنما ذلك منهما مسألة ربهما لأنفسهما وذريتهما المسلمين. فلما ضما ذريتهما المسلمين إلى أنفسهما، صارا كالمخبرين عن أنفسهما بذلك. وإنما قلنا إن ذلك كذلك، لتقدم الدعاء منهما للمسلمين من ذريتهما قبل في أول الآية، وتأخره بعد في الآية الأخرى. فأما الذي في أول الآية فقولهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا

(١) جامع البيان (٣/ ٧٣-٧٤ تحقيق شاكر).

مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ ، ثم جمعا أنفسهما والأمة المسلمة من ذريتهما ، في مسألتهما ربهما أن يريهم مناسكهم فقالا : ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ . وأما التي في الآية التي بعدها : ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[١] ، فجعلا المسألة لذريتهما خاصة»[٢] .

وقال: «أما (التوبة)، فأصلها الأوبة من مكروه إلى محبوب. فتوبة العبد إلى ربه، أوبته مما يكرهه اللَّه منه، بالندم عليه، والإقلاع عنه، والعزم على ترك العود فيه. وتوبة الرب على عبده: عوده عليه بالعفو له عن جرمه، والصفح له عن عقوبة ذنبه، مغفرة له منه، وتفضلا عليه.

فإن قال لنا قائل: وهل كان لهما ذنوب فاحتاجا إلى مسألة ربهما التوبة؟

قيل: إنه ليس أحد من خلق اللَّه، إلا وله من العمل -فيما بينه وبين ربه- ما يجب عليه الإنابة منه والتوبة. فجائز أن يكون ما كان من قيلهما ما قالا من ذلك، إنما خصا به الحال التي كانا عليها، من رفع قواعد البيت؛ لأن ذلك كان أحرى الأماكن أن يستجيب اللَّه فيها دعاءهما، وليجعلا ما فعلا من ذلك سنة يقتدى بها بعدهما، وتتخذ الناس تلك البقعة بعدهما موضع تنصل من الذنوب إلى اللَّه. وجائز أن يكونا عنيا بقولهما: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾، وتب على الظلمة من أولادنا وذريتنا -الذين أعلمتنا أمرهم- من ظلمهم وشركهم، حتى ينيبوا إلى طاعتك. فيكون ظاهر الكلام على الدعاء لأنفسهما، والمعني به ذريتهما. كما يقال: (أكرمني فلان في ولدي وأهلي، وبرني فلان)، إذا بر ولده.

وأما قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، فإنه يعني به: إنك أنت العائد على عبادك بالفضل، والمتفضل عليهم بالعفو والغفران -الرحيم بهم، المستنقذ من تشاء منهم برحمتك من هلكته، المنجي من تريد نجاته منهم برأفتك من سخطك»[٣].

وقال ابن عطية: «واختلف في معنى طلبهم التوبة وهم أنبياء معصومون، فقالت طائفة: طلبا التثبيت والدوام، وقيل: أرادا من بعدهما من الذرية كما تقول برني فلان وأكرمني وأنت تريد في ولدك وذريتك، وقيل وهو الأحسن عندي: إنهما لما عرفا المناسك وبنيا البيت وأطاعا أرادا أن يسنا للناس أن ذلك الموقف وتلك المواضع

---

(١) البقرة: الآية (١٢٩).
(٢) جامع البيان (٣/ ٨٠ تحقيق شاكر).
(٣) جامع البيان (٣/ ٨١-٨٢ تحقيق شاكر).

مكان التنصل من الذنوب وطلب التوبة. وقال الطبري: إنه ليس أحد من خلق اللَّه تعالى إلا وبينه وبين اللَّه تعالى معان يحب أن تكون أحسن مما هي.

وأجمعت الأمة على عصمة الأنبياء في معنى التبليغ ومن الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة، واختلف في غير ذلك من الصغائر، والذي أقول به أنهم معصومون من الجميع، وأن قول النبي ﷺ: «**إني لأتوب إلى اللَّه في اليوم وأستغفره سبعين مرة**»[1] إنما هو رجوعه من حالة إلى أرفع منها لتزيد علومه واطلاعه على أمر اللَّه، فهو يتوب من المنزلة الأولى إلى الأخرى، والتوبة هنا لغوية»[2].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «.. **الرابعة**: طلبهما أن يرزقهما اللَّه الإسلام وهما هما؛ والغفلة عن هذه الكلمة من العجائب.

الخامسة: إشراكهما في الدعوة بعض الذرية، ففيها رغوب المؤمن وحرصه على صلاح ذريته.

السادسة: طلبهما أن يعلمهما المناسك، ففيهما حرصهما على العمل بالنص مع عصمتهما.

السابعة: طلبهما أن يتوب عليهما وهما هما؛ ففيهما خوفهما من الذنوب.

الثامنة: التوسل بالصفات.

التاسعة: التعليل بكونه ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ولولا ذلك لاستحقا العقوبة.

العاشرة: الرد على المشركين وأهل الكتاب.

الحادية عشرة: أن دعوتهما بهذه النعمة، التي هي أعظم النعم للذرية، جعلها الذرية من أعظم المصائب»[3].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ لم يبين هنا من هذه الأمة التي أجاب اللَّه بها دعاء نبيه إبراهيم وإسماعيل. ولم يبين هنا

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٨٢) والبخاري (١١/ ١٢١/ ٦٣٠٧) والترمذي (٥/ ٣٥٧/ ٣٢٥٩) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٣٦). وأخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٥٤/ ٣٨١٥) بمعناه. كلهم من حديث أبي هريرة.

(٢) المحرر الوجيز (١/ ٢١١-٢١٢).

(٣) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ٤٦-٤٧).

أيضًا: هذا الرسول المسئول الذي بعثه فيهم من هو؟ ولكنه يبين في سورة الجمعة أن تلك الأمة العرب، والرسول هو سيد الرسل محمد ﷺ. وذلك في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾[1] لأن الأميين العرب بالإجماع. والرسول المذكور نبينا محمد ﷺ إجماعًا. ولم يبعث رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل إلا نبينا محمد ﷺ وحده.

وثبت في الصحيح أنه هو الرسول الذي دعا به إبراهيم ولا ينافي ذلك عموم رسالته ﷺ إلى الأسود والأحمر»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أحسن الدعاء

* عن أبي هريرة: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة؛ إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «هذه الثلاث الخصال إنما جرى عملها بعد الموت على من نسبت إليه؛ لأنه تسبب في ذلك، وحرص عليه، ونواه. ثم إن فوائدها متجددة بعده دائمة فصار كأنه باشرها بالفعل، وكذلك حكم كل ما سنه الإنسان من الخير فتكرر بعده»[4].

وقال الطيبي: «والمعنى: إذا مات الإنسان لا يكتب له بعده أجر أعماله؛ لأنه جزاء العمل، وهو ينقطع بموته إلا فعلًا دائم الخير، مستمر النفع، مثل وقف أرض، أو تصنيف كتاب، أو تعليم مسألة يعمل بها، أو ولد صالح وكل منها يلحق أجره إليه. وإنما جعل «ولد صالح» من جنس العمل لأنه هو السبب في وجوده، وسبب لصلاحه بإرشاده إلى الهدى، كما جعل نفس العمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ

---

(١) الجمعة: الآيتان (٢ و ٣). (٢) أضواء البيان (١/ ٨٥-٨٦).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٢) ومسلم (٣/ ١٢٥٥/ ١٦٣١) وأبو داود (٣/ ٣٠٠/ ٢٨٨٠) والترمذي (٣/ ٦٦٠/ ١٣٧٦) والنسائي (٦/ ٥٦١-٥٦٢/ ٣٦٥٣) والبخاري في الأدب المفرد (٣٨).

(٤) المفهم (٤/ ٥٥٤).

عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾[١] وأما فائدة القيد بالولد يدعو له، مع أن الغير من المسلمين لو دعا له لنفعه أيضًا فزيادة للبيان، وتحريض للولد على الدعاء، وأنه كالواجب عليه»[٢].

وقال القاضي: «وذلك لأن عمل الميت منقطع بموته، لكن هذه الأشياء لما كان هو سببها من اكتسابه الولد، وبثه العلم عند من حمله فيه، أو إيداعه تأليفًا بقي بعده، وإيقافه هذه الصدقة -بقيت له أجورها ما بقيت ووجدت»[٣].

* * *

(١) هود: الآية (٤٦).

(٢) شرح المشكاة (٢/ ٦٦٣-٦٦٤).

(٣) الإكمال (٥/ ٣٧٣).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

العزيز: الغالب الممتنع على من يريده بالقهر والغلبة. واللَّه تعالى قاهر فوق عباده، ونقيض العزّ: الذّل. وعَزَّ المرءُ يَعِزُّ عِزًّا وعِزَّةً: إذا صار عزيزًا. وفي المثل: «من عزّ بزّ»؛ أي: من غلب سَلَبَ.

الحكيم: أي ذو الحكمة والحكم الذي أحسن الصنع وأحكم التدبير، أصله المنع. ومنه سميت حَكَمَةُ اللجام؛ لأنها تمنع الفرس من الجري والذهاب في غير قصد. قال جرير:

أبني حنيفةَ أَحْكِمُوا سُفهاءكم ... إني أخاف عليكم أن أغضبا

أي: امنعوهم من الفساد. والحِكمة من هذا؛ لأنها تمنع صاحبها من الجهل. وأَحْكَمَ الشيءَ: أتقَنَهُ ومنعه من الخروج عما يريد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى إخبارًا عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم، أن يبعث اللَّه فيهم رسولًا منهم، أي من ذرية إبراهيم، وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر اللَّه السابق في تعيين محمد -صلوات اللَّه وسلامه عليه- رسولًا في الأميين إليهم إلى سائر الأعجمين من الإنس والجن»[1].

وقال القاسمي: «هذا إخبار عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث اللَّه فيهم رسولًا منهم، أي من ذرية إبراهيم، وهم العرب من ولد إسماعيل. وقد أجاب اللَّه تعالى لإبراهيم عليه السلام هذه الدعوة، فبعث في ذريته رسولًا منهم، وهو محمد، ﷺ،

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٢٤).

إلى الناس كافة. وقد أخبر ﷺ عن نفسه أنه دعوة إبراهيم. ومراده هذه الدعوة»[١].

وقال ابن جرير: «ثم اختلف أهل التأويل في معنى (الحكمة) التي ذكرها اللَّه في هذا الموضع. فقال بعضهم: هي السنة... وقال بعضهم: (الحكمة): هي المعرفة بالدين والفقه فيه... والصواب من القول عندنا في (الحكمة) أنها العلم بأحكام اللَّه التي لا يدرك علمها إلا ببيان الرسول ﷺ، والمعرفة بها، وما دل عليه ذلك من نظائره. وهو عندي مأخوذ من (الحكم) الذي بمعنى الفصل بين الحق والباطل، بمنزلة (الجلسة والقعدة) من (الجلوس والقعود)، يقال منه: إن فلانًا لحكيم بين الحكمة؛ يعني به: إنه لبين الإصابة في القول والفعل.

وإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: ربنا وابعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياتك، ويعلمهم كتابك الذي تنزله عليهم، وفصل قضائك وأحكامك التي تعلمه إياها»[٢].

وقال السعدي: «﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾ أي: في ذريتنا ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ ليكون أرفع لدرجتهما، ولينقادوا له، وليعرفوه حقيقة المعرفة. ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ لفظًا، وحفظا، وتحفيظا ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ معنى. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بالتربية على الأعمال الصالحة والتبري من الأعمال الردية، التي لا تزكى النفس معها. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: القاهر لكل شيء، الذي لا يمتنع على قوته شيء. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها. فبعزتك وحكمتك، ابعث فيهم هذا الرسول. فاستجاب اللَّه لهما، فبعث اللَّه هذا الرسول الكريم، الذي رحم اللَّه به ذريتهما خاصة، وسائر الخلق عامة: ولهذا قال -عليه الصلاة والسلام-: «**أنا دعوة أبي إبراهيم**»»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن النبي ﷺ دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام

* عن أبي أمامة قال: قلت يا رسول الله! ما كان أول بدء أمرك؟ قال: «**دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه**

(١) محاسن التأويل (٢/ ٢٥٧).

(٢) جامع البيان (٣/ ٨٦-٨٨ تحقيق شاكر).

(٣) تفسير السعدي (١/ ١٤٠).

قصور الشام»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**دعوة أبي إبراهيم**»

قال أحمد البنا: «والمعنى أنه أراد بدء أمره بين الناس واشتهار ذكره فذكر دعوة إبراهيم الذي تنسب إليه العرب، وكان يشاركه في هذا الدعاء ابنه إسماعيل، ولم يوجد نبي من العرب بعد إسماعيل سوى نبينا ﷺ، ثم بشرى عيسى الذي هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، ويستفاد من هذا أن من بينهما من الأنبياء بشروا به أيضًا، أما في الملأ الأعلى فقد كان أمره مشهورًا مذكورًا معلومًا من قبل خلق آدم عليه السلام»[٢].

مسألة: ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة العزة لله ﷻ

* عن أبي هريرة قال: (قال أناس: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «**هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟**» قالوا: لا يا رسول الله! قال: «**هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟**» قالوا: لا يا رسول اللَّه، قال: «**فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك يجمع اللَّه الناس فيقول: من كان يعبد شيئًا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم اللَّه في غير الصورة التي يعرفون فيقول: أنا ربكم فيقولون: نعوذ باللَّه منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه، فيأتيهم اللَّه في الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه ويضرب جسر جهنم**، قال رسول اللَّه ﷺ: «**فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذ اللهم سلم سلم، وبه كلاليب مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك السعدان؟**» قالوا: بلى يا رسول اللَّه، قال: «**فإنها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا اللَّه، فتخطف الناس بأعمالهم، منهم الموبق**

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٢) والطيالسي (١١٤٠) وابن سعد في الطبقات (١/ ١٠٢) والطبراني في الكبير في (٨/ ١٧٥/ ٧٧٢٩). وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٢) وقال: «رواه أحمد بإسناد حسن له شواهد تقويه ورواه الطبراني».

(٢) الفتح الرباني (٢٠/ ١٨١).

بعمله، ومنهم المخردل ثم ينجو، حتى إذا فرغ اللَّه من القضاء بين عباده، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يخرج ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله؛ أمر الملائكة أن يخرجوهم، فيعرفونهم بعلامة آثار السجود، وحرم اللَّه على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيخرجونهم قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء يقال له: ماء الحياة، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل، ويبقى رجل منهم مقبل بوجهه على النار: فيقول: يا رب قد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها، فاصرف وجهي عن النار، فلا يزال يدعو اللَّه فيقول: لعلك إن أعطيتك أن تسألني غيره فيقول: لا، وعزتك لا أسألك غيره، فيصرف وجهه عن النار، ثم يقول بعد ذلك: يا رب قربني إلى باب الجنة، فيقول: أليس قد زعمت أن لا تسألني غيره، ويلك ابن آدم ما أغدرك! فلا يزال يدعو، فيقول: لعلي إن أعطيتك ذلك تسألني غيره، فيقول: لا، وعزتك لا أسألك غيره، فيعطي اللَّه ما شاء من عهود ومواثيق أن لا يسأله غيره، فيقربه إلى باب الجنة، فإذا رأى ما فيها سكت ما شاء اللَّه أن يسكت، ثم يقول: رب أدخلني الجنة، ثم يقول: أو ليس قد زعمت أن لا تسألني غيره ويلك يا ابن آدم ما أغدرك! فيقول: يا رب لا تجعلني أشقى خلقك، فلا يزال يدعو حتى يضحك، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها، فإذا دخل فيها قيل: تمنَّ من كذا فيتمنى، ثم يقال له تمن من كذا فيتمنى، حتى تنقطع به الأماني، فيقول له: هذا لك ومثله معه»، قال أبو هريرة: وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولًا)[1].

★ **غريب الحديث:**

تضارون: بضم أوله وبالضاد المعجمة وتشديد الراء، بصيغة المفاعلة من الضرر، وأصله تضاررون بكسر الراء وبفتحها؛ أي: لا تضرون أحدًا ولا يضركم بمنازعة ولا مجادلة ولا مضايقة، وجاء بتخفيف الراء من الضير، وهو لغة في الضر؛ أي: لا يخالف بعضهم بعضًا فيكذبه وينازعه فيضيره بذلك.

الطواغيت: جمع طاغوت وهو الشيطان والصنم، ويكون جمعًا ومفردًا

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٧٥-٢٧٦) والبخاري (١١/ ٥٤٣-٥٤٤/ ٦٥٧٣-٦٥٧٤) ومسلم (١/ ١٦٣-١٦٧/ ١٨١) وأبو داود (٥/ ٩٨-٩٩/ ٤٧٣٠) والنسائي (٢/ ٥٧٨-٥٧٩/ ١١٣٩).

ومؤنثًا، وقال الطبري: الصواب عندي أنه كل طاغ طغى على اللَّه يعبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبد، وإما بطاعة ممن عبد إنسانًا كان أو شيطانًا أو حيوانًا أو جمادًا.

الكلاليب: جمع كلوب: حديدة معوجة الرأس.

شوك السعدان: بالسين والعين المهملتين بلفظ التثنية، والسعدان جمع سعدانة وهو نبات ذو شوك يضرب به المثل في طيب مرعاه قالوا: مرعى ولا كالسعدان.

الموبق: المهلك.

المخردل: معناه أن كلاليب النار تقطعه فيهوي في النار.

امتحشوا: امتحش: بفتح المثناة والمهملة وضم المعجمة؛ أي: احترقوا. والمحش: احتراق الجلد وظهور العظم.

قشبني ريحها: قشبه الدخان إذا ملأ خياشيمه وأخذ يكظمه، وأصل القشب خلط السم بالطعام يقال: قشبه إذا سمه، ثم استعمل فيما إذا بلغ الدخان والرائحة الطيبة منه غايته.

* عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول: «**أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون**»[١].

* عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**لا يزال يلقى فيها** ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[٢] **حتى يضع فيها رب العالمين قدمه فينزوي بعضها إلى بعض، ثم تقول: قد قد، بعزتك وكرمك، ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشئ اللَّه لها خلقًا فيسكنهم فضل الجنة**»[٣].

★ **فوائد الأحاديث:**

فيها إثبات صفة العزة لله تعالى، وهي من صفات الذات والعزة والعز هي الرفعة والامتناع، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾[٤] أي: الغلبة والعزة، وقد وصف اللَّه تعالى نفسه بالعزيز في آيات عدة منها قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾[٥].

---

(١) أحمد (١/ ٣٠٢) والبخاري (١٣/ ٤٥٦/ ٧٣٨٣) ومسلم (٤/ ٢٠٨٦/ ٢٧١٧) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٩٩/ ٧٦٨٤).

(٢) ق: الآية (٣٠).

(٣) أحمد (٣/ ١٤١) والبخاري (١٣/ ٤٥٦/ ٧٣٨٤) ومسلم (٤/ ٢١٨٧/ ٢٨٤٨) والترمذي (٥/ ٣٦٤/ ٣٢٧٢).

(٤) المنافقون: الآية (٨).

(٥) آل عمران: الآية (٤).

قال السعدي: «العزيز الذي له العزة كلها: عزة القوة وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، دانت له الخليقة، وخضعت لعظمته»[١].

* * *

---

(١) في مقدمة تفسيره.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾[١]

★ **غريب الآية:**

يرغب: أي: يميل عنها إلى غيرها من الملل والنحل. يقال: رغبت عنه في الكراهة، ورغبت فيه في المحبة والإرادة.

سفه: السفه خفة في البدن، ومنه قيل: زمام سفيه، كثير الاضطراب، وثوب سفيه: رديء النسج، واستعمل في خفة النفس لنقصان العقل، وفي الأمور الدنيوية والأخروية، فقيل: سفه نفسه، وأصله سفهت نفسه فصرف عنه الفعل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾، وأي الناس يزهد في ملة إبراهيم، ويتركها رغبة عنها إلى غيرها؟

وإنما عنى اللّه بذلك اليهود والنصارى، لاختيارهم ما اختاروا من اليهودية والنصرانية على الإسلام؛ لأن (ملة إبراهيم) هي الحنيفية المسلمة، كما قال -تعالى ذكره-: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾[٢]، فقال -تعالى ذكره- لهم: ومن يزهد عن ملة إبراهيم الحنيفية المسلمة إلا من سفه نفسه... عن قتادة قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾، رغب عن ملته اليهود والنصارى، واتخذوا اليهودية والنصرانية، بدعة ليست من اللّه، وتركوا ملة إبراهيم يعني الإسلام حنيفا؛ كذلك بعث اللّه نبيه محمدا ﷺ بملة إبراهيم... فمعنى الكلام: وما يرغب عن ملة إبراهيم الحنيفية، إلا سفيه جاهل بموضع حظ نفسه فيما ينفعها، ويضرها في معادها»[٣].

---

(١) البقرة: الآية (١٣٠).

(٢) آل عمران: الآية (٦٧).

(٣) جامع البيان (٣/ ٨٩-٩٠ تحقيق شاكر).

وقال ابن كثير: «يقول -تبارك وتعالى- ردًّا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله، المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء، فإنه جرد توحيد ربه -تبارك وتعالى- فلم يدع معه غيره ولا أشرك به طرفة عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٤] ولهذا وأمثاله قال تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ أي: ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال حيث خالف طريق من اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنه إلى أن اتخذه الله خليلًا، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته، واتبع طريق الضلالة والغي، فأي سفه أعظم من هذا؟ أم أي ظلم أكبر من هذا؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[٥] قال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود، أحدثوا طريقًا ليست من عند الله، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٦]»[٧].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾[٨] الآية لم يبين هنا ما ملة إبراهيم وبينها بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ

---

(١) الأنعام: الآيتان (٧٨ و ٧٩).
(٢) الزخرف: الآيتان (٢٦ و ٢٧).
(٣) التوبة: الآية (١١٤).
(٤) النحل: الآيات (١٢٠-١٢٢).
(٥) لقمان: الآية (١٣).
(٦) آل عمران: الآيتان (٦٧ و ٦٨).
(٧) تفسير ابن كثير (١/ ٣٢٥-٣٢٦).
(٨) البقرة: الآية (١٣٠).

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[١] فصرح في هذه الآية بأنها دين الإسلام الذي بعث اللَّه به نبيه محمدا ﷺ. وكذا في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾[٢] الآية»[٣].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «هي من جوامع الكلم وأظهر البراهين. فنذكر شيئًا منها:

الأولى: أنه بين أن ملة إبراهيم هي الإسلام، ومنه تعظيم البيت وحجه، ومع إقرار علماء أهل الكتاب لذلك يرغبون عنه. وهذه مسألة مهمة:

يدل عليه قوله ﷺ: **«من رغب عن سنتي فليس مني»**[٤].

الثانية: أن أكثر الناس رغبوا عن اسم الإسلام، وعندهم لا فضيلة فيه، ولابد عندهم من نسبة دين خاصة.

الثالثة: أعجب من ذلك أنهم لا يعرفون معنى الإسلام، وعندهم لا فضيلة فيه، بل هذا عندهم صورة لا معنى لها.

الرابعة: أعجب من الجميع أنهم إذا بين لهم معناه، اشتد إنكارهم لذلك مع قراءة هذه الآية وأمثالها.

الخامسة: التي سيق الكلام لأجلها أنك إذا عرفت ملته، فالواجب الاتباع، لا مجرد الإقرار مع المرغوب عنها.

السادسة: أن من فعل ذلك لم يضر إلا نفسه.

السابعة: أن ذلك في غاية الجهل والسفه الواضح، مع ادعائهم الكمال في العلم.

الثامنة: كيف يطلب أفضل من طريقه، واللَّه سبحانه هو الذي اصطفاه، ووعده في الآخرة ما وعده بسبب طريقه»[٥].

قلت: لا شك في أن ملة إبراهيم عليه السلام هي التوحيد الخالص، ودعوته -عليه

---

(١) الأنعام: الآية (١٦١). (٢) النحل: الآية (١٢٣).

(٣) أضواء البيان (١/ ٨٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٤١) والبخاري (٩/ ١٢٩/ ٥٠٦٣) ومسلم (٢/ ١٠٢٠/ ١٤٠١) والنسائي (٦/ ٣٦٨-٣٦٩/ ٣٢١٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٥) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ٤٨-٤٩).

وعلى نبينا الصلاة والسلام- واضحة في موقفه وأقواله التي ذكرها اللَّه في كتابه، فعدول اليهود والنصارى عن دعوته وعقيدته -ومعهم العرب الذين هم على بقايا من دينه- سفه وانحراف. فعيسى عليه السلام لو بعث فيهم لقاتلهم على الصليب الذي اخترعوه وزعموه، وموسى عليه السلام لو بعث فيهم لقاتلهم على ادعائهم البنوة لعزير، وإبراهيم عليه السلام لو بعث في العرب لقاتلهم على عبادة الأصنام؛ فالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يحيي بعضهم دعوة بعض ويعلنها وينشرها، ولا يناقض بعضهم دعوة بعض، فدعوة الأنبياء كلها إلى التوحيد، فمن زعم غير ذلك فهو من أسفه الخلق، فلا صليب ولا عزير ولا معبود من حجارة أو كواكب أو شجر، أو حي أو ميت أو قبر أو ضريح، فكل ذلك من السفه الذي لا معنى له إلا العبث، والدخول في الشرك الأكبر الذي قال اللَّه فيه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾[1]، فقصة إبراهيم عليه السلام هي الالتزام بكتب اللَّه وسنن الأنبياء جميعًا -عليهم الصلاة والسلام-، كل أمة حسب دعوة نبيها إليها، فمخالفة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في الأصول والفروع هو أسفه السفه وأعظم الحمق، فضلًا عن أن توضع قوانين وضعية تنسخ بها دعوات الأنبياء وشرائعهم -عليهم الصلاة والسلام-، فكل هذا من الحمق والسفه واختيار سبل الضلال على سبيل الرشاد، فنرجو اللَّه أن يجعلنا على سبيل الرشاد، وأن يجنبنا سبل الغواية والانحراف.

* * *

(١) المائدة: الآية (٧٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

اصطفيناه: اخترناه واجتبيناه: مشتق من الصَّفْوِ، وهو الخلوص من الشوب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا خبر من اللَّه -تعالى ذكره- عن أن من خالف إبراهيم فيما سن لمن بعده، فهو لله مخالف، وإعلام منه خلقه أن من خالف ما جاء به محمد ﷺ، فهو لإبراهيم مخالف. وذلك أن اللَّه -تعالى ذكره- أخبر أنه اصطفاه لخلته، وجعله للناس إماما، وأخبر أن دينه كان الحنيفية المسلمة. ففي ذلك أوضح البيان من اللَّه -تعالى ذكره- عن أن من خالفه فهو لله عدو، لمخالفته الإمام الذي نصبه اللَّه لعباده».

وقال: «فأخبر -تعالى ذكره- عن إبراهيم خليله، أنه في الدنيا صفي، وفي الآخرة ولي، وأنه وارد موارد أوليائه الموفين بعهده»[1].

قال القاسمي: «وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ أي اخترناه من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة، وتكثير الأنبياء من نسله، وإعطاء الخلة، وإظهار المناسك عليه، وجعل بيته آمنًا، ذا آيات بينات إلى يوم القيامة. ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين لهم الدرجات العلى، وفي هذا أكبر تفخيم لرتبة الصلاح، حيث جعله من المتصفين بها، فهو حقيق بالإمامة، لعلو رتبته عند اللَّه تعالى في الدارين، ففي ذلك أعظم ترغيب في اتباع دينه، والاهتداء بهديه. وأشد ذم لمن خالفه.

---

(١) جامع البيان (٣/ ٩١-٩٢ تحقيق شاكر).

قال الراغب: إن قيل: كيف وصفه بالاصطفاء في الدنيا، وبالصلاح في الآخرة، والنظر يقتضي عكس ذلك. فإن الصلاح وصف يرجع إلى الفعل، وذلك يكون في الدنيا، والاصطفاء حال يستحقه العبد بكونه صالحًا، فحقه أن يكون في الآخرة؟ قيل: الاصطفاء ضربان، أحدهما كما قلت، والآخر في الدنيا، وهو اختصاص اللَّه بعض العبيد بولايته ونبوته بخصوصية فيه، وهو المعني بقوله: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَٰهُ﴾[1]، والصلاح، وإن اعتبر بأحوال الدنيا، فمجازى به في الآخرة، فبين تعالى أنه مجتبى في الدنيا لما علم اللَّه من حكمته فيه، ومحكوم له في الآخرة، بصلاحه في الدنيا، تنبيها أن الثواب في الآخرة لم يستحقه باصطفائه في الدنيا، وإنما استحقه بصلاحه فيها. ويجوز أن يكون قوله: ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: في أفعال الآخرة لمن الصالحين. ويجوز أنه عنى بقوله: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ حال بقائه، و﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: حال وفاته، ويكون الإشارة بصلاحه إلى الثناء الحسن عليه، الذي رغب إلى اللَّه تعالى فيه بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾[2] ويجوز أنه لما كان الناس ثلاثة أضرب: ظالم، ومقتصد، وسابق، عبر عن السابق بالصالح، فكل سابق إلى طاعة اللَّه ورحمته صالح. انتهى... ﴿إِذْ﴾ أي: اصطفيناه لأنه ﴿قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ أي: لربك، أي: انقد له، وأخلص نفسك له، أو استقم على الإسلام، واثبت على التوحيد. ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وظاهر النظم الكريم أن القول حقيقيّ، وليس في ذلك مانع، ولا ما جاء ما يوجب تأويله. وقول بعضهم: هو تمثيل، والمعنى أخطر بباله دلائل التوحيد المؤدية إلى المعرفة الداعية إلى الإسلام - ليس بشيء. ولا معنى لحمل شيء من الكلام على المجاز، إذا أمكنت فيه الحقيقة بوجه ما»[3].

* * *

---

(١) النحل: الآية (١٢١).

(٢) الشعراء: الآية (٨٤).

(٣) محاسن التأويل (٢/ ٢٦١-٢٦٣).

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾[١]

★ **غريب الآية:**

وصّى: ويقال أيضًا: أَوْصَى. بمعنى: أمر وعهد. والأولى أبلغ من الثانية؛ لأنها لا تكون إلا مرارًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «وفي هذه الآية انتقال إلى إشراك أهل الكتاب وغيرهم من العالمين مع العرب في التذكير والإرشاد إلى الإسلام ولذلك ذكرت وصية يعقوب، واختلف الأسلوب، فقد كان جاريًا على طريقة الإيجاز، فانتقل إلى طريقة الإطناب والإلحاح، لما تقدم الإلماع إليه من مراعاة (الأولى) في خطاب العرب (والثانية) في خطاب أهل الكتاب، الذين لا يكتفون بالإشارة والعبارة المختصرة لجمود أذهانهم واعتيادهم على التأويل والتحريف. وفصل بين العاطف والمعطوف بالمفعول، ولم يقل: ووصى بها إبراهيم ويعقوب بنيهما، لئلا يتوهم أن الوصية كانت منهما في وقت واحد أو أنها خاصة بأبنائهما معًا وهم أولاد يعقوب على نحو ما تقدم في تفسير ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[٢].

ذكر ملة إبراهيم وحكم الراغب عنها ووصيته بنيه بها ووصية حفيده يعقوب بنيه بها أيضًا، وذلك يشعر بأن بني إبراهيم كانوا يوصون بما أوصاهم أبوهم، فإن يعقوب أخذ الوصية عن أبيه إسحاق. وذلك من ضروب الإيجاز الدقيقة»[٣].

* * *

---

(١) البقرة: الآية (١٣٢).

(٢) البقرة: الآية (١٢٨).

(٣) تفسير المنار (١/ ٤٧٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ إيجاز بليغ، وذلك أن المقصود منه أمرهم بالإسلام والدوام عليه، فأتى ذلك بلفظ موجز يقتضي المقصود ويتضمن وعظًا وتذكيرًا بالموت، وذلك أن المرء يتحقق أنه يموت ولا يدري متى؟ فإذا أمر بأمر لا يأتيه الموت إلا وهو عليه، فقد توجه من وقت الأمر دائبا لازما، وحكى سيبويه فيما يشبه هذا المعنى قولهم: لا أرينك ها هنا، وليس إلى المأمور أن يحجب إدراك الأمر عنه، فإنما المقصود: اذهب وزل عن هاهنا، فجاء بالمقصود بلفظ يزيد معنى الغضب والكراهية، و ﴿وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ابتداء وخبر في موضع الحال»[١].

وقال ابن كثير: «أي: أحسنوا في حال الحياة، والزموا هذا ليرزقكم اللّه الوفاة عليه، فإن المرء يموت غالبًا على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى اللّه الكريم عادته بأن من قصد الخير وفق له ويسر عليه، ومن نوى صالحًا ثبت عليه. وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»[٢] لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وبعمل أهل النار فيما يبدو للناس، وقد قال اللّه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾

---

(١) المحرر الوجيز (١/ ٢١٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٢) والبخاري (٦/ ٣٧٣/ ٣٢٠٨) ومسلم (٤/ ٢٠٣٦/ ٢٦٤٣) وأبو داود (٥/ ٨٢-٨٣/ ٤٧٠٨) والترمذي (٤/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٢١٣٧) وابن ماجه (١/ ٢٩/ ٧٦) وأخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٦/ ١١٢٤٦) دون ذكر محل الشاهد. كلهم من حديث ابن مسعود ﷺ.

فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾(١)»(٢).

باب: ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن العاقل يسأل حسن الخاتمة، ولا يغتر بظواهر كبر الآمال

* عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول اللَّه ﷺ إلى عسكره ومال الآخرون إلى عسكرهم -وفي أصحاب رسول اللَّه ﷺ رجل لا يدع لهم شاذة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه- فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان، فقال رسول اللَّه ﷺ: **«أما إنه من أهل النار!!»** فقال رجل من القوم: أنا صاحبه، قال: فخرج معه كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه، قال: فجرح الرجل جرحًا شديدًا، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: أشهد أنك رسول اللَّه، قال: **«وما ذاك؟»** قال الرجل: الذي ذكرت آنفًا أنه من أهل النار، فأعظم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت في طلبه، ثم جرح جرحًا شديدًا، فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه في الأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فقال رسول اللَّه ﷺ عند ذلك: **«إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة»**(٣).

⋆ **غريب الحديث:**

لا يدع لهم شاذة: الشاذ والشاذة: الخارج والخارجة عن الجماعة ومعناه أنه لا يدع أحدًا على طريق المبالغة، قال ابن الأعرابي: يقال فلان لا يدع شاذة ولا فاذة إذا كان شجاعًا لا يلقاه أحد إلا قتله.

⋆ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «وقوله: (فأعظم الناس ذلك) أي: عظموه، وكبر عليهم، وإنما

---

(١) الليل: الآيات (٥-١٠). (٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٢٦-٣٢٧).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣١-٣٣٢) والبخاري (٦/ ١١١-١١٢/ ٢٨٩٨) ومسلم (١/ ١٠٦/ ١١٢).

كان ذلك لأنهم نظروا إلى صورة الحال، ولم يعرفوا الباطن ولا المآل، فأعلم العليم الخبير البشير النذير بمغيب الأمر وعاقبته، وكان ذلك من أدلة صدق الرسول ﷺ وصحة رسالته، ففيه التنبيه على ترك الاعتماد على الأعمال، والتعويل على فضل ذي العزة والجلال»[١].

قال ابن رجب: «وقوله: **(فيما يبدو للناس)** إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك، وأن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس، إما من جهة عمل سيئ ونحو ذلك، فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت، وكذلك قد يعمل الرجل عمل أهل النار وفي باطنه خصلة خفية من خصال الخير، فتغلب عليه تلك الخصلة في آخر عمره، فتوجب له حسن الخاتمة... وفي الجملة: فالخواتيم ميراث السوابق، وكل ذلك سبق في الكتاب السابق، ومن هنا كان يشتد خوف السلف من سوء الخواتيم، ومنهم من كان يقلق من ذكر السوابق»[٢].

وقال: «ومن هنا كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق ويشتد قلقهم وجزعهم منه، فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر، ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة»[٣].

قال القاضي عياض: «ودل بمجموع هذا أن الأعمال بخواتيمها كما أشار إليه رسول اللّٰه آخر الحديث، وهذا يرجح هذا التأويل في قوله: «**حتى ما يبقى بينه وبين الجنة إلا ذراع**» وذكر في النار مثيله على من تأول أن معناه الحيف في الوصية»[٤].

* * *

---

(١) المفهم (١/ ٣١٨).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٢-١٧٣).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٤).

(٤) الإكمال (١/ ٣٩٥).

قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

شهداء: جمع شاهد، وهو الحاضر. تقول: حضرت القوم أحضرهم: إذا شهدتهم.

حضر الموت: أتى؛ أي: مقدماته وأسبابه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وتأويل الكلام: أكنتم يا معشر اليهود والنصارى، المكذبين بمحمد ﷺ، الجاحدين نبوته حضور يعقوب وشهوده إذ حضره الموت. أي إنكم لم تحضروا ذلك، فلا تدعوا على أنبيائي ورسلي الأباطيل، وتنحلوهم اليهودية والنصرانية، فإني ابتعثت خليلي إبراهيم وولده إسحاق وإسماعيل وذريتهم بالحنيفية المسلمة، وبذلك وصوا بنيهم، وبه عهدوا إلى أولادهم من بعدهم. فلو حضرتموهم فسمعتم منهم، علمتم أنهم على غير ما نحلتموهم من الأديان والملل من بعدهم.

وهذه آيات نزلت، تكذيبًا من اللَّه تعالى لليهود والنصارى في دعواهم في إبراهيم وولده يعقوب: أنهم كانوا على ملتهم، فقال لهم في هذه الآية: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾، فتعلموا ما قال لولده وقال له ولده؟ ثم أعلمهم ما قال لهم وما قالوا له»[1].

قال الشوكاني: «قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ أم هذه قيل هي المنقطعة؛ وقيل: هي المتصلة، وفي الهمزة الإنكار المفيد للتقريع والتوبيخ، والخطاب لليهود والنصارى الذين ينسبون إلى إبراهيم وإلى بنيه أنهم على اليهودية والنصرانية. فرد اللَّه ذلك

---

(١) جامع البيان (٣/ ٩٧-٩٨ تحقيق شاكر).

عليهم وقال لهم: أشهدتم يعقوب وعلمتم بما أوصى به بنيه فتدعون ذلك عن علم، أم لم تشهدوا بل أنتم مفترون»[١].

وقال السعدي: «﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي: حضورا ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: مقدماته وأسبابه.

فقال لبنيه على وجه الاختبار، ولتقر عينه في حياته بامتثالهم ما وصاهم به. ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ «فأجابوه بما قرت به عينه فقالوا: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾. فلا نشرك به شيئًا، ولا نعدل به. ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فجمعوا بين التوحيد والعمل. ومن المعلوم أنهم لم يحضروا يعقوب؛ لأنهم لم يوجدوا بعد. فإذا لم يحضروا، فقد أخبر اللَّه عنه أنه وصى بنيه بالحنيفية، لا باليهودية»[٢].

قلت: هذا هو الخبر الصدق من رب العزة والجلال في عناية أنبياء اللَّه تعالى بالتوحيد، وأنه مرتبط بأنفاسهم بداية ونهاية، فهذا نبي اللَّه يعقوب عليه وعلى بقية الأنبياء الصلاة والسلام لم يشغله آلام الموت وحرارته، وآلام المرض وقوة دائه على إخلاص النصح لأبنائه، فهذا النبي الكريم ابن النبي الكريم، وحفيد النبي الكريم، يلفظ أنفاسه بالتوحيد، ولا يستحضر مالًا ولا ضيعةً، وإنما يستحضر توحيدًا وعقيدةً، فأقر اللَّه عينيه بما ذكره ربنا -تبارك وتعالى- عليهم وأنهم على الحنيفية ملة إبراهيم، والتوحيد الخالص والدعوة الخالصة.

فماذا الآن عن الآباء وارتباطهم بأبنائهم، وتوجيهاتهم لهم في كل لحظاتهم، أهي كما كان عليه هذا النبي الكريم؟ أم أنها التوجيه للدنيا والمال والمنصب والجاه فقط؟ فهذا التوجيه ليس عيبًا وليس به بأس إن حصل، ولكن لا يكون هو العمدة؛ بل العمدة التوحيد والسنة الذي ينبغي أن يكون الأبناء عليه من بعد وفاة أبيهم وأمهم، وأما الأرزاق فإن اللَّه تعالى رزق البهائم البهماء والطيور البكماء، ورزق الزواحف الضعيفة التي لا أرجل لها وإنما تمشي على بطونها فبسط لها من

---

(١) فتح القدير (١/ ٢١٥).

(٢) تفسير السعدي (١/ ١٤٢-١٤٣).

الأرزاق ما ملأت به بطونها ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾[(١)] ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾[(٢)] ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ﴾[(٣)]، فالعناية بالتوحيد منهاج الأنبياء الصالحين الصادقين الذين يلفظون أنفاسهم الأخيرة بالوصاية به، فوصية اللَّه للأولين والآخرين ووصية العباد الصالحين من العباد والرسل والصديقين هي التوحيد. .

فالوصايا للأبناء والأحفاد كلها مما تكفل اللَّه به وليس لأحد فيه دخل، لا أب ولا أم، فكم من الأبناء مات آباؤهم وهم في بطون أمهاتهم، وأعطاهم اللَّه من الأرزاق ما لا يعلمه آباؤهم ولا أمهاتهم، وهذا رسول اللَّه ﷺ نموذج لكل أب وأم: مات أبوه وهو جنين في بطن أمه، وماتت أمه وهو صبي، وأشرقت شمسه على أهل الأرض كلهم منذ بعثته وإلى أن تقوم الساعة، فاللهم صل عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والرسل الذين اهتموا بعقيدة التوحيد الخالصة.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان وحدة العقيدة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: «**أكرمهم أتقاهم**»، قالوا: يا نبي الله! ليس عن هذا نسألك، قال: «**فأكرم الناس يوسف نبي اللَّه ابن نبي اللَّه ابن نبي اللَّه ابن خليل الله**» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «**أفعن معادن العرب تسألونني؟**» قالوا: نعم، قال: «**فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**»[(٤)].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «ومناسبته لهذه الترجمة (وهي آية الباب) من جهة موافقة الحديث الآية في سياق نسب يوسف عليه السلام، فإن الآية تضمنت أن يعقوب خاطب أولاده عند موته محرضًا لهم على الثبات على الإسلام، وقال له أولاده: إنهم يعبدون إلهه وإله آبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، ومن جملة أولاد يعقوب يوسف عليهما السلام، فنص

---

(١) سبأ: الآية (٢٤).

(٢) النحل: الآية (٩٦). (٣) هود: الآية (٦).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣١) والبخاري (٦/ ٥١١/ ٣٣٧٤) ومسلم (٤/ ١٨٤٦/ ٢٣٧٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٧/ ١١٢٤٩).

الحديث على نسب يوسف، وأنه ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وزاد أن الأربعة أنبياء في نسق»[١].

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات؛ أمهاتهم شتى ودينهم واحد»**[٢].

★ غريب الحديث:

العلة: الضرة، وبنو العلات أولاد الرجل من نسوة شتى.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «ومعنى الحديث أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع، وقيل المراد أن أزمنتهم مختلفة»[٣].

قال القاضي عياض: «والظاهر في معناه: أن الأنبياء يختلفون في أزمانهم، وبعضهم بعيد الوقت من بعض، وبين بعضهم وبعض أنبياء أخر، وإن شملتهم النبوة وكأنهم أولاد علات، إذ لم يجمعهم زمن واحد كما لم يجمع أولاد العلات بطن واحد. وعيسى لما كان قريب الزمن منه ولم يكن بينهما نبي، فكأنهما في زمن واحد وابني أم واحدة فكان بخلاف غيرهما»[٤].

وقال القرطبي: «وقوله: (دينهم واحد) أي: في توحيدهم، وأصول أديانهم، وطاعتهم لله تعالى، واتباعهم لشرائعه، والقيام بالحق، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾[٥]، ولم يرد فروع الشرائع؛ فإنهم مختلفون فيها كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجًاۚ﴾[٦]»[٧].

* * *

---

(١) الفتح (٦/ ٥١١).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٩) والبخاري (٦/ ٥٩٠-٥٩١/ ٣٤٤٣) ومسلم (٤/ ١٨٣٧/ ٢٣٦٥).

(٣) الفتح (٦/ ٦٠٥).

(٤) الإكمال (٧/ ٣٣٧).

(٥) الشورى: الآية (١٣).

(٦) المائدة: الآية (٤٨).

(٧) المفهم (٦/ ١٧٦-١٧٧).

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

★ غريب الآية:

أمة: الأمة: الجماعة من الناس يجمعهم جامع واحد إما دين أو زمان أو مكان، جمعها أمم.

خلت: أي مضت وطوي زمانها، وأصل الخلو: الانفراد.

كسبت: اقترفت، والكسب: كل ما يتحراه المرء مما فيه جلب نفع أو دفع ضر، قال الشاعر:

فَأَوسَعْتُهُ مدحًا وَأَوْسَعَنِي قِرىً ... وَأَكْسَبَنِي مَالًا وَأَكْسَبْتُهُ حَمْدَا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وولدهم.

يقول لليهود والنصارى: يا معشر اليهود والنصارى، دعوا ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والمسلمين من أولادهم بغير ما هم أهله، ولا تنحلوهم كفر اليهودية والنصرانية، فتضيفونها إليهم، فإنهم أمة ويعني: بـ (الأمة) في هذا الموضع: الجماعة والقرن من الناس قد خلت: مضت لسبيلها . . . ويعني بقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾؛ أي: ما عملت من خير، ولكم يا معشر اليهود والنصارى مثل ذلك ما عملتم، ولا تؤاخذون أنتم أيها الناحلوهم ما نحلتموهم من الملل فتسألوا عما كان إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وولدهم يعملون. فيكسبون من خير وشر؛ لأن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت. فدعوا انتحالهم وانتحال مللهم، فإن الدعاوى غير مغنيتكم عند اللَّه، وإنما يغني عنكم

عنده ما سلف لكم من صالح أعمالكم، إن كنتم عملتموها وقدمتموها»[١].

وقال القرطبي: «وفي هذا دليل على أن العبد يضاف إليه أعمال وأكساب؛ وإن كان اللَّه تعالى أقدره على ذلك، إن كان خيرًا فبفضله وإن كان شرًّا فبعدله؛ وهذا مذهب أهل السنة؛ والآي في القرآن بهذا المعنى كثيرة. فالعبد مكتسب لأفعاله، على معنى أنه خلقت له قدرة مقارنة للفعل، يدرك بها الفرق بين حركة الاختيار وحركة الرعشة مثلًا؛ وذلك التمكن هو مناط التكليف. وقالت الجبرية بنفي اكتساب العبد، وإنه كالنبات الذي تصرفه الرياح. وقالت القدرية والمعتزلة خلاف هذين القولين، وإن العبد يخلق أفعاله»[٢].

وقال محمد رشيد رضا: «قال الأستاذ الإمام: جاءت هذه الآية الكريمة بعد الكلام عن وصية إبراهيم لبنيه وإسماعيل وإسحاق ويعقوب لبنيهم؛ استدراكًا على ما عساه يقع في أذهان ذراري هؤلاء الأنبياء الكرام -عليهم الصلاة والسلام-، من أن هذا السلف الذي له عند اللَّه هذه المكانة يشفع لهم فينجون ويسعدون يوم القيامة بمجرد الانتساب إليهم. فبين اللَّه في هذه الآية أن سنته في عباده أن لا يجزى أحد إلا بكسبه وعمله، ولا يسئل إلا عن كسبه وعمله. وقد بين في سورة النجم أن هذه القضية من أصول الدين العامة، التي جاء بها الأنبياء من قبل: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[٣] إلخ، وبين في آيات متعددة، في سور متفرقة، أن المرسلين لم يرسلوا إلا مبشرين ومنذرين، فمن آمن بهم وعمل بما يرشدون إليه كان ناجيًا، وإن بعد عنهم في النسب، ومن أعرض عن هديهم كان هالكًا وإن أدلى إليهم بأقرب سبب، ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[٤]، وإذا لم تنتفع بهم ذرياتهم الذين لم يقتدوا بهم، فكيف ينتفع بهم أولئك البعداء الذين ليس بينهم وبينهم صلة؟ إلا الأقوال الكاذبة التي يعبر عنها أهل هذا العصر (بالمحسوبية) ويقولون في مخاطبة أصحاب القبور عند الاستغاثة بهم (المحسوب كالمنسوب) وما أحسن قول الإمام الغزالي: إذا كان الجائع يشبع إذا أكل والده دونه، والظمآن يروى بشرب

---

(١) جامع البيان (٣/ ١٠٠-١٠١ تحقيق شاكر).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٩٤).
(٣) النجم: الآيات (٣٦-٣٩).
(٤) هود: الآية (٤٦).

والده وإن لم يشرب، فالعاصي ينجو بصلاح والده. والآيات التي تؤيد هذه الآية كثيرة جدا، فهي أصل من أصول الدين الإلهي، لا يفيد معها تأويل المغرورين، ولا غرور الجاهلين»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «معناه من كان عمله ناقصًا لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال، فينبغي أن لا يتكل على شرف النسب وفضيلة الآباء، ويقصر في العمل»[٣].

وقال في عون المعبود: «أي: من أخره عمله السيئ وتفريطه في العمل الصالح؛ لم ينفعه في الآخرة شرف النسب»[٤].

* * *

(١) تفسير المنار (١/ ٤٧٨-٤٧٩).

(٢) طرف من حديث أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٢-٤٠٧) ومسلم (٤/ ٢٠٧٤/ ٢٦٩٩) وأبو داود (٤/ ٥٩/ ٣٦٤٣) والترمذي (٥/ ١٧٩/ ٢٩٤٥) وابن ماجه (١/ ٨٢/ ٢٢٥).

(٣) شرح النووي (١٧/ ١٨).

(٤) العون (١٠/ ٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حنيفًا: الحنف: الميل، ومنه قيل: رجل أحنف لمتمايل القدمين. قالت أم الأحنف:

والله لولا حَنَفٌ برِجْلِهِ ما كانَ في فِتْيانِكُمْ مِنْ مِثْلِهِ

وعلى هذا فالحنيف من مال عن الباطل إلى الحق.

وقيل: الحنف الاستقامة. وسُمِّي معوج القدمين أحنَفَ تفاؤلًا له بالاستقامة، كما قيل للّديغ: سليم. وعلى هذا فالحنيف من استقام على الحق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «احتج الله لنبيه محمد ﷺ أبلغ حجة وأوجزها وأكملها، وعلمها محمدًا نبيه ﷺ فقال: يا محمد، قل للقائلين لك من اليهود والنصارى ولأصحابك: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾: بل تعالوا نتبع ملة إبراهيم التي يجمع جميعنا على الشهادة لها بأنها دين الله الذي ارتضاه واجتباه وأمر به فإن دينه كان الحنيفية المسلمة وندع سائر الملل التي نختلف فيها، فينكرها بعضنا، ويقر بها بعضنا. فإن ذلك على اختلافه لا سبيل لنا على الاجتماع عليه، كما لنا السبيل إلى الاجتماع على ملة إبراهيم»[1].

وقال القاسمي: «ولما أثبت إسلامه بالحنيفية نفى عنه غيره بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وفيه تعريض بأهل الكتاب، وإيذان ببطلان دعواهم اتباعه عليه السلام، مع إشراكهم بقولهم: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله. وقد أفادت هذه الآية الكريمة أن ما عليه الفريقان محض ضلال وارتكاب بطلان، وأن الدين المرضي عند الله

---

(١) جامع البيان (٣/ ١٠٢ تحقيق شاكر).

الإسلام، وهو دعوة الخلق إلى توحيده تعالى، وعبادته وحده، لا شريك له.

ولما خالف المشركون هذا الأصل العظيم بعث اللَّه نبيه محمدًا خاتم النبيين لدعوة الناس جميعًا إلى هذا الأصل»(١).

قال ابن القيم: «﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ فأجيبوا عن هذه الدعوى بقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهذا الجواب مع اختصاره قد تضمن المنع والمعارضة، أما المنع فما تضمنه حرف بل من الإضراب؛ أي: ليس الأمر كما قالوا، وأما المعارضة ففي قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ أي: أتتبع أو يتبعوا ملة إبراهيم حنيفًا، وفي ضمن هذه المعارضة إقامة الحجة على أنها أولى بالصواب مما دعوتم إليه من اليهودية والنصرانية؛ لأنه وصف صاحب الملة بأنه حنيف غير مشرك، ومن كانت ملته الحنيفية والتوحيد فهو أولى بأن يتبع ممن ملته اليهودية والنصرانية، فإن الحنيفية والتوحيد هي دين جميع الأنبياء الذي لا يقبل اللَّه من أحد دينا سواه، وهو الفطرة التي فطر اللَّه عليها عباده، فمن كان عليها فهو المهتدي؛ لأن من كان يهوديًّا أو نصرانيًّا فإن الحنيفية تتضمن الإقبال على اللَّه بالعبادة والإجلال والتعظيم والمحبة والذل. والتوحيد يتضمن إفراده بهذا الإقبال دون غيره، فيعبد وحده، ويحب وحده، ويطاع وحده، ولا يجعل معه إلهًا آخر فمن أولى بالهداية صاحب هذه الملة، أو ملة اليهودية والنصرانية، ولا يبقى بعد هذا للخصوم إلا سؤال واحد. وهو أن يقولوا: فنحن على ملته أيضًا لم نخرج عنها وإبراهيم وبنوه كانوا هودًا أو نصارى، فأجيبوا عن هذا السؤال بأنهم كاذبون فيه، وأن اللَّه تعالى قد علم أنه لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا فقال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾(٢) الآية، وقرر تعالى هذا الجواب في سورة آل عمران بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾(٣) إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (فإن قالوا) فهب أن إبراهيم لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا، فنحن على ملته وإن انتحلنا هذا الاسم، (فأجيبوا) عن هذا بقوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فهذه للمؤمنين»(٤).

---

(١) محاسن التأويل (٢/ ٢٧٠).

(٢) البقرة: الآية (١٤٠).

(٣) آل عمران: الآية (٦٧).

(٤) بدائع الفوائد (٤/ ١٥٥-١٥٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن الحنيفية دين الأنبياء كلهم

* عن ابن عباس قال: قيل لرسول اللَّه ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «**الحنيفية السمحة**»[١].

★ **غريب الحديث:**

السمحة: بفتح السين وسكون الميم: أي التي تسهل على النفوس، لا كالرهبانية الشاقة عليها.

★ **فوائد الحديث:**

قال السندي: «أي الملة المنسوبة إلى إبراهيم يريد دين الإسلام الذي بعث به نبينا -عليه الصلاة والسلام-، فإنه يشارك دين إبراهيم في كثير من الفروع مع الاتحاد في الأصول، فلذلك ينسب إلى إبراهيم، والحنيف عند العرب: من كان على دين إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام»[٢].

وقال ابن حجر: «قوله: (**أحب الدين**) أي: خصال الدين؛ لأن خصال الدين كلها محبوبة، لكن ما كان منها سمحًا أي سهلًا فهو أحب إلى اللَّه. ويدل عليه ما أخرجه أحمد بسند صحيح من حديث أعرابي لم يسمه أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: «**خير دينكم أيسره**»[٣]. أو الدين جنس، أي أحب الأديان إلى اللَّه الحنيفية. والمراد بالأديان الشرائع الماضية قبل أن تبدل وتنسخ. والحنيفية ملة إبراهيم، والحنيف في اللغة من كان على ملة إبراهيم، وسمي إبراهيم حنيفًا لميله عن الباطل إلى الحق لأن أصل الحنف الميل، والسمحة السهلة؛ أي: أنها مبنية على السهولة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾[٤]»[٥].

* * *

(١) علقه البخاري في صحيحه (١/ ١٢٦) بصيغة الجزم، ووصله أحمد (١/ ٢٣٦) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٢٨٧) وله شواهد يتقوى بها من حديث عائشة وأبي أمامة وجابر ﷺ.

(٢) حاشية المسند (٤/ ١٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٧٩).

(٤) الحج: الآية (٧٨).

(٥) فتح الباري (١/ ١٢٦).

قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾

★ **غريب الآية:**

الأسباط: أولاد يعقوب بن إسحاق عليهم السلام، وهم اثنا عشر سبطًا. والسبط: الجماعة يرجعون إلى أب واحد. وأصل المادة الامتداد والتفريع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بذلك: ﴿قُولُوٓاْ﴾ أيها المؤمنون، لهؤلاء اليهود والنصارى، الذين قالوا لكم: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾، ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: صدقنا بالله... ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ يقول أيضًا: صدقنا بالكتاب الذي أنزل الله إلى نبينا محمد ﷺ. فأضاف الخطاب بالتنزيل إليهم، إذ كانوا متبعيه، ومأمورين منهيين به. فكان وإن كان تنزيلًا إلى رسول الله ﷺ بمعنى التنزيل إليهم، للذي لهم فيه من المعاني التي وصفت.

ويعني بقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾، صدقنا أيضًا وآمنا بما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وهم الأنبياء من ولد يعقوب.

وقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾؛ يعني: وآمنا أيضًا بالتوراة التي آتاها الله موسى، وبالإنجيل الذي آتاه الله عيسى، والكتب التي آتى النبيين كلهم، وأقررنا وصدقنا أن ذلك كله حق وهدى ونور من عند الله، وأن جميع من ذكر الله من أنبيائه كانوا على حق وهدى، يصدق بعضهم بعضًا، على منهاج واحد في الدعاء إلى توحيد الله، والعمل بطاعته، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ يقول: لا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض، ونتبرأ من بعض ونتولى بعضًا، كما تبرأت اليهود من عيسى ومحمد عليهما السلام وأقرت بغيرهما من الأنبياء، وكما تبرأت النصارى من محمد ﷺ

وأقرت بغيره من الأنبياء، بل نشهد لجميعهم أنهم كانوا رسل اللَّه وأنبياءه، بعثوا بالحق والهدى.

وأما قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، فإنه يعني -تعالى ذكره-: ونحن له خاضعون بالطاعة، مذعنون له بالعبودية»[١].

وقال ابن كثير: «أرشد اللَّه تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلًا وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملًا، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال اللَّه فيهم: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾[٢] الآية»[٣].

وقال السعدي: «وفي قوله: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ فقد اشتملت هذه الآية الكريمة -على إيجازها واختصارها- على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

واشتملت على الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب. وعلى التخصيص الدال على الفضل، بعد التعميم.

وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك.

وعلى الفرق بين الرسل الصادقين، ومن ادعى النبوة من الكاذبين.

وعلى تعليم الباري عباده، كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة.

فسبحان من جعل كتابه تبيانا لكل شيء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون»[٤].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ لم يبين هنا هذا الذي أنزل إلى إبراهيم، ولكنه بين في سورة الأعلى أنه صحف وأن من جملة ما في تلك

---

(١) جامع البيان (٣/ ١٠٩-١١٠ تحقيق شاكر).
(٢) النساء: الآيتان (١٥٠ و ١٥١).
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٢٩).
(٤) تفسير السعدي (١/ ١٤٥-١٤٨).

الصحف: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[١] وذلك في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[٢] قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾[٣]، لم يبين هنا ما أوتيه موسى وعيسى، ولكنه بينه في مواضع أخر. فذكر أن ما أوتيه موسى هو التوراة المعبر عنها بالصحف في قوله: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[٤] وذلك كقوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾[٥] وهو التوراة بالإجماع. وذكر أن ما أوتيه عيسى هو الإنجيل كما في قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾[٦] قوله تعالى: ﴿وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾[٧] أمر اللَّه النبي ﷺ والمسلمين في هذه الآية أن يؤمنوا بما أوتيه جميع النبيين وأن لا يفرقوا بين أحد منهم حيث قال: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾[٨] ولم يذكر هنا هل فعلوا ذلك أو لا؟ ولم يذكر جزاءهم إذا فعلوه ولكنه بين كل ذلك في غير هذا الموضع. فصرح بأنهم امتثلوا الأمر بقوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[٩] وذكر جزاءهم على ذلك بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[١٠]»[١١].

قلت: هكذا آيات القرآن تعرض لنا الوحدة الكاملة في الرسل والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وأن ما جاءوا به جميعهم هدى ورحمة، وأن الإيمان بواحد منهم إيمان بهم كلهم، والكفر بواحد منهم كفر بهم جميعا، فلا يجوز التفرقة بين نبي ونبي، ولا بين رسول ورسول، فهم كلهم حملوا لأممهم كتب اللَّه ورسالته، وكذلك لا يجوز التفرقة بين حوارييهم وصحابتهم، وبالنسبة لأهل الإسلام يجب عليهم الإيمان بالصحابة كلهم، فكل من ثبتت صحبته وجبت محبته، ولا يجوز أن يفرق

---

(١) الأعلى: الآيتان (١٦ و ١٧).
(٢) الأعلى: الآيتان (١٨ و ١٩).
(٣) البقرة: الآية (١٣٦) و آل عمران: الآية (٨٤).
(٤) الأعلى: الآية (١٩).
(٥) الأنعام: الآية (١٥٤).
(٦) الحديد: الآية (٢٧).
(٧) آل عمران: الآية (٨٤).
(٨) البقرة: الآية (١٣٦).
(٩) البقرة: الآية (٢٨٥).
(١٠) النساء: الآية (١٥٢).
(١١) أضواء البيان (١/ ٨٦-٨٧).

بين صحابي وصحابي، فكلهم أصحاب رسول اللَّه ﷺ، فمن ثبتت سابقته أثبتناها، ومن ثبتت أفضليته أثبتناها، فلا نفرق بين واحد منهم فنحب بعضًا ونبغض بعضًا، فلا شك أن في هذا المنهاج الفاسد أهواء وأغراض، إما عرفية أو ملية، فمن لم يكونوا على موافقة أهوائهم طعنوا فيهم ووصفوهم بما لا يليق بهم، كما هو واقع الرافضة والخوارج والمعتزلة، فقد فرقت هذه الفرق الضالة بين الصحابة، فآمنت ببعض وكفرت ببعض، وأهل السنة يحبون الجميع ويترضون عن الجميع، ويرون أن أسعد الناس من كان على وصفهم ومنهاجهم.

وهكذا التابعون لهم بإحسان وبقية علماء الإسلام، فلا يميلون إلى أحد ويذمون غيره، فكل ما عند الجميع من الحق يأخذون به، فلا يرجحون أحمد على مالك، ولا مالكًا على الشافعي، ولا البخاري على أشهب بن عبد العزيز. . . فالعلماء كلهم أئمة أهل السنة وقدوتهم فيما وافقوا فيه الحق، وقد ظهرت نابتة من أدعياء محبي العلماء والأئمة، فنسبوا إليهم كل ما لا يليق بهم من بدع وخرافات، بل وزندقة وشركيات وكفريات، والأئمة رحمة اللَّه عليهم برءاء مما نسبوا إليهم، وتراهم في باب الأسماء والصفات يختارون مذاهب عقدية لم يعرف أصحابها بحديث ولا رواية، فانتسبوا إلى الأشعري البصري وتركوا مالكا الإمام والشافعي الإمام وأحمد الإمام، وانتسبوا إلى الماتوريدي وتركوا أبا حنيفة الإمام وأئمة الحنفية كأبي يوسف ومحمد بن الحسن، وهكذا تجد هذه الشرذمة في كثير من الأمم، يتركون العلماء الفحول والأئمة المهديين المرضيين الذين كانوا على السنة، وينتسبون إلى جهال -لا علاقة لهم بالعلم- في التصوف وغيره، فالمسلم الصادق السني حقًّا هو الذي يستفيد من جميع أئمة الإسلام الصادقين، ويجعل نصب عينيه الأئمة الفحول الذين كان لهم القدم الراسخ، ويحرم عليه أن ينسب إلى الأئمة الكبار ما لم يوجد في كتبهم ولا فتاواهم ولا في مصنفاتهم، كما فعله جهال المنتسبين إليهم -بزعمهم- حيث نسبوا إليهم كل ما لا يليق بهم من بدع وضلالات، وأعمال لا صلة لها بالكتاب والسنة، وإنما هي بدع وأهواء انتحلها المرتزقة، ولكي يرفعوا لواءها نسبوها إلى الأئمة وهم منها برءاء براءة الذئب من دم ابن يعقوب، وهكذا تجد الأمم الهالكة بالجهل والابتعاد عن الصراط المستقيم تتخبط في البدع والرذائل الحقيرة، وتنسبها إلى الأئمة والعلماء، فاللهم عليك بهم؛ فإنهم ينسبون إلى أوليائك ما ليس من قولهم ولا فعلهم.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عناية النبي ﷺ بالآية وعدم تصديق أهل الكتاب أو تكذيبهم

* عن ابن عباس: (أن رسول اللَّه ﷺ كان يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منهما: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الآية التي في البقرة وفي الآخرة منهما: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[1])[2].

⋆ فوائد الحديث:

يستفاد من الحديث عناية الرسول ﷺ بالتوحيد وأنه ﷺ كان ينوع بين هاتين الآيتين وبين سورتي الإخلاص في راتبة الفجر، فينبغي للمسلم أن يقتدي به ﷺ في هذه السنة الطيبة التي نذكرها دائمًا في افتتاح نهارنا بالتوحيد، وأنه لا معبود بحق إلا هو، وأنه لا هداية إلا فيما أنزله، وأن الإيمان بذلك هو الإيمان والتعلق بذلك في لحظات الحياة هو تمام السعادة والانفصال عن توحيد اللَّه والاهتداء بهديه هو الشقاوة الكبرى التي نهايتها شقاوة الدارين.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا**: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الآية)[3].

⋆ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قوله «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم**» أي: إذا كان ما يخبرونكم به محتملًا لئلا يكون في نفس الأمر صدقًا فتكذبوه، أو كذبًا فتصدقوه فتقعوا في الحرج. ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه، نبه على ذلك الشافعي رحمه الله، ويؤخذ من هذا الحديث التوقف عن الخوض في المشكلات والجزم فيها بما يقع في الظن، وعلى

---

(١) آل عمران: الآية (٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٠، ٢٣١) ومسلم (١/ ٥٠٢/ ٧٢٧) وأبو داود (٢/ ٤٦/ ١٢٥٩) والنسائي (٢/ ٤٩٣/ ٩٤٣).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٢١٥-٢١٦/ ٤٤٨٥) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٦/ ١١٣٨٧).

هذا يحتمل ما جاء عن السلف من ذلك»[١].

قال شيخ الإسلام: «فإن قيل: ما ذكرتموه من الأدلة معارض بما يدل على خلافه، وذلك أن شرع من قبلنا شرع لنا، ما لم يرد شرعنا بخلافه، وقوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[٢]، وقوله: ﴿ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[٣] وقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾[٤]. وغير ذلك من الدلائل المذكورة في غير هذا الموضع، مع أنكم مسلمون لهذه القاعدة، وهي قول عامة السلف وجمهور الفقهاء.

ومعارض بما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن رسول اللَّه ﷺ قدم المدينة. فوجد اليهود صيامًا، يوم عاشوراء، فقال لهم ﷺ: «**ما هذا اليوم الذي تصومونه؟**» قالوا: هذا يوم عظيم، أنجى اللَّه فيه موسى وقومه، وأغرق فيه فرعون وقومه، فصامه موسى شكرًا لله، فنحن نصومه تعظيمًا له، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**فنحن أحق وأولى بموسى منكم**»، فصامه رسول اللَّه ﷺ وأمر بصيامه)[٥] متفق عليه.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: (كان يوم عاشوراء تعده اليهود عيدًا، قال النبي ﷺ: «**فصوموه أنتم**» متفق عليه، وهذا اللفظ للبخاري ولفظ مسلم: (تعظمه اليهود وتتخذه عيدًا) وفي لفظ له: (كان أهل خيبر يصومون يوم عاشوراء ويتخذونه عيدًا، ويلبسون نساءهم فيه حليهم وشارتهم)[٦].

عن الزهري، عن عبيد اللَّه بن عبداللَّه بن عتبة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (كان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان رسول اللَّه ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، فسدل رسول اللَّه ﷺ ناصيته، ثم فرق بعد)[٧] متفق عليه.

قيل: أما المعارضة بكون شرع من قبلنا شرعًا لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه؛ فذاك

---

(١) الفتح (٨/ ٢١٦).
(٢) الأنعام: الآية (٩٠).
(٣) النحل: الآية (١٢٣).
(٤) المائدة: الآية (٤٤).
(٥) سيأتي تخريجه (البقرة آية ١٨٣).
(٦) البخاري (٤/ ٣٠٧/ ٢٠٠٥)، ومسلم (٢/ ٧٩٦/ ١١٣١).
(٧) أخرجه أحمد (١/ ٢٤٦)والبخاري (٦/ ٧٠١/ ٣٥٥٨) ومسلم (٤/ ١٨١٧-١٨١٨/ ٢٣٣٦) وأبو داود (٤/ ٤٠٧-٤٠٨/ ٤١٨٨) والنسائي (٨/ ٥٦٧-٥٦٨/ ٥٢٤٣) وابن ماجه (٢/ ١١٩٩/ ٣٦٣٢).

مبني على مقدمتين، كلتاهما منتفية في مسألة التشبه بهم.

إحداهما: أن يثبت أن ذلك شرع لهم، بنقل موثوق به، مثل أن يخبرنا اللَّه في كتابه، أو على لسان رسوله، أو ينقل بالتواتر، ونحو ذلك، فأما مجرد الرجوع إلى قولهم، أو إلى ما في كتبهم، فلا يجوز بالاتفاق، والنبي ﷺ وإن كان قد استخبرهم فأخبروه، ووقف على ما في التوراة، فإنما ذلك لأنه لا يروج عليه باطلهم، بل اللَّه سبحانه يعرفه ما يكذبون مما يصدقون، كما قد أخبره بكذبهم غير مرة، وأما نحن فلا نأمن أن يحدثونا بالكذب، فيكون فاسق، بل كافر، قد جاءنا بنبأ فاتبعناه. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم**».

المقدمة الثانية: أن لا يكون في شرعنا بيان خاص لذلك، فأما إذا كان فيه بيان خاص إما بالموافقة، أو بالمخالفة، استغني عن ذلك فيما ينهى عنه من موافقته، ولم يثبت أنه شرع لمن كان قبلنا، وإن ثبت فقد كان هدي نبينا ﷺ وأصحابه بخلافه، وبهم أمرنا نحن أن نتبع ونقتدي. وقد أمرنا نبينا ﷺ: أن يكون هدينا مخالفًا لهدي اليهود والنصارى. وإنما تجيء الموافقة في بعض الأحكام العارضة، لا في الهدي الراتب، والشعار الدائم.

ثم ذلك بشرط: أن لا يكون قد جاء عن نبينا وأصحابه خلافه، أو ثبت أصل شرعه في ديننا، وقد ثبت عن نبي من الأنبياء أصله أو وصفه. مثل: فداء من نذر أن يذبح ولده بشاء. ومثل: الختان المأمور به في ملة إبراهيم عليه السلام، ونحو ذلك، وليس الكلام فيه»[1].

* * *

(١) الاقتضاء (١/ ٤١٠-٤١٢).

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾

★ غريب الآية:

شقاق: الشقاق: المنازعة والمخاصمة. أصله من الشِّقّ وهو الجانب. والمعنى: في خلاف؛ أي: صاروا في شِقّ غير شِقّ ما أمروا به. قال الشاعر:

وإلَّا فاعلموا أنّا وأنتُمْ بُغاةٌ ما بَقينا في شِقاقِ

فسيكفيكهم: أي: كَافِيكَ مكرهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، فإن صدق اليهود والنصارى بالله، وما أنزل إليكم، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم، وأقروا بذلك، مثل ما صدقتم أنتم به أيها المؤمنون وأقررتم، فقد وفقوا ورشدوا، ولزموا طريق الحق، واهتدوا، وهم حينئذ منكم وأنتم منهم، بدخولهم في ملتكم بإقرارهم بذلك.

فدل -تعالى ذكره- بهذه الآية، على أنه لم يقبل من أحد عملًا إلا بالإيمان بهذه المعاني التي عدها قبلها»[1].

وقال: «﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾، وإن تولى هؤلاء الذين قالوا لمحمد ﷺ وأصحابه: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ فأعرضوا، فلم يؤمنوا بمثل إيمانكم أيها المؤمنون بالله، وبما جاءت به الأنبياء وابتعثت به الرسل، وفرقوا بين رسل الله وبين الله ورسله، فصدقوا ببعض وكفروا ببعض، فاعلموا أيها المؤمنون، أنهم إنما هم في عصيان وفراق وحرب لله ولرسوله ولكم»[2].

---

(١) جامع البيان (٣/ ١١٣ تحقيق شاكر).
(٢) جامع البيان (٣/ ١١٥ تحقيق شاكر).

وقال: « ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾، فسيكفيك اللَّه يا محمد، هؤلاء الذين قالوا لك ولأصحابك: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾، من اليهود والنصارى، إن هم تولوا عن أن يؤمنوا بمثل إيمان أصحابك باللَّه، وبما أنزل إليك، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وسائر الأنبياء غيرهم، وفرقوا بين اللَّه ورسله إما بقتل السيف، وإما بجلاء عن جوارك، وغير ذلك من العقوبات، فإن اللَّه هو ﴿السَّمِيعُ﴾ لما يقولون لك بألسنتهم، ويبدون لك بأفواههم، من الجهل والدعاء إلى الكفر والملل الضالة، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يبطنون لك ولأصحابك المؤمنين في أنفسهم من الحسد والبغضاء.

ففعل اللَّه بهم ذلك عاجلًا، وأنجز وعده، فكفى نبيه ﷺ بتسليطه إياه عليهم، حتى قتل بعضهم، وأجلى بعضًا، وأذل بعضًا وأخزاه بالجزية والصغار»[١].

وقال القاسمي: «قال القاضي: ولا يكاد يقال في المعاداة على وجه الحق أو المخالفة التي لا تكون معصية إنه شقاق. وإنما يقال ذلك في مخالفة عظيمة توقع صاحبها في عداوة اللَّه وغضبه ولعنه، وفي استحقاق النار، فصار هذا القول وعيدًا منه تعالى لهم، وصار وصفهم بذلك دليلًا على أن القوم معادون للرسول، مضمرون له السوء، مترصدون لإيقاعه في المحن، فعند هذا أمنه اللَّه تعالى من كيدهم وأمن المؤمنين من شرهم ومكرهم فقال: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ تقوية لقلبه وقلب المؤمنين لأنه تعالى إذا تكفل بالكفاية في أمر حصلت الثقة به. وقد أنجز وعده بقتل قريظة وسبيهم وإجلاء بني النضير ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أتبع وعده بالنصر والكفاية، بما يدل على أن ما يسرون وما يعلنون من أمرهم لا يخفى عليه تعالى. فهو يسبب لكل قول وضمير منهم ما يرد ضرره عليهم. فهو وعيد لهم، أو وعد لرسول اللَّه ﷺ. أي يسمع ما تدعو به، ويعلم نيتك وما تريده من إظهار دين الحق. وهو مستجيب لك وموصلك إلى مرادك»[٢].

وقال السعدي: «أي: فإن آمن أهل الكتاب بمثل ما آمنتم به يا معشر المؤمنين من جميع الرسل، وجميع الكتب، الذين أول من دخل فيهم وأولى خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ والقرآن، وأسلموا لله وحده، ولم يفرقوا بين أحد من الرسل ﴿فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ للصراط المستقيم، الموصل لجنات النعيم.

---

(١) جامع البيان (٣/ ١١٦ تحقيق شاكر).

(٢) محاسن التأويل (٢/ ٢٧٢-٢٧٣).

أي: فلا سبيل لهم إلى الهداية، إلا بهذا الإيمان.

ولا كما زعموا بقولهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾. فزعموا أن الهداية، خاصة بما كانوا عليه. و(الهدى) هو العلم بالحق، والعمل به، وضده الضلال عن العلم، والضلال عن العمل بعد العلم، وهو الشقاق الذي كانوا عليه، لما تولوا وأعرضوا.

فالمشاق، هو الذي يكون في شق واللَّه ورسوله في شق. ويلزم من المشاقة، المحادة، والعداوة البليغة، التي من لوازمها، بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول.

فلهذا وعد اللَّه رسوله، أن يكفيه إياهم؛ لأنه السميع لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، العليم بما بين أيديهم وما خلفهم، بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن. فإذا كان كذلك، كفاك اللَّه شرهم. وقد أنجز اللَّه لرسوله وعده، وسلطه عليهم، حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجلى بعضهم، وشردهم كل مشرد.

ففيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه، فوقع طبق ما أخبر»[١].

قلت: هذا هو منهاج القرآن وكلام رب العالمين الواضح في الفصل بين الحق والباطل، فلا تشطير ولا ترقيع، فالحق حق والباطل باطل، فالحق ينبغي أن يؤخذ كله ولا يتنازل فيه عن شيء، فبقدر ما يقع من التنازل بقدر ما ينطفئ نور الحق في نفس الفاعل، فلهذا أمر اللَّه نبيه محمدًا ﷺ أن لا يلتفت إلى اقتراحات اليهود والنصارى الباطلة، وأن يلتزم بشرعه وما ألزمه اللَّه به، وهكذا يبقى هذا المنهاج خالدًا ما دامت السموات والأرض، فكل طرق الباطل لا يجوز الدخول فيها، ولا موافقتها مهما كان القائل أو الفاعل، فلا يهودية ولا نصرانية ولا مجوسية، ولا جهمية ولا رافضة ولا صوفية ولا خارجية ولا غيرها من طرق الضلال، فكلها يجب الإعراض عنها، والالتزام بما أنزل اللَّه في كتابه وما صح عن نبيه ﷺ، وما كان عليه سلف هذه الأمة من فهم صحيح ومتابعة للأصلين الكبيرين.

(١) تفسير السعدي (١/١٤٨-١٤٩).

قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

صبغةَ اللهِ: أي: دينَ اللَّه. سُمّي بذلك لأنه هيئة تظهر بالمشاهدة.

قال أمية:

فِي صِبْغَةِ اللهِ كانَ إِذْ نَسِيَ الْـ عَـهْـدَ وخَلّى الصّوابَ إِذْ عَـرَفَـا

قال القرطبي: «فسمي الدين صبغة استعارة ومجازًا من حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب».

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بـ(الصبغة)، صبغة الإسلام. وذلك أن النصارى إذا أرادت أن تنصر أطفالهم، جعلتهم في ماء لهم تزعم أن ذلك لها تقديس، بمنزلة غسل الجنابة لأهل الإسلام، وأنه صبغة لهم في النصرانية.

فقال اللَّه -تعالى ذكره- إذ قالوا لنبيه محمد ﷺ وأصحابه المؤمنين به: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾: قل لهم يا محمد: أيها اليهود والنصارى، بل اتبعوا ملة إبراهيم، صبغة اللَّه التي هي أحسن الصبغ، فإنها هي الحنيفية المسلمة، ودعوا الشرك باللَّه، والضلال عن محجة هداه»[1].

وقال: «﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾، أمر من اللَّه -تعالى ذكره- نبيه ﷺ أن يقوله لليهود والنصارى، الذين قالوا له ولمن تبعه من أصحابه: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ فقال لنبيه محمد ﷺ: قل: بل نتبع ملة إبراهيم حنيفًا، صبغة اللَّه، ونحن له عابدون؛ يعني: ملة الخاضعين لله، المستكينين له، في اتباعنا ملة إبراهيم،

---

(١) جامع البيان (٣/ ١١٧ تحقيق شاكر).

ودينونتنا له بذلك، غير مستكبرين في اتباع أمره، والإقرار برسالته رسله، كما استكبرت اليهود والنصارى، فكفروا بمحمد ﷺ استكبارًا وبغيًا وحسدًا»[١].

وقال السعدي: «أي الزموا صبغة اللَّه، وهو دينه، وقوموا به قيامًا تامًّا، بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صبغة، وصفة من صفاتكم.

فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعًا واختيارًا ومحبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية، لحث الدين على مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ومعالي الأمور.

فلهذا قال على سبيل التعجب المتقرر للعقول الزكية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي: لا أحسن صبغة من صبغته. وإذا أردت أن تعرف نموذجًا يبين لك الفرق بين صبغة اللَّه وبين غيرها من الصبغ، فقس الشيء بضده.

فكيف ترى في عبد آمن بربه إيمانًا صحيحًا، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح.

فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، ونعت جليل. ويتخلى من كل وصف قبيح، ورذيلة وعيب. فوصفه، الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم، والعفة، والشجاعة، والإحسان القولي والفعلي، ومحبة اللَّه وخشيته، وخوفه، ورجاؤه. فحاله الإخلاص للمعبود، والإحسان لعبيده. فقسه بعبد كفر بربه، وشرد عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين. فاتصف بالصفات القبيحة، من الكفر، والشرك والكذب، والخيانة، والمكر، والخداع، وعدم العفة، والإساءة إلى الخلق، في أقواله، وأفعاله. فلا إخلاص للمعبود ولا إحسان إلى عبيده. فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن من صبغة اللَّه، وفي ضمنه أنه لا أقبح صبغة ممن انصبغ بغير دينه.

وفي قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ بيان لهذه الصبغة، وهي القيام بهذين الأصلين، الإخلاص والمتابعة؛ لأن (العبادة) اسم جامع لكل ما يحبه اللَّه ويرضاه، من

---

(١) جامع البيان (٣/ ١٢٠ تحقيق شاكر).

الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة. ولا تكون كذلك، حتى يشرعها اللَّه على لسان رسوله. والإخلاص أن يقصد العبد وجه اللَّه وحده في تلك الأعمال. فتقديم المعمول يؤذن بالحصر. وقال: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار، ليدل على اتصافهم بذلك»[١].

* * *

(١) تفسير السعدي (١/ ١٥٠-١٥١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ۝١٣٩﴾

★ **غريب الآية:**

أَتُحَاجُّوننا: أَتُجادِلوننا.

مُخلصون: الإخلاص: التبري من الشيء. والخالص: ما زال عنه الشَّوْبُ.

والمراد: أن المسلمين تبرؤوا مما ادّعاه اليهود من التشبيه، والنصارى من التثليث.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾، قل يا محمد، لمعاشر اليهود والنصارى، الذين قالوا لك ولأصحابك: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾، وزعموا أن دينهم خير من دينكم، وكتابهم خير من كتابكم؛ لأنه كان قبل كتابكم، وزعموا أنهم من أجل ذلك أولى بالله منكم: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، بيده الخيرات، وإليه الثواب والعقاب، والجزاء على الأعمال، الحسنات منها والسيئات، فتزعمون أنكم بالله أولى منا، من أجل أن نبيكم قبل نبينا، وكتابكم قبل كتابنا، وربكم وربنا واحد، وأن لكل فريق منا ما عمل واكتسب من صالح الأعمال وسيئها، يجازى عليها فيثاب أو يعاقب، لا على الأنساب وقدم الدين والكتاب»[(١)].

وقال: «فأما قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾، فإنه يعني: ونحن لله مخلصو العبادة والطاعة، لا نشرك به شيئًا، ولا نعبد غيره أحدًا، كما عبد أهل الأوثان معه الأوثان، وأصحاب العجل معه العجل.

وهذا من الله -تعالى ذكره- توبيخ لليهود، واحتجاج لأهل الإيمان، بقوله -تعالى ذكره- للمؤمنين من أصحاب محمد ﷺ: قولوا، أيها المؤمنون، لليهود

---

(١) جامع البيان (٣/ ١٢٠-١٢١ تحقيق شاكر).

والنصارى الذين قالوا لكم: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾؟ يعني بقوله: ﴿فِى ٱللَّهِ﴾، في دين اللَّه الذي أمرنا أن ندينه به، وربنا وربكم واحد عدل لا يجور، وإنما يجازي العباد على ما اكتسبوا، وتزعمون أنكم أولى باللَّه منا، لقدم دينكم وكتابكم ونبيكم، ونحن مخلصون له العبادة، لم نشرك به شيئًا، وقد أشركتم في عبادتكم إياه، فعبد بعضكم العجل، وبعضكم المسيح، فأنى تكونون خيرًا منا، وأولى باللَّه منا؟»[(١)].

وقال ابن كثير: «يقول اللَّه تعالى مرشدًا نبيه -صلوات اللَّه وسلامه عليه- إلى درء مجادلة المشركين: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ أي تناظروننا في توحيد اللَّه والإخلاص له والانقياد واتباع أوامره وترك زواجره ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ المتصرف فينا وفيكم المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له ﴿وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ أي نحن براء منكم ومما تعبدون وأنتم براء منا، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[(٢)] وقال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾[(٣)] إلى آخر الآية؛ وقال تعالى إخبارا عن إبراهيم: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ﴾[(٤)] إلى آخر الآية؛ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾[(٥)] الآية»[(٦)].

وقال السعدي: «المحاجة هي: المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلق بالمسائل الخلافية، حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله، وإبطال قول خصمه.

فكل واحد منهما، يجتهد في إقامة الحجة على ذلك. والمطلوب منها، أن تكون بالتي هي أحسن، بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق، ويقيم الحجة على المعاند، ويوضح الحق، ويبين الباطل. فإن خرجت عن هذه الأمور، كانت مماراة، ومخاصمة لا خير فيها، وأحدثت من الشر ما أحدثت. فكان أهل الكتاب، يزعمون أنهم أولى باللَّه من المسلمين، وهذا مجرد دعوى، تفتقر إلى برهان ودليل.

---

(١) جامع البيان (٣/ ١٢١-١٢٢ تحقيق شاكر).
(٢) يونس: الآية (٤١).
(٣) آل عمران: الآية (٢٠).
(٤) الأنعام: الآية (٨٠).
(٥) البقرة: الآية (٢٥٨).
(٦) تفسير ابن كثير (١/ ٣٣١).

فإذا كان رب الجميع واحدًا، ليس ربا لكم دوننا، وكل منا ومنكم، له عمله، فاستوينا نحن وأنتم بذلك، فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى باللَّه من غيره.

لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء، من غير فرق ومؤثر، دعوى باطلة، وتفريق بين متماثلين، ومكابرة ظاهرة. وإنما يحصل التفضيل، بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده. وهذه الحالة، وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى باللَّه من غيرهم؛ لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص.

فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بالأوصاف الحقيقية، التي يسلمها أهل العقول، ولا ينازع فيها إلا كل مكابر جهول.

ففي هذه الآية، إرشاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين»[1].

وقال **الشيخ محمد بن عبد الوهاب**: «ذكر بعض ما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾، من بيان الحق وإبطال الباطل:

الأولى: إذا كانت المحاجة في اللَّه سبحانه من أقرب ما يكون إليه من المختلفين في مسألة التوحيد، وبيان ذلك بمعرفة اللَّه تعالى فيما اجتمعنا وإياكم عليه، ومعرفة حالنا وحالكم في المسألة، وذلك أنا مجمعون على استوائنا وإياكم في العبودية، بخلاف ملوك الدنيا، فإن بعض الناس يكون أقرب إليهم من بعض بالقرابة وغيرها. ونحن مجمعون أيضًا أنه لا يظلم أحدًا من عبيده، بل كل نفس ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[2]. بخلاف ملوك الدنيا فإنهم يأخذون مال هذا ويعطونه هذا، فإذا كان الأمر كذلك فكيف تدعون أنكم أولى باللَّه منا، ونحن له مخلصون وأنتم به مشركون؟ وكيف يظن به أنه يساوي بين من قصده وحده لا شريك له، ومن قصد غيره وأعرض عنه؟ وهل يظن عاقل أو سفيه برجل من بني آدم خصوصا إذا كان كريمًا، أن من قصده وضاف عنده يكرهه ولا يضيفه، ويخص

---

(١) تفسير السعدي (١/ ١٥٢-١٥٣).

(٢) البقرة: الآية (٢٨٦).

بالرضا والكرامة والضيافة من أعرض عنه وضاف عند غيره، مع استواء الجميع في القرب منه والبعد؟ هذا لا يظن في الآدمي فكيف يظن برب العالمين؟

فتبين بقضية العقل؛ أن ما جاءت به الرسل من الإخلاص هو الموافق للعقل، وما فعل المشركون هو العجاب المخالف للعقل، فيا لها من حجة ما أعظمها وأبينها، لكن لمن فهمها كما ينبغي»[1].

* * *

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ٤٢-٤٣).

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠)﴾

★ **غريب الآية:**

كَتَمَ: أَسَرَّ وأَخْفَى.

غافل: الغفلة: السهو والنسيان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذه الآية أيضًا احتجاج من اللَّه -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ على اليهود والنصارى، الذين ذكر اللَّه قصصهم. يقول اللَّه لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى: أتحاجوننا في اللَّه، وتزعمون أن دينكم أفضل من ديننا، وأنكم على هدى نحن على ضلالة، ببرهان من اللَّه -تعالى ذكره-، فتدعوننا إلى دينكم؟ فهاتوا برهانكم على ذلك فنتبعكم عليه، أم تقولون: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودًا أو نصارى على دينكم؟ فهاتوا على دعواكم ما ادعيتم من ذلك برهانًا، فنصدقكم، فإن اللَّه قد جعلهم أئمة يقتدى بهم.

ثم قال -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ: قل لهم يا محمد إن ادعوا أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودًا أو نصارى، أأنتم أعلم بهم وبما كانوا عليهم من الأديان أم الله؟»[١].

وقال ابن كثير: «وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أي: نحن براء منكم كما أنتم براء منا، ونحن له مخلصون؛ أي: في العبادة والتوجه، ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء

(١) جامع البيان (٣/ ١٢٣-١٢٤ تحقيق شاكر).

والأسباط، كانوا على ملتهم إما اليهودية وإما النصرانية، فقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾ يعني بل اللَّه أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هودًا ولا نصارى كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1] الآية والتي بعدها؛ وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ﴾ قال الحسن البصري: كانوا يقرءون في كتاب اللَّه الذي أتاهم، إن الدين الإسلام، وإن محمدًا رسول اللَّه، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، كانوا براء من اليهودية والنصرانية فشهدوا لله بذلك، وأقروا على أنفسهم لله، فكتموا شهادة اللَّه عندهم من ذلك، وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد ووعيد شديد؛ أي: أن علمه محيط بعلمكم وسيجزيكم عليه»[2].

وقال ابن جرير: «وقل لهؤلاء اليهود والنصارى، الذين يحاجونك يا محمد: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، من كتمانكم الحق فيما ألزمكم في كتابه بيانه للناس من أمر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط في أمر الإسلام، وأنهم كانوا مسلمين، وأن الحنيفية المسلمة دين اللَّه الذي على جميع الخلق الدينونة به، دون اليهودية والنصرانية وغيرهما من الملل ولا هو ساه عن عقابكم على فعلكم ذلك، بل هو محص عليكم حتى يجازيكم به من الجزاء ما أنتم له أهل في عاجل الدنيا وآجل الآخرة. فجازاهم عاجلًا في الدنيا، بقتل بعضهم، وإجلاءه عن وطنه وداره، وهو مجازيهم في الآخرة العذاب المهين»[3].

وقال السعدي: «وهذه دعوى أخرى منهم، ومحاجة في رسل اللَّه، زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين. فرد اللَّه عليهم بقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾ فاللَّه يقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[4] وهم يقولون: بل كان يهوديًّا أو نصرانيًّا.

فإما أن يكونوا، هم الصادقين العالمين، أو يكون اللَّه تعالى هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة. وصورة الجواب مبهم، وهو في غاية الوضوح والبيان. حتى إنه من وضوحه لم يحتج أن يقول بل اللَّه أعلم وهو أصدق،

---

(١) آل عمران: الآية (٦٧).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٣١-٣٣٢).
(٣) جامع البيان (٣/ ١٢٧ تحقيق شاكر).
(٤) آل عمران: الآية (٦٧).

ونحو ذلك، لانجلائه لكل أحد. كما إذا قيل: الليل أنور، أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك.

وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء، لم يكونوا هودًا ولا نصارى، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة، فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ فهي شهادة عندهم، مودعة من اللَّه، لا من الخلق، فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتموها، وأظهروا ضدها. جمعوا بين كتم الحق، وعدم النطق به، وإظهار الباطل، والدعوة إليه. أليس هذا، أعظم الظلم؟ بلى واللَّه، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة. فلهذا قال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل قد أحصى أعمالهم، وعدها وادخر لهم جزاءها، فبئس الجزاء جزاؤهم، وبئست النار مثوى للظالمين. وهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها. فيفيد ذلك الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب. ويفيد أيضًا، ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام، أن الأمر الديني والجزائي، أثر من آثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتضية له»[1].

وقال الرازي: «أما قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فهو الكلام الجامع لكل وعيد، ومن تصور أنه تعالى عالم بسره وإعلانه، ولا يخفى عليه خافية أنه من وراء مجازاته إن خيرا فخير، وإن شرًّا فشر، لا يمضي عليه طرفة عين إلا وهو حذر خائف، ألا ترى أن أحدنا لو كان عليه رقيب من جهة سلطان يعد عليه الأنفاس لكان دائم الحذر والوجل، مع أن ذلك الرقيب لا يعرف إلا الظاهر، فكيف بالرب الرقيب الذي يعلم السر وأخفى، إذا هدد وأوعد بهذا الجنس من القول»[2].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «فيها مسائل:

الأولى: إن كانت الخصومة في الصالحين ودعواهم أنهم على طريقهم، فهم لا يقدرون أن يدعوا أن رسول اللَّه ﷺ وأصحابه على طريقتهم، بل يصرحون أنهم على غيرها، ولكن يعتذرون أنهم لا يقدرون عليها، فكيف هذا التناقض؟ يدعون

---

(١) تفسير السعدي (١/ ١٥٣-١٥٤).
(٢) تفسير الرازي (٤/ ١٠٠).

أنهم تابعوهم مع تحريهم اتباعهم، وزعمهم أن أحدا لا يقدر عليه! .

الثانية: قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ فهذه لا يقدر أحد أن يعارضها، فإذا سلمها وسلم لك أن العلم الذي أنزله اللّه ليس هو لعدم القدرة فهذا الذي عليه غيره، وهذا إلزام لا محيد عنه.

الثالثة: أن منهم من يعرف الحق ويكتمه خوفًا من الناس مع كونه لا ينكره، فلا أظلم ممن كتم شهادة عنده من اللّه، فكيف بمن جمع مع الكتمان، دفعها وسبها وتكفير من آمن بها؟

الرابعة: الوعيد بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ واللّه أعلم»[١].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما قوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ﴾ الآية.

فهذه حجة أخرى، وبيانها أنا إذا أجمعنا على الإمام والأئمة أنهم ومن اتبعهم على الحق، ومن خالفهم فهو على الباطل، فهذه أيضًا مثل التي قبلها، فإذا كان رسول اللّه ﷺ وأصحابه والأئمة بعدهم قد أجمعنا أنهم ومن اتبعهم على الحق، ومن خالفهم فهو على الباطل.

فنقول: هذه المسألة التي اختلفنا وإياكم فيها هل: رسول اللّه ﷺ وأصحابه على قولنا أو على قولكم؟

فإذا أقروا أن دعاء أهل القبور والبناء عليها، وجعل الأوقاف والسدنة عليها من دين الجاهلية، فلما بعث اللّه محمدًا ﷺ نهى عن ذلك كله، وهدم البناء الذي جعلته الجاهلية على القبور، ونهى عن دعاء الصالحين، وعن التعلق بهم، وأمر بإخلاص الدعوة لله، وأمر بإخلاص الاستعانة لله، وبلغنا عن اللّه أنه يقول: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[٢]، ومضى رسول اللّه ﷺ وأصحابه والتابعون وأتباعهم، والأئمة وأصحابهم على ذلك؛ ولم يحدث هذا إلا بعد ذلك، أعني دعاء غير اللّه والبناء على القبور، وما يتبع ذلك من المنكرات؛ فكيف تقرون أن رسول اللّه ﷺ وأصحابه والأئمة بعدهم على ما نحن عليه، ثم تنكرونه أعظم من إنكار دين اليهود والنصارى، مع إقراركم أنه الدين الذي عليه رسول اللّه ﷺ وأصحابه والأئمة؟ أم

---

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ٥٣-٥٤). (٢) الجن: الآية (١٨).

كيف تنصرون الشرك وما يتبعه، وتبذلون في نصره النفس والمال مع إقراركم أنه دين الجاهلية المشركين؟ هذا هو الشيء العجاب، لا جعل الآلهة إلهًا واحدًا، يا أعداء اللَّه لو كنتم تعقلون!!

وليس هذا في هذه المسألة وحدها، بل كل مسألة اختلفنا وإياهم فيها، وأقروا أن ما نحن عليه هو الذي عليه رسول اللَّه ﷺ وأصحابه، فهذه الخصومة فيها واقعة فاصلة لها، فإن أقروا بذلك ولكن زعموا أن الناس أحدثوا أمورًا تقتضي حسن ما هم عليه كقولهم: هذه بدعة حسنة فيها من المصالح كذا وكذا، وفي تركها من المفاسد كذا وكذا. فيجاوبون بالمسألة الثالثة، وهي قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾. فإذا كان رسول اللَّه ﷺ بإقراركم أوصانا بقوله: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**»[1]، فقد أقررتم أنه أمر بلزوم ما أمرتم بتركه، وأنه نهي عما أمرتم بفعله، مع إقراركم أنه أوصى بهذه الوصية عند وقوع الاختلاف في أمته، مع إقراركم أنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فاللَّه سبحانه قد علم ما يحدث في خلقه إلى يوم القيامة، ومع هذا أمر بطاعة رسوله الذي أقررتم به وأنتم تشهدون أنه قاله؛ فإذا بان لك أن الأولى في الأمر بالإخلاص والنهي عن الشرك، وأن الثانية في الأمر بلزوم السنة والنهي عن البدعة، بان لك أن هذا هو تقرير القاعدتين اللتين عليهما مدار الدين، وهما: لا يعبد إلا اللَّه، والثانية: لا يعبد إلا بما شرع، فالأولى قوله: «**إنما الأعمال بالنيات**»[2]، والثانية قوله: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[3].

فإن كان المحاج لا يقر ببعض ذلك بل أنكر شيئًا من تفاصيل ما ذكرنا، فهي المسألة الرابعة وهو قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ فإذا كان

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٦-١٢٧) وأبو داود (٥/ ١٣-١٥/ ٤٦٠٧) والترمذي (٥/ ٤٣/ ٢٦٧٦) وقال: «حسن صحيح». وابن ماجه (١/ ١٦-١٧/ ٤٣-٤٤) وصححه ابن حبان (١/ ١٧٨-١٧٩/ ٥) والحاكم (١/ ٩٥-٩٦) ووافقه الذهبي، كلهم من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٥) والبخاري (١/ ١١/ ١) ومسلم (٣/ ١٥١٥/ ١٩٠٧) وأبو داود (٢/ ٦٥١-٦٥٢/ ٢٢٠١) والترمذي (٤/ ١٥٤/ ١٦٤٧) والنسائي (١/ ٦٢-٦٣/ ٧٥) وابن ماجه (٢/ ١٤١٣/ ٤٢٢٧) من حديث عمر ﷺ.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ: مسلم (٣/ ١٣٤٣-١٣٤٤/ ١٧١٨ [١٨]) وأخرجه بلفظ: (من أحدث في أمرنا هذا..) أحمد (٦/ ٢٤٠) والبخاري (٥/ ٣٧٧/ ٢٦٩٧) ومسلم (٣/ ١٣٤٣/ ١٧١٨[١٧]) وأبو داود (٥/ ١٢/ ٤٦٠٦) وابن ماجه (١/ ٧/ ١٤) من حديث عائشة ﷺ.

هذا في الكاتم مع المحبة وتمني ظهوره، ولكن أحب الدنيا عليه، فكيف بالكاتم المبغض؟

فإن كان يدعي أنه لم يفعل ذلك، وأنه تابع لهذا الحق لكنه يكتم إيمانه كمؤمن آل فرعون، مع معرفتك أنه كاذب فهي المسألة الخامسة، وهي: أن تقول له: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾»[1].

قلت: رحم اللّٰه الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب على هذا التقرير العظيم، في محاجة أهل الباطل من عباد القبور والأحجار والأشجار والنجوم والشيوخ الأحياء الذين زعموا عصمتهم وتقديسهم، حيث قرّر أن هذا الأمر هو ما كان عليه أهل الجاهلية، وأن الرسول -عليه الصلاة والسلام- جاء لإبعاده وإزالته، والصحابة -رضوان اللّٰه عليهم- تابعوه على ذلك، فهل هذا هو الحق أو الرجوع إلى ما كان عليه أهل الجاهلية من تخبط مزر، وشرك مفضوح وبدع مختلفة من الجهال الأدعياء، أم التوحيد والسنة الواضحة البيضاء؟ كل هذا ومثله مما قرره الشيخ محمد مما يجب التنبه له، والحذر مما كان عليه أهل الجاهلية، فاللّٰه -تبارك وتعالى- يقرر في هذه الآية أن العلم علم، والوحي وحي، فمن علم ذلك وكتمه فهو من أظلم الناس وأضلهم، فيجب على العلماء الذين علموا السنة وعلموا مصادرها وحقائقها الثابتة الصحيحة أن يبلغوا ذلك لأمة محمد ﷺ، وأن لا يستبدلوا ذلك بمصالحهم وأغراضهم ومناصبهم التي يؤثرونها على ما عند اللّٰه من خير، وهذا -في الحقيقة- واقع أهل زماننا في كل مكان؛ فإن بعضهم كتموا الحق وآثروا مصالحهم على ما عند اللّٰه.

* * *

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ٥٤-٥٧).

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فمعنى الآية إذا: قل يا محمد لهؤلاء الذين يجادلونك في اللَّه من اليهود والنصارى، إن كتموا ما عندهم من الشهادة في أمر إبراهيم ومن سمينا معه، وأنهم كانوا مسلمين، وزعموا أنهم كانوا هودًا أو نصارى، فكذبوا: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط أمة قد خلت أي: مضت لسبيلها فصارت إلى ربها، وخلت بأعمالها وآمالها، لها عند اللَّه ما كسبت من خير في أيام حياتها، وعليها ما اكتسبت من شر، لا ينفعها غير صالح أعمالها، ولا يضرها إلا سيئها. فاعلموا أيها اليهود والنصارى ذلك، فإنكم إن كان هؤلاء وهم الذين بهم تفتخرون، وتزعمون أن بهم ترجون النجاة من عذاب ربكم، مع سيئاتكم وعظيم خطيئاتكم لا ينفعهم عند اللَّه غير ما قدموا من صالح الأعمال، ولا يضرهم غير سيئها، فأنتم كذلك أحرى أن لا ينفعكم عند اللَّه غير ما قدمتم من صالح الأعمال، ولا يضركم غير سيئها. فاحذروا على أنفسكم، وبادروا خروجها بالتوبة والإنابة إلى اللَّه مما أنتم عليه من الكفر والضلالة والفرية على اللَّه وعلى أنبيائه ورسله، ودعوا الاتكال على فضائل الآباء والأجداد، فإنما لكم ما كسبتم، وعليكم ما اكتسبتم، ولا تسألون عما كان إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط يعملون من الأعمال؛ لأن كل نفس قدمت على اللَّه يوم القيامة، فإنما تسأل عما كسبت وأسلفت، دون ما أسلف غيرها»[1].

وقال ابن كثير: «أي: قد مضت، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا منقادين

---

(١) جامع البيان (٣/ ١٢٨-١٢٩ تحقيق شاكر).

مثلهم لأوامر اللَّه واتباع رسله الذين بعثوا مبشرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبي واحد، فقد كفر بسائر الرسل ولاسيما بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من المكلفين، صلوات اللَّه وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء اللَّه أجمعين»[١].

قلت: هكذا يفصل القرآن بين الأبناء والآباء، وبين الخلف والسلف، وبين الأنبياء وذرياتهم، فالميزان في الجميع هو الاتباع لما بلغه أنبياؤه ورسله، فلا ينفع التغني بنسب، ولا نسبة إلى نبي أو صحابي أو تابعي أو عالم أو رجل صالح، فالكل له عمله، ويجزى بعمله ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٢] ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾[٣]، فالانتساب وحده لا يكفي مهما كانت صحة النسب، فمن انتسب مثلًا إلى آل النبي ﷺ وهو مخالف له ﷺ فيما جاء به؛ فلا يغني عنه ذلك الانتساب شيئًا، كما صرح بذلك الرسول ﷺ حيث قال: «**يا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من اللَّه شيئًا. . يا عباس. . يا صفية. .** »[٤]، وما أكثر المتغنين في هذا الزمان بالأنساب والطوائف، وهم مخالفون لأصولهم وأجدادهم فيما كانوا عليه من متابعة للرسول ﷺ، كما عاب اللَّه على بني إسرائيل الذين زعموا الانتساب إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وهم مخالفون لهم في التوحيد والدعوة والاستقامة على شرع اللَّه، كل ذلك لا يغني عنهم من اللَّه شيئًا.

فاللهم وفقنا لمتابعة دينك والاهتداء بهديك، والائتساء بأسوتك، وجنبنا الزيغ والضلال والأهواء والبدع ما ظهر منها وما بطن، آمين.

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٣٢).
(٢) المدثر: الآية (٣٨).
(٣) لقمان: الآية (٣٣).
(٤) تقدم تخريجه عند الآية (١٢٣).

قوله تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٤٢﴾

★ غريب الآية:

السفهاء: واحدها: سفيه، وهو الضعيف الرأي: الخفيف الحِلم، الذي ليس له خبرة بمواطن النفع والضر، من قولهم: ثوب سفيه إذا خَفَّ نَسْجُهُ.

ما ولاهم: ما صرفهم.

قبلتهم: أصل القبلة الجهة، سميت بذلك لأنها تقابل المصلي ويقابلها، والمراد هنا: بيت المقدس.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله -جل ثناؤه-: سيقول السفهاء؛ سيقول الجهال من الناس، وهم اليهود وأهل النفاق، وإنما سماهم اللَّه ﷻ سفهاء؛ لأنهم سفهوا الحق، فتجاهلت أحبار اليهود، وتعاظمت جهالهم وأهل الغباء منهم عن اتباع محمد ﷺ؛ إذ كان من العرب ولم يكن من بني إسرائيل، وتحير المنافقون فتبلدوا»[١].

قال ابن كثير: «ولما وقع هذا[٢] حصل لبعض الناس -من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود- ارتياب وزيغ عن الهدى وتخبيط وشكّ، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ﴾، أي قالوا: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل اللَّه جوابهم في قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ﴾؛ أي: الحكم والتصرف والأمر كله لله ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾[٣]، و﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾[٤]، أي الشأن كله في امتثال أوامر اللَّه،

---

(١) جامع البيان (٢/١).

(٢) يعني تحويل القبلة.

(٣) البقرة: الآية (١١٥).

(٤) البقرة: الآية (١٧٧).

فحيثما وجّهَنا توجهنا، فالطاعة في امتثال أمره، ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة؛ فنحن عبيده وفي تصريفه وخدامه؛ حيثما وجهَنا توجهنا، وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد -صلوات اللَّه وسلامه عليه- وأمته عناية عظيمة؛ إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن، وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له، أشرف بيوت اللَّه في الأرض، إذ هي بناء إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾»[1].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ لم يبين هنا الصراط المستقيم، ولكنه بينه بقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[2]»[3].

وقال محمد رشيد رضا: «كان أنبياء بني إسرائيل يصلون إلى بيت المقدس، وكانت صخرة المسجد الأقصى هي قبلتهم، وقد صلى النبي والمسلمون إليها زمنا، وكان النبي ﷺ يتشوف لاستقبال الكعبة، يتمنى لو حول اللَّه القبلة إليها، فأمره اللَّه بذلك كما يأتي تفصيله في الآيات الآتية. وقد ابتدأ الكلام في هذه المسألة ببيان تفصيله في الآيات الآتية. وقد ابتدأ الكلام في هذه المسألة ببيان ما يقع من اعتراض اليهود وغيرهم على التحويل وإخبار اللَّه نبيه والمؤمنين به قبل وقوعه بقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ﴾ وتلقينهم الحجة البالغة عليه، والحكمة السديدة فيه، ويتضمن هذا بيان سر من أسرار الدين، وقاعدة كبرى من قواعد الإيمان، كان أهل الكتاب في غفلة عنها وجهل بها، فهذه الآيات متصلة بما قبلها في كونها محاجة لأهل الكتاب في أمر الدين لإمالتهم عن التقليد الأعمى فيه والجمود على ظواهره من غير تفقه فيه ولا نفوذ إلى أسراره وحكمه التي لم تشرع الأحكام إلا لأجلها.

ليست صخرة بين المقدس بأفضل من سائر الصخور في مادتها وجوهرها، وليس لها منافع وخواص لا توجد في غيرها، ولا هيكل سليمان في نفسه من حيث هو حجر وطين أفضل من سائر الأبنية. وكذلك يقال في الكعبة والبيت الحرام كما

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٣٤).

(٢) الفاتحة: الآيتان (٦و٧).

(٣) الأضواء (١/ ٨٧).

تقدم في تفسير ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾[(١)] وإنما يجعل اللَّه للناس قبلة لتكون جامعة لهم في عبادتهم إلى آخر ما تقدم شرحه في تفسيره ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾[(٢)] وفي الكلام على الكعبة والحج. ولكن سفهاء الأحلام من أهل الجمود يظنون أن القبلة أصل في الدين من حيث هي الصخرة المعينة، أو البناء المعين، ولذلك كانت الحجة التي لقنها اللَّه لنبيه في الرد على السفهاء الجاهلين بهذه الحكمة ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ﴾ أي: إن الجهات كلها لله تعالى لا فضل لجهة منها بذاتها على جهة، وإن لله أن يخصص منها ما شاء فيجعله قبلة لمن يشاء، وهو الذي ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو صراط الاعتدال في الأفكار والأخلاق والأعمال كما يبين في الآية الآتية. فعلم أن نسبة الجهات كلها إلى اللَّه تعالى واحدة وأن العبرة في التوجه إليه سبحانه بالقلوب لا بالوجوه»[(٣)].

وقال القاسمي: «ظاهر قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الخ أنه إخبار بقولهم المذكور. ثم إن الإخبار قبل وقوعه. وفائدته توطين النفس وإعداد ما يبكتهم، فإن مفاجأة المكروه على النفس أشق وأشد. والجواب العتيد لشغب الخصم الألد أرد، مع ما فيه من دلائل النبوة حيث يكون إخبارًا عن غيب، فيكون معجزًا ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ﴾ جواب عن شبهتهم. وتقريره أن الجهات كلها لله ملكًا. فلا يستحق شيء منها لذاته أن يكون قبلة. بل إنما تصير قبلة لأن اللَّه تعالى جعلها قبلة. فلا اعتراض عليه بالتحويل من جهة إلى أخرى. وما أمر به فهو الحق ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فيه تعظيم أهل الإسلام، وإظهار عنايته تعالى بهم، وتفخيم شأن الكعبة. كما فخمه بإضافته إليه في قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾[(٤)]»[(٥)].

وقال السعدي: «وقد اشتملت الآية الأولى على معجزة، وتسلية وتطمين قلوب المؤمنين، واعتراض وجوابه من ثلاثة أوجه، وصفة المعترض، وصفة المسلم لحكم اللَّه دينه.

فأخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس، وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم، بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن، وهم اليهود والنصارى، ومن

---

(١) البقرة: الآية (١٢٧).
(٢) البقرة: الآية (١١٥).
(٣) تفسير المنار (٢/ ١-٢).
(٤) الحج: الآية (٢٦).
(٥) محاسن التأويل (٢/ ٢٨٠).

أشبههم من المعترضين على أحكام اللَّه وشرائعه.

وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس، مدة مقامهم بمكة. ثم بعد الهجرة إلى المدينة، نحو سنة ونصف -لما لله في ذلك من الحكم التي سيشير إلى بعضها، وكانت حكمته تقتضي أمرهم باستقبال الكعبة. فأخبرهم أنه لابد أن يقول السفهاء من الناس: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ وهي استقبال بيت المقدس؛ أي: أي شيء صرفهم عنه؟.

وفي ذلك الاعتراض على حكم اللَّه وشرعه، وفضله وإحسانه.

فسلاهم، وأخبر بوقوعه، وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه، قليل العقل، والحلم والديانة. فلا تبالوا بهم، إذ قد علم مصدر هذا الكلام.

فالعاقل لا يبالي باعتراض السفيه، ولا يلقي له ذهنه. ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام اللَّه، إلا سفيه جاهل معاند. وأما الرشيد المؤمن العاقل، فيتلقى أحكام ربه بالقبول، والانقياد، والتسليم كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1]. ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[2] الآية. ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[3].

وقد كان في قوله: ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ ما يغني عن رد قولهم، وعدم المبالاة به. ولكنه تعالى -مع هذا- لم يترك هذه الشبهة، حتى أزالها وكشفها مما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض، فقال تعالى: ﴿قُل﴾ لهم مجيبًا ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي: فإذا كان المشرق والمغرب ملكا لله، ليس جهة من الجهات خارجة من ملكه، ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التي هي من ملة إبراهيم -فلأي شيء يعترض المعترض بتوليتكم قبلة داخلة تحت ملك اللَّه، لم تستقبلوا جهة ليست ملكًا له؟ فهذا يوجب التسليم لأمره، بمجرد ذلك. فكيف، وهو من فضل اللَّه عليكم، وهدايته وإحسانه، أن هداكم لذلك.

---

(١) الأحزاب: الآية (٣٦). (٢) النساء: الآية (٦٥).
(٣) النور: الآية (٥١).

فالمعترض عليكم، معترض على فضل اللَّه، حسدًا لكم وبغيًا.

ولما كان قوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مطلقًا، والمطلق يحمل على المقيد، فإن الهداية والضلال، لهما أسباب أوجبتها حكمة اللَّه وعدله، وقد أخبر في غير موضع من كتابه بأسباب الهداية، التي إذا أتى بها العبد حصل له الهدى كما قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾[1]»[2].

قال القرطبي: «في هذه الآية دليل واضح على أن في أحكام اللَّه تعالى وكتابه ناسخًا ومنسوخًا، وأجمعت عليه الأمة إلا من شذ، كما تقدم[3]. وأجمع العلماء على أن القبلة أول ما نسخ من القرآن، وأنها نسخت مرتين، على أحد القولين المذكورين في المسألة قبل.

ودلت أيضًا على جواز نسخ السنة بالقرآن؛ وذلك أن النبي ﷺ صلى نحو بيت المقدس؛ وليس في ذلك قرآن، فلم يكن الحكم إلا من جهة السنة، ثم نسخ ذلك بالقرآن؛ وعلى هذا يكون ﴿كُنتَ عَلَيْهَآ﴾[4] بمعنى أنت عليها»[5].

قلت: ومما تقدم من كلام أهل العلم في تأويل هذه الآية نخلص إلى ما يلي:

أولًا: أن الأعداء دائمًا متربصون بأهل الإسلام، وأنهم متى وجدوا إلى زعزعة أمن المسلمين وعقيدتهم ودينهم بابًا دخلوا منه، ولو كان ذلك الباب من المستحيل.

ثانيًا: أن المسلم الحق هو الذي يكون فيه كامل الاستسلام للَّه تعالى، فلا يعترض على أي حكم من الأحكام كما اعترض الملاحدة على الحدود كلها، فاعترضوا على قطع يد السارق، وعلى رجم الزاني المحصن، وعلى غيرهما، فسعوا إلى رفع أحكام اللَّه من الأرض، بدعوى أن الحدود لا تناسب العصر، وحسبوا كثيرًا من الأحكام والسنن قشورًا وجزئيات، واعتراضاتهم على أحكام اللَّه كثيرة.

ثالثًا: اعتراض المبتدعة على أهل السنة في تمسكهم بالسنة والاعتصام بها، ورميهم بالجمود والظاهرية، وبلغة زنادقة العصر متشددون وإرهابيون، وغيرها من

---

(١) المائدة: الآية (١٦). (٢) تفسير السعدي (١/ ١٥٥-١٥٧).

(٣) عند قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ الآية (١٠٦).

(٤) البقرة: الآية (١٤٣). (٥) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٥١).

الألفاظ المستوردة من أهل الكفر والزندقة.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحويل القبلة

* عن البراء ﷺ قال: «كان رسول اللَّه ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر -أو سبعة عشر- شهرًا، وكان رسول اللَّه ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[1] فتوجه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس -وهم اليهود-: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾فصلى مع النبي ﷺ رجل، ثم خرج بعد ما صلى فمر على قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال: هو يشهد أنه صلى مع رسول اللَّه ﷺ، وأنه توجه نحو الكعبة، فتحرف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة»[2].

★ فوائد الحديث:

قال أبو عمر: «وهذا الحديث أصل في كل من صلى على حال ثم تغيرت به حاله تلك قبل أن يتم صلاته، أنه يتمها ولا يقطعها ليستأنف غيرها، ويُجزيه ما مضى منها وما أتمه على غير سنته، كمن صلى عريانًا، ثم وجد ثوبًا في الصلاة، أو ابتدأ صلاته صحيحًا فمرض، أو مريضا فصح، أو قاعدًا، ثم قدر على القيام..

وفيه دليل على أن بيت المقدس كان رسول اللَّه ﷺ وأصحابه يصلون إليه إذ قدموا المدينة، وذلك بأمر اللَّه لهم بذلك لا محالة، ثم نسخ اللَّه ذلك وأمره أن يستقبل بصلاته الكعبة، وكان رسول اللَّه ﷺ يريد ذلك، ويرفع طرفه إلى السماء فيه، فأنزل اللَّه ﷻ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[3]»[4].

قال القرطبي: «وفيها دليل على أن من لم يبلغه الناسخ أنه متعبّد بالحكم الأول، خلافًا لمن قال: إن الحكم الأول يرتفع بوجود الناسخ لا بالعلم به، والأول أصحّ؛ لأن أهل قباء لم يزالوا يصلون إلى بيت المقدس إلى أن أتاهم الآتي فأخبرهم

---

(١) البقرة: الآية (١٤٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٤) والبخاري (١/ ٦٦١/ ٣٩٩) ومسلم (١/ ٣٧٤/ ٥٢٥) والترمذي (٥/ ١٩١/ ٢٩٦٢) والنسائي (٢/ ٣٩٣/ ٧٤١) وابن ماجه (١/ ٣٢٢-٣٢٣/ ١٠١٠).

(٣) البقرة: الآية (١٤٤).

(٤) فتح البر (٤/ ٢٩٨).

بالناسخ، فمالوا نحو الكعبة، فالناسخ إذا حصل في الوجود فهو رافع لا محالة، لكن بشرط العلم به؛ لأن الناسخ خطاب ولا يكون خطابًا في حق من لم يبلغه، وفائدة هذا الخلاف في عبادات فعلت بعد النسخ وقبل البلاغ هل تعاد أم لا؟ وعليه تنبني مسألة الوكيل في تصرفه بعد عزل موكِّله أو موته، وقبل علمه بذلك على قولين، وكذلك المقارَض والحاكم إذا مات من ولَّاه أو عزل، والصحيح أن ما فعله كل واحد من هؤلاء ينفَّذ فعله ولا يردّ حكمه»[(١)].

قال ابن حجر: «وفيه أن تمني تغيير بعض الأحكام جائز إذا ظهرت المصلحة في ذلك، وفيه بيان شرف المصطفى ﷺ، وكرامته على ربه، لإعطائه له ما أحب من غير تصريح بالسؤال، وفيه بيان ما كان في الصحابة من الحرص على دينهم والشفقة على إخوانهم»[(٢)].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول اللَّه ﷺ لما هاجر إلى المدينة -وكان أكثر أهلها اليهود- أمره اللَّه عز وجل أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول اللَّه ﷺ بضعة عشر شهرًا، فكان رسول اللَّه ﷺ يحب قبلة إبراهيم عليه السلام، فكان يدعو اللَّه وينظر إلى السماء، فأنزل اللَّه -تبارك وتعالى-: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ فأنزل اللَّه عز وجل: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[(٣)]»[(٤)].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عبد البر: «أجمع العلماء أن شأن القبلة أول ما نسخ من القرآن، وأجمعوا أن ذلك كان بالمدينة، وأن رسول اللَّه ﷺ إنما صرف عن الصلاة إلى بيت المقدس وأمر بالصلاة إلى الكعبة بالمدينة، واختلفوا في صلاته ﷺ حين فرضت عليه الصلاة بمكة هل كانت إلى بيت المقدس؟ أو إلى مكة؟ فقالت طائفة: كانت

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٥٢).

(٢) فتح الباري (١/ ١٣٢-١٣٣).

(٣) البقرة: الآية (١١٥).

(٤) أخرجه: ابن جرير (١/ ٥٠٢) وابن أبي حاتم (١/ ٢٤٨/ ١٣٢٩) والحاكم (٢/ ٢٦٧-٢٦٨) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة» ووافقه الذهبي.

صلاته إلى بيت المقدس من حين فرضت عليه الصلاة بمكة إلى أن قدم المدينة، ثم بالمدينة سبعة عشر شهرًا أو نحوها حتى صرفه اللَّه إلى الكعبة»[١].

قال الحافظ: «وظاهر حديث ابن عباس هذا أن استقبال بيت المقدس إنما وقع بعد الهجرة إلى المدينة، لكن أخرج أحمد من وجه آخر عن ابن عباس: «كان النبي ﷺ يصلي بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه»[٢]، والجمع بينهما ممكن بأن يكون أُمر ﷺ لما هاجر أن يستمر على الصلاة لبيت المقدس، وأخرج الطبري من طريق ابن جريج قال: «صلى النبي ﷺ أول ما صلى إلى الكعبة، ثم صرف إلى بيت المقدس وهو بمكة فصلى ثلاث حجج، ثم هاجر فصلى إليه بعد قدومه المدينة ستة عشر شهرًا، ثم وجهه اللَّه إلى الكعبة»[٣]، فقوله في حديث ابن عباس الأول: أمره الله؛ يردّ قول من قال: إنه صلى إلى بيت المقدس باجتهاد، وقد أخرجه الطبري عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف، وعن أبي العالية أنه ﷺ صلى إلى بيت المقدس يتألف أهل الكتاب، وهذا لا ينفي أن يكون بتوقيف»[٤].

وقال: «إن العلماء اختلفوا في الجهة التي كان النبي ﷺ يتوجه إليها للصلاة وهو بمكة، فقال ابن عباس وغيره: كان يصلى إلى بيت المقدس لكنه لا يستدبر الكعبة، بل يجعلها بينه وبين بيت المقدس. وأطلق آخرون أنه كان يصلي إلى بيت المقدس. وقال آخرون: كان يصلي إلى الكعبة، فلما تحول إلى المدينة استقبل بيت المقدس، وهذا ضعيف، ويلزم منه دعوى النسخ مرتين، والأول أصحّ؛ لأنه يجمع بين القولين، وقد صححه الحاكم وغيره من حديث ابن عباس»[٥].

* * *

---

(١) فتح البر (٤/ ٣٠٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٥) والطبراني (١١/ ٦٧/ ١١٠٦٦) والبزار (١/ ٢١٠-٢١١/ ٤١٨) وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ١٢): ورجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه الطبري (٢/ ٥).

(٤) الفتح (١/ ٦٦١-٦٦٢).

(٥) الفتح (١/ ١٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ الآية؛ أي: خيارًا عدولًا، ويدل لأن الوسط الخيار العدول، قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٢] وذلك معروف في كلام العرب...

قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ لم يبين هنا هل هو شهيد عليهم في الدنيا أو الآخرة؟ ولكنه بين في موضع آخر: أنه شهيد عليهم في الآخرة وذلك في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[٣]»[٤].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم ﷺ، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل، والوسط ههنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا؛ أي: خيرها، وكان رسول اللّه ﷺ وسطًا في قومه؛ أي: أشرفهم نسبًا، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات، وهي العصر، كما ثبت في الصحاح وغيرها، ولما جعل اللّه هذه الأمة وسطًا خصها بأكمل الشرائع، وأقوم المناهج، وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ﴾[٥]»[٦].

قال محمد رشيد رضا: «قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ وهو تصريح

---

(١) البقرة: الآية (١٤٣).
(٢) آل عمران: الآية (١١٠).
(٣) النساء: الآيتان (٤١-٤٢).
(٤) الأضواء (١/ ٨٧).
(٥) سورة الحج: الآية (٧٨).
(٦) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٣٥).

بما فهم من قوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١] إلخ أي: على هذا النحو من الهداية جعلناكم أمة وسطًا، قالوا إن الوسط هو الخيار، وذلك أن الزيادة على المطلوب في الأمر إفراط، والنقص عنه تفريط وتقصير، وكل من الإفراط والتفريط ميل عن الجادة القويمة فهو شر ومذموم، فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر أي: المتوسط بينهما. قال الأستاذ الإمام بعد إيراد هذا: ولكن يقال لِم اختير لفظ الوسط على لفظ الخيار مع أن هذا هو المقصود، والأول إنما يدل عليه بالالتزام؟ والجواب من وجهين: أحدهما أن وجه الاختيار هو التمهيد للتعليل الآتي، فإن الشاهد على الشيء لابد أن يكون عارفًا به، ومن كان متوسطًا بين شيئين فإنه يرى أحدهما من جانب، وثانيهما من الجانب الآخر، وأما من كان في أحد الطرفين فلا يعرف حقيقة حال الطرف الآخر ولا حال الوسط أيضًا. وثانيهما أن في لفظ الوسط إشعارًا بالسببية، فكأنه دليل على نفسه؛ أي: أن المسلمين خيار وعدول؛ لأنهم وسط أي أنهم ليسوا من أرباب الغلو في الدين المفرطين، ولا من أرباب التعطيل المفرطين، فهم كذلك في العقائد والأخلاق والأعمال»[٢].

قال شيخ الإسلام: «فالمسلمون وسط في أنبياء اللَّه ورسله وعباده الصالحين، لم يغلوا فيهم كما غلت النصارى، فـ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٣]. ولا جفوا عنهم كما جفت اليهود، فكانوا يقتلون الأنبياء بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، وكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقا وقتلوا فريقًا. بل المؤمنون آمنوا برسل اللَّه وعزروهم ونصروهم ووقروهم وأحبوهم وأطاعوهم، ولم يعبدوهم ولم يتخذوهم أربابا كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٤]. ومن ذلك أن المؤمنين توسطوا في المسيح، فلم يقولوا: هو اللَّه، ولا ابن اللَّه، ولا ثالث ثلاثة، كما تقوله النصارى، ولا كفروا به، وقالوا على مريم

---

(١) البقرة: الآية (١٤٢).
(٢) تفسير المنار (٢/ ٣).
(٣) التوبة: الآية (٣١).
(٤) آل عمران: الآيتان (٧٩و٨٠).

بهتانا عظيما، حتى جعلوه ولد بغية كما زعمت اليهود، بل قالوا: هذا عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول وروح منه. وكذلك المؤمنون وسط في شرائع دين اللَّه، فلم يحرِّموا على اللَّه أن ينسخ ما شاء ويمحو ما شاء ويثبت، كما قالته اليهود، كما حكى اللَّه تعالى ذلك عنهم بقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ وبقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾[١]. ولا جوزوا لأكابر علمائهم وعبادهم أن يغيروا دين اللَّه، فيأمروا بما شاؤا وينهوا عما شاؤوا، كما يفعله النصارى كما ذكر اللَّه ذلك عنهم بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال عدي بن حاتم رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله! ما عبدوهم. قال: «**ما عبدوهم، ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم**»[٢]. والمؤمنون قالوا: لله الخلق والأمر، فكما لا يخلق غيره لا يأمر غيره، وقالوا: سمعنا وأطعنا، فأطاعوا كل ما أمر اللَّه به، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[٣]، وأما المخلوق فليس له أن يبدل أمر الخالق تعالى ولو كان عظيما، وكذلك في صفات اللَّه تعالى؛ فإن اليهود وصفوا اللَّه تعالى بصفات المخلوق الناقصة، فقالوا: هو فقير ونحن أغنياء، وقالوا يد اللَّه مغلولة، وقالوا إنه تعب من الخلق فاستراح يوم السبت إلى غير ذلك، والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصة به، فقالوا: إنه يخلق ويرزق ويغفر ويرحم ويتوب على الخلق ويثيب ويعاقب، والمؤمنون آمنوا باللَّه سبحانه وتعالى، ليس له سمي ولا ند، ولم يكن له كفوا أحد، وليس كمثله شيء، فإنه رب العالمين وخالق كل شيء، وكل ما سواه عباد له فقراء إليه، ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾[٤]. . . وهذا باب يطول وصفه.

وهكذا أهل السنة والجماعة في الفرق، فهم في باب أسماء اللَّه وآياته وصفاته وسط بين أهل التعطيل الذين يلحدون في أسماء اللَّه وآياته، ويعطلون حقائق ما نعت اللَّه به نفسه، حتى يشبهوه بالعدم والموات، وبين أهل التمثيل الذين يضربون له الأمثال ويشبهونه بالمخلوقات، فيؤمن أهل السنة والجماعة بما وصف اللَّه به

---

(١) البقرة: الآية (٩١).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/٢٥٩-٢٦٠/ ٣٠٩٥) وقال: «حديث حسن غريب». وحسنه الشيخ الألباني في الصحيحة (رقم: ٣٢٩٣).

(٣) سورة المائدة: الآية (١).

(٤) مريم: الآيات: (٩٣-٩٥).

نفسه، وما وصفه به رسوله ﷺ؛ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف وتمثيل، وهم في باب خلقه وأمره وسط بين المكذبين بقدرة اللَّه، الذين لا يؤمنون بقدرته الكاملة، ومشيئته الشاملة، وخلقه لكل شيء؛ وبين المفسدين لدين اللَّه، الذين يجعلون العبد ليس له مشيئة ولا قدرة ولا عمل، فيعطلون الأمر والنهي والثواب والعقاب، فيصيرون بمنزلة المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾[1]، فيؤمن أهل السنة بأن اللَّه على كل شيء قدير، فيقدر أن يهدي العباد ويقلب قلوبهم، وأنه ما شاء اللَّه كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في ملكه ما لا يريد، ولا يعجز عن إنفاذ مراده، وأنه خالق كل شيء من الأعيان والصفات والحركات، ويؤمنون أن العبد له قدرة ومشيئة وعمل، وأنه مختار، ولا يسمونه مجبورًا؛ إذ المجبور من أكره على خلاف اختياره، واللَّه سبحانه جعل العبد مختارا لما يفعله فهو مختار مريد، واللَّه خالقه وخالق اختياره، وهذا ليس له نظير؛ فإن اللَّه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. وهم في باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد؛ وسط بين الوعيدية الذين يجعلون أهل الكبائر من المسلمين مخلدين في النار، ويخرجونهم من الإيمان بالكلية، ويكذبون بشفاعة النبي ﷺ؛ وبين المرجئة الذين يقولون: إيمان الفساق مثل إيمان الأنبياء، والأعمال الصالحة ليست من الدين والإيمان، ويكذبون بالوعيد والعقاب بالكلية، فيؤمن أهل السنة والجماعة بأن فساق المسلمين معهم بعض الإيمان وأصله، وليس معهم جميع الإيمان الواجب الذي يستوجبون به الجنة، وأنهم لا يخلدون في النار، بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، أو مثقال خردلة من إيمان، وأن النبي ﷺ ادخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته. وهم أيضًا في أصحاب رسول اللَّه ﷺ ورضي عنهم؛ وسط بين الغالية الذين يغالون في علي رضي الله عنه، فيفضلونه على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويعتقدون أنه الإمام المعصوم دونهما، وأن الصحابة ظلموا وفسقوا، وكفروا الأمة بعدهم كذلك، وربما جعلوه نبيا أو إلها؛ وبين الجافية الذين يعتقدون كفره وكفر عثمان رضي الله عنهما، ويستحلون دماءهما ودماء من تولاهما، ويستحبون سب علي وعثمان ونحوهما،

---

(١) الأنعام: الآية (١٤٨).

ويقدحون في خلافة علي ﷺ وإمامته. وكذلك في سائر أبواب السنة هم وسط؛ لأنهم متمسكون بكتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ وما اتفق عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان»[١].

قلت: مما تقدم من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة اللَّه عليه يتبين لك الوسطية الحقة، في تاريخ البشرية وفي تاريخ الأمم التي أنزل اللَّه فيها كتبه، فالنصارى انحرفوا وضلوا وأضلوا، فرفعوا المسيح فوق قدره وجعلوه إلهًا يعبد من دون اللَّه، واليهود انحرفوا في الأنبياء والرسل فقتلوهم وتمردوا عليهم، وقد بسط القرآن هذا بسطًا واسعًا، فلا يحتاج إلى كبير تقرير.

وفي أهل الإسلام غلت الروافض في علي وذريته، فوصفوهم بما لا يوصف به النبي ﷺ من الغلو والتصرف في الكون، وما لا يليق إلا باللَّه.

وهكذا الخوارج غلوا في باب الوعيد، فكفروا بمطلق الذنب، والمرجئة في باب الوعد، فعذروا الزنادقة والمنحرفين، وهكذا تجد لكل طائفة بقايا تنصر هذه المذاهب الباطلة الغالية أو المائعة المتساهلة، فنبتت نابتة في الوقت الحاضر يدعون إلى هذه الوسطية المذمومة، وسطية تعطيل الصفات، ووسطية الأخذ من الحضارات المخالفة للإسلام، والمنابذة له والمعارضة له، والاعتراف بكل ديانة باطلة، وبكل منهاج مارق، وينشرون هذه الوسطية المزعومة تحت عقد المؤتمرات المشبوهة، بل أسسوا لذلك القنوات الفضائية، فلا تبث فيها إلا النطيحة والمتردية من أدعياء العلم، والمميعين للأحكام الشرعية بحجة يسر الإسلام وسماحته، فيلوون أعناق النصوص لتسويغ الواقع بما فيه من مخالفات.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الشهادة يشترط فيها الصلاح والعدالة

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال**

---
(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٧٠-٣٧٥).

لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فيشهدون أنه قد بلغ ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾، فذلك قوله - جل ذكره-: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾والوسط العدل»[1].

⋆ من فوائد الحديث:

بوب البخاري على الحديث بقوله: «باب ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ وما أمر النبي ﷺ بلزوم الجماعة، وهم أهل العلم»[2].

قال الحافظ: «وأما قوله: (وما أمر) إلى آخره؛ فمطابقته لحديث الباب خفية، وكأنه من جهة الصفة المذكورة وهي العدالة لما كانت تعم الجميع لظاهر الخطاب، أشار إلى أنها من العام الذي أريد به الخاص، أو من العام المخصوص؛ لأن أهل الجهل ليسوا عدولا، وكذلك أهل البدع، فعرف أن المراد بالوصف المذكور أهل السنة والجماعة، وهم أهل العلم الشرعي، ومن سواهم ولو نسب إلى العلم فهي نسبة صورية لا حقيقة... وقال الكرماني: مقتضى الأمر بلزوم الجماعة أنه يلزم المكلفَ متابعةُ ما أجمع عليه المجتهدون وهم المراد بقوله: «**وهم أهل العلم**»، والآية التي ترجم بها احتج بها أهل الأصول لكون الإجماع حجة لأنهم عدلوا بقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي عدولًا، ومقتضى ذلك أنهم عصموا من الخطأ فيما أجمعوا عليه قولا وفعلا»[3].

قال ابن بطال: «معنى هذا الباب الاعتصام بالجماعة، ألا ترى قوله: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ولا يجوز أن يكونوا شهداء غير مقبولي القول، ولما كان الرسول واجبًا اتباعه وجب اتباع قولهم؛ لأن اللَّه جمع بينه وبينهم في قبول قولهم، وزكاهم وأحسن الثناء عليهم بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ يعني عدلا، والاعتصام بالجماعة كالاعتصام بكتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، لقيام الدليل على توثيق اللَّه ورسوله صحة الإجماع وتحذيرهما من مفارقته، بقوله تعالى: ﴿وَمَن

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢) والبخاري (٨/ ٢١٧/ ٤٤٨٧) والترمذي (٥/ ١٩٠-١٩١/ ٢٩٦١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٩٢/ ١١٠٠٧) وابن ماجه (٢/ ١٤٣٢/ ٤٢٨٤) مختصرا.

(٢) الفتح (١٣/ ٣٩٠).

(٣) الفتح (١٣/ ٣٩٠-٣٩١).

يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾[١] الآية، وقوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾[٢] الآية، وهاتان الآيتان قاطعتان على أن الأمة لا تجتمع على ضلال، وقد أخبر الرسول ﷺ بذلك فهما من كتاب اللَّه فقال: «**لا تجتمع أمتي على ضلال**»[٣]، ولا يجوز أن يكون أراد جميعها من عصره إلى قيام الساعة؛ لأن ذلك لا يفيد شيئًا؛ إذ الحكم لا يعرف إلا بعد انقراض جميعها، فعلم أنه أراد أهل الحل والعقد من كل عصر»[٤].

قال ابن القيم: «ووجه الاستدلال بالآية أنه تعالى أخبر أنه جعلهم أمة خيارا عدولا، هذا حقيقة الوسط، فهم خير الأمم وأعدلها في أقوالهم وأعمالهم وإرادتهم ونياتهم، وبهذا استحقوا أن يكونوا شهداء للرسل على أممهم يوم القيامة، واللَّه تعالى يقبل شهادتهم عليهم، فهم شهداؤه، ولهذا نوه بهم ورفع ذكرهم و أثنى عليهم؛ لأنه تعالى لما اتخذهم شهداء أعلم خلقه من الملائكة وغيرهم بحال هؤلاء الشهداء، وأمر ملائكته أن تصلي عليهم وتدعو لهم وتستغفر لهم، والشاهد المقبول عند اللَّه هو الذي يشهد بعلم وصدق، فيخبر بالحق مستندا إلى علمه به، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[٥] فقد يخبر الإنسان بالحق اتفاقا من غير علمه به، وقد يعلمه ولا يخبر به، فالشاهد المقبول عند اللَّه هو الذي يخبر به عن علم، فلو كان علمهم أن يفتي أحدهم بفتوى وتكون خطأ مخالفة لحكم اللَّه ورسوله، ولا يفتي غيره بالحق الذي هو حكم اللَّه ورسوله؛ إما مع اشتهار فتوى الأول أوبدون اشتهارها؛ كانت هذه الأمة العدل الخيار قد أطبقت على خلاف الحق، بل انقسموا قسمين: قسما أفتى بالباطل، وقسما سكت عن الحق، وهذا من المستحيل فإن الحق لا يعدوهم ويخرج عنهم إلى من بعدهم قطعًا، ونحن نقول لمن خالف أقوالهم: لو كان خيرًا ما سبقونا إليه»[٦].

---

(١) النساء: الآية (١١٥). (٢) آل عمران: الآية (١١٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٤/ ٤٠٥/ ٢١٦٧) والحاكم (١/ ١١٥) من سبعة أوجه، وابن أبي عاصم (١/ ٣٩/ ٨٠) من طرق عن ابن عمر، قال الحافظ ابن حجر في التلخيص (٣/ ١٤١): وفيه سليمان بن شعبان المدني وهو ضعيف. وأخرجه الطبراني (١٢/ ٤٤٧/ ١٣٦٢٣) قال الشيخ الألباني في ظلال الجنة (١/ ٤٠) بعد أن ساق سند الطبراني: وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

(٤) شرح البخاري (١٠/ ٣٧٩). (٥) الزخرف: الآية (٨٦).

(٦) إعلام الموقعين (٤/ ١٣٣).

قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخرج ابن أبي حاتم[(١)] بسند جيد عن أبي العالية عن أبي بن كعب في هذه الآية قال: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ﴾ وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة، كانوا شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وغيرهم؛ أن رسلهم بلغتهم وأنهم كذبوا رسلهم، قال أبو العالية: وهي قراءة أبيّ: (لتكونوا شهداء على الناس يوم القيامة)»[(٢)].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مروا بجنازة فأثنوا عليها خيرا، فقال النبي ﷺ: «**وجبتْ**» ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرًّا، فقال: «**وجبت**» فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجبت؟ قال: «**هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار، أنتم شهداء اللَّه في الأرض**»[(٣)].

⋆ من فوائد الحديث:

قال النووي: «وأما معناه ففيه قولان للعلماء؛ أحدهما: أن هذا الثناء بالخير لمن أثنى عليه أهل الفضل، فكان ثناؤهم مطابقًا لأفعاله، فيكون من أهل الجنة، فإن لم يكن كذلك فليس هو مرادًا بالحديث. والثاني: -وهو الصحيح المختار- أنه على عمومه وإطلاقه، وأن كل مسلم مات فألهم اللَّه تعالى الناس أو معظمهم الثناء عليه؛ كان ذلك دليلًا على أنه من أهل الجنة، سواء كانت أفعاله تقتضي ذلك أم لا، وإن لم تكن أفعاله تقتضيه فلا تحتّم عليه العقوبة، بل هو في خطر المشيئة، فإذا ألهم اللَّه عز وجل الناس الثناء عليه؛ استدللنا بذلك على أنه سبحانه قد شاء المغفرة له، وبهذا تظهر فائدة الثناء»[(٤)].

قال الحافظ: «قوله: «**أنتم شهداء اللَّه في الأرض**» أي: المخاطبون بذلك من الصحابة ومن كان على صفتهم من الإيمان. وحكى ابن التين أن ذلك مخصوص بالصحابة؛ لأنهم كانوا ينطقون بالحكمة، بخلاف من بعدهم. قال: والصواب أن

---

(١) أخرجه: ابن أبي حاتم (١/ ٢٤٩/ ١٣٣٥).

(٢) الفتح (٨/ ٢١٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٨٦) والبخاري (٣/ ٢٩٣/ ١٣٦٧) ومسلم (٢/ ٦٥٥/ ٩٤٩) والترمذي (٣/ ٣٧٣/ ١٠٥٨) والنسائي (٤/ ٣٥١-٣٥٢/ ١٩٣١).

(٤) شرح مسلم (٧/ ١٧).

ذلك يختص بالثقات والمتقين»[١].

وقال: «قال الداودي: المعتبر في ذلك شهادة أهل الفضل والصدق لا الفسقة؛ لأنهم قد يثنون على من يكون مثلهم ولا من بينه وبين الميت عداوة؛ لأن شهادة العدو لا تقبل. وفي الحديث فضيلة هذه الأمة، وإعمال الحكم بالظاهر»[٢].

قلت: فرحمة اللَّه على هذا الإمام، وكأنه يعيش واقعنا المعاصر، فإن الشهادة للغير أصبحت أمرا مرتبطًا بالمصالح والموافقات، وأصبح الناس يشهدون للمخالفين للشريعة بكل تعظيم وتقدير، فأثنوا على المستشرقين الكفرة الذين تخصصوا في حرب الشريعة الإسلامية بالقلم والكتاب وأثنوا على رؤوس الكفر، وجعلوا أعمالهم أعمال بر. كما قال بعض المعاصرين في البابا الهالك: إن اللَّه سيجازيه بما عمل، أي: من حسنات!! وهذا البابا الهالك من يقرأ سيرته يجدها كلها مجاهدة في حرب الإسلام في كل مكان. وهكذا نجدهم يشهدون لكل فاسق مارق يتبنى الفكر الاستشراقي، بل يشهدون للملاحدة الذين ينكرون وجود اللَّه فضلًا على أهل الحداثة الذين ينكرون كل أصل أصيل في الإسلام، ويثنون على كل مائع يحاول الجمع بين الحق والباطل، كما هي الدعوة في كثير من البلدان في الجمع بين دين الإسلام الحق وبين بقايا مشوهة محرفة مبدلة من الديانات السابقة باسم حوار الأديان، والتقارب بين الحضارات، وهذا لعمر اللَّه هو الضلال بعينه.

* عن أبي هريرة ﷺ قال: مروا على رسول اللَّه ﷺ بجنازة فأثنوا عليها خيرا في مناقب الخير، فقال: «وجبت»، ثم مروا عليه بأخرى فأثنوا عليها شرًّا في مناقب الشر، فقال: «**وجبت، إنكم شهداء اللَّه في الأرض**»[٣].

* عن أنس ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ما من مسلم يموت فيشهد له أربعةُ أهل أبيات من جيرانه الأدنين؛ أنهم لا يعلمون منه إلا خيرا إلا قال الله: قد قبلت علمكم فيه وغفرت له ما لا تعلمون**»[٤].

---

(١) الفتح (٣/ ٢٩٤). (٢) الفتح (٣/ ٢٩٦).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦١) وأبو داود (٣/ ٥٥٦-٥٥٧/ ٣٢٣٣) والنسائي (٤/ ٣٥٢/ ١٩٣٢) وابن ماجه (١/ ٤٧٨/ ١٤٩٢) وصححه ابن حبان (الإحسان ٧/ ٢٩٣-٢٩٤/ ٣٠٢٤).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٢٤٢). وصححه ابن حبان (الاحسان ٧/ ٢٩٥/ ٣٠٢٦) والحاكم (١/ ٣٧٨) على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وأبو يعلى (٦/ ١٩٩/ ٣٤٨١). وذكره الهيثمي في المجمع (٣/ ٤) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى.. ورجال أحمد رجال الصحيح».

* عن أبي الأسود قال: قدمت المدينة وقد وقع بها مرض، فجلست إلى عمر بن الخطاب ﷺ، فمرت بهم جنازة فأثني على صاحبها خيرًا، فقال عمر ﷺ: وجبت، ثم مر بأخرى فأثني على صاحبها خيرًا، فقال عمر ﷺ: وجبت، ثم مر بالثالثة فأثني على صاحبها شرا، فقال: وجبت، فقال أبو الأسود: فقلت: وما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال قلت كما قال النبي ﷺ: «**أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله اللَّه الجنة**»، فقلنا: وثلاثة؟ قال: «**وثلاثة**»، فقلنا: واثنان؟ قال: «**واثنان**»، ثم لم نسأله عن الواحد»[١].

* عن أبي بكر بن أبي زهير الثقفي عن أبيه ﷺ قال: خطبنا رسول اللَّه ﷺ بالنباوة أو البناوة -قال: والنباوة من الطائف- قال: «**يوشك أن تعرفوا أهل الجنة من أهل النار**» قالوا: بم ذاك يا رسول الله؟ قال: «**بالثناء الحسن والثناء السيئ، أنتم شهداء اللَّه بعضكم على بعض**»[٢].

⋆ من فوائد الأحاديث:

قال البخاري: «باب إذا زكى رجل رجلًا كفاه»، **قال الحافظ**: «ترجم في أوائل الشهادات: «تعديل كم يجوز» فتوقف هناك وجزم هنا بالاكتفاء بالواحد. . واختلف السلف في اشتراط العدد في التزكية، فالمرجح عند الشافعية والمالكية -وهو قول محمد بن الحسن- اشتراط اثنين كما في الشهادة، واختاره الطحاوي، واستثنى كثير منهم بطانة الحاكم؛ لأنه نائبه فينزل قوله منزلة الحكم، وأجاز الأكثرون قبول الجرح والتعديل من واحد؛ لأنه ينزل منزلة الحكم، والحكم لا يشترط فيه العدد»[٣].

قوله: «**أنتم شهداء اللَّه في الأرض**»

قال القاري: ««**أنتم**» أي أيها الصحابة، أو أيها المؤمنون، «**شهداء اللَّه في**

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١-٢٢) والبخاري (٣/ ٢٩٣/ ١٣٦٨) والترمذي (٣/ ٣٧٣-٣٧٤/ ١٠٥٩). وقال: «حديث حسن صحيح» والنسائي (٤/ ٣٥٢-٣٥٣/ ١٩٣٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤١٦) وابن ماجه (٢/ ١٤١١/ ٤٢٢١). قال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح، رجاله ثقات، والحاكم (١/ ١٢٠). وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) الفتح (٥/ ٣٤٣).

الأرض»: لأن الإضافة للتشريف، وأنهم بمكان ومنزلة عالية عند اللَّه، وهو أيضًا كالتزكية من رسول اللَّه ﷺ لأمته وإظهار عدالتهم بعد أداء شهادتهم لصاحب الجنازة، فينبغي أن يكون لها أثر ونفع في حقه، وأن اللَّه تعالى يقبل شهادتهم، ويصدق ظنونهم في حق المثنى عليه كرامة لهم، وتفضلا عليهم؛ كالدعاء والشفاعة، فيوجب لهم الجنة والنار على سبيل الوعد والوعيد؛ لأن وعده حق لا بد من وقوعه، فهو كالواجب إذ لا أثر للعمل ولا الشهادة في الوجوب، وإلى معنى الحديث يرمز قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: جعلناكم عدولًا خيار الشهود؛ لتشهدوا على غيركم، ويكون الرسول رقيبًا عليكم ومزكيًا لكم ويبين عدالتكم.. وقال: والأظهر أن هذا أمر غالبي، فإن اللَّه تعالى ينطق الألسنة في حق كل إنسان بما يعلمه من سريرته التي لا يطلع عليها غيره، ولذا قيل: ألسنة الخلق أقلام الحق، وليس المراد أن من خلق للجنة يصير للنار بقولهم، ولا عكسه، إذ قد يقع عليه الثناء بالخير أو الشر، وفي باطن الأمر خلافه، وإنما المراد أن الثناء علامة مطابقة للواقع غالبًا واللَّه أعلم.

قال المظهر: ليس معنى قوله -عليه الصلاة والسلام- «أنتم شهداء الله» أن ما يقول الصحابة والمؤمنون في حق شخص من استحقاقه الجنة أو النار؛ يكون كذلك؛ لأن من يستحق الجنة لا يصير من أهل النار بقولهم، ولا من يستحق النار يصير من أهل الجنة بقولهم، بل معناه: أن الذي أثنوا عليه خيرًا رأوا منه الصلاح والخيرات في حياته، والخيرات والصلاح علامة كون الرجل من أهل الجنة، والذي أثنوا عليه شرًا رأوا منه الشرّ والفساد، والشر والفساد من علامة النار، ألا ترى أنه لا يجوز أن يقطع بكون أحد من أهل الجنة، أو من أهل النار، وإن شهد له جماعة كثيرة، بل يرجى الجنة لمن شهد له بالخير، ويخاف النار لمن شهد له جماعة بالشر»[1].

قال خطاب السبكي: «يعني أن اللَّه يقبل شهادة المؤمنين بعضهم على بعض ويحكم بمقتضاها، ويحتمل أن هذا خاص بالصحابة ﷺ؛ لأنهم كانوا ينطقون

(١) المرقاة (٤/ ١٥٠-١٥١).

بالصدق والحكمة لعدالتهم، ومثلهم من كان على صفتهم من المؤمنين الأتقياء، فالمعول عليه في ذلك شهادة أهل الفضل والصلاح والصدق والأمانة، بخلاف الفسقة لأنهم قد يذكرون أهل الفسق بالخير، وأهل الفضل والصلاح بالشر، فليسوا داخلين في هذا الحديث، ومصداق هذا الحديث قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: جعلناكم عدولًا خيارًا، تشهدون على غيركم من الأمم، ويكون الرسول مزكيًا لكم، مبيّنًا عدالتكم، وفي الحديث تزكية من النبي ﷺ لأمته، وإظهار عدالتهم، وأن لشهادة المؤمنين مدخلا في نفع المشهود له، وضرر المشهود عليه، فإن قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**وجبت**» بعد الثناء؛ حكم عقب وصف مناسب مشعر بالعلية، ويؤيده ما رواه البخاري عن عمر أن النبي ﷺ قال: «**أيما مسلم شهد له أربعة بخير؛ أدخله الله الجنة**»، فقلنا: وثلاثة؟ قال: «**وثلاثة**»، فقلنا: واثنان؟ فقال: «**واثنان**»، ثم لم نسأله عن الواحد..

ودل الحديث على جواز ذكر الميت بما فيه من خير أو شر، وعلى نجاة من شهد له الصالحون بالخير، ومحله إذا شهدوا بما يعلمون منه بحسب ظاهر حاله، فما يفعله كثير من أهل زماننا من قول بعضهم بعد الصلاة على الميت: ما تشهدون فيه؟ ويريد بذلك الثناء عليه بخير ولو كان من الفاسقين، فيقولون: هو من أهل الخير والصلاح!! ولو لم يكن الميت كذلك، وربما أوقعت كثيرًا من الناس في شهادة الزور؛ بدعة مخالفة لهديه ﷺ، ودل الحديث على مظنة تعذيب من ذكره الصالحون بشرّ على حسب علمهم، ولا يكون ذلك من الغيبة المحرمة، بل يباح ذلك للتحذير من سلوك طريق أهل الفساد، والاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم»[١].

وقال ابن تيمية: «والشهداء على الناس لا بد أن يكونوا عالمين عادلين كالرسول، ولهذا قال في الجنازة: «**وجبت، وجبت**» وقال: «**أنتم شهداء الله في الأرض**» وقال: «**توشكوا أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار بالثناء الحسن والثناء السيئ**» فعُلم أن شهادتهم مقبولة فيما يشهدون عليه من الأشخاص والأفعال؛ ولو

---

(١) المنهل العذب المورود (٩/ ٩١-٩٣).

كانوا قد يشهدون بما ليس بحق؛ لم يكونوا شهداء مطلقًا»[١].

وقال: «ولهذا لما كان أهل السنة والجماعة الذين محّضوا الإسلام ولم يشوبوه بغيره؛ كانت شهادتهم مقبولة على سائر فرق الأمة، بخلاف أهل البدع والأهواء كالخوارج والروافض، فإن بينهم من العداوة والظلم ما يخرجهم عن كمال هذه الحقيقة التي جعلها اللَّه لأهل السنة، قال النبي ﷺ فيهم: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»[٢]»[٣].

وقال ابن القيم: «وهؤلاء شهداء اللَّه على الناس يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ فإنهم قاموا بشروط الشهادة، وهي العلم والعدل، فإن الشاهد لا يكون مقبولًا حتى يكون عالمًا بما يشهد له، عدلا في نفسه، ولم يكن اللَّه سبحانه ليجمع شهادة هؤلاء الذين هم ورثة رسوله وأنصار دينه، ولهم لسان الصدق في الأمة على باطل وزور، وتكون شهادة اتباع أهل الفلسفة الصابئين والمشركين، وشهادة الجهمية الجاحدين لصفات رب العالمين، وكلامه وعلوه على خلقه وأوقاح المعتزلة وأفراخ المجوس وأمثالهم؛ هي المقبولة عند اللَّه، وهي شهادة الحق بل هؤلاء هم المشهود عليهم بين يدي اللَّه، فإنهم خصماؤه وخصماء وحيه ورسوله، حيث نسبوا كلامه وكلام رسوله إلى ما لا يليق به، وظنوا به أسوأ الظن، واعتقدوا أن ظاهره باطل ومحال وتشبيه وضلال، فكيف يقبل أحكم الحاكمين وأعدل العادلين شهادة هؤلاء المتهوكين المتجبرين، على حزبه وأنصاره وأنصار كتابه وسنة رسوله، الذين قدموا كتابه وسنة رسوله على كل ما خالفهما، ولم يقدموا ما خالفهما عليهما، وتركوا الآراء الباطلة والمعقولات السخيفة لهما، ولم يتركوهما لأجلها، وقرروا بالعقل

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٥٠١).

(٢) أخرجه الخطيب في شرف أصحاب الحديث (ص٢٩) وابن عبد البر في التمهيد [فتح البر: المقدمة (ص٦٥-٦٦)] والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٢٥٦) وغيرهم من حديث أبي هريرة وغيره. وانظر تحقيق جمال محمد السيد على «البدر المنير» (١/ ٢١٥) فقد حسنه بمجموع طرقه وشواهده.

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٩٨).

الصريح صحة ما جاء به الرسول، ولم يقروا بالعقل الفاسد بطلان ما جاء به، وأنه مخالف للعقل الصريح، ورأوا أن اليقين كل اليقين مستفاد من كلام اللَّه ورسوله، ولم يقولوا إنه لا يستفاد منه علم ولا يقين، ورأوا أن ما أخبر به عن أسمائه وصفاته وأفعاله حقيقة، ولم يقولوا إنه مجاز لا حقيقة له، فأي الفريقين أحق بالعلم والعدالة وقبول الشهادة عند اللَّه وعند ملائكته وعند جميع المؤمنين؟ وأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟»[١].

قلت: هذا الذي أشار إليه العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في أهل الكلام والفلسفة؛ - الذين آثروا فكرهم وفهمهم على فهم السلف الصالح وردوا نصوص الوحي بقسميه- هو منهاج الكثيرين من المثقفين المعاصرين، انسلخوا عن منهاج السلف في الفهم والتطبيق، وقالوا: نحن أحق بالفهم والتوجيه، وما بلغنا من العلوم والفهم لم يكن للسلف عشر معشاره، فالواجب علينا أن نقطع صلتنا بالصحابة والتابعين ومن بعدهم، فرجولتنا أفضل من رجولتهم، ولغتنا أفصح من لغتهم، وحضارتنا أزخر من حضارتهم، فهم رعاة إبل وبقر وغنم ونحن أصحاب الصواريخ والمواصلات السريعة.. وغير ذلك من الهراء الذي يردده الكثير من سفهاء المثقفين، الذين رسموا لأنفسهم مناهج باطلة، وزعموا لها التأصيل والتقنين، وهذا باب واسع يعرفه من يعايش القوم ويقرأ كتبهم ومقالاتهم، ويستمع إلى محضاراتهم الباهتة التالفة. فنرجو اللَّه أن يعصمنا وأن يعيذ إخواننا من هذه المناهج الباطلة المحدثة، التي تبنت كل ساقط ولقيط، وكل فكر عفن باهت.

* عن زيد بن أسلم: أن عبد الملك بن مروان بعث إلى أم الدرداء بأنجاد من عنده، فلما أن كان ذات ليلة قام عبد الملك من الليل فدعا خادمه، فكأنه أبطأ عليه فلعنه. فلما أصبح قالت له أم الدرداء: سمعتك الليلة لعنت خادمك حين دعوته، فقالت: سمعت أبا الدرداء يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة**»[٢].

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٤٢٢-١٤٢٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٤٨) ومسلم (٤/ ٢٠٠٦/ ٢٥٩٨) وأبو داود (٥/ ٢١١-٢١٢/ ٤٩٠٧).

★ **غريب الحديث:**

أنجاد: جمع نَجَد بفتح النون والجيم وهو متاع البيت الذي يزينه من فرش ونمارق وستور.

★ **من فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «وإنما خصّ اللعان بالذكر ولم يقل: اللاعن؛ لأن الصدّيق قد يلعن من أمره الشرع بلعنه، وقد يقع منه اللعن فلتة وندرة ثم يراجع، وذلك لا يخرجه عن الصدّيقية، ولا يفهم من نسبتنا الصدّيقية لغير أبي بكر مساواة غير أبي بكر لأبي بكر رضي الله عنه في صديقيته، فإن ذلك باطل بما قد علم: أن أبا بكر رضي الله عنه أفضل الناس بعد رسول اللّه ﷺ. لكن المؤمنون الذين ليسوا بلعانين لهم حظ من تلك الصديقية، ثم هم متفاوتون فيها على حسب ما قسم لهم منها، واللّه تعالى أعلم»[١].

قال النووي: «وأما قوله: «**إنهم لا يكونون شفعاء ولا شهداء**» فمعناه: لا يشفعون يوم القيامة حين يشفع المؤمنون في إخوانهم الذين استوجبوا النار. ولا شهداء، فيه ثلاثة أقوال:

أصحها وأشهرها: لا يكونون شهداء يوم القيامة على الأمم بتبليغ رسلهم إليهم الرسالات. والثاني: لا يكونون شهداء في الدنيا؛ أي: لا تقبل شهادتهم لفسقهم. والثالث: لا يرزقون الشهادة وهي القتل في سبيل الله»[٢].

قال ابن القيم: «لأن اللعن إساءة، بل من أبلغ الإساءة، والشفاعة إحسان، فالمسيء في هذه الدار باللعن سلبه اللّه الإحسان في الأخرى بالشفاعة، فإن الإنسان إنما يحصد ما يزرع، والإساءة مانعة من الشفاعة التي هي إحسان، وأما منع اللعن من الشهادة فإن اللعن عداوة، وهي منافية للشهادة، ولهذا كان النبي ﷺ سيد الشفعاء، وشفيع الخلائق؛ لكمال إحسانه ورأفته ورحمته بهم ﷺ»[٣].

* * *

---

(١) المفهم (٦/ ٥٨٠).

(٢) شرح مسلم (١٦/ ١٢٣).

(٣) بدائع الفوائد (٣/ ٢٠٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾[1]

★ غريب الآية:

عقبيه: العقب: مؤخر القدم، والمعنى: يرجع القهقرى وينكص عن الحق.

ليضيع: الإضاعة: الإبطال، من أَضَاعَ يُضيع الشيء إذا أَهْدَرَهُ وأَبْطَلَهُ، والمعنى: ليبطل إيمانكم، وأصل الضياع: الهلاك.

رؤوف: الرأفة: أشد الرحمة، قال ابن مالك الأنصاري:

نُطِيعُ نبينا ونُطِيعُ رَبًّا هُوَ الرَّحْمَنُ كَانَ بِنَا رَؤُوفًا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ الآية، ظاهر هذه الآية قد يتوهم منه الجاهل أنه تعالى يستفيد بالاختبار علمًا لم يكن يعلمه، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا؛ بل هو تعالى عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون، وقد بيّن أنه لا يستفيد بالاختبار علمًا لم يكن يعلمه، بقوله -جل وعلا-: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[2] فقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بعد قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾؛ دليل قاطع على أنه لم يستفد بالاختبار شيئًا لم يكن عالمًا به، ﷻ عن ذلك علوًّا كبيرًا؛ لأن العليم بذات الصدور غني عن الاختبار، وفي هذه الآية بيان عظيم لجميع الآيات التي يذكر اللَّه فيها اختباره لخلقه، ومعنى ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي: علمًا يترتب عليه الثواب والعقاب، فلا ينافي أنه كان عالمًا به قبل ذلك، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس، أما عالم السر والنجوى فهو عالم بكل ما سيكون كما لا يخفى، وقوله: ﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ أشار إلى أن الرسول هو محمد ﷺ بقوله مخاطبًا له: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾

(١) الآية (١٤٣).
(٢) آل عمران: الآية (١٥٤).

الآية؛ لأن هذا الخطاب له إجماعًا»[١].

قال ابن كثير: «إنما شرعنا لك -يا محمد- التوجه أولا إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبيه؛ أي: مرتدا عن دينه ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي هذه الفعلة، وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة؛ أي: وإن كان هذا الأمر عظيما في النفوس، إلا على الذين هدى اللَّه قلوبهم، وأيقنوا بتصديق الرسول، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه، وأن اللَّه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما شاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة، والحجة البالغة في جميع ذلك، بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكا، كما يحصل للذين آمنوا إيقان وتصديق»[٢].

قال شيخ الإسلام: «فبين سبحانه أن من حكمة نسخ القبلة وتغييرها؛ مخالفة الناس الكافرين في قبلتهم؛ ليكون ذلك أقطع لما يطمعون فيه من الباطل، ومعلوم أن هذا المعنى ثابت في كل مخالفة وموافقة، فإن الكافر إذا اتُّبع في شيء من أمره؛ كان له في الحجة مثل ما كان أو قريب مما كان لليهود من الحجة في القبلة»[٣].

قلت: فلله در شيخ الإسلام إذ أتى بعلوم استفادها من الكتاب والسنة، تبين مدى بعد نظره وفهمه العميق، الذي يريد به تشخيص الكتاب والسنة وأن يبقيا ماثلان في كل شيء، وأن تبقى الأمة الإسلامية محافظة على عزها وشرفها؛ لأنها الأمة الأخيرة المتبوعة لا التابعة، والمتبوع دائما يجمع صفة الكمال اللائقة به، فلا يليق به أن يكون تابعا في يوم من الأيام، فلهذا أوجب اللَّه متابعة الأنبياء والرسل، ومتابعة الكتب السماوية، ومتابعة أصحاب الأنبياء الذين قالوا بالحق وبه يعدلون. فكل هذه أصول تبين مدى أهمية المتابعة للمتبوع؛ لأنها أصل أصيل؛ فإن انقلبت الموازين وصار المتبوع تابعًا، فهذا دلالة على الانحراف والوهن، فالإسلام دائمًا هو المتبوع، وأهل الإسلام دائمًا هم المتبوعون لا غيرهم، فاللَّه -تبارك وتعالى- أنزل الشريعة كاملة وبعث إلى الناس خير خلقه، فلا حاجة لهم بغيره

---

(١) أضواء البيان (١/ ٨٧-٨٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٣٧).
(٣) الاقتضاء (١/ ٨٧).

في كل أوصاف المتابعة، فإن وقع ما يوافق الغير؛ فإن ذلك من أصول شريعتنا، وليس من غيرنا، فمن المستحيل أن يقول اللَّه تعالى في كتابه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1] ويأتي من يقول: كنتم أضعف أمة أخرجت للناس. فالضعيف دائما هو التابع، والقوي دائما هو المتبوع، فما حرره شيخ الإسلام في كتابه القيم (اقتضاء الصراط المستقيم) فذلك على أصله، فهو الأصل الأصيل، الذي لا ينبغي أن يؤتى بغيره، ولهذا ضاعت الأمة وذابت صفاتها الحقيقية في غيرها، لما ضيعت هذا الأصل، وصار أبناؤنا يحلقون نصف رؤوسهم، ويلبسون السلاسل الحديدية والذهبية والفضية في جميع أجسادهم، وصار البنات كل يوم لهن لون من اللباس لا أصل له ولا أساس إلا تبعية حمقاء، وتصرفات رعناء، لا تليق بالحيوان البهيم، بله من خلقه اللَّه في أحسن تقويم، نسأل اللَّه السلامة والعافية.

وقال ابن القيم: «وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس، ثم تحويلها إلى الكعبة؛ حكم عظيمة، ومحنة للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين. فأما المسلمون فقالوا: سمعنا وأطعنا، وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[2] وهم الذين هدى اللَّه، ولم تكن كبيرة عليهم. وأما المشركون فقالوا: كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا، وما رجع إليها إلا أنه الحق. وأما اليهود فقالوا: خالف قبلة الأنبياء قبله، ولو كان نبيا لكان يصلي إلى قبلة الأنبياء. وأما المنافقون فقالوا: ما يدري محمد أين يتوجه، إن كانت الأولى حقا فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق؛ فقد كان على باطل، وكثرت أقاويل السفهاء من الناس، وكانت كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ وكانت محنة من اللَّه امتحن بها عباده؛ ليرى من يتبع الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه»[3].

قال شيخ الإسلام: «وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ وقوله: ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾[4] ونحو ذلك، فهذا هو العلم الذي يتعلق بالمعلوم بعد وجوده، وهو العلم الذي

---

(١) آل عمران: الآية (١١٠). (٢) آل عمران: الآية (٧).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٦٦-٦٧).

(٤) الكهف: الآية (١٢).

يترتب عليه المدح والذم والثواب والعقاب، والأول هو العلم بأنه سيكون. ومجرد ذلك العلم لا يترتب عليه مدح ولا ذم ولا ثواب ولا عقاب؛ فإن هذا إنما يكون بعد وجود الأفعال، وقد روي عن ابن عباس أنه قال في هذا: (لنرى) وكذلك المفسرون قالوا: لنعلمه موجودًا بعد أن كنّا نعلم أنه سيكون، وهذا المتجدد فيه قولان مشهوران للنظار: منهم من يقول: المتجدد هو نسبة وإضافة بين العلم والمعلوم فقط، وتلك نسبة عدمية، ومنهم من يقول: بل المتجدد علم بكون الشيء ووجوده، وهذا العلم غير العلم بأنه سيكون، وهذا كما في قوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1] فقد أخبر بتجدد الرؤية، فقيل: نسبة عدمية، وقيل: المتجدد أمر ثبوتي... وعامة السلف وأئمة السنة والحديث على أن المتجدد أمر ثبوتي كما دل عليه النص، وهذا مما هجر أحمد بن حنبل الحارث المحاسبي على نفيه، فإنه كان يقول بقول ابن كلاب: فرّ من تجدد أمر ثبوتي، وقال بلوازم ذلك، فخالف من نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف ما أوجب ظهور بدعة اقتضت أن يهجره الإمام أحمد ويحذر منه، وقد قيل: إن الحارث رجع عن ذلك، والمتأخرون من أصحاب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة؛ على قولين: منهم من سلك طريقة ابن كلاب وأتباعه، ومنهم من سلك طريقة أئمة السنة والحديث، وهذا مبسوط في موضعه، والمقصود هنا: أن تقدم علم اللَّه وكتابته لأعمال العباد حق، والقول بحدوث ذلك قول مهجور. وليس في ذلك ما ينافي أمر اللَّه ونهيه؛ فإن كونه خالقًا لأفعال العباد لا ينافي الأمر والنهي، فكيف العلم المتقدم، وليس في ذلك ما يقتضي كون العبد مجبورًا لا قدرة له ولا فعل؛ كما تقوله الجهمية المجبرة»[2].

---

(١) سورة التوبة: الآية (١٠٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٩٦-٤٩٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
من مبادرة الصحابة لأمر اللَّه ورسوله فور وصوله إليهم

* عن ابن عمر رضي الله عنهما: بينا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء؛ إذ جاء جاءٍ فقال: أنزل اللَّه على النبي ﷺ قرآنا: أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها، فتوجهوا إلى الكعبة[١].

* عن البراء بن عازب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده -أو قال: أخواله- من الأنصار، وأنه صلى قِبل بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون، فقال: أشهد باللَّه لقد صليت مع رسول اللَّه ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس وأهل الكتاب، فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك[٢].

⋆ من فوائد الحديثين:

قال ابن حجر: «فيه أن ما يؤمر به النبي ﷺ يلزم أمته، وأن أفعاله يتأسى بها من أقواله حتى يقوم دليل الخصوص»[٣].

قال ابن كثير: «وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة، وحاصل الأمر أنه قد كان رسول اللَّه ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يصلي بين الركنين، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما، فأمره اللَّه بالتوجه إلى بيت المقدس، قاله ابن عباس والجمهور. ثم اختلف هؤلاء هل كان الأمر به بالقرآن أو بغيره؟ على قولين، وحكى القرطبي في تفسيره عن عكرمة وأبي العالية والحسن البصري: أن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاده عليه السلام، والمقصود أن التوجه إلى بيت المقدس بعد

---

(١) أحمد (٢/ ١٥-١٦) والبخاري (٨/ ٢١٩/ ٤٤٨٨) ومسلم (١/ ٣٧٥/ ٥٢٦) والترمذي (٢/ ١٧٠/ ٣٤١) مختصرا، (٥/ ١٩١-١٩٢/ ٢٩٦٣) مختصرًا. والنسائي (١/ ٢٦٥/ ٤٩٢).
(٢) البخاري (١/ ١٢٨-١٢٩/ ٤٠) ومسلم (١/ ٣٧٤/ ٥٢٥) والنسائي (١/ ٢٦٣/ ٤٨٨).
(٣) الفتح (١/ ٦٧٧).

مقدمه ﷺ المدينة، واستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهرًا، وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم عليه السلام، فأجيب إلى ذلك، وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق، فخطب رسول اللَّه ﷺ الناس فأعلمهم بذلك، وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر، كما تقدم في الصحيحين من رواية البراء، ووقع عند النسائي من رواية أبي سعيد بن المعلى أنها الظهر[١] وقال: كنت أنا وصاحبي أول من صلى إلى الكعبة، وذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم: أن تحويل القبلة نزل على رسول اللَّه ﷺ وقد صلى ركعتين من الظهر، وذلك في مسجد بني سلمة، فسمي مسجد القبلتين، وفي حديث نويلة بنت مسلم: أنهم جاءهم الخبر بذلك وهم في صلاة الظهر، قالت: فتحول الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمري، وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثاني كما جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما»[٢].

* * *

---

(١) أخرجه النسائي (٢/ ٣٨٧/ ٧٣١) وفي الكبرى (٦/ ٢٩١/ ١١٠٠٤) وضعف إسناده الشيخ الألباني في ضعيف النسائي (ص: ٢٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٣٣-٣٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «أي صلاتكم إلى بيت المقدس على الأصح، ويستروح ذلك من قوله قبله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ الآية، ولاسيما على القول باعتبار دلالة الاقتران، والخلاف فيها معروف في الأصول»[2].

وقال ابن جرير: «فمعنى قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ -على ما تظاهرت به الرواية من أنه الصلاة-: وما كان اللَّه ليضيع تصديق رسوله ﷺ، بصلاتكم التي صليتموها نحو بيت المقدس عن أمره؛ لأن ذلك كان منكم تصديقًا لرسولي، واتباعا لأمري، وطاعة منكم لي.

قال: (وإضاعته إياه) -جل ثناؤه- لو أضاعه: ترك إثابة أصحابه وعامليه عليه، فيذهب ضياعًا، ويصير باطلًا، كهيئة (إضاعة الرجل ماله)، وذلك إهلاكه إياه فيما لا يعتاض منه عوضا في عاجل ولا آجل. فأخبر اللَّه -جل ثناؤه- أنه لم يكن يبطل عمل عامل عمل له عملًا وهو له طاعة، فلا يثيبه عليه، وإن نسخ ذلك الفرض بعد عمل العامل إياه على ما كلفه من عمله.

فإن قال قائل: وكيف قال اللَّه -جل ثناؤه-: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾، فأضاف الإيمان إلى الأحياء المخاطبين، والقوم المخاطبون بذلك إنما كانوا أشفقوا على إخوانهم الذين كانوا ماتوا وهم يصلون نحو بيت المقدس، وفي ذلك من أمرهم أنزلت هذه الآية؟

قيل: إن القوم وإن كانوا أشفقوا من ذلك، فإنهم أيضًا قد كانوا مشفقين من حبوط ثواب صلاتهم التي صلوها إلى بيت المقدس قبل التحويل إلى الكعبة، وظنوا أن عملهم ذلك قد بطل وذهب ضياعا؟ فأنزل اللَّه -جل ثناؤه- هذه الآية حينئذ،

---

(١) البقرة: الآية (١٤٣).

(٢) أضواء البيان (١/ ٨٧-٨٨).

فوجه الخطاب بها إلى الأحياء ودخل فيهم الموتى منهم؛ لأن من شأن العرب -إذا اجتمع في الخبر المخاطب والغائب- أن يغلبوا المخاطب فيدخل الغائب في الخطاب. فيقولوا لرجل خاطبوه على وجه الخبر عنه وعن آخر غائب غير حاضر: (فعلنا بكما وصنعنا بكما)، كهيئة خطابهم لهما وهما حاضران، ولا يستجيزون أن يقولوا: (فعلنا بهما)، وهم يخاطبون أحدهما، فيردوا المخاطب إلى عداد الغيب»[1].

وقال السعدي: «أي ما ينبغي له ولا يليق به تعالى، بل هو من الممتنعات عليه، ومستحيل أن يضيع إيمانكم. وفي هذا بشارة عظيمة لمن من اللّه عليهم بالإسلام والإيمان؛ بأن اللّه سيحفظ عليهم إيمانهم فلا يضيعه، وحفظه نوعان:

حفظ عن الضياع والبطلان، بعصمته لهم عن كل مفسد ومزيد له ومنقص من المحن المقلقة والأهواء الصادة. وحفظ بتنميته لهم، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم ويتم به إيقانهم. فكما ابتدأكم، بأن هداكم للايمان، فسيحفظه لكم، ويتم نعمته، بتنميته وتنمية أجره، وثوابه، وحفظه من كل مكدر، بل إذا وجدت المحن المقصود منها؛ تبيّن المؤمن الصادق من الكاذب، فإنها تمحّص المؤمنين وتظهر صدقهم. . ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة، فإن اللّه لا يضيع إيمانهم، لكونهم امتثلوا أمر اللّه وطاعة رسوله في وقتها، وطاعة اللّه امتثال أمره في كل وقت بحسب ذلك. وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة؛ أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الأعمال من الإيمان

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما وُجه النبي ﷺ إلى الكعبة قالوا: يا رسول الله! كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾[3].

---

(١) جامع البيان (٣/ ١٦٠-١٧٩ تحقيق شاكر). (٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٦١-١٦٢).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٥) وأبو داود (٥/ ٥٩-٦٠/ ٤٦٨٠) والترمذي (٥/ ١٩٢/ ٢٩٦٤) وقال: «حسن صحيح». وصححه ابن حبان (الاحسان ٤/ ٦٢٠-٦٢١/ ١٧١٧) والحاكم (٢/ ٢٦٩) ووافقه الذهبي. وللحديث شاهد عند البخاري (١/ ١٢٨-١٢٩/ ٤٠) والطيالسي (٧٢٢) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

★ **من فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «هذه الآية أقطع الحجج للجهمية والمرجئة في قولهم: إن الفرائض والأعمال لا تسمى إيمانًا، وقولهم خلاف نص التنزيل؛ لأن اللَّه سمى صلاتهم إلى بيت المقدس إيمانًا، ولا خلاف بين أهل التفسير أن هذه الآية نزلت في صلاتهم إلى بيت المقدس، ومثل هذه الآية قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1] حتى الزكاة، وفي تسميته لهم مؤمنين فإن كانوا للصلاة عاملين، وللزكاة مؤدين، فما وجب به أن تكون الصلاة والزكاة إيمانا؛ لأن المسمى مؤمنا بعمله لشيء يوجب أن يسمى ذلك الشيء إيمانًا، ومثله أيضًا قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[2] فسماهم مؤمنين بإيمانهم باللَّه ورسوله، وألا يذهبوا إذا كانوا مع نبيهم حتى يستأذنوه، واستئذانهم له عمل مفترض عليهم، سموا به مؤمنين كما سموا بإيمانهم باللَّه ورسوله»[3].

قال ابن عبد البر: «ومن الدلائل على أن الإيمان قول وعمل -كما قالت الجماعة والجمهور-؛ قول اللَّه ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ لم يختلف المفسرون أنه أراد صلاتكم إلى بيت المقدس، فسمى الصلاة إيمانًا، ومثل هذا قوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[4]، وأما من السنة فكثير جدًّا»[5].

قال ابن رجب: «وأنكر السلف على من أخرج الأعمال عن الإيمان إنكارًا شديدًا، وممن أنكر ذلك على قائله، وجعله قولا محدثًا: سعيد بن جبير، وميمون ابن مهران، وقتادة، وأيوب السختياني، وإبراهيم النخعي، والزهري، ويحيى بن أبي كثير، وغيرهم، وقال الثوري: هو رأي محدث، أدركنا الناس على غيره، وقال الأوزاعي: كان من مضى ممن سلف لا يفرّقون بين الإيمان والعمل، وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى أهل الأمصار: (أما بعد، فإن للإيمان فرائض وشرائع، وحدودًا وسننًا، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان).

---

(١) الأنفال: الآيتان (٢ و ٣).
(٢) النور: الآية (٦٢).
(٣) شرح البخاري (١/ ٩٧-٩٨).
(٤) البقرة: الآية (١٧٧).
(٥) التمهيد [فتح البر (١/ ٤٣٨-٤٣٩)].

ذكره البخاري في صحيحه[١]»[٢].

قلت: ما أشار إليه العلامة ابن رجب، من أقوال السلف في دخول الأعمال في مسمى الإيمان، هو الذي يوافق حكمة نزول القرآن وبعثة النبي ﷺ، فلا إسلام بدون عمل، فالعمل هو الدليل الصادق على الإيمان، كما بين ذلك أئمة السلف -رحمهم الله-؛ فإن اللَّه تعالى ربط الإيمان في القرآن بالأعمال في كثير من الآيات ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[٣]، و«**الإيمان بضع وستون شعبة..**»[٤]، فلا إيمان بدون عمل.

والدعاوى ما لم تقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء

فالبحث في هذا الموضوع بحث جدلي لا خير فيه، واللَّه -تبارك وتعالى- فرض الصلاة من فوق سبع سموات، وجَعلُها مقارِنة لمعراجه ﷺ وإسرائه؛ لمن أكبر الدلالات على أهميتها ومكانتها، والصيام ذكره اللَّه عن الأمم السابقة وربطنا به، وجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة، والزكاة حق في المال توعد اللَّه -تبارك وتعالى- من تركه، والحج اشترك فيه أهل الجاهلية وأهل الإسلام، وهو من بقايا دين إبراهيم في الجزيرة، وأنزل اللَّه الأمر به في آيات من كتابه، وبينه النبي ﷺ أحسن البيان، وحشد له الألوف المؤلفة، ونادى فيه من كل مكان، فكانت مسيرة تاريخية قادها الرسول ﷺ، وهكذا كل عمل صالح، فريضة كان أو مستحبًّا، فبه يعلو شأن المسلم، ويزداد إيمانه، ويصقل قلبه وتكمل إمامته، فينبغي لأهل الإسلام جميعًا أن تكون دعوتهم بالإيمان والعمل، أمرًا واحدًا لا ينفصل، فما جرأ الفساق على اللَّه، وزهد الناس في اتباع النبوة والرسالة حتى أبعدوا الحكم بما أنزل اللَّه من مجتمعاتهم وقضاياهم إلا هذا الفكر الضال، الذي أحدثه من لا يريد

---

(١) أخرجه البخاري تعيقا (١/ ٦٣)، ووصله ابن أبي شيبة في: الآيمان (ح: ١٣٥)، وقال الحافظ في التغليق (٢/ ٢٠): وهو إسناد صحيح رجاله ثقات.

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ١٠٤).

(٣) النحل: الآية (٩٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٤)، والبخاري (١/ ٧١/ ٩)، ومسلم (١/ ٦٣/ ٣٥)، وأبو داود (٥/ ٥٥-٥٦/ ٤٦٧٦)، والترمذي (٥/ ٤١٢/ ٢٦١٤)، والنسائي (٨/ ٤٨٤/ ٥٠٢٠)، وابن ماجه (١/ ٢٢/ ٥٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

للإسلام خيرًا، من أهل الإرجاء على اختلاف مشاربهم، فتركت الصلاة ومنعت الزكاة وانتهكت حرمة رمضان، بسبب هذا الفكر الخبيث، وتجرأ الناس على المعاصي والموبقات، بل وتساهلوا في إحداث البدع والعمل بها، فعم الفساد واستشرى في الأمة. فإنا للَّه وإنا إليه راجعون، وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «ويعني بقوله -جل ثناؤه-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أن اللَّه بجميع عباده ذو رأفة، والرأفة أعلى معاني الرحمة، وهي عامة لجميع الخلق في الدنيا، ولبعضهم في الآخرة، وأما الرحيم فإنه ذو الرحمة للمؤمنين في الدنيا والآخرة، على ما قد بينا فيما مضى قبل، وإنما أراد -جل ثناؤه- بذلك؛ أن اللَّه ﷻ أرحم بعباده من أن يضيع لهم طاعة أطاعوه بها، فلا يثيبهم عليها، وأرأف بهم من أن يؤاخذهم بترك ما لم يفرضه عليهم؛ أي: ولا تأسوا على موتاكم الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس، فإني لهم على طاعتهم إياي بصلاتهم التي صلوها كذلك مثيب؛ لأني أرحم بهم من أن أضيع لهم عملا عملوه لي، ولا تحزنوا عليهم فإني غير مؤاخذهم بتركهم الصلاة إلى الكعبة؛ لأني لم أكن فرضت ذلك عليهم، وأنا أرأف بخلقي من أن أعاقبهم على تركهم ما لم آمرهم بعمله»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفتي الرأفة والرحمة

* عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي تَحْلِب ثديها تسقي، إذا وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال لنا النبي ﷺ: **«أترون هذه طارحة ولدها في النار؟»** قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: **«لَلّه أرحم بعباده من هذه بولدها»**[٢].

★ **غريب الحديث:**

السبي: أخذ الناس عبيدًا وإماء. من سبا العدوّ سبيًا: أسره.

---

(١) جامع البيان (٣/ ١٧٠-١٧١ شاكر).

(٢) أخرجه: البخاري (١٠/ ٥٢٣/ ٥٩٩٩) ومسلم (٤/ ٢١٠٩/ ٢٧٥٤).

★ **من فوائد الحديث:**

قال ابن حجر -نقلا عن ابن أبي جمرة-: «فيه إشارة إلى أنه ينبغي للمرء أن يجعل تعلقه في جميع أموره بالله وحده، وأن كل من فُرض أن فيه رحمة ما حتى يقصد لأجلها؛ فالله ﷻ أرحم منه، فليقصد العاقل لحاجته من هو أشد له رحمة»[١].

وقال شيخ الإسلام: «فبين أن الله أرحم بعباده من أرحم الوالدات بولدها، فإنه من جعلها رحيمة أرحمُ منها، وهذا مما يدل عليه قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾[٢] وقولنا: الله أكبر، فإنه سبحانه أرحم الراحمين، وخير الغافرين، وخير الفاتحين، وخير الناصرين، وأحسن الخالقين، وهو نعم الوكيل، ونعم المولى ونعم النصير، وهذا يقتضي حمدا مطلقا على ذلك، وأنه كافي من توكل عليه، وأنه يتولى عبده توليًا حسنًا، وينصره نصرا عزيزا، وذلك يقتضي أنه أفضل وأكمل من كل ما سواه، كما يدل على ذلك قولنا: الله أكبر»[٣].

* **تنبيه:** تقدم الكلام على صفة الرحمة في سورة الفاتحة.

* * *

(١) الفتح (١٠/٥٢٩).
(٢) العلق: الآية (٣).
(٣) مجموع الفتاوى (١٦/٤٤٨-٤٤٩).

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾

★ **غريب الآية:**

تَقَلُّبَ: التقلب: التحول، والمعنى: تحرك وجهك في الجهات.

شَطْرَ: الشطر: الجهة والناحية؛ أي: من جهة، والشطر من الأضداد، يقال: شطر إلى كذا: إذا أقبل نحوه، وشَطَرَ عن كذا، إذا بَعُدَ منه وأعرض عنه، وشَطْرُ الشيء: نِصْفُهُ، ومنه الحديث: «**الطهور شَطْرُ الإيمان**»[(١)].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾؛ بيّنه قوله بعده: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الآية»[(٢)].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض، شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر، فإنه يصليها حيثما توجه قالبه، وقلبه نحو الكعبة، وكذا في حال المسايفة في القتال، يصلي على كل حال، وكذا من جهل جهة القبلة يصلي باجتهاده، وإن كان مخطئًا في نفس الأمر؛ لأن اللَّه تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها»[(٣)].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٢) ومسلم (١/ ٢٠٣/ ٢٢٣) والترمذي (٥/ ٥٠١/ ٣٥١٧) والنسائي (٥/ ٨/ ٢٤٣٦) وابن ماجه (١/ ١٠٢-١٠٣/ ٢٨٠) من حديث أبي مالك الأشعري.

(٢) الأضواء (١/ ٨٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤٠).

وقال القاسمي: «﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي تردد وجهك وتصرف نظرك في جهة السماء؛ تشوّفًا لنزول الوحي بالتحويل، قالوا: وفي ذلك تنبيه على حسن أدبه حيث انتظر ولم يسأل، وهذا ألطف مما قيل: إن تقلب وجهه كناية عن دعائه، ولا مانع أن يراد بتقلب وجهه ﷺ بالتحويل، ففيه إعلام بما جعله تعالى من اختصاص السماء بوجه الداعي، وهذه الآية وإن كانت متأخرة في التلاوة؛ فهي متقدمة في المعنى، فإنها رأس القصة، ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ أي: لنعطينك أو لنوجهنك إلى قبلة تحبها وتميل إليها، ودلّ على أن مرضيّه الكعبة بفاء السبب في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي نحوه وجهته، والتعبير عن الكعبة بالمسجد الحرام إشارة إلى أن الواجب مراعاة الجهة دون العين، ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ أي: حيثما كنتم في برٍّ أو بحرٍ فولوا وجوهكم في الصلاة تلقاء المسجد، وأما سرّ الأمر بالتولية خاصًا وعامًّا؛ فقال الراغب: أما خطابه الخاصّ فتشريفًا له وإيجابًا لرغبته، وأما خطابه العام بعده؛ فلأنه كان يجوز أن يعتقد أن هذا أمر قد خصّ ﷺ به، كما خص في قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾[1] ولأنه لما كان تحويل القبلة أمرًا له خطر؛ خصّهم بخطاب مفرد، ليكون ذلك أبلغ، وليكون لهم في ذلك تشريف، ولأن في الخطاب العام تعليق حكم آخر به، وهو أنه لا فرق بين القرب والبعد في وجوب التوجه إلى الكعبة»[2].

وقال السعدي: «يقول اللّه لنبيه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: كثرة تردده في جميع جهاته، شوقًا وانتظارًا لنزول الوحي باستقبال الكعبة. وقال: ﴿وَجْهِكَ﴾ ولم يقل (بصرك) لزيادة اهتمامه، ولأن تقليب الوجه مستلزم لتقليب البصر. ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ أي: نوجهك لولايتنا إياك. ﴿قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ أي: تحبها، وهي الكعبة. وفي هذا بيان لفضله وشرفه ﷺ، حيث إن اللّه تعالى: يسارع في رضاه، ثم صرح له باستقبالها فقال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ والوجه: ما أقبل من بدن الإنسان. ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ أي: من بر وبحر، وشرق وغرب، جنوب وشمال. ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ أي: جهته.

---

(١) سورة المزمل: الآية (٢).

(٢) محاسن التأويل (٢/ ٣٠٠-٣٠١).

ففيها اشتراط استقبال الكعبة، للصلوات كلها، فرضها ونفلها، وأنه إن أمكن استقبال عينها، وإلا فيكفي شطرها وجهتها.

وأن الالتفات بالبدن، مبطل للصلاة؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن استقبال القبلة شرط في الصلاة بالإجماع

* عن أنس رضي الله عنه: أن رسول اللَّه ﷺ كان يصلي نحو بيت المقدس فنزلت: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فمرّ رجل من بني سلمة وهم ركوع في صلاة الفجر -وقد صلوا ركعة- فنادى: ألا إن القبلة قد حولت، فمالوا كما هم نحو القبلة[٢].

* عن أنس رضي الله عنه قال: لم يبق ممن صلى القبلتين غيري[٣].

★ **من فوائد الحديثين:**

قال الخطابي: «وفيه دليل على أن كل شيء له أصل صحيح في التعبد، ثم طرأ عليه الفساد قبل أن يعلم صاحبه به؛ فإن الماضي منه صحيح، وذلك مثل أن يجد المصلي بثوبه نجاسة لم يكن علمها حتى صلى ركعة، فإنه إذا رأى النجاسة ألقاها عن نفسه، وبنى على ما مضى من صلاته»[٤].

قال العيني: «مطابقته للآية تؤخذ من قوله: (ممن صلى القبلتين) لأن الآية مشتملة على أمر القبلتين»[٥].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلًا دخل المسجد ورسول اللَّه ﷺ جالس في ناحية المسجد، فصلى ثم جاء فسلم عليه، فقال له رسول اللَّه ﷺ: «**وعليك السلام، ارجع فصل فإنك لم تصل**» فرجع فصلى، ثم جاء فسلم، فقال: «**وعليك السلام، فارجع**

---

(١) تفسير السعدي (١/ ١٦٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٨٤) ومسلم (١/ ٣٧٥/ ٥٢٧) وأبو داود (١/ ٦٣٣/ ١٠٤٥) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٩٢/ ١١٠٠٨).

(٣) البخاري (٨/ ٢١٩/ ٤٤٨٩) النسائي في الكبرى (٦/ ٢٩٢/ ١١٠٠٥).

(٤) معالم السنن (١/ ٢٠٩).

(٥) عمدة القاري (١٢/ ٤٣٢).

فصل فإنك لم تصل» فقال في الثانية -أو في التي بعدها-: علمني يا رسول الله! فقال: «**إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء، ثم استقبل القبلة فكبر، ثم اقرأ بما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعا، ثم ارفع حتى تستوي قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها**»[١].

* عن جابر بن عبد اللَّه ﷺ قال: كان رسول اللَّه ﷺ يصلي على راحلته حيث توجهت، فإذا أراد الفريضة نزل فاستقبل القبلة.[٢]

⋆ من فوائد الحديثين:

قوله: «**ثم استقبل القبلة**» قال الصنعاني: «دل على إيجاب استقبال القبلة قبل تكبيرة الإحرام»[٣].

قال أبو عمر: «وأجمع العلماء أن القبلة التي أمر اللَّه نبيه وعباده بالتوجه نحوها في صلاتهم؛ هي الكعبة البيت الحرام بمكة، وأنه فرض على كل من شاهدها وعاينها استقبالها، وأنه إن ترك استقبالها وهو معاين لها، أو عالم بجهتها؛ فلا صلاة له، وعليه إعادة كل ما صلى كذلك.

وأجمعوا: على أنه من صلى إلى غير القبلة من غير اجتهاد حمله على ذلك؛ أن صلاته غير مجزئة عنه، وعليه إعادتها إلى القبلة؛ كما لو صلى بغير طهارة، وفي هذا المعنى حكم من صلى في مسجد يمكنه طلب القبلة فيه بالمحراب وشبهه فلم يفعل؛ وصلى إلى غيرها، وأجمعوا: أن على كل من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاءها، وعلى أن على من خفيت عليه ناحيتها؛ الاستدلال عليها بكل ما يمكنه من النجوم، والجبال، والرياح، وغير ذلك؛ مما يمكن أن يستدل به على ناحيتها»[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣٧) والبخاري (١١/ ٤٣/ ٦٢٥١) ومسلم (١/ ٢٩٨/ ٣٩٧) وأبو داود (١/ ٥٣٤-٥٣٥/ ٨٥٦) والترمذي (٢/ ١٠٣-١٠٤/ ٣٠٣) والنسائي (٢/ ٤٦١/ ٨٨٣) وابن ماجه (١/ ٣٣٦-٣٣٧/ ١٠٦٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٧٨) والبخاري (١/ ٦٦٣/ ٤٠٠) وأخرجه بنحوه أبو داود (٢/ ٢٢/ ١٢٢٧) والترمذي (٢/ ١٨٢/ ٣٥١).

(٣) السبل (١/ ٣٠٧).

(٤) فتح البر (٤/ ٣٠٤).

وقال ابن بطال: «قال المهلب: هذه الأحاديث تخص قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ وتبين أن معناه في المكتوبات وما كان من النوافل في الأرض، وتفسر قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أن ذلك في النافلة على الدابة»[١].

قال الشوكاني: «وأما وجوب استقبال الكعبة على المشاهد ومن في حكمه؛ فلأنه قد تمكّن من اليقين، فلا يعدل عنه إلى الظنّ، والأحاديث المتواترة مصرّحة بوجوب الاستقبال، بل هو نص القرآن الكريم ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وعلى ذلك أجمع المسلمون، وهو قطعي من قطعيات الشريعة.

وأما كون فرض غير المشاهد ومن في حكمه استقبال الجهة؛ فلأن ذلك هو الذي يمكنه ويدخل تحت استطاعته، ولم يكلفه اللَّه تعالى ما لا يطيق؛ كما صرح بذلك في كتابه العزيز، وقد جعل النبي ﷺ ما بين المشرق والمغرب قبلة، كما في حديث أبي هريرة عند الترمذي وابن ماجه[٢]، وورد مثل ذلك عن الخلفاء الراشدين، وقد استقبل النبي ﷺ الجهة بعد خروجه من مكة، وشرع للناس ذلك»[٣].

وقال القنوجي: «استقبال القبلة هو من ضروريات الدين، فمن أمكنه استقبال القبلة تحقيقًا، فذلك الواجب عليه، مثل القاطن حولها المشاهد لها، من دون قطع مسافة، ولا تجشم مشقة، ومن لم يكن كذلك ففرضه استقبال الجهة، وليس المراد من تلك الجهة الكعبة على الخصوص، بل المراد ما أرشد إليه ﷺ من كون بين المشرق والمغرب قبلة، فمن كان في جهات اليمن، وعرف جهة المشرق، وجهة المغرب؛ توجّه بين الجهتين، فإن تلك الجهة هي القبلة، وكذلك من كان بجهة الشام، يتوجه بين الجهتين، من دون إتعاب للنفس في تقدير الجهات، فإن ذلك مما لم يرد به الشرع، ولا كلف به العباد، والمحاريب[٤] المنصوبة في المساجد والمشاهد المعمورة في بلاد المسلمين، الذين لهم عناية بأمر الدين؛ مغنية عن

---

(١) شرح البخاري (٣/ ٨٦-٨٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢/ ١٧٣/ ٣٤٤) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (١/ ٣٢٣/ ١٠١١)، وصححه الألباني رحمه الله في الإرواء: (٢٩٢).

(٣) الدراري المضية (١/ ١١٤).

(٤) انظر الكلام على بدعية المحاريب في المساجد في السلسلة الضعيفة تحت رقم [٤٤٨]، وللسيوطي رسالة بعنوان: «إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب».

التكلف، وكذلك إخبار العدول المرضيين كافة، فإن من قال: هذه جهة القبلة، أو عمّر محرابًا يأوي إليه الناس؛ لا شك أنه قد بلغ من التحرّي ما يبلغه من أراد تأدية صلاة أو صلوات في مكان من الأمكنة؛ لأن معرفة الجهة التي عرّفناك بها من السير ما تراد لمعرفته لكون الجهات الأربع معلومة لكل عاقل، وقد يعرض اللبس في بعض المواطن على بعض الأفراد، إما لعدم ظهور ما يهتدى به في ظلمة الليل، أو حيلولة جبال عالية في أرض عالية لا يعرفها، مع تلوّن طرقها التي قد سلكها، فهذا فرضه أن يمعن النظر في تعريف الجهة، فإذا أعوزه الأمر توجه حيث شاء، هذا في الفرائض. وأما النوافل فقد خفف الشارع فيها، وسوّغ تأديتها على ظهر الراحلة إلى جهة القبلة وغير جهتها، بل سوغ تأدية الفريضة في الأرض الندية على ظهر الراحلة.. فهذا خلاصة ما تعبّدنا اللّه به في أمر القبلة، وهو يغنيك عن التفريعات الطويلة، والتهويلات المهيلة في كتب الفقه»[1].

قال ابن بطال: «أجمع العلماء أنه لا يجوز أن يصلي أحد فريضة على الدابة من غير عذر، وأنه لا يجوز له ترك القبلة إلا في شدة الخوف، وفي النافلة في السفر على الدابة؛ رخصة من اللّه لعباده ورفقًا بهم، فثبت أن القبلة فرض من الفرائض في الحضر والسفر، وفي السنن لمن تنفل على الأرض»[2].

* * *

(١) الروضة الندية (١/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٢) شرح البخاري (٣/ ٩٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة، وانصرافكم عن بيت المقدس؛ يعلمون أن اللَّه تعالى سيوجهك إليها، بما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول اللَّه ﷺ وأمته، وما خصه اللَّه تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم؛ حسدا وكفرا وعنادا، ولهذا تهددهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾»(١).

وقال محمد رشيد رضا: «بعد هذا عاد إلى بيان حال السفهاء، مثيري الفتنة في مسألة تحويل القبلة، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: أن تولّي المسجد الحرام هو الحق المنزل من اللَّه على نبيه. وجمهور المفسرين على أن أكثر أولئك الفاتنين كانوا من أهل الكتاب المقيمين في الحجاز، ولولا ذلك لم تكن الفتنة عظيمة؛ لأن كلام المشركين في مسائل الوحي والتشريع قلما يلتفت إليه، وأما أهل الكتاب فقد كانوا معروفين بين الناس بالعلم، ومن كان كذلك فإن عامة الناس تتقبل كلامه، ولو نطق بالمحال؛ لأن الثقة بمظهره تصدّ عن تمحيص خبره، فهو في حاله الظاهرة شبهة إذا أنكر، وحجة إذا اعترف، ولأن الجماهير من الناس قد اعتادوا على تقليد مثله من غير بحث ولا دليل، وقد جرى أصحاب المظاهر العلمية والدينية على الانتفاع بغرور الناس بهم، فصار الغرض لهم من أقوالهم التأثير في نفوس الناس، فهم يقولون ما لا يعتقدون لأجل ذلك، ويسندون ما يقولون إلى كتبهم كذبًا صريحًا أو تأويلًا بعيدًا كما كان أحبار اليهود

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤٠-٣٤١).

يطعنون في النبي ﷺ وما جاء به، ويذكرون للناس أقوالًا على أنها من كتبهم، وما هي من كتبهم، إن يريدون إلا خداعًا، وقد كذب اللَّه هؤلاء الخادعين، وبيّن أنهم يقولون غير ما يعتقدون، كأنه يقول: إن هؤلاء قد قام عندهم الدليل على ما سبقت به بشارة أنبيائهم من صحة نبوة الرسول، ويعلمون أن أمر القبلة كغيرها من أمور الدين، قد جاء به الوحي عن اللَّه تعالى، وأنه الحق لا محيص عنه. ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ فهو المطلع على الظواهر والضمائر، الحسيب على ما في السرائر، الرقيب على الأعمال، فيخبر نبيّه بما شاء أن يخبره، وإليه المرجع والمصير، وعليه الحساب والجزاء»[1].

وقال السعدي: «ولما ذكر تعالى فيما تقدم، المعترضين على ذلك من أهل الكتاب وغيرهم وذكر جوابهم، ذكر هنا، أن أهل الكتاب والعلماء منهم، يعلمون أنك في ذلك على حق واضح، لما يجدونه في كتبهم، فيعترضون عنادًا وبغيًا. فإذا كانوا يغمون بخطاهم، فلا تبالوا بذلك. فإن الإنسان إنما يغمه، اعتراض من اعترض عليه، إذا كان الأمر مشتبهًا، وكان ممكنًا أن يكون معه صواب. فأما إذا تيقن أن الصواب والحق مع المعترض عليه، وأن المعترض معاند، عارف ببطلان قوله، فإنه لا محل للمبالاة، بل ينتظر بالمعترض، العقوبة الدنيوية والأخروية، فلهذا قال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها. وفيها وعيد للمعترضين، وتسلية للمؤمنين. كان النبي ﷺ -من كمال حرصه على هداية الخلق- يبذل غاية ما يقدر عليه من النصيحة، ويتلطف بهدايتهم، ويحزن إذا لم ينقادوا لأمر اللَّه. فكان من الكفار، من تمرد عن أمر اللَّه، واستكبر على رسل اللَّه، وترك الهدى، عمدا وعدوانا. فمنهم: اليهود والنصارى، أهل الكتاب الأول، الذين كفروا بمحمد ﷺ عن يقين، لا عن جهل»[2].

وقال ابن جرير: «قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ يعني بذلك -تبارك وتعالى-: وليس اللَّه بغافل عما تعملون أيها المؤمنون، في اتباعكم أمره،

(١) تفسير المنار (٢/ ١٦-١٧).

(٢) تفسير السعدي (١/ ١٦٣-١٦٤).

وانتهائكم إلى طاعته، فيما ألزمكم من فرائضه، وإيمانكم به في صلاتكم نحو بيت المقدس، ثم صلاتكم من بعد ذلك شطر المسجد الحرام، ولا هو ساه عنه، ولكنه -جل ثناؤه- يحصيه لكم ويدخره لكم عنده، حتى يجازيكم به أحسن جزاء، ويثيبكم عليه أفضل الثواب»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٣/ ١٨٤ تحقيق شاكر).

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير : «يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم، ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول اللَّه ﷺ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به ؛ لما اتبعوه وتركوا أهواءهم، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[1]، ولهذا قال هاهنا : ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ .

وقوله : ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره اللَّه تعالى به، وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم، فهو أيضًا مستمسك بأمر اللَّه وطاعته واتباع مرضاته، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله، ولا كونه متوجها إلى بيت المقدس لكونها قبلة اليهود، وإنما ذلك عن أمر اللَّه تعالى، ثم حذر تعالى من مخالفة الحق الذي يعلمه العالِم إلى الهوى ؛ فإن العالِم الحجةُ عليه أقوم من غيره، ولهذا قال مخاطبا للرسول، والمراد به الأمة : ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾»[2] .

وقال السعدي : «﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ أي : بكل برهان ودليل، يوضح قولك، ويبين ما تدعو إليه . ﴿مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ ؛ أي : ما تبعوك ؛ لأن اتباع القبلة، دليل على اتباعه . ولأن السبب هو شأن القبلة . وإنما كان الأمر كذلك ؛ لأنهم معاندون، عرفوا الحق وتركوه . فالآيات إنما ينتفع بها، من يتطلب

(١) يونس : الآيتان (٩٦ و ٩٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤١).

الحق، وهو مشتبه عليه، فتوضح له الآيات البينات. وأما من جزم بعدم اتباع الحق، فلا حيلة فيه. وأيضًا فإن اختلافهم فيما بينهم حاصل، وبعضهم غير تابع قبلة بعض. فليس بغريب منهم -مع ذلك- أن لا يتبعوا قبلتك يا محمد، وهم الأعداء الحسدة حقيقة، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ أبلغ من قوله: «ولا تتبع» لأن ذلك يتضمن أنه ﷺ اتصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع ذلك منه. ولم يقل: (ولو أتوا بكل آية) لأنهم لا دليل لهم على قولهم. وكذلك إذا تبين الحق بأدلته اليقينية، لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه؛ لأنها لا حد لها، ولأنه يعلم بطلانها، للعلم بأن كل ما نافى الحق الواضح، فهو باطل، فيكون حل الشبه من باب التبرع. ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ إنما قال: (أهواءهم) ولم يقل: (دينهم) لأن ما هم عليه مجرد أهواء نفس، حتى هم -في قلوبهم- يعلمون أنه ليس بدين. ومن ترك الدين، اتبع الهوى، لا محالة. قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1]. ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بأنك على الحق، وهم على الباطل. ﴿إِنَّكَ إِذًا﴾ أي: إن اتبعتهم، فهذا احتراز، لئلا تنفصل هذه الجملة عما قبلها، ولو في الأفهام. ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: داخل فيهم، ومندرج في جملتهم. وأي ظلم أعظم، من ظلم من علم الحق والباطل، فآثر الباطل على الحق. وهذا وإن كان الخطاب له ﷺ، فإن أمته داخلة في ذلك. وأيضا، فإذا كان هو ﷺ لو فعل ذلك -وحاشاه- صار ظالما مع علو مرتبته، وكثرة إحسانه- فغيره من باب أولى وأحرى»[2].

قال الشوكاني: «وفي هذه الآية مبالغة عظيمة وهي متضمنة للتسلية لرسول الله ﷺ، وترويح خاطره؛ لأن هؤلاء لا تؤثر فيهم كل آية، ولا يرجعون إلى الحق وإن جاءهم بكل برهان فضلًا عن برهان واحد، وذلك أنهم لم يتركوا اتباع الحق لدليل عندهم، أو لشبهة طرأت عليهم، حتى يوازنوا بين ما عندهم وما جاء به الرسول ﷺ ويقلعوا عن غوايتهم عند وضوح الحق، بل كان تركهم للحق تمردًا وعنادًا، مع علمهم بأنهم ليسوا على شيء، ومن كان هكذا فهو لا ينتفع بالبرهان أبدا.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ هذا الإخبار ممكن أن يكون بمعنى النهي من الله سبحانه لنبيه ﷺ؛ أي: لا تتبع يا محمد قبلتهم، ويمكن أن يكون على ظاهره؛ دفعًا

---

(١) الجاثية: الآية (٢٣).

(٢) تفسير السعدي (١/ ١٦٥-١٦٦).

لأطماع أهل الكتاب، وقطعًا لما يرجونه من رجوعه ﷺ إلى القبلة التي كان عليها .

وقوله: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ فيه إخبار بأن اليهود والنصارى مع حرصهم على متابعة الرسول ﷺ لما عندهم؛ مختلفون في دينهم حتى في هذا الحكم الخاص الذي قصه اللَّه سبحانه على رسوله، فإن بعضهم لا يتابع الآخر في استقبال قبلته، قال في «الكشاف»: وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى تستقبل مطلع الشمس. اهـ

وقوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ إلى آخر الآية، فيه من التهديد العظيم والزجر البليغ ما تقشعر له الجلود وترجف منه الأفئدة، وإذا كان الميل إلى أهوية المخالفين لهذه الشريعة الغراء والملة الشريفة من رسول اللَّه ﷺ الذي هو سيد ولد آدم، يوجب عليه أن يكون -وحاشاه- من الظالمين؛ فما ظنك بغيره من أمته، وقد صان اللَّه هذه الفرقة الإسلامية بعد ثبوت قدم الإسلام، وارتفاع مناره عن أن يميلوا إلى شيء من هوى أهل الكتاب، ولم تبق إلا دسيسة شيطانية، ووسيلة طاغوتية، وهي ميل بعض من تحمل حجج اللَّه إلى هوى بعض طوائف المبتدعة، لما يرجوه من الحطام العاجل من أيديهم، أو الجاه لديهم إن كان لهم في الناس دولة، أو كانوا من ذوي الصولة، وهذا الميل ليس بدون ذلك الميل، بل اتباع أهوية المبتدعة تشبه اتباع أهوية أهل الكتاب، كما يشبه الماءُ الماءَ، والبيضةُ البيضةَ، والتمرةُ التمرةَ؛ وقد تكون مفسدة اتباع أهوية المبتدعة أشدّ على هذه الملة من مفسدة اتباع أهوية أهل الملل؛ فإن المبتدعة ينتمون إلى الإسلام، ويظهرون للناس أنهم ينصرون الدين، ويتبعون أحسنه؛ وهم على العكس من ذلك، والضد لما هنالك، فلا يزالون ينقلون من يميل إلى أهويتهم من بدعة إلى بدعة، ويدفعونه من شنعة إلى شنعة، حتى يسلخوه من الدين ويخرجونه منه، وهو يظن أنه منه في الصميم، وأن الصراط الذي هو عليه هو الصراط المستقيم، هذا إن كان في عداد المقصرين، ومن جملة الجاهلين؛ وإن كان من أهل العلم والفهم المميزين بين الحق والباطل؛ كان في اتباعه لأهويتهم ممن أضله اللَّه على علم وختم على قلبه، وصار نقمة على عباد اللَّه، ومصيبة صبها اللَّه على المقصرين؛ لأنهم يعتقدون أنه في علمه وفهمه لا يميل إلا إلى حق، ولا يتبع إلا الصواب، فيَضلون بضلاله، فيكون عليه إثمه وإثم من

اقتدى به إلى يوم القيامة، نسأل اللَّه اللطف والسلامة والهداية»[١].

قلت: للَّه درّ الإمام الشوكاني! ما أحسن ما قال! ولو عاش إلى عصرنا هذا، ورأى تلاعب الكبار ممن ينتسبون إلى العلم؛ لقال أكثر مما قال، فما أشبه اليوم بالأمس! واللَّه المستعان.

قال ابن القيم: «أخبر تعالى عن شدة كفر أهل الكتاب بأنهم لو أتاهم الرسول بكل آية ما تبعوا قبلته، ففي ذلك التسلية له وتركهم وقبلتَهم، ثم برّأه من قبلتهم فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾، ثم ذكر اختلافهم في القبلة، وأن كل طائفة منهم لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى؛ لأن القبلة من خواص الدين وأعلامه وشعائره الظاهرة، فأهل كل دين لا يفارقون قبلتهم إلا أن يفارقوا دينهم، فأخبر تعالى في هذه الجمل الثلاث بثلاث إخبارات، تتضمن براءة كل طائفة من قبلة الطائفة الأخرى، وتتضمن الإخبار بأن أهل الكتاب لو رأوا كل آية تدل على صدق الرسول؛ لما تبعوا قبلته: عنادا وتقليدا لآبائهم، وأنهم إن اشتركوا في خلاف القبلة الحق فمنهم مختلفون في باطلهم، فلا تتبع طائفة قبلة الأخرى، فهم متفقون على خلاف الحق في اختيار الباطل، وفي هذه الآية أيضًا تثبيت للرسول ﷺ والمؤمنين على لزوم قبلتهم، وأنه لا يشتغل بما يقوله أهل الكتاب: ارجعوا إلى قبلتنا فنتبعكم على دينكم، فإن هذا خداع ومكر منهم، فإنهم لو رأوا كل آية تدل على صدقك ما تبعوا قبلتك؛ لأن الكفر قد تمكن من قلوبهم، فلا مطمع للحق فيها، ولست أيضًا بتابع قبلتهم، فليقطعوا مطامعهم من موافقتك لهم، وعودك إلى قبلتهم، وكذلك هم أيضًا مختلفون فيما بينهم، فلا يتبع أحد منهم قبلة الآخر، فهم مختلفون في القبلة، ولستم أيها المؤمنون موافقين لأحد منهم في قبلته، بل أكرمكم اللَّه بقبلة غير قبلة هؤلاء المختلفين؛ اختارها اللَّه لكم ورضيها، وأكد تعالى هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فهذا كله تثبيتٌ وتحذير من موافقتهم في القبلة، وبراءةٌ من قبلتهم كما هم براء من قبلتك؛ وكما بعضهم بريء من قبلة بعض، فأنتم أيها المؤمنون أولى بالبراءة من

---

(١) فتح القدير (١/ ٢٢٧-٢٢٨).

قبلتهم التي أكرمكم اللَّه بالتحويل عنها»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عناد اليهود وتنكبهم عن الحق

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لو آمن بي عشرة من أحبار اليهود، لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض**»[٢].

★ من فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «فالمراد: عشرة مختصة، وإلا فقد آمن به أكثر من عشرة. وقيل: المعنى لو آمن بي في الزمن الماضي كالزمن الذي قبل قدوم النبي ﷺ المدينة أو حال قدومه، والذي يظهر أنهم الذين كانوا حينئذ رؤساء في اليهود، ومن عداهم كان تبعا لهم، فلم يسلم منهم إلا القليل؛ كعبد اللَّه بن سلام، وكان من المشهورين بالرياسة في اليهود عند قدوم النبي ﷺ»[٣].

* عن ابن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود نبي اللَّه ﷺ يومًا فقالوا: يا أبا القاسم! حدثنا عن خلالٍ نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي، قال: «**سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة اللَّه وما أخذ يعقوب** ﷺ على بنيه: لئن أنا حدثتكم شيئًا فعرفتموه لتتابعني على الإسلام؟» قالوا: فذلك لك، قال: «**فسلوني عما شئتم**» قالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا أيّ طعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل؟ كيف يكون الذكر منه؟ وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم؟ ومن وليه من الملائكة؟ قال: «**فعليكم عهد اللَّه وميثاقه لئن أنا أخبرتكم لتتابعني؟**» قال: فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق، قال: «**فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ﷺ؛ هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب** ﷺ **مرض مرضًا شديدًا، وطال سقمه، فنذر لله نذرًا لئن شفاه اللَّه تعالى من سقمه؛ ليحرّمنّ أحب الشراب إليه، وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لُحمان الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها؟**» قالوا: اللهم نعم، قال:

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٥٩-١٦٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٤٦) والبخاري (٧/ ٣٤٩/ ٣٩٤١) ومسلم (٤/ ٢١٥١/ ٢٧٩٣).

(٣) الفتح (٧/ ٣٥٠).

«**اللهم اشهد عليهم، فأنشدكم باللَّه الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى؛ هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق؟ فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن اللَّه، إن علا ماء الرجل على ماء المرأة كان ذكرا بإذن اللَّه، وإن علا ماء المرأة على ماء الرجل كان أنثى بإذن الله**» قالوا: اللهم نعم، قال: «**اللهم اشهد عليهم، فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى؛ هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟**» قالوا: اللهم نعم، قال: «**اللهم اشهد**» قالوا: وأنت الآن فحدثنا من وليّك من الملائكة؟ فعندها نجامعك أو نفارقك، قال: «**فإن وليي جبريل** عليه السلام، **ولم يبعث اللَّه نبيًّا قط إلا هو وليه**»، قالوا: فعندها نفارقك!! لو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك، قال: «**فما يمنعكم من أن تصدقوه؟**» قالوا: إنه عدونا!!، قال: فعند ذلك قال اللَّه ﷻ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1] إلى قوله ﷻ: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2] فعند ذلك: باؤوا بغضب على غضب[3].

★ فوائد الحديث:

قلت: اليهود عليهم لعائن اللَّه عازمون على حرب الرسول ودعوته وكتابه وسنته، مهما كلفهم من العناء والتعب، وإن فتحوا بابًا يظهرون فيه الموافقة والترحيب بالإسلام، فهو من أكبر أبواب الخداع والتلبيس فهاهم يسألون الرسول ﷺ عن آيات ظنوا أنه ﷺ يعجز عن الجواب عنها، فلما أجابهم وما وجدوا حيلة لرد جوابه ﷺ لجأوا إلى المكر والخداع، فذكروا شبهة لا علاقة لها لا بالسؤال ولا بالجواب، وهي عبارة عن عناد ومكر وتجديد كفر، وبيان حقيقة حالهم وواقعهم، وأن الرسول مهما بذل من الجهد ومهما أوتي من الآيات فهم معه على طرفي نقيض، وهذا أمر معروف لا يخفى من نصوص القرآن ونصوص السنن، وهذه القصة أكبر شاهد على ذلك.

---

(١) البقرة: الآية (٩٧). (٢) البقرة: الآية (١٠١).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧٨) والترمذي (٥/ ٢٧٤/ ٣١١٧) وقال: «هذا حديث حسن غريب». والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٣٦/ ٩٠٧٢) والطبراني (١٢/ ٤٥-٤٦/ ١٢٤٢٩) وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٤٢) وقال: «رواه الترمذي باختصار، ورواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات».

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ، كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا»[(١)].

قال القرطبي: «أي يعرفون نبوته وصدق رسالته، والضمير عائد على محمد ﷺ، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما، وقيل: يعرفون تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة أنه حق، قاله ابن عباس وابن جريج والربيع وقتادة أيضًا، وخص الأبناء في المعرفة بالذكر دون الأنفس -وإن كانت ألصق- لأن الإنسان يمر عليه من زمنه برهة لا يعرف فيها نفسه، ولا يمر عليه وقت لا يعرف فيه ابنه، وروي أن عمر قال لعبد اللَّه بن سلام: أتعرف محمدًا ﷺ كما تعرف ابنك؟ فقال: نعم وأكثر، بعث اللَّه أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته فعرفته، وابني لا أدري ما كان من أمه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: محمدًا ﷺ، قاله مجاهد وقتادة وخصيف. وقيل: استقبال الكعبة على ما ذكرنا آنفًا. قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ظاهر في صحة الكفر عنادا، ومثله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[(٢)]، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾[(٣)]»[(٤)].

وقال السعدي: «يخبر تعالى: أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم، وعرفوا أن محمدًا رسول اللَّه، وأن ما جاء به، حق وصدق، وتيقنوا ذلك، كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشتبهون بغيره.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤١).

(٢) النمل: الآية (١٤). (٣) البقرة: الآية (٨٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٦٢-١٦٣).

فمعرفتهم بمحمد ﷺ، وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون. ولكن فريقا منهم -وهم أكثرهم- الذين كفروا به، كتموا هذه الشهادة مع تيقنها، وهم يعلمون ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾[١]. وفي ضمن ذلك، تسلية للرسول والمؤمنين، وتحذير له من شرهم وشبههم. وفريق منهم، لم يكتموا الحق وهم يعلمون.

فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر به، جهلا. فالعالم، عليه إظهار الحق، وتبيينه وتزيينه، بكل ما يقدر عليه من عبارة وبرهان، ومثال، وغير ذلك، وإبطال الباطل وتمييزه عن الحق، وتشيينه وتقبيحه للنفوس، بكل طريق مؤد لذلك. فهؤلاء الكاتمون، عكسوا الأمر، فانعكست أحوالهم»[٢].

وقال شيخ الإسلام: «قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[٣]: فالمقصود بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون وذلك من وجوه:

أحدها: أن الكتب المتقدمة تنطق بأن موسى وغيره دعوا إلى عبادة اللّه وحده، ونهوا عن الشرك فكان في هذا حجة على من ظن أن الشرك دين. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[٤]. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[٥]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[٦].

الوجه الثاني: أن أهل الكتاب يعلمون أن اللّه إنما أرسل إلى الناس بشرا مثلهم، لم يرسل إليهم ملكًا؛ فإن من الكفار من كان يزعم أن اللّه لا يرسل إلا ملكا أو بشرا معه ملك، ويتعجبون من إرسال بشر ليس معه ملك ظاهر كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى

---

(١) البقرة: الآية (١٤٠).

(٢) تفسير السعدي (١/ ١٦٦-١٦٧).

(٣) البقرة: الآية (١٤٦).

(٤) الزخرف: الآية (٤٥).

(٥) الأنبياء: الآية (٢٥).

(٦) النحل: الآية (٣٦).

ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[١]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[٣]. وكذلك قال الذين من بعدهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[٤]. وكذلك قال قوم فرعون لموسى وهارون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾[٥]. وقال فرعون: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[٦]. وكذلك قالوا لمحمد ﷺ وقال تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾[٧]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[٨]. فبين سبحانه أنكم لا تطيقون التلقي عن الملك، فلو أنزلناه ملكًا لجعلناه في صورة بشر. وحينئذ كنتم تظنونه بشرًا فيحصل اللبس عليكم. فأمر اللَّه تعالى بسؤال أهل الكتاب عمن أرسل إليهم أكان بشرًا أم كان ملكا ليقيم الحجة بذلك على من أنكر إرسال بشر، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[٩]. وأهل الذكر هم أهل الذكر الذي أنزله اللَّه تعالى.

الوجه الثالث: أنهم يسألون أهل الكتاب عما جرى للرسل مع أممهم، وكيف كان عاقبة المؤمنين بهم، وعاقبة المكذبين لهم.

---

(١) الإسراء: الآيتان (٩٤ و ٩٥).
(٢) المؤمنون: الآيتان (٢٣ و ٢٤).
(٣) القمر: الآيتان (٢٣ و ٢٤).
(٤) المؤمنون: الآيتان (٣٣ و ٣٤).
(٥) المؤمنون: الآية (٤٧).
(٦) الزخرف: الآيتان (٥٢ و ٥٣).
(٧) يونس: الآيتان (١ و ٢).
(٨) الأنعام: الآيتان (٨ و ٩).
(٩) الأنبياء: الآيات (٧-٩).

الوجه الرابع: يسألون أهل الكتاب عن الدين الذي بعث اللَّه به رسله، وهو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل، كالأمر بالتوحيد، والصدق، والعدل، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والنهي عن الشرك، والظلم والفواحش.

الوجه الخامس: يسألونهم عما وصفت به الرسل ربهم، هل هو موافق لما وصفه به محمد أم لا؟ وهذه الأمور المسؤول عنها متواترة عند أهل الكتاب معلومة لهم ليست مما يشكون فيه، وليس إذا كان مثل هذا معلومًا لهم بالتواتر فيسألون عنه يجب أن يكون كل ما يقولونه معلومًا لهم بالتواتر. وأيضًا فإنهم يسألون أيضًا عما عندهم من الشهادات والبشارات بنبوة محمد ﷺ. وقد أخبر اللَّه بذلك في القرآن فقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[2].

فقد أخبر عن عيسى أنه صدق بالرسول والكتاب الذي قبله وهو التوراة وبشر بالرسول الذي يأتي بعده وهو أحمد. قال تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[3].

وقال تعالى عن من أثنى عليه من النصارى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾[4]. وقال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾

---

(١) الأعراف: الآيتان (١٥٦ و ١٥٧). (٢) الصف: الآية (٦).
(٣) البقرة: الآيات (١٤٤-١٤٦). (٤) المائدة: الآية (٨٣).

وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[1]. وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[3]. وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[5]. والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد ﷺ عندهم في الكتب المتقدمة متواترة عنهم.

وكان قبل أن يبعث النبي ﷺ تجري حروب وقتال بين العرب وبين أهل الكتاب فتقول أهل الكتاب: قد قرب مبعث هذا النبي الأمي الذي يبعث بدين إبراهيم، فإذا ظهر اتبعناه، وقتلناهم معه شر قتلة، فلما بعث النبي ﷺ، كان منهم من آمن به، ومنهم من كفر به»[6].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن كتمان الحق منهاج يهودي قديم ومن تشبه بقوم فهو منهم

* عن عبد اللّٰه بن عمر رضي الله عنهما: أن اليهود جاءوا إلى رسول اللّٰه ﷺ، فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول اللّٰه ﷺ: «**ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟**» فقالوا: نفضحهم ويجلدون، فقال عبد اللّٰه بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها!! فقال له عبد اللّٰه بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد! فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول اللّٰه ﷺ فرجما، قال

---

(١) الإسراء: الآيات (١٠٦-١٠٩).
(٢) الأنعام: الآية (١١٤).
(٣) القصص: الآيات (٥١-٥٤).
(٤) الأنعام: الآية (٢٠).
(٥) البقرة: الآية (٨٩).
(٦) الجواب الصحيح (٢/ ٣٥٩-٣٦٦).

عبد الله: فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقيها الحجارة[١].

★ **غريب الحديث:**

يجنأ: أي يكب ويميل عليها ليقيها الحجارة.

★ **من فوائد الحديث:**

قال الوزير بن هبيره: «فيه دليل على قلة أمانة اليهود، وكتمانهم الحق، جريًا على عادتهم السيئة، فإنهم بلغ بهم البهت إلى أن وضع واضع منهم يده على آية الرجم حتى أظهرها عبد اللَّه بن سلام، فاستدل بذلك على أنهم قد كتموا أمر رسول اللَّه ﷺ وصفته، وقد أعلم اللَّه تعالى نبيه ﷺ أن القوم بدلوا التوراة؛ إلا أن هذا لم يكن قد حرفوه بعد»[٢].

وقال: «وفيه أن اليهود إنما كانوا يحتملون من أحكام اللَّه ما يخف عليهم دون ما يثقل، فقد حذرنا اللَّه ﷻ بذكر هذا الحال عن أن نكون مثلهم، بل نحمل ما حملنا ربنا، ونسأله التخفيف»[٣].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٥) والبخاري (٦/ ٧٨٢/ ٣٦٣٥) ومسلم (٣/ ١٣٢٦/ ١٦٩٩) وأبو داود (٤/ ٥٩٣-٥٩٤/ ٤٤٤٦) والنسائي في الكبرى (٤/ ٢٩٣-٢٩٤/ ٧٢١٣-٧٢١٦).

(٢) الإفصاح (٤/١٤٨-١٤٩).

(٣) الإفصاح (٤/ ١٤٩).

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الممترين: الامتراء: الشك والريب، والامتراء والمراء أيضًا: المحاججة والجدال، قال الشاعر:

فَـإِيَّـاكَ إِيَّـاكَ الـمِـرَاءَ فَـإِنَّـهُ ... إِلَى الشَّرِّ دَعَّاءٌ وَلِلشَّرِّ جَالِبُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول اللَّه -جل ثناؤه-: اعلم يا محمد أن الحق ما أعلمك ربك وأتاك من عنده، لا ما يقول لك اليهود والنصارى، وهذا من اللَّه -تعالى ذكره- خبر لنبيه -عليه الصلاة والسلام- عن أن القبلة التي وجهه نحوها هي القبلة الحق، التي كان عليها إبراهيم خليل الرحمن، ومن بعده من أنبياء اللَّه ﷺ، يقول -تعالى ذكره- له: فاعمل بالحق الذي أتاك من ربك يا محمد، ولا تكونن من الممترين، يعني بقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: فلا تكونن من الشاكين في أن القبلة التي وجهتك نحوها قبلة إبراهيم خليلي ﵇، وقبلة الأنبياء غيره»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «أي: أن العمدة في معرفة الحق هو الوحي يأتيك من عند ربك، فلا تلتفت إلى أوهام هؤلاء المجاحدين؛ فإنها لا تصلح شبهة على الحق الصريح الذي علمك اللَّه فتمتري بها. والنهي في الآية هو كالوعيد في الآية السابقة، وُجّه الخطاب به إلى النبي ﷺ والمراد أمّته: من كان منهم غير راسخ في الإيمان، وخشي عليه الاغترار بمظاهر أولئك المخادعين، الذين يغترّ بأمثال الأغرار في كل زمان ومكان، احتج تعالى على أهل الكتاب بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[2] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[3] أي: وإذا كان الأمر كذلك؛ فكل ما يأتي به عن اللَّه فهو حق، فما

---

(١) جامع البيان (٢/ ٢٧).
(٢) البقرة: الآية (١٤٤).
(٣) البقرة: الآية (١٤٦).

بالهم يشاغبون في مسألة القبلة من الأحكام الفرعية خاصة؟ فالكلام من قبيل إقامة الدليل بعد إيراد الدعوى، وليس اعتراضيًّا كما توهم بعضهم»[١].

وقال السعدي: «﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: هذا الحق الذي هو أحق أن يسمى حقا من كل شيء، لما اشتمل عليه من المطالب العالية، والأوامر الحسنة، وتزكية النفوس وحثها على تحصيل مصالحها، ودفع مفاسدها، لصدوره من ربك، الذي من جملة تربيته لك، أن أنزل عليك هذا القرآن الذي فيه تربية العقول والنفوس، وجميع المصالح.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: فلا يحصل لك أدنى شك وريبة فيه. بل تفكر فيه، وتأمل، حتى تصل بذلك إلى اليقين؛ لأن التفكر فيه لا محالة، دافع للشك، موصل لليقين»[٢].

* * *

---

(١) تفسير المنار (٢/ ٢١-٢٢).

(٢) تفسير السعدي (١/ ١٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

وِجْهَةٌ: الوِجْهَةُ والجهة والوجه بمعنى واحد، والمراد: القبلة.

فَاسْتَبِقُوا: الاستباق: الابتدار والإسراع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي: «أي: لكل أمة أو لكل نبي قبلة أو شرعة ومنهاج ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ وجهه؛ أي: مائل إليها بوجهه، تابع لها؛ لأنها حببت إليه وزينت له، وقال أبو معاذ: موليها بمعنى متوليها؛ أي: تولَّاها ورضيها واتبعها، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي: ابتدروها بالمسابقة إليها، وهذا أبلغ من الأمر بالمسارعة؛ لما فيه من الحث على إحراز قصب السبق، والمراد بالخيرات جميع أنواعها؛ مما ينال به سعادة الدارين، ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ قال الراغب: أي: أيَّ شغل تحريتم، وحيثما تصرفتم، وأيّ معبود اتخذتم؛ فإنكم مجموعون ومحاسبون عليها، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لما قبله، أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم.

* **تنبيه**: تشير الآية إلى أن الناس على مذاهب عديدة، وأديان متنوعة، وأن على العاقل أن يستبق إلى ما كان خيرها وأرقاها، وقد اتفق العقلاء قاطبة والفلاسفة: أن دين الإسلام أرقى الأديان كلها؛ لما حوى من حاجيات الكمال البشري، ووفّى بشؤون الاجتماع، وأسباب العمران، وذرائع الرقي، وطرق السعادتين، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾[1] وقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ

(١) الحج: الآية (٦٧).

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

وقوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ قال القرطبي: «أي: بادروا ما أمركم اللَّه ﷻ من استقبال البيت الحرام، وإن كان يتضمن الحث على المبادرة والاستعجال إلى جميع الطاعات بالعموم، فالمراد ما ذكر من الاستقبال لسياق الآي، والمعنى المراد: المبادرة بالصلاة أول وقتها»[(٣)].

قال شيخ الإسلام: «وأما تنوع الشرائع وتعددها؛ فقال تعالى لما ذكر القبلة بعد الملة بقوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، فأخبر أن لكل أمة وجهة، ولم يقل: جعلنا لكل أمة وجهة، بل قد يكون هم ابتدعوها كما ابتدعت النصارى وجهة المشرق، بخلاف ما ذكره في الشرع والمناهج»[(٤)].

وقال: «وأما الشرعة والمنهاج؛ فقد قال عن أهل التوراة والإنجيل والقرآن: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ وقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾[(٥)] إلى قوله: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾، وأما القبلة فلم يجعل ما ابتدعه أهل الكتاب من القبلة، فلذلك قال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾، لم يقل: إنا جعلنا لكل وجهة كما قال في المنسك والشرعة والمنهاج»[(٦)].

وقال محمد رشيد رضا: «أي: لكل أمة من الأمم، جهة توليها في صلاتها، فلم تكن جهة من الجهات قبلة في كل ملة بحيث تُعدّ ركنًا ثابتًا في الدين المطلق كتوحيد

---

(١) المائدة: الآية (٤٨).

(٢) محاسن التأويل (٢/ ٣٠٦-٣٠٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٦٥).

(٤) مجموع الفتاوى (١٩/ ١١٢).

(٥) الحج: الآيات: (٣٤-٣٧).

(٦) الجواب الصحيح (٥/ ٣٤٢-٣٤٣).

اللَّه تعالى، والإيمان بالبعث والجزاء، فإبراهيم وإسماعيل كانا يولّيان الكعبة، وكان بنو إسرائيل يستقبلون صخرة بيت المقدس، وترك النصارى ذلك إلى استقبال الشرق، وكان الأنبياء المتقدمون يستقبلون جهات أخرى، فإذا كان الأمر كذلك، ولم تكن جهة معينة ركنًا ثابتًا في الأديان؛ فأي شبهة من العقل أو من تقاليد الملل على فتنة المشاغبين في أمر القبلة؟ وأيّ وجه لما أظهروه من الشبه والحيرة، وزجّوا أنفسهم فيه من الغمة حتى جعلوه مسوّغا للطعن في النبوة والتشريع»[١].

وقال السعدي: «أي: كل أهل دين وملة، له وجهة يتوجه إليها في عبادته. وليس الشأن في استقبال القبلة، فإنه من الشرائع التي تتغير بها الأزمنة والأحوال، ويدخلها النسخ والنقل، من جهة إلى جهة. ولكن الشأن كل الشأن، في امتثال طاعة اللَّه، والتقرب إليه، وطلب الزلفى عنده. فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية. وهو الذي إذا لم تتصف به النفوس، حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة. كما أنها إذا اتصفت به، فهي الرابحة على الحقيقة، وهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق اللَّه له الخلق، وأمرهم به. والأمر بالاستباق إلى الخيرات، قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات. فإن الاستباق إليها، يتضمن فعلها، وتكميلها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها. ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات، فهو السابق في الآخرة إلى الجنات، فالسابقون أعلى الخلق درجة. والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل، من صلاة، وصيام، وزكاة وحج وعمرة وجهاد ونفع متعد وقاصر. ولما كان أقوى ما يحث النفوس على المسارعة إلى الخير، وينشطها، ما رتب اللَّه عليها من الثواب قال: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته، فيجازى كل عامل بعمله ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[٢].

ويستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل. كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة، من الصيام، والحج، والعمرة، وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وآدابها، فلله ما أجمعها وأنفعها من آية!!»[٣].

---

(١) تفسير المنار (٢/ ٢٢).
(٢) النجم: الآية (٣١).
(٣) تفسير السعدي (١/ ١٦٨-١٦٩).

قلت: مما تقدم من كلام أهل العلم يتبين أن القرآن يصرف الناس عن الأهواء الملية، ويدلهم على الامتثال الذي هو حقيقة الإخلاص والصدق، وأن العبادات غاياتها ووسائلها كلها من عند اللَّه، فلكل نبي سنن وله خصوصيات، فلا داعي إلى مقارنة السابق باللاحق، فالسابق له ما يناسب حاله وأمته، واللاحق له ما يناسب حاله وأمته، والصدق والإخلاص هو امتثال كل أمة ما جاء به نبيها، أما نبينا محمد ﷺ فهو خاتم النبيين، اكتملت شريعته وامتنع نسخها، فما على أمته إلا امتثال ما جاء به، ومن أحدث بدعة في دينه فهي مردودة في وجهه، مهما حسن المبتدع بدعته، ومهما ادعى لها من الفضائل، فعلى الأمة العض بالنواجذ على سنته ونبذ كل ما يخالفها من نزوات وأهواء وبدع وضلالات.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن من أظهر شعار الدين أجريت عليه أحكام أهله ما لم يظهر منه خلاف ذلك

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا؛ فذلك المسلم الذي له ذمة اللَّه وذمة رسوله، فلا تُخفروا اللَّه في ذمته**»[1].

⋆ **غريب الحديث:**

الذمة: العهد، وهو إشارة إلى ما عهد اللَّه ورسوله إلى المسلمين بالكف عن دم المسلم وماله وعرضه.

لا تُخفروا: من الرباعي؛ أي: لا تغدروا. يقال: أخفرت إذا غدرت، وخفرت إذا حمَيت.

⋆ **من فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «وفي الحديث تعظيم شأن القبلة، وذكر الاستقبال بعد الصلاة للتنويه به، وإلا فهو داخل في الصلاة لكونه من شروطها»[2].

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ٦٥٣-٦٥٤/ ٣٩١) والنسائي (٨/ ٤٧٩/ ٥٠١٢).

(٢) الفتح (١/ ٦٥٤).

قال ابن رجب: «وذكر استقبال القبلة: إشارة إلى أنه لابد من الإتيان بصلاة المسلمين المشروعة في كتابهم المنزل على نبيهم، وهي الصلاة إلى الكعبة، وإلا فمن صلى إلى بيت المقدس بعد نسخه كاليهود، أو إلى المشرق كالنصارى؛ فليس بمسلم، ولو شهد بشهادة التوحيد، وفي هذا دليل على عظم موقع استقبال القبلة من الصلاة، فإنه لم يذكر من شرائط الصلاة غيرها كالطهارة، وغيرها»[١].

* عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «**الصلاة على وقتها**» قال: ثم أيّ؟ قال: «**ثم برّ الوالدين**»، قال: ثم أيّ؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»، قال: حدّثني بهن، ولو استزدته لزادني[٢].

* عن أم فروة رضي الله عنها قالت: سئل رسول اللّه ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: «**الصلاة في أول وقتها**»[٣].

★ من فوائد الحديثين:

قال المناوي: «قال ابن الزملكاني: أطلق جمعٌ أن الفضل في الأعمال الصالحة باعتبار كثرة الثواب، وليس على إطلاقه، بل إن كانت ذات هذا الوصف أو هذا العمل أشرف وأعلا؛ فهو أفضل، وقد يخص اللّه بعض الأعمال من الوعد بما لا يخص به الآخر؛ ترغيبًا فيه: إما لنفرة النفس عنه، أو لمشقته غالبا، فرغّب فيه بمزيد الثواب، أو لأن غيره مما يكتفى فيه بداعي النفس، والثواب عليه فضل، فالإنصاف: أن المفاضلة تارة تكون بكثرة الثواب، وتارة بحسب الوصفين بالنظر إليهما، وتارة بحسب متعلقاتهما، وتارة بحسب ثمراتهما، وتارة بأمر عرضي لهما، ويجمع ذلك أنه قد يكون لأمر ذاتي، وقد يكون لأمر عرضي، فإذا حاولنا الكلام في التفضيل؛ فلا بد من استحضار هذه المقدمة، فتدبرها، فلا بد من ملاحظتها فيما مرّ وفيما يأتي انتهى.

وتحصل المبادرة باشتغاله بأسبابها؛ كطهارة وغيرها أول الوقت، ثم يصليها،

---

(١) فتح الباري له (٣/ ٥٦-٥٧).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٩-٤١٠) والبخاري (٢/ ١١/ ٥٢٧) ومسلم (١/ ٨٩-٩٠/ ٨٥) والترمذي (١/ ٣٢٥-٣٢٦/ ١٧٣) والنسائي (١/ ٣١٨-٣١٩/ ٦٠٩).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٣٧٤-٣٧٥) وأبو داود (١/ ٢٩٦/ ٤٢٦) والترمذي (١/ ٣١٩-٣٢٠/ ١٧٠) وصححه الحاكم (١/ ١٨٩) والشيخ الألباني في صحيح أبي داود (٤٥٣).

ولا تشترط السرعة خلاف العادة، ولا يضر التأخير لقليل أكل، وكلامه شامل للعِشاء، وهو الأصح عند جمهور الشافعية، وذهب كثير منهم إلى ندب تأخيرها إلى ثلث الليل، لحديث آخر، ومحل ندب التعجيل ما لم يعارضه معارض مما هو مقرر في الفروع»[1].

قال النووي: «وفي هذا الحديث الحث على المحافظة على الصلاة في وقتها، ويمكن أن يؤخذ منه استحبابها في أول الوقت لكونه احتياطًا لها ومبادرة إلى تحصيلها في وقتها»[2].

* * *

(١) فيض القدير (٢/ ٢٥).

(٢) شرح مسلم (٢/ ٦٩).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا أمر ثالث من اللّه تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض»[(١)].

قال القرطبي: «قيل: هذا تأكيد للأمر باستقبال الكعبة واهتمام بها؛ لأن موقع التحويل كان صعبًا في نفوسهم جدًا، فأكد الأمر ليرى الناس الاهتمام به فيخفَّ عليهم، وتسكن نفوسهم إليه. وقيل: أراد بالأول: ولِّ وجهك شطر الكعبة؛ أي عاينها إذا صليت تلقاءها، ثم قال: وحيث ما كنتم معاشر المسلمين في سائر المساجد بالمدينة وغيرها؛ فولوا وجوهكم شطره، ثم قال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾؛ يعني: وجوب الاستقبال في الأسفار، فكان هذا أمرًا بالتوجه الى الكعبة في جميع المواضع من نواحي الأرض. قلت: هذا القول أحسن من الأول؛ لأن فيه حمل كل آية على فائدة»[(٢)].

قال ابن عاشور: «وقد تكرر الأمر باستقبال النبي الكعبة ثلاث مرات، وتكرر الأمر باستقبال المسلمين الكعبة مرتين.

وتكرر أنه الحق ثلاث مرات، وتكرر تعميم الجهات ثلاث مرات، والقصد من ذلك كله؛ التنويه بشأن استقبال الكعبة، والتحذير من تطرق التساهل في ذلك؛ تقريرا

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٦٨).

للحق في نفوس المسلمين، وزيادة في الرد على المنكرين التأكيد، من زيادة: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾، ومن جُمل معترضة، لزيادة التنويه بحكم الاستقبال: وهي جملة: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ﴾ الآيات، وجملة: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، وجملة: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ الآيات، وفيه إظهار أحقية الكعبة بذلك؛ لأن الذي يكون على الحق لا يزيده إنكار المنكرين إلا تصميمًا، والتصميم يستدعي إعادة الكلام الدال على ما صمم عليه؛ لأن الإعادة تدل على التحقق في معنى الكلام.

وقد ذكر في خلال ذلك من بيان فوائد هذا التحويل وما حف به؛ ما يدفع قليل السآمة العارضة لسماع التكرار، فذكر قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ الخ، وذكر قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ الخ.

والضمير في: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ راجع إلى مضمون الجملة، وهو حكم التحويل، فهو راجع إلى ما يؤخذ من المقام، فالضمير هنا كالضمير في قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾»[(١)].

وقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾

قال ابن كثير: «أي أهل الكتاب؛ فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس، وهذا أظهر»[(٢)].

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾؛ علة لقوله: ﴿فَوَلُّوا﴾ فولّوا الدال على طلب الفعل وامتثاله، أي شرعت لكم ذلك لندحض حجة الأمم عليكم، وشأن تعليل صيغ الطلب أن يكون التعليل للطلب باعتبار الإتيان بالفعل المطلوب.

فإن مدلول صيغة الطلب هو إيجاد الفعل أو الترك؛ لا الإعلام بكون الطالب طالبا، وإلا لما وجب الامتثال للآمر، فيكتفى بحصول سماع الطلب، لكن ذلك ليس مقصودا.

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٤٥-٤٦). (٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤٣).

والتعريف في: «الناس» للاستغراق، يشمل مشركي مكة، فإن من شبهتهم أن يقولوا: لا نتبع هذا الدين؛ إذ ليس ملة إبراهيم؛ لأنه استقبل قبلة اليهود والنصارى وأهل الكتاب، والحجة أن يقولوا: إن محمدًا اقتدى بنا واستقبل قبلتنا فكيف يدعونا إلى اتباعه. ولجميع الناس ممن عداكم حجة عليكم، أي ليكون هذا الدين مخالفا في الاستقبال لكل دين سبقه، فلا يدعي أهل دين من الأديان أن الإسلام مقتبس منه.

ولا شك أن ظهور الاستقبال يكون في أمر مشاهد لكل أحد؛ لأن إدراك المخالفة في الأحكام والمقاصد الشرعية والكمالات النفسانية التي فضل بها الإسلام غيره؛ لا يدركه كل أحد، بل لا يعلمه إلا الذين أوتوا العلم، وعلى هذا يكون قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ ناظرا إلى قوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[1]، وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾[2]، وقد قيل في معنى حجة الناس معان أخر أراها بعيدة»[3].

قوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

قال محمد رشيد رضا: «ابتدأ هذه الآية بصيغة الأمر الواردة في الآية قبلها، وقرن بها صيغة الأمر السابقة، وجمع فيها بين خطاب النبي وخطاب الأمة؛ ليرتّب على ذلك التعليل وبيان الحكمة وهو: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ الخ، وليس هذا الجمع والإعادة لمجرد التأكيد كما قال مفسرنا «الجلال»؛ وإنما هو تمهيد للعلة وتوطئة لبيان الحكم الموصولة به، وهو أسلوب معهود عند البلغاء، والمتأخرون الذين لا يذوقون طعم الأساليب البليغة؛ يكتفون في مثل هذا المقام بقولهم: كل ذلك لئلا يكون للناس عليكم حجة؛ وهو نظم غير معهود في الكلام البليغ؛ لاسيما في مقام الإطناب والتأكيد والاحتجاج وإزالة الشبه، والمراد بالناس: المحاجون في القبلة المعروفون، وهم فريقان: أهل الكتاب، والمشركون، ووجه انتفاء حجتهم على الطعن في النبوة بتحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة؛ هو أن أهل الكتاب كانوا يعرفون من كتبهم: أن النبي الذي

---

(١) البقرة: الآية (١٤٤). (٢) البقرة: الآية (١٤٦).
(٣) التحرير والتنوير (٢/ ٤٦).

يبعث من ولد إسماعيل يكون على قبلته وهي الكعبة، فجعل بيت المقدس قبلة دائمة له حجة على أنه ليس هو النبي المبشَّر به، فلما كان التحويل عرفوا أنه الحق من ربهم، وأن المشركين كانوا يرون أن نبيًّا من ولد إبراهيم جاء لإحياء ملته؛ لا ينبغي له أن يستقبل غير بيت ربه الذي بناه جده إبراهيم، وقد جاء التحويل موافقًا لما يرونه، فانتفت حجة الفريقين، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ فهم لا يهتدون بكتاب، ولا يعتبرون ببرهان، ولا ينظرون إلى حكم الأمور وأسرارها، بل يجادلون في الله وشرعه بلا هدى ولا كتاب منير، وهم الذين أثاروا الفتن، وحرّكوا رياح الشبه في مسألة القبلة، ولا قيمة لما يقول هؤلاء؛ فإنهم هم السفهاء -كما وصفوا في الآية الأولى، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ إذ لا مرجع لكلامهم من الحق، ولا تَمكُّن له في النفس؛ لأنه لا يستند إلى برهان عقلي، ولا إلى هدي سماوي، ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ أنا، فإنني القدير، وقد وعدتكم بأن أمكن لكم دينكم الذي ارتضيت لكم، وأبدّلكم من بعد خوفكم أمنًا، وإنني لا أخلف الميعاد، والآية ترشدنا إلى أن صاحب الحق هو الذي يخشى جانبه، وأن المبطل لا ينبغي أن يخشى، فإن الحق يعلو ولا يعلى، وما آفة الحق إلا ترك أهله له، وخوفهم من أهل الباطل فيه»[1].

قال العلامة ابن القيم: «الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ منقطع؛ قد قاله أكثر الناس، ووجهه أن الظالم لا حجة له، فاستثناؤه مما ذكر قبله منقطع، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: ليس الاستثناء بمنقطع، بل هو متصل على بابه، وإنما أوجب لهم أن حكموا بانقطاعه حيث ظنوا أن الحجة ههنا؛ المراد بها الحجة الصحيحة الحق، والحجة في كتاب الله يراد بها نوعان: أحدهما: الحجة الحق الصحيحة؛ كقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾[2] وقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[3]، ويراد بها مطلق الاحتجاج بحق أو بباطل؛ كقوله: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾[4] وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[5] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾[6] وقوله:

---

(١) تفسير المنار (٢/ ٢٤-٢٥).
(٢) الأنعام: الآية (٨٣).
(٣) الأنعام: الآية (١٤٩).
(٤) آل عمران: الآية (٢٠).
(٥) الجاثية: الآية (٢٥).
(٦) البقرة: الآية (٢٥٨).

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[1] وإذا كانت الحجة اسمًا لما يحتج به من حق أو باطل؛ صح استثناء حجة الظالمين من قوله: لئلا يكون للناس عليكم حجة، وهذا في غاية التحقيق، والمعنى: أن الظالمين يحتجون عليك بالحجة الباطلة الداحضة، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾»[2].

قال ابن كثير: «ووجه بعضهم حجة الظلمة -وهي داحضة- أن قالوا: إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم، فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم؛ فلِم رجع عنه؟ والجواب: أن اللّٰه تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولا؛ لما له تعالى في ذلك من الحكمة، فأطاع ربه تعالى في ذلك، ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم وهي الكعبة، فامتثل أمر اللّٰه في ذلك أيضًا، فهو -صلوات اللّٰه وسلامه عليه- مطيع لله في جميع أحواله، لا يخرج عن أمر اللّٰه طرفة عين، وأمته تبع له.

وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ أي: لا تخشوا شبه الظلمة المتعنتين، وأفردوا الخشية لي؛ فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه، وقوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾ عطف على ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾؛ أي: لأتم نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة؛ لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى ما ضلت عنه الأمم هديناكم إليه وخصصناكم به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها»[3].

قال العلامة السعدي: «أي: شرعنا لكم استقبال الكعبة المشرفة؛ لينقطع عنكم احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركين، فإنه لو بقي مستقبلًا لبيت المقدس، لتوجهت عليه الحجة، فإن أهل الكتاب، يجدون في كتابهم أن قبلته المستقرة، هي الكعبة البيت الحرام، والمشركون يرون أن من مفاخرهم؛ هذا البيت العظيم، وأنه من ملة إبراهيم، وأنه إذا لم يستقبله محمد ﷺ، توجهت نحوه حججهم، وقالوا: كيف يدعي أنه على ملة إبراهيم، وهو من ذريته، وقد ترك استقبال قبلته؟! فباستقبال القبلة قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركين، وانقطعت حججهم عليه.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي: من احتج منهم بحجة، هو ظالم فيها، وليس لها

---

(١) الشورى: الآية (١٦). (٢) بدائع الفوائد (٤/ ١٧٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤٣-٣٤٤).

مستند إلا اتباع الهوى والظلم؛ فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه، وكذلك لا معنى لجعل الشبهة التي يوردونها على سبيل الاحتجاج محلًا يؤبه لها، ولا يلقى لها بال، فلهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾؛ لأن حجتهم باطلة، والباطل كاسمه مخذول، مخذول صاحبه، وهذا بخلاف صاحب الحق؛ فإن للحق صولة وعزًّا، يوجب خشية من هو معه، وأمر تعالى بخشيته، التي هي رأس كل خير، فمن لم يخش اللَّه، لم ينكفّ عن معصيته، ولم يمتثل أمره. وكان صرف المسلمين إلى الكعبة، مما حصلت فيه فتنة كبيرة، أشاعها أهل الكتاب، والمنافقون، والمشركون، وأكثروا فيها من الكلام والشبه، فلهذا بسطها اللَّه تعالى، وبينها أكمل بيان، وأكدها بأنواع من التأكيدات، التي تضمنتها هذه الآيات.

منها: الأمر بها ثلاث مرات، مع كفاية المرة الواحدة، ومنها: أن المعهود؛ أن الأمر؛ إما أن يكون للرسول، فتدخل فيه الأمة، أو للأمة عموما، وهذه الآية أمر فيها الرسول بالخصوص في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ والأمة عموما في قوله: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾.

ومنها: أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة، التي أوردها أهل العناد، وأبطلها شبهة شبهة كما تقدم توضيحها.

ومنها: أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبلة أهل الكتاب.

ومنها: قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، فمجرد إخبار الصادق العظيم كاف شاف، ولكن مع هذا قال: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

ومنها: أنه أخبر -وهو العالم بالخفيات- أن أهل الكتاب متقرر عندهم، صحة هذا الأمر، ولكنهم يكتمون هذه الشهادة مع العلم. ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة نعمة عظيمة، وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته لم يزل يتزايد، وكلما شرع لهم شريعة فهي نعمة عظيمة؛ قال: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾.

فأصل النعمة الهداية لدينه، بإرسال رسوله، وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك، النعم المتممات لهذا الأصل، لا تعد كثرة ولا تحصر، منذ بعث اللَّه رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا، وقد أعطاه اللَّه من الأحوال والنعم، وأعطى أمته؛ ما أتم به نعمته عليه وعليهم، وأنزل اللَّه عليه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ

لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾(١).

فلله الحمد على فضله، الذي لا نبلغ له عدا، فضلًا عن القيام بشكره. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: تعلمون الحق وتعملون به، فاللَّه -تبارك وتعالى- من رحمته بالعباد قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير، ونبههم على سلوك طرقها، وبينها لهم أتم تبيين، حتى إن في جملة ذلك أنه يقيض للحق؛ المعاندين له فيجادلون فيه، فيتضح بذلك الحق، وتظهر آياته وأعلامه، ويتضح بطلان الباطل، وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه في مقابلة الحق، لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق، وبضدها تتبين الأشياء، فلولا الليل، ما عرف فضل النهار، ولولا القبيح، ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور، ولولا الباطل ما اتضح الحق اتضاحا ظاهرًا، فلله الحمد على ذلك»(٢).

* * *

(١) المائدة: الآية (٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٧٠-١٧٢).

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يذكّر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم، يتلو عليهم آيات اللَّه مبينات، ويزكيهم؛ أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق، ودنس النفوس، وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب وهو القرآن، والحكمة وهي السنة، ويعلمهم مالم يكونوا يعلمون، فكانوا في الجاهلية الجهلاء يسفَهون بالقول الفِري، فانتقلوا ببركة رسالته، ويمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس علمًا، وأبرّهم قلوبًا، وأقلهم تكلفًا، وأصدقهم لهجة، وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ﴾[1]، الآية، وذّم من لم يعرف قدر هذه النعمة، فقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾[2] قال ابن عباس: يعني بنعمة اللَّه محمدًا ﷺ»[3].

قال أبو حيان: «في ذلك تشبيه إتمام هذه النعمة الحادثة من الهداية لاستقبال قبلة الصلاة؛ التي هي عمود الإسلام، وأفضل الأعمال، وأدل الدلائل على الاستمساك بشريعة الإسلام؛ بإتمام النعمة السابقة، بإرسال الرسول المتصف بكونه منهم إلى سائر الأوصاف التي وصفه تعالى بها، وجعل ذلك إتمامًا للنعمة في الحالين؛ لأن استقبال الكعبة ثانيًا؛ أمر لا يزاد عليه شيء ينسخه، فهي آخر القبلات المتوجه إليها في الصلاة، كما أن إرسال محمد ﷺ هو آخر إرسالات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-؛ إذ لا نبي بعده، وهو خاتم النبيين، فشبه إتمام تلك النعمة؛ التي هي كمال نعمة استقبال القِبل، بهذا الإتمام الذي هو كمال إرسال

(١) آل عمران (١٦٤).

(٢) إبراهيم: الآية (٢٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤٤).

الرسل، وفي إتمام هاتين النعمتين عز للعرب، وشرف واستمالة لقلوبهم، إذ كان الرسول منهم، والقبلة التي يستقبلونها في الصلاة بيتهم الذي يحجونه قديمًا وحديثًا ويعظمونه.

﴿رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ فيه اعتناء بالعرب؛ إذ كان الإرسال فيهم، والرسول منهم، وإن كانت رسالته عامة، وكذلك جاء: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾[1] ويشعر هذا الامتنان بأنه لم يسبق أن يرسل ولا يبعث في العرب رسولًا غير نبينا محمد ﷺ، ولذلك أفرده، فقال: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[2] وصفه بأوصاف كلها معجز لهم، وهي كونه منهم، وتاليًا عليهم آيات اللَّه، ومزكيًا لهم، ومعلمًا لهم الكتاب والحكمة ومالم يكونوا يعلمون، وقدم كونه منهم، أي يعرفونه شخصًا ونسبًا ومولدًا ومنشأً؛ لأن معرفة ذات الشخص متقدمة على معرفة مايصدر من أفعاله، وأتى ثانيًا بصفة تلاوة الآيات إليه تعالى؛ لأنها هي المعجزة الدالة على صدقه، الباقية إلى الأبد، وأضاف الآيات إليه تعالى؛ لأنها كلامه ﷻ، ومن تلاوته تستفاد العبادات ومجامع الأخلاق الشريفة، وتنبع العلوم، وأتى ثالثًا بصفة التزكية، وهي التطهير من أنجاس الضلال؛ لأن ذلك ناشئ عن إظهار المعجز لمن أراد اللَّه تعالى توفيقه وقبوله للحق، وأتى رابعًا بصفة تعليم الكتاب والحكمة؛ لأن ذلك ناشئ عن تطهير الإنسان باتباع النبي ﷺ، فيعلمه إذ ذاك ويفهمه ما انطوى عليه كتاب اللَّه تعالى، وما اقتضته الحكمة الإلهية، وأتى بهذه الصفات فعلًا مضارعًا ليدل بذلك على التجدد؛ لأن التلاوة والتزكية والتعليم تتجدد دائمًا، وأما الصفة الأولى، وهي كونه منهم، فليست بمتجددة، بل هو وصف ثابت له»[3].

وقال القاسمي: «وفي إرساله فيهم ومنهم نعم عظيمة عليهم لما لهم فيه من الشرف. ولأن المشهور من حال العرب الأنفة الشديدة من الانقياد للغير. فبعثه اللَّه تعالى من واسطتهم ليكونوا إلى القبول أقرب ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يقرأ عليكم القرآن الذي هو من أعظم النعم؛ لأنه معجزة باقية. ولأنه يتلى فتتأدى به العبادات ويستفاد منه جميع العلوم، ومجامع الأخلاق الحميدة، فتحصل من تلاوته كل

---

(١) الجمعة: الآية (٢). (٢) الجمعة: الآية (٢).

(٣) البحر المحيط (١/ ٦١٨).

خيرات الدنيا والآخرة ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي: يطهركم من الشرك وأفعال الجاهلية وسفاسف الأخلاق ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو القرآن. وهذا ليس بتكرار؛ لأن تلاوة القرآن عليهم غير تعليمه إياهم ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهي العلم بسائر الشريعة التي يشتمل القرآن على تفصيلها. ولذلك قال الشافعي ﵁: الحكمة هي سنة الرسول. وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ تنبيه على أنه تعالى أرسل رسوله على حين فترة من الرسل، وجهالة من الأمم، فالخلق كانوا متحيرين ضالين في أمر أديانهم. فبعث اللَّه تعالى النبي بالحق. حتى علمهم ما احتاجوا إليه في دينهم. فصاروا أعمق الناس علما وأبرهم قلوبا وأقلهم تكلفا وأصدقهم لهجة. وذلك من أعظم أنواع النعم. قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[1] الآية. وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾[2] قال ابن عباس: يعني بنعمة اللَّه: محمدًا ﷺ»[3].

وقال السعدي: «يقول تعالى: إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع، والنعم المتممة، ليس ذلك ببدع من إحساننا، ولا بأوله، بل أنعمنا عليهم بأصول النعم ومتمماته، فأبلغها، إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم، تعرفون نسبه وصدقه، وأمانته وكماله ونصحه.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها. فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل، والهدى من الضلال، التي دلتكم أولا على توحيد اللَّه وكماله، ثم على صدق رسوله، ووجوب الإيمان به، ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب، حتى حصل لكم الهداية التامة، والعلم اليقيني.

﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي: يطهر أخلاقكم ونفوسكم، بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتزكيتهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع،

---

(١) آل عمران: الآية (١٦٤). (٢) إبراهيم: الآية (٢٨).

(٣) محاسن التأويل (٢/ ٣٠٩-٣١٠).

إلى التحابب والتواصل والتوادد، وغير ذلك من أنواع التزكية.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن، ألفاظه ومعانيه.

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ قيل: هي السنة، وقيل: الحكمة، معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها، وتنزيل الأمور منازلها. فيكون -على هذا- تعليم السنة داخل في تعليم الكتاب؛ لأن السنة، تبين القرآن وتفسره، وتعبر عنه.

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ لأنهم كانوا قبل بعثته في ضلال مبين، لا علم ولا عمل. فكل علم أو عمل، نالته هذه الأمة فعلى يده ﷺ، وبسببه كان. فهذه النعم هي أصول النعم على الإطلاق، وهي أكبر نعم ينعم بها على عباده. فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها»[1].

* * *

(١) تفسير السعدي (١/ ١٧٣-١٧٤).

قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «الفاء للتفريع، عاطفة جملة الأمر بذكر اللَّه وشكره على جمل النعم المتقدمة؛ أي: إذ قد أنعمت عليكم بهاته النعم؛ فأنا آمركم بذكري، وقوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ فعلان مشتقان من الذِّكر، بكسر الذال، ومن الذُّكر بضمها، والكل مأمور به؛ لأننا مأمورون بتذكر اللَّه تعالى عند الإقدام على الأفعال؛ لنذكر أوامره ونواهيه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾[2] وعن عمر بن الخطاب: (أفضل من ذِكر اللَّه باللسان؛ ذكر اللَّه عند أمره ونهيه)، ومأمورون بذكر اسم اللَّه تعالى بألسنتنا في جمل تدل على حمده وتقديسه، والدعوة إلى طاعته ونحو ذلك»[3].

قال السعدي: «فأمر تعالى بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره، كما قال تعالى على لسان رسوله: «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم**».

وذِكر اللَّه تعالى؛ أفضله ما تواطأ عليه القلب واللسان، وهو الذكر الذي يثمر معرفة اللَّه ومحبته، وكثرة ثوابه»[4].

قال النووي: «اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها، بل كل عامل لله تعالى بطاعة، فهو ذاكر اللَّه تعالى، كذا قاله سعيد ابن جبير رضي الله عنه وغيره من العلماء، وقال عطاء رحمه الله: مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام: كيف تشتري، وتبيع، وتصلي، وتصوم، وتنكح، وتطلق، وتحج... وأشباه هذا»[5].

---

(١) الآية (١٥٢).
(٢) آل عمران (١٣٥).
(٣) التحرير والتنوير (٢/ ٥٠).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٧٤).
(٥) صحيح كتاب الأذكار وضعيفه (١/ ٧٠).

قال ابن القيم: «كان النبي ﷺ أكمل الخلق ذكرًا لله ﷻ، بل كان كلامه كله في ذكر اللَّه وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكرًا منه لله، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته، وأحكامه وأفعاله، ووعده ووعيده؛ ذكرًا منه له، وثناؤه عليه بآلائه، وتمجيده، وحمده، وتسبيحه؛ ذكرًا منه له، وسؤاله ودعاؤه إياه، ورغبته ورهبته؛ ذكرا منه له، وسكوته وصمته؛ ذكرًا منه له بقلبه، فكان ذاكرا لله في كل أحيانه، وعلى جميع أحواله، وكان ذكره لله يجري مع أنفاسه، قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه، وفي مشيه وركوبه، ومسيره ونزوله، وظعنه وإقامته»[1].

وقال القاسمي: «وأما الأذكار المحدثة والسماعات المبتدعة، سماع الكف والدف، فلم يكن الصحابة، والتابعون لهم بإحسان، وسائر الأكابر من أئمة الدين، يجعلون هذا طريقا إلى اللَّه -تبارك وتعالى-. ولا يعدونه من القرب والطاعات بل يعدونه من البدع المذمومة. حتى قال الشافعي: خلفت ببغداد شيئًا أحدثته الزنادقة يسمونه (التغبير) يصدون به الناس عن القرآن. وأولياء اللَّه العارفون يعرفون ذلك. ويعلمون أن للشيطان فيه نصيبًا وافرًا. ولهذا تاب منه خيار من حضره منهم. ومن كان أبعد عن المعرفة وعن كمال ولاية اللَّه، كان نصيب الشيطان فيه أكثر. فسماع الغناء والملاهي من أعظم ما يقوي الأحوال الشيطانية. وهو سماع المشركين، قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾[2]. قال ابن عباس وابن عمر ﵃ وغيرهما من السلف: التصدية: التصفيق باليد. والمكاء: مثل الصفير. فكان المشركون يتخذون هذا عبادة، وأما النبي ﷺ وأصحابه فعبادتهم ما أمر اللَّه به من الصلاة والقراءة والذكر ونحو ذلك، والاجتماعات الشرعية. ولم يجتمع النبي ﷺ وأصحابه على استماع غناء قط. لا بكف ولا بدف ولا تواجد. وكان أصحاب النبي ﷺ، إذا اجتمعوا، أمروا واحدا منهم أن يقرأ. والباقون يستمعون. وكان عمر بن الخطاب ﵁ يقول لأبي موسى الأشعري: ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون، ومر النبي ﷺ بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال له: «**مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك**»، فقال: لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيرًا، أي لحسنته لك تحسينًا. كما قال النبي ﷺ: «**زينوا القرآن**

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٦٥).

(٢) الأنفال: الآية (٣٥).

بأصواتكم»[١]. وقال ﷺ: «**لله أشد أذنًا (أي: استماعًا) إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به، من صاحب القينة إلى قينته**»[٢]. وعن عبد اللَّه بن مسعود قال: قال لي النبي ﷺ: «**اقرأ علي**» قلت: يا رسول الله! أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «**نعم**» فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[٣] قال: «**حسبك الآن**». فالتفت فإذا عيناه تذرفان[٤].

ومثل هذا السماع هو سماع النبيين وأتباعهم كما ذكر اللَّه تعالى ذلك في كتابه فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[٥] وقال تعالى في أهل المعرفة: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾[٦] ومدح سبحانه أهل هذا السماع بما يحصل لهم من زيادة الإيمان واقشعرار الجلد ودمع العين فقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[٨]، فخلاف هذا السماع، من الباطل الذي نهى عنه. ولذلك لم يفعله القرون الثلاثة التي أثنى عليها النبي ﷺ، ولا فعله أكابر المشايخ، فليفق من كان من الفريق الأدنى في سلوك فقره. وليصحب من هو من الرفيق الأعلى إلى حلول قبره، وليداو جراحات اجتراح بدعته، باتباع هدى النبي ﷺ ولزوم سنته. لقدرته

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٣) وأبو داود (٢/ ١٥٥/ ١٤٦٨) والنسائي (٢/ ٥٢١/ ١٠١٤) وابن ماجه (١/ ٤٢٦/ ١٣٤٢) والحاكم (١/ ٥٧١-٥٧٢) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه من حديث فضالة بن عبيد: أحمد (٦/ ١٩) وابن ماجه (١/ ٤٢٥/ ١٣٤٠) وصححه الحاكم (١/ ٥٧٠-٥٧١) على شرط الشيخين، وتعقبه الذهبي بقوله: «بل هو منقطع». وحسنه البوصيري في الزوائد، وضعفه الألباني في الضعيفة (٢٩٥١).

(٣) النساء: الآية (٤١).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٠) والبخاري (٨/ ٣١٧/ ٤٥٨٢) ومسلم (١/ ٥٥١/ ٨٠٠) وأبو داود (٤/ ٧٤/ ٣٦٦٨) والترمذي (٥/ ٢٢٢/ ٣٠٢٥) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٨-٢٩/ ٨٠٧٨).

(٥) مريم: الآية (٥٨).

(٦) المائدة: الآية (٨٣).

(٧) الزمر: الآية (٢٣).

(٨) الأنفال: الآية (٢)

فيتولد منه الخوف والحزن. وتارة لنعمته فيتولد منه الشكر، ولذلك قيل: ذكر النعمة شكرها. وتارة لأفعاله الباهرة فيتولد منه العبر. فحق المؤمن أن لا ينفك أبدًا عن ذكره تعالى على أحد هذه الأوجه»[١].

قلت: ما ذكره العلامة القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ من أوصاف للبدعة التي حدثت في الذكر هو قطرة من بحر، وشعرة من جلد، وحصاة من جبل، فما أحدثه المبتدعة في هذه الأزمان باسم التصوف والمشيخة المزعومة؛ أمر لا يوصف، وأصبح ذكرهم لهوًا ولعبًا، ومشابهة لأصحاب المجون، الذين يبيتون لياليهم على الآلات والاختلاط، ويعتبرون كل ذلك قربةً للّه واستلذاذًا بذكره والنظر إلى آياته!! فالشرك كلامهم، والانحراف الخلقي سلوكهم، وأكل أموال الناس بالباطل هو غذاؤهم، فليحذر المسلم هذه الفئات الضالة، فإنها وباء ووبال على أهل الإسلام، سواء كانت تجانية أو درقاوية، أو قادرية أو نقشبندية، أو ياسينية أو بودشيشية، فكل هؤلاء ضلوا وأضلوا، نسأل اللّه السلامة والعافية.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الذكر الصحيح من كمال التوحيد

* عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**يقول الله: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**»[٢].

⋆ **غريب الحديث:**

الباع: هو قدر مد اليدين.

الهرولة: ضرب من المشي السريع، وهي دون العدو.

---

(١) محاسن التأويل (٢/ ٣١٢-٣١٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥١) والبخاري (١٣/ ٤٧٣-٤٧٤/ ٧٤٠٥) ومسلم (٤/ ٢١٠٢/ ٢٦٧٥) والترمذي (٤/ ٥١٤-٥١٥/ ٢٣٨٨) مختصرا. والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٢/ ٧٧٣٠) وابن ماجه (٢/ ١٢٥٥/ ٣٨٢٢).

* عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**قال الله: يا ابن آدم إذا ذكرتني خاليًا ذكرتك خاليًا، وإذا ذكرتني في ملإ ذكرتك في ملإ خير من الذين تذكرني فيهم**»[١].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الله عز وجل يقول: أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحركت بي شفتاه**»[٢].

★ فوائد الأحاديث:

قوله: «**أنا عند ظن عبدي بي**»

قال القرطبي: «قيل: معناه ظن الإجابة عند الدعاء، وظن القبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار، وظن قبول الأعمال عند فعلها على شروطها تمسكًا بصادق وعده، وجزيل فضله، قلت: ويؤيده قوله ﷺ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**»[٣]، وكذلك ينبغي للتائب والمستغفر، وللعامل أن يجتهد في القيام بما عليه من ذلك، موقنا أن الله تعالى يقبل عمله، ويغفر ذنبه، فإن الله تعالى قد وعد بقبول التوبة الصادقة، والأعمال الصالحة، فأما لو عمل هذه الأعمال، وهو يعتقد، أو يظن أن الله تعالى لا يقبلها، وأنها لا تنفعه، فذلك هو القنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، وهو من أعظم الكبائر، ومن مات على ذلك وصل إلى ما ظن منه، كما قد جاء في بعض ألفاظ هذا الحديث: «**أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء**»[٤]، فأما ظن المغفرة والرحمة مع الإصرار على المعصية، فذلك محض الجهل والعزة، وهو يجر إلى مذهب المرجئة، وقد قال ﷺ: «**الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على**

---

(١) أخرجه: البزار (٤/ ٦/ ٣٠٦٥ كشف الأستار). قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٧٨): «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير بشر بن معاذ العقدي وهو ثقة». وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٣٩٤): «رواه البزار بإسناد صحيح».

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٤٠) البخاري -تعليقا بصيغة الجزم- (١٣/ ٦١٠) وابن ماجه (٢/ ١٢٤٦/ ٣٧٩٢). وصححه ابن حبان الإحسان (٣/ ٩٧/ ٨) والحاكم (١/ ٤٩٦) ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه: الترمذي من حديث أبي هريرة (٥/ ٤٨٣/ ٣٤٧٩) وقال: «حديث غريب». والحاكم (١/ ٤٩٣) وقال: «هذا حديث مستقيم الاسناد، تفرد به صالح المري»، وتعقبه الذهبي بقوله: «صالح متروك». وذكره الشيخ الألباني في الصحيحة (٢/ ١٤١-١٤٢/ ٥٩٤) وأورد له شاهدا من حديث ابن عمرو. وحسنه الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٤٨) وذكر له شاهدا آخر عن ابن عمر.

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩١) وصححه ابن حبان: الإحسان (٢/ ٤٠١/ ٦٣٣) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

الله»(١)، والظن: تغليب أحد المجوَّزَيْن بسبب يقتضي التغليب، فلو خلا عن السبب المغلب لم يكن ظنا؛ بل غرة وتمنيًا.»(٢)

وقال الشوكاني: «فيه ترغيب من اللَّه ﷻ لعباده بتحسين ظنونهم، وأنه يعاملهم على حسبها، فمن ظن به خيرا أفاض عليه جزيل خيراته، وأسبل عليه جميل تفضلاته، ونشر عليه محاسن كراماته، وسوابغ عطيّاته، ومن لم يكن في ظنه هكذا؛ لم يكن اللَّه تعالى له هكذا، وهذا هو معنى كونه ﷻ عند ظن عبده. فعلى العبد أن يكون حسن الظن بربه في جميع حالاته، ويستعين على تحصيل ذلك باستحضاره؛ ما ورد من الأدلة الدالة على سعة رحمة اللَّه ﷻ»(٣).

قوله: «**وأنا معه إذا ذكرني**»

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذاكر قريب من مذكوره، ومذكوره معه، وهذه المعية معية خاصة غير معية العلم والإحاطة العامة، فهي معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾(٤)، ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٥) ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٦)، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾(٧)، وللذاكر من هذه المعية نصيب وافر، كما في الحديث الإلهي: «**أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه**»»(٨).

وقال الشوكاني: «فيه تصريح بأن اللَّه ﷻ مع عباده عند ذكرهم له، ومن مقتضى ذلك أن ينظر إليه برحمته، ويمده بتوفيقه وتسديده. فإن قلت: هو مع جميع عباده كما قال ﷻ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾(٩) وقوله -جل ذكره-: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾(١٠) الآية؛ قلت: هذه معية عامة، وتلك معية خاصة حاصلة للذاكر على الخصوص بعد دخوله مع أهل المعية العامة، وذلك يقتضي مزيد العناية ووفور

---

(١) أخرجه من حديث شداد بن أوس أحمد (٤/ ١٢٤) والترمذي (٤/ ٥٥٠/ ٢٤٥٩) وحسنه وابن ماجه (٢/ ١٤٢٣/ ٤٢٦٠) والحاكم (١/ ٥٧) وصححه على شرط البخاري وتعقبه الذهبي بقوله: « لا واللَّه أبو بكر واه» والحديث أورده الألباني في الضعيفة (١١/ ٤٩٩/ ٥٣١٩).

(٢) المفهم (٧/ ٥-٦).

(٣) تحفة الذاكرين (ص١٢).

(٤) النحل: الآية (١٢٨).

(٥) البقرة: الآية (٢٤٩).

(٦) العنكبوت: الآية (٦٩).

(٧) التوبة: الآية (٤٠).

(٨) الوابل الصيب (١٤١-١٤٣).

(٩) الحديد: الآية (٤).

(١٠) المجادلة: الآية (٧).

الإكرام له والتفضل عليه، ومن هذه المعية الخاصة ما ورد في الكتاب العزيز؛ من كونه مع الصابرين، وكونه مع الذين اتقوا، وما ورد هذا المورد في الكتاب العزيز أو السنة، فلا منافاة بين إثبات المعية الخاصة وإثبات المعية العامة، ومثل هذا ما قيل من أن ذكر الخاص بعد العام يدل على أن للخاص مزية اقتضت ذكره على الخصوص بعد دخوله تحت العموم»[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان، بل الذكر القلبي واللساني، وذكره يتضمن ذكر أسمائه وصفاته، وذكر أمره ونهيه، وذكره بكلامه، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله، والثناء عليه بأنواع المدح، وذلك لا يتم إلا بتوحيده، فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه»[٢].

قوله: «**فإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي**»

قال شيخ الإسلام: «وهذا يدخل فيه ذكره باللسان في نفسه؛ فإنه جعله قسيم الذكر في الملأ، وهو نظير قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾[٣]، والدليل على ذلك أنه قال: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾[٤] ومعلوم أن ذكر اللَّه المشروع بالغدو والآصال في الصلاة وخارج الصلاة؛ هو باللسان مع القلب، مثل صلاتي الفجر والعصر، والذكرِ المشروع عقب الصلاتين، وما أمر به النبي ﷺ، وعلمه وفعله من الأذكار والأدعية المأثورة؛ من عمل اليوم والليلة المشروعة طرفي النهار بالغدو والآصال»[٥].

وقال ابن القيم: «فإذا شهد العبد ذكر ربه تعالى له، ووصل شاهده إلى قلبه؛ شغله ذلك عما سواه، وحصل لقلبه به غنى عال لا يشبهه شيء، وهذا كما يحصل للمملوك الذي لا يزال أستاذه وسيده يذكره ولا ينساه، فهو يحصل له -بشعوره بذكر أستاذه له- غنى زائد على إنعام سيده عليه، وعطاياه السنية له، فهذا هو غنى ذكر اللَّه للعبد، وقد قال ﷺ فيما يروي عن ربه -تبارك وتعالى-: «**من ذكرني في نفسه**

---

(١) تحفة الذاكرين (ص: ١٣).

(٢) الفوائد (ص: ١٦٦).

(٣) الأعراف: الآية (٢٠٥).

(٤) الأعراف: الآية (٢٠٥).

(٥) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٤-٣٥).

ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»، فهذا ذكر ثان بعد ذكر العبد لربه، غير الذكر الأول الذي ذكره به حتى جعله ذاكرا، وشعور العبد بكلا الذكرين يوجب له غنى زائدًا على إنعام ربه عليه وعطاياه له»[١].

وقال: «وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده»[٢].

قوله: «**وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم**»

قال عبد اللَّه الغنيمان: «والمعنى أن العبد إذا ذكر ربه ظاهرًا في جماعة يسمعون ذكره لربه، فإن اللَّه تعالى يذكره ويثني عليه في جماعة أفضل من الجماعة الذين ذكر العبد ربه فيهم؛ لأن الذين يذكر اللَّه عبده فيهم في الملإ الأعلى عباد مكرمون، لا يعصون اللَّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون»[٣].

* عن عبد اللَّه بن بسر ﷺ؛ أن رجلا قال: يا رسول الله! إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: «**لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله**»[٤].

* عن مالك بن يخامر؛ أن معاذ بن جبل ﷺ قال لهم: إن آخر كلام فارقت عليه رسول اللَّه ﷺ؛ أن قلت: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «**أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله**»[٥].

⋆ من فوائد الحديثين:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فدله الناصح ﷺ على شيء يبعثه على شرائع الإسلام، والحرص عليها، والاستكثار منها، فإنه إذا اتخذ ذكر اللَّه تعالى شعاره، أحبه

---

(١) طريق الهجرتين (ص ٤٢). (٢) الفوائد (ص٢٤٧).

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٢٦٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٨٨) والترمذي (٥/ ٤٢٧-٤٢٨/ ٣٣٧٥) وقال: «حديث غريب من هذا الوجه». وابن ماجه (٢/ ١٢٤٦/ ٣٧٩٣) وصححه ابن حبان (الإحسان ٣/ ٩٦-٩٧/ ٨١٤) والحاكم (١/ ٤٩٥) ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه: الطبراني (٢٠/ ٩٣/ ١٨١) وصححه ابن حبان (الاحسان ٣/ ٩٩-١٠٠/ ٨١٨). والبزار (كشف الأستار ٤/ ٣/ ٣٠٥٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢). قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٧٤): «رواه الطبراني بأسانيد وفي هذه الطريق خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أبي مالك، وضعفه جماعة ووثقه أبو زرعة الدمشقي وغيره، وبقية رجاله ثقات ورواه البزار من غير طريقه إلا أنه قال: أخبرني بأفضل الأعمال وأقربه إلى اللَّه. وإسناده حسن» اهـ. وله شاهد من حديث عبد اللَّه ابن بسر وقد تقدم قبله.

وأحب ما يحب، فلا شيء أحب إليه من التقرب بشرائع الإسلام، فدله ﷺ على ما يتمكن به من شرائع الإسلام، وتسهل به عليه، وهو ذكر اللَّه ﷻ. يوضحه: أن ذكر اللَّه ﷻ من أكبر العون على طاعته، فإنه يحبّبها إلى العبد، ويسهلها عليه، ويلذّذها له، ويجعل قرة عينه فيها، ونعيمه وسروره بها، بحيث لا يجد لها من الكلفة والمشقة والثقل ما يجد الغافل»[١].

* عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**» قالوا: بلى، قال: «**ذكر الله**»[٢].

★ من فوائد الحديث:

قال الحافظ: «والمراد بالذكر هنا: الإتيان بالألفاظ التي ورد الترغيب في قولها والإكثار منها، مثل الباقيات الصالحات، وهي: (سبحان اللَّه والحمد لله ولا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر) وما يلتحق بها من الحوقلة والبسملة والحسبلة والاستغفار ونحو ذلك والدعاء بخيري الدنيا والآخرة، ويطلق ذكر اللَّه أيضًا ويراد به: المواظبة على العمل بما أوجبه أو ندب إليه كتلاوة القرآن، وقراءة الحديث، ومدارسة العلم، والتنفل بالصلاة، ثم الذكر يقع تارة باللسان ويؤجر عليه الناطق، ولا يشترط استحضاره لمعناه، ولكن يشترط أن لا يقصد به غير معناه، وإن انضاف إلى النطق الذكر بالقلب فهو أكمل، فإن انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذكر وما اشتمل عليه من تعظيم اللَّه تعالى ونفي النقائص عنه ازداد كمالا، فإن وقع ذلك في عمل صالح مهما فرض من صلاة أو جهاد أو غيرهما ازداد كمالًا، فإن صحح التوجه وأخلص لله تعالى في ذلك فهو أبلغ الكمال»[٣].

قال ابن رجب رحمه الله: «وقد تكاثرت النصوص بتفضيل الذكر على الصدقة

---

(١) الوابل الصيب (١٦٣-١٦٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٤٧) والترمذي (٥/ ٤٢٨/ ٣٣٧٧) وابن ماجه (٢/ ١٢٤٥/ ٣٧٩٠)، والحاكم (١/ ٤٩٦) وصححه ووافقه الذهبي. قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٧٣): «رواه أحمد وإسناده حسن».

(٣) الفتح (١١/ ٢٥٠).

بالمال وغيرها من الأعمال، كما في حديث أبي الدرداء..» فذكر الحديث[١].

قال الطيبي: «قال الأشرف: لعل الخيرية والأرفعية في الذكر؛ لأجل أن سائر العبادات من إنفاق الذهب والفضة، ومن ملاقاة العدو، والمقاتلة معهم؛ إنما هي وسائل ووسائط يتقرب العباد بها إلى اللّه، والذكر إنما هو المقصود الأسنى، والمطلوب الأعلى، وناهيك عن فضيلة الذكر قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾»[٢].

وقال الشوكاني: «قوله: «**بخير أعمالكم**» فيه دليل على أن الذكر خير الأعمال على العموم؛ كما يدل عليه إضافة الجمع إلى الضمير، وكذلك إضافة أزكى وأرفع إلى ضمير الأعمال، والزكاء: النماء والبركة، فأفاد كل ذلك أن الذكر أفضل عند اللّه ﷻ من جميع الأعمال التي يعملها العباد، وأنه أكثرها نماء وبركة، وأرفعها درجة، وفي هذا ترغيب عظيم، فإنه يدخل تحت الأعمال كل عمل يعمله العبد كائنا ما كان.

قوله: «**وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة**» وفي نسخة: «**من إنفاق الذهب والورق**»، وفي نسخة الجمع بين الفضة والورق، والورق هي الدراهم المضروبة، فعطفه على الفضة من عطف الخاص على العام، وعطف إنفاق الذهب والفضة على ما تقدم من عموم الأعمال مع كونه مندرجا تحتها؛ يدل على فضيلة زائدة على سائر الأعمال، كما هو النكتة المذكورة في عطف الخاص على العام، وهكذا قوله: «**وخير لكم من أن تلقوا العدو**» وهذا من عطف الخاص على العام؛ لكون الجهاد من الأعمال الفاضلة، وطبقته مرتفعة على كثير من الأعمال، وفي تخصيص هذين العملين الفاضلين بالذكر أيضًا بعد تعميم جميع الأعمال؛ زيادة تأكيد لما دل عليه: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم**» وما بعده من فضيلة الذكر على كل الأعمال، ومبالغة في النداء بفضله عليها، ودفع لما يظن من أن المراد بالأعمال هاهنا غير ما هو متناه في الفضيلة وارتفاع الدرجة، وهو الجهاد والصدقة بما هو محبب إلى قلوب العباد فوق كل نوع من أنواع المال، وهو الذهب والفضة»[٣].

وقال: «قد أورد بعض أهل العلم إشكالًا هاهنا، فقال: إن صدقة المال يتعدى

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٦٦-٦٧).
(٢) شرح الطيبي (٥/ ١٧٣٣).
(٣) تحفة الذاكرين (ص: ١٥).

نفعها إلى الغير بخلاف الذكر، والنفع المتعدي أفضل من النفع القاصر، وأجاب الحليمي عن ذلك بأنه لم يكن المراد من هذا الذكر ذكر اللسان وحده، بل المراد ذكر اللسان والقلب جميعًا، وذكر القلب أفضل لأنه يردع عن التقصير في الطاعات، وعن المعاصي والسيئات، وذكر مثل هذا الجواب البيهقي في شعب الإيمان وأقره. ونقل عن النووي أن ذكر اللسان مع حضور القلب أفضل من ذكر القلب وحده، وعلة ذلك أن شغل جارحتين فيما يرضي اللَّه ﷻ أفضل من شغل جارحة واحدة، وكذلك شغل ثلاث جوارح أفضل من شغل جارحتين، وكل ما زاد فهو أفضل»[١].

* عن جابر ﷺ رفعه إلى النبي ﷺ قال: «**ما عمل آدمي عملًا أنجى له من العذاب من ذكر الله**» قيل: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**ولا الجهاد في سبيل اللَّه إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع**»[٢].

⋆ من فوائد الحديث:

فيه أن من فضائل الذكر؛ أنه ينجي من عذاب اللَّه تعالى[٣].

* عن أبي موسى ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه؛ مثل الحي والميت**»[٤].

⋆ من فوائد الحديث:

قال الشوكاني: «وفي هذا التمثيل منقبة للذاكر جليلة، وفضيلة له نبيلة، وأنه بما يقع منه من ذكر اللَّه ﷻ في حياة ذاتية وروحية لما يغشاه من الأنوار، ويصل إليه من الأجور، كما أن التارك للذكر وإن كان في حياة ذاتية فليس لها اعتبار، بل هو شبيه بالأموات الذين لا يفيض عليهم بشيء مما يفيض على الأحياء المشغولين بالطاعة لله ﷻ، ومثل ما في هذا الحديث قوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا

---

(١) تحفة الذاكرين (ص: ١٤).

(٢) أخرجه: الطبراني في الأوسط (٣/ ١٥٦/ ٢٣١٧). وفي الصغير (١/ ١٠٠/ ٢٠١). وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٧٤): «رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورجالهما رجال الصحيح». وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (ح ٥٦٤٤).

(٣) الوابل الصيب (ص٩٥).

(٤) أخرجه: البخاري (١١/ ٢٤٩/ ٦٤٠٧) واللفظ له ومسلم (١/ ٥٣٩/ ٧٧٩).

﴿فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾[1] والمعنى تشبيه الكافر بالميت وتشبيه الهداية إلى الإسلام بالحياة»[2].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون اللَّه تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال: فيسألهم ربهم عز وجل -وهو أعلم منهم-: ما يقول عبادي؟ قال: تقول: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجّدونك. قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا؛ واللَّه ما رأوك. قال: فيقول: كيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدًا، وأكثر لك تسبيحًا. قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا؛ واللَّه يا رب ما رأوها. قال: فيقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًا، وأشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة. قال: فممّ يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا؛ واللَّه يارب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا، وأشد لها مخافة. قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى جليسهم»**[3].

* عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما: أنهما شهدا على رسول اللَّه ﷺ؛ أنه قال: **«لا يقعد قوم يذكرون اللَّه إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم اللَّه فيمن عنده»**[4].

* عن أنس رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ قال: **«ما من قوم اجتمعوا يذكرون اللَّه، لا يريدون بذلك إلا وجهه؛ إلا ناداهم مناد من السماء: أن قوموا مغفورا لكم، قد بدلت سيئاتكم حسنات»**[5].

---

(١) الأنعام: الآية (١٢٢). (٢) تحفة الذاكرين (ص: ١٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥١-٢٥٢) والبخاري (١١/ ٢٤٩-٢٥٠/ ٦٤٠٨) ومسلم (٤/ ٢٠٦٩-٢٠٧٠/ ٢٦٨٩) والترمذي (٥/ ٥٤٠-٥٤١/ ٣٦٠٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٤٧) ومسلم (٤/ ٢٠٧٤/ ٢٧٠٠) والترمذي (٥/ ٤٢٩/ ٣٣٧٨) وابن ماجه (٢/ ١٢٤٥/ ٣٧٩١).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ١٤٢) والطبراني في الأوسط (٢/ ٣٣٤/ ١٥٧٩) والبزار (كشف الأستار ٤/ ٤/ ٣٠٦١)=

* عن أنس رضي الله عنه؛ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**»، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «**حِلق الذكر**»[١].

★ **فوائد الأحاديث:**

قوله ﷺ: «**فيقول ملك من الملائكة: فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة**» وفي رواية مسلم: «**فيهم فلان، عبد خطاء، إنما مر فجلس معهم**».

قال القرطبي: «إنما استبعدت الملائكة أن يدخل هذا مع أهل المجلس في المغفرة؛ لأنه لم تكن عادته حضور مجالس الذكر، وإنما كانت عادته ملازمة الخطايا، فعرض له هذا المجلس، فجلسه، فدخل مع أهله فيما قسم لهم من المغفرة والرحمة؛ فيستفاد منه الترغيب العظيم، في حضور مجالس الذكر، ومجالسة العلماء والصالحين وملازمتهم»[٢].

قوله ﷺ: «**قال هم القوم لا يشقى بهم جليسهم**»

قال القرطبي: «هذه مبالغة في إكرامهم، وزيادة في إعلاء مكانتهم، ألا ترى: أنه أكرم جليسهم بنحو ما أكرموا به لأجلهم، وإن لم يشفعوا فيه، ولا طلبوا له شيئًا، وهذه حالة شريفة، ومنزلة منيفة، لا خيبنا اللَّه منهم، وجعلنا من أهلها»[٣].

وقال ابن حجر: «وفي الحديث فضل مجالس الذكر والذاكرين، وفضل الاجتماع على ذلك، وأن جليسهم يندرج معهم في جميع ما يتفضل اللَّه تعالى به عليهم، إكراما لهم ولو لم يشاركهم في أصل الذكر، وفيه محبة الملائكة بني آدم واعتناؤهم بهم، وفيه أن السؤال قد يصدر من السائل وهو أعلم بالمسؤول عنه من المسؤول؛ لإظهار العناية بالمسؤول عنه، والتنويه بقدره، والإعلان بشرف منزلته. وقيل: إن في خصوص سؤال اللَّه الملائكة عن أهل الذكر الإشارة إلى قولهم:

= وأبو يعلى (٧/ ١٦٧/ ٤٠٤١). وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٧٦) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط، وفيه ميمون المرائي وثقه جماعة وفيه ضعف، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح. وصححه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب (١٥٠٤).

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٥٠) والترمذي (٥/ ٤٩٨/ ٣٥١٠) وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن أنس» اهـ. والحديث حسنه الشيخ الألباني بشواهده (الصحيحة ٢٥٦٢).

(٢) المفهم (٧/ ١٣).

(٣) المفهم (٧/ ١٣).

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[١] فكأنه قيل لهم: انظروا إلى ما حصل منهم من التسبيح والتقديس مع ما سلط عليهم من الشهوات ووساوس الشيطان، كيف عالجوا ذلك وضاهوكم في التسبيح والتقديس. وقيل: إنه يؤخذ من هذا الحديث أن الذكر الحاصل من بني آدم أعلى وأشرف من الذكر الحاصل من الملائكة؛ لحصول ذكر الآدميين مع كثرة الشواغل، ووجود الصوارف وصدوره في عالم الغيب»[٢].

قلت: المقارنة بين ذكر بني آدم وذكر الملائكة دخول فيما لا يعني؛ فذكر الملائكة خاص بهم، وصفاتهم وكل ما يتعلق بهم لا دخل لنا فيه، وإنما هو مما اختصوا به، وهم مجبولون على ذلك، واللَّه تعالى لم يذكر لنا أنهم مجزيون على ذلك، لا في آية ولا حديث، كما قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[٣]، وقال: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٤].

وأما ذكر بني آدم فهو معروف لنا بالتفصيل، وهو من العبادات التي يثابون عليها، فلا مقارنة بين ذكر بني آدم وذكر الملائكة، كما لا مقارنة بين خلق الملائكة وخلق بني آدم، فأولئك من نور وبني آدم من طين، فالأولى بكل عالم وشارح أن يمسك عن كل ما لا علم له به. واللَّه أعلم.

قال السندي: «قوله: «**إلا ناداهم مناد**»: تشريفا لهم وإن لم يعلموا به، وهم عملوا بخبر الصادق، فينبغي أن يرغبوا فيه كما لو سمعوا، واللَّه تعالى أعلم»[٥].

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج معاوية على حلْقة في المسجد فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر اللَّه، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: واللَّه ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول اللَّه ﷺ أقلّ عنه حديثًا مني، وإن رسول اللَّه ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: «**ما أجلسكم؟**» قالوا: جلسنا نذكر اللَّه ونحمده على ما هدانا

---

(١) البقرة: الآية (٣٠).
(٢) الفتح (١١/ ٢٥٥).
(٣) الأنبياء: الآيتان (٢٦ و ٢٧).
(٤) التحريم: الآية (٦).
(٥) حاشية المسند (١٩/ ٤٣٨).

للإسلام ومنّ به علينا، قال: «**آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟**» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: «**أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل، فأخبرني أن الله ﷻ يباهي بكم الملائكة**»[١].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علمًا، سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطّأ به عمله، لم يسرع به نسبه**»[٢].

⋆ غريب الحديث:

نفّس: بالتشديد أي فرج.

كربة: أي غمًّا وشدة.

غشيتهم: أي غطتهم وسترتهم.

حفتهم: طافوا بهم وأداروا حولهم.

⋆ من فوائد الحديثين:

قوله ﷺ: «**فأخبرني أن الله ﷻ يباهي بكم الملائكة**»

قال القاضي عياض: «معناه يظهر فضلهم لهم، ويريهم حسن عملهم ويثني عليهم عندهم. وأصل البهاء: الحسن والجمال»[٣].

وقال ابن علان: «وفلان يباهي بكذا: يفخر به ويتجمل على غيره، ووجه المفاخرة أنهم لم يمنعهم من ذكر الله تعالى وطاعته ما قام بهم من العلائق والعوائق والدواعي القوية إلى البطالة والفتور، بل أقبلوا معها إلى الطاعة وإن شقّت،

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٩٢) ومسلم (٤/ ٢٠٧٥/ ٢٧٠١) والترمذي (٥/ ٤٢٩-٤٣٠/ ٣٣٧٩) والنسائي (٨/ ٦٤٠-٦٤١/ ٥٤٤١).

(٢) أحمد (٢/ ٢٥٢) ومسلم (٤/ ٢٠٧٤/ ٢٦٩٩) وأبو داود (٢/ ١٤٨/ ١٤٥٥) والترمذي (٥/ ١٧٩/ ٢٩٤٥) وابن ماجه (١/ ٨٢/ ٢٢٥).

(٣) الإكمال (٨/ ١٩٦).

فاستحقوا المدح لذلك، إذ الطاعة وإن وقعت من الملَك إلا أنها لكونها له كالنفس للإنسان، يرتاح بها، إذ لا تعب عليه ولا مشقة فيها أصلًا، بخلاف النوع الإنساني، فإنه لما سلط عليه من العلائق والعوائق المذكورة يشق عليه مشقة شديدة فلذا باهى بعمل الإنسان الملائكة»(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذه المباهاة من الرب -تبارك وتعالى- دليل على شرف الذكر عنده، ومحبته له، وأن له مزية على غيره من الأعمال»(٢).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون اللَّه فيه؛ إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان لهم حسرة**»(٣).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**من قعد مقعدًا لم يذكر اللَّه فيه؛ كانت عليه من اللَّه ترة، ومن اضطجع مضجعًا لا يذكر الله؛ كانت عليه من اللَّه ترة**»(٤).

⋆ من فوائد الحديثين:

قال الشوكاني: «أي: بسبب تفريطهم في ذكر اللَّه ﷻ، وذلك لما يظهر لهم في موقف الحساب من أجور العامرين لمجالسهم بذكر اللَّه ﷻ، فينبغي لمن حضر مجالس الغفلة أن لا يخليها عن شيء من ذكر اللَّه، وأن يأتي عند القيام منها بكفارة المجلس التي أرشد إليها ﷺ كما في حديث عائشة رضي الله عنها(٥)، عند أبي داود والحاكم، أنه ﷺ كان إذا أراد أن يقوم من مجلس قال: «**سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك**» فقال رجل: إنك لتقول قولًا ما كنت تقوله فيما مضى؟ قال: «**ذلك كفارة لما يكون في المجلس**»»(٦).

ومن فوائد الذكر -يقول ابن القيم-: «أنه يؤمّن العبد من الحسرة يوم القيامة،

---

(١) الفتوحات الربانية (١/ ١٠٢-١٠٣). (٢) الوابل الصيب (ص: ١٥٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٨٩) وأبو داود (٥/ ١٨٠-١٨١/ ٤٨٥٥) والترمذي إثر حديث (٥/ ٤٣٠/ ٣٣٨٠) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٠٨/ ١٠٢٤١) وصححه ابن حبان [الإحسان (٢/ ٣٥١/ ٥٩٠)].

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٦٣) وأبو داود (٥/ ١٨١/ ٤٨٥٦) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٠٧/ ١٠٢٣٧) وصححه ابن حبان [الإحسان (٣/ ١٣٣/ ٨٥٣)] والحاكم (١/ ٥٥٠) ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٧٧) والنسائي (٣/ ٨١/ ١٣٤٣) وفي الكبرى (٦/ ١٠٦/ ١٠٢٣١) وصححه الحاكم (١/ ٤٩٦-٤٩٧) ووافقه الذهبي وهو عند أبي داود (٥/ ١٨٢/ ٤٨٥٩) من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه.

(٦) تحفة الذاكرين (ص: ٢٣).

فإن كل مجلس لا يذكر العبد فيه ربه تعالى كان عليه حسرة وترة يوم القيامة»[١].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم أن الحسرة كل الحسرة الاشتغال بمن لا يجر عليك الاشتغال به إلا فوت نصيبك وحظك من اللَّه عَزَّوَجَلَّ، وانقطاعك عنه، وضياع وقتك عليك، وشتات قلبك، وضعف عزيمتك، وتفرق همك.

فإذا بليت بهذا -ولابد لك منه- فعامل اللَّه تعالى فيه، واحتسب عليه ما أمكنك، وتقرب إلى اللَّه تعالى بمرضاته فيه، واجعل اجتماعك به مَتْجرا لك، لا تجعله خسارة، وكن معه كرجل سائر في طريقه عرض له رجل وقفه عن سيره، فاجتهِد أن تأخذه معك وتسير به، فتحمله ولا يحملك، فإن أبى ولم يكن في سيره مطمع، فلا تقف معه، بل اركب الدرب ودعه ولا تلتفت إليه، فإنه قاطع الطريق ولو كان من كان، فانجِ بقلبك، وضِنّ بيومك وليلتك، لا تغرب عليك الشمس قبل وصول المنزلة فتؤخذ، أو يطلع عليك الفجر وأنت في المنزلة، فتسير الرفاق فتصبح وحدك، وأنَّى لك بلحاقهم»[٢].

* * *

---

(١) الوابل الصيب (ص: ٩٦).

(٢) المصدر السابق (١٠٧-١٠٨).

قوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

واشكروا: الشكر في اللغة: الظهور، من قولك: دابة شكور: إذا ظهر عليها السمن، والشكر: الثناء على المحسن بما أولاكه من معروف، خلافه: الكفر، وهو نسيان النعمة وسترها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قوله: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ **قال ابن جرير**: «يعني -تعالى ذكره- بذلك: اشكروا لي أيها المؤمنون فيما أنعمت عليكم من الإسلام والهداية للدين الذي شرعته لأنبيائي وأصفيائي، ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ يقول: ولا تجحدوا إحساني إليكم، فأسلبكم نعمتي التي أنعمت عليكم، ولكن اشكروا لي عليها، وأزيدكم، فأتمم نعمتي عليكم، وأهديكم لما هديت له من رضيت عنه من عبادي، فإني وعدت خلقي أن من شكر لي زدته، ومن كفرني حرمته وسلبته ما أعطيته»[1].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ أمر اللَّه تعالى بشكره، ووعد على شكره بمزيد الخير فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[2]»[3].

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ **قال ابن كثير**: «لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الصبر، والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نقمة فيصبر عليها؛ كما جاء في الحديث «**عجبًا للمؤمن لا يقضي اللَّه له قضاء**

(١) جامع البيان (٢/ ٣٧).
(٢) إبراهيم: الآية (٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤٥).

إلا كان خيرًا له: إن أصابته سراء فشكر كان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له»[١]، وبين تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة كما تقدم في قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[٢]، وفي الحديث أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا حزبه أمرٌ صلّى[٣]، والصبر صبران: فصبر على ترك المحارم والمآثم، وصبر على فعل الطاعات والقربات، والثاني أكثر ثوابًا؛ لأنه المقصود، وأما الصبر الثالث؛ وهو الصبر على المصائب والنوائب، فذلك أيضًا واجب كالاستغفار من المعايب، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الصبر في بابين: الصبر لله بما أحب؛ وإن ثقل على الأنفس والأبدان، والصبر لله عما كره؛ وإن نازعت إليه الأهواء»[٤].

قال أبو حيان: «لأن الصبر والصلاة هما ركنا الإسلام، فالصبر قصر النفس على المكاره والتكاليف الشاقة، وهو أمر قلبي؛ والصلاة ثمرته، وهي من أشق التكاليف لتكررها. ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة؛ لأنهم سمعوا من طعن الكفار على التوجه إلى الكعبة والصلاة إليها أذى كثيرًا، فأمروا عند ذلك بالاستعانة بالصبر والصلاة، وقد قيد بعضهم الصبر هنا: بأنه الصبر على أذى الكفار بالطعن على التحول والصلاة إلى الكعبة، وبعضهم بالصبر على أداء الفرائض... والأولى ما قدمناه من عموم اللفظ، فتندرج هذه الأفراد تحته»[٥].

قال شيخ الإسلام: «وذلك أن الصلاة هي أعرف المعروف من الأعمال، وهي عمود الإسلام وأعظم شرائعه، وهي قرينة الشهادتين، وإنما فرضها اللَّه ليلة المعراج، وخاطب بها الرسول بلا واسطة، لم يبعث بها رسولًا من الملائكة، وهي آخر ما وصى به النبي ﷺ أمته، وهي المخصوصة بالذكر في كتاب اللَّه تخصيصًا بعد تعميم كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[٦] وقوله: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[٧]، وهي المقرونة بالصبر وبالزكاة وبالنسك

---

(١) سيأتي مع أحاديث الباب.
(٢) البقرة: الآية (٤٥).
(٣) تقدم تخريجه عند الآية (٤٥) من حديث حذيفة رضي الله عنه.
(٤) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤٦).
(٥) البحر المحيط (١/ ٦٢١).
(٦) الأعراف: الآية (١٧٠).
(٧) العنكبوت: الآية (٤٥).

وبالجهاد في مواضع من كتاب اللَّه، كقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[1] وقوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾[2] وقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾[3] وقوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ﴾[4] إلى قوله: ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾[5]، وأمرها أعظم من أن يحاط به، فاعتناء ولاة الأمر بها يجب أن يكون فوق اعتنائهم بجميع الأعمال، ولهذا كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله: إن أهم أمركم عندي الصلاة، من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها كان لما سواها أشد إضاعة»[6].

وقال: «وأعظم عون لولي الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور؛ أحدها: الإخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء وغيره، وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن. الثاني: الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذى هو الزكاة. الثالث: الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب، ولهذا يجمع اللَّه بين الصلاة والصبر كثيرا كقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾[7] وكقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[8] وقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾[9] وكذلك في سورة ق: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾[10] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[11]، وأما قرنه بين

---

(١) وردت هذا الطرف من الآية في كثير من المواضع منها: البقرة (٤٣).
(٢) الأنعام: الآية (١٦٢).
(٣) الفتح: الآية (٢٩).
(٤) النساء: الآية (١٠٢).
(٥) الآية (١٠٣).
(٦) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٧٠-٧١).
(٧) البقرة: الآية (٤٥).
(٨) هود: الآيتان (١١٤-١١٥).
(٩) طه: الآية (١٣٠).
(١٠) ق: الآية (٣٩).
(١١) الحجر: الآيتان (٩٧-٩٨).

الصلاة والزكاة في القرآن فكثير جدًا.

فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية، إذا عرف الإنسان ما يدخل في هذه الأسماء الجامعة: يدخل في الصلاة: ذكر اللَّه تعالى، ودعاؤه، وتلاوة كتابه، وإخلاص الدين له، والتوكل عليه، وفي الزكاة: الإحسان إلى الخلق بالمال والنفع؛ من نصر المظلوم، وإغاثة الملهوف، وقضاء حاجة المحتاج.. وفي الصبر: احتمال الأذى، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، ومخالفة الهوى، وترك الأشر والبطر»[١].

قلت: فلله در شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا الفقه العظيم في دين اللَّه، وبيان أن ولاة الأمور لا يمكن أن يستقيم حالهم ولا أن تعلو مرتبتهم، ولا نصر لهم ولا مقاومة لعدوهم بالسلاح والعدة والعتاد، إلا بإظهار شعائر دينه وإعلاء كلمته، وإقامة توحيده والدعوة إليه، ومحاربة ما يخالفه حربًا لا هوادة فيها ولا مناقشة، فالتوحيد كلمة اللَّه العليا، والعمود الفقري لدينه؛ فإن ضاع ضاع الدين، وإن قام قام الدين، والصلاة من أعظم شعائر الدين، ومن لم يهتم بها من ولاة الأمور فلا خير فيه، فالرسول -عليه الصلاة والسلام- لم يثبت أنه تخلف عن الإمامة بالناس إلا في تبوك لما ذهب لقضاء حاجته، وفي مرضه الذي قدم فيه أبا بكر ﷺ، وهكذا الخلفاء من بعده، وشهادة عمر كانت في محرابه، فالعناية بالصلاة والزكاة وبقية أركان الإسلام دلالة صدق وإخلاص، والتهاون بها دلالة انحراف وتهاون بدين اللَّه، فإلى اللَّه المشتكى من واقع تعيشه أكثر الأمة الإسلامية في التهاون بالتوحيد وبهذه الشعائر العظيمة.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن شكر النعم والصبر على المصائب من كمال العبودية لله

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**أتحبون أن تجتهدوا في الدعاء؟ قولوا: اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[٢].

---

(١) المصدر السابق (٢٨/ ٣٦١-٣٦٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٩) ومن طريقه: أبو نعيم (٩/ ٢٢٣) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٧٢): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، غير موسى بن طارق وهو ثقة» اهـ وصححه الحاكم (١/ ٤٩٩) ووافقه الذهبي،=

* عن الصنابحي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه؛ أن رسول اللَّه ﷺ أخذ بيده يومًا ثم قال: «**يا معاذ! إني لأحبك**» فقال معاذ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! وأنا أحبك، قال: «**أوصيك يا معاذ: لا تدعنّ في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

وأوصى بذلك معاذٌ الصنابحيّ، وأوصى به الصنابحيّ أبا عبد الرحمن، وأوصى أبو عبدالرحمن عقبة بن مسلم[1].

⋆ فوائد الحديثين:

قال ابن علان: -نقلًا عن فتح الإله-: «وبما تقرر علم أنه ﷺ جمع في هذه الألفاظ القليلة مطالب الدنيا والآخرة، وجعل الشكر وسطا لتكفله بمصالح الدنيا والآخرة بنص قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[2] أي: مما أنتم فيه من نعم الدارين، وجعل الذكر وحسن العبادة مبدأ ومنتهى؛ لأنهما لما تمحضا للمصالح الأخروية والمعارف الربانية؛ استحقا أن يبدأ بأحدهما ويختم بالآخر؛ إشارة إلى أن الآخرة وشهودها وما يؤدي إليها؛ هو المقصود بداية ونهاية. اهـ ملخصًا، وعطفُ «**وحسن عبادتك**» على الشكر عطف خاص على عام، إذ الشكر أداء العبودية لما تقدم من أنه شرعًا صرف العبد جميع ما أنعم اللَّه به عليه لما خلق لأجله، لكن منه ما هو حسن وهو ما صحب بالحضور والخضوع والخشوع، فيكون أقرب إلى القبول، ومنه ما ليس كذلك»[3].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر**»[4].

= وصحح إسناده الشيخ الألباني في الصحيحة (٨٤٤).

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٤٤-٢٤٥) وأبو داود (٢/ ١٨٠-١٨١/ ١٥٢٢) والنسائي (٣/ ٦١/ ١٣٠٢). وصححه ابن خزيمة (١/ ٣٦٩/ ٧٥١)، وابن حبان (الاحسان ٥/ ٣٦٤-٣٦٦/ ٢٠٢٠-٢٠٢١)، والحاكم (١/ ٢٧٣) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٢) إبراهيم: الآية (٧).

(٣) دليل الفالحين (٤/ ٢٢٦).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٨٩)، والترمذي (٤/ ٥٦٣/ ٢٤٨٦) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (١/ ٥٦١/ ١٧٦٤). وعلقه البخاري (٩/ ٧٢٧). وصححه: ابن خزيمة (٣/ ١٩٧-١٩٨/ ١٨٩٨) وابن حبان (الاحسان ٢/ ١٦/ ٣١٥) والحاكم (٤/ ١٣٦) ووافقه الذهبي.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن حجر: «قال ابن التين: الطاعم هو الحسن الحال في المطعم، وقال ابن بطال: هذا من تفضل اللَّه على عباده؛ أن جعل للطاعم إذا شكر ربه على ما أنعم به عليه ثواب الصائم الصابر، وقال الكرماني: التشبيه هنا في أصل الثواب لا في الكمية ولا الكيفية، والتشبيه لا يستلزم المماثلة من جميع الأوجه، وقال الطيبي: ربما توهم متوهم أن ثواب الشكر يقصر عن ثواب الصبر فأزيل توهمه، أو وجه الشبه اشتراكهما في حبس النفس، فالصابر يحبس نفسه على طاعة المنعم، والشاكر يحبس نفسه على محبته اهـ، وفي الحديث الحث على شكر اللَّه على جميع نعمه، إذ لا يختص ذلك بالأكل، وفيه رفع الاختلاف المشهور في الغني الشاكر والفقير الصابر وأنهما سواء، كذا قيل، ومساق الحديث يقتضي تفضيل الفقير الصابر؛ لأن الأصل أن المشبه به أعلى درجة من المشبه، والتحقيق عند أهل الحذق أن لا يجاب في ذلك بجواب كلي، بل يختلف الحال باختلاف الأشخاص والأحوال، نعم عند الاستواء من كل جهة، وفرض رفع العوارض بأسرها، فالفقير أسلم عاقبة في الدار الآخرة، ولا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيء، واللَّه أعلم»[١].

* عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له**»[٢].

* عن عمر بن سعد عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**عجبت من قضاء اللَّه عز وجل للمؤمن! إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر، المؤمن يؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته**»[٣].

* عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**عجبت للمؤمن! إن اللَّه لم**

---

(١) فتح الباري (٩/ ٧٢٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٣٢) ومسلم (٤/ ٢٢٩٥/ ٢٩٩٩).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ١٧٣) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٦٣/ ١٠٩٠٦) وذكره الهيثمي (٧/ ٢٠٩) وقال: «رواه أحمد بأسانيد ورجالها رجال الصحيح». وصحح إسناده الشيخ الألباني في الصحيحة (١/ ٢٧٧).

يقض له قضاء؛ إلا كان خيرا له»[١].

★فوائد الأحاديث:

قوله: «**وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**»

قال المناوي: «وليس ذلك للكافرين ولا للمنافقين، ثم بين وجه العجب بقوله: «**إن أصابته سراء**» كصحة وسلامة ومال وجاه؛ «**شكر**» اللَّه على ما أعطاه، «**وكان خيرًا له**» فإنه يكتب في ديوان الشاكرين. «**وإن أصابته ضراء**» كمصيبة؛ «**صبر فكان خيرا له**»، فإنه يصير من أحزاب الصابرين، الذين أثنى اللَّه عليهم في كتابه المبين، فالعبد ما دام قلم التكليف جاريًا عليه؛ فمناهج الخير مفتوحة بين يديه، فإنه بين نعمة يجب عليه شكر المنعم بها، ومصيبة يجب عليه الصبر عليها، وأمر ينفذه، ونهي يجتنبه، وذلك لازم له إلى الممات»[٢].

وقال العثيمين: «وفي هذا الحديث الحث على الشكر عند السراء؛ لأنه إذا شكر الإنسان ربه على نعمة فهذا من توفيق اللَّه له، وهو من أسباب زيادة النعم كما قال الله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٣] وإذا وفق اللَّه العبد لشكره فهذه نعمة تحتاج إلى شكرها مرة ثانية، فإذا وفق فهي نعمة تحتاج إلى شكرها مرة ثالثة وهكذا؛ لأن الشكر قلّ من يقوم به، فإذا منّ اللَّه عليك وأعانك عليه فهذه نعمة»[٤].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٧) وأبو يعلى (٧/ ٨٦/ ٤٠١٩) والقضاعي في الشهاب (١/ ٣٤٨/ ٥٩٦). وصححه ابن حبان (الاحسان ٢/ ٥٠٧/ ٧٢٨).

(٢) فيض القدير (٤/ ٣٠٢).

(٣) إبراهيم: الآية (٧).

(٤) شرح رياض الصالحين (١/ ١٤٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

★ غريب الآية:

سبيل الله: السبيل: الطريق، والمراد هنا: الجهاد.

لا تشعرون: أي لا تدركون بحواسكم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره-: يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر على طاعتي في جهاد عدوكم، وترك معاصي، وأداء سائر فرائضي عليكم، ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله: هو ميت، فإن الميت من خلقي من سلبته حياته، وأعدمته حواسه، فلا يلتذ لذة، ولا يدرك نعيمًا؛ فإن من قتل منكم، ومن سائر خلقي في سبيلي؛ أحياء عندي في حياة ونعيم، وعيش هني، ورزق سني، فرحين بما آتيتهم من فضلي، وحبوتهم به من كرامتي»[١].

قال الشوكاني: «أي لا تقولوا لمن يقتل في سبيل اللَّه هم أموات، بل هم أحياء، ولكن لا تشعرون بهذه الحياة عند مشاهدتكم لأبدانهم بعد سلب أرواحهم؛ لأنكم تحكمون عليها بالموت في ظاهر الأمر بحسب ما يبلغ إليه علمكم الذي هو بالنسبة إلى علم الله؛ كما يأخذ الطائر في منقاره من ماء البحر، وليسوا كذلك في الواقع، بل هم أحياء في البرزخ، وفي الآية دليل على ثبوت عذاب القبر، ولا اعتداد بخلاف من خالف في ذلك، فقد تواترت به الأحاديث الصحيحة ودلت عليه الآيات القرآنية، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٢]»[٣].

---

(١) جامع البيان (٢/ ٣٨).

(٢) آل عمران (١٦٩).

(٣) فتح القدير (١/ ٢٣٤).

قال السعدي: «لما ذكر -تبارك وتعالى-، الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأحوال؛ ذكر نموذجًا مما يستعان بالصبر عليه، وهو الجهاد في سبيله، وهو أفضل الطاعات البدنية، وأشقها على النفوس، لمشقته في نفسه، ولكونه مؤديا للقتل وعدم الحياة، التي إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوازمها، فكل ما يتصرفون به، فإنه سعي لها، ودفع لما يضادها.

ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم، فأخبر تعالى: أن من قتل في سبيله، بأن قاتل في سبيل اللَّه، لتكون كلمة اللَّه هي العليا، ودينه الظاهر، لا لغير ذلك من الأغراض؛ فإنه لم تفته الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل، مما تظنون وتحسبون. فالشهداء ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من اللَّه تعالى، وتمتعهم برزقه البدني في المأكولات والمشروبات اللذيذة، والرزق الروحي، وهو الفرح، وهو الاستبشار، وزوال كل خوف وحزن، وهذه حياة برزخية أكمل من الحياة الدنيا، بل قد أخبر النبي ﷺ أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، وفي هذه الآية، أعظم حث على الجهاد في سبيل اللَّه، وملازمة الصبر عليه، فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل اللَّه من الثواب؛ لم يتخلف عنه أحد، ولكن عدم العلم اليقيني التام، هو الذي فتّر العزائم، وزاد نوم النائم، وأفات الأجور العظيمة والغنائم، لم لا يكون كذلك واللَّه تعالى قد ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾[2].

فواللَّه لو كان للإنسان ألف نفس، تذهب نفسًا فنفسًا في سبيل الله؛ لم يكن عظيما في جانب هذا الأجر العظيم، ولهذا لا يتمنى الشهداء -بعدما عاينوا- من ثواب اللَّه وحسن جزائه؛ إلا أن يردوا إلى الدنيا، حتى يقتلوا في سبيله مرة بعد

---

(١) آل عمران: (١٦٩-١٧١).
(٢) التوبة: (١١١).

مرة، وفي الآية، دليل على نعيم البرزخ وعذابه، كما تكاثرت بذلك النصوص»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الشهادة وعظم أجر الشهداء

* عن مسروق قال: سألنا عبد اللَّه -هو ابن مسعود رضي الله عنه- عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: «**أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا**»[٢].

* عن كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن أرواح الشهداء في طير خُضر تعلق من ثمر الجنة أو شجر الجنة**»[٣].

⋆ **غريب الحديث:**

تعلق من ثمر الجنة: يروى بفتح اللام وهو الأكثر، ويروى بضم اللام، والمعنى واحد، وهوالأكل والرعي، يقول: تأكل من ثمار الجنة، وترعى: تسرح بين أشجارها، والعلوقة والعلاق والعلوق: الأكل والرعي، وتقول العرب: ما ذاق اليوم علوقا أي طعاما.

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء، يخرج إليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا**»[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٧٨-١٧٩).

(٢) أخرجه: مسلم (٣/ ١٥٠٢/ ١٨٨٧) والترمذي (٥/ ٢١٥/ ٣٠١١) وابن ماجه (٢/ ٩٣٦/ ٢٨٠١).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٨٦) الترمذي (٤/ ١٥١/ ١٦٤١) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٤/ ٤١٤-٤١٥/ ٢٠٧٢) ابن ماجه (٢/ ١٤٢٨/ ٤٢٧١).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٦٦) والطبراني في الكبير (١٠/ ٤٠٥/ ١٠٨٢٥) وصححه ابن حبان (١٠/ ٥١٥/ ٤٦٥٨) والحاكم (٢/ ٧٤) ووافقه الذهبي.

★ **فوائد الأحاديث:**

قال القاضي عياض: «وفيه دليل على مجازاة الأموات بالثواب والعقاب قبل القيامة، وقد ترى من هذا في عذاب القبر، وفيه أن الأرواح باقية لا تفنى، فينعم المحسن ويعذب المسيء، كما جاء في القرآن والآثار، وهو مذهب أهل السنة؛ خلافا لغيرهم من أهل البدع القائلين بفَنائها»(١).

قال ابن عبد البر: «اختلف العلماء في معنى هذا الحديث، فقال منهم قائلون: أرواح المؤمنين عند اللَّه في الجنة، شهداءَ كانوا أم غير شهداء، إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين، وتلقاهم ربهم بالعفو عنهم، وبالرحمة لهم.

واحتجوا: بأن هذا الحديث لم يخص فيه مؤمنا شهيدا من غير شهيد، واحتجوا أيضًا بما روي عن أبي هريرة: أن أرواح الأبرار في عليين، وأرواح الفجار في سجين. وعن عبد اللَّه بن عمر مثل ذلك.

وهذا قول يعارضه من السنة ما لا مدفع في صحة نقله؛ وهو قوله ﷺ: «**إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك اللَّه إليه يوم القيامة**»(٢)»(٣).

وقال: «وقال آخرون: إنما معنى هذا الحديث في الشهداء دون غيرهم؛ لأن القرآن والسنة لا يدلان إلا على ذلك، أما القرآن فقوله عزوجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾(٤)...

-ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مجموعة من الآثار تدل على أن المقصود في الحديث هم الشهداء دون غيرهم-

ثم قال: وهذه الآثار كلها تدل على أنهم الشهداء دون غيرهم، وفي بعضها في

---

(١) إكمال المعلم (٦/ ٣٠٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦) والبخاري (٦/ ٣٩١/ ٣٢٤٠) ومسلم (٤/ ٢١٩٩/ ٢٨٦٦) والترمذي (٣/ ٣٨٤/ ١٠٧٢) والنسائي (٤/ ٤١٢-٤١٣/ ٢٠٦٩) وابن ماجه (٢/ ١٤٢٧/ ٤٢٧٠) من حديث ابن عمر.

(٣) فتح البر (٢/ ١٤٣-١٤٤).

(٤) آل عمران: الآيتان (١٦٩ و ١٧٠).

صورة طير، وفي بعضها في أجواف طير، وفي بعضها كطير، والذي يشبه عندي -واللَّه أعلم- أن يكون القول؛ قول من قال كطير، أو كصور طير، لمطابقته لحديثنا المذكور، وليس هذا موضع نظر ولا قياس؛ لأن القياس إنما يكون فيما يسوغ فيه الاجتهاد، ولا مدخل للاجتهاد في هذا الباب، وإنما نسلم فيه لما صح من الخبر، عمن يجب التسليم له»[1].

قال ابن القيم: «لا تنافي بين قوله ﷺ: «**نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة**»[2] وبين قوله: «**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار**» وهذا الخطاب يتناول الميت على فراشه والشهيد، كما أن قوله: «**نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة**» يتناول الشهيد وغيره، ومع كونه يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي؛ ترِد روحه أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وأما المقعد الخاص به والبيت الذي أُعد له؛ فإنه إنما يدخله يوم القيامة، ويدل عليه أن منازل الشهداء ودورهم وقصورهم التي أعد اللَّه لهم ليست هي تلك القناديل التي تأوي إليها أرواحهم في البرزخ قطعا، فهم يرون منازلهم ومقاعدهم من الجنة، ويكون مستقرهم في تلك القناديل المعلقة بالعرش، فإن الدخول التام الكامل إنما يكون يوم القيامة، ودخول الأرواح الجنة في البرزخ أمر دون ذلك. . .

وأما قول من قال: إن حديث كعب في الشهداء دون غيرهم؛ فتخصيص ليس في اللفظ ما يدل عليه، وهو حمل اللفظ العام على أقل مسمياته، فإن الشهداء بالنسبة إلى عموم المؤمنين قليل جدًّا، والنبي ﷺ علق هذا الجزاء بوصف الإيمان، فهو المقتضي له، ولم يعلقه بوصف الشهادة. . . وأما النصوص والآثار التي ذكر في رزق الشهداء، وكون أرواحهم في الجنة؛ فكلها حق، وهي لا تدل على انتفاء دخول أرواح المؤمنين الجنة، ولاسيما الصديقين الذين هم أفضل من الشهداء بلا نزاع بين الناس، فيقال لهؤلاء: ما تقولون في أرواح الصديقين؛ هل هي في الجنة أم لا؟ فإن قالوا: إنها في الجنة، -ولا يسوغ لهم غير هذا القول- فثبت أن هذه النصوص لا تدل على اختصاص أرواح الشهداء بذلك، وإن قالوا: ليست في

(١) فتح البر (٢/ ١٤٤-١٤٨).

(٢) تقدم تخريجه.

الجنة؛ لزمهم من ذلك أن تكون أرواح سادات الصحابة كأبي بكر الصديق، وأبيّ بن كعب، وعبداللَّه بن مسعود، وأبي الدرداء، وحذيفة بن اليمان، وأشباههم ﵃؛ ليست في الجنة وأرواح شهداء زماننا في الجنة، وهذا معلوم البطلان ضرورة، فإن قيل: فإن كان هذا حكمًا يختص بالشهداء؛ فما الموجب لتخصيصهم بالذكر في هذه النصوص؟ قلت: التنبيه على فضل الشهادة وعلو درجتها، وأن هذا مضمون لأهلها ولا بد، وأن لهم منها أوفر نصيب، فنصيبهم من هذا النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فراشهم، وإن كان الميت على فراشه أعلى درجة منهم، فله نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه، ويدل على هذا أن اللَّه سبحانه جعل أرواح الشهداء في أجواف طير خضر فإنهم لما بذلوا أنفسهم لله حتى أتلفها أعداؤه فيه؛ أعاضهم منها في البرزخ أبدانا خيرا منها، تكون فيها إلى يوم القيامة، ويكون نعيمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من نعيم الأرواح المجردة عنها، ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير أو كطير، ونسمة الشهيد في جوف طير، وتأمل لفظ الحديثين، فإنه قال: نسمة المؤمن طير فهذا يعم الشهيد وغيره، ثم خص للشهيد بأن قال هي في جوف طير، ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير صدق عليها أنها طير، فصلوات اللَّه وسلامه على من يصدق كلامه بعضه بعضًا، ويدل على أنه حق من عند اللَّه، وهذا الجمع أحسن من جمع أبي عمر وترجيحه رواية من روى: «**أرواحهم كطير خضر**» بل الروايتان حق وصواب فهي كطير خضر وفي أجواف طير خضر»[1].

قال القاضي: «وأما قوله تعالى لهم: «**هل تشتهون شيئًا**»؛ فمبالغة في الإكرام والنعيم، إذ قد أعطاهم ما لا يخطر على قلب بشر، ثم رغبهم في سؤال الزيادة، فلم يجدوا وراء ما أعطاهم من مزيد، لكن تلقوا ذلك بالشكر بأن سألوه بأن يرد أرواحهم إلى أجسادهم حتى يجاهدوا فيه، ويبذلوا أنفسهم، ويقتلوا في شكر إحسانه، ويستلذوا ألم القتل والموت لمكافأة بره، ويجودوا بذواتهم له، إذ لم يقدروا على غاية فوق ذلك، والجود بالنفس أقصى غاية الجود»[2].

قلت: الفرق بين قاتل نفسه وبين من يبذل نفسه لإعلاء كلمة اللَّه، هو أن الشهيد

---

(١) الروح (٩٧-٩٩).

(٢) الإكمال (٦/ ٣٠٩).

له من الفضل والجزاء ما صرحت به النصوص، وقاتل نفسه عليه من العذاب ما لا تستحمله الفطر والعقول السليمة، فنرجو اللَّه أن يجعلنا من الشهداء وأن لا يجعلنا من الذين استعجلوا أنفسهم تشاؤمًا أو قنوطًا من رحمة اللَّه، أو يأسًا من روح اللَّه ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1].

* * *

(١) يوسف: الآية (٨٧).

قوله تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لنبلونكم : لنختبرنكم .

الخوف : توقع المكروه، ويعبر عنه بالجزع .

مصيبة : المصيبة : النائبة والنكبة .

المهتدون : الاهتداء إصابة طريق الحق .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «وهذا إخبار من اللَّه -تعالى ذكره- أتباع رسوله ﷺ، أنه مبتليهم وممتحنهم بشدائد من الأمور، ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، كما ابتلاهم فامتحنهم بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وكما امتحن أصفياءه قبلهم . ووعدهم ذلك في آية أخرى فقال لهم : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾(١) . وقوله : ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ يعني : من الخوف من العدو، وبالجوع -وهو القحط- يقول : ولنختبرنكم بشيء من خوف ينالكم من عدوكم، وبسنة تصيبكم ينالكم فيها مجاعة وشدة، وتتعذر المطالب عليكم، فتنقص لذلك أموالكم؛ وحروب تكون بينكم وبين أعدائكم من الكفار، فينقص لها عددكم؛ وموت ذراريكم وأولادكم، وجدوب تحدث فتنقص لها

---

(١) البقرة: الآية (٢١٤).

ثماركم. كل ذلك امتحان مني لكم، واختبار مني لكم، فيتبين صادقوكم في إيمانكم من كاذبيكم فيه، ويعرف أهل البصائر في دينهم منكم، من أهل النفاق فيه والشك والارتياب. كل ذلك خطاب منه لأتباع رسول اللَّه ﷺ وأصحابه.. ثم قال -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ: يا محمد، بشر الصابرين على امتحاني بما أمتحنهم به، والحافظين أنفسهم عن التقدم على نهيي عما أنهاهم عنه، والآخذين أنفسهم بأداء ما أكلفهم من فرائضي، مع ابتلائي إياهم بما أبتليهم به، القائلين إذا أصابتهم مصيبة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾. فأمره اللَّه -تعالى ذكره- بأن يخص -بالبشارة على ما يمتحنهم به من الشدائد- أهل الصبر، الذين وصف اللَّه صفتهم»[١].

وقال ابن كثير: «أخبرنا تعالى أنه يبتلي عباده؛ أي: يختبرهم ويمتحنهم كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾[٢] فتارة بالسراء، وتارة بالضراء؛ من خوف وجوع؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾[٣]، فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه، ولهذا قال: ﴿لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾، وقال ههنا: ﴿بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ﴾ أي: بقليل من ذلك، ﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ أي: ذهاب بعضها، ﴿وَٱلۡأَنفُسِ﴾: كموت الأصحاب والأقارب والأحباب، ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾ أي: لا تُغلّ الحدائق والمزارع كعادتها، قال بعض السلف: فكانت بعض النخيل لا تُثمر غير واحدة، وكل هذا وأمثاله مما يختبر اللَّه به عباده، فمن صبر أثابه، ومن قنط أحل به عقابه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ . . . ثم بين تعالى من الصابرون الذين شكرهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي تسلوا بقولهم هذا عما أصابهم، وعلموا أنهم مُلك لله يتصرف في عبيده بما يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة، ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك؛ فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ أي: ثناء من اللَّه عليهم، قال سعيد بن جبير: أي أمنة من العذاب ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾»[٤].

---

(١) جامع البيان (٣/ ٢١٠-٢٢١).
(٢) محمد: الآية (٣١).
(٣) النحل: الآية (١١٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤٧).

قال السعدي: «أخبر تعالى: أنه لا بد أن يبتلي عباده بالمحن؛ ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عباده؛ لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان، ولم يحصل معها محنة؛ لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة اللَّه تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر، هذه فائدة المحن، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان، ولا ردهم عن دينهم، فما كان اللَّه ليضيع إيمان المؤمنين، فأخبر في هذه الآية أنه سيبتلي عباده ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ من الأعداء ﴿وَالْجُوعِ﴾ أي: بشيء يسير منهما؛ لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله، أو الجوع؛ لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك.

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال؛ من جوائح سماوية، وغرق، وضياع، وأخذ الظلَمة للأموال من الملوك الظلمة، وقطاع الطريق وغير ذلك. ﴿وَالْأَنفُسِ﴾ أي: ذهاب الأحباب من الأولاد، والأقارب، والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه، ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ أي: الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخضر ببَرَد، أو برْد، أو حرق، أو آفة سماوية، من جراد ونحوه.

فهذه الأمور، لا بد أن تقع؛ لأن العليم الخبير، أخبر بها، فوقعت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين، فالجازع، حصلت له المصيبتان: فوات المحبوب، وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامتثال أمر اللَّه بالصبر، ففاز بالخسارة والحرمان، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران، وحصل له السخط الدال على شدة النقصان.

وأما من وفقه اللَّه للصبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن التسخط، قولا وفعلا، واحتسب أجرها عند اللَّه، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه؛ لأنها صارت طريقًا لحصول ما هو خير له وأنفع منها؛ فقد امتثل أمر اللَّه، وفاز بالثواب، فلهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أي: بشرهم بأنهم يوفّون أجرهم بغير حساب.

فـ﴿الصَّابِرِينَ﴾ هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة، والمنحة الجسيمة، ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ وهي كل ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما مما تقدم ذكره.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي: مملوكون لله، مدبرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها، فقد تصرف أرحم الراحمين، بمماليكه وأموالهم، فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبودية العبد، علمه، بأن وقوع البلية؛ من المالك الحكيم الذي هو أرحم بعبده من نفسه، فيوجب له ذلك الرضا عن اللَّه، والشكر له على تدبيره، لما هو خير لعبده، وإن لم يشعر بذلك، ومع أننا مملوكون لله، فإنا إليه راجعون يوم المعاد، فمُجازٍ كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا؛ وجدنا أجرنا موفورا عنده، وإن جزعنا وسخطنا؛ لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، فكون العبد لله وراجع إليه؛ من أقوى أسباب الصبر.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصبر المذكور ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ثناء وتنويه بحالهم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة، ومن رحمته إياهم، أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضع، علمهم بأنهم لله، وأنهم إليه راجعون، وعملوا به، وهو هنا صبرهم لله.

ودلت هذه الآية، على أن من لم يصبر؛ فله ضد ما لهم، فحصل له الذم من اللَّه، والعقوبة، والضلال، والخسارة، فما أعظم الفرق بين الفريقين! وما أقل تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين!! فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها؛ لتخفّ وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به، إذا وقعت، وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابرين من الأجر، ويعلم حال غير الصابر، بضد حال الصابر.

وأن هذا الابتلاء والامتحان؛ سنة اللَّه التي قد خلت، ولن تجد لسنة اللَّه تبديلا، وبيان أنواع المصائب»[1].

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ بيان لفضيلة سنتهم إذ اهتدوا لما هو حق كل عبد عارف فلم تزعجهم المصائب ولم تكن لهم حاجبًا عن التحقق في مقام الصبر، لعلمهم أن الحياة لا تخلو من الأكدار، وأما الذين لم يهتدوا فهم يجعلون المصائب سببًا في اعتراضهم على اللَّه أو كفرهم به أو قول ما لا يليق أو شكهم في صحة ما هم عليه من الإسلام، يقولون لو كان هذا هو الدين

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٨٠-١٨٣).

المرضي لله لما لحقنا عذاب ومصيبة، وهذا شأن أهل الضلال الذين حذرنا اللَّه أمرهم بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾[1] وقال في المنافقين: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾[2]، والقول الفصل أن جزاء الأعمال يظهر في الآخرة، وأما مصائب الدنيا فمسببة عن أسباب دنيوية، تعرض لعروض سببها، وقد يجعل اللَّه سبب المصيبة عقوبة لعبده في الدنيا على سوء أدب أو نحوه للتخفيف عنه من عذاب الآخرة، وقد تكون لرفع درجات النفس، ولها أحوال ودقائق لا يعلمها إلا اللَّه تعالى وقد يطلع عليها العبد إذا راقب نفسه وحاسبها»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الصبر على المصائب واستحباب الاسترجاع عند وقوعها

* عن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**ما من الناس من مسلم يُتوفى له ثلاث لم يبلغوا الحِنث؛ إلا أدخله اللَّه الجنة بفضل رحمته إياهم**»[4].

⋆ **غريب الحديث:**

لم يبلغوا الحِنث: أي لم يبلغوا مبلغ الرجال، ويجري عليهم القلم، فيكتب عليهم الحنث، وهو الإثم، وقال الجوهري: بلغ الغلام الحنث؛ أي: المعصية والطاعة.

* عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النساء قلن للنبي ﷺ: اجعل لنا يوما. فوعظهن وقال: «**أيما امرأة مات لها ثلاثة من الولد كانوا لها حجابًا من النار**». قالت امرأة: واثنان؟ قال: «**واثنان**»[5].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج**

---

(١) الأعراف: الآية (١٣١). (٢) النساء: الآية (٧٨).
(٣) التحرير والتنوير (٢/ ٥٨).
(٤) أحمد (٣/ ١٥٢) والبخاري (٣/ ١٥٣/ ١٢٤٨) والنسائي (٤/ ٣٢٤/ ١٨٧٢) وابن ماجه (١/ ٥١٢/ ١٦٠٥).
(٥) أحمد (٣/ ٣٤) والبخاري (٣/ ١٥٣/ ١٢٤٩) ومسلم (٤/ ٢٠٢٨/ ٢٦٣٣) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٥١-٤٥٢/ ٥٨٩٦).

النار إلا تحِلة القسم»(١).

★ غريب الحديث:

إلا تحِلّة القسم: بفتح المثناة وكسر المهملة وتشديد اللام؛ أي: ما ينحلّ به القسم وهو اليمين، وهو مصدر حلل اليمين؛ أي: كفرها، يقال حلل تحليلًا وتحلة وتحلًّا بغير هاء والثالث شاذ. وقال أهل اللغة: يقال فعلته تحلة القسم؛ أي: قدر ما حللت به يميني ولم أبالغ.

* عن عقبة بن عامر ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من أثكل ثلاثة من صلبه فاحتسبهم على اللَّه وجبت له الجنة**»(٢).

★ من فوائد الأحاديث:

قوله: «**ما من الناس من مسلم**» قال الحافظ: «قيده به ليخرج الكافر»(٣).

قوله: «**لم يبلغوا الحنث**»

قال الحافظ: «وخص الصغير بذلك لأن الشفقة عليه أعظم، والحب له أشد، والرحمة له أوفر، وعلى هذا فمن بلغ الحنث لا يحصل لمن فقده ما ذكر من هذا الثواب، وإن كان في فقد الولد أجر في الجملة، وبهذا صرح كثير من العلماء، وفرقوا بين البالغ وغيره؛ بأنه يتصور منه العقوق المقتضي لعدم الرحمة، بخلاف الصغير؛ فإنه لا يتصور منه ذلك، إذ ليس بمخاطب. وقال الزين بن المنير: بل يدخل الكبير في ذلك من طريق الفحوى؛ لأنه إذا ثبت ذلك في الطفل الذي هو كَلٌّ على أبويه؛ فكيف لا يثبت في الكبير الذي بلغ معه السعي، ووصل له منه النفع، وتوجه إليه الخطاب بالحقوق؟! قال: ولعل هذا هو السر في إلغاء البخاري التقييد بذلك في الترجمة، انتهى. ويقوي الأول قوله في بقية الحديث: «**بفضل رحمته إياهم**»؛ لأن الرحمة للصغار أكثر لعدم حصول الإثم منهم، وهل يلتحق بالصغار

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٩-٢٤٠) والبخاري (٣/ ١٥٣/ ١٢٥١) ومسلم (٤/ ٢٠٢٨/ ٢٦٣٢) والنسائي في الكبرى (٣/ ٣٩٤/ ١١٣٢٠) وابن ماجه (١/ ٥١٢/ ١٦٠٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٤٤) والطبراني (١٧/ ٣٠٠/ ٨٢٩). قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٥-٦): «رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجال الطبراني ثقات».

(٣) الفتح (٣/ ١٥٥).

من بلغ مجنونًا مثلًا واستمر على ذلك فمات؟ فيه نظر؛ لأن كونهم لا إثم عليهم يقتضي الإلحاق، وكون الامتحان بهم يخف بموتهم يقتضي عدمه، ولم يقع التقييد في طرق الحديث بشدة الحب ولا عدمه، وكان القياس يقتضي ذلك لما يوجد من كراهة بعض الناس لولده وتبرمه منه، ولاسيما من كان ضيق الحال، لكن لما كان الولد مظنة المحبة والشفقة نيط به الحكم وإن تخلف في بعض الأفراد»[١].

قوله: «**إلا أدخله اللَّه الجنة**»

قال الحافظ: «في حديث عتبة بن عبد اللَّه السلمي عند ابن ماجه بإسناد حسن نحو حديث الباب لكن فيه: «**إلا تلقوه من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء دخل**»[٢] وهذا زائد على مطلق دخول الجنة، ويشهد له ما رواه النسائي بإسناد صحيح من حديث معاوية بن قرة عن أبيه مرفوعًا في أثناء حديث: «**ما يسرك أن لا تأتي بابًا من أبواب الجنة إلا وجدته عنده يسعى يفتح لك**»[٣]»[٤].

قوله: «**بفضل رحمته إياهم**».

قال الحافظ: «أي: بفضل رحمة اللَّه للأولاد. وقال ابن التين: قيل: إن الضمير في رحمته للأب؛ لكونه كان يرحمهم في الدنيا، فيجازى بالرحمة في الآخرة، والأول أولى، ويؤيده أن في رواية ابن ماجه من هذا الوجه: «**بفضل رحمة اللَّه إياهم**» وللنسائي من حديث أبي ذر: «**إلا غفر اللَّه لهما بفضل رحمته**»[٥] وللطبراني وابن حبان من حديث الحارث بن أقيش -وهو بقاف ومعجمة مصغّر- مرفوعًا: «**ما من مسلمين يموت لهما أربعة أولاد إلا أدخلهما اللَّه الجنة بفضل رحمته**»[٦] وكذا في حديث عمرو بن عبسة كما سنذكره قريبا، وقال الكرماني: الظاهر أن المراد بقوله: «**إياهم**» جنس المسلم الذي مات أولاده لا الأولاد، أي

---

(١) الفتح (٣/ ١٥٥-١٥٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١/ ٥١٢/ ١٦٠٤).

(٣) سيأتي تخريجه ضمن أحاديث الباب. (٤) الفتح (٣/ ١٥٦).

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ١٥١) والنسائي (٤/ ٣٢٤-٣٢٥/ ١٨٧٣) وصححه ابن حبان [الإحسان (٧/ ٢٠٢/ ٢٩٤٠)] والحاكم (٢/ ٨٦-٨٧).

(٦) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٢-٣١٣) والطبراني (٣/ ٣٠٠/ ٣٣٥٩) وقال الهيثمي (٣/ ٨): «ورجاله ثقات». وصححه الحاكم (١/ ٧١) ووافقه الذهبي.

بفضل رحمة اللَّه لمن مات لهم، قال: وساغ الجمع لكونه نكرة في سياق النفي فتعمم انتهى. وهذا الذي زعم أنه ظاهر ليس بظاهر، بل في غير هذا الطريق ما يدل على أن الضمير للأولاد، ففي حديث عمرو بن عبسة عند الطبراني: «**إلا أدخله اللَّه برحمته هو وإياهم الجنة**»[1] وفي حديث أبي ثعلبة الأشجعي المقدم ذكره «**أدخله اللَّه الجنة بفضل رحمته إياهما**» قاله بعد قوله: «**من مات له ولدان**»[2] فوضح بذلك أن الضمير في قوله: «**إياهم**» للأولاد لا للآباء واللَّه أعلم»[3].

قال الحافظ: «قوله «**واثنان**» أي: وإذا مات اثنان ما الحكم؟ فقال: «**واثنان**»؛ أي: وإذا مات اثنان فالحكم كذلك.. وهو ظاهر في التسوية بين حكم الثلاثة والاثنين، وقد تقدم النقل عن ابن بطال أنه محمول على أنه أوحي إليه بذلك في الحال، ولا بُعد أن ينزل عليه الوحي في أسرع من طرفة عين، ويحتمل أن يكون كان العلم عنده بذلك حاصلا، لكنه أشفق عليهم أن يتّكلوا؛ لأن موت الاثنين غالبًا أكثر من موت الثلاثة، كما وقع في حديث معاذ وغيره في الشهادة بالتوحيد[4]، ثم لما سئل عن ذلك لم يكن بد من الجواب واللَّه أعلم»[5].

وقال أبو عمر: «والوجه عندي في هذا الحديث وما أشبهه من الآثار: أنها لمن حافظ على أداء فرائضه، واجتنب الكبائر، والدليل على ذلك؛ أن الخطاب في ذلك العصر لم يتوجه إلا إلى قوم الأغلب من أعمالهم ما ذكرنا، وهم الصحابة رضوان اللَّه عليهم»[6].

* عن أم سلمة ﵂ أنها قالت: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أْجرني في مصيبتي وأَخلِف لي خيرًا منها، إلا أخلف اللَّه له خيرًا منها**». قالت: فلما مات أبو سلمة

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٨٦) والطبراني في الصغير (٢/ ٣٨٤-٣٨٥/ ١٠٦٧) قال الهيثمي (٣/ ٥-٦): «ورجال الطبراني ثقات».

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٩٦) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٨٤/ ٩٥٧) قال الهيثمي (٣/ ٧): «ورجاله ثقات».

(٣) الفتح (٣/ ١٥٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٢٨) والبخاري (٦/ ٧٢-٧٣/ ٢٨٥٦) ومسلم (١/ ٥٨/ ٣٠) وأبو داود (٣/ ٥٥/ ٢٥٥٩) مختصرا. والترمذي (٥/ ٢٦-٢٧/ ٢٦٤٣) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٤٣-٤٤٤/ ٥٨٧٧).

(٥) الفتح (٣/ ١٥٨).

(٦) فتح البر (٦/ ٣٢١).

قلت: أيّ المسلمين خيرٌ من أبي سلمة؟ أولُ بيت هاجر إلى رسول اللَّه ﷺ!! ثم إني قلتها فأخلف اللَّه لي رسولَ اللَّه ﷺ، قال: أرسل إليّ رسول اللَّه ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له، فقلت: إن لي بنتًا، وأنا غيور، فقال: «**أما ابنتها فندعو اللَّه أن يغنيها عنها، وأدعو اللَّه أن يذهب بالغيرة**»[1].

★ من فوائد الحديث:

قال ابن عبد البر: «ليس في حديث أم سلمة من رواية مالك معنى يشكل، ولا موضع تنازعه العلماء في التأويل، وإنما هو دعاء، واسترجاع، وتعز، ومعنى قوله: «**إنا لله**» أي: نحن لله، وعبيد، وخلق، خلقنا للفناء «**وإنا إليه راجعون**» أي: إليه نصير، وإليه نرجع؛ لأنه -تبارك اسمه- إليه يرجع الأمر كله، والخلق كله، فلابد من الموت، والرجوع إلى اللَّه؛ أي: فما لنا نجزع مما لابد لنا منه، ولا محيد عنه، وهذا أحسن شيء وأبلغه في حسن العزاء، وفيه إيمان، وإخلاص، وإقرار بالبعث، والحمد لله»[2].

قال القرطبي: «قوله: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة..**» هذا تنبيه على قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[3] الآية، مع أنه ليس فيها أمر بذلك القول، وإنما تضمنت مدح من قاله، فيكون ذلك القول مندوبًا، والمندوب مأمور به؛ أي: مطلوب ومقتضى، وإن سوغ تركه. وقال أبو المعالي: لم يختلف الأصوليون أن المندوب مقتضى ومطلوب، وإنما اختلفوا هل يسمى مأمورًا به، قلت: وهذا الحديث يدل على أنه يسمى بذلك.

وقوله: «**إنا لله وإنا إليه راجعون**» كلمة اعتراف بالملك لمستحقه، وتسليم له فيما يجريه في ملكه، وتهوين للمصيبات بتوقع ما هو أعظم منها، وبالثواب المرتب عليها، وتذكير المرجع والمآل الذي حكم به ذو العزة والجلال»[4].

قال أبو عبد اللَّه القرطبي: «جعل اللَّه تعالى هذه الكلمات ملجأً لذوي المصائب، وعصمة للممتَحنين؛ لما جمعت من المعاني المباركة؛ فإن قوله:

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٠٩) ومسلم (٢/ ٦٣١-٦٣٢/ ٩١٨) وأخرجه أبو داود (٣/ ٤٨٨/ ٣١١٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٦٤/ ١٠٩١٠) مختصراً.
(٢) فتح البر (٦/ ٣٠٨).
(٣) البقرة: الآية (١٥٥).
(٤) المفهم (٢/ ٥٧٠).

﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾ إنا لله توحيد وإقرار بالعبودية والملك. وقوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ إقرار بالهلك على أنفسنا، والبعث من قبورنا، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له. قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (لم تعط هذا الكلمات نبيًّا قبل نبينا، ولو عرفها يعقوب لما قال: يا أسفى على يوسف!)»[1].

* عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: نعم العدلان ونعم العلاوة: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ نعم العدلان، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ نعم العلاوة[2].

★ غريب الحديث:

العدلان: بكسر المهملة؛ أي: المثلان.

العلاوة: بكسر المهملة؛ أي: ما يعلق على البعير بعد تمام الحمل.

★ من فوائد الحديث:

قال العيني: «قوله: (نعم العدلان) بكسر العين؛ أي: المثلان. وقال المهلب: العدلان الصلوات والرحمة، والعلاوة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾، وقيل: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، والعلاوة التي يثاب عليها. وقال ابن التين: قال أبو الحسن: العدل الواحد قول المصاب: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، والعدل الثاني الصلوات التي هي عليهن من اللّه تعالى، والعلاوة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾، وهو ثناء من اللّه تعالى عليهم. وقال الداودي: إنما هو مثل ضربه للجزاء، فالعدلان عدلا البعير أو الدابة، والعلاوة الغرارة التي توضع في وسط العدلين مملوءة، يقول: وكما

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٧٦).

(٢) أخرجه: البخاري معلقا بصيغة الجزم (٣/ ٢٢١) والحاكم (٢/ ٢٧٠) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ولا أعلم خلافًا بين أئمتنا أن سعيد بن المسيب أدرك أيام عمر رضي الله عنه، وإنما اختلفوا في سماعه منه» اهـ. وأقره الذهبي.

قال الحافظ في «تهذيب التهذيب» (٤/ ٨٧): «وقد وقع لي حديث بإسناد صحيح لا مطعن فيه، فيه تصريح سعيد بسماعه من عمر، وساق سنده إلى سعيد بن المسيب قال: سمعت عمر بن الخطاب على هذا المنبر يقول: (عسى أن يكون بعدي أقوام يكذبون بالرجم ..، والحديث») اهـ. وسعيد بن منصور في سننه (٢/ ٦٣٤/ ٢٣٣) والبيهقي في السنن (٤/ ٦٥) وفي الشعب (٢/ ٢٢١/ ١٥٨٧).

حملت هذه الراحلة وسقاءها فإنها لم يبق موضع يحمل عليه، فكذلك أعطي هذا الأجر وافرًا»[١].

* عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا مات ولد العبد قال اللَّه لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة، وسموه بيت الحمد**»[٢].

* عن معاوية بن قرة عن أبيه رضي الله عنهما: أن رجلًا كان يأتي النبي ﷺ ومعه ابن له، فقال له النبي ﷺ: «**أتحبه؟**» فقال: يا رسول الله! أحبّك اللَّه كما أُحبه. ففقده النبي ﷺ، فقال: «**ما فعل ابن فلان؟**» قالوا: يا رسول الله! مات. فقال النبي ﷺ لأبيه: «**أما تحب أن لا تأتي بابًا من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك؟**» فقال الرجل: يا رسول الله! أَلَه خاصة أم لكلنا؟ قال: «**بل لكلكم**»[٣].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**يقول اللَّه تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه؛ إلا الجنة**»[٤].

⋆ غريب الحديث:

إذا قبضت صَفيّه: «بفتح الصاد المهملة وكسر الفاء وتشديد التحتانية، وهو الحبيب المصافي كالولد والأخ، وكل من يحبه الإنسان، والمراد بالقبض قبض روحه، وهو الموت»[٥].

* عن أبي سلمى رضي الله عنه راعي رسول اللَّه ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**بخ بخ، وأشار بيده بخمس، ما أثقلهن في الميزان: سبحان اللَّه، والحمد لله،**

---

(١) عمدة القاري (٦/ ١٣٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٤١٥) والترمذي (٣/ ٣٤١/ ١٠٢١) وقال: حسن غريب. وصححه ابن حبان (الإحسان ٧/ ٢١٠/ ٢٩٤٨) وانظر الصحيحة (١٤٠٨).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٦) والنسائي (٤/ ٣٢٢-٣٢٣/ ١٨٦٩) وصححه ابن حبان (الاحسان ٧/ ٢٠٩/ ٢٩٤٧) والحاكم (١/ ٣٨٤) ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٧) والبخاري (١١/ ٢٩٠/ ٦٤٢٤).

(٥) من الفتح (١١/ ٢٩٢).

ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر، والولد الصالح يتوفى للمرء المسلم فيحتسبه»[١].

★ **فوائد الأحاديث:**

قوله: «ثم احتسبه إلا الجنة» قال الحافظ: «قال الجوهري: احتسب ولده إذا مات كبيرًا، فإن مات صغيرًا قيل: أفرطه، وليس هذا التفصيل مرادًا هنا بل المراد بـ**«احتسبه»**: صبر على فقده راجيًا الأجر من اللَّه على ذلك، وأصل الحسبة بالكسر الأجرة، والاحتساب طلب الأجرة من اللَّه تعالى خالصًا، واستدل به ابن بطال على أن من مات له ولد واحد يلتحق بمن مات له ثلاثة، وكذا اثنان، وأن قول الصحابي. . (ولم نسأله عن الواحد)؛ لا يمنع من حصول الفضل لمن مات له واحد، فلعله ﷺ سئل بعد ذلك فأخبر بذلك، أو أنه أعلم بأن حكم الواحد حكم ما زاد عليه فأخبر به»[٢].

وقال: «ووجه الدلالة من حديث الباب أن الصفي أعم من أن يكون ولدًا أم غيره، وقد أفرد ورتب الثواب بالجنة لمن مات له فاحتسبه»[٣].

قال الطيبي: «مرجع السؤال إلى تنبيه الملائكة على ما أراد اللَّه سبحانه من التفضل على عبده الحامد، لأجل تصبره على المصائب، وعدم تشكيه، بل إعداده إياها من جملة النعماء التي يستوجب الشكر عليها ثم استرجاعه، وأن نفسه ملك اللَّه وإليه المصير في العاقبة، قال أولا: **«ولد عبدي»** أي فرع شجرته، ثم ترقى إلى **«ثمرة فؤاده»** أي: نقاوة خلاصته، فإن خلاصة الإنسان الفؤاد، والفؤاد إنما يعتد به لما هو مكان اللطيفة التي خلق لها، وبها شرفه وكرامته، فحقيق لمن فقد مثل تلك النعمة الخطيرة، ويلقاها بمثل ذلك الحمد، أن يكون محمودًا حتى المكان الذي يسكن فيه، فلذلك سمي بيت الحمد»[٤].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٤٣) والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٠/ ٩٩٩٥) وصححه ابن حبان (الاحسان ٣/ ١١٤-١١٥/ ٨٣٣) والحاكم (١/ ٥١١-٥١٢) وأقره الذهبي.

(٢) الفتح (١١/ ٢٩٢).

(٣) الفتح (١١/ ٢٩٢).

(٤) شرح المشكاة (٤/ ١٤٢٣).

* عَنْ عطاء بن أبي رباح مرفوعًا: قال النبي ﷺ: «**إذا أصاب أحدكم مصيبة؛ فليذكر مصابه بي، فإنها من أعظم المصائب**»[(١)].

★ **فوائد الحديث:**

قال أبو عمر: «وصدق ﷺ لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة؛ انقطع الوحي، وماتت النبوة، وكان أول ظهور الشر بارتداد العرب، وغير ذلك مما يطول ذكره، وكان أول انقطاع الخير، وأول نقصانه»[(٢)].

وقال شيخ الإسلام: «وموته ﷺ كان أعظم المصائب التي تزلزل بها الإيمان، حتى ارتدّ أكثر الأعراب، واضطرب لها عمر الذي كان أقواهم إيمانًا، وأعظمهم يقينًا»[(٣)].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مرّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال: «**اتقي اللَّه واصبري**»، قالت: إليك عنّي، فإنك لم تصب بمصيبتي -ولم تعرفه- فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ فلم تجده عنده بوّابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»[(٤)].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن حجر: «والمعنى: إذا وقع الثبات أول شيء يهجم على القلب من مقتضيات الجزع؛ فذلك هو الصبر الكامل الذي يترتب عليه الأجر، وأصل الصدم ضرب الشيء الصلب بمثله، فاستعير للمصيبة الواردة على القلب»[(٥)].

وقال ابن بطال: «إن قيل: قد علمت أن العبد منهي عن الهُجر وتسخط قضاء الرب في كل حال، فما وجه خصوص نزول الأولى بالصبر في حال حدوثها؟ قيل:

---

(١) أخرجه: ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٧٥) والدارمي (١/ ٤٠) وابن عبد البر في التمهيد [فتح البر (٦/ ٣٣٤)] مرسلًا، وذكر له الشيخ الألباني شواهد فقال: وبالجملة فالحديث بهذه الشواهد صحيح. انظر الصحيحة (١١٠٦).

(٢) التمهيد: فتح البر (٦/ ٣٣٤).

(٣) منهاج السنة (٨/ ٤٥٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣٠) والبخاري (٣/ ١٩٠-١٩١/ ١٢٨٣) ومسلم (٢/ ٦٣٧-٦٣٨/ ٩٢٦) وأبو داود (٣/ ٤٩١/ ٣١٢٤) وأخرجه الترمذي (٣/ ٣١٤/ ٩٨٨) والنسائي (٤/ ٣٢٢/ ١٨٦٨) وابن ماجه (١/ ٥٠٩/ ١٥٢٦) مختصرًا.

(٥) الفتح (٣/ ١٩٢).

وجه خصوص ذلك أن للنفس عند هجوم الحادثة محرِّكًا على الجزع، ليس في غيرها مثله، وتلك حال يضعف عن ضبط النفس فيها كثير من الناس، ثم يصير كل جازع بعد ذلك إلى السكون ونسيان المصيبة، والأخذ بقهر الصابر نفسه، وغلبته هواها عند صدمته إيثارا لأمر اللَّه على هوى نفسه، ومنجزا لموعوده، بل السالي عن مصابه لا يستحق اسم الصبر على الحقيقة؛ لأنه آثر السلو على الجزع واختاره.

وإنما الصابر على الحقيقة من صبر نفسه، وحبسها عن شهوتها، وقهرها عن الحزن والجزع والبكاء الذي فيه راحة النفس وإطفاء لنار الحزن، فإذا قابل سَوْرة الحزن وهجومه بالصبر الجميل، واسترجع عند ذلك، وأشعر نفسه أنه لله ملك، لا خروج له عن قضائه، وإليه راجع بعد الموت ويلقى حزنه بذلك؛ انقمعت نفسه، وذلت على الحق، فاستحقت جزيل الأجر»[(١)].

قلت: قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقهرها عن الحزن والجزع والبكاء»؛ ليس معنى هذا أن الإنسان يدفع الأمور الفطرية التي فُطر عليها من حبٍّ للمفقود، فإن محبة المفقود أمر فطري، لا يمكن أن يدفعه أحد، وقدوة الخلق محمد ﷺ؛ لما فقدَ ابنه دمعت عينه ﷺ، ورئي عليه أثر الحزن، وصرح بذلك ﷺ في حديثه: «**وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون**»[(٢)]. فالحزن وأثره على الإنسان أمر فطري لا يمكن أن يدفع بحال، ولكن الفرق بين ما يدل على الرحمة وبين ما يدل على التنكر والتسخط؛ هو ما يظهر من آثار في الأقوال والأفعال، فالمسلم الحق هو الذي يشتغل بالأدعية المأثورة؛ بما ذكره اللَّه في كتابه من استرجاع، وما في السنة من حوقلة وتسبيح وتهليل، وكلمات تدل على كمال الرضا، وأما الجاهل فهو الذي يعاكس سنن اللَّه الكونية والشرعية؛ فيظهر عليه من أثر التسخط واستنكار ما حدث على رب العالمين؛ ما جاءت النصوص في وصفه من لعنة، وبراءة للرسول ﷺ من الصالقة والحالقة[(٣)] وغيرهما من الأوصاف المذمومة في هذا الباب، نرجو اللَّه أن يرزقنا

---

(١) شرح ابن بطال (٣/ ٢٨٦-٢٨٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٩٤)، والبخاري (٣/ ٢٢٢/ ١٣٠٣)، ومسلم (٤/ ١٨٠٧-١٨٠٨/ ٢٣١٥)، وأبو داود (٣/ ٤٩٣/ ٣١٢٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٧)، والبخاري (٣/ ٢١٢/ ١٢٩٦) معلقًا بصيغة الجزم، ومسلم (١/ ١٠٠/ ١٠٤)، والنسائي (٤/ ٣٢٠/ ١٨٦٢)، وابن ماجه (١/ ٥٠٥/ ١٥٨٦) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

الصبر والثبات عند مصائبنا وما ينزل بنا، والله المستعان.

* عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه ﵁ قال: كان رسول الله ﷺ يتعهد الأنصار ويعودهم ويسأل عنهم، فبلغه عن امرأة من الأنصار مات ابنها وليس لها غيره، وأنها جزعت عليه جزعا شديدًا، فأتاها النبي ﷺ فأمرها بتقوى الله وبالصبر. فقالت: يا رسول الله! إني امرأة رقوب لا ألد ولم يكن لي غيره. فقال رسول الله ﷺ: **«الرقوب التي يبقى ولدها»**. ثم قال: **«ما من امرئ أو امرأة مسلمة يموت لها ثلاثة أولاد؛ إلا أدخلهم الله بهم الجنة»** فقال عمر: يا رسول الله! بأبي أنت وأمي واثنان؟ قال: **«واثنان»**[1].

* عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة»**[2].

★ من فوائد الحديثين:

قال أبو عمر: «وذلك أن من أراد الله به خيرًا -وخير الله في هذا الموضع رحمته- ابتلاه بمرض في جسمه، وبموت ولد يحزنه، أو بذهاب مال يشق عليه، فيأجره على ذلك كله، ويكتب له إذا صبر واحتسب، بكل شيء منه حسنات يجدها في ميزانه لم يعملها، أو يجدها كفارة لذنوب قد عملها»[3].

قال القاسمي: «وللإمام عز الدين محمد بن عبد السلام ﵀ كلام على فوائد المحن والرزايا يحسن إيراده هنا.

قال -عليه الرحمة-: للمصائب والبلايا، والمحن والرزايا؛ فوائد تختلف باختلاف رتب الناس.

أحدها: معرفة عز الربوبية وقهرها.

والثاني: معرفة ذلة العبودية وكسرها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ

---

(١) أخرجه: البزار (الكشف ١/ ٤٠٥/ ٨٥٧)، والحاكم (١/ ٣٨٤) وصححه ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي (٣/ ٨): «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح».

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٨٧) والترمذي (٤/ ٥٢٠/ ٢٣٩٩). وقال: «حسن صحيح». وصححه ابن حبان (الاحسان ٧/ ١٧٦/ ٢٩١٣) والحاكم (١/ ٣٤٦) ووافقه الذهبي.

(٣) فتح البر (٦/ ٢٩٥).

﴿أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ اعترفوا بأنهم ملكه وعبيده، وأنهم راجعون إلى حكمه وتدبيره، وقضائه وتقديره، لا مفرّ لهم منه، ولا محيد لهم عنه.

والثالثة: الإخلاص لله تعالى؛ إذ لا مرجع في رفع الشدائد إلا إليه، ولا معتمد في كشفها إلا عليه ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾[١]، ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٢].

الرابعة: الإنابة إلى الله تعالى والإقبال عليه، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ﴾[٣].

الخامسة: التضرع والدعاء ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾[٤]، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾[٥]، ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾[٦]، ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[٧].

السادسة: الحلم ممن صدرت منه المصيبة ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾[٨]، ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾[٩]، «**إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**»[١٠]، وتختلف مراتب الحلم باختلاف المصائب في صغرها وكبرها، فالحلم عند أعظم المصائب أفضل من كل حلم.

السابعة: العفو عن جانيها، ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾[١١]، ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[١٢]، والعفو عن أعظمها أفضل من كل عفو.

الثامنة: الصبر عليها، وهو موجب لمحبة الله تعالى وكثرة ثوابه، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[١٣]، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[١٤]، «**وما أعطي أحد عطاء خيرًا**

---

(١) الأنعام: الآية (١٧).
(٢) العنكبوت: الآية (٦٥).
(٣) الزمر: الآية (٨).
(٤) يونس: الآية (١٢).
(٥) الإسراء: الآية (٦٧).
(٦) الأنعام: الآية (٤١).
(٧) الأنعام: الآية (٦٣).
(٨) التوبة: الآية (١١٤).
(٩) الصافات: الآية (١٠١).
(١٠) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٣) ومسلم (١/ ٤٨-٤٩/ ١٨) وابن ماجه (٢/ ١٤٠١/ ٤١٨٧) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.
(١١) آل عمران: الآية (١٣٤).
(١٢) الشورى: الآية (٤٠).
(١٣) آل عمران: الآية (١٤٦).
(١٤) الزمر: الآية (١٠).

وأوسع من الصبر»[١].

التاسعة: الفرح بها من أجل فوائدها، قال -عليه الصلاة والسلام-: «**والذي نفسي بيده؛ إن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء**»[٢]، وقال ابن مسعود -رضي اللّه تعالى عنه-: (حبذا المكروهان: الموت والفقر)، وإنما فرحوا بها إذ لا وقع لشدتها ومرارتها؛ بالنسبة إلى ثمرتها وفائدتها، كما يفرح من عظمت أدواؤه بشرب الأدوية الحاسمة لها، مع تجرعه لمرارتها.

العاشرة: الشكر عليها لما تضمنته من فوائدها؛ كما يشكر المريض الطبيب القاطع لأطرافه المانع من شهواته؛ لما يتوقع في ذلك من البرء والشفاء.

الحادية عشرة: تمحيصها للذنوب والخطايا ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[٣] و«**لا يصيب المؤمن وصب ولا نصب حتى الهم يهمه والشوكة يشاكها؛ إلا كفر به من سيئاته**»[٤].

الثانية عشرة: رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم، «**فالناس معافى ومبتلى، فارحموا أهل البلاء واشكروا اللّه على العافية**»[٥] وإنما يرحم العشاق من عشق.

الثالثة عشرة: معرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها، فإن النعم لا تعرف أقدارها إلا بعد فقدها.

الرابعة عشرة: ما أعده اللّه تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها.

الخامسة عشرة: ما في طيها من الفوائد الخفية، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ

---

(١) سيأتي تخريجه في تفسير: الآية (٢٧٣) من هذه السورة.

(٢) أخرجه من حديث أبي سعيد: أحمد (٣/ ٩٤) وابن ماجه (٢/ ١٣٣٤-١٣٣٥/ ٤٠٢٤) قال في الزوائد: إسناده صحيح، رجاله ثقات. وصححه الحاكم (٤/ ٣٠٧) ووافقه الذهبي وهو في الصحيحة (١٤٤).

(٣) الشورى: الآية (٣٠).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٣) ومسلم (٤/ ١٩٩٢-١٩٩٣/ ٢٥٧٣) والترمذي (٣/ ٢٩٨/ ٩٦٦) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٦٨٦/ ٨) وابن المبارك في الزهد (١٣٥) وابن أبي شيبة (٧/ ٦٥/ ٣٤٢٣٠) من قول عيسى عليه السلام، وقال الشيخ الألباني في الضعيفة (٩٠٨): لا أصل له مرفوعًا.

اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[١]، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[٢]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[٣]، ولما أخذ الجبار سارة من إبراهيم[٤] كان في طي تلك البلية أن أخدمها هاجر، فولدت إسماعيل لإبراهيم -عليهما الصلاة والسلام-، فكان من ذرية إسماعيل خاتم النبيين، فأعظم بذلك من خير كان في طي تلك البلية. وقد قيل:

كم نعمة مطوية　　لك بين أثناء المصائب

وقال آخر:

رب مبغوض كريه　　فيه لله لطائف

السادسة عشرة: إن المصائب والشدائد تمنع من الأشر والبطر، والفخر والخيلاء، والتكبر والتجبر؛ فإن نمرود لو كان فقيرًا سقيمًا، فاقد السمع والبصر؛ لما حاجّ إبراهيم في ربه، لكن حمله بطر الملك على ذلك، وقد علّل اللّه ﷻ محاجته بإتيانه الملك، ولو ابتلي فرعون بمثل ذلك لما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٥]، ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾[٦]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[٧]، ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٨]، ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾[٩]، ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٧ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[١٠]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[١١]، والفقراء والضعفاء هم الأولياء، وأتباع الأنبياء، ولهذه الفوائد الجليلة كان «**أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل**»[١٢] نسبوا إلى الجنون، والسحر، والكهانة، واستهزئ بهم، وسخر منهم؛

---

(١) النساء: الآية (١٩).　(٢) البقرة: الآية (٢١٦).

(٣) النور: الآية (١١).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٣-٤٠٤) والبخاري (٤/ ٥١٦-٥١٧/ ٢٢١٧) ومسلم (٤/ ١٨٤٠-١٨٤١/ ٢٣٧١) وأبو داود (٢/ ٦٦٠/ إثر ٢٢١٢) والترمذي (٥/ ٣٠٠-٣٠١/ ٣١٦٦) والنسائي في الكبرى (٥/ ٩٧-٩٨/ ٨٣٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) النازعات: الآية (٢٤).

(٦) التوبة: الآية (٧٤).　(٧) العلق: الآيتان (٦و٧).

(٨) الشورى: الآية (٢٧).　(٩) هود: الآية (١١٦).

(١٠) الجن: الآيتان (١٧و١٨).　(١١) سبأ: الآية (٣٤).

(١٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨١) والبخاري (١٠/ ١٣٧/ ٥٦٤٨) ومسلم (٤/ ١٩٩١/ ٢٥٧١) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٥٧/ ٧٥٠٣) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

﴿فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾[(١)] وقيل لنا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾[(٢)] ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[(٣)]، ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا﴾[(٤)]، كالذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، وتغرّبوا عن أوطانهم، وكثر عناهم، واشتدّ بلاهم، وتكاثر أعداءهم، فغلبوا في بعض المواطن، وقتل منهم بأحد[(٥)]، وبئر معونة من قتل[(٦)]، وشجّ وجه رسول اللَّه ﷺ وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه[(٧)]، وقتل أعزاؤه، ومثل بهم، فشمتت أعداؤه، واغتمّ أولياؤه، وابتلوا يوم الخندق[(٨)]، وزلزلوا زلزالًا شديدًا، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وكانوا في خوف دائم، وعري لازم، وفقر مدقع؛ حتى شدّوا الحجارة على بطونهم من الجوع، ولم يشبع سيد الأولين والآخرين من خبز برّ في يوم مرتين، وأوذي بأنواع الأذية حتى قذفوا أحبّ أهله إليه[(٩)]، ثم ابتلي في آخر الأمر بمسيلمة[(١٠)]، وطليحة[(١١)]،

---

(١) الأنعام: الآية (٣٤).
(٢) البقرة: الآية (٢١٤).
(٣) البقرة: الآية (١٥٥).
(٤) آل عمران: الآية (١٨٦).
(٥) أخرجه البخاري (٧/ ٤٧٦/ ٤٠٧٨).
(٦) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٩) والبخاري (٧/ ٤٩٠/ ٤٠٩٠) ومسلم (٣/ ١٥١١/ ٦٧٧) وأبو داود (٢/ ١٤٣/ ١٤٤٤) والنسائي (٢/ ٥٤٥-٥٤٦/ ١٠٦٩) وابن ماجه (١/ ٣٧٤/ ١١٨٤) مختصرًا عند الثلاثة الآخِرين من حديث أنس ﷺ.
(٧) أخرجه البخاري (٦/ ١٢٠/ ٢٩١١) ومسلم (٣/ ١٤١٦/ ١٧٩٠) وابن ماجه (٢/ ١١٤٧/ ٣٤٦٤) من حديث سهل بن سعد ﷺ.
(٨) أخرجه أحمد (٣/ ١٨٧) والبخاري (٧/ ٤٩٩/ ٤٠٩٩) ومسلم (٣/ ١٤٣١-١٤٣٢/ ١٨٠٥) والترمذي (٥/ ٦٥١/ ٣٨٥٧) والنسائي في الكبرى (٥/ ٨٥/ ٨٣١٧).
(٩) أخرجه أحمد (٦/ ١٩٤-١٩٧) والبخاري (٧/ ٥٤٨-٥٥٢/ ٤١٤١) ومسلم (٤/ ٢١٢٩-٢١٣٨/ ٢٧٧٠) وأبو داود (٥/ ١٠٣-١٠٤/ ٤٧٣٥) مختصراً، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤١٥-٤١٨/ ١١٣٦٠) من حديث عائشة ﷺ.
(١٠) أخرجه البخاري (٨/ ١١١/ ٤٣٧٣) ومسلم (٤/ ١٧٨٠/ ٢٢٧٣) عن ابن عباس ﷺ.
(١١) قال عنه الذهبي: «طليحة بن خويلد، والبطل الكرار، صاحب رسول اللَّه ﷺ، ومن يضرب بشجاعته المثل، أسلم سنة تسع، ثم ارتد وظلم نفسه، وتنبأ بنجد، وتمت له حروب مع المسلمين، ثم انهزم وخذل، ولحق بآل جفنة الغسانيين بالشام، ثم ارعوى وأسلم وحسن إسلامه لما توفي الصديق.. أبلى يوم نهاوند ثم استشهد ﷺ، وسامحه». سير أعلام النبلاء (١/ ٣١٦-٣١٧).

والعنسي[١]، ولقي هو وأصحابه في جيش العسرة ما لقوه[٢]، ومات ودرعه عند يهودي على آصع من شعير[٣]، ولم تزل الأنبياء والصالحون يتعهدون بالبلاء الوقت بالوقت، «**يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان صلبًا في دينه شدد في بلائه**»[٤]، «**ولقد كان أحدهم يوضع المنشار على مفرقه فلا يصده ذلك عن دينه**»[٥] وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**مثل المؤمن مثل الزرع لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء**»[٦] وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح، تصرعها مرة وتعدلها مرة حتى تهيج**»[٧] فحال الشدة والبلوى مقبلة بالعبد إلى الله ﷻ، وحال العافية والنعماء صارفة للعبد عن الله تعالى ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٨] فلأجل ذلك تقللوا في المآكل والمشارب والمناكح والمجالس والمراكب وغير ذلك، ليكونوا على حالة توجب لهم الرجوع إلى الله تعالى ﷻ والإقبال عليه.

السابعة عشرة: الرضا الموجب لرضوان الله تعالى، فإن المصائب تنزل بالبرّ والفاجر، فمن سخطها فله السخط وخسران الدنيا والآخرة، ومن رضيها فله

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٣) والبخاري (٨/ ١١١-١١٢/ ٤٣٧٤) ومسلم (٤/ ١٧٨١/ ٢٢٧٤) والترمذي (٤/ ٤٧٠/ ٢٢٩٢) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٩/ ٧٦٤٩) من حديث ابن عباس عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٨) والبخاري (٨/ ١٣٨/ ٤٤١٥) ومسلم (٣/ ١٢٦٨-١٢٧٠/ ١٦٤٩) وأبو داود (٣/ ٥٨٣-٥٨٤/ ٣٢٧٦) والنسائي (٧/ ١٣-١٤/ ٣٧٨٩) وابن ماجه (١/ ٦٨١/ ٢١٠٧) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٤٢) والبخاري (٦/ ١٢٣/ ٢٩١٦) ومسلم (٣/ ١٢٢٦/ ١٦٠٣) والنسائي (٧/ ٣٣٢/ ٤٦٢٣) وابن ماجه (٢/ ٨١٥/ ٢٤٣٦) من حديث عائشة ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١٨٥) والترمذي (٤/ ٥٢٠/ ٢٣٩٨) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٢/ ١٣٣٤/ ٤٠٢٣) وصححه ابن حبان (٧/ ١٦١/ ٢٩٠١) والحاكم (١/ ٤٠-٤١) ووافقه الذهبي من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ١٧-١٨) ومسلم (٤/ ٢٢٩٩-٢٣٠١/ ٣٠٠٥) والترمذي (٥/ ٤٠٧-٤٠٩/ ٣٣٤٠) والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٠-٥١٢/ ١١٦٦١) من حديث صهيب ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٤) والبخاري (١٠/ ١٢٧-١٢٨/ ٥٦٤٤) ومسلم (٤/ ٢١٦٣/ ٢٨٠٩) والترمذي (٥/ ١٣٨-١٣٩/ ٢٨٦٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧) أخرجه أحمد (٣/ ٤٥٤) والبخاري (١٠/ ١٢٧/ ٥٦٤٣) ومسلم (٤/ ٢١٦٣/ ٢٨١٠) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٥١/ ٧٤٧٩) من حديث كعب بن مالك ﷺ.

(٨) يونس: الآية (١٢).

الرضا، والرضا أفضل من الجنة وما فيها، لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[(١)] أي: من جنات عدن.

فهذه نبذة مما حصرنا من فوائد البلوى ونحن نسأل اللَّه تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة فلسنا من رجال البلوى. وفقنا اللَّه تعالى لما يحب ويرضى، وعافانا من المحن والرزايا، بمنه وكرمه آمين[(٢)].

* * *

(١) التوبة: الآية (٧٢).

(٢) محاسن التأويل (٢/ ٣٢٩-٣٤٠).

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾

★ **غريب الآية:**

الصفا: موضع بمكة معروف، وفي الأصل: الحجر الأملس، مأخوذ من الصفو، واحده صفاة.

المروة: موضع بمكة معروف، وفي الأصل الحجارة الصلبة اللينة وقيل: الحصاة الصغيرة.

شعائر: واحدها شعيرة وهي مناسك الحج، والشعيرة في الأصل: العلامة، سميت مواضع الحج وأفعاله شعائر؛ لأنها علامات جعلها اللَّه مواطن للعبادة من موقف وسعي ومنحر.

الحج: بفتح الحاء وكسرها القصد لغة، وفي الشرع قصد مخصوص، لمكان مخصوص، في زمان مخصوص، على هيئات مخصوصة؛ من إحرام وطواف وسعي ووقوف.

اعتمر: أي قام بالعمرة، وأصلها الزيارة، وفي الشرع: زيارة مخصوصة لبيت اللَّه الحرام.

جناح: أي إثم، وأصله ما يميل بك عن الحق.

يطوف: أصل الطواف الدوران حول الشيء، وفي الشرع الدوران حول البيت.

تطوع: التطوع التنفل بالطاعة مما لم يفترض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «فقد بين اللَّه تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر اللَّه أي: مما شرع اللَّه تعالى لإبراهيم في مناسك الحج، وقد تقدم في حديث ابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وترددها بين الصفا والمروة في طلب الماء

لولدها، لما نفد ماؤهما وزادهما، حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك، وليس عندهما أحد من الناس فلما خافت على ولدها الضيعة هنالك، ونفد ما عندهما؛ قامت تطلب الغوث من اللَّه عز وجل فلم تزل تتردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذللة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى اللَّه عز وجل حتى كشف اللَّه كربتها، وآنس غربتها، وفرج شدتها، وأنبع لها زمزم التي ماؤها «**طعام طعم وشفاء سقم**»(١) فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى اللَّه في هداية قلبه، وصلاح حاله، وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى اللَّه عز وجل؛ لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم وأن يثبته عليه إلى مماته، وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي؛ إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام، وقوله: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ قيل: زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب ثامنة وتاسعة ونحو ذلك، وقيل: يطوف بينهما في حجة تطوع أو عمرة تطوع، وقيل: المراد تطوع خيرًا في سائر العبادات. حكى ذلك الرازي وعزى الثالث إلى الحسن البصري واللَّه أعلم. قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: يثيب على القليل بالكثير، عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحدًا ثوابه، و لا يظلم مثقال ذرة، ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٢)»(٣).

وقال ابن العربي: «فأدت الآية إباحة الطواف بينهما وسلّ سخيمة الحرج التي كانت في صدور المسلمين منها قبل الإسلام وبعده، وقال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي: من معالم الحج ومناسكه ومشروعاته لا من مواضع الكفر وموضوعاته، فمن جاء البيت حاجًّا أو معتمرًا؛ فلا يجد في نفسه شيئًا من الطواف بهما»(٤).

وقال السعدي: «يخبر تعالى ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ وهما معروفان ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي أعلام دينه الظاهرة، التي تعبّد اللَّه بها عباده، وإذا كانا من شعائر اللَّه، فقد أمر اللَّه بتعظيم شعائره فقال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٥) ومسلم (٤/ ١٩١٩-١٩٢٢/ ٢٤٧٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه بلفظ: «**إنها مباركة وإنها طعام طعم**» وزاد الطيالسي (٤٥٧): «**وشفاء سقم**».

(٢) النساء (٤٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥١-٣٥٢).

(٤) أحكام القرآن (١/ ٤٧).

ﵟٱلۡقُلُوبِﵞ[1] فدل مجموع النصين أنهما من شعائر اللَّه، وأن تعظيم شعائره، من تقوى القلوب.

والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدل على أن السعي بهما فرض لازم للحج والعمرة، كما عليه الجمهور، ودلت عليه الأحاديث النبوية وفعله النبي ﷺ وقال: «خذوا عني مناسككم»[2].

ﵟفَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚﵞ هذا دفع لوهم من توهم وتحرج من المسلمين عن الطواف بينهما، لكونهما في الجاهلية تُعبد عندهما الأصنام، فنفى تعالى الجناح لدفع هذا الوهم، لا لأنه غير لازم.

ودل تقييد نفي الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة؛ أنه لا يتطوع بالسعي مفردا إلا مع انضمامه لحج أو عمرة، بخلاف الطواف بالبيت، فإنه يشرع مع العمرة والحج، وهو عبادة مفردة.

فأما السعي، والوقوف بعرفة، ومزدلفة، ورمي الجمار؛ فإنها تتبع النسك، فلو فعلت غير تابعة للنسك؛ كانت بدعة؛ لأن البدعة نوعان: نوع يتعبد لله بعبادة لم يشرعها أصلًا، ونوع يتعبد له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة، فتفعل على غير تلك الصفة، وهذا منه.

وقوله: ﵟوَمَن تَطَوَّعَﵞ أي: فعل طاعة مخلصا بها لله تعالى ﵟخَيۡرٗاﵞ من حج، وعمرة، وطواف، وصلاة، وصوم وغير ذلك ﵟفَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚﵞ[3] فدل هذا، على أنه كلما ازداد العبد من طاعة اللَّه، ازداد خيره وكماله، ودرجته عند اللَّه، لزيادة إيمانه.

ودل تقييد التطوع بالخير، أن من تطوع بالبدع، التي لم يشرعها اللَّه ولا رسوله؛ أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له، بل قد يكون شرًّا له إن كان متعمدًا عالما بعدم مشروعية العمل.

ﵟفَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌﵞ الشاكر والشكور، من أسماء اللَّه تعالى، الذي يقبل من

---

(١) سورة الحج: الآية (٣٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣١٨) ومسلم (٢/ ٩٤٣/ ١٢٩٧) وأبو داود (٢/ ٤٩٥-٤٩٦/ ١٩٧٠) والنسائي (٥/ ٢٩٨/ ٣٠٦٢) وابن ماجه (٢/ ١٠٠٦/ ٣٠٢٣) من حديث جابر ﷺ بألفاظ متقاربة.

(٣) هذا جزء من آية ستأتي في الصيام: ﵟفَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَﵞ [البقرة: الآية (١٨٤)].

عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيمَ من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره، وامتثل طاعته؛ أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نورًا وإيمانًا، وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطا، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق.

ثم بعد ذلك، يقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملًا موفرًا، لم تنقصه هذه الأمور.

ومن شكره لعبده، أن من ترك شيئًا لله أعاضه اللَّه خيرًا منه، ومن تقرب منه شبرًا تقرب منه ذراعًا، ومن تقرب منه ذراعًا تقرب منه باعًا، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة، ومن عامله ربح عليه أضعافًا مضاعفة.

ومع أنه شاكر، فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل، بحسب نيته وإيمانه وتقواه، ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد، فلا يضيعها، بل يجدونها أوفر ما كانت، على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
أن السعي بين الصفا والمروة فرض من فرائض الحج

* عن عاصم قال: قلت لأنس بن مالك ﷺ: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ قال: نعم؛ لأنها كانت من شعائر الجاهلية، حتى أنزل اللَّه ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[2].

* عن عروة: سألت عائشة ﷺ فقلت لها: أرأيت قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فواللَّه ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة؟! قالت: بئس ما قلت يا بن أختي؛ إن هذه لو كانت كما أولتها عليه كانت لا جناح عليه أن لا يتطوف بهما، ولكنها أنزلت في الأنصار، كانوا قبل أن يسلموا يُهلّون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل، فكان من أهل يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا

---

(١) تيسير الكريم (١/ ١٨٣-١٨٥).

(٢) البخاري (٣/ ٦٤٠/ ١٦٤٨) ومسلم (٢/ ٩٣٠/ ١٢٧٨) والترمذي (٥/ ١٩٣/ ٢٩٦٦).

رسول اللَّه ﷺ عن ذلك؛ قالوا: يا رسول الله! إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الآية. قالت عائشة رضي الله عنها: وقد سن رسول اللَّه ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما، ثم أخبرت أبا بكر بن عبد الرحمن؛ فقال: إن هذا لعلمٌ ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يذكرون أن الناس -إلا من ذكرت عائشة ممن كان يهلّ بمناة- كانوا يطوفون كلهم بالصفا والمروة، فلما ذكر اللَّه تعالى الطواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن؛ قالوا: يا رسول الله! كنا نطوف بالصفا والمروة وإن اللَّه أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا؛ فهل علينا من حرج أن نطوف بالصفا والمروة؟ فأنزل اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الآية. قال أبو بكر: فأسمع هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما: في الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا في الجاهلية بالصفا والمروة، والذين يطوفون ثم تحرجوا أن يطوفوا بهما في الإسلام؛ من أجل أن اللَّه تعالى أمر بالطواف بالبيت ولم يذكر الصفا حتى ذكر ذلك بعد ما ذكر الطواف بالبيت[1].

* **غريب الحديث:**

يهلون: يحجون.

مناة: بفتح الميم والنون الخفيفة: صنم كان في الجاهلية، وقيل: كانت صخرة نصبها عمرو بن لحي لهذيل وكانوا يعبدونها.

* **فوائد الحديثين:**

قال القرطبي: «إنما فهم هذا عروة من ظاهر قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ ووجه فهمه أن رفع الحرج عن الفعل إنما يشعر بإباحته لا بوجوبه، وهو مقتضى ظاهرها، إذا لم يعتبر سبب نزولها، فإذا وقف على سبب نزولها تحقق الواقف عليه: أنها إنما أتت رافعة لحرج من تحرج من الطواف بينهما على ما يأتي، وقد اختلف فيه قول عائشة واختلف الرواة عنها في ذلك، ففي بعض الروايات

---

(١) أحمد (٦/ ١٤٤) والبخاري (٣/ ٦٣٤-٦٣٥/ ١٦٤٣) ومسلم (٢/ ٩٢٨/ ١٢٧٧) والترمذي (٥/ ١٩٢-١٩٣/ ٢٩٦٥) والنسائي (٥/ ٢٦٣-٢٦٤/ ٢٩٦٨) وابن ماجه (٢/ ٩٩٤-٩٩٥/ ٢٩٨٦).

عنها : أن أهل المدينة كان من أهل منهم لمناة؛ لم يطف بينهما ، وكأن هؤلاء بقوا بعد الإسلام على ذلك الامتناع حتى أنزلت الآية . وفي بعضها : أن من أهلّ لإساف ونائلة بالإسلام خافوا ألا يكون مشروعًا لمن لم يهلّ لهما . فرفع اللَّه تلك التوهمات كلها بقوله : ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ وقد ذكر أبو بكر بن عبد الرحمن عند سماعه قول عائشة ﵂ ما يدل على سببين آخرين ، نصّ عليهما في معنى الحديث ، ويرتفع الإشكال ويصح الجمع بين هذه الروايات المختلفة بالطريق الذي سلكه أبو بكر بن عبد الرحمن ، حيث قال : فأراها نزلت في هؤلاء وهؤلاء . فنقول : نزلت الآية جوابًا لجميع هؤلاء الذين ذكرت أسبابهم ورافعة للحرج عنهم واللَّه تعالى أعلم»[1] .

قال **ابن عبد البر** : «في هذا الحديث من قول عائشة ؛ دليل على وجوب السعي بين الصفا والمروة في الحج ، وقد بينت عائشة معنى نزول الآية ومخرجها ، وجاءت بالعلم الصحيح في ذلك ، وعلى قولها على وجوب السعي بين الصفا والمروة ؛ مالك ، والشافعي ، وأصحابهما ، وبه قال أحمد ، وإسحاق ، وأبو ثور ، وكل هؤلاء يقول : إن السعي بين الصفا والمروة واجب فرضًا ، وعلى من نسيه أو نسي شوطًا واحدًا منه أن ينصرف إليه حيث ذكره في بلده أو غير بلده حتى يأتي به كاملًا ، كمن نسي الطواف الواجب طواف الإفاضة سواء ، أو نسي شيئًا منه»[2] .

قال **الحافظ** : «قوله : (فواللَّه ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة) الخ . الجواب : محصله أن عروة احتج للإباحة باقتصار الآية على رفع الجناح ، فلو كان واجبًا لما اكتفى بذلك ؛ لأن رفع الإثم علامة المباح ، ويزداد المستحب بإثبات الأجر ، ويزداد الوجوب عليهما بعقاب التارك ، ومحل جواب عائشة أن الآية ساكتة عن الوجوب وعدمه ، مصرحة برفع الإثم عن الفاعل ، وأما المباح فيحتاج إلى رفع الإثم عن التارك ، والحكمة بذلك مطابقة جواب السائلين ؛ لأنهم توهموا من كونهم كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية ؛ أنه لا يستمر في الإسلام ، فخرج الجواب مطابقا لسؤالهم ، وأما الوجوب فيستفاد من دليل آخر ، ولا مانع أن يكون الفعل واجبًا ، ويعتقد إنسان امتناع إيقاعه على صفة مخصوصة فيقال له : لا جناح عليك في ذلك ، ولا يستلزم ذلك نفي الوجوب ، ولا يلزم من نفي الإثم عن الفاعل نفي الإثم عن

---

(١) المفهم (٣/ ٣٨٣-٣٨٤) .
(٢) فتح البر (٨/ ٥٣٠) .

التارك، فلو كان المراد مطلق الإباحة لنُفي الإثم عن التارك»[١].

* عن جابر رضي الله عنه قال: لما دنا رسول اللَّه ﷺ من الصفا في حجته قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾، «أبدأ بما بدأ اللَّه به»، فبدأ بالصفا فرقي عليه[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «وفيه دليل على أنه قد اعتبر تقديم المُبْدَأ بذكره في التلاوة فقدمه، وأن الظاهر في حق الكلام أن المبدوء بذكره مقدم في الحكم على ما بعده»[٣].

قال أبو عمر: «وقد يحتمل أن يحتج بقوله ﷺ: «**نبدأ بما بدأ اللَّه به**» على أن الواو لا توجب الترتيب؛ لأنها لو كانت توجب الترتيب لم يحتج رسول اللَّه ﷺ أن يقول لهم: «**نبدأ بما بدأ اللَّه به**»؛ لأنهم أهل اللسان الذي نزل القرآن به. فلو كان مفهوما في فحوى الخطاب أن الواو توجب القبل والبعد ما احتاج رسول اللَّه ﷺ -واللَّه أعلم- أن يبين لهم ذلك. وإنما بين لهم ذلك لأن المراد كان من السعي بين الصفا والمروة؛ أن يبدأ فيه بالصفا، ولم يكن ذلك بينا في الخطاب، فبينه رسول اللَّه ﷺ»[٤].

قال النووي: «في هذا اللفظ أنواع من المناسك، منها: أن السعي يشترط فيه أن يبدأ من الصفا، وبه قال الشافعي ومالك والجمهور، وقد ثبت في رواية النسائي في هذا الحديث بإسناد صحيح: أن النبي ﷺ قال: «**ابدؤوا بما بدأ اللَّه به**»[٥] هكذا بصيغة الجمع، ومنها: أنه ينبغي أن يرقى على الصفا والمروة»[٦].

وقال القرطبي: «ولذلك يمنع الابتداء بالمروة، فإن فعل ألغي ذلك الشوط عند الجمهور. وقال عطاء: إن جهل ذلك أجزأه»[٧].

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول اللَّه ﷺ إذا طاف الطواف الأول خب ثلاثًا

---

(١) الفتح (٣/ ٦٣٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٢٠) ومسلم (٢/ ٨٨٦/ ١٢١٨) وأبو داود (٢/ ٤٥٥/ ١٩٠٥) والترمذي (٣/ ٢١٦/ ٨٦٢) والنسائي (٥/ ٢٦٤/ ٢٩٦٩) وابن ماجه (٢/ ١٠٢٢/ ٣٠٧٤).

(٣) معالم السنن (٢/ ١٧١).

(٤) فتح البر (٣/ ٢٥٧).

(٥) هذه الرواية في سنن النسائي (٥/ ٢٦١/ ٢٩٦٢) وحكم الشيخ الألباني رحمه الله بشذوذها في الإرواء (١١٢٠).

(٦) شرح النووي (٨/ ١٤٤).

(٧) المفهم ٣/ ٣٢٧).

ومشى أربعًا، وكان يسعى بطن المسيل إذا طاف بين الصفا والمروة. فقلت لنافع: أكان عبد اللَّه يمشي إذا بلغ الركن اليماني؟ قال: لا، إلا أن يزاحَم على الركن، فإنه كان لا يدعه حتى يستلمه[١].

قال ابن عمر ﭬ: السعي من دار بني عباد إلى زقاق بني أبي حسين[٢].

* عن أم ولد شيبة أنها أبصرت النبي ﷺ وهو يسعى بين الصفا والمروة؛ يقول: «**لا يقطع الأبطح إلا شدًّا**»[٣].

⋆ غريب الحديث:

الطواف الأول: طواف القدوم.

خبّ: يَخُبّ بفتح أوله وضم المعجمة؛ أي: يسرع في مشيه، والخبب بفتحتين: العدْو السريع، يقال: خبّت الدابة إذا أسرعت وراوحت بين قدميها.

المسيل: المكان الذي يجتمع فيه السيل.

⋆ فوائد الأحاديث:

قوله: (يسعى بطن المسيل)

قال النووي: «هذا مجمع على استحبابه، وهو أنه إذا سعى بين الصفا والمروة استحب أن يكون سعيه شديدا في بطن المسيل، وهو قدر معروف، وهو من قبل وصوله إلى الميل الأخضر المعلق بفناء المسجد إلى أن يحاذي الميلين الأخضرين المتقابلين اللذين بفناء المسجد ودار العباس، واللَّه أعلم»[٤].

قال ابن القيم: «**ثم نزل إلى المروة يمشي، فلما انصبت قدماه في بطن الوادي، سعى حتى إذا جاوز الوادي وأصعد، مشى**»[٥] هذا الذي صح عنه، وذلك اليوم قبل

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٩٨) والبخاري (٣/ ٦٤٠/ ١٦٤٤) ومسلم (٢/ ٩٢٠/ ١٢٦١) وأبو داود (٢/ ٤٤٨/ ١٨٩١) والنسائي (٥/ ٢٥٢/ ٢٩٤٠) وابن ماجه (٢/ ٩٨٣/ ٢٩٥٠).

(٢) علقه البخاري (٣/ ٦٣٩) بصيغة الجزم.

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٤٠٤) والنسائي (٥/ ٢٦٨/ ٢٩٨٠) وابن ماجه (٢/ ٩٩٥/ ٢٩٨٧) وهو في الصحيحة (٢٤٣٧).

(٤) شرح مسلم (٩/ ٨).

(٥) جزء من حديث جابر ﭬ الطويل عند مسلم (٢/ ٨٨٨/ ١٢١٨).

الميلين الأخضرين في أول المسعى وآخره. والظاهر: أن الوادي لم يتغير عن وضعه»[١].

* عن عمرو بن دينار قال: «سألنا ابن عمر رضي الله عنهما عن رجل طاف بالبيت في عمرة ولم يطف بين الصفا والمروة، أيأتي امرأته؟ فقال: قدم النبي ﷺ فطاف بالبيت سبعا، وصلى خلف المقام ركعتين، فطاف بين الصفا والمروة سبعا ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٢]»[٣].

وسألنا جابر بن عبد اللّه رضي الله عنهما فقال: لا يقربنها حتى يطوف بين الصفا والمروة[٤].

⋆ فوائد الحديثين:

قال النووي: «معناه لا يحل له ذلك؛ لأن النبي ﷺ لم يتحلل من عمرته حتى طاف وسعى، فتجب متابعته والاقتداء به، وهذا الحكم الذي قاله ابن عمر؛ هو مذهب العلماء كافة، وهو أن المعتمر لا يتحلل إلا بالطواف والسعي والحلق، إلا ما حكاه القاضي عياض عن ابن عباس وإسحاق بن راهويه: أنه يتحلل بعد الطواف وإن لم يسْع، وهذا ضعيف مخالف للسنة»[٥].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه رآهم يطوفون بين الصفا والمروة فقال: هذا مما أورثتكم أم إسماعيل[٦].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدمت مكة وأنا حائض، ولم أطف بالبيت ولا بين الصفا والمروة، قالت: فشكوت ذلك إلى رسول اللّه ﷺ، فقال: افعلي كما يفعل الحاج، غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تطهري[٧].

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٢٢٨).
(٢) الأحزاب: الآية (٢١).
(٣) أحمد (٢/ ١٥) البخاري (٣/ ٦٤٠/ ١٦٤٥) ومسلم (٢/ ٩٠٦/ ١٢٣٤) والنسائي (٥/ ٢٤٧-٢٤٨/ ٢٩٣٠) وابن ماجه (٢/ ٩٨٦/ ٢٩٥٩) مختصراً.
(٤) البخاري (٣/ ٦٤٠/ ١٦٤٦).
(٥) شرح مسلم (٨/ ١٧٨).
(٦) أخرجه: الحاكم (٢/ ٢٧١) وصححه وأقره الذهبي. قال الحافظ رواه الفاكهي بإسناد حسن (٣/ ٦٤١).
(٧) البخاري (٣/ ٦٤٢/ ١٦٥٠) ومسلم (٢/ ٨٧٠/ ١٢١١) وأبو داود (٢/ ٣٨١-٣٨٢/ ١٧٨١) والنسائي (٥/ ١٨٠-١٨١/ ٢٧٦٣) وابن ماجه (٢/ ٩٩٨/ ٣٠٠٠).

★ **فوائد الحديثين:**

قوله: «**غير أن لا تطوفي بالبيت**» وفي رواية يحيى عن مالك في الموطإ بزيادة «**ولا بين الصفا والمروة حتى تطهري**»

قال أبو عمر: «رواية يحيى هذه -إن صحت- فتشبه مذهب ابن عمر: ذكر مالك في الموطأ عن نافع، عن عبد اللَّه بن عمر، أنه كان يقول في المرأة الحائض التي تهل بحج أو عمرة: إنها تهل بحجها أو عمرتها إذا أرادت، ولكن لا تطوف بالبيت، ولا بين الصفا والمروة، ولا تقرب المسجد حتى تطهر. وهي لا تحل حتى تطوف بالبيت وبين الصفا والمروة. فقول ابن عمر هذا على نحو رواية يحيى، إلا أن ذلك غير محفوظ في حديث عبد الرحمن بن القاسم هذا عن أبيه، عن عائشة، عن النبي ﷺ، وفقهاءُ الأمصار بالحجاز والعراق والشام لا يرون بأسًا بالسعي بين الصفا والمروة على غير طهارة، وما جاز عندهم لغير الطاهر أن يفعله؛ جاز للحائض أن تفعله، وهذا مذهب مالك، والشافعي، وأبي حنيفة وأصحابهم، وهو قول عطاء، وبه قال أحمد، وأبو ثور، وغيرهم، وحجتهم قول رسول اللَّه ﷺ لعائشة في هذا الحديث: «**افعلي ما يفعل الحاج، غير أن لا تطوفي بالبيت**...» وأجمعوا أنه لا يجوز لأحد الطواف بالبيت إلا على طهارة»[1].

* * *

---

(١) فتح البر (٨/ ٤٨٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾

★ غريب الآية:

تابوا: رجعوا، والتوبة: الرجوع من المعصية إلى الطاعة، والندم على فعلها مع العزم على عدم المعاودة، وتدارك ما يمكن تداركه.

أصلحوا: الإصلاح: ضد الإفساد: والمراد: بدلوا عملهم الفاسد بآخر صالح مخلص من قبيح ما يشوبه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ لم يبين هنا ما اللاعنون، ولكنه أشار إلى ذلك في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1]»[2].

وقال ابن القيم: «فلعنة اللَّه لهم تتضمن ذمه وإبعاده وبغضه لهم، ولعنة العبد تتضمن سؤال اللَّه أن يفعل ذلك بمن هو أهل اللعنة»[3].

وقال الشوكاني: «قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ إلى آخر الآية، فيه الإخبار بأن الذي يكتم ذلك ملعون -واختلفوا من المراد بذلك؟ فقيل: أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد ﷺ؛ وقيل كل من كتم الحق وترك بيان ما أوجب اللَّه بيانه، وهو الراجح لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما تقرر في الأصول، فعلى فرض أن سبب النزول ما وقع من اليهود والنصارى من الكتم فلا ينافي ذلك تناول هذه الآية كل من كتم الحق. وفي هذه الآية من الوعيد الشديد

---

(١) البقرة: الآية (١٦١).

(٢) أضواء البيان (١/ ٨٨).

(٣) جلاء الأفهام (ص٢٦٣).

ما لا يقادر قدره، فإن من لعنه اللَّه ولعنه كل من يتأتى منه اللعن من عباده قد بلغ من الشقاوة والخسران إلى الغاية التي لا تلحق ولا يدرك كنهها»[١].

وقال ابن كثير: «هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب، من بعد ما بينه اللَّه تعالى لعباده فى كتبه التى أنزلها على رسله. قال أبو العالية: نزلت فى أهل الكتاب كتموا صفة محمد ﷺ. ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء، والطير فى الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء فيلعنهم اللَّه ويلعنهم اللاعنون. . . وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾؛ يعني: تلعنهم ملائكة اللَّه والمؤمنون. ثم استثنى اللَّه تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ أي: رجعوا عما كانوا فيه، وأصلحوا أعمالهم وأحوالهم، وبيّنوا للناس ما كانوا كتموه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر أو بدعة إذا تاب إلى الله؛ تاب اللَّه عليه. وقد ورد أن الأمم السالفة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم ولكن هذا من شريعة نبي التوبة، ونبي الرحمة -صلوات اللَّه وسلامه عليه-»[٢].

قال القاسمي: «وقد دلت الآية على أن هذا الكتمان من الكبائر؛ لأنه تعالى أوجب فيه اللعن؛ لأن ما يتصل بالدين، ويحتاج إليه المكلف؛ لا يجوز أن يكتم، ومن كتمه فقد عظمت خطيئته، وبلغ للعنه من الشقاوة والخسران الغاية التي لا يدرك كنهها. . وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن كتمان العلم»[٣].

وقال شيخ الإسلام: «إن اللَّه تعالى يقول في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾[٤] الآية. ويقول في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»[٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾[٦] الآية. فمن أمر بكتم

---

(١) فتح القدير (١/ ٢٣٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٢-٣٥٣).
(٣) محاسن التأويل (٣/ ١٢).
(٤) البقرة (١٥٩).
(٥) البقرة (١٧٤).
(٦) آل عمران (١٨٧).

ما وصف اللَّه به نفسه، ووصفه به رسوله؛ فقد كتم ما أنزل اللَّه من البينات والهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب، وهذا مما ذم اللَّه به علماء اليهود، وهو من صفات الزائغين من المنتسبين إلى العلم من هذه الأمة، وقال النبي ﷺ: «**من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه اللَّه يوم القيامة بلجام من نار**»[١] وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾[٢].. إن من أمر بكتمان ما بعث اللَّه به رسوله من القرآن والحديث؛ كالآيات والأحاديث التي وصف اللَّه بها نفسه، ووصفه بها رسوله، وأمر مع ذلك بوصف اللَّه بصفات أحدثها المبتدعون تحتمل الحق والباطل، أو تجمع حقًّا وباطلًا، وزعم أن ذلك هو الحق الذي يجب اعتقاده، وهو أصل الدين وهو الإيمان الذي أمر اللَّه به رسوله؛ فهذا مضاهاة لما ذم اللَّه به من حال أهل الكتاب حيث قال: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾[٣] وقال: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[٤] فإن هؤلاء كتبوا هذه المقالات التي ابتدعوها، وقالوا للعامة: هذا أمر اللَّه الذي أمركم به، وهذا كذب وافتراء على اللَّه، فإذا جمعوا إلى ذلك كتمان ما أنزل اللَّه من الكتاب والحكمة؛ فقد ضاهوا أهل الكتاب في لبس الحق بالباطل وكتمان الحق»[٥].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويسع الإنسان السكوت عن النقيضين في أقوال كثيرة، إذا لم يقم دليل شرعي بوجوب قول أحدهما، أما إذا كان أحد القولين هو الذي قاله الرسول دون الآخر؛ فهنا يكون السكوت عن ذلك وكتمانه من باب كتمان ما أنزل اللَّه من البينات والهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب، ومن باب كتمان شهادة العبد من اللَّه، وفي كتمان العلم النبوي من الذم واللعنة لكاتمه ما يضيق عنه هذا الموضع»[٦].

قال محمد رشيد رضا: «ثم إن العبرة في الآية هي أن حكمها عام، وإن كان سببها خاصا، فكل من يكتم آيات اللَّه وهدايته عن الناس؛ فهو مستحق لهذه اللعنة. ولما كان هذا الوعيد وأشباهه حجة على الذين لبسوا لباس الدين وانتحلوا الرئاسة لأنفسهم بعلمه حاولوا التفصي منه، فقال بعضهم: إن الكتمان لا يتحقق إلا إذا

---

(١) يأتي تخريجه ضمن أحاديث الباب.
(٢) البقرة: الآية (١٤٠).
(٣) البقرة: الآية (٥٩).
(٤) البقرة: الآيات (٧٥-٧٩).
(٥) الفتاوى الكبرى (٥/ ١٢-١٣).
(٦) المصدر السابق (٥/ ٣٠).

سئل العالم عن حكم اللّٰه تعالى فكتمه، وأخذوا من هذا التأويل قاعدة: هي أن العلماء لا يجب عليهم نشر ما أنزل اللّٰه تعالى ودعوة الناس إليه وبيانه لهم، وإنما يجب على العالم أن يجيب إذا سئل عما يعلمه، وزاد بعضهم: إذا لم يكن هناك عالم غيره، وإلا كان له أن يحيل على غيره. وهذه القاعدة مسلمة عند أكثر المنتسبين للعلم اليوم وقبل اليوم بقرون، وقد ردّها أهل العلم الصحيح، فقالوا: إن القرآن الكريم لم يكتف بالوعيد على الكتمان، بل أمر ببيانه للناس، وبالدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأوعد من يترك هذه الفريضة، وذكر لهم العبر فيما حكاه عن الذين قصروا فيها من قبل كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾[1] الخ وقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ -إلى قوله في المتفرقين عن الحق- ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2] وقوله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله في عصيانهم الذي هو سبب لعنتهم: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[3] فأخبر تعالى أنه لعن الأمة كلها لتركهم التناهي عن المنكر. نعم، إن هذا فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ولكن لا يكفي في كل قطر واحد، كما قال بعض الفقهاء، بل لا بد أن تقوم به أمة من الناس، كما قال اللّٰه تعالى؛ لتكون لهم قوة ولنهيهم وأمرهم تأثير. وذهب بعض المؤولين مذهبا آخر فقال: إن هذا الوعيد مخصوص بالكافرين، فترك المؤمن فريضة من الفرائض؛ كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يستحق به وعيد الكافرين، فيلحقه بالكفار! وهذا كلام قد ألفته الأسماع، وأخذ بالتسليم، واستعمل في الإفحام والإقناع، فإن الذي يسمعه على عِلَّاته يرى نفسه ملزَما برمي تاركي الأمر بالمعروف والدعوة إلى الخير والنهي عن المنكر بالكفر. وذلك مخالف للقواعد التي وضعوها للعقائد، فلا يستطيع أن يقول ذلك، ولكنه إذا عرض على اللّٰه في الآخرة، وعلى كتابه في الدنيا، يظهر أنه لا قيمة له، وإذا بحثت فيه، يظهر لك أن الذي يرى حرمات اللّٰه تنتهك أمام عينيه، ودين اللّٰه يداس جهارًا بين يديه، ويرى البدع تمحو السنن، والضلال يغشى الهدى،

---

(١) آل عمران (١٨٧).

(٢) الآيتان (١٠٤و١٠٥) من سورة آل عمران.

(٣) الآيتان (٧٨و٧٩) من سورة المائدة.

ولا ينبض له عرق، ولا ينفعل له وجدان، ولا يندفع لنصرته بيد ولا بلسان، هو هذا الذي إذا قيل له: إن فلانًا يريد أن يصادرك في شيء من رزقك (كالجراية مثلًا) أو يحاول أن يتقدم عليك عند الأمراء والحكام تجيش في صدره المراجل، ويضطرب باله، ويتألم قلبه، وربما تجافى جنبه عن مضجعه، وهجر الرقاد عينيه، ثم إن يجدّ ويجتهد ويعمل الفكر في استنباط الحيل وإحكام التدبير لمدافعة ذلك الخصم أو الإيقاع به، فهل يكون لدين اللَّه تعالى في قلب مثل هذا قيمته، وهل يصدق أن الإيمان قد تمكن من قلبه، والبرهان عليه قد حكم عقله، والإذعان إليه قد ثلج صدره، يسهل على من نظر في بعض كتب العقائد التي بنيت على أساس الجدل أن يجادل نفسه، ويغشها بما يسلّيها به من الأماني التي يسميها إيمانًا، ولكنه لو حاسبها فناقشها الحساب ورجع إلى عقله ووجدانه، لعلم أنه قد اتخذ إلهه هواه، وأنه يعبد شهوته من دون اللَّه، وأن صفات المؤمنين التي سردها الكتاب سردًا، وأحصاها عدًّا -وأظهرها بذل المال والنفس في سبيل اللَّه، ونشر الدعوة، وتأييد الحق- كلها بريئة منه، وأن صفات المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم كلها راسخة فيه، فليحاسب امرؤ نفسه قبل أن يحاسب، وليتب إلى اللَّه قبل حلول الأجل، لعله يتوب عليه، وهو التواب الرحيم»[1].

قلت: وهذا الذي توارد ذكره في أقوال أهل العلم، في النهي عن كتمان العلم كما صوره الشيخ محمد رشيد رضا بالواقع العملي؛ هو أمر واقع، وبتقدم الزمان ينتشر أكثر ويعظم خطره، فقد أسست الجامعات وصارت مراحل الدراسة يقضي فيها الطلبة سنين كثيرة، وقد يمر الطالب على كل العلوم الشرعية من قرآن وسنة وأصول فقه وعقيدة، ويتخرج من هذه الجامعات الأعداد الكثيرة، ومع ذلك تجيء إلى القطر الكبير الذي يبلغ أعداده الملايين من المسلمين وقد لا تجد من يفتيك في مسألة بالدليل، وإن وجدت فمرتزقًا يتعامل مع المستفتي حسب هواه وما يرضيه في نظره، ويرون أن الخروج عن العادات وعمل البلد من أكبر الذنوب، وحتى إنك لتجد هذا العمل المستدل به لم يسبق إليه علماء، ولا طبقات علمية يمكن الاتكاء عليها والاستناد إليها، ولو قيل: سموا رجالكم؛ لسموا شيوخ الطرق الصوفية

---

(١) تفسير المنار (٢/ ٥٢-٥٤).

الذين لا يعرفون لعلوم الحديث والقرآن سنامًا ولا خطامًا، وهكذا يكثر الجهل ويقل العلم، وأصبح المتخرجون من الجامعات -إلا من رحم الله- لا هم لهم إلا مناصب يحصلون عليها، رجاء مرتب شهري يدبرون به أمور معيشتهم، والأمة ضائعة لا تجد لها موجهًا ولا داعيًا ولا معلمًا إلا من شاء اللَّه ممن وفقهم واستناروا بنور الكتاب والمنهاج الصحيح وحسن المعتقد، فهؤلاء قلة قليلة، فإلى اللَّه المشتكى واللَّه المستعان، وحسبي اللَّه ونعم الوكيل على واقع هذا حاله، فأين الغيورون على هذا الدين والذي يحملون رسالة العلم بإخلاص وصدق، تستنير بهم الأمة وتهتدي بهم؟! فاللهم هيئهم وأكثر عددهم.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة من أن كتمان الحق منهج يهودي، فمن شاء استقلّ، ومن شاء استكثر

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: يقولون: إن أبا هريرة يكثر الحديث، واللهُ المَوْعِد، ويقولون: ما للمهاجرين والأنصار لا يحدثون مثل أحاديثه؟ وإن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخوتي من الأنصار كان يشغلهم عمل أموالهم، وكنت امرأً مسكينًا ألزم رسول اللَّه ﷺ على ملء بطني، فأحضر حين يغيبون، وأعي حين ينسون، وقال النبي ﷺ يوما: «**لن يبسط أحد منكم ثوبه -حتى أقضي مقالتي هذه- ثم يجمعه إلى صدره فينسى من مقالتي شيئًا أبدًا**» فبسطت نمرة ليس علي ثوب غيرها، حتى قضى النبي ﷺ مقالته، ثم جمعتها إلى صدري، فوالذي بعثه بالحق ما نسيت من مقالته تلك إلى يومي هذا، واللَّه لولا آيتان في كتاب اللَّه ما حدثتكم شيئًا أبدًا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾ إلى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

* **غريب الحديث:**

واللَّه الموعد: بفتح الميم، وفيه حذف تقديره: وعند اللَّه الموعد. . ومراده:

---

(١) أحمد (٢/ ٢٤٠) والبخاري (٥/ ٣٥/ ٢٣٥٠) ومسلم (٤/ ١٩٣٩/ ٢٤٩٢) والترمذي (٥/ ٦٤٢/ ٣٨٣٤-٣٨٣٥) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٣٩-٤٤٠/ ٥٨٦٨) وابن ماجه (١/ ٩٧/ ٢٦٢).

أن اللّه تعالى يحاسبني إن تعمدت كذبا ويحاسب من ظن بي ظن السوء.

الصفق بالأسواق: بإسكان الفاء، هو ضرب اليد على اليد، وجرت به عادتهم عند عقد البيع، والمقصود: التبايع.

★ فوائد الحديث:

قوله: (لولا آيتان)

قال الحافظ: «معناه: لولا أن اللّه ذم الكاتمين للعلم ما حدّث أصلًا، لكن لما كان الكتمان حراما وجب الإظهار، فلهذا حصلت الكثرة لكثرة ما عنده»[١].

قال القرطبي: «وهؤلاء أنكروا على أبي هريرة أن يكون أكثر الصحابة حديثًا، وهذا إنكار استبعاد وتعجب، لا إنكار تهمة، ولا تكذيب؛ لما يعلم من حفظه وعلمه وفضله، ولما يعلم أيضًا من فضلهم ومعرفتهم بحاله، ولذلك بين لهم الموجب لكثرة حديثه وبين أنه شيئان:

أحدهما: أنه لازم النبي ﷺ ما لم يلازموا، فحضر ما لم يحضروا.

والثاني: بركة امتثال ما أرشد إليه رسول اللّه ﷺ من بسط ثوبه، وضمه إلى صدره، فكان ذلك سبب حفظه، وعدم نسيانه، فقد حصلت لأبي هريرة ولأمه من بركات رسول اللّه ﷺ، وخصائص دعواته، ما لم يحصل لغيره، ثم إن أبا هريرة رضي الله عنه لما حفظ علمًا كثيرًا عن رسول اللّه ﷺ، وتحقق أنه وجب عليه أن يبلغه غيره، ووجد من يقبل عنه، ومن له رغبة في ذلك، تفرغ لذلك مخافة الفوت، ومعاجلة القواطع أو الموت، ثم إنه لما آلمه الإنكار همّ بترك ذلك والفرار. لكنه خاف من عقوبة الكتمان المنبه عليها في القرآن، ولذلك قال: لولا آيتان في كتاب اللّه ما حدثت حديثًا»[٢].

قال شيخ الإسلام: «و أبو هريرة كان من أحفظ الأمة، وقد دعا له النبي ﷺ بالحفظ، قال: (فلم أنس شيئًا سمعته بعد)... قال: إن أحدًا من الصحابة لم يطعن في شيء رواه أبو هريرة، بحيث قال: إنه أخطأ في هذا الحديث؛ لا عمر ولا غيره، بل كان لأبي هريرة مجلس إلى حجرة عائشة، فيحدث ويقول: يا صاحبة الحجرة!

---

(١) الفتح (١/ ٢٨٥). (٢) المفهم (٦/ ٤٣٧-٤٣٨).

هل تنكرين مما أقول شيئًا؟ فلما قضت عائشة صلاتها لم تنكر مما رواه، لكن قالت: إن رسول اللَّه ﷺ لم يكن يسرد الحديث سردكم، ولكن كان يحدث حديثا لو عدّه العادّ لحفظه. فأنكرت صفة الأداء لا ما أداه. وكذلك ابن عمر قيل له: هل تنكر مما يحدث أبو هريرة شيئًا؟ فقال: لا، ولكن أَخبَر وجبُنّا. فقال أبو هريرة: ما ذنبي إن كنت حفظت ونسوا. وكانوا يستعظمون كثرة روايته حتى يقول بعضهم: أكثر أبو هريرة! حتى قال أبو هريرة: الناس يقولون: أكثر أبوهريرة، واللَّه الموعِد؛ أما إخوانى من المهاجرين فكان يشغلهم الصفق بالأسواق، وأما إخوانى من الأنصار فكان يشغلهم عمل أموالهم، وكنت امرءًا مسكينا ألزم رسول اللَّه ﷺ فكنت أشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا، ولقد حدثنا رسول اللَّه حديثا ثم قال: **أيكم يبسط ثوبه؟** فبسطت ثوبي، فدعا لي، فلم أنسَ بعد شيئًا سمعته منه ﷺ. . . فقد بين أن سبب حفظه ملازمة النبي ﷺ وقطع العلائق، ودعاؤه له، وكان عمر بن الخطاب يستدعي الحديث من أبي هريرة ويسأله عنه ولم ينهه عن رواية ما يحتاج إليه من العلم الذي سمعه من النبي ولا توعّده على ذلك، ولكن كان عمر يحب التثبت في الرواية، حتى لا يجترئ الناس فيزاد في الحديث، ولهذا طلب من أبي موسى الأشعري من يوافقه على حديث الاستئذان، مع أن أبا موسى من أكابر الصحابة وثقاتهم باتفاق الأئمة»[(١)].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من سئل عن علم فكتمه ألجمه اللَّه بلجام من نار يوم القيامة**»[(٢)].

* عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من كتم علمًا ألجمه اللَّه يوم القيامة بلجام من نار**»[(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٥٣٤-٥٣٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٣) وأبو داود (٤/ ٦٧-٦٨/ ٣٦٥٨) والترمذي (٥/ ٢٩/ ٢٦٤٩) وقال: حديث حسن، وابن ماجه (١/ ٩٦/ ٢٦١). وصححه ابن حبان (الاحسان ١/ ٢٩٧/ ٩٥) والحاكم (١/ ١٠١) ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه: الطبراني في الكبير (١٣/ ٢٠/ ٣٣) [ملحق] وفي الأوسط (٦/ ١٥/ ٥٠٢٣). وصححه ابن حبان (الاحسان ١/ ٢٩٨/ ٩٦) والحاكم (١/ ١٠٢) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ١٦٣) وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله موثقون.

★ **فوائد الحديثين:**

قال الخطابي: «والمعنى: أن الملجم لسانه عن قول الحق، والإخبار عن العلم، والإظهار له؛ يعاقب في الآخرة بلجام من نار.

وخرج هذا على معنى مشاكلة العقوبة الذنبَ؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾[1].

قال: وهذا في العلم الذي يلزمه تعليمه إياه، ويتعين عليه فرضه، كمن رأى كافرا يريد الإسلام يقول: علموني ما الإسلام وما الدين. وكمن يرى رجلًا حديث العهد بالإسلام لا يحسن الصلاة وقد حضر وقتها يقول: علموني كيف أصلي. وكمن جاء مستفتيًا في حلال أو حرام يقول: أفتوني وأرشدوني، فإنه يلزم في مثل هذه الأمور أن لا يمنعوا الجواب عما سألوا عنه من العلم، فمن فعل ذلك كان آثمًا مستحقًّا للوعيد والعقوبة، وليس كذلك الأمر في نوافل العلم التي لا ضرورة بالناس إلى معرفتها»[2].

قال شيخ الإسلام: «وهذا (يعني: كتمان العلم) قد يبتلى به طوائف من المنتسبين للعلم، فإنهم تارة يكتمون العلم بخلًا به وكراهة أن ينال غيرهم من الفضل ما نالوه، وتارة اعتياضا عنه برياسة أو مال، فيخاف من إظهاره انتقاص رياسته أو نقص ماله، وتارة يكون قد خالف غيره في مسألة، أو اعتزى إلى طائفة قد خولفت في مسألة، فيكتم من العلم ما فيه حجة لمخالفه؛ وإن لم يتيقن أن مخالفه مبطل، ولهذا قال عبد الرحمن بن مهدي وغيره: أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم»[3].

وقال: «فالمرصَدون للعلم عليهم للأمة حفظ علم الدين وتبليغه، فإذا لم يبلغوهم علم الدين أو ضيّعوا حفظه؛ كان ذلك من أعظم الظلم للمسلمين، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾، فإن ضرر كتمانهم تعدى إلى البهائم وغيرها، فلعنهم اللاعنون حتى البهائم، كما أن معلم الخير يصلي عليه الله

---

(١) البقرة: الآية (٢٧٥).
(٢) معالم السنن (٤/ ١٧١).
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٧٢-٧٣).

وملائكته ويستغفر له كل شيء حتى الحيتان في جوف البحر، والطير في جو السماء»[١].

* قال أبو ذر: لو وضعتم الصمصامة على هذه -وأشار إلى قفاه- ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من النبي ﷺ قبل أن تجيزوا علي لأنفذتها[٢].

★ **غريب الحديث:**

الصمصامة: بمهملتين، هو السيف الصارم الذي لا ينثني، وقيل: الذي له حدٌّ واحد.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن حجر: «وفيه الحث على تعليم العلم، واحتمال المشقة فيه، والصبر على الأذى؛ طلبًا للثواب»[٣].

وقال ابن بطال: «وقول أبي ذر: (لو وضعتم الصمصامة على هذه، ثم ظننت أني أُنفِذ كلمة سمعتها من النبي ﷺ) فإنه يعني: ما سمع من رسول اللَّه من الفرائض، والسنن، وما ينتفع الناس به في دينهم مما أخذ اللَّه به الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه، وإنما أراد أبو ذر بقوله هذا الحض على العلم والاغتباط بفضله، حين سهل عليه قتل نفسه في جنب ما يرجو من ثواب نشره وتبليغه.

ففي هذا من الفقه أنه يجوز للعالم أن يأخذ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالشدة، والعزيمة مع الناس، ويحتسب ما يصيبه في ذلك على اللَّه تعالى. ومباح له أن يأخذ بالرخصة في ذلك. ويسكت إذا لم يطق على حمل الأذى في اللَّه، كما قال أبو هريرة: لو حدثتكم بكل ما سمعت من رسول اللَّه لقطع هذا البلعوم»[٤].

وقال أبو حيان -نقلًا عن ابن حزم-: «الحظ لمن آثر العلم وعرف فضله أن

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٨٧).

(٢) علقه البخاري (١/ ٢١٢) بصيغة الجزم. ووصله الدارمي (١/ ١٣٦-١٣٧).

(٣) الفتح (١/ ٢١٤).

(٤) ابن بطال (١/ ١٥٢).

يستعمله جهده، ويقرئه بقدر طاقته، ويحققه ما أمكنه، بل لو أمكنه أن يهتف به على قوارع طرق المارّة، ويدعو إليه في شوارع السابلة، وينادي عليه في مجامع السيارة، بل لو تيسّر له أن يهب المال لطلابه، ويجري الأجور لمقتبسيه، ويعظّم الأجعال للباحثين عنه، ويسنّي مراتب أهله، صابرًا في ذلك على المشقة والأذى؛ لكان ذلك حظًّا جزيلًا، وعملًا جيدًا، وسعدًا كريمًا، وإحياء للعلم، وإلا فقد درس وطمس ولم يبق منه إلا آثار لطيفة، وأعلام دائرة»(١).

قلت: هذه الكلمة من الإمام ابن حزم -التي نقلها الإمام المفسر الكبير أبو حيان في البحر- هي من إمام تذوق العلم، وتمتع بحلاوته واختلط بلحمه ودمه، وعلم ما له من أثر طيب مبارك على الأمة؛ فإنها بالعلم يصلح حالها، وتقل نكايتها، ويضعف خلافها، وتجتمع كلمتها، والخير الذي يأتي من بذل العلم والتضحية في نشره؛ لا يعلم قدره إلا اللَّه تعالى. فنرجو اللَّه أن يوفق العلماء وطلبة العلم للاجتهاد في طلبه، ويوفق ولاة الأمر لتبني المراكز العلمية النافعة ذات البحث المجدي، ويوفق أرباب الأموال لبذل أموالهم في هذا السبيل المبارك، ويوفق الأجيال للإقبال على العلم النافع من قرآن وسنة وعقيدة سلفية مستقاة من الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة، وأن يجعلنا مع هؤلاء جميعًا فنطلب العلم وننشره ونبذل المال في سبيله، فهو نعم المولى ونعم النصير.

* عن أبي هريرة ﵁ قال: حفظت من رسول اللَّه ﷺ وعاءين: فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم(٢).

★ غريب الحديث:

بثثته: أي: أذعته ونشرته.

البلعوم: مجرى الطعام، كنّى به عن القتل.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «وحمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه على الأحاديث التي فيها تبيين أسامي أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم، وقد كان أبو هريرة يكنّي عن بعضه،

---

(١) البحر المحيط (١/ ٦٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٢٨٨/ ١٢٠).

ولا يصرح به خوفًا على نفسه منهم، كقوله: (أعوذ باللَّه من رأس الستين، وإمارة الصبيان) يشير إلى خلافة يزيد بن معاوية؛ لأنها كانت سنة ستين من الهجرة واستجاب اللَّه دعاء أبي هريرة فمات قبلها بسنة. . . قال ابن المنير: جعل الباطنية هذا الحديث ذريعة إلى تصحيح باطلهم، حيث اعتقدوا أن للشريعة ظاهرًا وباطنًا، وذلك الباطن إنما حاصله الانحلال من الدين. قال: وإنما أراد أبو هريرة بقوله: (قُطع) أي: قَطع أهل الجور رأسه، إذا سمعوا عيبه لفعلهم، وتضليله لسعيهم، ويؤيد ذلك أن الأحاديث المكتومة لو كانت من الأحكام الشرعية ما وسعه كتمانها لما ذكره في الحديث الأول من الآية الدالة على ذم من كتم العلم، وقال غيره يحتمل أن يكون أراد مع الصنف المذكور ما يتعلق بأشراط الساعة وتغير الأحوال والملاحم في آخر الزمان، فينكر ذلك من لم يألفه ويعترض عليه من لا شعور له به»[(١)].

قال الذهبي: «لو بث أبو هريرة ذلك الوعاء لأوذي، بل لقُتل، ولكن العالم قد يؤديه اجتهاده إلى أن ينشر الحديث الفلاني إحياء للسنة، فله ما نوى، وله أجر وإن غلط في اجتهاده»[(٢)].

وقال ابن كثير: «وهذا الوعاء الذى كان لا يتظاهر به هو الفتن والملاحم، وما وقع بين الناس من الحروب والقتال وما سيقع، التي لو أخبر بها قبل كونها لبادر كثير من الناس إلى تكذيبه، وردوا ما أخبر به من الحق، كما قال: (لو أخبرتكم أنكم تقتلون إمامكم وتقتتلون فيما بينكم بالسيوف لما صدقتموني) وقد يتمسك بهذا الحديث طوائف من أهل الأهواء والبدع الباطلة والأعمال الفاسدة، ويسندون ذلك إلى هذا الجراب الذي لم يقله أبو هريرة، ويعتقدون أن ما هم عليه كان في هذا الجراب الذي لم يخبر به أبو هريرة، وما من مبطل -مع تضاد أقوالهم- إلا وهو يدعي هذا، وكلهم يكذبون. فإذا لم يكن أبو هريرة قد أخبر به فمَن علمه بعده؟ وإنما كان الذي فيه؛ شيء من الفتن والملاحم، كما أخبر بها هو وغيره من الصحابة»[(٣)].

---

(١) الفتح (١/ ٢٨٨-٢٨٩). (٢) السير (٢/ ٢٩٧-٢٩٨).

(٣) البداية والنهاية (٨/ ١٠٩).

قال شيخ الإسلام: «وأما حديث أبى هريرة فهو حديث صحيح. . . ولكن ليس في هذا من الباطن الذي يخالف الظاهر شيء، بل ولا فيه من حقائق الدين، وإنما كان في ذلك الجراب الخبر عما سيكون من الملاحم والفتن، فالملاحم الحروب التي بين المسلمين والكفار، والفتن ما يكون بين المسلمين، ولهذا قال عبداللَّه بن عمر: (لو أخبركم أبو هريرة أنكم تقتلون خليفتكم وتفعلون كذا وكذا؛ لقلتم كذب أبو هريرة) وإظهار مثل هذا مما تكرهه الملوك وأعوانهم؛ لما فيه من الإخبار بتغير دولهم. . . ولم ينقل أحد قط عن أبي هريرة حديثًا يوافق الباطنية، ولا حديثًا يخالف الظاهر المعلوم من الدين. ومن المعلوم أنه لو كان عنده شيء من هذا؛ لم يكن بد أن ينقل عنه أحد شيئًا منه، بل النقول المتواترة عنه كلها تصدق ما ظهر من الدين، وقد روى من أحاديث صفات اللَّه وصفات اليوم الآخر وتحقيق العبادات ما يوافق أصول أهل الإيمان ويخالف قول أهل البهتان»[١].

* **قال علي** رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب اللَّه ورسوله؟»[٢]

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة. ومثله قول ابن مسعود: (ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) رواه مسلم[٣]. وممن كره التحديث ببعض دون بعض: أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجِرابَيْن، وأن المراد ما يقع من الفتن، ونحوه عن حذيفة، وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العُرَنِيّينَ؛ لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي!! وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يُخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب. واللَّه أعلم»[٤].

قلت: قول الحافظ: «ومالك في أحاديث الصفات» فيه نظر؛ فمالك رحمه الله

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٥٥-٢٥٦).
(٢) البخاري (١/ ٣٠٠/ ١٢٧).
(٣) مسلم في المقدمة (١/ ١١).
(٤) الفتح (١/ ٣٠٠).

روى في موطئه من أحاديث الصفات الكثير، كحديث النزول وكحديث الاستعاذة بكلام اللَّه وأسمائه وصفاته وغيرها، ولما سأله السائل عن الاستواء أجابه بقاعدة جليلة، أصبحت حجة لكل مثبت للصفات كالوجه واليد والقدم وغيرها، فإن ورد عن الإمام مالك ما يقيد ذلك فهو في الكيفية فقط، فالكيفية مجمع على عدم البحث فيها، فرحمة اللَّه على الإمام مالك وعلى الحافظ ابن حجر.

* عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ -ومعاذ رديفه على الرحل- قال: **يا معاذ بن جبل**. قال: لبيك يا رسول اللَّه وسعديك. قال: **يا معاذ**. قال: لبيك يا رسول اللَّه وسعديك (ثلاثًا). قال: **ما من أحد يشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه صدقا من قلبه؛ إلا حرمه اللَّه على النار**. قال: يا رسول الله! أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: **إذن يتكلوا**. وأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا[1].

* عن أنس قال: ذكر لي أن النبي ﷺ قال لمعاذ: «**من لقي اللَّه لا يشرك به شيئًا دخل الجنة**». قال: ألا أبشر الناس؟ قال: «**لا إني أخاف أن يتكلوا**»[2].

★ فوائد الحديثين:

قوله ﷺ: «**إذن يتكلوا**»

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: «أي: يعتمدوا على ذلك، فيتركوا التنافس في الأعمال، وفي رواية (فأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا) أي: تحرجًا من الإثم. قال الوزير أبو المظفر: لم يكن يكتمها إلا عن جاهل يحمله جهله على سوء الأدب بترك الخدمة في الطاعة، فأما الأكياس الذين إذا سمعوا بمثل هذا زادوا في الطاعة، ورأوا أن زيادة النعم تستدعي زيادة الطاعة، فلا وجه لكتمانها عنهم»[3].

قوله: (فأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا)

قال ابن حجر: «معنى التأثم التحرج من الوقوع في الإثم وهو كالتحنث، وإنما

---

(١) أحمد (٥/ ٢٢٨) والبخاري (١/ ٣٠٠/ ١٢٨) ومسلم (١/ ٦١/ ٣٢) والترمذي (٥/ ٢٦-٢٧/ ٢٦٤٣).

(٢) أحمد (٣/ ١٥٧) والبخاري (١/ ٣٠٣/ ١٢٩) ومسلم (١/ ٦١/ ٣٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٧٨/ ١٠٩٧٤).

(٣) فتح المجيد (ص: ٤٣).

خشي معاذ من الإثم المرتب على كتمان العلم، وكأنه فهم من منع النبي ﷺ أن يخبر بها إخبارًا عامًّا لقوله: (أفلا أبشر الناس) فأخذ هو أولا بعموم المنع فلم يخبر بها أحدًا، ثم ظهر له أن المنع إنما هو من الإخبار عمومًا، فبادر قبل موته فأخبر بها خاصًّا من الناس فجمع بين الحكمين. ويقوي ذلك أن المنع لو كان على عمومه في الأشخاص لما أخبر هو بذلك، وأخذ منه أن من كان في مثل مقامه في الفهم أنه لم يمنع من إخباره»[1].

قال القسطلاني: «أي تجنبا عن الإثم إن كتم ما أمر اللَّه بتبليغه حيث قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[2]»[3].

وقال: «وقد تضمن هذا الحديث أن يُخص بالعلم قوم فيهم الضبط وصحة الفهم، ولا يبذل المعنى اللطيف لمن لا يستأهله، ومن يخاف عليه الترخيص والاتكال لتقصير فهمه»[4].

* * *

(١) الفتح (١/ ٣٠٣-٣٠٤).
(٢) آل عمران: (١٨٧).
(٣) إرشاد الساري (١/ ٣٩٠).
(٤) إرشاد الساري (١/ ٣٩٠-٣٩١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أخبر تعالى عمن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأن عليهم لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين، خالدين فيها أي: في اللعنة التابِعة لهم إلى يوم القيامة، ثم المصاحِبة لهم في نار جهنم، التي لا يخفف عنهم العذاب فيها؛ أي: لا ينقص عما هم فيه ولا هم ينظرون؛ أي: لا يغير عنهم ساعة واحدة ولا يفتر، بل هو متواصل دائم، فنعوذ باللَّه من ذلك. قال أبو العالية وقتادة: إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه اللَّه، ثم تلعنه الملائكة، ثم يلعنه الناس أجمعون.

فصل: لا خلاف في جواز لعن الكفار، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بعده من الأئمة؛ يلعنون الكفرة في القنوت وغيره، فأما الكافر المعين؛ فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يُلعن؛ لأنّا لا ندري بما يختِم اللَّه له، واستدل بعضهم بالآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. وقالت طائفة أخرى: بل يجوز لعن الكافر المعين، واختاره الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي، ولكنه احتج بحديث فيه ضعف. واستدل غيره بقوله عليه السلام في قصة الذي كان يؤتى به سكران فيحدّه؛ فقال رجل: لعنه اللَّه، ما أكثر ما يؤتى به! فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تلعنه فإنه يحب اللَّه ورسوله**»[1] فدل على أن من لا يحب اللَّه ورسوله يلعن واللَّه أعلم»[2].

وقال السعدي: «وأما من كفر واستمر على كفره حتى مات ولم يرجع إلى ربه،

(١) سيأتي تخريجه في تفسير الآية نفسها.
(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٣).

ولم ينب إليه، ولم يتب عن قريب فـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ لأنه لما صار كفرهم وصفا ثابتا، صارت اللعنة عليهم وصفًا ثابتًا لا تزول؛ لأن الحكم يدور مع علته، وجودًا وعدمًا.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللعنة، أو في العذاب والمعنيان متلازمان.

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ بل عذابهم دائم شديد مستمر ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: يمهلون؛ لأن وقت الإمهال وهو الدنيا قد مضى، ولم يبق لهم عذر فيعتذرون»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن من مات على الكفر فعليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين

* عن سمرة بن جندب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تلاعنوا بلعنة اللَّه، ولا بغضبه، ولا بالنار**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «قوله: «**لا تلاعنوا**» أي: لا تدعوا الناس بما يبعدهم من اللَّه تعالى ومن رحمته، إما صريحًا كما تقولون: لعنة اللَّه عليه، أو كناية كما تقولون: عليه غضب اللَّه، أو أدخله اللَّه النار. فقوله: «**لا تلاعنوا**» من باب عموم المجاز؛ لأنه في بعض أفراده حقيقة وفي بعضه مجاز. وهذا مختص بمعين؛ لأنه يجوز اللعن بالوصف الأعم كقوله: لعنة اللَّه على الكافرين، أو بالأخص كقوله: لعنة اللَّه على اليهود، أو على كافر معين مات على الكفر، كفرعون وأبي جهل»[٣].

قال المناوي: «قد لعن رسول اللَّه ﷺ أصنافًا كثيرة تزيد على عشرين.. وفي جواز لعن أهل المعاصي من أهل القبلة خُلف، محصوله: أن اللعن إما أن يتعلق بمعيّن، أو بالجنس؛ فلعن الجنس يجوز، والمعين موقوف على السماع من الشارع، ولا قياس»[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٨٧-١٨٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥) وأبو داود (٥/ ٢١١/ ٤٩٠٦) والترمذي (٤/ ٣٠٨/ ١٩٧٦) وقال: «حديث حسن صحيح» والبخاري في الأدب المفرد (٣٢٠). وصححه الحاكم (١/ ٤٨) ووافقه الذهبي.

(٣) شرح الطيبي (١٠/ ٣١٢٧-٣١٢٨).

(٤) الفيض (٥/ ٢٦٧).

قال ابن العربي: «قال لي كثير من أشياخي: إن الكافر المعيّن لا يجوز لعنه؛ لأن حاله عند الموافاة لا تُعلم، وقد شرط اللّه تعالى في هذه الآية في إطلاق اللعنة الموافاة على الكفر، وقد روي عن النبي ﷺ لعن أقوام بأعيانهم من الكفار. وفي صحيح مسلم عن عائشة ﵂: دخل على النبي ﷺ رجلان، فكلّماه بشيء فأغضباه، فلعنهما[1]؛ وإنما كان ذلك لعلمه بمآلهما. والصحيح عندي جواز لعنه لظاهر حاله، كجواز قتاله وقتله»[2].

قال القرطبي: «أما لعن الكفار جملة من غير تعيين؛ فلا خلاف في ذلك، لما رواه مالك عن داود بن الحصين: أنه سمع الأعرج يقول: ما أدركت الناس إلا وهم يلعنون الكفرة في رمضان[3]. قال علماؤنا: وسواء كانت لهم ذمة أم لم تكن، وليس ذلك بواجب، ولكنه مباح لمن فعله؛ لجحدهم الحق وعداوتهم للدين وأهله. وكذلك كل من جاهر بالمعاصي؛ كشُرّاب الخمر، وأكلة الربا، ومن تشبه من النساء بالرجال ومن الرجال بالنساء، إلى غير ذلك مما ورد في الأحاديث لعنه.

قال: ليس لعن الكافر بطريق الزجر له عن الكفر؛ بل هو جزاء على الكفر، وإظهار قبح كفره، كان الكافر ميتًا أو مجنونًا. وقال قوم من السلف: إنه لا فائدة في لعن من جن أو مات منهم، لا بطريق الجزاء، ولا بطريق الزجر، فإنه لا يتأثر به. والمراد بالآية على هذا المعنى: أن الناس يلعنونه يوم القيامة؛ ليتأثر بذلك، ويتضرر، ويتألم قلبه، فيكون ذلك جزاء على كفره؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾[4] ويدل على هذا القول أن الآية دالة على الإخبار عن اللّه تعالى بلعنهم، لا على الأمر. وذكر ابن العربي أن لعن العاصي المعين لا يجوز اتفاقًا؛ لما روي عن النبي ﷺ: أنه أتي بشارب خمر مرارًا، فقال بعض من حضره: لعنه اللّه ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: «**لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم**»[5]، فجعل له حرمة الأخوة» وهذا يوجب الشفقة.. وقد ذكر بعض العلماء خلافًا في لعن العاصي المعين، قال (ابن

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٠٧/ ٢٦٠٠).

(٢) أحكام القرآن (١/ ٥٠).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١١٥/ ٦).

(٤) العنكبوت: الآية (٢٥).

(٥) أخرجه: البخاري (١٢/ ٨٩/ ٦٧٨١) من حديث أبي هريرة ﵁.

العربي): وإنما قال ﷺ: «**لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم**» في حق نعيمان بعد إقامة الحد عليه، ومن أقيم عليه حد اللَّه تعالى فلا ينبغي لعنه، ومن لم يقم عليه الحد فلعنته جائزة؛ سواء سمي أو عُين أم لا؛ لأن النبي ﷺ لا يلعن إلا من تجب عليه اللعنة ما دام على تلك الحالة الموجبة لِلَّعن، فإذا تاب منها وأقلع وطهره الحد؛ فلا لعنة تتوجه عليه. وبين هذا قوله ﷺ: «**إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرّب**»[1] فدل هذا الحديث -مع صحته- على أن التثريب واللعن إنما يكون قبل أخذ الحد وقبل التوبة. واللَّه تعالى أعلم»[2].

قال ابن العربي: «وأما لعن العاصي مطلقًا؛ فيجوز إجماعًا، لما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**لعن اللَّه السارق يسرق البيضة فتقطع يده**»[3]»[4].

وقال النووي: «هذا دليل لجواز لعن غير المعين من العصاة؛ لأنه لعن للجنس لا لمعين، ولعن الجنس جائز كما قال اللَّه تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[5] وأما المعين فلا يجوز لعنه»[6].

قلت: مما تقدم يتبين أن اللعن بالوصف جائز مطلقًا، كلعن الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة، والسارق والسارقة وغيرها، ممن ورد اللعن فيه بالصفة بالكتاب أو بالسنة.

وأما لعن المعين إن كان كافرًا فالمختار عدم لعنه إلا إذا مات على الكفر أو الشرك، وأما لعن العاصي المسلم فلا يجوز لعنه اتفاقًا.

وأما لعن المسلم البريء الذي لا ذنب له؛ فهو موبقة من الموبقات، واللعن يرجع على صاحبه والعياذ باللَّه، فهذا هو التفصيل الذي ينبغي أن يعتمد في هذا

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٩) والبخاري (٤/ ٤٦٤/ ٢١٥٢) ومسلم (٣/ ١٣٢٨/ ١٧٠٣) وأبو داود (٤/ ٦١٤-٦١٥/ ٤٤٧١) والترمذي (٤/ ٣٧/ ١٤٤٠) والنسائي في الكبرى (٤/ ٢٩٩/ ٧٢٤٠) من حديث أبي هريرة.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٨٨-١٩٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٣) والبخاري (١٢/ ٩٦/ ٦٧٨٣) ومسلم (٣/ ١٣١٤/ ١٦٨٧) والنسائي (٨/ ٤٣٦-٤٣٧/ ٤٨٨٨) وابن ماجه (٢/ ٨٦٢/ ٢٥٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أحكام القرآن (١/ ٥٠).

(٥) هود: الآية (١٨).

(٦) شرح مسلم (١١/ ١٥٤).

الباب، والذي هو نتيجة تتبع النصوص نصًا نصًا وقد أفرد هذا الباب بالتأليف ولله الحمد والمنة.

* عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: «خطبنا علي ﷺ على منبر من آجرّ، وعليه سيف فيه صحيفة معلقة، فقال: واللَّه ما عندنا من كتاب يُقرأ إلا كتاب اللَّه، وما في هذه الصحيفة، فنشرها؛ فإذا فيها أسنان الإبل، وإذا فيها: المدينة حرَم من عَيْر إلى كذا، فمن أحدث فيها حدثًا فعليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل اللَّه منه صرفًا ولا عدلًا. وإذا فيه: ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلمًا فعليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل اللَّه منه صرفًا ولا عدلًا. وإذا فيها: من والى قوما بغير إذن مواليه فعليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل اللَّه منه صرفا ولا عدلا»[1].

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «ودل الحديث على أنه من آوى أهل المعاصي والبدع أنه شريك في الإثم، وليس يدل الحديث على أن من أحدث حدثًا أو آوى محدثًا في غير المدينة؛ أنه غير متوعد ولا مَلوم على ذلك؛ لتقدم العلم بأن من رضي فعل قوم وعملهم أنه منهم، وإن كان بعيدا عنهم.

فهذا الحديث نص في تحذير فعل شيء من المنكر في المدينة، وهو دليل في التحذير من إحداث مثل ذلك في غيرها، وإنما خصت المدينة بالذكر في هذا الحديث؛ لأن اللعنة على من أحدث فيها حدثا أشد والوعيد له آكد؛ لانتهاكه ما حذر عنه، وإقدامه على مخالفة رسول اللَّه ﷺ فيما كان يلزمه من تعظيم شأن المدينة التي شرفها اللَّه، بأنها منزل وحيه، وموطن نبيه ﷺ، ومنها انتشر الدين في أقطار الأرض، فكان لها بذلك فضل مزية على سائر البلاد»[2].

وقال الشاطبي: «وأما أن صاحبها (البدعة) ملعون على لسان الشريعة؛ فلقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**من أحدث حدثًا، أو آوى محدثا؛ فعليه لعنة اللَّه**

---

(١) أحمد (١/ ٨١) والبخاري (١٣/ ٣٤١-٣٤٢/ ٧٣٠٠) ومسلم (٢/ ٩٩٤-٩٩٨/ ١٣٧٠) وأبو داود (٢/ ٥٢٩-٥٣١/ ٢٠٣٤) والترمذي (٤/ ٣٨١-٣٨٢/ ٢١٢٧) والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٨٦/ ٤٢٧٨).

(٢) ابن بطال (١٠/ ٣٥٠).

والملائكة والناس أجمعين». وعد من الإحداث الاستنان بسنة سوء لم تكن. وهذه اللعنة قد اشترك فيها صاحب البدعة مع من كفر بعد إيمانه، وقد شهد أن بعثة النبي ﷺ حق لا شك فيها، وجاءه الهدى من اللَّه والبيان الشافي، وذلك قول اللَّه -تبارك وتعالى-: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾.. إلى قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1] إلى آخرها.

واشترك أيضًا مع من كتم ما أنزل اللَّه وبينه في كتابه، وذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾[2] إلى آخرها.

فتأملوا المعنى الذي اشترك المبتدع فيه مع هاتين الفرقتين، وذلك مضادة الشارع فيما شرع؛ لأن اللَّه تعالى أنزل الكتاب، وشرع الشرائع، وبين الطريق للسالكين على غاية ما يمكن من البيان، فضادها الكافر بأن جحدها جحدًا، وضادها كاتمها بنفس الكتمان؛ لأن الشارع يبين ويظهر، وهذا يكتم ويخفي، وضادها المبتدع بأن وضع الوسيلة لترك ما بين وإخفاء ما أظهر؛ لأن من شأنه أن يدخل الإشكال في الواضحات من أجل اتباع المتشابهات؛ لأن الواضحات تهدم له ما بنى عليه في المتشابهات، فهو آخذ في إدخال الإشكال على الواضح، حتى يترك، فيحق ما جاءت اللعنة في الابتداع من اللَّه والملائكة والناس أجمعين»[3].

قال القاضي: «وقوله ﷺ: «**فعليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين..**» وعيد شديد لمن فعل ذلك، لمن استحل حرمتها، أو أحدث فيها، وقد استدلوا لما جاءت به اللعنة أنه من الكبائر.. وقيل: معنى لعنة اللَّه هنا؛ يحتمل أن يراد به العذاب الذي يستوجبه على ذنبه، والطرد عن الجنان أولًا، ودخول النار حتى يخرجه اللَّه منها، واللعنة معناها الإبعاد، ولا يكون هذا كلعنة الكفار الذين يبعدون عن رحمة اللَّه رأسًا، ولعنة الملائكة والناس هنا: الدعاء عليهم بمثل هذا. وقد

---

(١) آل عمران: الآيتان (٨٦ و ٨٧).

(٢) البقرة: الآية (١٥٩).

(٣) الاعتصام (١/ ٢٠٢-٢٠٣).

يكون لعنة الملائكة هنا ترك الدعاء لهم والاستغفار، وإبعادهم عنه، وإخراجهم من جملة المؤمنين الذين يستغفرون لهم كما حكى اللَّه تعالى عنهم»[١].

* عن عمر بن الخطاب ﷺ: أن رجلا كان على عهد النبي ﷺ، كان اسمه عبداللَّه وكان يلقب حمارًا، وكان يضحك رسول اللَّه ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتي به يوما فأمر به فجلده، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي ﷺ: «**لا تلعنوه، فواللَّه ما علمت؛ إنه يحب اللَّه ورسوله**»[٢].

★ فوائد الحديث:

بوَّب عليه البخاري: «باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة».

قال ابن حجر: «يشير إلى طريق الجمع بين ما تضمنه حديث الباب من النهي عن لعنه، وما تضمنه حديث الباب الأول «**لا يشرب الخمر وهو مؤمن**» وأن المراد به نفي كمال الإيمان، لا أنه يخرج عن الإيمان جملة، وعبر بالكراهة هنا إشارة إلى أن النهي للتنزيه في حق من يستحق اللعن إذا قصد به اللاعن محض السب، لا إذا قصد معناه الأصلي، وهو الإبعاد عن رحمة اللَّه، فأما إذا قصده فيحرم، ولا سيما في حق من لا يستحق اللعن؛ كهذا الذي يحب اللَّه ورسوله، ولا سيما مع إقامة الحد عليه، بل يندب الدعاء له بالتوبة والمغفرة»[٣].

قال ابن تيمية: «وقد تنازع الناس في لعنة الفاسق المعين؛ فقيل: إنه جائز، كما قال ذلك طائفة من أصحاب أحمد وغيرهم، كأبي الفرج بن الجوزي وغيره. وقيل: إنه لا يجوز، كما قال ذلك طائفة أخرى من أصحاب أحمد وغيرهم كأبي بكر عبدالعزيز وغيره. والمعروف عن أحمد كراهة لعن المعين، كالحجاج بن يوسف وأمثاله، وأن يقول كما قال اللَّه تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤]. وقد ثبت في صحيح البخاري: أن رجلًا كان يدعى حمارًا...

فقد نهى النبي ﷺ عن لعنة هذا المعين الذي كان يكثر شرب الخمر؛ معلّلًا ذلك

---

(١) الإكمال (٤/ ٤٨٦-٤٨٨).
(٢) أخرجه: البخاري (١٢/ ٨٩/ ٦٧٨٠).
(٣) الفتح (١٢/ ٨٩).
(٤) هود: الآية (١٨).

بأنه يحب اللَّه ورسوله، مع أنه ﷺ لعن شارب الخمر مطلقًا، فدل ذلك على أنه يجوز أن يلعن المطلق، ولا تجوز لعنة المعين الذي يحب اللَّه ورسوله»[١].

وقال: «فنهى عن لعنه مع إصراره على الشرب؛ لكونه يحب اللَّه ورسوله، مع أنه ﷺ لعن في الخمر عشرة؛ لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وساقيها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومبتاعها، وآكل ثمنها. ولكن لعن المطلق لا يستلزم لعن المعين الذي قام به ما يمنع لحوق اللعنة له، وكذلك التكفير المطلق، والوعيد المطلق، ولهذا كان الوعيد المطلق في الكتاب والسنة مشروطًا بثبوت شروط وانتفاء موانع، فلا يلحق التائبَ من الذنب باتفاق المسلمين، ولا يلحق من له حسنات تمحو سيئاته، ولا يلحق المشفوع له، والمغفور له، فإن الذنوب تزول عقوبتها التي هي جهنم؛ بأسباب التوبة، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، لكنها من عقوبات الدنيا، وكذلك ما يحصل في البرزخ من الشدة، وكذلك ما يحصل في عرصات القيامة، وتزول أيضًا بدعاء المؤمنين؛ كالصلاة عليه وشفاعة الشفيع المطاع، كمن يشفع فيه سيد الشفعاء محمد ﷺ تسليما»[٢].

* عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«لعن اللَّه من لعن والده، ولعن اللَّه من ذبح لغير اللَّه، ولعن اللَّه من آوى محدثًا، ولعن اللَّه من غير منار الأرض»**[٣].

⋆ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وإنما استحق لاعِنُ أبويه لعنة الله؛ لمقابلته نعمة الأبوين بالكفران، وانتهائه إلى غاية العقوق والعصيان، كيف لا؛ وقد قرن اللَّه برهما بعبادته، وإن كانا كافرين بتوحيده وشريعته؟!

وأما لعن من ذبح لغير اللَّه، فإن كان كافرا يذبح للأصنام؛ فلا خفاء بحاله،

(١) منهاج السنة (٤/ ٥٦٩-٥٧٠).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٢٩-٣٣٠).
(٣) أخرجه: أحمد (١/ ١٠٨)، ومسلم (٣/ ١٥٦٧/ ١٩٧٨)، والنسائي (٧/ ٢٦٦/ ٤٤٣٤).

وهي التي أُهل بها لغير اللَّه، والتي قال اللَّه تعالى فيها: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾[1]. . وأما إن كان مسلمًا فيتناوله عموم هذا اللعن، ثم لا تحل ذبيحته؛ لأنه لم يقصد بها الإباحة الشرعية»[2].

* * *

(١) الأنعام: الآية (١٢١).

(٢) المفهم (٥/ ٢٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لما حذر تعالى من كتمان الحق بين أن أول ما يجب إظهاره ولا يجوز كتمانه أمر التوحيد، ووصل ذلك بذكر البرهان، وعلّم طريق النظر، وهو الفكر في عجائب الصنع ليعلم أنه لابد له من فاعل لا يشبهه شيء، قال ابن عباس رضي الله عنهما: قالت كفار قريش: يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل اللَّه تعالى الإخلاص وهذه الآية، وكان للمشركين ثلاثمائة وستون صنمًا فبين اللَّه أنه واحد.

قوله تعالى: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نفي وإثبات، أولها كفر وآخرها إيمان، ومعناه لا معبود إلا الله»[(١)].

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية، وأنه لا شريك له ولا عديل له، بل هو اللَّه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا إله إلا هو، وأنه الرحمن الرحيم»[(٢)].

قال أبو حيان: «﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ توكيد لمعنى الوحدانية، ونفي الإلهية عن غيره. وهي جملة جاءت لنفي كل فردٍ فردٍ من الآلهة، ثم حصر ذلك المعنى فيه -تبارك وتعالى-، فدلت الآية الأولى على نسبة الواحدية إليه تعالى، ودلت الثانية على حصر الإلهية فيه من اللفظ الناصّ على ذلك، وإن كانت الآية الأولى تستلزم ذلك؛ لأن من ثبتت له الواحدية ثبتت له الإلهية»[(٣)].

قال شيخ الإسلام: «وأما التوحيد الذي ذكره اللَّه في كتابه، وأنزل به كتبه، وبعث به رسله، واتفق عليه المسلمون من كل ملة؛ فهو كما قال الأئمة: شهادة أن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٩٠-١٩١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٤).

(٣) البحر (١/ ٦٣٧).

لا إله إلا اللَّه، وهو عبادة اللَّه وحده لا شريك له؛ كما بيّن ذلك بقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ فأخبر أن الإله إله واحد، لا يجوز أن يتخذ إله غيره، فلا يعبد إلا إياه، كما قال في السورة الأخرى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[1] وكما قال: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ إلى قوله: ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾[2] وكما قال: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ① إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ② أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[3] وكما قال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾[4]»[5].

وقال أيضًا: «والمسلمون يقولون كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾، والتوحيد الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب؛ هو توحيد الإلهية، وهو أن يعبد اللَّه وحده لا شريك له، وهو متضمن لشيئين: أحدهما القول العملي، وهو إثبات صفات الكمال له، وتنزيهه عن النقائص، وتنزيهه عن أن يماثله أحد في شيء من صفاته، فلا يوصف بنقص بحال، ولا يماثله أحد في شيء من الكمال، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[6] فالصمدية تثبت له الكمال، والأحدية تنفي مماثلة شيء له في ذلك، كما قد بسطنا ذلك في غير هذا الموضع. والتوحيد العملي الإرادي: أن لا يعبد إلا إياه، فلا يدعو إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يخاف إلا إياه، ولا يرجو إلا إياه، ويكون الدين كله لله، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[7] وهذا التوحيد يتضمن أن اللَّه خالق كل شيء، وربه، ومليكه، لا شريك له في الملك»[8].

قلت: ومما تقدم من كلام أهل العلم في بيان التوحيد، وأن اللَّه -تبارك وتعالى- جعل هذا الأصل هو الغاية التي من أجلها أنزل الكتب، وبعث الرسل،

---

(١) النحل (٥١).

(٢) الإسراء من الآية (٢٢ إلى ٣٩).

(٣) الزمر: الآيات: (١-٣).

(٤) الفرقان: الآية (٦٨).

(٥) الفتاوى الكبرى (٥/ ٢٤٨).

(٦) سورة الإخلاص.

(٧) سورة الكافرون.

(٨) الصفدية (٢/ ٢٢٨).

وعليها يقاتل من امتنع عنه ودفعه، كما قال اللَّه تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[1] الآية، وقال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله**»[2]، فاللَّه تعالى هو المنفرد في ألوهيته، فلا يعبد غيره معه، فهو المعبود بحق، وإن عبد غيره فبباطل، فلهذا -كما أشار بعض العلماء الفضلاء في تفسير شهادة أن لا إله إلا اللَّه أنه لا معبود بحق إلا الله- فمن أطلق التفسير فلم يصب، وأما من فسر الألوهية بالربوبية فجهل يجب أن يعالج بالتعلم، كما هو الحال في كتب الأشاعرة الذين أفسدهم علم الكلام، وفَصَلهم عن الكتاب والسنة، واشتغلوا بقضايا كلامية هي تكرار لما أصله الجهمية والمعتزلة، فلا للنقل اتبعوا، ولا للعقل نصروا.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان اسم اللَّه الأعظم

* عن أسماء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنها عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**اسم اللَّه الأعظم في هاتين الآيتين**: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ و﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[3]»[4].

★ فوائد الحديث:

قال الشيخ أحمد البنا: «ويستفاد منه أن اسم اللَّه الأعظم هو: اللَّه لا إله إلا هو الحي القيوم، واللَّه أعلم»[5].

* **تنبيه**: سيأتي المزيد من فوائد الحديث في فاتحة آل عمران، إن شاء اللَّه تعالى.

* * *

---

(١) التوبة: الآية (٢٩).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٠٢/ ٢٥)، ومسلم (١/ ٥٣/ ٢٢).

(٣) آل عمران: الآيتان (١و٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٦١) وأبو داود (٢/ ١٦٨/ ١٤٩٦) والترمذي (٥/ ٤٨٣/ ٣٤٧٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٧/ ٣٨٥٥).

(٥) الفتح الرباني (١٨/ ٩٢).

قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[1]

★ **غريب الآية:**

خلق: الخلق: إبداع الشيء على تقدير من غير أصل ولا احتذاء.

السموات: واحدها سماء، وهي كل ما علاك فأظلك من سقف ونحوه، لكن إذا أطلق لم يفهم منه غير السموات السبع.

اختلاف: الاختلاف نقيض الاتفاق. والمراد: أن كل واحد من الليل والنهار يخلف الآخر على وجه المعاقبة، وقيل: من اختلاف الجنس.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية. لم يبيّن هنا وجه كونهما آية، ولكنّه بيّن ذلك في مواضع أُخر كقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[2] وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾[3] وقوله في الأرض: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[4].

قوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ لم يبين هنا وجه كون اختلافهما آية، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر كقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا

---

(١) البقرة: الآية (١٦٤).
(٢) سورة ق: الآيات: (٦-٨).
(٣) الملك: الآيات: (٣-٥).
(٤) الملك: الآية (١٥).

تُبْصِرُونَ ۝٧٢ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] إلى غير ذلك من الآيات»[2].

قال ابن كثير: «ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بخلق السموات والأرض وما فيهما وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته فقال: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية. يقول تعالى: إن في خلق السموات والأرض؛ تلك في ارتفاعها، ولطافتها، واتساعها، وكواكبها السيارة والثوابت، ودوران فلكها، وهذه الأرض في كثافتها، وانخفاضها، وجبالها، وبحارها، وقفارها، ووهادها، وعمرانها، وما فيها من المنافع. ﴿وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: هذا يجيء ثم يذهب، ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[3] وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾[4] أي يزيد في هذا ومن هذا في هذا»[5].

قال القرطبي: «فآية السموات: ارتفاعها بغير عمد من تحتها ولا علائق من فوقها؛ ودل ذلك على القدرة وخرق العادة. ولو جاء نبي فتحدى بوقوف جبل في الهواء دون علاقة كان معجزا. ثم ما فيها من الشمس والقمر والنجوم السائرة والكواكب الزاهرة شارقة وغاربة نيرة وممحوة آية ثانية. وآية الأرض: بحارها وأنهارها ومعادنها وشجرها وسهلها ووعرها»[6].

* * *

---

(١) القصص: الآيات: (٧١-٧٣).
(٢) أضواء البيان (١/ ٨٨-٨٩).
(٣) يس: الآية (٤٠).
(٤) الحديد: الآية (٦).
(٥) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٤).
(٦) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٩٢).

قوله: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾[١]

★ **غريب الآية:**

الفلك: السفن، تقع على الواحد والجمع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم ونقل هذا إلى هؤلاء، وما عند أولئك إلى هؤلاء»[٢].

قال القرطبي: «ووجه الآية في الفلك؛ تسخير اللَّه إياها حتى تجري على وجه الماء، ووقوفها فوقه مع ثقلها»[٣].

وقال: «هذه الآية وما كان مثلها دليل على جواز ركوب البحر مطلقا؛ لتجارة كان أو عبادة كالحج والجهاد»[٤].

قلت: آيات اللَّه الكونية والفعلية لا نهاية لها، ولا يستطيع أحد أن يعدها ويحصرها، واللَّه -تبارك وتعالى- ذكر في كتابه المعلوم منها والمشاهد، فالأرض بساط، والسماء غطاء، والشمس ضياء، والقمر نور، والنجوم مصابيح... وفي كل ذلك له آية تدل على ربوبيته، وأنه المتفرد بكل كمال، وقد من اللَّه على البشرية بتطورات كثيرة في كل مجالات الحياة، ومن أعظم ذلك المواصلات البرية والبحرية، والطائرات التي تخترق الأجواء في أقل اللحظات، فما كان يستغرق فيه الإنسان شهورًا عديدةً أصبح يقطعه في ساعات معدودة، وأصبحت الأمكنة التي كانت منفصلة عن بعضها بسبب البحار والجبال وطول القفار أصبحت متصلة ببعضها، وتفاصيل هذا الأمر يطول، ومن تفكر قليلًا وجد نفسه في وسط آيات لا يملك إلا أن يعترف للَّه تعالى فيها بالفضل والمنة، فله الحمد وله الشكر، وله

---

(١) البقرة: الآية (١٦٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٩٤).

(٤) المصدر السابق (٢/ ١٩٥).

المنة الكاملة، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في جواز ركوب البحر وما في ذلك من المنافع

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سأل رجل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**هو الطهور ماؤه، الحل ميتته**»[2].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول اللَّه ﷺ يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول اللَّه ﷺ فأطعمته وجعلت تفلي رأسه، فنام رسول اللَّه ﷺ، ثم استيقظ وهو يضحك. قالت: فقلت: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «**ناس من أمتي عرضوا عليَّ غزاة في سبيل اللَّه، يركبون ثبج هذا البحر ملوكًا على الأسرة -أو: مثل الملوك على الأسرة-**» -شك إسحاق- قالت: فقلت: يا رسول الله! ادع اللَّه أن يجعلني منهم، فدعا لها رسول اللَّه ﷺ. ثم وضع رأسه، ثم استيقظ وهو يضحك. فقلت: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «**ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله**»؛ كما قال في الأول. قالت: فقلت: يا رسول الله! ادع اللَّه أن يجعلني منهم. قال: «**أنت من الأولين**». فركبَت البحر في زمن معاوية بن أبي سفيان، فصُرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلَكَت»[3].

★ غريب الحديث:

ثبج: الثبج وسط الشيء إذا تجمّع وبرز، ومنه ثبج البحر، وثبج الصدر، وثبج الأكمة، والجمع أثباج وثبوج.

---

(١) النحل: الآية (١٨).

(٢) أحمد (٢/ ٢٣٧)، وأبو داود (١/ ٦٤/ ٨٣)، والترمذي (١/ ١٠١/ ٦٩) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (١/ ٥٣/ ٥٩)، وابن ماجه (١/ ١٣٦/ ٣٨٦).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٤٠) والبخاري (٦/ ١٢/ ٢٧٨٨-٢٧٨٩) ومسلم (٣/ ١٥١٨-١٥١٩/ ١٩١٢) وأبو داود (٣/ ١٤/ ٢٤٩٠-٢٤٩١)، والترمذي (٤/ ١٥٢-١٥٣/ ١٦٤٥) والنسائي (٦/ ٣٤٧-٣٤٨/ ٣١٧١) وابن ماجه (٢/ ٩٢٧/ ٢٧٧٦).

★ **فوائد الحديثين:**

قال أبو عمر: «وفي حديث هذا الباب من الفقه؛ إباحة ركوب البحر؛ لأن رسول اللَّه ﷺ لو كره ركوبه لنهى عنه الذين قالوا: إنا نركب البحر، وقولهم هذا يدل على أن ذلك كان كثيرا ما يركبونه لطلب الرزق من أنواع التجارة وغيرها، وللجهاد وسائر ما فيه إباحة أو فضيلة واللَّه أعلم. فلم ينههم عن ركوبه؛ وهذا -عندي- إنما يكون لمن سَهُل ذلك عليه ولم يشق عليه ويصعب به؛ كالمائد المفرط الميد، أو من لا يقدر معه على أداء فروض الصلاة ونحوها من الفرائض، ولا يجوز عند أهل العلم ركوب البحر في حين ارتجاجه، ولا في الزمن الذي الأغلب منه عدم السلامة فيه والعطب والهلاك، وإنما يجوز -عندهم- ركوبه في زمان تكون السلامة فيه الأغلب واللَّه أعلم.

وفي قول اللَّه ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾[2]؛ ما فيه كفاية ودلالة واضحة في إباحة ركوب البحر -إذا كان كما وصفنا، وباللَّه توفيقنا»[3]

وقال القرطبي: «ففيه دليل واضح على ركوب البحر في الجهاد للرجال والنساء، وإذا جاز ركوبه للجهاد؛ فركوبه للحج المفترض أولى وأوجب. وروي عن عمر ابن الخطاب وعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنهما المنعُ من ركوبه. والقرآن والسنة يرد هذا القول. ولو كان ركوبه يكره أو لا يجوز لنهى عنه النبي ﷺ الذين قالوا له: إنا نركب البحر، وهذه الآية وما كان مثلها نص في الغرض، وإليها المفزع، وقد تُؤول ما روي عن العمرين في ذلك؛ بأن ذلك محمول على الاحتياط، وترك التغرير بالمهج في طلب الدنيا والاستكثار منها، وأما في أداء الفرائض فلا. ومما يدل على جواز ركوبه من جهة المعنى؛ أن اللَّه تعالى ضرب البحر وسط الأرض، وجعل الخلق في العدوتين، وقسّم المنافع بين الجهتين، فلا يوصَل إلى جلبها إلا بشقّ البحر لها، فسهل اللَّه سبيله بالفلك. قاله ابن العربي»[4].

---

(١) يونس: الآية (٢٢).
(٢) البقرة: الآية (١٦٤).
(٣) فتح البر (٣/ ١٢).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٩٥).

قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾[1]

★ غريب الآية:

بث: البث: التفريق والنشر، والمراد: نشر وفرّق فيها أنواع الدواب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾[2]، إلى قوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[3]»[4].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ يعني بها: الأمطار التي بها إنعاش العالم، وإخراج النبات والأرزاق، وجعل منه المخزون عُدة للانتفاع في غير وقت نزوله، كما قال تعالى: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[5]»[6].

وقال ابن عاشور: «ووجه العبرة فيه؛ أن شأن الماء الذي يسقي الأرض أن يَنْبع منها، فجعْل الماء نازلًا عليها من ضدها وهو السماء عبرة عجيبة»[7].

قال ابن كثير: «﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[8]»[9].

قال أبو حيان: «التقدير: وما بث فيها من كل دابة، فيكون ذلك أعظم في

---

(١) البقرة: الآية (١٦٤).
(٢) يس: الآية (٣٣).
(٣) يس: الآية (٣٦).
(٤) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٤).
(٥) المؤمنون: الآية (١٨).
(٦) المصدر السابق (٢/ ١٩٦).
(٧) التحرير والتنوير (٢/ ٨٣).
(٨) هود: الآية (٦).
(٩) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٤).

الآيات؛ لأن ما بث تعالى في الأرض من كل دابة فيه آيات عظيمة في أشكالها، وصفاتها، وأحوالها، وانتقالاتها، ومضارها، ومنافعها، وعجائبها، وما أودع في كل شكلٍ شكل منها من الأسرار العجيبة، ولطائف الصنعة الغريبة، وذلك من الفيل إلى الذرة، وما أوجد تعالى في البحر من عجائب المخلوقات المباينة لأشكال البر»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قتل الحيات

* عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه سمع النبي ﷺ يخطب على المنبر يقول: «**اقتلوا الحيات، واقتلوا ذا الطفيتين والأبتر، فإنهما يطمسان البصر، ويستسقطان الحبل**»[٢].

قال عبد الله: فبينا أنا أطارد حية لأقتلها، فناداني أبو لبابة: لا تقتلها. فقلت: إن رسول اللّه ﷺ قد أمر بقتل الحيات. فقال: إنه نهى بعد ذلك عن ذوات البيوت، وهي العوامر[٣].

⋆ غريب الحديث:

الحيات: جمع حية ويقال على الذكر والأنثى. والثعبان: الذكر.

ذو الطفيتين: ضرب من الحيات في ظهره خطان أبيضان، وعنهما عبر بالطفيتين. وقال الخليل: هي حية لينة خبيثة.

الأبتر: الأفعى سميت بذلك لقصر ذنبها. قال النضر بن شميل: إنه صنف من الحيات أزرق مقطوع الذنب. والذكر الأفعوان.

يطمسان البصر: أي: يمحُوان نوره.

يستسقطان الحبل: معناه أن المرأة إذا نظرت إليهما وخافت أسقطت الحمل غالبًا.

---

(١) البحر المحيط (١/ ٦٤٠).

(٢) أحمد (٣/ ٤٥٢) والبخاري (٦/ ٤٢٧/ ٣٢٩٧) ومسلم (٤/ ١٧٥٢/ ٢٢٣٣) وأبو داود (٥/ ٤١١/ ٥٢٥٢) والترمذي (٤/ ٦٤-٦٥/ ١٤٨٣) وابن ماجه (٢/ ١١٦٩/ ٣٥٣٥).

(٣) أحمد (٣/ ٤٥٢) والبخاري (٦/ ٤٢٧/ ٣٢٩٨) ومسلم (٤/ ١٧٥٢/ ٢٢٣٣) وأبو داود (٥/ ٤١٢/ ٥٢٥٣).

★ **فوائد الحديثين:**

قال العيني: «مطابقته للترجمة من حيث إن ذا الطفيتين من جملة ما يطلق عليه اسم الدابة»[(١)].

قال ابن عبد البر: «ترتيب هذه الأحاديث كلها المذكورة في هذا الباب وتهذيبها؛ استعمال حديث أبي لبابة، والاعتماد عليه، فإن فيه بيانًا لنسخ قتل حيات البيوت؛ لأن ذلك كان بعد الأمر بقتلها جملة. وفيه استثناء ذي الطفيتين والأبتر، فهو حديث مفسر، لا إشكال فيه لمن فهم وعلم، وبالله التوفيق»[(٢)].

* عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أقلوا الخروج إذا هدأت الرجل، إن الله يبث من خلقه بالليل ما شاء**»[(٣)].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**إذا هدأت الرجل**» قال المناوي: «أي بعد سكون الناس عن المشي في الطريق ليلا. والهدوء: السكون.

قوله: «**إن الله يبث من خلقه بالليل ما شاء**» قال: أي يفرقهن وينشرهن في الأرض في تلك الساعة؛ أي: بالليل، فإذا خرجتم تلك الساعة فإما أن تؤذوهم أو يؤذوكم: أي يؤذي بعضكم بعضهم وبعضهم بعضكم، فالأحوط الأسلم الكف عن الانتشار ساعتئذ. وعبّر بقوله: «**أَقِلّ**» دون لا تخرج؛ إشارة إلى أن الخروج لما لا بد منه مأذون فيه، فالمأمور بالكف عنه ما عنه بدّ فحسب»[(٤)].

* * *

(١) عمدة القاري (١٠/ ٦٥١). (٢) فتح البر (٨/ ٤٠١).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٦) وأبو داود (٥/ ٣٣٢/ ٥١٠٤) والبخاري في الأدب المفرد (١٢٣٣) وصححه ابن خزيمة (٤/ ١٤٨/ ٢٥٥٩) وابن حبان (١٢/ ٣٢٦/ ٥٥١٧-٥٥١٨) والحاكم (١/ ٤٤٥) على شرط مسلم وأقره الذهبي. والبغوي في شرح السنة (١١/ ٣٩١-٣٩٢/ ٣٠٦) وقال: «حسن صحيح».

(٤) فيض القدير (٢/ ٧٢-٧٣).

قوله تعالى: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾[(١)]

★ **غريب الآية:**

تصريف: أي تقليب، والمراد: تقليب الرياح من جهة إلى أخرى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي: فتارة تأتي بالرحمة، وتارة تأتي بالعذاب، وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمعه، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه، ثم تارة تأتي من الجنوب وهي الشامية، وتارة تأتي من ناحية اليمن، وتارة صَبا وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة، وتارة دبورا وهي غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة، وقد صنف الناس في الرياح والمطر والأنواء كتبًا كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها، وبسط ذلك المطلوب يطول ههنا والله أعلم»[(٢)].

قال أبو حيان: «والريح جسم لطيف شفاف غير مرئي، ومن آياته ما جعل الله فيه من القوة التي تقلع الأشجار، وتعفي الآثار، وتهدم الديار، وتهلك الكفار، وتربيةُ الزرع وتنميته واشتداده بها، وسوقُ السحاب إلى البلد الماحل»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الريح مخلوقة مأمورة وما صح عن النبي ﷺ فيها من أدعية وآداب

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذت الناس الريح بطريق مكة فاشتدت عليهم. فقال عمر لمن حوله: ما الريح؟ فلم يرجعوا إليه شيئًا، فبلغني الذي سأل عنه، فاستحثثت راحلتي حتى أدركته فقلت: يا أمير المؤمنين! أخبرت أنك سألت عن

---

(١) الآية (١٦٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٤-٣٥٥).

(٣) البحر المحيط (١/ ٦٤١).

الريح، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**الريح من روح اللَّه ﷻ، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فلا تسبوها وسلوا اللَّه من خيرها، وعوذوا به من شرها**»[(١)].

* عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تسبوا الريح فإنها من روح اللَّه، وسلوا اللَّه خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وتعوذوا باللَّه من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به**»[(٢)].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال: «**اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به**»[(٣)].

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن علان: «قوله: «**من روح الله**» بفتح الراء؛ أي: من رحمته تعالى يريح بها عباده، ومنها قوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾[(٤)] وإتيانها بالعذاب للكافر رحمة للأبرار، حيث يخلصوا من أيدي الفجار. وقال أبو عبيد: من روح اللَّه لأنها تنفس الكروب، وتسير بالغيث، وتنشئ السحاب، وتذهب الحزن، فهي مما يروح اللَّه بها على المكروبين»[(٥)].

وقال العيني: «اعلم أن هاهنا المسؤول ثلاث خيرات: الأول: خير نفس الريح. والثاني: خير ما فيها. والثالث: خير ما أرسلت به. أما خير نفس الريح مثل تلذذ بني آدم ببرودتها في الحر، وإعطائها الطراوة، والبدارة للنباتات، وذهابها بالروائح الكريهة ونحو ذلك، وأما خير ما فيها مثل نزول المطر النافع؛ لأن المطر لا يجيء إلا ويسبقها الريح، وأما خير ما أرسلت به مثل السحاب لأنه يجيء

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٥١٨) والبخاري في الأدب المفرد (ح ٧٢٠) وأبو داود (٥/ ٣٢٨-٣٢٩/ ٥٠٩٧) وابن ماجه (٢/ ١٢٢٨/ ٣٧٢٧).

(٢) أخرجه: عبد اللَّه بن أحمد زوائد المسند (٥/ ١٢٣)، والترمذي (٤/ ٤٥١-٤٥٢/ ٢٢٥٢). وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٣١/ ١٠٧٦٩). انظر الصحيحة (٢٧٥٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢/ ٦١٦/ ٨٩٩ [١٥]) والترمذي (٥/ ٤٦٩/ ٣٤٤٩) وقال: حسن.

وأخرجه أحمد (٦/ ٢٤١) والبخاري (٦/ ٣٦٩/ ٣٢٠٦) والنسائي في الكبرى (١/ ٥٦٢/ ١٨٣١) وابن ماجه (٢/ ١٢٨٠-١٢٨١/ ٣٨٩١) دون ذكر الدعاء.

(٤) الواقعة: الآية (٨٩).

(٥) الفتوحات الربانية (٤/ ٢٧٢-٢٧٣).

بالريح، وله خير وشر، خيره مثل المطر النافع، وشره مثل المطر الضار، فافهم»[١].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلًا لعن الريح. فقال له النبي ﷺ: «**لا تلعن الريح فإنها مأمورة، وإنه من لعن شيئًا ليس له بأهل؛ رجعت اللعنة عليه**»[٢].

⋆ فوائد الحديث:

قال خليل أحمد السهارنفوري: «**«فإنها مأمورة»**؛ يعني: أنها تذهب بأمر اللّه ﷻ، فهي ليست أهلًا للعن **«وإنه»** أي الشأن **«من لعن شيئًا ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه»** أي على اللاعن»[٣].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «**نصرت بالصَّبا، وأهلكت عاد بالدَّبور**»[٤].

⋆ غريب الحديث:

الصّبا: الريح الشرقية.

الدّبور: الريح الغربية.

⋆ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وهذا معنى ما جاء في الخبر أن اللّه ﷻ فرّج عن نبيه ﷺ بالريح يوم الأحزاب؛ فقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[٥]»[٦].

قال الحافظ: «فالصبا تؤلف السحاب وتجمعه، فالمطر في الغالب يقع حينئذ، وقد وقع في الخبر الماضي: أنه كان إذا أمطرت سُرّي عنه، وذلك يقتضي أن تكون الصبا أيضًا؛ مما يقع التخوف عند هبوبها... يقال لها -(يعني الصبا)-: القَبول

---

(١) العلم الهيب (ص: ٤١١).

(٢) أخرجه: أبو داود (٥/ ٢١٢/ ٤٩٠٨) والترمذي (٤/ ٣٠٩/ ١٩٧٨). وقال: حسن غريب. وصححه ابن حبان (الإحسان ١٣/ ٥٥-٥٦/ ٥٧٤٥) (١٩/ ١٥٠-١٥١).

(٣) بذل المجهود (١٩/ ١٥٠-١٥١).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٨) والبخاري (٢/ ٦٦١/ ١٠٣٥) ومسلم (٢/ ٦١٧/ ٩٠٠) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٧/ ١١٦١٧).

(٥) الأحزاب: الآية (٩).

(٦) الجامع (٢/ ١٩٧-١٩٨).

بفتح القاف لأنها تقابل باب الكعبة؛ إذ مهبّها من مشرق الشمس، وضدها الدّبور، وهي التي أهلكت بها قوم عاد. ومن لطيف المناسبة؛ كون القَبول نصرت أهل القَبول، وكون الدَّبور أهلكت أهل الإدبار. وأن الدبور أشد من الصبا، لما سنذكره في قصة عاد: أنها لم يخرج منها إلا قدر يسير، ومع ذلك استأصلتهم، قال اللَّه تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾[1]»[2].

* * *

---

(١) الحاقة: الآية (٨).

(٢) الفتح (٢/ ٦٦٢).

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١]

★ غريب الآية:

السحاب: الغيم، سمي بذلك لانجراره في السماء.

المسخر: المذلل و الممهد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي سائر بين السماء والأرض مسخر إلى ما يشاء اللَّه من الأراضي والأماكن كما يصرفه تعالى»[٢].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لم يبيّن هنا كيفية تسخيره، ولكنه بيّن ذلك في مواضع أخر، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٣]» وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾[٤]»[٥].

قال القرطبي: «وتسخيره بعثه من مكان إلى آخر. وقيل: تسخيره ثبوته بين السماء والأرض من غير عمد ولا علائق، والأول أظهر. وقد يكون بماء وبعذاب. . وفي التنزيل: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾[٦] وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾[٧]»[٨].

قال القنوجي: «والآية في ذلك: أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأودية العظيمة؛ يبقى معلقًا بين السماء والأرض بلا علاقة تمسكه،

---

(١) البقرة: الآية (١٦٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٥).
(٣) الأعراف: الآية (٥٧).
(٤) النور: الآية (٤٣).
(٥) أضواء البيان (١/ ٨٩).
(٦) فاطر: الآية (٩).
(٧) الأعراف: الآية (٥٧).
(٨) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٠٠).

ولا دعامة تسنده، وفيه آيات أخر»[١].

قال محمد رشيد رضا: «ذكر السحاب هنا بعد ذكر تصريف الرياح لأنها هي التي تثيره، وتجمعه وهي التي تسوقه إلى حيث يمطر، وتفرّق شمله أحيانًا فيمتنع المطر. ولم يذكره عند ذكر الماء مع أنه سببه المباشر ليرشدنا إلى أنه في نفسه آية، فإنه يتكون بنظام، ويعترض بين السماء والأرض بنظام، فهو في ظاهره آية تدهش الناظر الجاهل بالسبب لو لم يألف ذلك، ويأنس به، وإنما يعرفها حق معرفتها؛ من وقف على السنن الإلهية في اجتماع الأجسام اللطيفة وافتراقها، وعلوها وتسفّلها، وهو ما يعبّر عنه علماء هذا الشأن بالجاذبية، وهي أنواع، منها جاذبية الثقل، والجاذبية العامة، وجاذبية الملاصقة، ومن لا يعرف أسرار هذه الكائنات، وإنما ينظر إلى ظواهرها فيراها كما تراها العجماوات، فهو لا يفهم معنى كونها آيات؛ لأنه أهمل آلة الفهم التي امتاز بها، وهي العقل ولذلك قال اللَّه تعالى: إن في هذه الأشياء ﴿لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إرشاد المسلم إلى ما يكون عليه من الآداب حال رؤية السحاب

* عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا رأى سحابًا مقبلًا من أفق من الآفاق؛ ترك ما هو فيه، وإن كان في صلاة حتى يستقبله، فيقول: «**اللهم إنا نعوذ بك من شر ما أرسل به**». فإن أمطر قال: «**اللهم سيّبًا نافعًا**»؛ مرتين أو ثلاثًا، وإن كشفه اللَّه عز وجل ولم يمطر؛ حمد اللَّه على ذلك[٣].

★ **غريب الحديث:**

سيّبا: أي مطرًا جاريًا على وجه الأرض من كثرته. وفي رواية: صيّبًا: و هو ما سال من المطر.

---

(١) فتح البيان (١/ ٣٣٠).

(٢) تفسير المنار (٢/ ٦٦-٦٧).

(٣) أخرجه: أبو داود (٥/ ٣٣٠/ ٥٠٩٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٢٧/ ١٠٧٥٠) وابن ماجه (٢/ ١٢٨٠/ ٣٨٨٩) واللفظ له.

* عن أبي هريرة ﷺ: عن النبي ﷺ قال: «**بينما رجل بفلاة من الأرض؛ فسمع صوتًا في سحابة: اسق حديقة فلان. فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرة، فإذا شرجة من تلك الشِّراج؛ قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء؛ فإذا رجل قائم في حديقته يحوّل الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله! ما اسمك؟ قال: فلان. للاسم الذي سمع في السحابة. فقال له: يا عبد الله! لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذ قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثًا، وأردّ فيها ثلثه**»[1].

⋆ غريب الحديث:

الحديقة: البستان الذي يدور عليه الحائط.

الحرة: أرض ذات حجارة سود.

الشرجة: واحدة الشراج، والشرج: مسيل الماء من الحرة إلى السهل.

المسحاة: المجرفة من الحديد.

⋆ فوائد الحديثين:

قال القرطبي: «فهذه الأحاديث والآي تدل على صحة القول الأول وأن تسخيرها ليس ثبوتها؛ والله تعالى أعلم، فإن الثبوت يدل على عدم الانتقال؛ فإن أريد بالثبوت كونها في الهواء ليست في السماء ولا في الأرض فصحيح، لقوله (بين) وهي مع ذلك مسخرة محمولة، وذلك أعظم في القدرة، كالطير في الهواء»[2].

قال العيني: «وجه الاستعاذة أنه كان يخاف أن يكون فيها عذاب كما كان على من قبلنا من الكفار»[3].

وقال ابن حجر: «وفيه الاستعداد بالمراقبة لله، والالتجاء إليه عند اختلاف الأحوال وحدوث ما يخاف بسببه»[4].

---

(١) أخرجه: أبو داود (٥/ ٢١٢/ ٤٩٠٨) والترمذي (٤/ ٣٠٩/ ١٩٧٨) وقال: حسن غريب. وصححه ابن حبان (الاحسان ١٣/ ٥٥-٥٦/ ٥٧٤٥).

(٢) تفسير القرطبي (٢/ ٢٠١).

(٣) العلم الهيب (ص: ٤١٢).

(٤) فتح الباري (٢/ ٦٦١).

قوله: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية اللَّه تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1]»[2].

قال الشوكاني: «لما ذكر سبحانه التوحيد بقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ عقب ذلك بالدليل الدال عليه، وهو هذه الأمور التي هي من أعظم صنعة الصانع الحكيم، مع علم كل عاقل بأنه لا يتهيأ من أحد من الآلهة التي أثبتها الكفار؛ أن يأتي بشيء منها، أو يقتدر عليه أو على بعضه، وهي خلق السموات، وخلق الأرض، وتعاقب الليل والنهار، وجري الفلك في البحر، وإنزال المطر من السماء، وإحياء الأرض به، وبث الدواب منها بسببه، وتصريف الرياح، فإن من أمعن نظره وأعمل فكره في واحد منها انبهر له، وضاق ذهنه عن تصور حقيقته، وتحتم عليه التصديق بأن صانعه هو اللَّه سبحانه»[3].

قال القنوجي: «﴿لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ أي: دلالات على وحدانيته سبحانه، لمن ينظر ببصره، ويتفكر بعقله، وإنما جمع آيات؛ لأن في كل واحد مما ذكر من هذه الأنواع؛ آيات كثيرة تدل على أن لها خالقًا، مدبّرًا، مختارًا. ففي هذه الأنواع الثمانية دلالة عظيمة على وجود الصانع القادر المختار، وأنه الواحد في ملكه، فلا شريك له ولا نظير، وهو المراد بقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾»[4].

وقال ابن عاشور: «والمقصود من هاته الآية إثبات دلائل وجود اللَّه تعالى

---

(١) آل عمران: الآيتان (١٩٠و١٩١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٥).

(٣) فتح القدير (١/ ٢٤١).

(٤) فتح البيان (١/ ٣٣٠).

ووحدانيته، ولذلك ذكرت إثر ذكر الوحدانية؛ لأنها إذا أثبتت بها الوحدانية ثبت الوجود بالضرورة.

فالآية صالحة للرد على كفار قريش دهريهم ومشركهم، والمشركون هم المقصود ابتداء، وقد قرر اللَّه في هاته الآية دلائل كلها واضحة من أصناف المخلوقات، وهي مع وضوحها تشتمل على أسرار يتفاوت الناس في دركها، حتى يتناول كل صنف من العقلاء مقدار الأدلة منها على قدر قرائحهم وعلومهم»[1].

قال البقاعي: «وسبب تكثير الأدلة أن عقول الناس متفاوتة، فجعل ﷻ العالَم -وهو الممكنات الموجودة، وهي جملة ما سواه الدالة على فعله ووجوده بالاختيار- على قسمين: قسم من شأنه أن يدرك بالحواس الظاهرة، ويسمى في عرف أهل الشرع: الشهادة، والخلق، والملك. وقسم لا يدرك بالحواس الظاهرة، ويسمى الغيب، والأمر، والملكوت. والأول يدركه عامة الناس، والثاني يدركه أولوا الألباب الذين عقولهم خالصة عن الوهم والوساوس. فاللَّه ﷻ -بكمال عنايته ورأفته ورحمته- جعل العالم بقسميه محتويًا على جمل وتفاصيل من وجوه متعددة، وطرق متكثرة، تعجز القوى البشرية عن ضبطها، يستدل بها على وحدانيته، بعضها أوضح من بعض، ليشترك الكل في المعرفة، فيحصل لكلٍّ بقدر ما هيئ له، اللهم إلا أن يكون ممن طبع على قلبه، فذلك -والعياذ باللَّه سبحانه- هو الشقي»[2].

قال أبو حيان: «لأنه لا يتفكر في هذه الآيات العظيمة إلا من كان عاقلًا؛ فإنه يشاهد من هذه الآية ما يستدل به على وحدانية اللَّه تعالى، وانفراده بالإلهية، وعظيم قدرته، وباهر حكمته. وقد أثر في الأثر: ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها؛ أي: لم يتفكر فيها ولم يعتبر بها. ومناسبة هذه الآية لما قبلها؛ هو أنه لما ذكر تعالى أنه واحد، وأنه منفرد بالإلهية، لم يكتف بالإخبار حتى أورد دلائل الاعتبار. ثم مع كونها دلائل، بل هي نعم من اللَّه على عباده، فكانت أوضح لمن يتأمل، وأبهر لمن يعقل، إذ التنبيه على ما فيه النفع باعث على الفكر. لكن لا تنفع هذه

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٧٧).
(٢) نظم الدرر (٢/ ٣٠٠-٣٠١).

الدلائل إلا عند من كان متمكنًا من النظر والاستدلال بالعقل الموهوب من عند الملك الوهاب»[١].

قال ابن جرير: «فأما معنى قوله: ﴿لَآيَٰتٍ﴾؛ فإنه علامات ودلالات، على أن خالق ذلك كله ومنشئه إله واحد، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لمن عقل مواضع الحجج، وفهم عن اللَّه أدلته على وحدانيته. فأعلم -تعالى ذكره- عباده بأن الأدلة والحجج إنما وضعت معتبرًا لذوي العقول والتمييز دون غيرهم من الخلق، إذ كانوا هم المخصوصين بالأمر والنهي، والمكلفين بالطاعة والعبادة، ولهم الثواب، وعليهم العقاب»[٢].

قال الرازي: «قال القاضي عبد الجبار: الآية تدل على أمور: أحدها: أنه لو كان الحق يدرك بالتقليد واتباع الآباء والجري على الألف والعادة؛ لما صحّ ذلك. وثانيها: لو كانت المعارف ضرورية وحاصلة بالإلهام لما صح وصف هذه الأمور بأنها آيات؛ لأن المعلوم بالضرورة لا يحتاج في معرفته إلى الآيات. وثالثها: أن سائر الأجسام والأعراض وإن كانت تدل على الصانع؛ فهو تعالى خص هذه الثمانية بالذكر لأنها جامعة بين كونها دلائل وبين كونها نعمًا على المكلفين، على أوفر حظ ونصيب، ومتى كانت الدلائل كذلك؛ كانت أنجع في القلوب وأشد تأثيرًا في الخواطر»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في ذكر بعض المخلوقات الكونية وأيام خلقها

* عن أبي هريرة، قال: أخذ رسول اللَّه ﷺ بيدي فقال: «**خلق اللَّه ﷻ التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم ؈ بعد العصر من يوم الجمعة، في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل**»[٤].

---

(١) البحر (١/ ٦٤٢). (٢) جامع البيان (٢/ ٦٥).

(٣) تفسير الفخر الرازي (٤/ ٢٢٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٧) ومسلم (٤/ ٢١٤٩-٢١٥٠/ ٢٧٨٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٩٣/ ١١٠١٠)، انتقد بعض العلماء هذا الحديث على مسلم وانظر ردّ هذا الانتقاد وبيانه في الصحيحة (١٨٣٣).

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «وقوله: «**والنور يوم الأربعاء**» ويعني به الأجسام النيرة كالشمس والقمر والكواكب، ويتضمن هذا؛ أنه تعالى خلق السموات يوم الأربعاء؛ لأن هذه الكواكب في السموات، ونورها: ضوؤها الذي بين السماء والأرض، واللَّه تعالى أعلم. وتحقيق هذا أنه لم يذكر في هذا الحديث نصا على خلق السموات، مع أنه ذكر فيه أيام الأسبوع كلها، وذكر ما خلق اللَّه تعالى فيها، فلو خلق السموات في يوم زائد على أيام الأسبوع، لكان خلق السموات والأرض في ثمانية أيام، وذلك خلاف المنصوص عليه في القرآن، ولا صائر إليه»[١].

وقال البخاري: «ما جاء في تخليق السموات والأرض وغيرها من الخلائق، وهو فعل الرب -تبارك وتعالى- وأمره، فالرب بصفاته وفعله وأمره هو الخالق المكون غير مخلوق، وما كان بفعله وأمره وتخليقه وتكوينه فهو مفعول مخلوق مكون»[٢].

ثم ذكر فيه حديث ابن عباس، وسيأتي -إن شاء اللَّه- عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٣].

* * *

(١) المفهم (٧/ ٣٤٣).
(٢) الفتح (١٣/ ٥٣٨).
(٣) آل عمران: الآية (١٩٠).

قول اللَّه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾[1]

★ غريب الآية:

أندادا: واحدها ند، وهو المثل المناوئ، قال جرير:

أَتَيْمٌ تجعلون إليّ ندا وهل تَيْم لذي حسب نديد؟

الحب: نقيض البغض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا، ومالهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أندادا أي أمثالا ونظراء، يعبدونهم معه، ويحبونهم كحبه، وهو اللَّه لا إله إلا هو ولا ضد له، ولا ندّ له، ولا شريك معه، وفي الصحيحين عن عبد اللَّه بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله! أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندا وهو خلقك**»[2] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ ولحبهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له؛ لا يشركون به شيئًا، بل يعبدونه وحده، ويتوكلون عليه، ويلجأون في جميع أمورهم إليه»[3].

قال شيخ الإسلام: «والذي جاء به الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة، وعليه مشايخ المعرفة وعموم المسلمين؛ أن اللَّه يُحِب ويحَب، كما نطق بذلك الكتاب والسنة في مثل قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[4] ومثل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[5] بل لا شيء يستحق أن يحَب لذاته محبةً مطلقة إلا اللَّه وحده، وهذا من معنى كونه معبودًا، فحيث جاء

---

(١) سورة البقرة (١٦٥).

(٢) سيأتي تخريجه في أحاديث الباب.

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٦).

(٤) المائدة: الآية (٥٤).

(٥) آل عمران: الآية (٣١).

القرآن بالأمر بالعبادة والثناء على أهلها، أو على المنيبين إلى اللَّه والتوابين إليه أو الأوابين أو المطمئنين بذكره، أو المحبين له ونحو ذلك؛ فهذا كله يتضمن محبته، وما لا يحَب يمتنع كونه معبودًا ومألوهًا ومطمأنًا بذكره، ومن أطيع لعِوض يؤخذ منه، أو لدفع ضرره؛ فهذا ليس بمعبود ولا إله، بل قد يكون الشخص كافرًا وظالمًا يبغض ويلعن؛ ومع هذا يعمل معه عامل بعوض، فمن جعل العمل لله لا يكون إلا لذلك؛ فلم يُثبت الرب إلهًا معبودًا، ولا ربًّا محمودًا، وهو حقيقة قول النفاة من الجهمية والقدرية النافية والمثبتة، واللَّه ﷻ رغب في عبادته، والعمل له بما ذكره من الوعد، ورهب من الكفر به والشرك بما ذكره من الوعيد، وهو حق؛ لكنه لم يقل: إن العابد لله والعامل له لا يحصل له إلا ما ذكر، بل وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1] وفي الحديث الصحيح: يقول اللَّه تعالى: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخرًا، بَله ما أطلعتهم عليه، اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾**»[2] وقد ثبت في الحديث الصحيح عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «**يقول اللَّه يا أهل الجنة! إن لكم عندي موعدا أريد أن أنجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم تبيّض وجوهنا، وتثقل موازيننا، وتدخلنا الجنة، وتجرنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه**»[3] وهي الزيادة»[4].

قال ابن القيم: «فأخبر أن من أحب من دون اللَّه شيئًا، كما يحب اللَّه تعالى: فهو ممن اتخذ من دون اللَّه أندادا، فهذا ندّ في المحبة، لا في الخلق والربوبية. فإن أحدا من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية، بخلاف ند المحبة. فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون اللَّه أندادًا في الحب والتعظيم. ثم قال ﴿وَٱلَّذِينَ

---

(١) السجدة: الآية (١٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٣) والبخاري (٦/ ٣٩١/ ٣٢٤٤) ومسلم (٤/ ٢١٧٤/ ٢٨٢٤) والترمذي (٥/ ٣٢٣/ ٣١٩٧) وابن ماجه (٢/ ١٤٤٧/ ٤٣٢٨) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٢-٣٣٣) ومسلم (١/ ١٦٣/ ١٨١) والترمذي (٤/ ٥٩٣/ ٢٥٥٢) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٢٠/ ٧٧٦٦) وابن ماجه (١/ ٦٧/ ١٨٧) من حديث صهيب بن سنان ﵁.

(٤) النبوات (١/ ٣٣٨-٣٤٠).

ﵟءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗﵞ وفي تقدير الآية قولان:

أحدهما: ﵟوَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗﵞ من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها، ويعظمونها من دون اللَّه.

والثاني: ﵟوَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗﵞ من محبة المشركين بالأنداد لله. فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها. والمحبة الخالصة: أشد من المشتركة. والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى: ﵟيُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖﵞ فإن فيها قولين:

أحدهما: يحبونهم كما يحبون اللَّه. فيكون قد أثبت لهم محبة اللَّه. ولكنها محبة يشركون فيها مع اللَّه أندادًا.

والثاني: أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون اللَّه. ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يرجح القول الأول، ويقول: إنما ذموا بأن أشركوا بين اللَّه وبين أندادهم في المحبة. ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له.

وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم. وهم في النار يقولون لآلهتهم وأندادهم -وهي محضرة معهم في العذاب- «ﵟتَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَﵞ[1] ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية. وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم. وهذا أيضًا هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﵟثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَﵞ[2] أي: يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم. وهذا أصح القولين»[3].

وقال المقريزي: «فالشرك في الإلهية والعبادة هو الغالب على الإشراك، وهو شرك عباد الأصنام، وعباد الملائكة، وعباد الجن، وعباد المشايخ والصالحين: الأحياء والأموات، الذين قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللَّه زلفى، ويشفعوا لنا عنده، وينالنا بسبب قربهم من اللَّه وكرامته لهم قرب وكرامة، كما هو المعهود في الدنيا من حصول الكرامة والزلفى، لمن يخدم أعوان الملك وأقاربه وخاصته!!

(١) الشعراء: الآيتان (٩٧ و ٩٨). (٢) الأنعام: الآية (١).
(٣) المدارج (٣/ ٢٠-٢١).

والكتب الإلهية كلها من أولها إلى آخرها تبطل هذا المذهب، وتردّه وتقبّح أهله، وتنصّ على أنهم أعداء اللَّه تعالى، وجميع الرسل صلوات اللَّه وسلامه عليهم متفقون على ذلك من أولهم إلى آخرهم وما أهلك اللَّه تعالى من الأمم إلا بسبب هذا الشرك ومن أجله. وأصله الشرك في محبة اللَّه تعالى، قال تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ فأخبر ﷻ: أنه من أحب مع اللَّه شيئًا غيره كما يحبه فقد اتخذ ندًا من دونه، وهذا على أصح القولين في الآية؛ أنهم يحبونهم كما يحبون اللَّه، وهذا هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ والمعنى على أصح القولين أنهم يعدلون به غيره في العبادة، فيسوّون بينه وبين غيره في الحب والعبادة. وكذلك قول المشركين في النار لأصنامهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]. ومعلوم قطعًا أن هذه التسوية لم تكن بينهم وبين اللَّه في كونه ربّهم وخالقهم، فإنهم كانوا كما أخبر اللَّه عنهم مقرّين بأن اللَّه تعالى وحده هو ربهم وخالقهم، وأن الأرض ومن فيها لله وحده، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم، وأنه ﷻ هو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، وإنما كانت هذه التسوية بينهم وبين اللَّه تعالى في المحبة والعبادة، فمن أحب غير اللَّه تعالى وخافه ورجاه وذلّ له كما يحب اللَّه تعالى ويخافه ويرجوه؛ فهذا هو الشرك الذي لا يغفره اللَّه، فكيف بمن غير اللَّه آثر عنده وأحب إليه، وأخوف عنده، وهو في مرضاته أشدّ سعيًا منه في مرضاة الله؟! فإذا كان المسوي بين اللَّه وبين غيره في ذلك مشركًا؛ فما الظن بهذا؟ فعياذا باللَّه من أن ينسلخ القلب من التوحيد والإسلام كانسلاخ الحية من قشرها وهو يظن أنه مسلم موحّد. فهذا أحد أنواع الشرك، والأدلة الدالة على أنه تعالى يجب أن يكون وحده هو المألوه؛ يبطل هذا الشرك، ويدحض حجج أهله، وهو أكثر من أن يحيط بها إلا اللَّه، بل كل ما خلقه اللَّه تعالى فهو آية شاهدة بتوحيده، وكذلك كل ما أمره به فخلقه وأمره، وما فطر عليه عباده وركبه فيهم، من القوى شاهد بأن اللَّه الذي لا إله إلا هو، وأن كل معبود سواه باطل، وأنه هو الحق المبين، تقدس وتعالى»[2].

---

(١) الشعراء: الآيتان: (٩٧و٩٨).

(٢) تجريد التوحيد المفيد (ص: ٢٥-٢٨).

قلت: وفي هذا الكلام الطيب ما يدل على أن الحق واحد لا يتجزأ ولا يتنوع، فالذي يقرأ هذا المقطع من كتاب تجريد التوحيد؛ يجزم جزمًا قاطعًا أنه هو وما يقرره شيخ الإسلام ابن تيمية كأنه يخرج من مشكاة واحدة، فالسياق هو السياق، والاحتجاج بالحجج هو هو، وهكذا لو تتبعت كلام السلف لوجدته يشبه بعضه بعضًا، ويصدق بعضه بعضًا، وفي المقابل كلام المحرفين والضالين تجده يخرج من مشكاة إبليس، فلا فرق بين أولهم وآخرهم، فالكذب هو الكذب، والتأويل المستقبح هو التأويل، والاستدلال بالضعيف والموضوع هو الاستدلال، فلا تجد لهم قوامةً علميّةً، ولا فهمًا صحيحًا، ولا صدقًا فيما يدعون ويُنَظِّرون له، فهم كالأنعام؛ بل هم أضل، نعوذ باللَّه من شرهم.

قال شيخ الإسلام: «والمحبة جنس تحته أنواع كثيرة، فكل عابد محب لمعبوده، فالمشركون يحبون آلهتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ وفيه قولان: أحدهما: يحبونهم كحب المؤمنين لله. والثاني: يحبونهم كما يحبون الله؛ لأنه قد قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ فلم يمكن أن يقال: إن المشركين يعبدون آلهتهم كما يعبد الموحدون اللَّه، بل كما يحبون -هم- اللَّه، فإنهم يعدلون آلهتهم برب العالمين، كما قال: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ وقال: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقد قال بعض من نصر القول الأول في الجواب عن حجة القول الثاني: قال المفسرون: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أي: أشد حبًّا لله من المشركين لآلهتهم. فيقال له: ما قاله هؤلاء المفسرون مُناقض لقولك، فإنك تقول: إنهم يحبون الأنداد كحب المؤمنين لله، وهذا يناقض أن يكون المؤمنون أشد حبًّا لله من المشركين لأربابهم، فتبين ضعف هذا القول، وثبت أن المؤمنين يحبون اللَّه أكثر من محبة المشركين لله ولآلهتهم؛ لأن أولئك أشركوا في المحبة، والمؤمنون أخلصوها كلها لله. وأيضًا: فقوله: ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ أُضيف فيه المصدر إلى المحبوب المفعول، وحذف فاعل الحب، فإما أن يراد: كما يُحَب اللَّه -من غير تعيين فاعل- فيبقى عامًّا في حق الطائفتين، وهذا يناقض قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ وإما أن يراد: كحبهم لله، ولا يجوز أن يراد: كما يحب غيرهم لله، إذ ليس في الكلام ما يدل على هذا، بخلاف حبهم؛

فإنه قد دل عليه قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ فأضاف الحب المشبه إليهم، فكذلك الحب المشبه لهم، إذ كان سياق الكلام يدل عليه، إذا قال: يحب زيدًا كحب عمرو، أو يحب عليا كحب أبي بكر، أو يحب الصالحين من غير أهله كحب الصالحين من أهله، أو قيل: يحب الباطل كحب الحق، أو يحب سماع المكاء و التصدية كحب سماع القرآن، وأمثال ذلك. لم يكن المفهوم إلا أنه هو المحب للمشبه والمشبه به، وأنه يحب هذا كما يحب، هذا لا يفهم منه أنه يحب هذا كما يحب غيره هذا، إذ ليس في الكلام ما يدل على محبة غيره أصلًا.

والمقصود أن المحبة تكون لما يتخذ إلها من دون اللَّه، وقد قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[1] فمن كان يعبد ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه، فما هوِيه هويهُ إلهه، فهو لا يتأله من يستحق التأله، بل يتأله ما يهواه، وهذا المتخذ إلهه هواه له محبة كمحبة المشركين لآلهتهم، ومحبة عُبّاد العجل له، وهذه محبة مع اللَّه لا محبة لله، وهذه محبة أهل الشرك. والنفوس قد تدعي محبة اللَّه، وتكون في نفس الأمر محبة شرك، تحب ما تهواه، وقد أشركته في الحب مع اللَّه، وقد يخفى الهوى على النفس، فإن حبك الشيء يعمي ويصم»[2].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن أحب مخلوقًا مثل ما يحب الخالق فهو مشرك، ويجب الفرق بين الحب في اللَّه، والحب مع اللَّه، فالأول من تمام محبة اللَّه وتوحيده، والثاني: شرك. فالأول يكون اللَّه هو المحبوب له لذاته، ويحب ما يحبه الرب تعالى، تبعا لمحبته، فيحب رسوله وكتابه وعباده المؤمنين كما في الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، من كان اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه اللَّه منه كما يكره أن يلقى في النار**»[3] وأما الحب مع اللَّه فهو الذي يحب محبوبًا في قلبه لذاته لا لأجل اللَّه، كحب المشركين أندادهم.

وهؤلاء الذين اتخذوا القبور أوثانا تجدهم يستهزئون بما هو من توحيد اللَّه

---

(١) الجاثية: الآية (٢٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٥٧-٣٥٩).

(٣) سيأتي تخريجه.

وعبادته، ويعظمون ما اتخذوه من دون اللَّه شفعاء، حتى إن طوائف منهم يستخفون بحج البيت وبمن يحج البيت، ويرون أن زيارة أئمتهم وشيوخهم أفضل من حج البيت، وهذا موجود في الشيعة وفي المنتسبين إلى السنة، وآخرون يستخفون بالمساجد وبالصلوات الخمس فيها، ويرون أن دعاء شيخهم أفضل من هذا، وهذا موجود في الشيعة المنتسبين إلى يونس القيني»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في التحذير من الشرك لا سيما في المحبة

* عن ابن مسعود ﷺ؛ قال النبي ﷺ كلمة وقلت أخرى: قال النبي ﷺ: «**من مات وهو يدعو من دون اللَّه ندًّا دخل النار**». وقلت أنا: (من مات وهو لا يدعو لله ندًّا دخل الجنة)[2].

* عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: قلت: يا رسول الله! أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندا وهو خلقك**»[3].

★ فوائد الحديثين:

قال النووي: «وأما حكمه ﷺ على من مات يشرك بدخول النار، ومن مات غير مشرك بدخوله الجنة؛ فقد أجمع عليه المسلمون.

فأما دخول المشرك النار فهو على عمومه، فيدخلها ويخلد فيها، ولا فرق فيه بين الكتابي اليهودي والنصراني، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عنادا وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام، وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده ما يكفر بجحده وغير ذلك.

وأما دخول من مات غير مشرك الجنة؛ فهو مقطوع له به، لكن إن لم يكن

---

(١) الاستغاثة في الرد على البكري (٢/ ٥٧٩-٥٨٠).

(٢) أحمد (١/ ٣٧٤) والبخاري (٨/ ٢٢٣/ ٤٤٩٧) ومسلم (١/ ٩٤/ ٩٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٩٣-٢٩٤/ ١١٠١١).

(٣) أحمد (١/ ٣٨١) والبخاري (٨/ ٢٠٧/ ٤٤٧٧) ومسلم (١/ ٩٠-٩١/ ٨٦) وأبو داود (٢/ ٧٣٢/ ٢٣١٠) والترمذي (٥/ ٣١٤-٣١٥/ ٣١٨٢-٣١٨٣) والنسائي (٧/ ١٠٣-١٠٤/ ٤٠٢٤).

صاحب كبيرة مات مصرًّا عليها؛ دخل الجنة أولًا، وإن كان صاحب كبيرة مات مصرًّا عليها؛ فهو تحت المشيئة، فإن عفي عنه دخل أولا، وإلا عذب، ثم أخرج من النار، وخلد في الجنة، واللَّه أعلم»(١).

قال عبد الرحمن بن حسن: «وهذا الحديث فيه التحذير من الشرك أيضًا والتخويف منه، والند: المثل والشبيه، فمن دعا ميتًا أو غائبًا وأقبل إليه بوجهه وقلبه رغبة إليه ورهبة منه سواء سأله أو لم يسأله؛ فهذا هو الشرك الذي لا يغفره اللَّه، ولهذا حرم اللَّه تعالى اتخاذ الشفعاء وأنكره على من فعل ذلك أشد الإنكار؛ لكونه ينافي الإخلاص الذي هو إقبال القلب والوجه على اللَّه في كل ما يخافه العبد ويرجوه، ويتقرب به ويدين به. ومن المعلوم أنه إذا التفت للشفيع يسأله فقد أعرض بوجهه وقلبه عن اللَّه تعالى إلى غيره وذلك ينافي الإخلاص»(٢).

* عن أنس ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه اللَّه منه كما يكره أن يقذف في النار**»(٣).

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «قال البيضاوي: المراد بالحب هنا الحب العقلي الذي هو إيثار ما يقتضي العقل السليم رجحانه، وإن كان على خلاف هوى النفس، كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه، ويميل إليه بمقتضى عقله فيهوى تناوله، فإذا تأمل المرء أن الشارع لا يأمر ولا ينهى إلا بما فيه صلاح عاجل أو خلاص آجل -والعقل يقتضي رجحان جانب ذلك-؛ تمرن على الائتمار بأمره بحيث يصير هواه تبعا له، ويلتذ بذلك التذاذًا عقليًا؛ إذ الالتذاذ العقلي إدراك ما هو كمال وخير من حيث هو كذلك. وعبر الشارع عن هذه الحالة بالحلاوة؛ لأنها أظهر اللذائذ المحسوسة. قال: وإنما جعل هذه الأمور الثلاثة عنوانا لكمال الإيمان؛ لأن المرء إذا تأمل أن

---

(١) شرح مسلم (٢/ ٨٤). (٢) قرة العيون (ص: ٤٦).

(٣) أحمد (٣/ ١٠٣) والبخاري (١/ ٨٢/ ١٦) ومسلم (١/ ٦٦/ ٤٣) والترمذي (٥/ ١٦/ ٢٦٢٤) والنسائي (٨/ ٤٧٢/ ٥٠٠٤).

المنعم بالذات هو اللَّه تعالى، وأن لا مانح ولا مانع في الحقيقة سواه، وأن ما عداه وسائط، وأن الرسول هو الذي يبين له مراد ربه؛ اقتضى ذلك أن يتوجه بكليته نحوه، فلا يحب إلا ما يحب، ولا يحب من يحب إلا من أجله. وأن يتيقن أن جملة ما وعد وأوعد حق يقينا. ويخيل إليه الموعود كالواقع، فيحسب أن مجال الذكر رياض الجنة، وأن العود إلى الكفر إلقاء في النار. انتهى ملخصا»[١].

وقال: «فيه إشارة إلى التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل، فالأول من الأول والأخير من الثاني. وقال غيره: محبة اللَّه على قسمين: فرض وندب، فالفرض المحبة التي تبعث على امتثال أوامره، والانتهاء عن معاصيه، والرضا بما يقدره، فمن وقع في معصية من فعل محرم أو ترك واجب؛ فلتقصيره في محبة اللَّه حيث قدم هوى نفسه. والتقصير تارة يكون مع الاسترسال في المباحات والاستكثار منها، فيورث الغفلة المقتضية للتوسع في الرجاء فيقدم على المعصية، أو تستمر الغفلة فيقع. وهذا الثاني يسرع إلى الإقلاع مع الندم»[٢].

قال شيخ الإسلام: «أخبر النبي ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ لأن وجْد الحلاوة بالشيء يتبع المحبة له، فمن أحب شيئًا أو اشتهاه إذا حصل له مراده؛ فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك. واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهى. ومن قال: إن اللذة إدراك الملائم كما يقوله من يقوله من المتفلسفة والأطباء؛ فقد غلط في ذلك غلطًا بينًا، فإن الإدراك يتوسط بين المحبة واللذة، فإن الإنسان مثلا يشتهي الطعام، فإذا أكله حصل له عقيب ذلك اللذةُ. فاللذة تتبع النظر إلى الشيء، فإذا نظر إليه التذ، فاللذة تتبع النظر، ليست نفس النظر، وليست هي رؤية الشيء، بل تحصل عقيب رؤيته. وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[٣]، وهكذا جميع ما يحصل للنفس من اللذات والآلام؛ من فرح وحزن ونحو ذلك؛ يحصل بالشعور بالمحبوب، أو الشعور بالمكروه، وليس نفس الشعور هو الفرح ولا الحزن، فحلاوة الإيمان المتضمنة من اللذة به والفرح؛ ما يجده المؤمن الواجد من حلاوة

---

(١) الفتح (١/ ٨٣).
(٢) الفتح (١/ ٨٣-٨٤).
(٣) الزخرف: الآية (٧١).

الإيمان، تتبع كمال محبة العبد لله وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه المحبة، وتفريعها، ودفع ضدها. فتكميلها: أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، فإن محبة اللَّه ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب، بل لا بد أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما كما تقدم. و تفريعها: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله. ودفع ضدها: أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار. فإذا كانت محبة الرسول والمؤمنين من محبة اللَّه، وكان رسول اللَّه ﷺ يحب المؤمنين الذين يحبهم اللَّه؛ لأنه أكمل الناس محبة لله، وأحقهم بأن يحب ما يحبه اللَّه، ويبغض ما يبغضه الله»[1].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٠٥-٢٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ المراد بالذين ظلموا الكفار، وقد بيّن ذلك بقوله في آخر الآية: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[2]، ويدلّ لذلك قوله تعالى عن لقمان مقررًا له: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3]، وقوله جلّ وعلا: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[4] وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾[5]»[6].

قال ابن كثير: «ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ قال بعضهم: تقدير الكلام: لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؛ أي: أن الحكم له وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾؛ كما قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾[7] يقول: لو يعلمون ما يعاينونه هنالك، وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم؛ لانتهوا عما هم فيه من الضلال»[8].

قال القاسمي: «﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: باتخاذ الأنداد ووضعها موضع المعبود ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ المعدّ لهم يوم القيامة ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: القدرة كلها لله، على كل شيء، من العقاب والثواب، دون أندادهم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

---

(١) البقرة: جزء من الآية (١٦٥).
(٢) البقرة: الآية (١٦٧).
(٣) لقمان: الآية (١٣).
(٤) البقرة: الآية (٢٥٤).
(٥) يونس: الآية (١٠٦).
(٦) أضواء البيان (١/ ٨٩).
(٧) الفجر: الآيتان (٢٥-٢٦).
(٨) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٦).

ٱلْعَذَابِ﴾ أي: العقاب للظالمين. وفائدة عطفها على ما قبلها: المبالغة في تهويل الخطب، وتفظيع الأمر. فإن اختصاص القوة به تعالى لا يوجب شدة العذاب، لجواز تركه عفوًا مع القدرة عليه. وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف للإيذان بخروجه عن دائرة البيان؛ إما لعدم الإحاطة بكنهه، وإما لضيق العبارة عنه، وإما لإيجاب ذكره ما لا يستطيعه المعبّر أو المستمع من الضجر والتفجّع عليه؛ أي: لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم. ونظيره -في حذف الجواب- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟﴾[1] وقولهم: لو رأيت فلانًا والسياط تأخذه»[2].

وقال ابن القيم: «وقد اختلف في تعلق قوله: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ بماذا؟ فقالت طائفة: هو مفعول ﴿يَرَى﴾ أي: ولو يرون أن القوة لله جميعًا؛ لمَا عصوه ولما كذبوا رسله وقدموا عقولهم على وحيه. وقالت طائفة: بل المعنى: لأن القوة لله جميعًا، وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف على التقديرين؛ أي: لو يرى هؤلاء حالَهم، وما أعد اللَّه لهم إذ يرون العذاب؛ لرأوا أمرًا عظيمًا. ثم قال: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وهو متضمن للتهديد الشديد والوعيد، وقال تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾[3] وقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾[4] وقال النبي ﷺ في دعاء الاستفتاح: «**لبيك وسعديك، والخير كله بيديك**»[5] وفي الأثر الآخر: «**اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله**»[6] فلله سبحانه كل صفة كمال، وهو موصوف بتلك الصفات كلها، ونذكر من ذلك صفة واحدة تعتبر بها سائر الصفات، وهو أنك لو فرضت جمال الخلق كلهم من أولهم إلى آخرهم اجتمع لشخص واحد منهم ثم كان الخلق كلهم على جمال ذلك الشخص؛ لكان نسبته إلى جمال الرب -تبارك وتعالى- دون نسبة سراج ضعيف إلى جرم الشمس، وكذلك

---

(١) الأنعام: الآية (٢٧) وأيضًا في الآية (٣٠). (٢) محاسن التأويل (٣/ ٢٣).

(٣) سورة الرعد: : الآية (٣١). (٤) سورة آل عمران: : الآية (١٥٤).

(٥) أخرجه أحمد (١/ ١٠٢) ومسلم (١/ ٥٣٤-٥٣٥/ ٧٧١) وأبو داود (١/ ٤٨٤-٤٨٥/ ٧٦١) والترمذي (٥/ ٤٥٤-٤٥٥/ ٣٤٢٣) والنسائي (٢/ ٤٦٧-٤٦٨/ ٨٩٦) وابن ماجه (١/ ٣٣٥/ ١٠٥٤) من حديث علي ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد (٥/ ٣٩٦) من حديث حذيفة ﷺ. قال في المجمع (١٠/ ٩٦): «رواه أحمد، وفيه راو لم يسم، وبقية رجاله ثقات» انظر ضعيف الترغيب (١/ ٤٧٨) الهامش.

قوته سبحانه، وعلمه، وسمعه، وبصره، وكلامه، وقدرته، ورحمته، وحكمته، ووجوده، وسائر صفاته، وهذا مما دلت عليه آياته الكونية السمعية، وأخبرت به رسله عنه»[١].

* * *

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٨١-١٠٨٢).

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

★ غريب الآية:

تبرأ: أصل التبري: التولي والتباعد على سبيل العداوة والكراهة.

اتبعوا: الاتباع اقتفاء الأثر، والمراد: اتفقوا معهم في قول أو فعل.

كرة: الكر: نقيض الفرّ، والمراد بالكرة هنا: الرجعة والعود. وأصل الكر: العطف على الشيء والعود إليه.

حسرات: واحدها حسرة، وهي أشد الندامة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم، وتبري المتبوعين من التابعين، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا، فتقول الملائكة: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[1] ويقولون: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[2] والجن أيضًا تتبرأ منهم، ويتنصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[4] وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ

---

(١) القصص: الآية (٦٣).
(٢) سبأ: الآية (٤١).
(٣) الأحقاف: الآيتان (٥و٦).
(٤) مريم: الآيتان (٨١و٨٢).

يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

وقوله: ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ أي عاينوا عذاب اللَّه، وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص، ولم يجدوا عن النار معدلًا ولا مصرفًا، قال عطاء عن ابن عباس: وتقطعت بهم الأسباب؛ قال: المودة. وكذا قال مجاهد في رواية ابن أبي نجيح.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾أي: لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم، بل نوحد اللَّه وحده بالعبادة، وهم كاذبون في هذا، بل لو ردوا ﴿لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[4] كما أخبر اللَّه تعالى عنهم بذلك، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي تذهب وتضمحل؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[5] وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾[6] الآية. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾[7] الآية. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾»[8].

---

(١) العنكبوت: الآية (٢٥).
(٢) سبأ: الآيات (٣١-٣٣).
(٣) إبراهيم: الآية (٢٢).
(٤) الأنعام: الآية (٢٨).
(٥) الفرقان: الآية: (٢٣).
(٦) إبراهيم: الآية (١٨).
(٧) النور: الآية (٣٩).
(٨) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٧-٣٥٦).

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ دليل على خلود الكفار فيها، وأنهم لا يخرجون منها. وهذا قول جماعة أهل السنة لهذه الآية، ولقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[١]»[٢].

قال ابن القيم: «فهذا حكم الأتباع والمتبوعين المشتركين في الضلالة، وأما الأتباع المخالفون لمتبوعيهم، العادلون عن طريقتهم الذين يزعمون أنهم تبع لهم، وليسوا متبعين لطريقهم، فهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

فهؤلاء المتبوعون كانوا على هدى، وأتباعهم ادعوا أنهم كانوا على طريقتهم ومنهاجهم، وهم مخالفون لهم سالكون غير طريقتهم، يزعمون أنهم يحبونهم، وأن محبتهم تنفعهم مع مخالفتهم لهم، فيتبرءون منهم يوم القيامة، فإنهم اتخذوهم أولياء من دون اللَّه، وظنوا أن هذا الاتخاذ ينفعهم.

وهذه حال كل من اتخذ من دون اللَّه ورسوله وليجة وأولياء، يوالي لهم ويعادي لهم، ويرضى لهم ويغضب لهم، فإن أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه، إذ لم يجرد موالاته ومعاداته، ومحبته وبغضه، وانتصاره وإيثاره لله ورسوله، فأبطل اللَّه ﷻ ذلك العمل كله، وقطع تلك الأسباب، وهي الوصول والموالاة التي كانت بينهم في الدنيا لغيره كما قال: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ فينقطع يوم القيامة كل وصلة، ووسيلة، ومودة، وموالاة كانت لغير اللَّه تعالى، ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وبين ربه، وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله، وتجريد عبادته له وحده، ولوازمها من الحب والبغض، والعطاء والمنع، والموالاة والمعاداة، والتقريب والإبعاد، وتجريد متابعة رسوله وترك أقوال غيره لقوله، وترك كل ما خالف ما جاء به، والإعراض عنه، وعدم الاعتداد به، وتجريد متابعته تجريدًا محضًا بريئًا من شوائب الالتفات

---

(١) الأعراف: الآية (٤٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٠٧).

إلى غيره، فضلًا عن الشركة بينه وبين غيره، فضلًا عن تقديم قول غيره عليه.

فهذا السبب هو الذي لا ينقطع بصاحبه، وهذه هي النسبة التي بين العبد وبين ربه، وهي نسبة العبودية المحضة، وهي آخيته التي يجول ما يجول، ثم إليها مرجعه. . .

وهذه النسبة هي التي تنفع العبد، فلا ينفعه غيرها في الدور الثلاثة؛ أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار؛ فلا قوام له، ولا عيش ولا نعيم، ولا فرح إلا بهذه النسبة، وهي السبب الواصل بين العبد وبين اللَّه. . .

والمقصود: أن اللَّه سبحانه يقطع يوم القيامة الأسباب، والعُلق، والوصلات التي كانت بين الخلق في الدنيا كلها، ولا يبقى إلا السبب والوصلة التي بين العبد وبين اللَّه فقط، وهو سبب العبودية المحضة التي لا وجود لها ولا تحقق إلا بتجريد متابعة الرسل -صلوات اللَّه وسلامه عليهم-، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم، وما عرفت إلا بهم، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم، وقد قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾.

فهذه الأعمال التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم، ولغير وجهه، يجعلها اللَّه هباء منثورا ولا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلًا؛ وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة: أن يرى سعيه كله ضائعًا لم ينتفع منه بشيء، وهو أحوج ما كان العامل إلى عمله، وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾ متعلق بـ﴿يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ في الآية السابقة والكلام متصل لاحقه بسابقه في موضوع اتخاذ الأنداد. وقد نطقت الآية السابقة أن عذاب اللَّه تعالى سيحل بمتخذي الأنداد من دونه وهو عام في التابع في الاتخاذ والمتبوع فيه. وبين في هاتين الآيتين تفصيل حال التابعين والمتبوعين في ذلك، وأورده بصيغة الماضي تمثيلًا لحال الفريقين في ذلك اليوم الذي ينكشف فيه الغطاء ويرى الناس فيه العذاب بأعينهم، ويعرفون أسبابه من تأثير العقائد الباطلة والأعمال السيئة في أنفسهم، كأن الأمر قد وقع، والبلاء قد نزل، ورأى الرؤساء المضلون الذين اتُّبعوا أن إغواءهم للناس الذين اتَّبعوا رأيهم وقلدوهم دينهم قد

---

(١) التبوكية (ص: ١٥١-١٥٤).

ضاعف عذابهم، وحملهم مثل أوزار الذين أضلوهم فوق أوزارهم، فتبرءوا منهم، وتنصلوا من ضلالتهم، ﴿وَ﴾ قد ﴿رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ فأنى ينفعهم التبرؤ ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ فلم تبق من صلة بينهم وبين التابعين، فيقال: إنهم آثروا بتبرؤهم الحق على الرياسة والجاه والمنافع التي يستفيدها الرئيس باستهواء المرؤوس، وإخضاعه له، وحمله على اتباعه في كل ما يذهب إليه. فعلم أن جملة: ﴿رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ وما عطف عليها في محل الحال المبينة عدم فائدة التبرؤ لأنه لم يصدر عن إيثار الحق على الخلق، بل صدر عن نفوس ترتعد من رؤية العذاب الذي أشرفت عليه بما جنت واقترفت، بعدما تقطعت الروابط والصلات بينها وبين المتبوعين، واصطلمت، فلا منفعة للمُتبرئ تركت فيحمد تركها، ولا هداية للمتبرّإ منه ترجى فيحمد أثرها، لولا أن حيل بين المقلدين وهداية القرآن؛ لكان لهم في هذه الآية أشد زلزال لجمودهم، على أقوال الناس وآرائهم في الدين، سواء كانوا من الأحياء أم الميتين، وسواء كان التقليد في العقائد والعبادات أم في أحكام الحلال والحرام؛ إذ كل هذا مما يؤخذ عن اللّه ورسوله، ليس لأحد فيه رأي ولا قول، إلا ما كان من الأحكام متعلقًا بالقضاء، وما يتنازع فيه الناس فلألي الأمر فيه الاجتهاد بشرطه، إقامة للعدل وحفظا للمصالح العامة والخاصة، وإنما العلماء نقلة وأدلاء لا أنداد ولا أنبياء، فلا عصمة تحوط أحدهم فيعتمد على فهمه، وقصارى العدالة أن يوثق بنقله، ويستعان بعلمه، وما تنازعوا فيه يرد إلى كتاب اللّه وسنة رسوله فهناك القول الفصل والحكم العدل، واللّه يحكم لا معقب لحكمه ولا مرد لأمره، في مثل هؤلاء المتبوعين والتابعين نزل قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[1] فكل يؤاخذ بعمله، فإذا حمل الأول الآخر على رأيه ودعاه إلى اتباعه فيه أو في رأيه الذي يقلده هو فيه؛ فهو من الأئمة المضلين، وعليه إثمه ومثل إثم من أضلهم من غير أن ينقص من إثمهم شيء؛ إذ حرم اللّه عليهم اتخاذ الأنداد من دون اللّه

---

(١) الأعراف: الآيتان (٣٨و٣٩).

فاتخذوهم. وأما من يبدي في الدين فهمًا ويقرر بحسب ما ظهر له من الدليل له حكمًا يريد أن يفتح للناس أبواب الفقه، ويسهل لهم طريق العلم، ثم هو يأمر الناس بأن يعرضوا قوله على كتاب اللَّه وسنة رسوله، وينهاهم أن يأخذوا به إلا أن يقتنعوا بدليله؛ فهو من أئمة الهدى، وأعلام التقى، وليس يضيره أن يقلد فيه بغير علمه، ويجعل ندا لله من بعد موته، فإنه إذا كان مخطئًا وجاء ذلك المقلد له على غير بصيرة يوم القيامة ينسب ضلاله إليه؛ فإنه يتبرأ منه بحق، ويقول: ما أمرتك أن تأخذ بقولي على عِلّاته، ولا أعرفك، فالذين يتخذون أندادًا كلهم يتبرؤون يوم القيامة ممن اتخذوهم ولكنهم يكونون على قسمين: قسم عبدهم الناس كالمسيح وبعض الصالحين من هذه الأمة ومن الأمم قبلها، أو قلدوهم وأخذوا بأقوالهم في الدين من غير دليل شرعي؛ كبعض الأئمة المهتدين، من غير أن يأمرهم هؤلاء بعبادتهم أو تقليدهم، بل مع نهيهم إياهم عن عبادة غير اللَّه تعالى، وعن الاعتماد على غير وحيه في الدين، فهذا القسم غير مراد هنا؛ لأن الذين عبدوا أولئك الأخيار أو قلدوهم دينهم؛ لم يتبعوهم في الحقيقة، إذ اتباعهم هو اتباع طريقتهم في الدين؛ وما كانوا يشركون باللَّه أحدًا ولا شيئًا، ولا يقلدون في دينه أحدًا، وإنما كانوا يأخذون دينه عن وحيه فقط. وقسم أضلوا الناس بأحوالهم وأقوالهم، فاتبعوهم على غير بصيرة ولا هدى؛ فهؤلاء هم الذين يتبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضًا إذ تتقطع بهم أسباب الأهواء والمنافع الدنيوية التي تربط هنا بعضهم ببعض قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ﴾ أي: لو أن لنا رجعة إلى الدنيا لنتبرأ من اتباع هؤلاء المضلين، ونتنصل من رياستهم، أو لنتبع سبيل الحق ونأخذ بالتوحيد الخالص، ونهتدي بكتاب اللَّه وسنة رسوله، ثم نعود إلى هنا -الآخرة- فنتبرأ من هؤلاء الضالين، كما تبرؤوا منا؛ إذ نسعد بعملنا من حيث هم أشقياء بأعمالهم ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ﴾ أي: أن اللَّه تعالى يظهر لهم كيف أن أعمالهم قد كان لها أسوأ الأثر في نفوسهم، إذ جعلتها مستذلة مستعبدة لغير اللَّه تعالى، فأورثها ذلك من الظلمة والصغار ما كان حسرة وشقاء عليها، فالأعمال هي التي كونت هذه الحسرات في النفس، ولكن لم يظهر ذلك إلا في الدار التي تسعد فيها كل نفس بارتقائها وتشقى بانحطاطها ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ إلى الدنيا فيشفوا غيظهم من رؤسائهم وأندادهم؛ لأن علة

دخولهم فيها هي ذواتهم بما طبعتها عليه أعمال الشرك وحب الأنداد.

(الأستاذ الإمام): يقول المفسرون في مثل هذه الآيات: إن هذا الكلام خاص بالكفار. نعم إنه خاص بالكفار كما قالوا، ولكن؛ من الخطأ أن يفهم من هذا الكلام ما يفصل بين المسلمين والقرآن، إذ يصرفون كل وعيد فيه إلى المشركين واليهود والنصارى، فينصرفون عن الاعتبار المقصود، لهذا ترى المسلمين لا يتعظون بالقرآن، ويحسبون أن كلمة (لا إله إلا الله) -يتحرك بها اللسان من غير قيام بحقوقها- كافية للنجاة في الآخرة، على أن كثيرا من الكافرين يقولها، ومنهم من يهز جسده عند ذكر اللَّه كما يهزه جماهيرهم، فهل هذا كل ما أراده اللَّه من إنزال القرآن، وبعثة محمد -عليه الصلاة والسلام-؟ ليس هذا الذي يتوهمه الجاهلون من مراد المفسرين، فما بين اللَّه تعالى ضروب الشرك وصفات الكافرين وأحوالهم؛ إلا عبرة لمن يؤمن بكتابه حتى لا يقع فيما وقعوا فيه؛ فيكون من الهالكين. ولكن رؤساء التقليد حالوا بين المسلمين وبين كتاب ربهم، بزعمهم أن المستعدين للاهتداء به قد انقرضوا ولا يمكن أن يخلفهم الزمان، لما يشترط فيهم من الصفات والنعوت التي لا تتيسر لغيرهم كمعرفة كذا وكذا من الفنون الصناعية، والإحاطة بخلاف العلماء في الأحكام، والذي يعرفه كل واقف على تاريخ الصدر الأول من المسلمين؛ هو أن أهل القرنين: الأول والثاني؛ لم يكونوا يقلدون أحدًا؛ أي: لم يكونوا يأخذون بآراء الناس وأقوال العلماء، بل كان العامي منهم على بينة من دينه، يعرف من أين جاءت كل مسألة يعمل بها من مسائله، إذ كان علماء الصدر الأول رضي اللَّه تعالى عنهم، يلقنون الناس الدين ببيان كتاب اللَّه تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وكان الجاهل بالشيء يسأل عن حكم اللَّه فيه، فيجاب بأن اللَّه تعالى قال: كذا، أو جرت سنة نبيه على كذا، فإن لم يكن عند المسؤول فيه هدي من كتاب أو سنة؛ ذكر ما جرى عليه الصالحون وما يراه أشبه بما جاء في هذا الهدي، أو أحال على غيره، ولما تصدى بعض العلماء في القرن الثاني والثالث لاستنباط الأحكام، واستخراج الفروع من أصولها -ومنهم الأئمة الأربعة- كانوا يذكرون الحكم بدليله على هذا النمط، فهم متفقون مع الصحابة والتابعين عليهم الرضوان، على أنه لا يجوز لأحد أن يأخذ بقول أحد في الدين ما لم يعرف دليله ويقتنع به، ثم جاء من العلماء المقلدين في القرون الوسطى من جعل قول المفتي للعامي بمنزلة الدليل مع

قولهم: بأنه لو بلغه الحديث فعمل به كان كذلك أو أولى، ثم خلف خلفٌ أغرق في التقليد، فمنعوا كل الناس أخذ أي حكم من الكتاب أو السنة وعدوا من يحاول فهمهما والعمل بهما زائغًا، وهذا غاية الخذلان وعداوة الدين، وقد تبعهم الناس في ذلك فكانوا لهم أندادًا من دون اللَّه، وسيتبرأ بعضهم من بعض كما أخبر اللَّه . . .

فتبين مما شرحناه أن لا عذر لأحد في التقليد المحض، وأن حكم الآية يستغرق جميع المقلدين فهم اتخذوا مقلديهم أندادًا، وسيتبرأ التابع من المتبوع؛ إذ يرون العذاب وتتقطع بهم الأسباب»[1].

قلت: فنحمد اللَّه أن وفقنا للاطلاع على هذه البحوث الطيبة النيرة التي تبعث الأمل وتفتح الآفاق، وضممناها في تفسيرنا هذا للأجيال تقرأها، وتستفيد منها، فلله در هؤلاء الأئمة في بيانهم للحق وإيضاحهم له، فأين هذا الكلام المتين الطيب من نوابت تنبت ههنا وههنا، ترجع بالأمة إلى عهود الظلام والجهل، والتخبط في كل قضايا الأمة الأصولية والفرعية، وجاء الغزاة وأكملوا للأمة ما نقصها من انحراف وضلال، فأبعدوا الكتاب والسنة بالكلية، وفرضوا على الأمة المغزوة القوانين الوضعية التي هي لا شك من وضع اليهود والنصارى، والملاحدة الشيوعيين والاشتراكيين، الذين ينابذون الأديان كلها، ولا يسمحون لأحد أن يبين أن الدين علم وعمل، وفرد وجماعة وأمة ودولة، ففي أحسن أحوالهم لو سمحوا لأحد بالتدين لقالوا بأن هذا الأمر شخصي فلا يجوز أن ينقل إلى الغير؛ فإن ذلك جريمة كبرى ومصيبة عظمى، فدعاة الضلال ونابتة السوء يرجعون بالأمة إلى ما يجعلها أمة متخلفة، تعيش على فتات أسيادها، وتسارع إلى تقليدهم في كل سيئة يفعلونها، فالحذر الحذر من هؤلاء النوابت؛ فإنما هم مرتزقة أسيادهم، وقانا اللَّه وإياكم شرهم.

* * *

(١) تفسير المنار (٢/ ٨٥-٩٣).

قول اللَّه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩)﴾

★ **غريب الآية:**

كلوا: الأكل بالفتح: المصدر، وبالضم الشيء المأكول، قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾[١] أي مأكولها.

حلالا: الحلال: المباح، وأصله من حل العقدة أحلها إذا أزالها.

خطوات: جمع خطوة، وهي بعد ما بين القدمين حال المشي، وخطوات الشيطان مسالكه وآثاره.

عدو: العدو: ضد الولي، وهو الذي يعاديك ويحاربك.

يأمركم: الأمر من الشيطان هو دعاؤه إلى الفعل القبيح.

السوء: كل ما يقبح شرعا وسمي بذلك لسوء عاقبته.

الفحشاء: ما تزايد قبحه واشتد نكره، وكل ما خالف الحق فهو فاحش.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ لم يذكر هنا ما يترتب على اتباع خطواته من الضرر، ولكنه أشار إلى ذلك في سورة «النور»، بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[٢] الآية.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لم يبيّن هنا هذا الذي يقولونه عليه بغير علم، ولكنه فصله في مواضع أُخر؛ فذكر أن ذلك الذي يقولونه بغير علم هو: أن اللَّه حرّم البحائر، والسوائب، ونحوها، وأن لهُ أولادًا، وأن له شركاء، ﷻ عن ذلك علوًّا

(١) الرعد: الآية (٣٥). (٢) النور: الآية (٢١).

كبيرا . فصرح بأنه لم يحرم ذلك بقوله : ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾[١]، وقوله : ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[٢] الآية . وقوله : ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا﴾[٣] الآية . وقوله : ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ﴾[٤]، إلى غير ذلك من الآيات . ونزه نفسه عن الشركاء المزعومة بقوله : ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[٥]، ونحوها من الآيات . ونزّه نفسه عن الأولاد المزعومة بقوله : ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾[٦] الآية ، ونحوها من الآيات .

فظهر من هذه الآيات تفصيل مَا أجمل في اسم الموصول الذي هو ﴿مَا﴾ ، من قوله : ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾»[٧] .

قال ابن كثير : «لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو ، وأنه المستقلّ بالخلق ؛ شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه ، فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالًا من اللَّه طيبًا ؛ أي : مستطابًا في نفسه غير ضار للأبدان ، ولا للعقول . ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان ، وهي طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه ؛ من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها ؛ مما كان زينه لهم في جاهليتهم ؛ كما في حديث عياض بن حمار الذي في صحيح مسلم عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : «**يقول اللَّه تعالى : إن كل مال نحلته عبادي فهو لهم حلال**» وفيه : «**وإني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم**»[٨]»[٩] .

قال القرطبي : «وسمي الحلال حلالا لانحلال عقدة الحظر عنه . قال سهل بن عبدالله : (النجاة في ثلاثة : أكل الحلال ، وأداء الفرائض ، والاقتداء بالنبي ﷺ) . وقال أبو عبد اللَّه الساجي -واسمه سعيد بن يزيد- : (خمس خصال بها تمام العلم ،

---

(١) المائدة : الآية (١٠٣).
(٢) الأنعام : الآية (١٤٠).
(٣) يونس : الآية (٥٩).
(٤) النحل : الآية (١١٦).
(٥) يونس : الآية (١٨).
(٦) يونس : الآية (٦٨).
(٧) الأضواء (١/ ٨٩-٩٠).
(٨) أخرجه أحمد (٤/ ١٦٢) ومسلم (٤/ ٢١٩٧-٢١٩٨/ ٢٨٦٥) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦-٢٧/ ٨٠٧٠-٨٠٧١).
(٩) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٨).

وهي معرفة اللَّه ﷻ، ومعرفة الحق، وإخلاص العمل لله، والعمل على السنة، وأكل الحلال، فإن فُقدت واحدة لم يرفع العمل). قال سهل: (ولا يصح أكل الحلال إلا بالعلم، ولا يكون المال حلالًا حتى يصفو من ست خصال: الربا والحرام والسحت -وهو اسم مجمل- والغلول والمكروه والشبهة»)[1].

وقال ابن عاشور: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ . . . الآيتين. استئناف ابتدائي، هو كالخاتمة لتشويه أحوال أهل الشرك من أصول دينهم وفروعه، التي ابتدأ الكلام فيها من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾[2] الآية. إذ ذكر كفرهم إجمالًا ثم أبطله بقوله: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ واستدل على إبطاله بقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3] الآيات. ثم وصف كفرهم بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾[4]، ووصف حالهم وحسراتهم يوم القيامة، فوصف هنا بعض مساوئ دين أهل الشرك فيما حرموا على أنفسهم مما أخرج اللَّه لهم من الأرض، وناسب ذكره هنا أنه وقع بعد ما تضمنه الاستدلال على وحدانية اللَّه والامتنان عليهم بنعمته بقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾[5] الآية. وهو تمهيد وتلخيص لما يعقبه من ذكر شرائع الإسلام في الأطعمة وغيرها التي ستأتي من قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾[6].

فالخطاب بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ موجه إلى المشركين كما هو شأن خطاب القرآن بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

والأمر في قوله: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مستعمل في التوبيخ على ترك ذلك وليس للوجوب ولا للإباحة، إذ ليس الكفار بأهل للخطاب بفروع الشريعة فقوله: ﴿كُلُوا۟﴾ كُلُوا تمهيد لقوله بعده: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾.

وقوله: ﴿حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ تعريض بتحميقهم فيما أعنتوا به أنفسهم فحرموها من نعم

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٠٨).
(٢) البقرة: الآية (١٦١).
(٣) البقرة: الآية (١٦٤).
(٤) البقرة: الآية (١٦٥).
(٥) البقرة: الآية (١٦٤).
(٦) البقرة: الآية (١٧٢).

طيبة افتراء على اللَّه، وفيه إيماء إلى علة إباحته في الإسلام وتعليم للمسلمين بأوصاف الأفعال التي هي مناط الحل والتحريم.

والمقصود: إبطال ما اختلقوه من منع أكل البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي، وما حكى اللَّه عنهم في سورة الأنعام من قوله: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾[(١)]»[(٢)].

وقال: «وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ الضمير للناس لا محالة، وهم المشركون المتلبسون بالمنهي عنه دومًا، وأما المؤمنون فحظهم منه التحذير والموعظة.

واتباع الخطوات تمثيلية، أصلها أن السائر إذا رأى آثار خطوات السائرين؛ تبع ذلك المسلك علمًا منه بأنه ما سار فيه السائر قبله إلا لأنه موصل للمطلوب، فشبه المقتدي الذي لا دليل له سوى المقتدى به، وهو يظن مسلكه موصلًا بالذي يتبع خطوات السائرين، وشاعت هاته التمثيلية حتى صاروا يقولون: هو يتبع خطا فلان، بمعنى يقتدي به ويمتثل له...

والاقتداء بالشيطان إرسال النفس على العمل بما يوسوسه لها من الخواطر البشرية، فإن الشياطين موجودات مدرَكة، لها اتصال بالنفوس البشرية، لعلّه كاتصال الجاذبية بالأفلاك، والمغناطيس بالحديد، فإذا حصل التوجه من أحدهما إلى الآخر بأسباب غير معلومة؛ حدثت في النفس خواطر سيئة، فإن أرسل المكلف نفسه لاتّباعها، ولم يردعها بما له من الإرادة والعزيمة؛ حققها في فعله، وإن كبحها وصدها عن ذلك غلبها. ولذلك أودع اللَّه فينا العقل والإرادة والقدرة، وكمل لنا ذلك بالهدى الديني؛ عونًا وعصمة عن تلبيتها؛ لئلا تضلنا الخواطر الشيطانية، حتى نرى حسنا ما ليس بالحسن، ولهذا جاء في الحديث: «**من هم بسيئة فلم يعملها كتبها اللَّه عنده حسنة كاملة**»[(٣)] لأنه لما هم بها؛ فذلك حين تسلطت عليه القوة الشيطانية، ولما عدل عنها فذلك حين غلّب الإرادة الخيرية عليها، ومثل هذا يقال في الخواطر الخيرية، وهي الناشئة عن التوجهات الملكية، فإذا تنازع الداعيان في

---

(١) الأنعام: الآية (١٣٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ١٠١-١٠٢).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣١٠) والبخاري (١١/ ٣٩٢/ ٦٤٩١) ومسلم (١/ ١١٨/ ١٣١) من حديث ابن عباس ﷺ.

نفوسنا؛ احتجنا في التغلب إلى الاستعانة بعقولنا، وآرائنا، وقدرتنا، وهدى اللَّه تعالى إيانا»[١].

قال القرطبي: «ولا تقفوا أثر الشيطان وعملَه. وما لم يرد به الشرع فهو منسوب إلى الشيطان، قال ابن عباس: خطوات الشيطان: أعماله. مجاهد: خطاياه. السدي: طاعته. أبو مجلز: هي النذور في المعاصي. قلت: والصحيح أن اللفظ عام في كل ما عدا السنن والشرائع من البدع والمعاصي»[٢].

وقال: «قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ أخبر تعالى بأن الشيطان عدو وخبره حق وصدق، فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أبان عدواته من زمن آدم، وبذل نفسه وعمره في إفساد أحوال بني آدم، وقد أمر اللَّه تعالى بالحذر منه فقال -جل من قائل-: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ وقال: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾[٣] وقال: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾[٤] وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[٥] وقال: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾[٦] وقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٧] وهذا غاية في التحذير»[٨].

قال ابن عاشور: «وإنما كان عدوًّا؛ لأن عنصر خلقته مخالف لعنصر خلقة الإنسان، فاتصاله بالإنسان يؤثر خلاف ما يلائمه، وقد كثر في القرآن تمثيل الشيطان في صورة العدو المتربص بنا الدوائر؛ لإثارة داعية مخالفته في نفوسنا؛ كي لا نغتر حين نجد الخواطر الشريرة في أنفسنا، فنظنها ما نشأت فينا إلا وهي نافعة لنا؛ لأنها تولدت من نفوسنا، ولأجل هذا أيضًا صورت لنا النفس في صورة العدو في مثل هاته الأحوال.

ومعنى المبين: الظاهر العداوة، من أبان الذي هو بمعنى بان، وليس من أبان

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ١٠٢-١٠٣) باختصار يسير.
(٢) الجامع (٢/ ٢٠٨-٢٠٩).
(٣) البقرة: الآية (٢٦٨).
(٤) النساء: الآية (٦٠).
(٥) المائدة: الآية (٩١).
(٦) القصص: الآية (١٥).
(٧) فاطر: الآية (٦).
(٨) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٠٩).

الذي همزته للتعدية بمعنى أظهر؛ لأن الشيطان لا يظهر لنا العداوة، بل يلبس لنا وسوسته في لباس النصيحة أو جلب الملائم، ولذلك سماه اللَّه وليا فقال: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[1]، إلا أن اللَّه فضحه، فلم يبق مسلم تروج عليه تلبيساته حتى في حال اتباعه لخطواته، فهو يعلم أنها وساوسه المضرة، إلا أنه تغلبه شهوته، وضعف عزيمته، ورقة ديانته.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ استئناف بياني لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، فيئول إلى كونه علة للعلة؛ إذ يسأل السامع عن ثبوت العداوة مع عدم سبق المعرفة، ومع بُعد ما بيننا وبينه، فقيل: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم﴾ أي: لأنه لا يأمركم إلا بالسوء الخ؛ أي: يحسن لكم ما فيه مضرتكم؛ لأن عداوته أمر خفي، عرفناه من آثار أفعاله.

والأمر في الآية مجاز عن الوسوسة والتزيين، إذ لا يسمع أحد صيغ أمر من الشيطان. ولك أن تجعل جملة: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم﴾ تمثيلية بتشبيه حاله وحالهم في التسويل والوسوسة، وفي تلقيهم ما يوسوس لهم بحال الآمر والمأمور، ويكون لفظ (يأمر) مستعملا في حقيقته، مفيدا مع ذكر الرمز إلى أنهم لا إرادة لهم، ولا يملكون أمر أنفسهم، وفي هذا زيادة تشنيع لحالهم، وإثارة للعداوة بين الشيطان وبينهم»[2].

وقال: «وقوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يشير إلى ما اختلقه المشركون وأهل الضلال من رسوم العبادات، ونسبة أشياء لدين اللَّه ما أمر اللَّه بها. وخصه بالعطف مع أنه بعض السوء والفحشاء؛ لاشتماله على أكبر الكبائر، وهو الشرك والافتراء على اللَّه. . .

ومعنى ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: لا تعلمون أنه من عند اللَّه، بقرينة قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا تعلمون أنه يرضيه ويأمر به، وطريق معرفة رضا اللَّه وأمره هو الرجوع إلى الوحي وإلى ما يتفرع عنه من القياس وأدلة الشريعة المستقراة من أدلتها. ولذلك قال الأصوليون: يجوز للمجتهد أن يقول فيما أداه إليه اجتهاده بطريق القياس: إنه دين اللَّه، ولا يجوز أن يقول قاله الله؛ لأن المجتهد قد حصلت له مقدمة قطعية

---

(١) النساء: الآية (١١٩).
(٢) التحرير والتنوير (٢/ ١٠٤-١٠٥).

مستقراة من الشريعة انعقد الإجماع عليها، وهي: وجوب عمله بما أداه إليه اجتهاده؛ بأن يعمل به في الفتوى والقضاء وخاصة نفسه، فهو إذا أفتى به وأخبر فقد قال على اللَّه ما يعلم أنه يرضي اللَّه تعالى بحسب ما كلف به من الظن»[1].

قال السعدي: «هذا خطاب للناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، فامتن عليهم بأنْ أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض، من حبوب، وثمار، وفواكه، وحيوانات، حالة كونها ﴿حَلَٰلًا﴾ أي: محللا لكم تناوله، ليس بغصب ولا سرقة، ولا محصَّلا بمعاملة محرمة، أو على وجه محرم، أو معينا على محرم.

﴿طَيِّبًا﴾ أي: ليس بخبيث، كالميتة والدم، ولحم الخنزير، والخبائث كلها. ففي هذه الآية، دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة؛ أكلًا وانتفاعًا، وأن المحرم نوعان: إما محرم لذاته؛ وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب، وإما محرم لما عرض له؛ وهو المحرم لتعلق حق اللَّه، أو حق عباده به، وهو ضد الحلال.

وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب، يأثم تاركه لظاهر الأمر، ولما أمرهم باتباع ما أمرهم به -إذ هو عين صلاحهم- نهاهم عن اتباع ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ أي: طرقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي من كفر، وفسوق، وظلم، ويدخل في ذلك تحريم السوائب، والحام، ونحو ذلك، ويدخل فيه أيضًا تناول المأكولات المحرمة. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة، فلا يريد بأمركم إلا غشكم، وأن تكونوا من أصحاب السعير، فلم يكتف ربنا بنهينا عن اتباع خطواته حتى أخبرنا -وهو أصدق القائلين- بعداوته الداعية للحذر منه، ثم لم يكتف بذلك، حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به، وأنه أقبح الأشياء، وأعظمها مفسدة فقال:

﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ أي: الشر الذي يسوء صاحبه، فيدخل في ذلك، جميع المعاصي، فيكون قوله: ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ لأن الفحشاء من المعاصي، ما تناهى قبحه، كالزنا، وشرب الخمر، والقتل، والقذف، والبخل ونحو ذلك، مما يستفحشه من له عقل.

---

(١) التحرير (٢/ ١٠٥).

﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيدخل في ذلك القول على اللَّه بلا علم، في شرعه، وقدره، فمن وصف اللَّه بغير ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو نفى عنه ما أثبته لنفسه، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه؛ فقد قال على اللَّه بلا علم، ومن زعم أن لله ندًا وأوثانًا تقرب من عبدها من الله؛ فقد قال على اللَّه بلا علم، ومن قال: إن اللَّه أحل كذا، أو حرم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا، بغير بصيرة؛ فقد قال على اللَّه بلا علم، ومن قال: اللَّه خلق هذا الصنف من المخلوقات للعلة الفلانية بلا برهان له بذلك؛ فقد قال على اللَّه بلا علم. ومن أعظم القول على اللَّه بلا علم؛ أن يتأول المتأول كلامه، أو كلام رسوله، على معاني اصطلح عليها طائفة من طوائف الضلال، ثم يقول: إن اللَّه أرادها. فالقول على اللَّه بلا علم، من أكبر المحرمات، وأشملها، وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها. فهذه طرق الشيطان التي يدعو إليها هو وجنوده، ويبذلون مكرهم وخداعهم، على إغواء الخلق بما يقدرون عليه.

وأما اللَّه تعالى فإنه يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، فلينظر العبد نفسه، مع أي الداعيين ومن أي الحزبين؟ أتتبع داعي اللَّه الذي يريد لك الخير والسعادة الدنيوية والأخروية، الذي كل الفلاح بطاعته، وكل الفوز في خدمته، وجميع الأرباح في معاملة المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر؟ أم تتبع داعي الشيطان، الذي هو عدو الإنسان، الذي يريد لك الشر، ويسعى بجهده على إهلاكك في الدنيا والآخرة، الذي كل الشر في طاعته، وكل الخسران في ولايته، والذي لا يأمر إلا بشر، ولا ينهى إلا عن خير؟»[١].

قلت: مما تقدم من تفاسير أهل العلم في هذه الآية، التي جاء فيها التحذير من إبليس وخطواته وأوامره، وأن ما كان عليه كفار قريش وأمثالهم ممن سلك طريقهم في التحليل والتحريم والابتداع، وعبادة من لا يستحق العبادة، كل هذا وأمثاله مما ذكره اللَّه -تبارك وتعالى- ليحذرنا من الوقوع فيه، ومع هذه الآيات الواضحات

---

(١) التيسير (١/ ١٩٩-٢٠٢).

فقد وقع فئام من الناس فيما حُذِّروا منه؛ فحرموا أمورًا لا يجوز تحريمها، وحللوا أمورًا لا يجوز إباحتها، وابتدعوا في دين اللَّه ما لم يأذن اللَّه به، وعبدوا من لا يستحق العبادة، ووضعوا لأنفسهم أورادًا، وزعموا لتلك الأوراد القدسية، وألزموا الناس بها ليلًا ونهارًا، ونصبوا لأنفسهم شيوخًا، وزعموا لهم العصمة، وابتدعوا أمورًا كثيرةً سموها بالعمل الفلاني، ونسبوا تلك الأعمال إلى أهل ذلك البلد السابقين، وإلى شيوخ تلك الطرق الصوفية الضالة، وبنوا الأضرحة وزخرفوها، ووضعوا فيها من خيرة الأثاث، وأنفقوا عليها الأموال الطائلة التي تكون عليهم حسرة إلى يوم القيامة، وابتدعوا في المساجد بدعًا يومية وموسمية من أوراد وقراءة جماعية، وأدعية مختلقة لم يأمر اللَّه تعالى بها ولا صحت عن نبيه ﷺ. وهكذا تجدهم يَسْبَحون في كل ضلالة، ويزعمون لأنفسهم العلم، وأنهم متعلمون وهم في حقيقة أمرهم مرتزقون، يلهثون وراء الدينار والدرهم، لا يشبعهم قليله ولا كثيره، وهم كما قال الذهبي في ترجمة ابن عربي الحاتمي في نعيه عليه في العلم الذي ادعاه وزعم أنه له: لو كان المسلم له عصا يرعى بها البقر لكان خيرًا له من هذه الحال اهـ. ونحن نقول: لو كان هؤلاء المنسوبون للعلم والإصلاح ممن يتسولون في الطرقات وفي مجامع الناس؛ لكان خيرا لهم من حرب كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، والسعي وراء كل ما يحاربهما من إقامة البدع والمواسم، والدعوة إلى كتب وأراجيز تباين الكتاب والسنة وتحاربهما بمضمونها، واللَّه المستعان.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الحلال ما حلله اللَّه والحرام ما حرمه، وما سوى ذلك فهو غلو وتنطع

* عن ابن مسعود رضي الله عنه؛ أنه أتي بضرع وملح فجعل يأكل، فاعتزل رجل من القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم. فقال: لا أريد. فقال: أصائم أنت؟ قال: لا. قال: فما شأنك؟ قال: حرمت أن آكل ضرعًا أبدًا! فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، فاطْعَم وكفِّر عن يمينك[١].

(١) أخرجه: عبد الرزاق في التفسير (١/ ١٩٨-١٩٩) وسعيد بن منصور في سننه (٤/ ١٥١٩/ ٧٧٢) والطبراني في الكبير (٩/ ١٨٤/ ٨٩٠٧-٨٩٠٨). قال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٩٠): رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح، والحاكم (٢/ ٣١٣-٣١٤) وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبي.

★ **غريب الحديث:**

الضرع: ضرع الناقة والشاة وغيرهما، وأضرعت الشاة نزل اللبن في ضرعها لقرب نتاجها، وشاة ضريع: عظيمة الضرع.

* عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه: أن رسول اللَّه ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا؛ كل مال نحلته عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وإن اللَّه نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم؛ إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظان. وإن اللَّه أمرني أن أحرق قريشا. فقلت: رب إذًا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة. قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نُغْزِك، وأنفق فسننفق عليك، وابعث جيشا نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك. قال: وأهل الجنة ثلاثة؛ ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال. قال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبر له، الذين هم فيكم تبعًا لا يبتغون أهلًا ولا مالًا، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك، وذكر البخل أو الكذب، والشنظير الفحاش**»[1].

★ **غريب الحديث:**

نحلته: أي أعطيته.

حنفاء: أي مسلمين طاهرين من المعاصي.

فاجتالتهم: اجتال الرجل الشيء ذهب له، واجتال أموالهم ساقها.

فمقتهم: المقت أشد البغض.

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٦٢) ومسلم (٤/ ٢١٩٧-٢١٩٨/ ٢٨٦٥) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦-٢٧/ ٨٠٧٠-٨٠٧١).

إلا بقايا: أي: الباقون على ما بقي من حق في دينهم.

يثلغوا: أي: يشدخوه كما يشدخ الخبز، أي يكسر.

لا زبر له: أي: لا عقل له يزبره ويمنعه مما لا ينبغي.

وإن دق: أي: صغر.

والشنظير: فسره بالفحاش وهو السيء الخلق.

★ فوائد الحديثين:

قال القرطبي: «وقوله تعالى: (كل مال نحلته عبدًا حلال) معنى نحلته: أعطيته.. ويعني بها هنا العطية بطريق شرعي، فكأنه قال: كل من ملكته شيئًا بطريق شرعي، قليلًا كان أو كثيرًا، خطيرًا كان أو حقيرًا؛ فالانتفاع له به مباح مطلقًا، لا يمنع من شيء منه، ولا يزاحم عليه. والمال هنا: كل ما يتمول ويتملك من سائر الأشياء، وفائدة هذه القضية الكلية؛ رفع توهم من يتوهم أن ما يستلذ ويستطاب من رفيع الأطعمة والملابس والمناكح والمساكن؛ محرم أو مكروه، وإن كان ذلك من الكسب الجائز، كما قد ذهب إليه بعض غلاة المتزهدة..

وقوله: «**وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**» يعني: شياطين الإنس من الآباء والمعلمين بتعليمهم وتدريبهم، وشياطين الجن بوساوسهم. ومعنى «**اجتالتهم**»: أجالتهم؛ أي: صرفتهم عن مقتضى الفطرة الأصلية، كما قال: «**حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[1] وفي الرواية الأخرى: «**حتى يعبر عنه لسانه**» يعني: بما يلقي إليه الشيطان من الباطل والفساد المناقض لفطرة الإسلام»[2].

قال النووي: «والمراد إنكار ما حرموا على أنفسهم من السائبة والوصيلة والبحيرة والحامي وغير ذلك، وأنها لم تصِر حراما بتحريمهم، وكل مال ملكه العبد فهو له حلال حتى يتعلق به حق»[3].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٣) والبخاري (٣/ ٢٨١/ ١٣٥٨) ومسلم (٤/ ٢٠٤٧/ ٢٦٥٨) والترمذي (٤/ ٣٨٩-٣٩٠/ ٢١٣٨) من حديث أبي هريرة.

(٢) المفهم (٦/ ٧١١-٧١٢).

(٣) شرح مسلم (١٧/ ١٦٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝١٧٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى وإذا قيل لهؤلاء الكفرة من المشركين: اتبعوا ما أنزل اللَّه على رسوله، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل؛ قالوا في جواب ذلك: بل نتبع ما ألفينا؛ أي: وجدنا عليه آباءنا؛ أي: من عبادة الأصنام والأنداد، قال اللَّه تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أي: الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: ليس لهم فهم ولا هداية»[(١)].

قال القرطبي: «قال علماؤنا: وقوة ألفاظ هذه الآية تعطي إبطال التقليد ونظيرها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾[(٢)] الآية. وهذه الآية والتي قبلها مرتبطة بما قبلهما، وذلك أن اللَّه سبحانه أخبر عن جهالة العرب فيما تحكمت فيه بآرائها السفيهة في البحيرة والسائبة والوصيلة، فاحتجوا بأنه أمر وجدوا عليه آباءهم فاتبعوهم في ذلك، وتركوا ما أنزل اللَّه على رسوله، وأمر به في دينه، فالضمير في ﴿لَهُمُ﴾ عائد عليهم في الآيتين جميعًا»[(٣)].

قال أبو حيان: «أُبرزوا في صورة الغائب الذي يُتعجب من فعله، حيث دعي إلى اتباع شريعة اللَّه التي هي الهدى والنور. فأجاب باتباع شريعة أبيه، وكأنه يقال: هل رأيتم أسخف رأيًا، وأعمى بصيرة؛ ممن دعي إلى اتباع القرآن المنزل من عند اللَّه، فرد ذلك وأضرب عنه؟ وأثبت أنه يتبع ما وجد عليه أباه؟ وفي هذا دلالة على ذم التقليد، وهو قبول الشيء بلا دليل ولا حجة. وحكى ابن عطية أن الإجماع منعقد على إبطاله في العقائد. وفي الآية دليل على أن ما كان عليه آباؤهم هو مخالف لما

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٩).
(٢) المائدة: الآية (١٠٤).
(٣) الجامع (٢/ ٢١١).

أنزل اللَّه، فاتباع أبنائهم لآبائهم تقليد في ضلال. وفي هذا دليل على أن دين اللَّه هو اتباع ما أنزل اللَّه؛ لأنهم لم يؤمروا إلا به»[(١)].

قلت: ما ذكره المفسر أبو حيان نقلًا عن ابن عطية في أن الإجماع منعقد على إبطال التقليد في العقائد فيه نظر، فالتقليد باطل في العقائد وفي غيرها، فإن الإسلام هو الكتاب والسنة، ومن بلغه الكتاب والسنة فيجب عليه أن يذكرهما لمن لم يبلغه الإسلام، فلا فرق بين عقيدة ولا حلال ولا حرام ولا مستحب ولا مكروه، فكل الأحكام الخمسة يجب على الداعية إذا دل الناس عليها أن يبين حكمها من الكتاب والسنة، ولهذا قال أبو عمر بن عبد البر: «أجمع العلماء على أن المقلد ليس من أهل العلم». والذي ليس من أهل العلم لا يجوز أن يتكلم في العلم، فالكلام في دين اللَّه يحتاج فيه إلى الدليل، فالتقليد كله مذموم وباطل. ولقد فصلت القول في التقليد بما لا يدع شكًّا في ذمه في كتابي (أهل الأهواء والبدع والفتن والاختلاف).

قال ابن عاشور: «وفي هذه الآية المعطوفة زيادة تفظيع لحال أهل الشرك، فبعد أن أثبت لهم اتباعهم خطوات الشيطان فيما حرموا على أنفسهم من الطيبات؛ أعقب ذلك بذكر إعراضهم عمن يدعوهم إلى اتباع ما أنزل اللَّه، وتشبثوا بعدم مخالفتهم ما ألْفوا عليه آباءهم، وأعرضوا عن الدعوة إلى غير ذلك دون تأمل ولا تدبر»[(٢)].

قال ابن القيم: «فهذه مناظرة حكاها اللَّه بين المسلمين والكفار؛ فإن الكفار لجأوا إلى تقليد الآباء، وظنوا أنه منجيهم لإحسانهم ظنهم بهم، فحكم اللَّه بينهم بقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ وفي موضع آخر: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[(٣)] وفي موضع آخر: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾[(٤)] فأخبر عن بطلان هذه الحجة، وأنها لا تنجي من عذاب الله؛ لأن تقليد من ليس عنده علم ولا هدى من اللَّه ضلالة وسفه، والمعنى: ولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير يقلدونهم؟ ولو كانوا لا علم عندهم ولا هدى يقلدونهم أيضًا؟ وهذا شأن من لا غرض له في الهدى ولا في اتباع الحق، إنْ غرضه بالتقليد إلا دفع الحق والحجة إذا لزمته؛ لأنه لو كان مقصوده الحق لاتبعه إذا ظهر له، وقد

---

(١) البحر (١/ ٦٥٥).
(٢) التحرير (٢/ ١٠٦).
(٣) لقمان: الآية (٢١).
(٤) الزخرف: الآية (٢٤).

جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم، فلو كنتم ممن يتبع الحق لاتبعتم ما جئتكم به، فأنتم لم تقلدوا الآباء لكونهم على حق، فقد جئتكم أهدى مما وجدتموهم عليه، وإنما جعلتم تقليدهم جُنة لكم تدفعون بها الحق الذي جئتكم به»[(١)].

قال شيخ الإسلام: «وأكثر الناس إنما التزموا المذاهب بل الأديان بحكم ما تبين لهم، فإن الإنسان ينشأ على دين أبيه أو سيده أو أهل بلده؛ كما يتبع الطفل في الدين أبويه وسابِيه وأهل بلده، ثم إذا بلغ الرجل فعليه أن يقصد طاعة اللَّه ورسوله حيث كانت، ولا يكون ممن إذا قيل لهم: اتبعوا ما أنزل اللَّه قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا. فكل من عدل عن اتباع الكتاب والسنة وطاعة اللَّه والرسول إلى عادته وعادة أبيه وقومه؛ فهو من أهل الجاهلية المستحقين للوعيد. وكذلك من تبين له في مسألة من مسائلِ الحقِّ الذي بعث اللَّه به رسوله، ثم عدل عنه إلى عادته؛ فهو من أهل الذم والعقاب. وأما من كان عاجزًا عن معرفة حكم اللَّه ورسوله، وقد اتبع فيها من هو من أهل العلم والدين، ولم يتبين له أن قول غيره أرجح من قوله؛ فهو محمود يثاب لا يذم على ذلك ولا يعاقب، وإن كان قادرًا على الاستدلال ومعرفة ما هو الراجح، وتوقي بعض المسائل فعدل عن ذلك إلى التقليد؛ فهو قد اختلف في مذهب أحمد المنصوص عنه، والذي عليه أصحابه أن هذا آثم أيضًا، وهو مذهب الشافعي وأصحابه وحكي عن محمد بن الحسن وغيره أنه يجوز له التقليد مطلقًا، وقيل: يجوز تقليد الأعلم»[(٢)].

وقال: «وأنا وغيري كنا على مذهب الآباء في ذلك! نقول في الأصلين بقول أهل البدع، فلما تبين لنا ما جاء به الرسول دار الأمر بين أن نتبع ما أنزل اللَّه، أو نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، فكان الواجب هو اتباع الرسول، وأن لا نكون ممن قيل فيه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾[(٣)] وقد قال تعالى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾[(٤)] فالواجب اتباع الكتاب المنزل، والنبي

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٧٣-١٧٤).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٢٤-٢٢٥).
(٣) لقمان: الآية (٢١).
(٤) لقمان: الآيتان (١٤-١٥).

المرسل، وسبيل من أناب إلى اللَّه، فاتبعنا الكتاب والسنة كالمهاجرين والأنصار، دون ما خالف ذلك من دين الآباء وغير الآباء، واللَّه يهدينا وسائر إخواننا إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم اللَّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، واللَّه سبحانه أنزل القرآن وهدى به الخلق وأخرجهم به من الظلمات إلى النور»[1].

وقال أيضًا: «أما التقليد الباطل المذموم فهو قبول قول الغير بلا حجة، قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ في البقرة وفي المائدة، وفي لقمان: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ﴾ وفي الزخرف: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ وفي الصافات: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾[2] وقال: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾[3] الآية. وقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[4] وقال: ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾[5] وفي الآية الأخرى: ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾[6] وقال: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[7] فهذا الاتباع والتقليد الذي ذمه اللَّه هو اتباع الهوى، إما للعادة والنسب كاتباع الآباء، وإما للرئاسة كاتباع الأكابر والسادة والمتكبرين، فهذا مثل تقليد الرجل لأبيه أو سيده أو ذي سلطانه، وهذا يكون لمن لم يستقل بنفسه وهو الصغير، فإن دينه دين أمه، فإن فُقدت فدِين ملكه وأبيه، فإن فُقد كاللقيط فدين المتولي عليه، وهو أهل البلد الذي هو فيه، فأما إذا بلغ وأعرب لسانه؛ فإما شاكرًا وإما كفورًا، وقد بين اللَّه أن الواجب الإعراض عن هذا التقليد إلى اتباع ما أنزل اللَّه على رسله، فإنهم حجة اللَّه التي أعذر بها إلى خلقه.

والكلام في التقليد في شيئين: في كونه حقًّا أو باطلًا من جهة الدلالة، وفي كونه

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/٢٥٨).
(٢) الصافات: الآيتان (٦٩-٧٠).
(٣) الأحزاب: الآيتان (٦٦-٦٧).
(٤) البقرة: الآية (١٦٦).
(٥) غافر: الآية (٤٧).
(٦) إبراهيم: الآية (٢١).
(٧) النحل: الآية (٢٥).

مشروعًا أو غير مشروع من جهة الحكم. أما الأول فإن التقليد المذكور لا يفيد علمًا، فإن المقلد يجوز أن يكون مقلَّده مصيبًا ويجوز أن يكون مخطئًا، وهو لا يعلم أمصيب هو أم مخطئ؟ فلا تحصل له ثقة ولا طمأنينة، فإن علم أن مقلده مصيب، كتقليد الرسول أو أهل الإجماع فقد قلده بحجة، وهو العلم بأنه عالم وليس هو التقليد المذكور، وهذا التقليد واجب للعلم بأن الرسول معصوم، وأهل الإجماع معصومون. وأما تقليد العالم حيث يجوز فهو بمنزلة اتباع الأدلة المتغلبة على الظن، كخبر الواحد والقياس؛ لأن المقلد يغلب على ظنه إصابة العالم المجتهد، كما يغلب على ظنه صدق المخبر، لكن بين اتباع الراوي والرأي فرق يذكر إن شاء اللَّه في موضوع آخر. فإن اتباع الراوي واجب؛ لأنه انفرد بعلم ما أخبر به، بخلاف الرأي فإنه يمكن أن يعلم من حيث علم، ولأن غلط الرواية بعيد فإن ضبطها سهل، ولهذا نقل عن النساء والعامة، بخلاف غلط الرأي فإنه كثير لدقة طرقة وكثرتها. وهذا هو العرف لمن يجوز قبول الخبر مع إمكان مراجعة المخبر عنه، ولا يجوز قبول المعنى مع إمكان معرفة الدليل. وأما العرف الأول فمتفق عليه بين أهل العلم، ولهذا يوجبون اتباع الخبر، ولا يوجب أحد تقليد العالم على من أمكنه الاستدلال، وإنما يختلفون في جوازه؛ لأنه يمكنه أن يعلم من حيث علم فهذه جملة. وأما تفصيلها فنقول: الناس في الاستدلال والتقليد على طرفي نقيض: منهم من يوجب الاستدلال حتى في المسائل الدقيقة: أصولها وفروعها على كل أحد، ومنهم من يحرم الاستدلال في الدقيق على كل أحد، وهذا في الأصول والفروع، وخيار الأمور أوساطها»[1].

وقال ابن القيم متحدثا عن التقليد المذموم: «فأما النوع الأول فهو ثلاثة أنواع: أحدها الإعراض عما أنزل اللَّه وعدم الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء. الثاني: تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله. الثالث: التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد. والفرق بين هذا وبين النوع الأول؛ أن الأول قلد قبل تمكنه من العلم والحجة، وهذا قلد بعد ظهور الحجة له، فهو أولى بالذم ومعصية اللَّه ورسوله. وقد ذم اللَّه سبحانه هذه الأنواع الثلاثة من التقليد في غير

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٥-١٨).

موضع من كتابه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[2] وهذا في القرآن كثير يذم فيه من أعرض عما أنزله وقنع بتقليد الآباء. فإن قيل: إنما ذم من قلد الكفار وآباءه الذين لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون، ولم يذم من قلد العلماء المهتدين، بل قد أمر بسؤال أهل الذكر وهم أهل العلم وذلك تقليد لهم فقال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3] وهذا أمر لمن لا يعلم بتقليد من يعلم؛ فالجواب أنه سبحانه ذم من أعرض عما أنزله إلى تقليد الآباء، وهذا القدر من التقليد هو مما اتفق السلف والأئمة الأربعة على ذمه وتحريمه، وأما تقليد من بذل جهده في اتباع ما أنزل اللَّه وخفي عليه بعضه فقلد فيه من هو أعلم منه؛ فهذا محمود غير مذموم ومأجور غير مأزور»[4].

وقال القرطبي: «قال ابن درباس: وقد أكثر أهل الزيغ القول على من تمسك بالكتاب والسنة أنهم مقلدون، وهذا خطأ منهم، بل هو بهم أليق، وبمذاهبهم أخلق؛ إذ قبلوا قول ساداتهم وكبرائهم فيما خالفوا فيه كتاب اللَّه وسنة رسوله وإجماع الصحابة ﷺ، فكانوا داخلين فيمن ذمهم اللَّه بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ إلى قوله: ﴿كَبِيرًا﴾[5] وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ ثم قال لنبيه: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ ثم قال لنبيه عليه السلام: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[6] الآية. فبين تعالى أن الهدى فيما جاءت به رسله عليهم السلام، وليس قول أهل الأثر في عقائدهم: إنا وجدنا أئمتنا وآباءنا والناس على الأخذ بالكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح من الأمة من قولهم: إنا وجدنا آباءنا وأطعنا سادتنا وكبراءنا بسبيل؛ لأن هؤلاء نسبوا ذلك إلى التنزيل، وإلى متابعة الرسول، وأولئك نسبوا إفكهم إلى أهل الأباطيل،

(١) الزخرف: الآيتان (٢٣و٢٤).
(٢) المائدة: الآية (١٠٤).
(٣) النحل: الآية (٤٣).
(٤) إعلام الموقعين (٢/ ١٨٧-١٨٨).
(٥) الأحزاب: الآيتان (٦٧و٦٨).
(٦) الزخرف: الآيات (٢٣-٢٥).

فازدادوا بذلك في التضليل. ألا ترى أن اللَّه سبحانه أثنى على يوسف عليه السلام في القرآن حيث قال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾[1] فلما كان آباؤه -عليه وعليهم السلام- أنبياء متبعين للوحي وهو الدين الخالص الذي ارتضاه الله- كان اتباعه آباءه من صفات المدح، ولم يجئ فيما جاءوا به ذكر الأعراض وتعلقها بالجواهر وانقلابها فيها، فدل على أن لا هدى فيها، ولا رشد في واضعيها»[2].

* * *

(١) يوسف: الآيتان (٣٧-٣٨).

(٢) الجامع (٢/ ٢١٣).

قوله تعالى : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير : « ثم ضرب لهم تعالى مثلا كما قال تعالى : ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾[1] فقال : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي : فيما هم فيه من الغي، والضلال، والجهل؛ كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعق بها راعيها أي : دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط، هكذا روي عن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والربيع بن أنس نحو هذا . وقيل : إنما هذا مثل ضرب لهم في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئًا . اختاره ابن جرير . والأول أولى لأن الأصنام لا تسمع شيئًا ولا تعقله ولا تبصره ولا بطش لها ولا حياة فيها . وقوله : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ أي : صم عن سماع الحق، بكم لا يتفوهون به، عمي عن رؤية طريقه ومسلكه، ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يعقلون شيئًا ولا يفهمونه كما قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]»[3] .

قال القرطبي : «شبه تعالى واعظ الكفار وداعيهم -وهو محمد ﷺ- بالراعي الذي ينعق بالغنم والإبل فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه، ولا تفهم ما يقول، هكذا فسره ابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدي والزجاج والفراء وسيبويه؛ وهذه نهاية الإيجاز . قال سيبويه : لم يشبهوا بالناعق، إنما شبهوا بالمنعوق به، والمعنى : ومثلك يا محمد ومثل الذين كفروا؛ كمثل الناعق والمنعوق به من البهائم التي لا تفهم فحذف لدلالة المعنى . وقال ابن زيد : المعنى مثل الذين كفروا في دعائهم

(١) النحل : الآية (٦٠).
(٢) الأنعام : الآية (٣٩).
(٣) تفسير القرآن (١/ ٣٥٩-٣٦٠).

الآلهة الجماد؛ كمثل الصائح في جوف الليل فيجيبه الصدى، فهو يصيح بما لا يسمع ويجيبه مالا حقيقة فيه ولا منتفع. وقال قطرب: المعنى مثل الذين كفروا في دعائهم ما لا يفهم يعني الأصنام؛ كمثل الراعي إذا نعق بغنمه وهو لا يدري أين هي. قال الطبري: المراد مثل الكافرين في دعائهم آلهتهم؛ كمثل الذي ينعق بشيء بعيد، فهو لا يسمع من أجل البعد فليس للناعق من ذلك إلا النداء الذي يتعبه وينصبه. ففي هذه التأويلات الثلاثة يشبه الكفار بالناعق الصائح، والأصنام بالمنعوق به، والنعيق: زجر الغنم والصياح بها»[1].

قال ابن القيم: «فتضمن هذا المثل ناعقًا أي مصوّتًا بالغنم وغيرها، ومنعوقًا به وهو الدوابّ، فقيل: الناعق العابد وهو الداعي للصنم، والصنم هو المنعوق به المدعو، وإنّ حال الكافر في دعائه كحال من ينعق بما لا يسمعه. هذا قول طائفة منهم عبد الرحمن بن زيد وغيره... وقيل: المعنى ومثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه مما يقول الراعي أكثر من الصوت، فالراعي هو داعي الكفار، والكفار هم البهائم المنعوق بها. قال سيبويه: المعنى ومثلك يا محمد ومثل الذين كفروا؛ كمثل الناعق والمنعوق به، وعلى قوله فيكون المعنى: ومثل الذين كفروا وداعيهم كمثل الغنم والناعق بها. ولك أن تجعل هذا من التشبيه المركب، وأن تجعله من التشبيه المفرق، فإن جعلته من المركب؛ كان تشبيهًا للكفار -في عدم فقههم وانتفاعهم- بالغنم التي ينعق بها الراعي فلا تفقه من قوله شيئًا غير الصوت المجرد الذي هو الدعاء والنداء. وإن جعلته من التشبيه المفرق فالذين كفروا بمنزلة البهائم، ودعاء داعيهم إلى الطريق والهدى؛ بمنزلة الذي ينعق بها، ودعاؤهم إلى الهدى بمنزلة النعق، وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء؛ كإدراك البهائم مجرد صوت الناعق. والله أعلم»[2].

وقال أيضًا: «وسواء كان المعنى: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع من الدواب إلا أصواتا مجردة، أو كان المعنى: ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذي ينعق بها فلا تسمع إلا صوت الدعاء والنداء؛ فالقولان متلازمان، بل هما واحد، وإن كان التقدير الثاني أقرب إلى اللفظ وأبلغ في

---

(١) الجامع (٢/ ٢١٤-٢١٥).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٨٢-١٨٣).

المعنى. فعلى التقديرين: لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل للأنعام، فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التي يُميَّز بها صاحبها عن سائر الحيوان»[(١)].

وقال شيخ الإسلام: «والقلب الحي المنور فإنه لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل. والقلب الميت فإنه لا يسمع ولا يبصر، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾[(٢)] وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[(٣)] الآيات. فأخبر أنهم لا يفقهون بقلوبهم، ولا يسمعون بآذانهم، ولا يؤمنون بما رأوه من النار، كما أخبر عنهم حيث قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[(٤)] فذكروا الموانع على القلوب والسمع والأبصار، وأبدانهم حية تسمع الأصوات وترى الأشخاص؛ لكن حياة البدن بدون حياة القلب من جنس حياة البهائم، لها سمع وبصر، وهي تأكل وتشرب وتنكح، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ فشبههم بالغنم الذي ينعق بها الراعي وهي لا تسمع إلا نداء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[(٥)] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[(٦)]»[(٧)].

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٩٤-٢٩٥).
(٢) يونس: الآيتان (٤٢-٤٣).
(٣) الأنعام: الآية (٢٥).
(٤) فصلت: الآية (٥).
(٥) الفرقان: الآية (٤٤).
(٦) الأعراف: الآية (١٧٩).
(٧) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٠٣-١٠٤).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه تعالى على ذلك إن كانوا عبيده، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة كما جاء في الحديث»[١].

وقال القنوجي: «هذا تأكيد للأمر الأول أعني قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾[٢] وإنما خص المؤمنين هنا؛ لكونهم أفضل أنواع الناس، قيل: والمراد بالأكل الانتفاع. وقيل: المراد به الأكل المعتاد، وهو الظاهر. وقيل: إن الأمر في ﴿كُلُواْ﴾ قد يكون للوجوب، كالأكل لحفظ النفس ودفع الضر عنها، وقد يكون للندب؛ كالأكل مع الضيف، وقد يكون للإباحة؛ إذا خلا من هذه العوارض، وعن عمر بن عبدالعزيز: أن المراد بما في الآية طيب الكسب، لا طيب الطعام. وقال الضحاك: إنها حلال الرزق»[٣].

قال السعدي: «هذا أمر للمؤمنين خاصة، بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم المنتفعون -على الحقيقة- بالأوامر والنواهي، بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إنعامه، باستعمالها بطاعته، والتقوي بها على ما يوصل إليه، فأمرهم بما أمر به المرسلين في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾[٤].

فالشكر في هذه الآية، هو العمل الصالح، وهنا لم يقل: ﴿حَلَٰلٗا﴾؛ لأن

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٦٠).

(٢) البقرة: الآية (١٦٨).

(٣) فتح البيان (١/ ٣٤٠).

(٤) المؤمنون: الآية (٥١).

المؤمن أباح اللَّه له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: فاشكروه، فدل على أن من لم يشكر اللَّه، لم يعبده وحده، كما أن من شكره فقد عبده، وأتى بما أمر به. ويدل أيضًا على أن أكل الطيب، سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر، عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلب النعم المفقودة كما أن الكفر، ينفر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة»[1].

قال ابن القيم: «الذي حسّن مجيء ﴿إِن﴾ ههنا الاحتجاج والإلزام، فإن المعنى: إن عبادتكم لله تستلزم شكركم له، بل هي الشكر نفسه، فإن كنتم ملتزمين لعبادته داخلين في جملتها؛ فكلوا من رزقه، واشكروه على نعمه. وهذا كثيرًا ما يورد في الحجاج، كما تقول للرجل: إن كان اللَّه ربك وخالقك؛ فلا تعصه، وإن كان لقاء اللَّه حقًّا؛ فتأهب له، وإن كانت الجنة حقًّا؛ فتزود إليها. وهذا أحسن من جواب من أجاب بأن ﴿إِن﴾ هنا قامت مقام إذا، وكذا قوله: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾[2] وكذا قولهم: إن كنت ابني فأطعني، ونظائر ذلك»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على الأكل من الطيبات وأنه سبب لاستجابة الدعاء

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أيها الناس! إن اللَّه طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن اللَّه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا﴾[4] وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب؛ ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟!**»[5].

---

(١) التيسير (١/ ٢٠٤-٢٠٥).
(٢) الأنعام: الآية (١١٨).
(٣) بدائع الفوائد (١/ ٤٨).
(٤) المؤمنون: الآية (٥١).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٨) ومسلم (٢/ ٧٠٣/ ١٠١٥) والترمذي (٥/ ٢٠٥/ ٢٩٨٩).

★ **فوائد الحديث:**

هذا الحديث أورده النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في أربعينيته وشرحه الإمام ابن رجب شرحًا ماتعًا ألخص مقاصده كالآتي مع إضافات يسيرة.

قوله ﷺ: «**إن اللَّه طيب**»

قال ابن رجب: «والطيب هنا معناه الطاهر، والمعنى أنه تعالى مقدس منزه عن النقائص والعيوب كلها، وهذا كما في قوله: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾[١] والمراد: المنزهون من أدناس الفواحش وأوضارها»[٢].

وقال القاضي عياض: «ومعنى تسمية اللَّه بالطيب هنا أي: المنزه عن النقائص، بمعنى القدوس، وأصل الطيب الزكاة والطهارة والسلامة من الخبث»[٣].

قوله: «**لا يقبل إلا طيبًا**»

اختلف في المراد من ذلك على أقوال:

أ - أن المراد أنه تعالى لا يقبل من الصدقات إلا ما كان طيبًا حلالًا، وقد ورد معناه في حديث الصدقة ولفظه: «**لا يتصدق أحد بصدقة من كسب طيب ولا يقبل اللَّه إلا طيبًا**»[٤].

ب - أن المراد أعم من ذلك، وهو أنه لا يقبل من الأعمال إلا ما كان طيبًا طاهرا من المفسدات كلها؛ كالرياء والعجب، ولا من الأموال إلا ما كان طيبًا حلالًا.

ج- أن المراد، أنه يدخل في ذلك الأقوال والأعمال والاعتقادات أيضًا، ووصف اللَّه تعالى المؤمنين بالطيب بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾[٥] وإن الملائكة تقول عند الموت: اخرجي أيتها النفس الطيبة التي كانت في الجسد

---

(١) النور: الآية (٢٦). (٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٥٨-٢٥٩).

(٣) إكمال المعلم (٣/ ٥٣٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٨) والبخاري (٣/ ٣٥٤/ ١٤١٠) ومسلم (٢/ ٧٠٢/ ١٠١٤) والترمذي (٣/ ٤٩/ ٦٦١) والنسائي (٥/ ٦٠-٦١/ ٢٥٢٤) وابن ماجه (١/ ٥٩٠/ ١٨٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) النحل: الآية (٣٢).

الطيب[١]، وإن الملائكة تسلم عليهم عند دخولهم الجنة، ويقولون: سلام عليكم طبتم. . .

فالمؤمن كله طيب: قلبه ولسانه وجسده، بما يسكن في قلبه من الإيمان، وظهر على لسانه من الذكر، وعلى جوارحه من الأعمال الصالحة التي هي ثمرة الإيمان، وداخلة في اسمه، فهذه الطيبات كلها يتقبلها اللَّه ﷻ[٢].

وقال ابن رجب: «وفي هذا الحديث إشارة إلى أنه لا يقبل العمل ولا يزكو إلا بأكل الحلال، وأن أكل الحرام يفسد العمل، ويمنع قبوله، فإنه قال بعد تقريره: (إن اللَّه لا يقبل إلا طيبا) إن اللَّه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾.

والمراد بهذا أن الرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال، وبالعمل الصالح، فما دام الأكل حلالًا، فالعمل صالح مقبول، فإذا كان الأكل غير حلال، فكيف يكون العمل مقبولًا؟

وما ذكره بعد ذلك من الدعاء، وأنه كيف يتقبل مع الحرام، فهو مثال لاستبعاد قبول الأعمال مع التغذية بالحرام»[٣].

* عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها**»[٤].

⋆ غريب الحديث:

الأكلة: بالفتح المرة من الأكل وبالضم اللقمة.

⋆ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وفيه دلالة على أن شكر النعمة -وإن قلّت- سبب نيل رضا اللَّه

---

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٤) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٣/ ١١٤٤٢) وابن ماجه (٢/ ١٤٢٣-١٤٢٤/ ٤٢٦٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٥٩) بتصرف.

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٦٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٠-١١٧) ومسلم (٤/ ٢٠٩٥/ ٢٧٣٤) والترمذي (٤/ ٢٣٣/ ١٨١٦) وقال: «حديث حسن». والنسائي في الكبرى (٤/ ٢٠٢/ ٦٨٩٩).

تعالى؛ الذي هو أشرف أحوال أهل الجنة، وسيأتي قول اللَّه ﷻ لأهل الجنة حين يقولون: أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: ما هو؟ ألم تبيض وجوهنا، وتدخلنا الجنة، وتزحزحنا عن النار؟، فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا[١]. وإنما كان الشكر سببا لذلك الإكرام العظيم؛ لأنه يتضمن معرفة المنعم، وانفراده بخلق تلك النعمة، وبإيصالها إلى المنعم عليه، تفضلا من المنعم، وكرما، ومنة، وإن المنعم عليه فقير محتاج إلى تلك النعم، ولا غنى به عنها، فقد تضمن ذلك معرفة حق اللَّه وفضله، وحق العبد وفاقته، وفقره، فجعل اللَّه تعالى جزاء تلك المعرفة تلك الكرامة الشريفة»[٢].

وقال النووي: «وفيه استحباب حمد اللَّه تعالى عقب الأكل والشرب، وقد جاء في البخاري صفة التحميد: «**الحمد لله حمدًا كثيرا طيبًا مباركًا فيه غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا**»[٣] وجاء غير ذلك، ولو اقتصر على الحمد لله؛ حصل أصل السنة»[٤].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: ما شبع آل محمد ﷺ من طعام ثلاثة أيام حتى قبض[٥].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وأحاديث هذا الباب كلها، وإن اختلفت ألفاظها تدل على أن النبي ﷺ لم يكن يديم الشبع، ولا الترفه في العيش، لا هو ولا من حَوَتْه بيوتُه، ولا آله. بل: كانوا يأكلون ما خَشُنَ من المأكل العلق، ويقتصرون منه على ما يسد الرمق، معرضين عن متاع الدنيا، مؤثرين ما يبقى على ما يفنى، ثم لم يزل كذلك حالهم مع إقبال الدنيا عليهم، واجتماعها بحذافيرها لديهم؛ إلى أن وصلوا إلى ما

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٨٨) والبخاري (١١/ ٥٠٦-٥٠٧/ ٦٥٤٩) ومسلم (٤/ ٢١٧٦/ ٢٨٢٩) والترمذي (٤/ ٥٩٥/ ٢٥٥٥) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٦/ ٧٧٤٩) من حديث أبي سعيد ﷺ.

(٢) المفهم (٧/ ٦١).

(٣) أخرجه البخاري (٩/ ٧٢٣/ ٥٤٥٨) من حديث أبي أمامة ﷺ.

(٤) شرح مسلم (١٧/ ٤٢).

(٥) أحمد (٢/ ٤٣٤) والبخاري (٩/ ٦٤٦/ ٥٣٧٤) ومسلم (٤/ ٢٢٨٤/ ٢٩٧٦) والترمذي (٤/ ٥٠٠/ ٢٣٥٨).

طلبوا، وظفروا بما رغبوا فيه»[١].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: أصابني جهد شديد، فلقيت عمر بن الخطاب، فاستقرأته آية من كتاب اللَّه، فدخل داره وفتحها علي، فمشيت غير بعيد فخررت لوجهي من الجهد والجوع، فإذا رسول اللَّه ﷺ قائم على رأسي فقال: **يا أبا هريرة!** فقلت: لبيك رسول اللَّه وسعديك، فأخذ بيدي فأقامني وعرف الذي بي، فانطلق بي إلى رحله فأمر لي بعس من لبن فشربت منه، ثم قال: **عد فاشرب يا أبا هر!** فعدت فشربت، ثم قال: **عد**، فعدت فشربت، حتى استوى بطني فصار كالقدح، قال فلقيت عمر وذكرت له الذي كان من أمري وقلت له: تولى ذلك من كان أحق به منك يا عمر، واللَّه لقد استقرأتك الآية ولأنا أقرأ لها منك، قال عمر: واللَّه لأن أكون أدخلتك أحب إلي من أن يكون لي مثل حمر النعم[٢]. وفي رواية للبخاري: «فما زال يقول: **اشرب**، حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق، ما أجد له مسلكًا»[٣].

⋆ غريب الحديث:

أصابني جهد: «وهو بالضم: الوسع والطاقة، وبالفتح: المشقة وقيل المبالغة والغاية، وهما لغتان في الوسع والطاقة، فأما في المشقة والغاية؛ فالفتح لا غير».

وفتحها علي: أي قرأها علي وأفهمني إياها.

فأمر لي بعس: العسّ: القدح الكبير، وجمعه عساس وأعساس.

فصار كالقدح: «أي انتصب بما حصل فيه من اللبن وصار كالسهم الذي لا ريش له، بعد أن كان لصق بظهره من الخلو».

حمر النعم: ساكن الميم كرائمها، وهو مثل في كل نفيس.

⋆ فوائد الحديث:

قوله: (أصابني جهد شديد) أي من الجوع، «وفيه ما كان بعض الصحابة عليه في زمن النبي ﷺ من ضيق الحال»[٤].

---

(١) المفهم (٧/ ١٢٨-١٢٩).

(٢) البخاري (٩/ ٦٤٦/ ٥٣٧٥).

(٣) البخاري (١١/ ٣٣٩/ ٦٤٥٢).

(٤) الفتح (١١/ ٣٤٨).

قال الحافظ : «وفيه جواز الشبع ولو بلغ أقصى غايته؛ أخذا من قول أبي هريرة (لا أجد له مسلكًا)، وتقرير النبي ﷺ على ذلك، خلافًا لمن قال بتحريمه، وإذا كان ذلك في اللبن مع رقته ونفوذه فكيف بما فوقه من الأغذية الكثيفة، لكن يحتمل أن يكون ذلك خاصًّا بما وقع في تلك الحال فلا يقاس عليه. وقد أورد الترمذي عقب حديث أبي هريرة هذا حديث ابن عمر رفعه «**أكثرهم في الدنيا شبعًا أطولهم جوعًا يوم القيامة**»[1] وقال: حسن..

وفي الباب أيضًا حديث المقدام بن معد يكرب رفعه: «**ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بطنه**»[2] الحديث أخرجه الترمذي أيضًا وقال حسن صحيح. ويمكن الجمع بأن يحمل الزجر على من يتخذ الشبع عادة لما يترتب على ذلك من الكسل عن العبادة وغيرها، ويحمل الجواز على من وقع له ذلك نادرا، ولاسيما بعد شدة جوع واستبعاد حصول شيء بعده عن قرب»[3].

* * *

(١) الترمذي (٤/ ٥٦٠/ ٢٤٧٨) وابن ماجه (٢/ ١١١١-١١١٢/ ٣٣٥٠) وانظر الصحيحة (٣٤٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٣٢) والترمذي (٤/ ٥٠٩-٥١٠/ ٢٣٨٠) والنسائي في الكبرى (٤/ ١٧٧/ ٦٧٦٩) وابن ماجه (٢/ ١١١١/ ٣٣٤٩).

(٣) الفتح (١١/ ٣٤٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أهل: الإهلال في الذبيحة رفع الصوت بالتسمية، ومنه الإهلال بالحج: وهو رفع الصوت بالتلبية به.

اضطر: أكره. والاضطرار الإلجاء على غير رضا.

غير باغ: أي: غير متجاوز ما حد له. والبغي: تجاوز حد الاعتدال.

ولا عاد: أي: غير متجاوز ما يسد رمقه أو شبعه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ﴾ الآية. ظاهر هذه الآية أن جميع أنواع الميتة والدم حرام، ولكنه بيّن في موضع آخر أن ميتة البحر خارجة عن ذلك التحريم وهو قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾[1] الآية. إذ ليس للبحر طعام غير الصيد إلا ميتته. وما ذكره بعض العلماء من أن المراد بطعامه قدّيده المجفف بالملح مثلًا، وأن المراد بصيده الطري منه؛ فهو خلاف الظاهر؛ لأن القديد من صيده، فهو صيد جعل قديدًا. وجمهور العلماء على أن المراد بطعامه ميتته؛ منهم: أبو بكر الصديق، وزيد بن ثابت، وعبد اللّه ابن عمر، وأبو أيوب الأنصاري -رضي الله عنهم أجمعين- وعكرمة، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وإبراهيم النخعي، والحسن البصري وغيرهم. كما نقله عنهم ابن كثير. وأشار في موضع آخر إلى أن غير المسفوح من الدماء ليس بحرام وهو قوله: ﴿إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾[2]، فيفهم منه أن غير المسفوح

---

(١) المائدة: الآية (٩٦).
(٢) الأنعام: الآية (١٤٥).

كالحمرة التي تعلو القدر من أثر تقطيع اللحم ليس بحرام؛ إذ لو كان كالمسفوح لما كان في التقييد بقوله: ﴿مَّسْفُوحًا﴾ فائدة.

وقد جاء عن النبيّ ﷺ: أن اللَّه أحلّ له ولأمته ميتتين ودمين، أما الميتتان: فالسمك والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال..

وعنه ﷺ في البحر: «**هو الحل ميتته**».. وظاهر عموم هذا الحديث وعموم قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُهُ﴾؛ يدل على إباحة ميتة البحر مطلقًا. وقد ثبت عنه ﷺ في الحديث المتفق عليه «**أنه أكل من العنبر**»[1]، وهو حوت ألقاه البحر ميتًا وقصته مشهورة»[2].

قال ابن كثير: «ولما امتن تعالى عليهم برزقه وأرشدهم إلى الأكل من طيبه؛ ذكر أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة، وهي التي تموت حتف أنفها، من غير تذكية، وسواء كانت منخنقة أو موقوذة أو متردية أو نطيحة أو عدا عليها السبع، وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر، لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ على ما سيأتي إن شاء اللَّه. وحديث العنبر في الصحيح، وفي المسند والموطأ والسنن قوله عليه السلام في البحر: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**»[3] وروى الشافعي وأحمد وابن ماجه والدارقطني حديث بن عمر مرفوعًا: «**أحل لنا ميتتان ودمان السمك والجراد، والكبد والطحال**»[4]...

* **مسألة**: ولبن الميتة وبيضها المتصل بها نجس عند الشافعي وغيره؛ لأنه جزء منها. وقال مالك في رواية: هو طاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة، وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف، والمشهور عندهم أنها نجسة، وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن المجوس. فقال القرطبي في التفسير: ههنا يخالط اللبن منها يسير، ويعفى عن قليل النجاسة إذا خالط الكثير من المائع... وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير، سواء ذكي أم مات حتف أنفه، ويدخل شحمه في حكم لحمه؛ إما تغليبًا أو أن اللحم يشمل ذلك، أو بطريق القياس على رأي. وكذلك حرم عليهم ما أهل به لغير

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٩-٣١٠) والبخاري (٩/ ٧٦٧/ ٥٤٩٤) ومسلم (٣/ ١٥٣٥/ ١٩٣٥) والنسائي (٧/ ٢٣٧/ ٤٣٦٣) من حديث جابر رضي الله عنه.
(٢) أضواء البيان (١/ ٩٠-٩١).
(٣) سيأتي تخريجه في الباب نفسه.
(٤) سيأتي تخريجه في الباب نفسه.

اللَّه، وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام ونحو ذلك، مما كانت الجاهلية ينحرون له. وذكر القرطبي عن ابن عطية: أنه نقل عن الحسن البصري أنه سئل عن امرأة عملت عرسًا لِلُعَبها، فنحرت فيه جزورًا، فقال: لا تؤكل لأنها ذبحت لصنم. وأورد القرطبي عن عائشة ﵂ أنها سئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين؟ فقالت: ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه وكلوا من أشجارهم. ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها عند فقد غيرها من الأطعمة، فقال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي: في غير بغي ولا عدوان، وهو مجاوزة الحد ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: في أكل ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وقال مجاهد: فمن اضطر غير باغ ولا عاد قاطعًا للسبيل أو مفارقًا للأئمة أو خارجًا في معصية الله؛ فله الرخصة، ومن خرج باغيًا أو عاديًا أو في معصية الله؛ فلا رخصة له وإن اضطر إليه، وكذا روي عن سعيد بن جبير. وقال سعيد في رواية عنه ومقاتل ابن حيان: غير باغ يعني: غير مستحله. وقال السدي: غير باغ يبتغي فيه شهوته. وقال آدم بن أبي إياس: حدثنا ضمرة عن عثمان بن عطاء وهو الخراساني عن أبيه قال: لا يشوي من الميتة ليشتهيه ولا يطبخه ولا يأكل إلا العلقة، ويحمل معه ما يبلغه الحلال فإذا بلّغه ألقاه. وهو قوله: ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ويقول: لا يعدو به الحلال. وعن ابن عباس: لا يشبع منها. وفسره السدي بالعدوان. وعن ابن عباس: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال: غير باغ في الميتة ولا عاد في أكله. وقال قتادة: فمن اضطر غير باغ ولا عاد؛ غير باغ في الميتة أي: في أكله أن يتعدى حلالًا إلى حرام وهو يجد عنه مندوحة. وحكى القرطبي عن مجاهد في قوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي: أكره على ذلك بغير اختياره»[1].

قال ابن عاشور: «ذلك أن الإذن بأكل الطيبات؛ يثير سؤال من يسأل ما هي الطيبات؟ فجاء هذا الاستئناف مبينًا المحرمات، وهي أضداد الطيبات، لتعرف الطيبات بطريق المضادة المستفادة من صيغة الحصر، وإنما سلك طريق بيان ضد الطيبات للاختصار؛ فإن المحرمات قليلة، ولأن في هذا الحصر تعريضًا بالمشركين الذين حرموا على أنفسهم كثيرا من الطيبات وأحلوا الميتة والدم، ولما

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٠-٣٦٢).

كان القصر هنا حقيقيًّا لأن المخاطب به هم المؤمنون وهم لا يعتقدون خلاف ما يشرع لهم؛ لم يكن في هذا القصر قلب اعتقاد أحد، وإنما حصل الرد به على المشركين بطريقة التعريض»[١].

قال القرطبي: «هذه الآية عامة دخلها التخصيص بقوله ﷺ: «**أحلت لنا ميتتان: الحوت والجراد، ودمان: الكبد والطحال**». أخرجه الدارقطني، وكذلك حديث جابر في العنبر، يخصص عموم القرآن بصحة سنده. خرجه البخاري ومسلم مع قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾[٢]. وأكثر أهل العلم: على جواز أكل جميع دواب البحر حيها وميتها، وهو مذهب مالك. وتوقف أن يجيب في خنزير الماء، وقال: أنتم تقولون خنزيرًا! قال ابن القاسم: وأنا أتقيه ولا أراه حرامًا.. وقد يستدل على تخصيص هذه الآية أيضًا بما في صحيح مسلم من حديث عبد اللّه ابن أبي أوفى قال: (غزونا مع رسول اللّه ﷺ سبع غزوات، كنا نأكل الجراد معه)[٣]. وظاهره: أكله كيف ما مات بعلاج أو حتف أنفه، وبهذا قال ابن نافع وابن عبدالحكم وأكثر العلماء، وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما. ومنع مالك وجمهور أصحابه من أكله إن مات حتف أنفه؛ لأنه من صيد البر، ألا ترى أن المحرم يجزئه إذا قتله، فأشبه الغزال. وقال أشهب: إن مات من قطع رجل أو جناح لم يؤكل؛ لأنها حالة قد يعيش بها وينسل..

واختلف العلماء: هل يجوز أن ينتفع بالميتة أو بشيء من النجاسات؟ واختلف عن مالك في ذلك أيضًا، فقال مرة: يجوز الانتفاع بها؛ لأن النبي ﷺ مر على شاة ميمونة فقال: «**هلا أخذتم إهابها**»[٤] الحديث. وقال مرة: جملتها محرم، فلا يجوز الانتفاع بشيء منها، ولا بشيء من النجاسات على وجه من وجوه الانتفاع، حتى لا يجوز أن يسقى الزرع ولا الحيوان الماء النجس، ولا تعلف البهائم النجاسات، ولا تطعم الميتة الكلاب والسباع، وإن أكلتها لم تمنع. ووجه

---

(١) التحرير (٢/ ١١٥). (٢) المائدة: الآية (٩٦).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٥٣) والبخاري (٩/ ٧٧٤/ ٥٤٩٥) ومسلم (٣/ ١٥٤٦/ ١٩٥٢) وأبو داود (٤/ ١٦٤/ ٣٨١٢) والترمذي (٤/ ٢٣٦/ ١٨٢١-١٨٢٢) والنسائي (٧/ ٢٣٩/ ٤٣٦٧) من حديث عبد اللّه بن أبي أوفى.

(٤) أخرجه البخاري (٣/ ٤٥٣/ ١٤٩٢) ومسلم (١/ ٢٧٧/ ٣٦٥) وأبو داود (٤/ ٣٦٦/ ٤١٢١) والنسائي (٧/ ١٩٣-١٩٤/ ٤٢٤٦) وابن ماجه (٢/ ١١٩٣/ ٣٦١٠) من طرق عن ابن عباس.

هذا القول ظاهر قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾[١] ولم يخص وجهًا من وجه، ولا يجوز أن يقال: هذا الخطاب مجمل؛ لأن المجمل ما لا يفهم المراد من ظاهره، وقد فهمت العرب المراد من قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾، وأيضًا فإن النبي ﷺ قال: «**لا تنتفعوا من الميتة بشيء**». وفي حديث عبد اللَّه بن عكيم: «**لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب**»[٢]..

فأما الناقة إذا نحرت، أو البقرة أو الشاة إذا ذبحت، وكان في بطنها جنين ميت فجائز أكله من غير تذكية له في نفسه، إلا أن يخرج حيًّا فيذكى، ويكون له حكم نفسه، وذلك أن الجنين إذا خرج منها بعد الذبح ميتا جرى مجرى العضو من أعضائها. ومما يبين ذلك أنه لو باع الشاة واستثنى ما في بطنها لم يجز، كما لو استثنى عضوا منها، وكان ما في بطنها تابعًا لها كسائر أعضائها. وكذلك لو أعتقها من غير أن يوقع على ما في بطنها عتقا مبتدأ، ولو كان منفصلًا عنها لم يتبعها في بيع ولا عتق. وقد روى جابر رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ سئل عن البقرة والشاة تذبح، والناقة تنحر فيكون في بطنها جنين ميت، فقال: «**إن شئتم فكلوه لأن ذكاته ذكاة أمه**»[٣]»[٤].

وقال: «قوله تعالى: ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ خص اللّه تعالى ذكر اللحم من الخنزير؛ ليدل على تحريم عينه ذُكي أو لم يذك، وليعم الشحم وما هنالك من الغضاريف وغيرها.

أجمعت الأمة على تحريم شحم الخنزير. وقد استدل مالك وأصحابه على أن من حلف ألا يأكل شحما فأكل لحما لم يحنث بأكل اللحم. فإن حلف ألا يأكل لحمًا فأكل شحمًا حنث لأن اللحم مع الشحم يقع عليه اسم اللحم، فقد دخل

---

(١) المائدة: الآية (٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣١٠) وأبو داود (٤/ ٣٧٠-٣٧١/ ٤١٢٧-٤١٢٨) والترمذي (٤/ ١٩٤/ ١٧٢٩) وقال: «حديث حسن». والنسائي (٧/ ١٩٧-١٩٨/ ٤٢٦٠-٤٢٦٢) وابن ماجه (٢/ ١١٩٤/ ٣٦١٣) وصححه ابن حبان (٤/ ٩٣-٩٥/ ١٢٧٧-١٢٧٩).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣١) وأبو داود (٣/ ٢٥٢-٢٥٣/ ٢٨٢٧) والترمذي (٤/ ٦٠/ ١٤٧٦) وقال: «حسن صحيح». وابن ماجه (٢/ ١٠٦٧/ ٣١٤٩) وصححه ابن حبان (١٣/ ٢٠٦-٢٠٧/ ٥٨٨٩) من حديث أبي سعيد.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢١٧-٢١٨).

الشحم في اسم اللحم ولا يدخل اللحم في اسم الشحم. وقد حرم اللّه تعالى لحم الخنزير فناب ذكر لحمه عن شحمه؛ لأنه دخل تحت اسم اللحم»[١].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ الاضطرار لا يخلو أن يكون بإكراه من ظالم أو بجوع في مخمصة. والذي عليه الجمهور من الفقهاء والعلماء في معنى الآية هو من صيّره العدم والغرث وهو الجوع إلى ذلك، وهو الصحيح. وقيل: معناه أُكره وغُلب على أكل هذه المحرمات. قال مجاهد: يعني أكره عليه كالرجل يأخذه العدو فيكرهونه على أكل لحم الخنزير وغيره من معصية اللّه تعالى، إلا أن الإكراه يبيح ذلك إلى آخر الإكراه.

وأما المخمصة فلا يخلو أن تكون دائمة أو لا، فإن كانت دائمة فلا خلاف في جواز الشبع من الميتة، إلا أنه لا يحل له أكلها وهو يجد مال مسلم لا يخاف فيه قطعا، كالتمر المعلق وحريسة الجبَل، ونحو ذلك مما لا قطع فيه ولا أذى. وهذا مما لا اختلاف فيه..

قال أبو عمر: وجملة القول في ذلك: أن المسلم إذا تعين عليه ردّ رمق مهجة المسلم، وتوجه الفرض في ذلك بألا يكون هناك غيره قضي عليه بترميق تلك المهجة الآدمية. وكان للممنوع منه ما له من ذلك محاربة من منعه ومقاتلته، وإن أتى ذلك على نفسه، وذلك عند أهل العلم إذا لم يكن هناك إلا واحد لا غير، فحينئذ يتعين عليه الفرض. فإن كانوا كثيرًا أو جماعة وعددًا كان ذلك عليهم فرضا على الكفاية. والماء في ذلك وغيره مما يرد نفس المسلم ويمسكها سواء. إلا أنهم اختلفوا في وجوب قيمة ذلك الشيء على الذي ردت به مهجته ورمق به نفسه، فأوجبها موجبون، وأباها آخرون، وفي مذهبنا القولان جميعًا. ولا خلاف بين أهل العلم متأخريهم ومتقدميهم في وجوب رد مهجة المسلم عند خوف الذهاب والتلف بالشيء اليسير الذي لا مضرة فيه على صاحبه وفيه البلغة»[٢].

قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ قال الشوكاني: «والمراد هنا: ما ذكر عليه اسم غير اللّه كاللات والعزى، إذا كان الذابح وثنيًا، والنار إذا كان الذابح مجوسيًا. ولا خلاف في تحريم هذا وأمثاله، ومثله ما يقع من المعتقدين للأموات من الذبح

---

(١) الجامع (٢/ ٢٢٢).
(٢) الجامع (٢/ ٢٢٥-٢٢٦).

على قبورهم، فإنه مما أهل به لغير اللَّه، ولا فرق بينه وبين الذبح للوثن»[١].

قال ابن القيم: «ومن أمثلة العدوان: تجاوز ما أبيح من الميتة للضرورة إلى ما لم يبح منها، إما بأن يشبع، وإنما أبيح له سد الرمق، على أحد القولين في مذهب أحمد والشافعي وأبي حنيفة، وأباح مالك له الشبع والتزود إذا احتاج إليه، فإذا استغنى عنها وأكلها واقيًا لماله، وبخلا عن شراء المذكى ونحوه؛ كان تناولها عدوانًا، قال تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال قتادة والحسن: لا يأكلها من غير اضطرار، ولا يعدو شبعه. وقيل: غير باغ؛ غير طالبها وهو يجد غيرها، ولا عاد؛ أي: لا يتعدى ما حد له منها فيأكل حتى يشبع، ولكن سد الرمق. وقال مقاتل: غير مستحل لها ولا متزود منها. وقيل: لا يبغي بتجاوز الحد الذي حد له منها، ولا يتعدى بتقصيره عن تناوله حتى يهلك، فيكون قد تعدى حد اللَّه بمجاوزته أو التقصير عنه فهذا آثم وهذا آثم. وقال مسروق: من اضطر إلى الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل ولم يشرب حتى مات دخل النار، وهذا أصح القولين في الآية»[٢].

قال السعدي: «ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات؛ ذكر تحريم الخبائث فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ وهي: ما مات بغير تذكية شرعية؛ لأن الميتة خبيثة مضرة، لرداءتها في نفسها، ولأن الأغلب، أن تكون عن مرض، فيكون زيادة مرض، واستثنى الشارع من هذا العموم ميتة الجراد، وسمك البحر؛ فإنه حلال طيب.

﴿وَٱلدَّمَ﴾ أي: المسفوح كما قيد في الآية الأخرى. ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: ذبح لغير اللَّه، كالذي يذبح للأصنام والأوثان من الأحجار، والقبور ونحوها، وهذا المذكور غير خاص للمحرمات، جيء به لبيان أجناس الخبائث المدلول عليها بمفهوم قوله: ﴿طَيِّبَٰتِ﴾ فعموم المحرمات، تستفاد من الآية السابقة، من قوله: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ كما تقدم.

وإنما حرم علينا هذه الخبائث ونحوها، لطفا بنا، وتنزيها عن المضر، ومع هذا ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أي: ألجئ إلى المحرم، بجوع وعدم، أو إكراه، ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي:

---

(١) فتح القدير (١/ ٢٥١).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٦٩-٣٧٠).

غير طالب للمحرم، مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: متجاوز الحد في تناول ما أبيح له اضطرارًا، فمن اضطر وهو غير قادر على الحلال، وأكل بقدر الضرورة فلا يزيد عليها، ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ﴾ أي: جناح عليه، وإذا ارتفع الجناح الإثم رجع الأمر إلى ما كان عليه، والإنسان بهذه الحالة، مأمور بالأكل، بل منهي أن يلقي بيده إلى التهلكة، وأن يقتل نفسه. فيجب، إذًا عليه الأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات، فيكون قاتلا لنفسه.

وهذه الإباحة والتوسعة، من رحمته تعالى بعباده، فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. ولما كان الحل مشروطًا بهذين الشرطين، وكان الإنسان في هذه الحالة، ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها؛ أخبر تعالى أنه غفور، فيغفر ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصا وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة. وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة: «الضرورات تبيح المحظورات» فكل محظور، اضطر إليه الإنسان، فقد أباحه له، الملك الرحمن. فله الحمد والشكر، أولا وآخرا، وظاهرا وباطنا»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة من تقييد مطلق القرآن، وتخصيص عمومه، وتفسير مجمله

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال»**[٢].

⋆ فوائد الحديث:

قوله: **«أحلت لنا»**

قال الصنعاني: «يدل على حل ميتة الجراد على أي حال وجدت، فلا يعتبر في

---

(١) التيسير (١/ ٢٠٥-٢٠٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٩٧) وابن ماجه (٢/ ١١٠١-١١٠٢/ ٣٣١٤). وأخرجه البيهقي (١/ ٢٥٤) موقوفا وقال: «هذا إسناد صحيح، وهو في معنى المسند..». ومرفوعا أيضا وقال: «.. إلا أن الصحيح من هذا الحديث هو الأول» يعني الموقوف.

الجراد شيء، سواء مات حتف أنفه أو بسبب.

والحديث حجة على من اشترط موتها بسبب آدمي، أو بقطع رأسها، وإلا حرمت. وكذلك يدل على حل ميتة الحوت على أي صفة وجد، طافيا كان أوغيره لهذا الحديث، وحديث «**الحل ميتته**»[١].

* عن أبي واقد الليثي ﵁ قال: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يجبون أسنمة الإبل ويقطعون أَلَيات الغنم، فقال: «**ما قطع من البهيمة وهي حية فهي ميتة**»[٢].

★ غريب الحديث:

يجبون: الجَبّ بفتح الجيم: القطع.

أسنمة: جمع سنام بفتح السين، وسنام كل شيء أعلاه.

أَلَيات: جمع أَلْية كسجدة وسجدات، وهي: العجيزة، أو ما ركب العجز من شحم ولحم.

★ فوائد الحديث:

قال ابن حزم: «وما قطع من البهيمة وهي حية أو قبل تمام تذكيتها فبان عنها؛ فهو ميتة لا يحل أكله، فإن تمت الذكاة بعد قطع ذلك الشيء أكلت البهيمة، ولم تؤكل تلك القطعة، وهذا ما لا خلاف فيه: لأنها زايلت البهيمة وهي حرام أكلها، فلا تقع عليها ذكاة كانت بعد مفارقتها لما قطعت منه»[٣].

وقال الخطابي ﵀: «هذا في لحم البهيمة وأعضائها المتصلة ببدنها، دون الصوف المستخلف والشعر ونحوه. وكذلك هذا في الكلب يرسله فينتف من الصيد نتفة قبل أن يزهق نفسه، أو تصيبه الرمية فيكسر عنه عضوًا وهو حي؛ فإن ذلك كله محرم؛ لأنه بان من البهيمة وهي حية فصار ميتة، فأما إذا فصده نصفين، فإنه بمنزلة الذكاة له ويؤكلان جميعًا»[٤].

---

(١) سبل السلام (١/ ١٦٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٢١٨) وأبو داود (٣/ ٢٧٧/ ٢٨٥٨) والترمذي (٤/ ٦٢/ ١٤٨٠). وقال: «حسن غريب». وصححه الحاكم (٤/ ٢٣٩) ووافقه الذهبي.

(٣) المحلى (٧/ ٤٤٩).

(٤) المعالم (٤/ ٢٧٢).

وقال شيخ الاسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلو كان الشعر جزءًا من الحيوان؛ لما أبيح أخذه في حال الحياة، فإن النبي ﷺ سئل عن قوم يجبون أسنمة الإبل وأليات الغنم؟ فقال: «**ما أبين من البهيمة وهي حية فهو ميت**» رواه أبو داود وغيره. وهذا متفق عليه بين العلماء، فلو كان حكم الشعر حكم السنام والألية لما جاز قطعه في حال الحياة، ولا كان طاهرًا حلالًا، فلما اتفق العلماء على أن الشعر والصوف إذا جز من الحيوان كان طاهرًا حلالًا؛ علم أنه ليس مثل اللحم»[١].

* عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سأل رجل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**»[٢].

⋆ فوائد الحديث:

قوله ﷺ: «الحل ميتته»

قال الخطابي: «وفيه دليل على أن السمك الطافي حلال، وأنه لا فرق بين ما كان موته في الماء، وبين ما كان موته خارج الماء من حيوانه.

وفيه مستدل لمن ذهب إلى أن حكم جميع أنواع الحيوان التي تسكن البحر -إذا ماتت فيه-؛ الطهارة، وذلك بقضية العموم، إذ لم يستثن نوعا منها دون نوع»[٣].

قال الشوكاني: «فيه دليل على حل جميع حيوانات البحر حتى كلبه وخنزيره وثعبانه، وهو المصحح عند الشافعية»[٤].

* * *

---

(١) الفتاوى (٢١/ ٩٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٧) وأبو داود (١/ ٦٤/ ٨٣) والترمذي (١/ ١٠١/ ٦٩) وقال: «حسن صحيح». والنسائي (١/ ٥٣/ ٥٩) وابن ماجه (١/ ١٣٦/ ٣٨٦).

(٣) المعالم (١/ ٣٨).

(٤) النيل (١/ ١٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم مما تشهد له بالرسالة والنبوة؛ فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم آباءهم؛ فخشوا -لعنهم الله- إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم؛ فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل من ذلك، وهو نزر يسير، فباعوا أنفسهم بذلك، واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن اللَّه بذلك النزر اليسير، فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإن اللَّه أظهر لعباده صدق رسوله بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات، والدلائل القاطعات، فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، وصاروا عونًا له على قتالهم، وباءوا بغضب على غضب، وذمهم اللَّه في كتابه في غير موضع، فمن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهو عرض الحياة الدنيا﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ أي: إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق؛ نارا تأجج في بطونهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾[1] وفي الحديث الصحيح عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**إن الذي يأكل أو يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم**»[2] وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ

---

(١) النساء: الآية (١٠).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٠١) والبخاري (١٠/ ١١٨/ ٥٦٣٤) ومسلم (٣/ ١٦٣٤/ ٢٠٦٥) والنسائي في الكبرى (٤/ ١٩٦/ ٦٨٧٣) وابن ماجه (٢/ ١١٣٠/ ٣٤١٣) من حديث أم سلمة ﵂.

﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم؛ لأنهم كتموا وقد علموا فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم ولا يزكيهم؛ أي: يثني عليهم ويمدحهم، بل يعذبهم عذابًا أليمًا»[1].

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل اللَّه من الكتاب في شأن محمد ﷺ بالخسيس من الرشوة يعْطَوْنها، فيحرّفون لذلك آيات اللَّه ويغيرون معانيها، ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ﴾ بأكلهم ما أكلوا من الرشا على ذلك والجعالة وما أخذوا عليه من الأجر ﴿إِلَّا ٱلنَّارَ﴾، يعني إلا ما يوردهم النار ويصليهموها، كما قال -تعالى ذكره-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ معناه: ما يأكلون في بطونهم إلا ما يوردهم النار بأكلهم. فاستغنى بذكر النار. وفهم السامعين معنى الكلام عن ذكر ما يوردهم أو يدخلهم..

وأما قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يقول: ولا يكلمهم بما يحبون وما يشتهون، فأما بما يسوؤهم ويكرهون؛ فإنه سيكلمهم؛ لأنه قد أخبر -تعالى ذكره- أنه يقول لهم إذا قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[2] الآيتين.

وأما قوله: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ فإنه يعني: ولا يطهرهم من دنس ذنوبهم وكفرهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني موجع»[3].

قال القاسمي: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي من حدوده وأحكامه، وغير ذلك مما أشارت إليه الآية الأولى: بالبينات والهدى، ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ﴾ أي: يأخذون بدله ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: مما يتمتعون به من لذات العاجلة، وقلّله لحقارته في نفسه، ففيه إشعار بدناءة نفوسهم، حيث رضيت بالقليل، أو بالنسبة لما فوّتوه على أنفسهم من نعيم الآخرة، الذي لا يحاط بوصفه ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ أي: ما يستتبع النار ويستلزمها، فكأنه عين النار، وأكله أكلها، و﴿فِى بُطُونِهِمْ﴾ في بطونهم متعلق بـ﴿يَأْكُلُونَ﴾ يأكلون وفائدته: تأكيد الأكل وتقريره

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٣).
(٢) المؤمنون: الآيتان (١٠٧-١٠٨).
(٣) جامع البيان (٢/ ٨٩-٩٠).

ببيان مقرّ المأكول. قال الراغب: أكل النار تناول ما يؤدي إليها، وذكر الأكل لكونه المقصود الأول بتحصيل المال، وذكر في بطونهم تنبيها على شرههم، وتقبيحًا لتضييع أعظم النعم لأجل الطعم الذي هو أخس متناول من الدنيا ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ قال الراغب: لم يعن نفي الكلام رأسًا، فقد قال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1] وقال: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ﴾[2] وإنما أراد كلامًا يقتضي جدوى، ولهذا قال الحسن: معناه يغضب عليهم تنبيهًا أنهم بخلاف من قال فيهم: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ﴾[3]. وقيل: حقيقة كلّمته حملته على الكلام، نحو حرّكته؛ لأن من كلّمته فقد استدعيت كلامه، فكأنه قيل: لا يستدعي كلامهم، نحو قوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[4]. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يطهرهم من دنس الذنوب لغضبه عليهم؛ لأنهم كتموا وقد علموا فاستحقوا الغضب، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم»[5].

قال شيخ الإسلام: «وقد ذم اللَّه في كتابه الذين يكتمون ما أنزل اللَّه من البينات والهدى، وهؤلاء يختارون كتمان ما أنزله الله؛ لأنه معارض لما يقولونه، وفيهم جاء الأثر المعروف عن عمر قال: (إياكم وأصحاب الرأي؛ فإنهم أعداء السنن، أعيتهم السنن أن يحفظوها، وتفلتت منهم أن يعوها، وسئلوا فقالوا في الدين برأيهم) فذكر أنهم أعداء السنن. وبالجملة فكل من أبغض شيئًا من الكتاب والسنة ففيه من عداوة النبي ﷺ بحسب ذلك، وكذلك من أحب ذلك ففيه من الولاية بحسب ذلك»[6].

قال السعدي: «هذا وعيد شديد لمن كتم ما أنزل اللَّه على رسله، من العلم الذي أخذ اللَّه الميثاق على أهله أن يبينوه للناس ولا يكتموه، فمن تعوض عنه بالحطام الدنيوي، ونبذ أمر اللَّه، فـ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ لأن هذا الثمن الذي اكتسبوه، إنما حصل لهم بأقبح المكاسب، وأعظم المحرمات، فكان جزاؤهم من جنس عملهم، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بل قد سخط عليهم وأعرض عنهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي:

---

(١) الأعراف: الآية (٦).
(٢) الكهف: الآية (٥٢).
(٣) الأحزاب: الآية (٤٤).
(٤) المرسلات: الآية (٣٦).
(٥) محاسن التأويل (٣/ ٤٤-٤٥).
(٦) درء التعارض (٥/ ٢١٩).

لا يطهرهم من الأخلاق الرذيلة، وليس لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها، وإنما لم يزكهم لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية التي أعظم أسبابها العمل بكتاب اللَّه، والاهتداء به، والدعوة إليه»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان بعض الذين لا يكلمهم اللَّه ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم اللَّه يوم القيامة ولا يزكيهم** (قال أبو معاوية: **ولا ينظر إليهم**) **ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر**»[٢].

* عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم اللَّه يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم**» قال: فقرأها رسول اللَّه ﷺ ثلاث مرار. قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «**المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**»[٣].

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ثلاث لا يكلمهم اللَّه يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع رجلًا بسلعة بعد العصر فحلف له باللَّه لأخذها بكذا وكذا فصدقه، وهو على غير ذلك. ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها وفى، وإن لم يعطه منها لم يف**»[٤].

★ **غريب الحديث:**

المسبل: هو المرخي إزاره، الجار طرفه خيلاء.

عائل: هو الفقير.

---

(١) التيسير (١/ ٢٠٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٨٠) ومسلم (١/ ١٠٢-١٠٣/ ١٠٧) والنسائي (٥/ ٩١/ ٢٥٧٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٤٨) ومسلم (١/ ١٠٢/ ١٠٦) وأبو داود (٤/ ٣٤٦-٣٤٧/ ٤٠٨٧) والترمذي (٣/ ٥١٦/ ١٢١١) والنسائي (٥/ ٨٥/ ٢٥٦٢) وابن ماجه (٢/ ٧٤٤-٧٤٥/ ٢٢٠٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٣) والبخاري (٥/ ٥٥/ ٢٣٦٩) ومسلم (١/ ١٠٣/ ١٠٨) والنسائي (٧/ ٢٨٣/ ٤٤٧٤) وابن ماجه (٢/ ٧٤٤/ ٢٢٠٧).

★ **فوائد الأحاديث:**

قال القاضي عياض: «خص هؤلاء الثلاثة بأليم العذاب وعقوبة الإبعاد؛ لالتزام كل واحد منهم المعصية التي ذكر على بعدها منه، وعدم ضرورته إليها، وضعف دواعيها عنده، وإن كان لا يعذر أحد بذنب، ولا في معصيته اللَّه تعالى، لكن لما لم تدعهم إلى هذه المعاصي ضرائر مزعجة، ولا دواع معتادة، ولا حملتهم عليها أسباب لازمة؛ أشبه إقدامهم عليها المعاندة، والاستخفاف بحق المعبود، محضا، وقصد معصيته لا لغير معصيته، فإن الشيخ مع كمال عقله، وإعذار اللَّه له في عمره، وكثرة معرفته بطول ما مر عليه من زمنه، وضعف أسباب الجماع، والشهوة للنساء، واختلال دواعيه لذلك، وبرد مزاجه، وإخلاق جديده، وعنده من ذلك ما يريحه من دواعي الحلال في هذا الباب من ذاته، ويخلي سره منه بطبيعته، فكيف بالزنا الحرام؟! إذ دواعي ذلك الكبرى الشباب، وحرارة الغريزة، وقلة المعرفة، وغلبة الشهوة بضعف العقل، وصغر السن.

وكذلك الإمام لا يخشى من أحد من رعيته، ولا يحتاج إلى مداهنته ومصانعته، إذ إنما يداهن الإنسان ويصانع بالكذب وشبهه من يحذره ويخشى معاقبته أو أذاه ومعاتبته أو يطلب عنده بذلك منزلة أو منفعة، فهو غني عن الكذب جملة.

وكذلك العائل الفقير، قد عدم بعدمه المال ولعاعة الدنيا سبب الفخر، والخيلاء، والاستكبار على القرناء، إذ إنما يكون ذلك بأسباب الدنيا، والظهور فيها وحاجات أهلها إليه، فإذا لم يكن عنده أسبابها فلماذا يستكبر ويستحقر غيره؟ فلم يبق إلا أن في استكبار هذا، وكذب الثاني وزنا الثالث، ضربًا من الاستخفاف بحق اللَّه تعالى، ومعاندة نواهيه، وأوامره، وقلة الخوف من وعيده؛ إذ لم يبق ثم حامل لهم على هذا سواه، مع سبق القدر لهم بالشقاء»[1].

قال الطيبي: «والحاصل من المجموع عدم المبالاة بالغير وإيثار نفسه عليه، ولذلك يجازيه اللَّه تعالى بعدم المبالاة والالتفات إليه، كما لوح ﷺ بقوله: «**ثلاثة لا يكلمهم اللَّه يوم القيامة**» إلى آخره. فإن قلت: مرتبة الجزاء أن يؤخر عن الفعل، فلم قدم ذكره في الحديث؟ قلت: ليفخم شأنه ويهول أمر مرتكبيه في خلد السامع، فيذهب بنفسه كل مذهب، ومن ثم قال أبو ذر: خابوا وخسروا من هم؟»[2].

---

(١) إكمال المعلم (١/ ٣٨٣-٣٨٤).

(٢) شرح الطيبي (٧/ ٢١١٧).

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: اعتاضوا عن الهدى، وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه، استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه الضلالة، وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته في كتبهم. ﴿وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ أي اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب، وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة. وقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يخبر تعالى أنهم في عذاب شديد عظيم هائل، يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال؛ عياذًا بالله من ذلك. وقيل: معنى قوله: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي فما أدومهم لعمل المعاصي التي تفضي بهم إلى النار. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾ أي إنما استحقوا هذا العذاب الشديد؛ لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزوا، فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره فخالفوه وكذبوه، وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه ويكتمون صفته، فاستهزؤوا بآيات الله المنزلة على رسله، فلهذا استحقوا العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾»[1].

قال البقاعي: «لما جعل ﷺ أول مأكلهم نارًا، وآخر أمرهم عذابًا، وترجمة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٦٤).

حالهم عدم المغفرة؛ فكان بذلك أيضًا أوسط حالهم نارًا، سبّب عنه التعجيب من أمرهم بحبسهم أنفسهم في ذلك الذي هو معنى الصبر، لالتباسهم بالنار حقيقة، أو بموجباتها من غير مبالاة فقال: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ﴾ أي: ما أشدّ حبسهم أنفسهم، أو ما أجرأهم على النار التي أكلوها في الدنيا، فأحسوا بها في الأخرى»[١].

قال ابن عاشور: «ومعنى اشتراء الضلالة بالهدى في كتمان الكتاب؛ أن كل آية أخفوها أو أفسدوها بالتأويل فقد ارتفع مدلولها المقصود منها، وإذا ارتفع مدلولها نسي العمل بها، فأقدم الناس على ما حذرتهم منه، ففي كتمانهم حقٌّ رفع، وباطل وضع.

ومعنى اشتراء العذاب بالمغفرة؛ أنهم فعلوا ذلك الكتمان عن عمد وعلم بسوء عاقبته، فهم قد رضوا بالعذاب، وإضاعة المغفرة فكأنهم استبدلوا بالمغفرة العذاب..

وقوله: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ تعجيب من شدة صبرهم على عذاب النار، ولما كان شأن التعجيب أن يكون ناشئا عن مشاهدة صبرهم على العذاب، وهذا الصبر غير حاصل في وقت نزول هاته الآية؛ بنى التعجيب على تنزيل غير الواقع منزلة الواقع لشدة استحضار السامع إياه بما وصف به من الصفات الماضية، وهذا من طرق جعل المحقق الحصول في المستقبل بمنزلة الحاصل، ومنه التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، وتنزيل المتخيل منزلة الشاهد»[٢].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما وصف علماء اليهود بكتمان الحق، وعظم في الوعيد عليه؛ وصف ذلك الجرم ليعلم أن ذلك العقاب إنما عظم لهذا الجرم العظيم، واعلم أن الفعل إما أن يعتبر حاله في الدينا أو في الآخرة، أما في الدنيا فأحسن الأشياء الاهتداء والعلم، وأقبح الأشياء الضلال والجهل، فلما تركوا الهدى والعلم في الدنيا، ورضوا بالضلال والجهل؛ فلا شك أنهم في نهاية الخيانة في الدنيا. وأما في الآخرة فأحسن الأشياء المغفرة، وأخسرها العذاب، فلما تركوا المغفرة ورضوا بالعذاب فلا شك أنهم في نهاية الخسارة في الآخرة، وإذا كانت صفتهم على ما ذكرناه؛ كانوا لا محالة أعظم الناس خسارًا في الدنيا وفي الآخرة،

---

(١) نظم الدرر (٢/ ٣٥٣).
(٢) التحرير والتنوير (٢/ ١٢٥).

وإنما حكم تعالى عليهم بأنهم اشتروا العذاب بالمغفرة؛ لأنهم لما كانوا عالمين بما هو الحق، وكانوا عالمين بأن في إظهار وإزالة الشبهة عنه أعظم الثواب، وفي إخفائه وإلقاء الشبهة فيه أعظم العقاب، فلما أقدموا على إخفاء ذلك الحق؛ كانوا بائعين للمغفرة بالعذاب لا محالة»[١].

قال السعدي: «فهؤلاء نبذوا كتاب اللَّه، وأعرضوا عنه، واختاروا الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة، فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النار، فكيف يصبرون عليها، وأنى لهم الجلد عليها؟!

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور، وهو مجازاته بالعدل، ومنعه أسباب الهداية، ممن أباها واختار سواها. ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ ومن الحق، مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. وأيضًا ففي قوله: ﴿نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ ما يدل على أن اللَّه أنزله لهداية خلقه، وتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فمن صرفه عن مقصوده، فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: وإن الذين اختلفوا في الكتاب، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه، والذين حرفوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم ﴿لَفِى شِقَاقٍ﴾ أي: محادة، ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحق لأنهم قد خالفوا الكتاب الذي جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض، فمرج أمرهم، وكثر شقاقهم، وترتب على ذلك افتراقهم، بخلاف أهل الكتاب الذين آمنوا به، وحكموه في كل شيء، فإنهم اتفقوا وارتفقوا بالمحبة والاجتماع عليه.

وقد تضمنت هذه الآيات، الوعيد للكاتمين لما أنزل اللَّه، المؤثرين عليه، عرض الدنيا بالعذاب والسخط، وأن اللَّه لا يطهرهم بالتوفيق، ولا بالمغفرة، وذكر السبب في ذلك وهو إيثارهم الضلالة على الهدى، فترتب على ذلك اختيار العذاب على المغفرة، ثم توجع لهم بشدة صبرهم على النار، لعملهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة إليها، وأن الكتاب مشتمل على الحق الموجب للاتفاق عليه، وعدم الافتراق، وأن كل من خالفه، فهو في غاية البعد عن الحق، والمنازعة والمخاصمة، واللَّه أعلم»[٢].

---

(١) تفسير الفخر الرازي (٥/ ٣١-٣٢).

(٢) التيسير (١/ ٢٠٧-٢٠٩).

فهرس الموضوعات

سورة البقرة

* * *